سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى

٣

السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني

تأليف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق

مؤسسة الرسالة

سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى (٣)

السيرة النبوية والدعوة
في العهد المدني

تأليف
أ.د/ أحمد أحمد غلوش
عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق
جامعة الأزهر

مؤسسة الرسالة
ناشرون

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ وَالدَّعْوَةُ

فِي العَهْدِ المَدَنِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

غاية في كلمة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م

مؤسسة الرسالة

للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة شارع حبيب أبي شهلا بناء المسكن

هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢

فاكس: ٨١٨٦١٥ (٩٦١١)

ص.ب: ١١٧٤٦٠

بيروت - لبنان

Resalah Publishers

Tel: 319039 - 815112

Fax: (9611) 818615

P.O.Box: 117460

Beirut - Lebanon

Email: resalah@resalah.com

Web Location: Http://www.resalah.com

رقم الإيداع ٢٠٠٤/١٣٨٢٦

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 17 - 1574 - 7

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ؛؛

فلقد توقفت مع الكتاب الثاني في سلسة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى عند بيعة العقبة الثانية ، على أمل أن يبدأ الكتاب الثالث بالهجرة إلى المدينة المنورة لأنها البداية العملية للعهد المدني .

لقد بدأ رسول الله ﷺ بعد الهجرة مباشرة في وضع أسس الدولة الإسلامية الشامخة في المدينة المنورة واستمر ﷺ يتلقى الوحي المناسب للمرحلة ، فلم يعد الوحي قاصراً على العقيدة فقط ، بل تناولها مع الشريعة والأخلاق ، ولم يستمر أمر الله لهم بـ ﴿ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ ﴾ [1] وإنما تحول إلى أن أمرهم بالجهاد فقال سبحانه ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [2].

إن العقيدة الدينية أصبحت راسخة في قلوب المؤمنين رسوخاً ثابتاً لا يقبل الإزاحة أو التغيير ، وهي في رسوخها وثباتها تجعل المسلم يعيش بها ، ويعمل لها ، ولا يقبل معها أي مخالفة ، أو تقصير ،أو إهمال.

إن العقيدة الإيمانية جعلت المهاجرين يتركون كل شئ في مكة ، ويرحلون إلى المدينة ﴿ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا ﴾ [3] وجعلت المسلمين الأنصار أهل المدينة

---

(١) سورة النساء الآية ٧٧

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠

(٣) سورة الحشر الآية ٨

يتركـــون حظـــوظ الـــنفس والهـــوى، و﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1].

لقد صنعت العقيدة الدينية الجماعة المسلمة صافية فى توحيدها ، وتوحدها ، وتوجهها وجعلت المؤمنين عبيداً خاشعين لله، يرون فى مكة قبل الهجرة سعادهم فى الطاعة، ويقصرون آمالهم فى رضى الله ، ويرجون سعادة حقيقية يعيشونها فى الدنيا مع الناس ، ويتمتعون بها فى الآخرة عند الله

فلما هاجروا إلى المدينة المنورة إحتاجوا إلى الشريعة تنير لهم الطريق ، وتعـــرفهم بمراد الله تعالى ، وتطلعهم على أوامره ونواهيه، ليعيشوا فى إطار المشروعية الدينية الصحيحة وليكون عملهم وخلقهم متوازناً مع إيمانهم وعقيدهم ، وليكونوا سوياً مجتمـــع الحـــب ، والتسامح ، والتآلف .

لقد عاش الرسول " ﷺ " فى المدينة المنورة بعد الهجرة والمسلمون معه الإسلام كله و لم ينتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن نزل عليه قول الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[2].

إن سيرة الرسول " ﷺ " فى المدينة المنورة تختلف عن سيرته " ﷺ " فى مكة مـــن ناحية أحداثها ، ووقائعها ، وحركتها ، وإن اتفقت فى أنها جميعاً كانت فى مجال الدعوة إلى الله تعالى .

فى مكة عاش " ﷺ " بعيداً عن الوحى حتى بلغ سن الأربعين ! وكان الله معـــه ، يرعاه ويصنعه للرسالة فهيأ له التربية الصحيحة ، وأبعده عن مزالق الهوى، و أحاطـــه بخوارق العادات فى صورة إرهاصات ، ومبشرات، وعلامات ... كما أنه " ﷺ " عاش بعد البعثة فترة الرسالة فى مكة وسط قلة من المؤمنين مستضعفة أمـــام ظلـــم الكفـــرة وعدوانهم ، وكثيراً ما عانت ، وتحملت ، وصبرت ، وتمسكت بدينها الذى آمنت به . أما فى المدينة المنورة فقد عاش النبى ﷺ والمســـلمون معه حياة القوة العادلة ، وســـط

---

(١) سورة الحشر الآية ٩

(٢) سورة المائدة الآية ٣

كثرة من المؤمنين تمثل أمة الإسلام الوليدة بمزاياها ومحاسنها مع استمرار تتــابع نــزول الوحى لتوضيح الطريق،وتحديد معالم النجاح .

لقد احتاج المسلمون فى مكة إلى عقيدة تربطهم بــالله ، وتؤملــهم فى الجنــة ، وتدفعهم إلى الصبر والتحمل .. وهذا يكفيهم ، وقد تم لهم ذلك مع شئ من التوجيهات الخلقية التى لابد منها للإنسان المسلم .

أما فى المدينة المنورة فقد أصبح المسلمون فى حاجة إلى الشريعة لتأكيد اعتقــادهم الراسخ ، وكان لابد لهم من فقه أحكام الحياة، التى أخذت تتترل عليهم تبعاً للأحــداث وكانوا رضوان الله عليهم يسألون رسول الله ﷺ لأنهم يريدون أن تخضع جــوارحهم لله مثل ما آمنت قلوبهم ... ولذلك نراهم يرجعون لرسول الله ﷺ فى كل مالا حكم لله فيه يوضح القرآن الكريم ذلك فى آيات عديدة حيث يقول الله تعالى :

* ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

* ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢)

* ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ (٣).

* ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ

---

(١) سورة البقرة الآية (٢١٩)

(٢) سورة البقرة الآية (٢٢٠)

(٣) سورة النساء الآية (١٢٧) .

بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [(١)] .

وهكذا كانت حياة المسلمين فى المدينة ..

ومعهم كانت حياة رسول الله " ﷺ " .

لقد كان الله رءوفاً بهؤلاء الصفوة ، وكان معهم يمدهم بشريعته ، ويفصل لهم أحكامها ويوضح مزاياها وفوائدها ، ويركز على ضرورة التهيؤ للعمل بها ، وربطها بسائر أركان الإسلام ، لأنها جميعاً تنتج الدين بكماله ، وتمامه [(٢)] .

لقد كان المسلمون فى مكة يبحثون عن أمن ييسر لهم العبودية ، ويرجون استقراراً يمكنهم من العمل لله بين أهليهم وأقوامهم ، لكن هذا الأمل لم يتحقق وهم فى مكة فهاجروا إلى الحبشة ، وبعدها كانت الهجرة إلى المدينة المنورة حتى أصبحوا آمنين فى حياتهم ، وعباداتهم ، وتوجههم لله رب العالمين ، فحملوا الأمانة مع رسول الله " ﷺ " وصاروا مسئولين عن نشر الإسلام ، وتبليغه إلى كل مكان استطاعوا أن يصلوا إليه وإلى أي إنسان يمكنهم تبليغه ودعوته وفق منهج الله للوصول إلى الغايات المحددة بواسطة وحي الله تعالى.

وعاش رسول الله " ﷺ " متحركاً بالدعوة ، ومبلغاً لدين الله تعالى ، وأخذ الإسلام يظهر فى قوله ﷺ بلاغاً ودعوة ، وفى عمله سلوكاً وعملاً ، وفى قلبه صدقاً وانفعالاً ، وفى أخلاقه مودة ورحمة ، ومع الناس حياة وحضارة وعزا .

وشارك المسلمون فى المدينة رسول الله ﷺ فى العمل بالإسلام وللإسلام حتى تم

---

(١) سورة الأنفال لآية (١) .

(٢) يظهر هذا الربط بين موضوع السؤال والإسلام حين ننظر فى الآيات لنرى الأمر حين كان السؤال عن الأنفال كانت الإجابة بأنها لله والرسول ، وبعدها أمرهم بتقوى الله ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول فى كل أمر ونهى لأن ذلك دلالة الإيمان .

وحين كان السؤال عن اليتامى كانت الإجابة فى أن الإصلاح لهم هو الخير المطلوب ، ثم أرشدهم إلى ضرورة مخالطتهم للتعليم والتأسى ، وضرورة معاملتهم بالصلاح حتى لا يؤاخذهم الله على تقصيرهم معهم ...

وهكذا سائر التساؤلات حيث نرى فيها الإجابة المطلوبة ، ومعها إرشادات وتوجيهات تؤكد شمول النظرة الإسلامية لكافة جوانب الحياة .

النصر ودخل الناس فى دين الله تعالى .

ومن هنا

اختلط الجانب الشخصي لرسول الله " ﷺ " فى المدينة المنورة مع حركته بالدعوة اختلاطاً بيناً ، حتى أصبح الفصل بينهما أمراً شاقاً ، لأن كل جزئية فى حياة رسول الله صارت دليلاً شرعياً يبحث عنه المسلمون ويتأسون به ، ولا يمكن استثناء شئ من حياته ﷺ إلا ما ذكره ﷺ ونبه عليه ، وأعلم أصحابه بأنه من خصوصياته ﷺ .

وحيث أن حبي لرسول الله " ﷺ " يجعلني أعيش مع سيرته " ﷺ " فى إطارها الذاتي كما فعلت معه فى العهد المكي، فإني أجد نفسي مع هذا المنهج أكتب **أولاً** عن سيرة رسول الله " ﷺ " فى المدينة ، **وبعد ذلك** أكتب عن حركة الرسول بالدعوة ، لأنتهي بعد ذلك إلى الكتابة عن أهم ركائز الدعوة المستفادة من العهد المدنى .

إني على يقين من أن السيرة النبوية فى العهد المدنى، الذي يبدأ بالهجرة ويستمر حتى وفاة رسول الله ﷺ اختلطت اختلاطاً كاملاً بحياة المسلمين العامةوعاشت حركة فى نشاط الجماعة المؤمنة ، لأن الرسول لم يعش لنفسه ، وإنما عاش لله بكل مشاعره وعناصره كما أمره الله تعالى ، وكما عرفه ﷺ لأصحابه ﷺ بقوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١) .

ولذلك أجد نفسي أمام تصور لدراسة العهد المدنى ، تتضمن السيرة النبوية والدعوة ، مشتملة على ما يلي :

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٦١-١٦٤)

أولاً : تمهيد يعرف بالمدينة المنورة ، وبمن كان يسكنها وبأهم الأديان والاتجاهات الدينية بها قبيل الهجرة ،وبمدى ملائمتها لإنطلاقة الدعوة إلى الله تعالى.

ثانياً : فصل يقدم أحداث السيرة النبوية متتابعة ، بدءاً من الهجرة حتى وفاة رسول الله " ﷺ " مع الاهتمام بالجانب الذاتى لرسول الله ﷺ بقدر الإمكان لشدة ارتباط سيرة الرسول " ﷺ " بحركته فى تبليغ الدعوة .

ثالثاً : فصل يوضح حركة الرسول " ﷺ " بالدعوة ، وهذه الحركة وإن كانت جزءاً من السيرة إلا أن تأثيرها فى حركة الإسلام وانفعال المسلمين بها ، وترسيخها لمبادئ الإسلام وقيمه ، جعلتنى أدرسها فى إطار حركة الرسول بالدعوة .
وسيشتمل هذا الفصل على عدد من المباحث تتضمن تأسيس دولة الإسلام فى المدينة وتعداد السرايا والغزاوات ، وبيان الرسائل والوفود . وتفصيل كل ما كان لـه دور فى حركة تبليغ الإسلام حتى وفاة رسول الله ﷺ .

رابعاً : فصل أوضح فيه الركائز المستفادة من سيرة رسول الله " ﷺ " ، وحركته بالدعوة ، لتكون زاداً لكل مخلص يحب دينه ، ويقدر أمانة الله ، ويعمل على إبراز الإسلام نقياً صافياً ، ويبلغه لغيره من الناس مستفيداً بما تركه رسول الله ﷺ فى مجال الدعوة إلى الله تعالى .

وبهذا التصور سيأتي الحديث عن العهد المدنى مكوناً من تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ، وبها تكمل الدراسة بإذن الله تعالى .

إن العهد المدنى يتضمن حوادث الإسلام العظمى ، التي هي أساس التشريع ، ودعامة الحياة الإسلامية على طول الزمن إلى يوم القيامة ، فلقد شرعت العبادات فى العهد المدنى ، وتابع رسول الله " ﷺ " صحابته والمسلمين بالتوجيه وبيان الأحكام ، وفيها كان خطاب الدعوة لكل فئات البشر على اختلاف أديانهم ، وثقافتهم ، وحضاراتهم .

وفى العهد المدنى أذن الله بالجهاد ، وأمر به ، وفصل فى أحكامه ، وبين الآثار المترتبة عليه .

ونزلت أحكام سائر المعاملات ، والأحوال الشخصية ، وأحكام الميلاد ، والموت ، وكافة نظم الحياة .

وتحددت سمة المجتمع المسلم ، وطريقته فى التعامل مع أتباعهم ، وغيرهم ، على اختلاف مذاهبهم ، واتجاههم ، ومواطنهم .

إن دراسة العهد المدنى طويلة عميقة ، وتحتاج إلى القراءة الواسعة والتأمل الواعي ، والاستنباط القائم على العلم والفهم ... وهذا ما سأحاوله معتمداً على الله تعالى ، مؤملاً فى توفيقه ، وبخاصة أن مقصدي إبراز الإسلام جلياً ، نقياً، وإظهار المسلمين فى مجتمعهم العظيم ، الذي نباهى به الدنيا على الزمن كله ، ونرجوه مرة أخرى ليعود المسلمون إلى مجدهم وعزهم فى وقت كثرت فيه معاول النقد ، وتعددت طرق الهجوم على الإسلام .

إن المجتمع الذي أقامه الرسول " ﷺ " فى المدينة ــ مع مثاليته ــ يتهمه الحاقدون بالتخلف ، والرجعية ، والعدوانية ، ويفضلون عليه مجتمع الاختلاط ، والعرى ، وبروز الفوضى ، والخلق الرديء ، مع محاولة إلباسه أثواباً لا تليق به ، بدعوى التجديد ، والتنوير ،والنهضة بطرق ملتوية لا تبغى إلا الهدم والفساد .

والعقيدة التي عاشها المسلمون الأوائل كانت يقيناً يتحكم فى عملهم ، و شريعة تنظم سلوكهم وخلقاً يحمل جوانب الحياة .

هذه العقيدة التى صنعت الجماعة الأولى معرضة اليوم لفصلها عن حركة الحياة بدعوى أنها الدين ، وليست هي الدنيا

والشريعة الشاملة التي حكمت الحياة الإسلامية الأولى بعمل الأعداء على أن يستبدل بها قانون البشر رغم تناقضه ، وقصوره .

وها هي الأخلاق الإسلامية تغيب عن واقع الحياة حتى لا نراها إلا نادراً بين الناس مع أن الحياة بها تكون جميلة ،وسلسة ،وطيبة.

من كان يتصور أن عاقلاً من الناس يرى البغاء حرية ، وانتهاك الحرمات حضارة والإفساد فى الأرض باسم التنوير ، والحداثة تقدماً ، والتمتع المحرم أموراً شخصية للإنسان أن يفعلها ، ويعيش بها متى أراد !!! .

ومن كان يتصور الزواج المثلى ، والشذوذ الجنسى يبرز فى العلن ... بل ويحميه تشريع وقانون !!

ومن كان يتصور أن الاستعداد لرد الظلم ، وحماية الحقوق يصير إرهاباً ، وعدواناً .

إن مجتمع المسلمين المعاصر بعد كثيراً عن طريق الله حتى أصبح الدين غريباً فيه ، غائباً عنه، وتمكن أعداء الدين من تشويه بعض حقائقه ، وإلحاق التهم الباطلة بالمتمسكين به ، مستغلين غيبة تعاليم الله عن الناس .

ويتساءل المرء .

من الذى غيب الدين عن الناس ؟

ومن الذى أبعدهم عن فهم حقائقه ؟

ومن الذى أغرقهم فى الماديات الباطلة ؟

ويدرك الفاهم المدقق أن من فعل ذلك هو الذى يشوه ويتهم !!

إنه يرتكب الجريمة ... ويسأل عن فاعليها !! ويتهم غيره !!

إن الإسلام يحتاج إلى رجال ، والدعوة تحتاج إلى من يقوم بها وفق منهجية عصرية ، تفهم الدين ، وتخاطب الناس ، وتتعامل مع الواقع لتسمو به وترتقى .

إن أملى الذي أرجوه من دراسة السيرة والدعوة فى العهد المدنى التصدي لمحاولات الهدم،ونقض التشكيك ، ورد كافة ألوان الزيف ، مهما كان مصدرها ، و أياً كان قائلها راجياً الوصول إلى ما يلي : ـــ

أولاً : الإحاطة بالسيرة النبوية بصورها الشاملة لمعرفة الجوانب الشخصية لرسول الله " ﷺ " كهجرته ، ومسكنه ، وزواجه ، وعنايته بأولاده ، وسفره ، وإقامته ... وأيضاً لمعرفة الجوانب الدعوية العامة التي باشر رسول الله "ﷺ" خلالها تعليم الناس ، وتبليغهم دين الله تعالى .

ثانياً : اكتشاف حياة المسلمين الأوائل ، ومعرفة أنشطتهم ، ومدى مساهمتهم فى نصر دين الله تعالى بياناً لمناط الأسوة ، و إظهاراً لجوانب القدوة والريادة.

ثالثاً : بيان صور المواجهة التي تمت بين المسلمين وبين أعدائهم من المنافقين واليهود والكفار ، لإظهار مدى ملازمة الدعوة للحسن فى التوجيه،والصدق فى الطلب ، وتقدير الإنسان بصورة عامة ، وتوضيح أن الجهاد الإسلامى هو نصير العدل والحق والكرامة .

رابعاً : توضيح حركة النبي " ﷺ " بالدعوة لبيان ما فيها من منهج شامل لكل جوانب الدعوة ، وأركانها ، واستنباط الفوائد التي يمكن الاستفادة بها فى العصر الحديث

وسوف اعتمد على المصادر الصحيحة لهذه المرحلة ، وعلى رأسها القرآن الكريم الذي صور هذه المرحلة ، وقدم تفصيلات عديدة للعهد المدنى حتى قال بعضهم : إن القرآن الكريم هو الصحيفة اليومية المصورة للمسلمين فى المدينة المنورة ، تعيش حياتهم ، وترشدهم للتي هي أقوم ، وتعرفهم بخفايا النفوس ، وتكشف طبائع الناس ، وتحذرهم من مزالق الهوى ، ومكائد الأعداء ، من الجنة والناس ،وتعرفهم بحكم الله كلما جد أمر أو وقع حدث ،أو دعت الحاجة إليه .

لقد كان القرآن الكريم يتزل منجماً حسب الوقائع والأحداث ، ثم كان جمعه وسيلة بينة لتقويم الصورة الإسلامية بتمامها وكمالها ، ومثاليتها ، وواقعيتها ، لتبقى أسوة للناس ، وقدوة للعالمين .

ومع القرآن الكريم تكون السنة شارحه ، ومبينة ، ومصدراً لهذه الحقبة الزمنية الرائدة .

ومن فضل الله تعالى أن مدة البعثة النبوية فى مكة والمدينة نالت اهتمام أصحاب رسول الله " ﷺ " ، والسلف الصالح من بعدهم ، حيث وجد الرواة ، والمحدثون ، والمفسرون، والفقهاء ، وغيرهم يبذلون الجهد من أجل صيانة التراث الإسلامي كله ، وبذلك كان حفظ أحداث مرحلة البعثة النبوية ، وأحداث تاريخ الدعوة إلى الله تعالى .

إن معايشة مصادر هذه المرحلة تحتاج إلى العقل والفهم ، والتحليل والاستنباط ، وقوة الوعي وسرعة الإدراك ، حتى لا يقع صاحب هذه المعايشة فى الإسرائيليات ، والأكاذيب التى وضعها أعداء الإسلام مع شروح المصادر الإسلامية ...

إن كثيراً من علماء العصر الحديث شغلوا أنفسهم بتنقية مرويات العصر النبوي من الدخيل فيه ، وبذلك أسدوا للمسلمين معروفاً حسناً يتمكنون به من الوقوف على الحق والحقيقة .

ولسوف أستعين بكل ما بذله المخلصون مع السيرة والدعوة – قدامى ومحدثين ـــ لأسجل الحقيقة آلتي أرجوها ، وأعيش الحق الذى أعمل له ، وأضع أمام المسلم المعاصر المعالم الواضحة التى تحقق الأمن ، والسلام ، وتنشر السعادة ، والرضى فى الناس أجمعين، استنباطاً من عصر النبى الكريم " ﷺ " .

ومع كل ما أرجوه فإنى أشير إلى العلم الذى أكتب فيه وأذكر به ، وهو تـــاريخ الدعوة إلى الله تعالى فى إطار مرحلة زمنية محددة ، مع الاستفادة بكل دراســـة جـــادة توصلنى إلى ما أتنماه وأرجوه .

والأمل الكبير فى أن يمدني الله بسداد الفكر ، ودقة الترتيب ، وتحقيق الهدف ، وأن يفتح أمام هذه الدراسة القلوب والعقول ، وأن يجعلها فى طريقها المنشود مصـــدر هداية ورشاد ، ووسيلة للدعوة ، والبيان .

إن تعلقى برسول الله " ﷺ " حياةٌ .

وخدمتى للإسلام غاية .

وتوجهى لهداية الناس أمنية .

والتزامى بالصدق ، والأمانة ، والموضوعية دين وعقيدة .

إن الله سبحانه وتعالى هو مصدر الأمل والرجاء ، وإليه قصدى وتوجهى ..وله حياتى ومماتى ، وعليه توكلى واعتمادى .

وهو حسبى .. ونعم الوكيل .

المؤلف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

مدينة نصر فى غرة جمادى الأولى عام ١٤٢٥هـــ

١٩/٦/٢٠٠٤م

التمهيد

التعريف بالمدينة المنورة

(دار الهجرة)

وبيان أهميتها للدعوة

المدينة المنورة

المدينة المنورة هى مهجر النبى " ﷺ " ، ومأوى المسلمين ، وكهف الإسـلام وأساس الدولة الإسلامية ، ومنها انطلق الإسلام إلى العالم كله ، وبوصول المهاجرين إليها بدأت الحركة بالإسلام تأخذ شكلاً شمولياً لأركان الدين ، ولسائر الناس فى كل أرض الله تعالى معتمدة على جهود المهاجرين والأنصار بقيادة رسول الله ﷺ .

والتعريف بالمدينة يحتاج إلى بيان النقاط التالية :

- ١ -

أسماء المدينة المنورة وفضلها

عرفت المدينة المنورة قبل الإسلام باسم " يثرب " ... ويقال إن الأرض التى أقيمت عليها المدينة هى المسماة بهذا الإسم ، وقيل إنه اسم كل من سكنها (١) .

وحيث أن هذا الاسم يتضمن معنى سيئاً لأن يثرب مشتق من التَّثرِيْب أو الثَّربَ ومعنى كل منهما الإفساد ، والتغيير ، واللوم ، والتعنيف ، والعقوبة ، والجزاء فقد تغير اسمها فى الإسلام إلى ما يدل على الخير والبركة ، والنور ، والطهر ، وصارت تسمى بأسماء كثيرة .

من هذه الأسماء **المدينة المنورة** بهجرة النبى ﷺ إليها .

ومن أسمائها **المدينة** ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ (٢)

ويقول سبحانه : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ (٣) .

ومنها طابة ، يقول النبى " ﷺ " **حينما أشرف على المدينة عند عودته من تبوك (هذه طابة)** (٤).

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ٣ صـ٤١٤

(٢) التوبة الآية (١٠١) .

(٣) المنافقون الآية (٨) .

(٤) صحيح البخارى كتاب الحج باب المدينة طابة جـ٣ صـ٢٧٥ طـ الأوقاف .

ومنها " طيبة " يقول النبى " ﷺ " (**إنها طيبة**)[١].

ولها أسماء أخر أشهرها **الإيمان ، والجائرة ، والمنورة ، والمحبوبة ، والقاصمة ، والبارة ، والحرم ، والخيرة** ، ... وقد عد صاحب السيرة الشامية للمدينة خمسة وتسعين اسماً [٢].

وأسماء المدينة فى الإسلام مشتقة من صفاتها ، وخصائصها ... ونظراً لانتفاء صفاتها الجاهلية فإنه يكره شرعاً تسميتها بما كان لها فى الجاهلية من أسماء وعلى رأسها يثرب .

روى الإمام أحمد ومالك والشيخان عن أبى هريرة " ﷺ " أن رسول الله ﷺ قال : (**أمرت بقرية تأكل القرى يقولون : يثرب ، وهى المدينة ، تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد**)[٣] . ويقول النبى " ﷺ " : (**من سمى المدينة بيثرب فليستغفر الله ، هى طابة ، هى طابة ، هى طابة**) [٤] .

وقد التزم السلف أسماءها الجديدة و كرهوا تسميتها بيثرب، يقول ابن عباس ﷺ :

(**من قال يثرب فليستغفر الله ثلاث مرات**) [٥] .

ويقول عيسى بن دينار : (**من سمى المدينة يثرب كتبت عليه خطيئة**)[٦] .

وبهذا جزم العلامة كمال الدميرى ، ونظم رأيه شعراً فقال :

ومن دعاها يثرباً يستغفر　　　فقوله خطيئة لتنظر

وسبب الكراهة ما فى كلمة يثرب من دلاله على السوء أيا كان اشتقاقها فإن كان اشتقاقها من الثرب فمعناها الفساد ، وإن كان اشتقاقها من التثريب فمعناها العقوبة ، والمؤاخذة بالذنب ، وكلا المعنيين لا يليق بالمدينة ، وكان " ﷺ " يحب الاسم الحسن دائماً ، ولذلك سماها طابة ، وطيبة وأقر سائر أسمائها الحسنة .

---

(١) صحيح البخارى جـ٣ صـ٢٧٤ طـ الأوقاف .

(٢) انظر سبيل الهدى والرشاد جـ٣ صـ٤١٤-٤٢٧ .

(٣) صحيح البخارى كتاب الحج جـ٣ صـ٢٧٤ .

(٤) الكشف الإلهى للطرابلسى ، وفى صحيح البخارى " هى طابة " جـ١ صـ٢٧٥

(٥) الفوائد المجموعة للشوكانى ، الدرر جـ٥ صـ١٨٨

(٦) سبل الهدى والرشاد جـ٣ صـ٤٢٧ .

وأما تسميتها فى القرآن بيثرب ، فهو حكاية قــول المنافقين فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾(١) .

وحكاية قول المنافقين تثبت الكراهة ، ولا تفيد الإباحة لأنهم ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ (٢) فقول المنافق سوء كصاحبه .

وأما قوله " ﷺ " وهو يشير إلى أصحابه عن دار هجرتهم بعد ما رآها مناماً حين قال لهم : " **رأيت فى المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلى إلى اليمامة أو هجر فإذا هى يثرب المدينة** " (٣) وقال لهم : " **لا أراها إلا يثرب** " (٤) فليس دليلاً على عدم الكراهة ، لأن النبى " ﷺ " قال ذلك تعريفاً بها لأصحابه وهم فى مكــة ولأنهم لم يعهــدوا لها قبل الإسلام اسماً غير " يثرب " ، ولم يكن نزل نهى عن هذه التسمية بعد ، فلما نزل النهى بينه النبى ﷺ لأصحابه ليتركوه فتركوه .

وكان النبى ﷺ يحب المدينة ، ويحب أهلها ، فعن أنس بن مالك ﷺ : **أن رسول الله " ﷺ " كان إذا قدم من سفر ينظر إلى جدر المدينة المنورة ، ويطرح رداءه** ويقول: (**هذه أرواح طيبة**) (٥) ويحث راحلته على سرعة السير نحوها حباً وسروراً بالمدينة ، وأهلها ... وكثيراً ما كان ينادى ربه : (**اللهم اجعل لنا بالمدينة قراراً ، ورزقاً حسناً**)(٦) ومن دعائه " ﷺ " للمدينة ما رواه أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يدعو ويقول : (**اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلت بمكة من البركة**) (٧) .

وعن عبد الله بن زيد " ﷺ " أن رسول الله " ﷺ " قال : (**إن إبراهيم حــرم مكة ودعا لأهلها ، وإنى حرمت المدينة ودعوت لها فى مدها وصاعها مثل ما دعا**

---

(١) سورة الأحزاب آية ١٣ .

(٢) سورة المنافقون آية (٤) .

(٣) صحيح البخارى كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبى ﷺ جــ٦ صــ٢٠٣ والوهل الظن .

(٤) سبل الهدى والرشاد جــ٣ صــ٤٣٤ .

(٥) صحيح البخارى كتاب الحج جــ٣ صــ٢٨٣ .

(٦) سبل الهدى والرشاد جــ٣ صــ٤٣٠ .

(٧) صحيح البخارى كتاب الحج جــ٣ صــ٢٨٢ .

إبراهيم لمكة) (١) .

وعن عبد الله بن الفضل بن العباس ﷺ أنه قال : قال رسول الله " ﷺ " **(أدعوك لأهل المدينة بمثل مكة)** (٢) .

ويقول ﷺ : " **إنى أحرم ما بين لابتى المدينة ، أن يقطع عضاها ، أو يقتل صيدها** " وقال ﷺ : " **المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه ، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة** " (٣)

ويروى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : "**اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراماً ، وإنى حرمت المدينة حراماً ما بين مأزميها أن لا يهراق فيها دم ولا يحمل فيها سلاح لقتال ، ولا تخبط فيها شجرة إلا لعلف ، اللهم بارك لنا فى مدينتنا ، اللهم بارك لنا فى صاعنا ، اللهم بارك لنا فى مدنا ، اللهم بارك لنا فى صاعنا ، اللهم بارك لنا فى مدنا ، اللهم بارك لنا فى مدينتنا ، اللهم اجعل مع البركة بركتين ، والذى نفسى بيده ما من المدينة شعب ولا نقب إلا عليه ملكان يحرسانها حتى تقدموا إليها** " (٤)

وعن على بن أبى طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : "**اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك دعا لأهل مكة بالبركة وأنا محمد عبدك ورسولك ، وأنا أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى صاعهم ومدهم ، مثلما باركت لأهل مكة ، واجعل مع البركة بركتين** " (٥)

وعن أبى هريرة ﷺ قال : **كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبى**

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى فضل المدينة جـ٩ صـ١٣٥ .

(٢) صحيح مسلم باب فضل المدينة جـ٩ صـ١٤٦ .

(٣) صحيح مسلم باب فضل المدينة جـ٩ صـ١٣٦ .

(٤) صحيح مسلم باب فضل المدينة جـ٩ صـ١٤٧ ، ١٤٨ والمأزم بكسر الزاى الجبل أو المضيق بين جبلين ، والمراد به هنا الجبل.

(٥) سنن الترمذى بشرح تحفة الأحوذى باب فضل المدينة جـ١٠ صـ٢٨٤ .

ﷺ فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال : اللهم بارك لنا فى ثمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ، وبارك لنا فى مدنا ، اللهـــم إن إبراهيم عبدك ، وخليلك ، ونبيك وإنه دعاك لمكة ، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه [١].

وقد اتفق العلماء على تفضيل مكة والمدينة على سائر المدن والقرى ، إلا أنهم اختلفوا فى التفاضل بينهما ، فذهب عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " ، وبعض الصحابة ، وأكثر المدنيين إلى تفضيل المدينة وهو مذهب الإمـــام مالك ، وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد مستدلين بما يلى : ـــ

١- يقول الله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [٢] والمخرج الصدق هو مكة ، والمدخل الصدق هو المدينة ، والسلطان النصير هم الأنصار ، وقد بدأت الآية بالمدخل ، وهو المدينة لأفضليتها يقول ابن عبد البر (وفيه دليل واضح على تفضيل المدينة ، لأن الله ابتدأ بها ، وكان القياس أن يبتدئ بمكة ، لأنه خرج منها قبل أن يدخل المدينة ، وأيضاً قد جعل الله لرسوله ﷺ سلطاناً نصيراً فى المدينة و لم يجعله بمكة ، ويأبى الله تعالى بكرمه إلا أن ينقل نبيه إلا إلى ما هو خير) [٣] .

٢) يقول النبى " ﷺ " : (**اللهـــم إنك أخرجتنى من أحب البلاد إلى فاســـكنى أحب البلاد إليك**) [٤] ففى هذا الحديث تصريح بأن المدينة أحب البلاد إلى الله تعالى ، وذلك يدل على أفضليتها .

٣ـــ ذهب العلماء إلى أن الإنسان يدفن فى التربة التى خلق منها .

فلقد مر النبى ﷺ على قبر **فسأل : قبر من هذا ؟**

قالوا : قبر فلان الحبشى يا رسول الله .

---

(١) صحيح مسلم باب فضل المدينة جـــ٩ صـــ١٤٦ .

(٢) سورة الإسراء آية ٨٠ .

(٣) الدرر فى اختصار المغازى والسير صـــ٨٠ .

(٤) البداية والنهاية جـــ٣ صـــ٢٥ نقلاً عن البيهقى .

قال " ﷺ " : **لا إله إلا الله سيق من أرضه وسمائه إلى التربة التى خلق منها** [١]

وروى الإمام أحمد والترمذى وحسنه أن رسول الله " ﷺ " قال : (**إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة**) قال الحكيم الترمذى : (**إنما صار أجله هناك لأنه خلق من تلك البقعة وقد قال الله تعالى** : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [٢] قال : **فإنما يعاد (المرء من) حيث بدئ به**) [٣] .

وقد دفن النبى " ﷺ " بالمدينة ، وفى ذلك دلالة على أن تربتها أفضل من غيرها .

٤ــ يقول النبى " ﷺ " داعياً للمدينة : (**اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد**) [٤] وقد استجاب الله دعوته ، حتى كان يحرك دابته إذا رأى المدينة وهو عائد إليها ليسرع إليها من حبه لها ، وفى حب النبى " ﷺ " للمدينة أكثر من حبه مكة دليل على أفضليتها عند الله تعالى ، لأن حبه " ﷺ " تابع لحب ربه والمحبوب إلى الله ورسوله أكثر من غيره كيف لا يكون أفضل ؟! ... إنه الأفضل .

٥ ــ بيان حقيقة أن ما بين بيته وقبره " ﷺ " روضة من رياض الجنة ، دليل على فضل المدينة ، يقول النبى " ﷺ " : (**ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى**)[٥] لأن رياض الجنة يفضل أرض الدنيا كلها .

٦- تفضيل المدينة يكون بسبب مجاورة ساكنيها والمقيمين بها لقبره " ﷺ " لأن مجاورة أهل الخير خير ، ولذلك كان جزاء الصالحين فى الآخرة إلحاقهم بالصالحين ، وقد حرمت الشريعة الإسلامية مس المحدث لجلد المصحف لمجاورة الجلد للمصحف نفسه ، مع أنه ليس منه ، وذلك لأن القبر الشريف يتزل عليه من الرحمة ، والرضوان والملائكة وله عند الله من المحبة ، ولساكنه ما تقصر العقول عن إدراكه ، فكيف لا يكون أفضل الأماكن ؟ !!

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ٣ صـ٤٣٥ .

(٢) سورة طه آيه (٥٥) .

(٣) الدرر فى اختصار المغازى والسير صـ٨٠ .

(٤) صحيح البخارى كتاب الحج جـ٣ صـ ٢٨٥ طـ الأوقاف .

(٥) صحيح البخارى كتاب الحج جـ٣ صـ٢٨٤ .

وقد حرص عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " أن يدفن بجوار صاحبيه رسول الله " ﷺ " وأبى بكر الصديق " رضي الله عنه " لينال من الجوار بعض الخير الذى لا يرجوه فى غيره .

ومن المعلوم أن جمهرة من العلماء قالوا بأفضلية مكة المكرمة على المدينة المنورة نظراً لمضاعفة ثواب العمل بمكة ووجود الكعبة بها من بدء الحياة البشرية من لدن آدم عليه السلام ولضعف حديث أن المدينة أحب البلاد إلى الله تعالى .... إلا أن الجميع متفقون على أن البقعة التى تضم الأعضاء الشريفة لرسول الله " ﷺ " بعد دفنه أفضل من غيرها على الإطلاق ، تليها فى الأفضلية الكعبة ببنائها المعروف .

وقد حرم الله تعالى المدينة كما حرم مكة فلا يقطع شجرها ، ولا يقتل صيدها يقول النبى " ﷺ " : (**إنى حرمت المدينة ما بين لابتيها ، لا يقطع عضاها ، ولا يقتل صيدها**) (١).

ويقول " ﷺ " : **المدينة حرام ، لا يختلى خلاها ، ولا ينفر صيدها ، ولا تحل لقطتها إلا لمن أشار لها وعرفها ، ولا يصلح لرجل أن يحمل السلاح فيها إلا لقتال ، ولا يصلح أن يقطع منها شجر إلا أن يعلف الرجل بعيره** (٢).

ويقول النبى " ﷺ " : (**المدينة حرام ما بين عير إلى ثور**) (٣).

ويقول " ﷺ " : (**أحد جبل يحبنا ونحبه ، اللهم إن إبراهيم " عليه السلام " حرم مكه ، وإنى أحرم ما بين لابتيها " أى المدينة "**) (٤).

وفى المدينة المنورة قامت دولة الإسلام الاولى ، ومنها انطلق الدعاة إلى كل مكان وانتشر الإسلام فى العالم كله ، والمسلم فى كل زمان ومكان له فى نفسه حب يسوقه إلى المدينة ، لأنه يساق إلى المدينة فى زمن النبى " ﷺ " لحب رؤيته ﷺ والتعلم منه ، وفى زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم للإقتداء بهديهم والسلام على نبيهم ، ومن بعد ذلك للصلاة فى مسجده والسلام عليه " ﷺ " ، والتبرك بمشاهدة آثاره ، وآثار

---

(١) صحيح مسلم باب فضل المدينة جـ٩ صـ١٣٧ .

(٢) صحيح مسلم باب فضل المدينة جـ٩ صـ١٤١ .

(٣) صحيح البخارى كتاب الحج – باب حرم المدينة جـ٣ صـ٢٧١ .

(٤) صحيح البخارى بشرح فتح البارى باب أحد جبل يحبنا جـ٤ صـ٨٩ .

أصحابه رضوان الله عليهم [١] .

ومن المعلوم أن شد الرحال إلى مسجد النبى " ﷺ " سنة مشروعة .

وكل من يزور المدينة المنورة ، ويتشرف بزيارة مسجد الرسول " ﷺ " ويصلى على النبى " ﷺ " يعيش ذكريات الإسلام الأولى التى اكتمل خلالها الإيمان ، وتمت النعمة ، وأصبح للإسلام دولة وقوة فهى مأوى الإسلام وقوته ، يقول النبى ﷺ : (**إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها**) [٢].

والمدينة المنورة هى دار الإسلام الباقية على الزمن كله وآخر القرى خراباً فى آخر الزمان ، يقول " ﷺ " (**آخر قرية من قرى الإسلام خرابا المدينة**) [٣] .

■ ٢ ■

جغرافية المدينة المنورة

تقع المدينة المنورة شمال مكة المكرمة بثلاثمائة وخمسين ميلاً تقريباً ، وهى أصغر مساحة ، وأقل سكاناً من مكة ، ويذهب بعض العلماء إلى أن المدينة كانت عند الهجرة نصف مكة مساحةً وسكاناً ، وتقع المدينة وسط جبال بركانية ، وتلال صخرية ، وأراضى حجرية فهى بذلك تمثل واحة خضراء ، بها زراعات ونخيل وسط الصخر والحجر .

وهى قرية صغيرة تقع بين جبلى عير وثور ، لقوله " ﷺ " : (**المدينة حرم ما بين عير إلى ثور**) [٤].

وقد حققت مجلة الأزهر فى عددها الصادر فى غرة صفر سنة ١٣٧٥هـ وجود هذين الجبلين حول المدينة المنورة ، بعدما شكك البعض فى أن جبل ثور هو الموجود بمكة ، ولا وجود له بالمدينة .

---

(١) السيرة النبوية ج٩ صـ١٣٧ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الحج باب الإيمان يأرز إلى المدينة جـ٣ صـ٢٧٧ طـ الأوقاف ومعنى يأرز ينضم ويجتمع .

(٣) تحفة الأحوذى بشرح سنن الترمذى ج١٠ صـ٤١٨ .

(٤)صحيح البخارى ــ كتاب الحج باب حرم المدينة جـ٣ صـ٢٧١ ، صحيح مسلم ــ كتاب الحج ج ٢ ص ٩٩٤

و يقع جبل ثور [١] خلف جبل أحد شمال المدينة ، وبذلك يكون جبل أحد جزءاً من المدينة ، لأن ثوراً يحدها شمالاً .

ويقع جبل " عير " [٢] فى جنوب المدينة وهو حدها الجنوبى .

كما يحد المدينة من الشرق حرة " واقم " .

ومن الغرب تقع حرة " الوبرة " [٣] .

وتتميز المدينة المنورة بأنها دار حق وصدق ، لقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [٤] ، يقول المفسرون : هما مكة التى خرج ﷺ منها والمدينة التى دخلها ﷺ [٥] .

والمدينة أحب البلاد إلى الله تعالى ، لأن النبى "ﷺ" قال عند خروجه من مكة **(اللهم إنك تعلم أنهم أخرجونى من أحب البلاد إلى فاسكنى أحب البلاد إليك)**[٦] فأسكنه الله المدينة المنورة .

ـ٣ـ

أهمية موقع المدينة

تتميز المدينة بموقعها الحصين ، وخيرها الكثير فهى تقع فى ملتقى طرق الجزيرة العربية الآتية من كل جهاتها ، كما أنها محاطة بحواجز طبيعية تمنع وصول العدو إليها إن قصدها بسوء ، وتعتبر المدينة جزيرة خضراء محاطة بحواجز صخرية ، منيعة ، إذ تقع حرة " واقم " فى الشرق ، وحرة "الوبرة" فى الغرب ، وجبل ثور وأحد فى الشمال وجبل " عير " فى الجنوب .

---

(١) جبل ثور بالمدينة جبل صغير مدور – يقع خلف جبل أحد ، وهو غير جبل ثور الموجود بمكة ، ولونه يميل إلى الحمرة

(٢) عير جبل عظيم شامخ يقع جنوب المدينة على مسافة ساعتين منها .

(٣) الحرة :بفتح الحاء وتشديد الراء المفتوحة ، وواقم رجل من العماليق ، والوبرة بفتح الباء أو بسكونها أرض حجرية لونها أسود كأنها أحرقت .

(٤) سورة الإسراء الآية ٨٠

(٥) تفسير ابن كثير جـ٣ صـ٥٨ ، ٥٩ وهو أشهر الأقوال .

(٦) البداية والنهاية جـ٣ صـ٢٠٥

وكان بها الزرع والثمر والنخيل ، واستقر بها بعض اليهود وأقام فيها الأوس والخزرج منذ القدم وأنشأوا بها الصناعات ، وزرعوا الأرض ، واستخرجوا الثمر ولذلك يقول عنها النبى " ﷺ " : (**إنى أريت دار هجرتكم ، ذات نخل بين لابتين**)[١] ... فتميزها بالنخيل دليل الزراعة والثمر ، وإحاطتها باللابتين دليل المنعة والتحصين .

وكان العرب وعلى رأسهم أهل مكة يقدرون لأهل المدينة هذا الموقع ، ويعاملونهم بالتقدير والاحترام كسباً لودهم ، وأملاً فى حماية تجارتهم وهى تغدو وتروح عليهم ، ولذلك رأينا القرشيين بعد بيعة العقبة الثانية يصبون جام غضبهم على من أسلم من أهل مكة ، ويتجنبون مخالفة أهل المدينة .

جاء فى صحيح البخارى أن سعد بن معاذ "ﷺ" كان صديقاً لأمية بن خلف ، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد ، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية فلما قدم رسول الله " ﷺ " المدينة انطلق سعد معتمراً فنزل على أمية بمكة كعادته فقال لأمية : أنظر لى ساعة خلوة لعلى أن أطوف بالبيت فخرج به قريباً من نصف النهار .

فلقيهما أبو جهل فقال : يا أبا صفوان من معك ؟

فقال : هذا سعد .

فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة آمناً ، وقد آويتم الصباة ، وزعمتم أنكم تنصرونهم ، وتعينونهم ؟ .... أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً .

فقال له سعد ، ورفع صوته عليه : **أما والله لو منعتنى هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه ، طريقك على المدينة .**

فقال له أمية : لا ترفع صوتك يا سعد على أبى الحكم سيد الوادى .

فقال سعد : دعنا عنك يا أمية [٢] .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام جـ١ صـ٤٦٨ واللابة هى الحَرة بفتح الحاء .

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى باب ذكر النبى من قتل ببدر جـ٧ صـ٢٨٢

كما أنه واضح أن المدينة **كانت ذات ثمر** ، فلقد أرسل النبى " ﷺ " إلى عيينة بن حصن بن بدر الفزارى وهو يومئذ رأس المشركين من غطفان عند الخندق ليخذل بين الأحزاب ؟ ! ويصرفهم عن حصار المدينة .

فأرسل إليه عيينة وقال له : إن جعلت لى الشطر فعلت "[١] .

لقد كان ثمر المدينة جديراً بأن يغرى رؤساء الكفر بنقض ما عزموا عليه ، كما كان جديرٌ أن يمزق جمعهم طمعاً فيه .

إن إشارة النبى " ﷺ " إلى أنها ذات نخل دليل على ما فيها من خير لأن النخلة كثيرة الفوائد ، عظيمة الثمر ، ووجودها دليل على وجود ثمرها ، وفيها عناصر الغذاء المطلوبة للإنسان يقول النبى " ﷺ " : (**أكرموا عمتكم النخلة ، فإنها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم** "عليه السلام" **، وليس من الشجر شئ يلقح غيرها**)[٢] ويقول عمرو بن ميمون (**ما من شئ خير للنفساء من التمر والرطب**)[٣]

إن عديداً من الصناعات تقوم على النخلة منذ القدم ، وقد استفاد بها العربى فائدة كبرى ، فمنها يصنع بيته وأدواته ، وفراشه ، بالإضافة إلى تنوع ثمرها طعماً ، ولونا ، وصورة .

- ٤ -

خلو المدينة من الوباء

اشتهرت يثرب قبل الإسلام بأنها بلد موبوءة ، يكثر فيها المرض وتنتشر به الحمى، تقول عائشة رضى الله عنها : " **قدمنا المدينة وهى أوبأ أرض الله ، وكان بطحان يجرى نجلاً أى ماء آجناً** "[٤] وهذا بينت السيدة عائشة رضى الله عنه السر فى كون المدينة وبيئة ، وهى أن وادى بطحان يتر ماؤه جهة المدينة فيحدث المرض والوباء

---

(١) السيرة النبوية فى ضوء الكتاب والسنة صـ ١٥٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٣ صـ١١٨ .

(٣) المرجع السابق جـ٣ صـ١١٨

(٢) صحيح البخارى كتاب الحج جـ٣ صـ٢٨٥ .

ولذلك قال مشركو مكة حين جاء المسلمون للعمرة بعد الحديبية مع رسول الله ﷺ: "إنه يقدم عليكم وفد وهنهم حمى يثرب " [(١)] ومن هنا ندرك سر أمرالنبى ﷺ أصحابه أن يرملوا فى الأشواط الثلاثة وهم يطوفون بالبيت وأن يمشوا ما بين الركنين ليرى المشركون قوتهم ولم يمنعــه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم [(٢)]

وقد تأثر أصحاب النبى ﷺ بحمى المدينة بعد هجرتهم .. تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : " لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل أمرئ مصبح فى أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عن الحمى يرفع عقيرته يقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بواد وحولى إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة ... وهل يبدون لى شامة وطفيل

اللهم العن شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء .

ثم قال رسول الله ﷺ : " اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم بارك لنا فى صاعنا ومدنا وصححها لنا ، وأنقل حماها إلى الجحفة [(٣)] .

واستجاب الله دعاء نبيه للمدينة ، وجعلها بلداً طيباً .

يقول الحافظ ابن حجر : " أصبحت المدينة أطيب بلاد الله سبحانه ، كما سماها بذلك رسول الله ﷺ إذ سماها " طابة " و " طيبة " والطاب والطيب لغتان بمعنى واشتقاقها من الشئ الطيب لطهارة تربتها ولطيبها لساكنيها ، ومن طيب العيش بها وفى طيب ترابها وهوائها دليل شاهد على صحة هذه التسمية ، لأن من أقام بها يجد من تربتها وحيطانها رائحة طيبة لا تكاد توجد فى غيرها .

يقول الحافظ ابن حجر : وقرأت بخط أبى على الصدفى فى هامش نســخته مـــن

---

(١) صحيح البخارى كتاب الحج جـ٣ صـ١٣٠ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الحج باب الرمل فى الحج والعمرة جـ٣ صـ١٣١ .

(٣) صحيح البخارى – كتاب فضائل المدينة جـ٤ صـ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

صحيـــح البخارى بخطه يقول : **أمر المدينة فى طيب ترابها وهوائها يجده من أقام بها ويجد لطيبها أقوى رائحة ، ويتضاعف طيبها فيها عن غيرها من البلاد ، وكذلك العود وسائر أنواع الطيب** (١) .

وهكذا خلت المدينة من الوباء ، وحسن حالها ، واستقر أمر المسلمين بها ، وصارت حاضرة الإسلام الأولى بعد الهجرة إليها .

- ٥ -

وسطية المدينة

تقع المدينة المنورة وسط العالم كمكة ، لأنها قريبة منها ، وأغلب سكانها عرب ، ولغتهم هى العربية ، وقد ساعد قرب المدينة من مكة أن يعرف الرســـول ﷺ أخبـــار المكيين ، أمل الدعوة وأسسها وركيزتها ، فهم الذين يدين لهم العرب جميعاً بالسيادة ، ويتخذونهم القدوة والأسوة ، ولأنهم منذ القدم حماة بيت الله وسدنته ومقصد أهـــل الجزيرة حيث يأتون إليهم حاجين ومعتمرين ، وقد ترك فيهم إبراهيم عليه السلام وحى الله ودينه وقد بوأهم رسول الله ﷺ منزلتهم وهو يقول : **قريش ولاة هذا الأمر فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم** (٢) .

و لم تغب مكة عن فكر رسول الله ﷺ بعد الهجرة ... و لم ينس أهلها ولـــذلك حرص الرسول "ﷺ" على معرفة أسرارهم ، وأخبارهم ، ومعرفة نقاط الضعف لديهم وإذا كان "ﷺ" مكث بينهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثة عشر عامـــاً ، وعجـــز عـــن إدخالهم فى الإسلام ، فإنه بعد الهجرة أخذ يحاول فى إيمانهم ، لأنهم شعب كثير ، قوى يمكنه خدمة الإسلام بما يملك من إمكانيات واسعة ، وثقة كبيرة يوليها العرب لهم .

وتبرز أهمية أهل مكة وإمكاناتها الدعوية ، فيما حدث للإسلام بعد فتح مكة إذ خرج من المكيين للجهاد فى " حنين " آلاف ، و لم يمض على إسلامهم عام واحـــد ،

(١) فتح البارى على صحيح البخارى جـــ٤ صـــ٨٩.

(٢) مسند الإمام أحمد مسند أبي بكر الصديق جـــ١ حديث رقم ١٨ صـــ١٩٩ ط الرسالة وانظر صحيح البخارى كتاب المناقب جـــ٦ صـــ٨٥ .

ودخلت الجزيرة كلها فى الإسلام بعدهم ، وظهر من بينهم دعاة أفذاذ حملوا راية الإسلام ، وجاهدوا فى سبيل الله تعالى .

لقد كان أهل مكة تجاراً يجوبون الآفاق ، وهذا علمهم الواقعية فى التفكير، واستخلاص النتائج من المقدمات ، والاهتمام بالدور الفردى لخدمة الجماعة ، والاستفادة من المهارات الخاصة فى تحقيق منافع محددة ، والإحاطة ببلاد العالم وطرق الرحلة إليها .

كل هذا جعل من المدينة المنورة موطن الدعوة المثالى لما بينها وبين مكة من ترابط وصلة ولذلك هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إليها وعيونهم وقلوبهم ترنوا لمكة رجاءً وأملا .

-٦-

تميز المدينة عن غيرها من المدن

لو نظرنا لسائر مدن الجزيرة العربية لرأينا تميز المدينة عنها جميعاً ، ولأدركنا سر اختيارها للهجرة ، فمدينة " الطائف " قريبة من مكة ، بل هى أقرب إليها من المدينة ، وقد حاول الرسول "ﷺ" أن يجعلها موئل الإسلام حين ذهب إليها ، وطلب من أهلها الحماية والنصرة [(١)] إلا أنهم كانوا متأثرين بنفوذ القرشيين ، ولذلك تجنبوا مخالفتهم ، وردوا الرسول حين أتاهم رداً قبيحاً .

وكان للمسيحية قوة التأثير فى بلاد اليمن القريبة من بلاد الحبشة وفى بلاد الشام القريبة من أرض الروم .

وكان للفرس نفوذ فى شرق جزيرة العرب وبعض بلاد الشام .

ولم يبق من مدن الجزيرة العربية مدينة تصلح للحركة الإسلامية ، وتصير قاعدة الإسلام إلا مدن بلاد الحجاز الثلاث (**مكة** ، **والطائف** ، **والمدينة**) لعدم تأثرها بغيرها وحسن موقعها ، ومزايا سكانها ، فإذا ما انتفت منها مكة ، والطائف لم يبق إلا المدينة المنورة وإليها كانت الهجرة النبوية

---

(١) انظر صـ٣٦٤ من الكتاب الثانى من هذه السلسلة .

٧

سكان المدينة المنورة

سكن المدينة المنورة قبل الهجرة كل من قبيلتى الأوس والخزرج ، ومعهم طوائف من اليهود .

وكان أول الأمر بالمدينة أن سكنها العمالقة ، ثم قدم عليهم أناس من بدو بنى إسرائيل ، فجاوروهم فيها ، فلما انهدم سد مأرب هاجر إليها الأوس والخزرج ، ونزلوا بها ، وتفرقوا فى عاليتها وسافلتها [١] فمنهم من نزل مع بنى إسرائيل فى القرى حول المدينة ، ومنهم من أقام فى يثرب .

ولما دالت دولة اليهود فى فلسطين فى الزمن القديم وقضى عليهم الرومان ، وهدموا الهيكل فر كثير منهم إلى الحجاز ، وأقاموا فى يثرب ، وخيبر فكان بيثرب يهود بنى قينقاع ، وفى تخومها يهود بنى قريظة والنضير ، وكانت هناك جماعات أخرى من اليهود تقيم بخيبر ، وفدك ، وتيماء ووادى القرى .

وقد اتفقت قبائل الأوس والخزرج واليهود على المسالمة ، وحسن الجوار ، فعقدوا حلفاً يأمن به بعضهم على بعض ، ويمتنعون به عمن سواهم .

وكانت الغلبة والقوة لليهود ابتداء لتملكهم مصادر الغنى والثروة ، إذ كانوا يشتغلون بالصياغة وصنع آلات الحرب ، وبالزراعة وفلاحة البساتين ، وكان لهم سوق كبيرة تقام بصورة دورية لبيع منتجاتهم لأهل يثرب والقرى المجاورة .

ولما كثر عدد الأوس والخزرج ، وزادت ثروتهم ، واشتد ساعد أبنائهم وصارت لهم قوة خافت قريظة والنضير منهم فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذى كان بينهم ... الأمر الذى جعل قبيلتى الأوس والخزرج تتحدان فى إطار واحد ، ويملكان عليهم " مالكا بن العجلان " ، أخا سالم بن عوف الخزرجى .

وهكذا انقسمت المدينة إلى قسمين ، قسم هم العرب من الأوس والخزرج ومن والاهم ، وقسم هم اليهود بمختلف قبائلهم ، وطوائفهم .

---

(١) يراد بالعالية ما كان فوق المدينة إلى قباء وما بعدها ، ويراد بالسافلة ما كان فى أسفل المدينة إلى أحد وقبر حمزة ﷺ

و لم يدم توحد عرب يثرب طويلاً ، فقد لعب بهم اليهود ، وأوقعوا بينهم الفتنة ، واشتعلت الحرب بين الأوس والخزرج واستمرت وكان آخرها حرب " بعاث " .

و لم يتمكن " مالك بن العجلان " الذى سوده الأوس والخزرج عليهم من إيقاف الحرب ، وإنهاء القتال ، الأمر الذى أدى إلى كثرة الضرر وإهمال طرق الكسب والمعاش .

وقد تطور الأمر بعد ذلك حيث مكن الله للأوس والخزرج بعد بغى اليهود ، وظلمهم لأهل المدينة .

يذكر المؤرخون أن ملك اليهود " الفطيون " [١] كانت له السيادة على اليهود والأوس والخزرج ، وكانت له فيهم سنة ألا تزوج منهم إمرأة إلا أدخلت عليه قبل زوجها حتى يكون هو الذى يفتضها ، إلى أن خطبت أخت لمالك بن العجلان الخزرجى ، فلما كانت الليلة التى تهدى فيها إلى زوجها خرجت على مجلس قومها كاشفة عن ساقيها ، وأخوها مالك فى المجلس .

فقال لها : قد جئت بسوأة بخروجك على قومك وقد كشفت عن ساقيك !!

قالت : الذى يراد بى الليلة أعظم من ذلك لأننى أدخل على غير زوجى ، ثم دخلت إلى منزلها فدخل إليها أخوها وقد أرمضه قولها .

فقالت له : هل عندك من خبر ؟

قال : نعم .

قالت : فماذا ؟

قال : أدخل معك فى جملة النساء على الفطيون ، فإذا خرجن من عندك ودخل عليك ضربته بالسيف حتى يبرد .

قالت : إفعل .

فتزيا بزى النساء ، وراح معها ، فلما خرج النساء من عندها دخل الفطيون عليها فشد عليه " مالك بن العجلان " بالسيف وضربه حتى قتله ، وخرج هارباً حتى

---

(١) الفطيون بكسر الفاء وسكون الطاء وياء مفتوحة وسكون الواو .

قدم الشام ، فدخل على ملك من ملوك غسان يقال له أبو جبيلة فشكا إليه ما كان من الفطيون وما كان يعمل فى نسائهم ، وذكر له أنه قتله وهرب ، وأنه لا يستطيع الرجوع خوفاً من اليهود ، فعاهده أبو جبيلة أن لا يقرب امرأة ، ولا يمس طيباً ، ولا يشرب خمراً حتى يسير إلى المدينة ، ويذل من بها من اليهود ، وأقبل سائراً من الشام فى جمع كثير ، مظهراً أنه يريد اليمن حتى قدم المدينة ، ونزل بذى حرض ، ثم أرسل إلى الأوس والخزرج أنه على المكر باليهود ، عازم على قتل رؤسائهم ، وأنه يخشى متى علموا بذلك أن يتحصنوا فى آماطهم ، وأمرهم بكتمان ما أسره إليهم ، ثم أرسل إلى وجهاء اليهود أن يحضروا طعامه ، ليحسن إليهم ، ويصلهم ، فأتاه وجوههم ، وأشرافهم ، ومع كل واحد منهم خاصته وحشمه ، فلما تكاملوا أدخلهم فى خيامه ، ثم قتلهم عن آخرهم ، فصارت الأوس والخزرج من يومئذ أعز أهل المدينة [١] .

وبعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة وأقاموا بها ظهر المهاجرون عنصراً جديداً فيها ، يحمل الفكر والخلق ، وينشر الهدى والدين .

وقد تغير حال المسلمين فى المدينة بعد الهجرة عن ما كانوا عليه فى مكة ، فلقد أصبح أمرهم بأيديهم ، وصارت القوة معهم ، وأخذوا يظهرون الإسلام بسائر نظمه فى حياتهم ، ومعاشهم .. وأصبح لزاماً عليهم أن يكونوا مجتمعاً إسلامياً ، يحمى أبناءه ، ويصون عقيدته ، وينشر دين الله فى الأرض كلها .

وليس بخاف أن تكوين هذا المجتمع يحتاج إلى جهد وإخلاص ، كما يحتاج إلى صبر شديد ، وزمن مديد ، وعمل جاد رشيد ، حتى يتكامل التشريع مع التطبيق ، ويتوافق التثقيف والحركة ، ويمتلئ الوجود بنور الوحى حركة فى السلوك والحياة .

وهذه الآمال الكبار المنوطة بالمسلمين فى المدينة تحتاج إلى مجتمع متماسك ، متحد الوسائل والغايات ، يدرك رسالة الله ، ويحمل الأمانة ، ويعيش بها ، ويتحرك لها بتوجيه رسول الله " ﷺ " .

إن هذا المجتمع بعناصره بعد الهجرة يحتاج إلى فهم مكوناته ، والتعامل مع كل

---

(١) معجم البلدان جـ٥ صـ٨٥ .

عنصر بما يكافئه .

فالمسلمون يتكونون من الأنصار المقيمين فى أرضهم وديارهم وأمـوالهم ، آمنين فى شئونهم ، عندهم قوتهم ومعاشهم ، وكل ما ينقصهم هو القضاء على كل ما بينهم من منازعات وعداوات امتدت طويلاً فيما مضى من الزمان ... وقد دخلوا فى الإسلام ومن آمالهم أن تنتهى هذه المنازعات بالإسلام .

وبفضل الله تعالى انتهت هذه المنازعات من اللحظة الأولى بعد البيعة ، عندما بايعوا الرسول " ﷺ " عند العقبة يداً واحدة ، تمثل جماعة واحدة ، ومدينة واحـدة ، ولما جاءهم مصعب بن عمير "رضي الله عنه"، قادهم جميعاً إلى الله ، وأدركوا أنهـم بالإسـلام مسئولون مع المهاجرين على مواجهة الوثنية فى بلاد العرب وغيرها .

لقد كانت قبيلة الخزرج أكثر عدداً وقوة من الأوس ، وكان النقباء منهم أكثر .... ومع ذلك لم يحدث أن خص الرسول " ﷺ " فريقاً دون غيره بشروط ، ولم يحدث أن اعترض فريق منهم على شئ ، وإنما أدى إقبالهم على الإسلام وصدقهم مع رسول الله " ﷺ " أنهم كانوا جميعاً على مستوى واحد فى الحرص على الإيمان ، واتباع كل ما يأمرهم به " ﷺ " ... ولذلك وصفهم الله جميعاً وصفاً واحداً فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)

ومع الأنصار كان المهاجرون الذين استجابوا لرسـول الله " ﷺ " وتركـوا بلدهم ، و مالهم ، وأرضهم ، وأهليهم ، وجاؤوا إلى المدينة لا يملكـون شـيئاً ، ولا يحوزون أرضاً ، أو داراً .

ومع المسلمين فى المدينة كان اليهود بقبائلهم الثلاث بنـو قينقـاع ، وبنـو النضير، وبنو قريظة .

---

(١) سورة الحشر الآية ٩

وعلى الجملة ..

فإن سكان المدينة بعد الهجرة كانوا مكونين من الفئات التالية :

الفئة الأولى : الأنصار : وهم أهل المدينة الذين آمنوا برسول الله ﷺ ودخلوا فى الإسلام ، وأساس الأنصار قبيلتا الأوس والخزرج .

الفئة الثانية : المهاجرون : وهم أهل مكة الذين هاجروا بدينهم إلى المدينة ومن لحق بهم من القبائل .

الفئة الثالثة : اليهود وقبائلهم الرئيسية بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة .

ومع هذه الفئات الثلاث وجد أفراد فى المدينة تابعون لهذا الفريق أو ذاك ، ولهم مذهبهم الخاص واتجاههم المستقل ، ومنهم كان المشركون والمنافقون .

و لم تكن العلاقات بين هذه الفئات طيبة ، لأن اليهود نظروا إلى الإسلام نظرة حقد وحسد ، وأملوا فى إثارة العرب ضده ، وكانوا يكرهون رسول الله " ﷺ " ، ويتمنون القضاء عليه ، وعلى دينه .

نظر اليهود إلى الإسلام ، ورأوه دعوة صالحة تؤلف بين أشتات القلوب ، وتطفئ نار العداوة والبغضاء ، وتدعو إلى التزام الأمانة فى الشئون كلها ، وإلى التقييد بأكل الحلال من طيب الأموال ، ولهذا تآمروا عليه .

خاف اليهود من تآلف العرب ، والتخلص من سيطرتهم الاقتصادية ، الأمر الذى قد يؤدى إلى فشل نشاط اليهود التجارى ، وحرمانهم من أموال الربا التى تدير رحى ثروتهم ، و يحتمل أن تتيقظ تلك القبائل فتفكر فى الأموال الربوية التى أخذها اليهود ، فتقوم بإرجاع أرضها وحوائطها التى أضاعتها فى تأدية الربا إلى اليهود .

كان اليهود يدخلون كل ذلك فى حسابهم منذ عرفوا أن دعوة الإسلام تحاول الاستقرار فى يثرب ، ولذلك كانوا يبطنون أشد العداوة ضد الإسلام ، وضد رسول الله " ﷺ " منذ أن دخل يثرب ، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها إلا بعد حين

يظهر ذلك جلياً بما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صفية رضى الله عنها أنها قالت : كنت أحب ولد أبى إليه ، وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد لهما

إلا أخذانى دونه ، فلما قدم رسول الله " ﷺ " المدينة ، ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف غدا عليه أبى ، حيي بن أخطب ، وعمى أبو ياسر بن أخطب ، مغلسين ، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، فأتيا كالين ، كسلانين ، ساقطين ، يمشيان الهوينى . فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلى واحد منهما لما ما بهما من الغم ، وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى ، حيي بن أخطب : **أهو هو؟**

قـــال أبى : نعم والله .

قال عمى : أتعرفه وتثبته ؟

قـــال أبى : نعم .

قال عمى : فما فى نفسك منه ؟

قـــال أبى : عداوته والله ما بقيت [1].

ويشهد بذلك أيضاً ما رواه البخارى فى إسلام عبد الله بن سلام "رضي الله عنه" وكان **حبراً من فطاحل علماء اليهود ، فإنه لما سمع بمقدم رسول الله " ﷺ " المدينة فى بـــنى النجار جاءه مستعجلاً ، وألقى إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبى ، ولمـــا سمـــع ردوده ﷺ عليها آمن به من ساعته ، ومكانه ، ثم قال له : إن اليهود قـــوم بهـــت إن علمـــوا بإسلامى قبل أن تسألهم بهتونى عندك ، فأرسل رســـول الله " ﷺ " إلـــيهم فجـــاءت اليهود ، ودخل عبد الله بن سلام البيت .**

فقال رسول الله " ﷺ " : أى رجل فيكم عبد الله بن سلام؟

قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا .

فقال رسول الله " ﷺ " : أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟

فقالوا : أعاذه الله من ذلك (مرتين أو ثلاثاً) .

فخرج إليهم عبد الله فقال :أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله

فقالوا : شرنا وابن شرنا ، ووقعوا فيه .

فقال عبد الله بن سلام : يا معشر اليهود اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو

---

(١) سيرة النبى لابن هشام جـ١ صـ٥١٩.

إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق .

فقالوا : كذبت [(١)] .

وبقى المنافقون وسط الناس يثيرون الفتن ، ويحاولون زعزعة ثقة المسلمين فى رسولهم ودينهم ، و لا يظهرون مكرهم مدارة للمسلمين ، وخوفاً من المؤمنين .

- ٨ -

شجاعة أبناء المدينة

تميز العرب فى المدينة بقوة البأس والشجاعة والإباء بسبب الحروب التى امتدت بينهم طويلاً ، وأشهرها حرب داحس والغراء ، وحرب بعاث ، وقد أدت هذه الحروب إلى تخريج جيل من الرجال ، متميز بصلابة الرأى ، وقوة الشجاعة ، وكأن هذه الحروب مدرسة لتخريج جيل قوى ، يتفانى من أجل هدفه الذى آمن به ، ويتحمل الكثير لتحقيق ما يؤمن به .

لقد امتدت الحرب بين الأوس والخزرج طويلاً ، ومع ذلك لم يستسلم أحد منهم للآخر أبداً ، بعداً عن العار ، وحماية للشرف والكرامة ، فلما أسلموا واتبعوا رسول الله ﷺ اتحد هدفهم وتحولوا جنوداً مخلصين لله .

وكان العرب فى الجزيرة العربية يعرفون شجاعة أهل المدينة ، ولذلك كانوا يخطبون ودهم ليتمكنوا من شراء حاجاتهم منها ، وليحظوا بقراهم ، وليأمنوا على أنفسهم ، وتجاراتهم عند المرور بهم ، وما سجل التاريخ اعتداء أحد على المدينة بسبب شجاعة أبنائها وقوة أهلها .

وقد تأكدت شجاعتهم فى الإسلام من خلال مواقفهم مع رسول الله ﷺ .

ففى حديث كعب بن مالك ليلة بيعة العقبة الثانية قال " ﷺ " لأهل المدينة : **أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .**

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم **قال : نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن أهل الحروب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً**

---

(١) صحيح البخارى ك المناقب جـ٦ صـ٢٣٠ ط الأوقاف .

عن كابر[١] .

كما ظهرت شجاعتهم ، وجرأهم على الحروب يوم بدر ، فلقد كانوا عاهدوا رسول الله " ﷺ " ليلة العقبة على نصرته على من يقصده وهو فى المدينة ، فلما سار بهم رسول الله " ﷺ" إلى المشركين فى بدر ، وخرج من المدينة أراد أن يعرف مدى حرصهم على الاشتراك فى المعركة بعيداً عن المدينة فوجد عند بدر منهم ما أسعده ، وسره .

عن ابن مسعود "ﷺ" قال : **شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به ، أتى المقداد النبى " ﷺ " وهو يدعو على المشركين فقال: يا رسول الله لا نقول كما قال قوم موسى ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾[٢] ولكنا نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، وبين يديك ، ومن خلفك. فرأيت النبى " ﷺ " أشرق وجهه وسره ، يعنى قوله** [٣] .

وعن علقمة بن وقاص الليثى قال : **خرج رسول الله " ﷺ " إلى بدر حتى إذا كنا بالروحاء خطب الناس فقال : كيف ترون ؟**

فقال أبو بكر : يا رسول الله بلغنا أنهم كذا وكذا .

ثم خطب " ﷺ " الناس فقال : كيف ترون ؟

فقال عمر مثل قول أبى بكر .

ثم خطب " ﷺ " الناس فقال : كيف ترون ؟

فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله إيانا تريد ؟ فوالذى أكرمك ، وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ، ولا لى بها علم ، ولئن سرت حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن لنسيرن معك ، ولا نكون كالذين قالوا لموسى ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر ، وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذى

---

(١) أخرجه أحمد . الفتح الربانى ٢٠/٢٧١ – ٢٧٥ قال فى بلوغ الأمانى : رجاله ثقات .

(٢) سورة المائدة آية (٢٤) .

(٣) صحيح البخارى كتاب المناقب باب قوله تعالى إذ تستغيثون ربكم جـ٦ صـ٢٣٨ .

أحدث الله إليك فامض له ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت [١] .

ومن المعلوم أن القتال يوم بدر كان قاسياً على المسلمين ، وكان شديداً وهذا يجعل لمقالة المقداد قوة فى دلالتها على شجاعة أهل المدينة ، وقوة بأسهم ، يقول الله تعالى ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [٢] .

والآيات تصوير صريح لما كان يتمناه المسلمون ، فهم يكرهون القتال ويتصورونه سعياً إلى الموت ، ومساراً إليه .

كانوا يتمنون الغنيمة بلا قتال . وشاء الله غير ذلك ليقطع دابر الكافرين ، ويعلى شأن الإسلام فى الجزيرة العربية كلها ، وليحقق بالمسلمين انتصاراً لدين الله تعالى يقول الحافظ فى الفتح : **وكان رسول الله ﷺ يريد غنيمة مع أبى سفيان ، فأحدث الله إليه القتال .**

إذا علم هذا الحال فإن موقف الأنصـــار من القتال دليل واضـــح على شجاعتهم لأنهم وجدوا أنفسهم أمام مسئولية القتال بلا استعداد مسبق فلم يترددوا أو يخافوا .

وعن أنس أن رسول الله " ﷺ " **لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه أبو بكر و عمر ، ثم قال عمر : يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ قالوا : لا نقول كما قال بنو إســـرائيل لموســـى ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ والذى بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك** [٣] .

---

(١) أخرجه بن أبى شيبه مرسلاً . ذكره فى الدرر ١٦٣/٣ وعزاه له . وذكره فى الفتح ٢٨٧/٧ مختصراً وحكم بإرساله

(٢) سورة الأنفال من الآية ٥ إلى الآية ٧ .

(٣) أخرجه أحمد والنسائى وابن حبان . كذا فى الدرر ٢٧١/٢ .

وفى غزوة الأحزاب تجلت شجاعة القوم ، وظهر حرصهم على الأفضل ، واستعدادهم للتضحية ، وأكدوا أنهم ليسوا ممن يفرطون فى وطنهم ، وأن هذا كان شأنهم قديما فعندما اجتمع المشركون ، وأحاطوا بالمسلمين من كل ناحية ، وآزرهم اليهود والمنافقون ، استشار رسول الله " ﷺ " السعدين (سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة) فى أن يعطى غطفان ثلث ثمار المدينة على أن ترجع فرفض السعدان ذلك ، وأصرا على الحرب وبينا لرسول الله ﷺ شأنهم قبل الإسلام ، وأنهم ما ازدادوا بالإسلام إلا عزا .

عن الزهرى قال : لما اشتد على الناس البلاء يوم الأحزاب بعث رسول الله ﷺ إلى عيينه بن حصن ، والحارث بن عوف المرى ، وهما قائدا غطفان ، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح .

فلما أراد رسول الله " ﷺ " أن يفعل ذلك بعث إلى السعدين فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه ، فقالا : يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه أم شيئا أمـــرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟

فقال ﷺ : بل شئ أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكســـر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ، ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قِرَى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك ، وبه، نعطيهم أموالنا ؟ مالنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم بيننا وبينهم !

فقال النبى " ﷺ " : أنت وذاك . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال : ليجهدوا علينا [١] .

---

(١) أخرجه ابن إسحاق ونقله عنه ابن كثير ٢٠١/٣وهو عند عبد الرازق فى المصنف راجع الجزء الذى طبع من المصنف تحت عنوان " المغازى النبوية " لابن شهاب الزهرى صـــ٧٩ وأخرجه ابن سعد فى الطبقات ٧٣/٢ .

وواضح من هذه النصوص ما كان يتمتع به الأنصار من شجاعة وجرأة ومعرفة بفنون الحروب والقتال .

- ٩ -

تآلف أبناء المدينة

عاش أهل المدينة مدة طويلة فى حرب وصراع بين قبيلتى الأوس والخزرج وكان يهود بنى قينقاع ينحازون للخزرج ، ويهود بنى قريظة ينحازون للأوس ، الأمر الذى ساعد على اشتعال الحرب واستمرارها .

ومن أشهر هذه الحروب يوم " بعاث " وبعاث مكان حصن فى مزرعة عند بنى قريظة على ميلين من المدينة ، وكان رئيس الأوس حضير والد أسيد بن حضير ، ورئيس الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، وفى أول هذه الحرب كان النصر للخزرج وفى النهاية كان النصر للأوس ، وفى هذه المعركة قتل رئيسا الفريقين .

ومن حرب بعاث هذه استفاد الإسلام فإن أكابر الأوس والخزرج قتلوا فيها وبذلك قضى الله على المعارضة التى تتمسك بمواريث الآباء ، يبدوا هذا جلياً من موقف أحد هؤلاء الأكابر وقد بقى حياً وهو **عبد الله بن أبى** فإنه وقف فى وجه الدعوة ، وكاد لها .

ومن آثار هذه الموقعة أيضاً أن الأوس والخزرج أدركوا مدى الدمار الذى يلحقهم من الحروب ، وتمنوا أمراً يوحدهم ويجمعهم ، فلما جاء الإسلام أسرعوا إليه يقول الله تعالى ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [١] .

عن عكرمة ﷺ قال : قابل النبى ﷺ نفراً من الأنصار فآمنوا به وصدقوا ، وأراد أن يذهب معهم فقالوا : يا رسول الله إن بيننا وبين قومنا حرباً ، وإنا نخاف إن جئت على حالك هذه أن لا يتهيأ الذى تريد ، فواعدوه العام المقبل فقالوا : نذهب برسول

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

الله ﷺ فلعل الله أن يصلح به تلك الحرب ، وكانوا يرون أنها لا تصلح فلقوه من العام المقبل سبعين رجلاً ، قد آمنوا به ، فأخذ منهم النقباء اثنى عشر رجلاً فذلك حين يقول الله تعالى ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ .

وعن ابن إسحاق قال : كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة حتى قام الإسلام فأطفأ الله ذلك وألف بينهم [١] .

وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " **يا معشر الأنصار بم تمنون على!!! ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله ؟ ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله ؟ ألم تكونوا فقراء فأغناكم الله ؟ ألم تكونوا أعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى يا سول الله** [٢] .

ولسوف تدرك طبيعة القوم ، وأثر يوم بعاث فيهم بما رواه البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: **كنا فى غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار**

فقال الأنصارى : يا للأنصار .

وقال المهاجرى : يا للمهاجرين .

فلما سمعهما رسول الله ﷺ قال : " **ما هذا ؟ ما بال دعوى الجاهلية ؟**

فقالوا : كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى ياللأنصار ، وقال المهاجرى : يا للمهاجرين .

فقال النبى ﷺ : دعوها فإنها منتنة [٣] .

تقول عائشة رضى الله عنها : **كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة وقد افترق ملؤهم ، وقتلت سراقم وجرحوا فقدمه الله لرسوله ﷺ فى دخوهم فى الإسلام** [٤] .

قال الحافظ ابن حجر : فقتل فى حرب بعاث من أكابرهم من كان يتكبر

---

(١) سيرة النبى جـ١ صـ٤٢٨

(٢) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى جـ٢٢ صـ١٧٥

(٣) صحيح البخارى كتاب التفسير باب سورة المنافقين جـ٨ صـ٥١.

(٤) صحيح البخارى كتاب المناقب جـ٦ صـ٢٢٥

ويأنف أن يدخل فى الإسلام حتى لا يكون تحت حكم غيره ، وقد بقى من هذا النحو عبد الله بن أبى بن سلول[١] وقد تولى الله تعالى إذابة شحناء أهل المدينة ، وألف بين قلوبهم ، وجمعهم على المودة ، والرحمة ، والحب ، والتعاون يقول الله تعالى ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢]

وبهذا صار أهل المدينة فى ألفه ، وتماسك – وهم كذلك إلى اليوم .

بكل هذه الحقائق عن المدينة وأهلها جعلها الله تعالى موئل الإسلام ، ومستقره ، وأمر المسلمين بالهجرة إليها ، وتأسيس دولة الإسلام الأولى فيها ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، والله على كل شئ قدير .

- ١٠ -

حب أهل المدينة للإسلام

تميز أهل المدينة بطبيعة مغايرة لأهل مكة بسبب اشتغالهم بزراعة الأرض وفلاحة البساتين ، التى جعلتهم يعيشون بين عوامل طبيعية عديدة لا يدركون شيئاً عن حركتها وبين عمل وسعى لا يعرفون شيئاً عن نتائجه !!

إن تقلب الجو ، واضطراب الطبيعة ، ونزول المطر ، وتغير المناخ كل ذلك له تأثير مباشر فى فكرهم ومعاشهم وحياتهم . لأنهم يتأكدون من وجوده ، ويعرفون أهميته ومع ذلك لا يدركون مصدره ، ولا يعرفون سببه ، ولا يحددون بدايته أو نهايته .... **إنه غيب بالنسبة لهم .**

كما أن نتاج الزرع ، ومحاصيل الضرع وتغير المناخ أمور تتحرك بين يدى قدرة خافية لايعلمون عنها شيئاً كذلك ... **الأمر الذى جعل حكماءهم يتساءلون عن فاعل كل هذا ؟ ... ومدبره ؟ ... والمتصرف فيه ؟**

لقد أدت إقامة اليهود بـ" يثرب " إلى تذكير أهلها بدين الله تعالى القائم على التوحيد ، فلقد كان اليهود أهل كتاب ، يؤمنون بالله الواحد ، و يدينون بدين

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ٧ صـ١١١.

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٢

موسى "ﷺ" ، وهذا أبقى فى عقول أهل المدينة فكرة التوحيد ، مما جعلهم ينظرون إلى الأصنام نظرة باهتة ، فلم يحدث أن أقام أهل المدينة لها بيتاً ، أو قدموها فى الحرب أو هتفوا بها فى مناسباتهم ، وأعيادهم ... وهذا الأمر ساعدهم على تقبل دعوة التوحيد حين جاءتهم ، والدخول فى دين الله تعالى حين علموا به .

كما أن فكرة بعثة نبى بدين الله تعالى صار حقيقة متوقعة بعدما نطق بها اليهود وخوفوا بها العرب ، الأمر الذى دفع الأوس والخزرج إلى تقبل فكرة النبوة ، والتحرك إلى رسول الله ، والإسراع فى اعتناق الإسلام .

جاء فى سيرة ابن هشام ما رواه عاصم بن عمر بن قتادة قال : **لما لقى رسول الله " ﷺ " رهطاً من الخزرج أول مرة قال لهم : من أنتم ؟**

قالوا : نفر من الخزرج .

قال : أمن موالى يهود ؟

قالوا : نعم .

قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى .

فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام أن يهوداً كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شئ قالوا لهم : إن نبياً مبعوثاً ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله " ﷺ " أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلموا والله أنه النبى الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله فلا رجل أعز منك

ثم انصرفوا عن رسول الله " ﷺ " راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا[(١)]

إن الوثنية التى عاشها الأوس والخزرج كانت هزيلة ، بحيث لم تتمكن من تحمل ضغوط الإيمان ، و لم يتحمس أحد من أهل المدينة ليصنع للأصنام هالة ، أو ينشئ لها مكانا مقدساً ، و لم تجد الأصنام فريقاً يعمل لحمايتها ، والدفاع عنها ، كما هو الحال فى مكة ، فلما جاءهم الإسلام أسرعوا إليه ، وتخلصوا من الأصنام تخلصاً كلياً ، وارتبطت نفوسهم بالله حتى كأنهم ولدوا فى الإسلام ، وعايشوه من زمن طويل ، وما كان اتخاذهم للأصنام ، وتوجههم نحوها إلا رمزاً يتشبهون به بغيرهم ، لتكون لهم آلهة . كما كان لغيرهم : ولعل هذا الصمت التاريخي عن مصير آلهة الأوس والخزرج بعد الهجرة يفسر مدى هوان هذه الأصنام عند أهل يثرب ، وعدم الإرتباط بها ، وسرعة وشمولية التخلص منها بعد دخولهم فى دين الله تعالى

إن الإسلام جاء إلى المدينة ، **بعد لقاء العقبة الأول** ، وحملة مصعب بن عمير ﷺ أول داعية أرسله رسول الله " ﷺ " إلى المدينة **بعد بيعة العقبة الأولى** ، وقد قام مصعب بمهمته خير قيام ، فانتشر الإسلام فى كل بيوت المدينة ، خلال مدة لم تدم أكثر من عام واحد ، و لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها قرآن يتلى ، وذكر لرسول الله " ﷺ "إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد ، وخطمة ، ووائل ، وواقف[(٢)]

إن سرعة انتشار الإسلام فى المدينة وإن كان بسبب ما فيه من الوضوح والسماحة والعدل والإنسجام مع تكوين الإنسان ونشاطه وأهدافه ، وبسبب همة مصعب بن عمير " ﷺ " فى الدعوة بصدق وإخلاص ، حيث أخذ يحرك الأفئدة بالقرآن ويلين العواطف بتلاوته البهية ، ويقنع العقول بالحق ، ويرضيها وهو يعرض عليها آيات الله فى الأنفس والآفاق ، مع كل هذا فإن من أكبر العوامل التى ساعدت على هذا الإيمان السريع وضعية أهل المدينة بالنسبة للأصنام ، فلم يحدث أن عارضوا مصعباً ، أو دافعوا عن أصناهم ، أو جادلوا حول ألوهيتها ، وإنما آمنوا بالله مسرعين لشعورهم بما فى ألوهية الأصنام من ريب وشك .

---

(١) سيرة النبى جـ١ صـ٤٢٨ .

(٢) سيرة بن هشام جـ١ صـ٤٣٧ .

لقد كان أغلب الأوس والخزرج يعبدون " مناة " ويصنعون على مثاله أصناماً من خشب يضعونها فى دورهم ... إلا أنهم كانوا يدركون هوانها ، وعجزها ..

يدل على **ذلك ما روى أن عمرو بن الجموح كان قد اتخذ لنفسه صنماً من خشب يشبه "مناة" فلما أسلم فتيان من الأوس كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو فيحملونه فيطرحونه فى بعض حفر بنى سلمة ، وفيها فضلات الناس منكساً على رأسه فلما أصبح عمرو ذهب ليتمسح بالصنم فلم يجده فى المكان الذى تركه فيه ، فأخذ يسأل ، ويقول : ويلكم ! ... من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟**

وأخذ يلتمسه فى كافة نواحى المدينة حتى إذا وجده غسله ، وطهره ، وطيبه ، ثم قال : **أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه !**

فإذا أمسى وقام عمرو عدوا عليه مرة أخرى ، وفعلوا به مثل ما فعلوا ، فيغدو عمرو فيجده فى مثل ما كان فيه من الأذى . فيغسله ، ويطهره ، ويطيبه .

ثم يعدون عليه إذا أمسى ، فيفعلون به مثل ذلك ، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله ، وطهره ، وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال : إنى والله لا أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك .

فلما أمسى ، ونام عمرو عدوا عليه ، فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أحضروا كلباً وربطوه به بحبل ، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها عذر من عذر الناس ، **فلما جاء عمرو فى الغداة لم يجده فى مكانه الذى كان فيه .**

فخرج يتبعه ، وابنه معاذ يحاول أن يهون له من شأن إلهه ، وأن يحببه إلى الإسلام فكان يعرض عن ابنه مغضباً ، وغدا ينقلب عن إلهه ، والمسلمون يزينون فى قلبه دين الله فيثور فى وجوههم ، وإن كان كلامهم يترل بسويداء فؤاده .

واستمر عمرو بن الجموح فى بحثه عن صنمه حتى وجده فى تلك البئر منكساً ، مقروناً بكلب ميت ، فلما رآه وأبصر شأنه قال :

والله لو كنت إلهاً لم تكن — أنت وكلب وسط بئر فى قرن
أف لملقاك إلهاً مستدن — الآن فتشناك عن سوء الغبن

الحمـــــد لله العلـــى ذى المـــــن الواهـــب الـــرازق ديـــان الـــدين
هـــو الـــذى أنقذنى من قبـــل أن أكـــــون فى ظلمة قبر مـــرهـــــن
بأحمد المهدى النبى المرتهن (١)

لقد دخل أهل المدينة فى الإسلام صادقين ، وكانوا خير عون لرسول الله " ﷺ" فى نشر الإسلام ، واشتركوا معه فى غزواته وجهاده .

وقد هيأ الله أنفسهم لتقبل الإسلام بما كانوا يسمعونه من اليهود ، فلقد كـــان اليهود يقولون للأوس والخزرج : **لقد أظلنا زمان نـــبى يـــدعو لـــدين الله تعـــالى وسنسبقكم إليه لننتصر به عليكم ونقتلكم قتل عاد وإرم . فلما بعث رســـول الله ﷺ سبقهم الأنصار ودخلوا فى دين الله تعالى .**

لقد كانت مقالة اليهود تلك بمثابة التنبيه للأوس والخـــزرج ، أدت بهـــــم إلى التفكير فى هذا الدين الجديد ، وهذه المقالة دعوة حسنة ، قدرها الله للمدنيين جعلتهم يفكرون ، وينظرون ، ويؤمنون .

قد يتصور البعض أن مقالة اليهود للأوس والخزرج هى دافعهم الوحيـــد إلى الإسلام وهى التى جعلتهم يسلمون من غير تفكير ليكون السبق لهم !!

وهذا تصور غير صحيح حيث نلاحظ أن إسلام الأوس والخزرج تم بعد ثلاثة لقاءات فى العقبة كثر فيه الحوار بين رسول الله " ﷺ " وبينهم ، ولو كانت غايتهم السبق المجرد لآمنوا واتفقوا ، وبايعوا فى اللقاء الأول .

وأيضاً يعلم عرب المدينة (الأوس والخزرج) جيداً أن اليهود لن يتركوا دينهم أبداً لما اعتقدوه فيه ، لأنهم يرون أن رسالتهم آخر الرسالات ، ونبيهم أعظم الأنبياء ، وأنهم شعب الله المختار ، ولا يعقل أن يتبعوا واحداً من العرب ... وقد ثبتت هـــذه الحقيقة يوم أن قبل اليهود الموت بعد غزوة الأحزاب ، وفضلوه على الإسلام ، وكان يكفيهم يومئذ أن يعلنوا إسلامهم ، ويفوزا بعفو رسول الله ﷺ .

وقد يتصور البعض أن قبول عرب المدينة (الأوس والخزرج) للإسلام كـــان

---

(١) سيرة النبى لابن هشام جـــ١ صـــ٤٥٢ ، ٤٥٣ والقرن الحبل والمستدن الذليل ، والغبن السفه .

للحصول على مصلحة دنيوية عاجلة ، وهى البحث عن الاستقرار ، والأمن ، وتحقيق الصلح فيما بينهم ، ووضع نهاية للحرب التى دامت طويلاً .

لا نتصور ذلك لأن البيعة كانت على الجهاد والحرب ، وهذا يعنى بداية النزاع مع الوثنين فى الجزيرة العربية كلها ، وعلى رأسهم قريش ، وبذلك اتسع الصراع وتشعب وبعدما كان بين الأوس والخزرج صار بين أهل المدينة وبين مشركى الجزيرة كلها ، وعلى رأسهم القرشيون، والأعراب ، وأهل البوادى بعدما كان منحصراً بين الأوس والخزرج .

وأيضاً فإن أهل المدينة بايعوا الرسول " ﷺ " فريقاً واحداً ، بصوت واحد ، وعلى بنود واحدة ، بلا أدنى تنافس بينهم .

و لم يتحدث التاريخ أن قبيلة الأوس وهى القليلة العدد ، الضعيفة القوة كانت هى الأسرع إلى الإسلام لضعفها ...

و لم يتحدث التاريخ أن قبيلة الخزرج .. وهى الكثيرة العدد كانت هى الأبطأ فى اعتناق الإسلام لقوتها .

لم يتحدث التاريخ عن هذا ولا ذاك ، وإنما كان الخزرج هم الأسرع إلى الإسلام قبل الأوس ، مما يدل على أن إسلام أهل المدينة كان يقيناً صادقاً مع الله تعالى قائماً على الرضى والإقتناع .

و لم يكن هدف أهل المدينة تثبيت سلطانهم ، والمحافظة على رئاستهم .. لأن الذى حدث بعد الهجرة يشير إلى غير ذلك ، لأن أهل المدينة أسلموا أمرهم لرسول الله ﷺ وأخذ الرسول ﷺ وأصحابه يتصرفون فى المدينة لأنهم أصحاب الحق فى إدارة المدينة ، وأصحاب الكلمة العليا بها ، وكثيراً ما كانت الإدارة والقيادة للمهاجرين بلا اعتراض من الأنصار .

إن إيمان أهل المدينة (الأوس والخزرج) كان بعد اقتناعهم بالإسلام ، وتقبلهم لمبادئه ، وإيماناً منهم بأنه هو الطريق الصحيح لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة ، ونشر الخير بين الناس بمنهج الله تعالى .

الفصل الأول

السيرة النبوية

من الهجرة حتى وفاته " ﷺ "

السيرة النبوية
فى العهد المدنى

تمهيد :

أخذ كفار مكة فى صد الناس عن الإسلام، والعمل على إطفاء نور الله فى قلوب المؤمنين، واستعملوا من أجل ذلك كافة ما أمكنهم من عمل، وأخذوا فى إلحاق الأذى برسول الله ﷺ وأصحابه معه، حتى أنهم دبروا لقتل رسول ﷺ وآذوا المؤمنين إيذاءً شديداً، وقد أحاطت عناية الله برسوله ﷺ وبدينه ، فساق إلى مكة نفر من الأوس والخزرج، دخلوا فى الإسلام ، وبايعوا رسول الله " ﷺ " على الجهاد، والموت كما هو واضح فى بيعة العقبة الثانية [1] .

فكان أن أمر رسول الله " ﷺ " أصحابه بالهجرة إلى المدينة . وهاجر " ﷺ " بعدهم ولحق بهم، واستقر حال المسلمين بعد تمام الهجرة وتأسيس دولة الإسلام فى المدينة المنورة .

وأخذت الأحداث تتتابع ، وبدأ نصر الله لدينه وللمؤمنين يتحقق فى أرض الواقع، ووصل دين الله إلى العالم كله ، وبذلك عاشت سيرة الرسول ، وحركته لله فى العقول والقلوب، وحفظت فى السطور والصدور ، وبرزت فى الأعمال والسلوك .

وقد تأسست دولة الإسلام الأولى فى المدينة المنورة بعد الهجرة، وصارت نموذجاً حياً لحضارة راقية، قامت على التوحيد الخالص ، والعبودية الكاملة لله وحده والتمسك بالعمل الصالح ، والخلق الكريم .

وفى منهجنا لدراسة هذه المرحلة أحب أن أفرق بين أمرين :

الأمر الأول : أقصد بأحداث السيرة النبوية الأحداث التى عاشها رسول الله ﷺ بصورة شخصية فى جانبها الأغلب، وإن شاركه غيره فيها كهجرته " ﷺ " وإنشاء بيوته، وزواجه، وأولاده ، وتعامله مع أصحابه إلخ . إلى وفاته ﷺ .

---

(١) انظر صـ ٤١١ من الكتاب الثانى .

الأمر الثانى : أعنى بأحداث حركة النبى " ﷺ " بالدعوة، الأحداث التى كان النبى ﷺ يقوم بها مع سائر المسلمين فى نشر الإسلام وتبليغه للناس، وذلك كالجهاد، وإرسال الرسائل، واستقبال الوفود ... إلخ . مما له صلة بتبليغ الإسلام، وإن قام به الرســول ﷺ وحده أحياناً .

إن الترابط بين الأمرين كبير ، إلا إنى فرقت بينهما منهجياً، لأجعل الأمــر الأول فى دراسة السيرة، وأجعل الأمر الثانى فى دراسة حركة الرسول " ﷺ " بالدعوة ... وإن قام بهما معاً رسول الله " ﷺ " .

وفى هذا الفصل تأتى دراسة السيرة النبوية فى العهد المدنى ... ولذلك أراها تتناول المباحث التالية :

المبحث الأول : الهجرة النبوية .

المبحث الثانى : الاستقرار فى المدينة بعد الهجرة .

المبحث الثالث : تنظيم الحياة الاجتماعية فى المدينة .

المبحث الرابع : الحياة الأسرية لرسول الله ﷺ فى المدينة .

المبحث الخامس : رد ما يقال عن تعدد زوجات النبى ﷺ .

المبحث السادس : الحكم العامة فى تعدد زوجات النبى ﷺ .

المبحث السابع : حسن معاشرة النبى ﷺ لزوجاته .

المبحث الثامن : أبناء النبى ﷺ .

المبحث التاسع : الحياة الشخصية لرسول الله ﷺ .

المبحث العاشر : أداؤه ﷺ رسالة الله تعالى .

وأما وفاته ﷺ فسوف أجعله بإذن الله تعالى فى نهاية الحديث عن حركــة الرســول بالدعوة ليكون الحديث فى هذا الموضوع خاتماً للسيرة والحركة معاً .

والله الموفق ،،،

المبحث الأول

" الهجرة النبوية "

تمهيد :

بعث رسول الله ﷺ إلى العالم كله فأخذ يبلغ الإسلام ، ويتحرك به وفق منهج واقعى ، فبدأ بالدعوة فى مكة حيث بدأ نزول الوحى فيها ، واستمرت الدعوة فى مكة موطنها الأول ثلاثة عشر عاماً، تنوعت فيها الوسائل، وتعددت الأساليب، وتحمل المسلمون مع رسول الله ﷺ مسئولية تبليغ الإسلام، ونشره بين الناس .

ومع أن الإسلام دين الخلق الكريم، والمعاملات النبيلة، والعقيدة الصافية الصادقة، ومسلكه الحسن الدائم، وغايته تكريم الإنسان، والمحافظة على كافة الحقوق وتحقيق السعادة الحقيقية فى الدنيا والآخرة .

رغم أن الإسلام هكذا فإن أهل مكة ، وبخاصة كبراؤها وسادها لم يؤمنوا بدعوة الله ، وإنما أخذوا فى ردها ، وصد الناس عنها، يدفعهم الحقد ، وتغذيهم العصبية ، ويحركهم الحرص على وضعيتهم الظالمة التى جعلوها منهج حياهم .

وقد رأينا فى دراسة العهد المكى مدى عدوانية كفار مكة، واضطهادهم لكل من أسلم، ووقوفهم سداً يصد الناس عن استماع دعوة الله ... وأخذوا يتهمون محمداً ﷺ بالأكاذيب المضللة حتى لا يسمعه أحد ، مستفيدين من كثرهم ومترلتهم فى قلوب الناس وتحكمهم فى التجارة والمال ، وقد نجحوا فى عدوانيتهم إلى حد بعيد .

إن عرب الجزيرة كانوا يقولون : " **أهل الرجل أعرف به** " فنأوا بأنفسهم عن الصراع الموجود فى مكة، منتظرين نتائجه ليتخذوا بعد ذلك الموقف الذى يرونه .

لقد دخل فى الإسلام عدد قليل فى مكة ، ولو استمر إيمان الناس بالوتيرة التى سارت عليها خلال العهد المكى لاحتاج رسول الله " ﷺ " إلى الزمن كله ليصل الإسلام إلى الناس فى العالم كله ، لأن جملة من دخل فى الإسلام خلال العهد المكى لم يزد عن المائتين إلا قليلا ، على خوف من طواغيت مكة واعتداء كبرائها .

أمام هذا كان لابد لدعوة الله تعالى أن تتخذ منهجاً جديداً، ومساراً آخر تحقق

به إنطلاقة كبرى للإسلام .

وكان قدر الله تعالى مع حاجات الدعوة وواقعها، ومع آمال رسول الله ﷺ والمسلمين فأمرهم بالهجرة العامة من مكة إلى بلد آخر .

وقد سبق للمسلمين أن هاجر نفر منهم إلى الحبشة، تدريباً لهم على ترك مكة، واكتشافاً لمعرفة حياة الآخرين ومذاهبهم، وليعلموا أن ترك الديار والأهل والمال والولد من أجل العقيدة والدين أمر مشروع، ولربما كان واجباً حين لا يأمن المسلم على دينه وعقيدته .

وقد بلغ عدد المهاجرين إلى الحبشة قريبا من ثمانين مسلماً ومسلمة، ولذلك فهى هجرة خاصة فى عدد المهاجرين، وفى الأهداف المقصودة ، أما الهجرة إلى المدينة فإنها تعرف بالهجرة العامة لأن جميع المسلمين كلفوا بها كما تعرف بالهجرة النبوية لأن النبى ﷺ هاجر فيها مع المسلمين .

ولما اشتد عنت الكفار، وغلظ عدوانهم على رسول الله ﷺ والمؤمنين معه نزل أمر الله تعالى بالهجرة على المدينة . فهاجر إليها المسلمون جميعاً ومعهم رسول الله ﷺ[1].

والحديث عن الهجرة يتناول النقاط التالية :

النقطة الأولى : **تحديد موطن الهجرة .**

النقطة الثانية : أهمية الهجرة .

النقطة الثالثة : تنظيم الهجرة .

النقطة الرابعة : **وقفات بارزة فى الهجرة .**

وذلك فى الصفحات التالية،،،

والله الموفق

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ١ صـ٤٨٠

النقطة الأولى

تحديد موطن الهجرة

إن ترك موطن الصبا والبعد عن الأهل والأحبة إلى مكان جديد لشاق على النفس يحتاج إلى تفهم لسببه، واقتناع بأهميته، والوقوف على الغايات السامية التى تقتضيه .

وكان رسول الله " ﷺ " يعلم صعوبة الأمر بالهجرة على أصحابه ولذلك تدرج فى أمرهم بالهجرة، وإخبارهم بمكانها ووجهتها .

ففى البداية قال النبى " ﷺ " **لأصحابه : إنى أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين** " (١) .

فبدأهم بأنها رؤيا منامية، ورؤيا الأنبياء حق، و لم يحدد لهم مكان الهجرة لتنشغل نفوسهم بالبحث عنها والتفكير فى شأنهم معها ، وليعلموا أنها حصينة لوصفها بأنها بين لابتين، وغنية لأنها ذات نخل .

وقد ظن الصحابة بعد أن أخبرهم الرسول " ﷺ " برؤياه تلك أنها اليمامة (٢) أو هجر (٣)، أو يثرب (٤)، أو قنسرين (٥) لوجود الصفات التى أخبرهم بها رسول الله "ﷺ" فيها، ومع هذا الظن لم يتصرفوا من تلقاء أنفسهم وإنما انتظروا تحديد دار هجرتهم من رسول الله "ﷺ" . ويبدوا أن هذا التحديد تم بعد مراحل تمهيدية .

ففى المرحلة الأولى أخبرهم النبى "ﷺ" برؤياه .

يحدث أبو موسى الأشعرى أن البداية كانت فى قول النبى "ﷺ" : **رأيت فى المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلى إلى أنها اليمامة، أو هجر**

---

(١) صحيح البخارى كتاب المناقب جـ٦ صـ٢٠٨ واللابة الأرض الصخرية المرتفعة ، وهى الحرة .

(٢) اليمامة تقع فى الجنوب الغربى لجزيرة العرب . فتحها خالد بن الوليد وقتل فيها مسيلمة سنة ١٢هـ .

(٣) بلد معروف بالبحرين يسكنها عبدالقيس ، وبها كانت تصنع القلال التى كانت تباع بالمدينة .

(٤) هى مدينة رسول الله ﷺ وقد سماها ﷺ بعد الهجرة طابة وطيبة .

(٥) قنسرين بكسر القاف وفتح النون الأولى مشددة ، وهى إحدى مدن بلاد الشام ..

فإذا هى المدينة " يثرب ") [١] .

وبعد ذلك نزل الوحى على رسول الله "ﷺ" يخيره فى الهجرة إلى واحد من أماكن ثلاث هى : المدينة، أو البحرين، أو قنسرين فعن جرير بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه قال : **(إن الله أوحى إلى أى هؤلاء الثلاث نزلت فهى دار هجرتك، المدينة، أو البحرين، أو قنسرين)** [٢] .

ثم كان تحديد دار الهجرة بعد ذلك، يروى الترمذى فى سننه أن النبى "ﷺ" بعد أن أخبر أصحابه بالهجرة من مكة بأيام خرج إليهم مسروراً، وهو يقول لهم : **قد أخبرت بدار هجرتكم وهى يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها** [٣] .

وإنما كان التدرج حول أمر الهجرة مراعاة لحال المهاجرين حتى يسهل عليهم ترك الأهل والدار، وربما كان لأحدهم ارتباط معين يحتاج إلى وقت لينتهى منه ويؤدى ما عليه .

ولعل تأخير تحديد المكان يؤدى إلى صرف أذهان القرشيين عن أهمية الهجرة ، وإدراك خطورتها عليهم وعلى تجارتهم لأنهم كانوا يخافون من دخول أهل المدينة فى الإسلام لتأثيرهم على أهل مكة وبخاصة إذا انضم الرسول ﷺ إليهم ، وقادهم بدينه الذى يدعو إليه.

و لم يتصور أهل مكة أن الهجرة هذه المرة ستكون شاملة للرسول والمسلمين جميعاً وظنوها واحدة تشبه سابقيها ، ولذا لما بدأ المسلمون فى الرحيل إلى المدينة لم يتعرض لهم أحد، مع أنهم كانوا يخرجون أرسالاً [٤] ظناً من أهل مكة أن الرسول ﷺ لن يلحق بهم كما فعل مع مهاجرى الحبشة .

وقد رحلت عائلات بأكملها فقبيلة بنى غنم رحل منهم، أربعة عشر رجلاً، وسبع نسوة، كما تحرك عمر بن الخطاب ﷺ ، وأهله، وعشيرته وحلفاؤه فى عشرين رجلاً وامرأة .

---

(١) صحيح البخارى - كتاب مناقب الأنصار- باب هجرة النبى "ﷺ" وأصحابه جـ٧ صـ ٢٢٦

(٢) سنن الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى . ك المناقب . باب فضل المدينة جـ١٠ صـ ٢٩٢

(٣) سنن الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى . ك المناقب . باب فضل المدينة جـ١٠ صـ ٢٩٢

(٤) أرسالاً . أى جماعة إثر جماعة .

واستمر رحيل المسلمين من مكة حتى لم يبق منهم إلا رسول الله ﷺ وبنوه، وأبو بكر وبنوه،، وعلى بن أبى طالب، وأسامة بن زيد حيث أبقاهم رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى، فلما علم أهل مكة بإعداد الرسول ﷺ للهجرة خافوا من الأمر ووقع فى أيديهم ، فأخذوا فى التخطيط لقتل رسول الله ﷺ حتى لا يقع مايحذرون منه .

النقطة الثانية

أهمية الهجرة

الهجرة هى الترك مطلقاً، وتشمل ترك المحسوسات والمعنويات، ولذلك فهناك ترك المعاصى، وترك الأفكار الضالة، وهناك ترك الديار والبلاد والرحيل عنها إلى مكان آخر، وكلاهما هجرة وترك ، والفاعل لأحدهما مهاجر وتارك .

ومن الهجرة الحسية ما تقوله الملائكة للمستضعفين الذين ظلموا أنفسهم، وبقوا تحت سيطرة الطغاة أذلاء مستعبدين ليقيموا عليهم الحجة، ويبينوا لهم أن الضعف معصية وجريمة يعاقب الله من رضى به، وهو قادر على الخلاص وذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾(١) .

ومن الهجرة المعنوية جاء قوله "ﷺ" (**إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**)(٢) .

وقد هاجر المسلمون إلى الحبشة تاركين مكة وما فيها من ضلال وشرك ، فهى هجرة حسية ، وهجرة معنوية معاً .

والهجرة إذا اطلقت فإنها تنصرف إلى هجرة المسلمين ومعهم رسول الله ﷺ

---

(١) سورة النساء آية ٩٧ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الإيمان جـ١ صـ٥٣ وهذه رواية الحميدى ط الأوقاف .

من مكة إلى المدينة المنورة، والذين قاموا بالهجرة هم المهاجرون الذين قال الله فيهم : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ [١] .

ويندرج معهم كل من ترك موطنه أيا كان موقعه ، ولحق برسول الله "ﷺ" فى المدينة ... يقول ابن الأثير : (والمراد بالمهاجر فى الشريعة من فارق أهلـــه، ووطنـــه، وجاء إلى بلد الإسلام، وقصد النبى "ﷺ" رغبة فيه، وإيثاراً له) [٢] .

وكلام ابن الأثير لا يقيد الهجرة بمكان خاص وإنما يجعل الهجـــرة شـــاملة لأى مكان ما دامت تقصد الرسول "ﷺ" فى بلد الإسلام رغبة فى صحبته، وإيثاراً للـــتعلم منه، وابتعاداً عن أعداء الله الذين يبغونهم الفتنة والضرر .

وعلى ذلك فمن ترك دار الشرك، ولحق بدار الإسلام فهو مهاجر، يقول ابـــن عباس رضي الله عنه : (**كان رسول الله "ﷺ" وأبوبكر وعمر من المهاجرين، لأنهم هجـــروا دار الشرك إلى دار الإسلام، وكان من الأنصار مهاجرون تركوا المدينـــة يـــوم أن كانت دار شرك وقصدوا رسول الله "ﷺ" عند العقبة**) [٣] .

والهجرة المقصودة من الدراسة هى الهجرة إلى المدينة المنورة .

وترجع أهمية الهجرة إلى المدينة المنورة إلى أنها تمثل الإنطلاقة الكبرى لانتشـــار الإسلام بعد ما وقف أهل مكة من الإسلام والمسلمين موقف العنـــت والكبريـــاء ، وأخذوا يصدون عن سبيل الله بكل وسيلة ممكنة، مهما كان فيها من الكذب والغلـــو والبعد عن الحق والسداد .

يصور القرآن الكريم موقف أهل مكة من الدعوة إلى الله تعالى ويبين بوضـــوح أنهم لم يتدبروا حقيقتها، و لم يتفهموا ما تدعوهم إليه، وإنما كانت اعتراضاتهم تتســـم بالفوضية، واللجوء إلى السفه والجهل، وتبتعد ابتعاداً كلياً عن المناقشة الهادفة الصحيحة .

---

(١) سورة الحشر آية ٨ .

(٢) جامع الأصول جـــ١ صـــ٢٤١.

(٣) انظر صـــ٤٦٨ من الكتاب الثانى .

فالرسول "ﷺ" يدعوهم إلى دين الله تعالى، ويدلل على الحق بالحسنى، ويبين الإسلام بكافة الوسائل والأساليب، ويقدم أمامهم الآيات الواضحات، ومع ذلك استمروا على عنتهم وغلوهم متعللين بالحجج الواهية والأجوبة الباهتة .

فمرة يبرزون تميزهم بالغنى المادى والوجاهة الاجتماعية والسلطان القوى ومادروا أن ما هم فيه من فضل هو من الله، والأولى بهم أن يشكروا الرازق المعطى، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ (١) .

ومرة يطالبون الرسول "ﷺ" بتبديل الآيات، والإتيان بغيرها، وكأنهم فى حفلة راقصة، تغير فيها الراقصة الملابس مع كل مقطع وأغنية، متصورين رسول الله قادراً على التغيير أو التبديل ..وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢)

ومرة يشعرون بالعجز، فيتهمون رسول الله "ﷺ" بما ليس فيه، ويصفونه بالكذب والسحر ومعاداة دين الآباء يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٣) .

ومرة يتعنتون فى المناقشة ، ويطلبون من الرسول أن يعيد لهم آباءهم من قبورهم ليشهدوا بصدقة . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ

---

(١) سورة مريم آية ٧٣ .

(٢) سورة يونس ١٥ .

(٣) سورة سبأ آية ٤٣ .

حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [(١)].

ومرة **يصيبهم الحنق والغيظ**، وتبدى منهم العداوة للمؤمنين يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [(٢)].

ومرة **ينكرون الحق ، الثابت مستدلين بعدم الفهم** ، وجنوحهم إلى الظن ، والخيال يقول الله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [(٣)]

ووصل الحال بأهل مكة أنهم حاولوا قتل رسول الله "ﷺ" أكثر من مرة، وكان أن نجاه الله منهم .

وقد اشتد إيذاء الكفار لكل من أسلم لمنعهم من الإسلام، وإبعادهم عن رسول الله "ﷺ" .

ولذلك كان الإذن بالهجرة نهاية لفترة مؤلمة عاشها المسلمون، وبداية لقوة الإسلام وتطبيقه فى حركة الحياه والناس .... وكان هذا سبب رضى المؤمنين وسعادتهم .

لقد كانت هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة مرحلة طبيعية، انطلقت فيها دعوتهم بعد حصارها الطويل ، وكانت انفراجة حاسمة لابد منها لنشر كلمة الحق بين القاصى والدانى بلا عائق أو عناد .

وكان المسلمون قد أدركوا بعد أن استعصى عليهم الإنطلاق إلى غايتهم الكبرى أن تغيير المكان والأقوام أمر ضرورى لتحقيق النجاح المنشود .

---

(١) سورة الجاثية آية ٢٥

(٢) سورة الحج آية ٧٢

(٣) سورة الجاثية الآية ٣٢

و لم يعد ممكناً للمسلمين أن يمارسوا نشاطهم المحدود المقيد فى مكة بعد ثلاث عشرة سنة كانت محسوبة من عمر دعوتهم، وتيقنوا من حاجة الإسلام والمسلمين إلى منطلق أمين . يمكنهم من الوصول للناس فى العالم كله ... ولهذا كانت استجابتهم لرسول الله ﷺ حين أمرهم بالهجرة إلى المدينة المنورة .

كانت الهجرة للمدينة إذن أمراً ضرورياً، بعد أن هيأ أهلها للمسلمين المكيين الفرصة الطيبة للخلاص من مراقبة الأعداء، والبعد عن اضطهادهم وعنتهم .

كان المطلوب آنذاك أن يهاجر من مكة جميع القادرين على تركها، ليتخذوا المدينة مركزاً جديداً للدعوة وقد تحقق هذا، و لم يبق فى مكة إلا من حبس أو فتن .

ولا شك أن هجرة المسلمين كانت معروفة لأعدائهم لأنهم لم يكونوا يعيشون وحدهم فى مجتمعات منعزلة، وإنما كانوا يعاشرون جماعات تعارضهم وتحرص على تعطيل دعوتهم، ولهم معهم كل يوم معارضات ومشاحنات، ولذلك كان أهل مكة يدركون رحيل المسلمين من بينهم كلما غابوا عنهم .

وخرج المسلمون من مكة غير آسفين عليها، وقدموا على المجهول تاركين أهلهم وأموالهم مرغمين ، وكانوا مع ذلك راضين بالحياة الجديدة الآمنة، وكان طريق الهجرة مفتوحاً أمامهم فهاجر بعضهم أمام الناس، وتسلل بعضهم الآخر فى ظلمات الليل فى غفلة وستر .

و لم يكن فى الهجرة عند بدايتها شئ من الخطر، و لم يقف أهل مكة ضدها ، ولعلها كانت تبدو أمام المشركين نوعاً من الهروب من ميدان العمل، أو نوعاً من السلبية أمام الأخطار ، ولعلهم قاسوها على هجرة المسلمين قبل ذلك إلى الحبشة ، وظنوها مجرد رحيل فريق من المسلمين إلى غير بلدهم ليعيشوا غرباء مدة يعودون بعدها إلى مكة .

و لم يعجز القرشيون أن يوجدوا لأنفسهم بعض التعليلات المناسبة لأفهامهم ، بسبب عدم معارضتهم للمسلمين وهم يرحلون عن مكة ، فلقد تصوروا أن هجرة المسلمين راحة لهم مما يرون ويسمعون، وأملوا فى الفصل بينهم وبين رسولهم، وبخاصة

أن الرسول باق فى مكة معهم كما تصوروا .

ولم يكن المسلمون آنذاك قوة تؤثر بالضرر على المنطقة أثناء الهجرة، فتركهم أعداؤهم يهاجرون بعد أن ضحوا بكل شئ فى سبيل عقيدتهم، ولم يكن فى الهجرة شئ من العنف أو الإثارة، ولذلك سمح القرشيون لكثير من المهاجرين بالهجرة بعد أن تركوا أموالهم وبيوتهم .

وبدت هجرة المسلمين أمام المشركين كأنها نوع من الهزيمة، أو صورة للفرار من ميدان التنافس والصراع .

إلا أن الهجرة لم تكن شيئاً من ذلك أبداً، لأن المهاجرين ذهبوا إلى المدينة ليباشروا الأعمال الضخمة التى تخدم الدعوة، ويتحملوا مسئوليتها أمام الناس.

وقد تحول الإسلام بهم إلى مجتمع متكامل ينطق بالعمل والتطبيق فى حيوية ونشاط ، ويتوحد بأخوة العقيدة التى تربط بين القلوب والأرواح ، وتجمع بين الأجساد والأعمال ، وتجعل الطريق والهدف واحداً ، وتزيل جميع الفوارق المادية ، وتقضى على غبش الهوى ونزغات الضلال .

إن المهاجرين لم يضيعوا وقتاً يخدمون فيه دينهم ، وبخاصة بعد أن هاجر الجميع وعلى رأسهم رسول الله ﷺ .... لقد بدأت المواجهات الحاسمة ، والأعمال المتابعة فى خدمة الدعوة إلى الله تعالى .

قد يتصور أحد أن الهجرة المسلمين من مكة إلى المدينة المنورة كانت من أجل الراحة والهدوء ، وإيثاراً للسلامة من اضطهاد يتعرضون له فى مكة ، أو ستراً لضعفهم وقلتهم .... وكل هذا غير صحيح ، ومردود .

أين هى السلامة وسط السرايا والغزوات التى اشتركوا فيها ؟ والتى لم تنقطع طوال الفترة المدنية ؟!

وأين هذا الهدوء وقد تحولت حياتهم كلها إلى عبادة، ودعوة، وجهاد؟

وأين هذا الضعف فى المهاجرين وقد تنوعت غزواتهم فى كل الجهات والقبائل المحيطة بالمدينة ؟

إنهم هاجروا لله ورسوله ، واستمروا على ذلك حتى ماتوا لله ورسوله .

وقد شجع المسلمون أهل مكة بصمتهم ، وتواضعهم على قبول هذا التحليل الكاذب ليصرفوهم عن ملاحقتهم بالضرر .

وربما كان القرشيون يقنعزن أنفسهم بقبول هذا الفهم ويصدقون خيالهم ، لبفتخروا أمام الناس بانتصارهم على المسلمين بعد الخصومات الطويلة .

لقد تصور القرشيون صدق نظرتهم فى المهاجرين لأن المهاجرين لم يتكلموا عن شئ ، وكل ما اعتنوا به حين الهجرة هو خروجهم من مكة إلى حيث أمر رسول الله ﷺ .

وقد بقى رسول الله ﷺ فى مكة ليكون آخر من يهاجر منها، ولعله كان يخشى على أصحابه إذا هاجر قبلهم فنصحهم بالرحيل قبله ليضمن لهم نوعاً من الأمن والسلامة، وليكون خلف ظهورهم كالقائد الذى اضطرته ظروف الحرب للانسحاب فإنه يبقى مع آخر المتراجعين من جيشه أملاً فى سلامتهم وتحقيقاً للغايات المطلوبة منهم

ولعل الرسول "ﷺ" كان يضلل أعداءه ببقائه بينهم ليوهمهم بأنه سيكون معهم بعد ذهاب أصحابه إلى المدينة ... وبذلك تنتهى خطورته ويفقد أنصاره ويعيش صامتاً مداهنا لأن القائد بمفرده لا يفعل شيئاً، وكل قوته فى تنفيذ جنوده، وأتباعهم لأوامره وتوجيهاته

لقد تبخرت تصوراتهم كالسراب بعد أن هاجر رسول الله ﷺ ولحق بأصحابه فى المدينة ، وبدأت دولة الإسلام تتعالى ، وتنطلق فى العالمين .

النقطة الثالثة

تنظيم الهجرة النبوية

هاجر المسلمون من مكة ورحلوا إلى المدينة و لم يبق فى مكة أحد من المسلمين إلا على بن أبي طالب رضي الله عنه وأبا بكر الصديق رضي الله عنه وأبناء ابى بكر، وأسامة بن زيد، وعامر بن فهيرة فلقد بقوا مع رسول الله "ﷺ" بأمره، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة .

فيقول له رسول الله "ﷺ" : **لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً** [(١)] ، فيطمع أبوبكر أن يكونه، وأخذ يستعد لذلك فابتاع راحلتين وحبسهما فى داره، وأخذ فى علفهما والاهتمام بهما، واستمر الحال على هذا مدة أربعة أشهر[(٢)] حتى تمت الهجرة النبوية، فى إطار تنظيم قدره الله تعالى لرسوله ﷺ وقد اشتمل تنظيم الهجرة على ما يلى :

- أولاً -

تآمر القرشيين على قتل رسول الله "ﷺ"

هاجر المسلمون إلى المدينة وبدأ أهل مكة يشعرون أن تجمع المسلمين فى المدينة مع أهلها خطر عليهم، وبخاصة إذا لحق محمد ﷺ بهم فأخذوا يتآمرون للقضاء على رسول الله ﷺ وهو بينهم قبل أن يتركهم إلى المدينة ويتعاظم شأنه .

يقول ابن إسحاق : ولما رأت قريش أن رسول الله "ﷺ" قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، وعرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ فاجتمعوا له فى دار الندوة، يتشاورون فيما يصنعون فى أمره ﷺ حين خافوه، وكان ذلك فى شهر صفر من العام الثالث عشر للنبوة .

فلما غدوا فى اليوم الذى اتعدوا له اعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل نجدى يتسم بالهدوء والوقار و عليه بتله [(٣)] فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها، قالوا : من الشيخ؟

قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً .

قالوا : أجل ، فادخل فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش .

---

(١) صحيح البخارى كتاب المناقب جـ٦ صـ٢٠٨ .

(٢) صحيح البخارى كتاب المناقب جـ صـ٢٠٨ .

(٣) فى " بت " ... والبتلة والبت : الكساء الغليظ .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا مع من اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً .

قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً ، والنابغة، ومن مضى منهم ، حتى يصيبه ما أصابهم .

فقال الشيخ النجدى : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره .

فتشاوروا ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا، وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

فقال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه، حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم فى بلادكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم دبروا فيه رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحدٍ ، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم.

فقال الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل، هذا الرأى الذى لا أرى غيره ،

فتفرق القوم على ذلك، وهم مجمعون على تنفيذه [١] .

وقد وقع اختيارهم على أحد عشر رجلاً من أكابر قريش وهم :

١) أبو جهل بن هشام .

٢) الحكم بن أبي العاص .

٣) عقبة بن أبي معيط .

٤) النضر بن الحارث .

٥) أمية بن خلف .

٦) زمعة بن الأسود .

٧) طعيمة بن عدى .

٨) أبو لهب .

٩) أبي بن خلف .

١٠) نبيه بن الحجاج .

١١) منبه بن الحجاج .

اجتمع هؤلاء الرجال المختارون وفيهم أبو جهل بن هشام عند بيت رسول الله ﷺ لتنفيذ المؤامرة المتفق عليها، فقال لهم أبو جهل وهم على بابه ﷺ استهزاء وسخرية : **إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها .**

استمرت هذه الجماعة فى حصارها لرسول الله ﷺ لتقتله فور خروجه إليهم ، لكنه ﷺ خرج عليهم وأخذ حفنه من تراب فى يده وألقاها على رؤوسهم وهم فى عماية وغشاوة ، ثم قال ﷺ : **نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم يا أبا جهل،** وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلم يروه ﷺ ، فجعل ينثر التراب على رؤسهم و يتلو هؤلاء الآيات من سورة يس، وفيها يقول الله تعالى : ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝

(١) سيرة النبى لابن هشام جـ١ صـ٤٨٠-٤١٣ .

إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ [(١)] فلما فرغ رسول الله ﷺ من قراءة هذه الآيات، لم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب [(٢)] .

ثانياً

التخطيط للهجرة

قدرة الله غالبة، وأمره سبحانه وتعالى نافذ، وكان من اليسير أن يزيل الكفر والكافرين بـ " كن " .. لكن إرادة الله قضت بجريان أمور الدعوة على عادة البشر وسنن الحياة، ليتملى المسلمون حركة القدرة الإلهية، وينظروا فى مسار الأمور اعتباراً، وعظة، ولذلك كانت الهجرة عملاً بشرياً، راعت كافة الاحتمالات، ورسمت منهجاً للحركة الصحيحة، وقد أعان الله تعالى رسوله والمسلمين على النجاح، وقدر لهم أن يتم أخطر عمل فى حياة المسلمين بفكر البشر، ليكون دليلاً للمستقبل ومبدأ للتأسى، وقد عالجت الخطة جميع الجوانب التى نلحظها فى الأمور التالية :

١) الإعداد المسبق للهجرة :

أعد الرسول "ﷺ" للهجرة عدتها قبل أن يتحرك من بيته .

تقول عائشة رضى الله عنها : **فبينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر [(٣)] الظهيرة قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله "ﷺ" جاء متقنعاً [(٤)] فى ساعة لم يكن يأتينا فيها !**

---

(١) سورة يس من آية ١ إلى آية ٩ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ١ ص٤٨٠ .

(٣) أى أول الزوال ، وهو أشد ما يكون فى حرارة النهار .

(٤) أى مغطياً رأسه من شدة الحرارة .

فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر .

تقول عائشة : فجاء رسول الله "ﷺ" فاستأذن، فأذن له .

فلما دخل "ﷺ" قال لأبي بكر: أخرج من عندك .

فقال أبو بكر : إنما هم أهلك[1] بأبي أنت يا رسول الله .

قال "ﷺ" : فإني قد أذن لي في الخروج .

فقال أبو بكر : الصحابة[2] بأبي أنت يا رسول الله .

قال رسول الله "ﷺ" : نعم .

قال أبو بكر : فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين .

قال رسول الله "ﷺ" : بالثمن[3] .

قالت عائشة : فجهزناهما أحث الجهاز[4] وصنعنا لهما سفرة في جراب[5] .

وقد نظم رسول الله "ﷺ" أمر الهجرة وحدد لجميع من سيساعده دوره وعمله، كما سيتضح ذلك من عمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعبد الله بن أبي بكر، وعامر بن فهيرة، وعبدالله بن أريقط، وأسماء بنت أبي بكر .

٢) مبيت علي رضي الله عنه على فراشه "ﷺ" .

لما عزم رسول "ﷺ" على الهجرة وعلمت قريش ذلك، وخافت على نفسها من أثر إيجاد قوة للمسلمين خارج مكة، قررت قتل رسول الله "ﷺ" وفق الخطة التي قرروها في اجتماع دار الندوة .

وفي الليلة التي عزم الرسول "ﷺ" على الهجرة فيها، تجمع فتيان قريش حول

---

(١) أراد بذلك عائشة وأسماء ، والمقصود أنهم من أهل دينك فلا تخش منهم ، كما جاء في رواية موسى بن عقبة ففي روايته " أخرج من عندك ، قال : لا عين عليك ، إنما هما ابنتاي ".

(٢) أي أريد مصاحبتك يا رسول الله .

(٣) مع أن أبا بكر أنفق الكثير من ماله على الدعوة ورسولها ، إلا أن الرسول "ﷺ" حرص على دفع الثمن حتى لا تكون هجرته إلا من مال نفسه .

(٤) أفعل تفضيل من الحث وهو الإسراع ، والجهاز : ما يحتاج إليه في السفر .

(٥) أي زاداً في جراب ، وأصل السفرة الزاد ثم استعملت في وعاء الزاد ، وإنما أرادت السيدة عائشة من اللفظة هنا أصلها اللغوي .

بيت النبى ، يرصدونه حتى ينام، فيثبون عليه، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله "ﷺ" بمؤامرة القوم، وأمره أن لا يبيت هذه الليلة على فراشة الذى يبيت عليه ... فقال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب : **نم على فراشى، وتسج ببردتى هذا الحضرمى الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شئ تكرهه منهم** (١) .

ولقد نجحت هذه الخطة نجاحاً واضحاً، فلقد رأى رجل رسول الله ﷺ وهو يخرج من بيته، ويضع على رؤوسهم التراب . فجاء للفتيان وقال لهم : خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك فيكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، أفما ترون ما بكم ؟

فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب فظنوه بسبب الريح، أو بغيره، و لم يصدقوا الرجل فى مقالته، واستمروا على ظنهم أن رسول الله "ﷺ" لم يخرج لرؤيتهم رجلاً على فراش رسول الله "ﷺ" وكانوا ينظرون إلى الفراش بين الفينة والفينة فيجدون شخصاً مسجاً ببرد رسول الله، فيظنونه نائماً ولذلك استمروا فى مكانهم .

فلما جاء الصباح، وقام على من نومه وخرج عليهم، علموا أنهم قد خدعوا، وقال بعضهم لبعض : **لقد صدقنا الذى حدثنا** (٢) .

ونلاحظ دقة التخطيط وحسن الاختيار فى مبيت على رضي الله عنه مكان رسول الله، فلقد اختار رسول الله "ﷺ" ابن أخيه لينام مكانه لما فى مبيته من تضحية، والموت فيها وارد، وما دام الأمر هكذا فلتكن التضحية بالأهل والأقارب أما فى صحبة الهجرة فلقد اختار الرسول "ﷺ" أبا بكر رضي الله عنه ليعلم الجميع أن غاية رسول الله "ﷺ" تبليغ رسالته التى كلف بها، ولو كان يقصد الزعامة لأخذ نفراً من قبيلته مثل على بن أبى طالب، أو حمزة بن عبد المطلب أو غيرها .

ومن قدر الله أن الرجال الذين أحاطوا ببيت النبى "ﷺ" انصرفوا عن اقتحامه، وبقوا خارج الدار حتى الصباح، و لم يتعجل أهل مكة خبر مقتل محمد مع أن

---

(١) تهذيب السيرة صـ١١٢ .

(٢) سيرة النبى لابن هشام جـ١ صـ٤٨٣ بتصرف .

رجالهم جاءوا واستعدوا لتحقيق هذه الغاية .

يذكر السهيلى أن الرجال حينما هموا بالدخول لقتل رسول الله "ﷺ"، سمعوا صياح امرأة من داخل الدار، فقال بعضهم لبعض : **والله إنها لسبة فى العرب أن يتحدث الناس عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم، وهتكنا ستر حرمتنا** (١).

وهكذا جرى قدر الله، وخرج الرسول ﷺ ليلاً إلى دار أبى بكر، وصرف الله أهل مكة عن حراسة الطرق المؤدية إلى بيت رسول الله ﷺ ظناً منهم أنهم أحكموا الخطة ، ولن يتمكن محمد ﷺ من الخروج من بيته ورجالهم يحيطون به .

ووصل محمد ﷺ إلى بيت أبى بكر فاصطحبه وذهبا سوياً إلى الغار .

٣) الوصول إلى غار ثور :

خرج رسول الله "ﷺ" من داره ليلاً وذهب مسرعاً إلى دار أبى بكر فوجده مستعداً للرحيل، فخرجا سوياً من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر، وسارا معاً فى نفس الليلة إلى الغار المتفق على الاختباء فيه، وعندما وصلا إلى الغار طلب أبو بكر من رسول الله "ﷺ" أن ينتظر حتى يدخل هو الغار ينظر ما فيه، وذلك من باب الحرص على سلامة رسول الله "ﷺ" فلربما كان فى الغار حيوان مؤذ، يتصدى له أبو بكر فداء لرسول الله ﷺ

عن ابن مليكة أن النبى "ﷺ" لما خرج هو وأبو بكر إلى ثور فجعل أبو بكر يكون أمام النبى "ﷺ" مرة، وخلفه مرة، فسأله النبى "ﷺ" عن ذلك فقال : إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك، وإذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك حتى انتهيا إلى الغار من ثور، قال أبو بكر : قف كما أنت حتى أدخل يدى فأحسه، وأقصه، فإذا كانت فيه دابة أصابتنى قبلك . قال نافع (٢) : فبلغنى أنه كان فى الغار جحر فألقم أبو بكر رجله ذلك الجحر تخوفاً أن تخرج منه دابة ، أو شئ يؤذى رسول الله "ﷺ" .

وفى الوصول للغار نلحظ الأعمال التالية .

- فلقد خرج الرسول ﷺ وأبو بكر من الخوخة خلف البيت ليبتعدا عن أعين

---

(١) الروض الأنف جـ١ صـ ٢٢٩ .

٢) هو نافع بن عمر الجمحى الراوى عن ابن أبى مليكة .

القرشيين الذى يعملون على قتل رسول الله ﷺ [١] ومن المحتمل اهتمامهم بمراقبة بيت أبى بكر فى هذه الليلة الحاسمة .

- التحرك السريع ليلاً فلقد وصل النبى وأبو بكر إلى الغار فى نفس الليلة التى خرج فيها الرسول من بيته، مع أن جبل ثور يقع جنوب مكة بخمسة أميال، والطريق إليه وعر وشاق .

- الاتجاه نحو الجنوب جهة اليمن مع أن المدينة جهة الشمال، لأن القرشيين عندما يدركون هرب رسول الله "ﷺ" سيبحثون عنه فى كل أنحاء مكة، وبخاصة جهة المدينة المنورة التى هاجر إليها المسلمون .

يقول المباركفورى : ولما كان النبى "ﷺ" يعلم أن قريشاً ستجد فى الطلب، وأن الطريق الذى ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسي، المتجه شمالاً، فقد سلك الطريق الذى يضاده تماماً، وهو الطريق الواقع جنوب مكة، والمتجه نحو اليمن ... نعم سلك النبى ﷺ هذا الطريق وسار فيه نحو خمسة أميال حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور ، وهو جبل شامخ، وعر الطريق، صعب المرتقى، ذو أحجار كثيرة [٢]

- المكث فى الغار ثلاثة أيام، وهى المدة التى سوف ينشط فيها القرشيون للبحث عن رسول الله "ﷺ"، وفيها سيجندون الرجال، ويبحثون فى كافة الجهات، ومن المنتظر أنهم بعد ثلاثة أيام سيصابون بالإحباط، ويهدأون .

- أمر الرسول "ﷺ" مولى أبى بكر عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه بالنهار، ويسير بها حيث سار الرسول وصاحبه لتنمحى أثارهما . فلا يستطيع أحد اقتفاء أثرهما، وقد قام عامر بن فهيرة بما كلف به خير قيام .

٤) البقاء فى الغار :

استقر الرسول "ﷺ" وصاحبه أبو بكر فى الغار، ونشط المكيون فى البحث عن محمد "ﷺ" بعدما فر منهم، ورصدوا لمن يأتى به حياً، أو ميتاً مائة من الإبل، و لم

---

١) الخوخة وهى فتحة ضيقة كانت فى ظهر بيت أبى بكر تجهد من يخرج منها ، ويحتاج الخارج منها إلى مساعدة وعون .

٢) الرحيق المختوم صـ١٦٤ طبع ونشر دار السلام – الرياض سنة١٩٩٣م .

يقصروا فى السعى فلقد أحضروا رجالاً يقتفون الأثر ، يقودوهم إلى الناحية التى سار فيها محمد "ﷺ" ... وتتبع الدليل أثر الرسول وأبى بكر، فوجد أهما أخـذا طريـق اليمن، وساروا فيه حتى وصلوا إلى غار ثور وتوقفوا، فأخذ القرشـيون يفتشـون فى جبل ثور حتى وصلوا إلى الغار، ونظروا فيه فوجـدوا على بابه نسيـج العنكبوت ، وحمامتين مع بيضهما فى عشهما، فقالوا : **لو دخل محمـد هاهنـا لانهـدم بيـت العنكبوت و لضاع عش الحمامة وانكسر بيضها !!**

و نظر أبو بكر فرأى رجلاً مواجهاً للغار فقال : **يا رسول الله إنه ليرانا .**

فقال رسول الله "ﷺ" : **كلا إن الملائكة تسترنا بأجنحتها .**

فجلس الرجل وبال جهة الغار، فقال رسول الله "ﷺ" : **لو كان يرانا ما فعل ذلك** (١) .

واشتد خوف أبى بكر ﷺ وقال للنبى "ﷺ" **لو نظر أحدهم تحت أقدامه لرآنا !!** فقال له النبى "ﷺ" : **اسكت يا أبا بكر . ما بالك باثنين الله ثالثهما** (٢).

واستمر الرسول فى الغار ثلاثة أيام بعيداً عن الناس إلا أن التخطيط الذى وضعه الرسول "ﷺ" للهجرة جعله يحيط بكل ما يدور بين المكيين، ويسهل له وصول كـل ما يحتاجه من سبل الحياة وأخبار الناس .

– فلقد أمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع ما يقوله الناس فى النهار علـى أن يأتى رسول الله "ﷺ" فى المساء بما كان فى ذلك اليوم من خبر .

– وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بالطعام والشراب بما يصلحهما إذا أمست .

– وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يرعى الغنم بالنهار على أن يأتى بالغنم إلى الغار ليلاً ليسقيهما لبناً، وليعفو أثر عبد الله وأسماء .

وبعد أن مكث رسول الله "ﷺ" وأبو بكر فى الغار ثلاثة أيام سكن الناس، وشعروا أن محمداً فر بعيداً عن مكة، فأتاهما عبد الله بن أريقط الذى استأجره الرسـول دلـيلاً

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد باب الهجرة جـ٦ صـ٦٦ ، ٦٧

(٢) صحيح البخارى كتاب المناقب باب الهجرة جـ٦ صـ٢٢١

للهجرة ومعه بعيراهما وثالث له، وأتتهما أسماء بزاد السفر الذى لم تجعل له حبلاً يعلق به، فشقت نطاقها نصفين جعلت أحدهما حبلاً للزاد فسميت بذات النطاقين لذلك [١] .

٥) فى الطريق إلى المدينة :

خرج رسول الله "ﷺ" من الغار بعد ثلاثة أيام، وقادهما الدليل إلى حيث يقصدون بكل أمان وصدق، وسيطر الحذر على الركب الكريم فى مسيرته، وبرزت مواقف عديدة صنعها القدر الإلهى، وأبقاها عبرة، وعظة للناس . وأهم هذه المواقف ما يلى :

- استفاد الرسول "ﷺ" فى الهجرة بخبرة رجل مشرك هو عبد الله بن أريقط، وأستأجره ليكون الدليل لمعرفته بالطرق ومساراتها .. وهذا أمر جائز شرعاً لتعين الرجل لذلك العمل وعدم وجود أحد من المسلمين للقيام بهذا الدور، وأيضاً فإن فى اختيار رجل مشرك لقيادة الرحلة من الأمور التى تعمى على أهل مكة طريق الهجرة لأنهم لا يتصورون مشركاً يقود محمداً وصحبه فى الطريق .

- لم يسلك الركب الطريق إلى المدينة بعد الخروج من الغار وإنما أمعن فى الاتجاه إلى الجنوب، ثم اتجه غرباً نحو الساحل حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس اتجه شمالاً على مقربة من شاطئ البحر الأحمر .

- إن الطرق بين مكة والمدينة وعرة، موحشة لا يرى فيها المسافر ما يخفف عناء السفر من زرع وماء، وأساسها طريقان :

أحدهما شرقى محاذ لبلاد نجد .

والآخر غربى محاذ لساحل البحر الأحمر .

وقد اختار الدليل الطريق الثانى . بيد أنه لم يسلك جادة هذا الطريق طوال الرحلة بل كان يلتوى هنا وهناك تفادياً من أن يلحقهم من يقفوا أثرهم من القرشيين ممن كان يطمع فى الحصول على الجائزة التى قررتها قريش لمن يأتى بالرسول "ﷺ" .

وقد وصف ابن هشام الطريق الذى سلكه الرسول "ﷺ" وصحبه من جبل ثور إلى المدينة لإظهار مدى التخفى والاستتار الذى سلكه الدليل بركب الهجرة، فقال : إن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ صـ٤٨٥ ، ٤٨٦ بتصرف وقد أورد البخارى قصة الهجرة فى حديث طويل رواه عن عائشة رضى الله عنها – انظر كتاب المناقب من صحيح البخارى جـ٦ صـ٢٠٦-٢١٠ ط الأوقاف .

عبد الله بن أريقط سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما إلى الساحل، حتى عارض الطريق أسفل **عسفان**[١]، التى تبعد عن مكة بستة وثلاثين ميلاً . ثم سلك بهما الدليل على أسفل **أمج**[٢] ثم استجاز بهما الدليل حتى عارض الطريق بعد أن جاوز **قديد**، ثم سلك **الخرار**[٣]، وهو واد يقع فى نحو منتصف الطريق بين مكة والمدينة . ثم أخذ بهما **الحداجد**[٤]، وتقع فى أرض مستوية صلبة، ثم هبط بهما **العَرِج**[٥] . ثم هبط وادى العتيق الذى يؤدى إلى المدينة[٦] .

كان أبو بكر ﷺ خير صديق يصاحب رسول الله "ﷺ" فى الهجرة، فلقد قام بحراسته وخدمته ومساعدته خير قيام .

يروى البراء بن عازب حديث الهجرة فيقول ﷺ : ابتاع أبو بكر من عازب رحلاً فحملته معه ، فسأله عازب عن مسير رسول الله ﷺ .

قال له أبو بكر : أخذ علينا بالرصد ، فخرجنا ليلاً ، فأحثثنا ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة ، ثم رفعت لنا صخرة ، فأتيناها ولها شئ من ظل ، ففرشت لرسول الله ﷺ فروة معى ، ثم اضطجع عليها النبى ﷺ ، فانطلقت أنفض ما حوله فإذا أنا براع قد أقبل فى غنيمة ، يريد من الصخرة مثل الذى أردنا .

فسألته : لمن أنت يا غلام ؟

فقال : أنا لفلان .

فقلت له : هل فى غنمك من لبن ؟

قال : نعم .

---

(١) بضم أوله وسكون ثانيه ثم فاء وآخره نون وهى قرية صغيرة قريبة من ساحل البحر الأحمر على حد تهامة على طريق المدينة ، يكثر بها النخيل والمزارع ، وسميت عسفان لتعسف الطريق ، ويسمى الطريق بين عسفان وملل الساحل .

(٢) أمج بفتح الهمزة والجيم بلد صغير بين مكة والمدينة .

(٣) بفتح الخاء وتشديد الراء : موضع بالحجاز قرب الجحفة . معجم ما استعجم للبكرى جـ٢ صـ٤٩٢ .

(٤) جمع حدحد وهى الأرض المستوية الصلبة ، ويجوز أن يكون جمع حدجد وهى البئر القديمة ، ويظن ياقوت الحموى فى معجمه أنها آبار قديمة .

(٥) بفتح أوله وسكون ثانيه وجيم : منزل بطريق مكة على طريق الحاج .

(٦) سيرة النبى لابن هشام جـ١ صـ٤٩١ بتصرف .

قلت له : هل أنت حالب ؟

قال : نعم .

فأخذ شاة من غنمه فقلت له : انفض الضرع .

فحلب كثبة من لبن ، ومعى إداوة من ماء عليها خرقة قد روأتها لرسول الله ﷺ فصببت على اللبن حتى برد أسفله ، ثم أتيت به النبى ﷺ ، فقلت : اشـــرب يا رسول الله ، فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيت .

ثم قلت : قد آن الرحيل يا رسول الله .

قال : بلى فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير ســـراقة بـــن مالك بن جعشم على فرس له .

فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله .

فقال : لا تحزن إن الله معنا [١]

والحديث واضح الدلالة فى دور أبى بكر خلال رحلة الهجرة، فلقد كـــان ؓ يبحث لرسول الله عن ظل عند الظهيرة يأوى إليه، ويسوى له المكان ، وكان يقـــوم بحراسة النبى "ﷺ"، ويراقب له الطرق ، وكان يعد له الطعام، ويبرد لـــه الشـــراب، ويسقيه اللبن ، وكان دائم الخوف على رسول الله "ﷺ" لأنه كـــان يلتفـــت كـــثيراً والرسول يقول له : لا تحزن إن الله معنا، وكان أبو بكر شـــيخاً معروفـــاً للعـــرب، مصدقاً لديهم يقابله أحدهم ويسأله : **من هذا الرجل الذى معك ؟**

فيرد أبو بكر : **هذا الرجل يهدينى الطريق .. فيظن السائل أنه طريق المدينة، بينما هو طريق الإسلام والرجل هو رسول الله ﷺ** [٢] .

لقد قام أبو بكر ؓ بدوره خير قيام مع رسول الله "ﷺ" أثناء الهجرة ، وكان حبه لرسول الله ﷺ يملك عليه جوارحه وحياته كلها ، خطب رسول الله ﷺ النـــاس مـــرة وقال : **إن من أمـــن الناس على فى صحبته وماله أبو بكـــر ، ولـــو كنت**

---

(١) صحيح البخارى – كتاب المناقب ، باب الهجرة جـــ٦ صـــ٢١٩ ، ٢٢٠

(٢) صحيح البخارى كتاب المناقب جـــ٦ صـــ٢١٥ ط الأوقاف .

متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته [1] .

يذكر عمر بن الخطاب ليلة الهجرة فيقول : **والذى نفسى بيده لتلك الليلة لأبى بكر خير من آل عمر** [2] .

- ثالثاً -

عناية الله بنبيه فى الهجرة

امتدت رعاية الله لنبيه ﷺ فى كل أعمال الهجرة .

فلقد أعمى الله عقول وأبصار من أحاطوا ببيت رسول الله "ﷺ" ليلة الهجرة حتى خرج ﷺ وألقى على رأسهم التراب ، و لم يشعروا به .

وهدى الله رسوله ﷺ إلى وضع تنظيم يتحرك فيه كل من اشترك فى أعمال الهجرة وفق إمكانياته، وبصورة لا تعطى القرشيين أى خبر عن الهجرة .

وخلق الله فى برهة وجيزة عند باب الغار ما يصرفهم عن الدخول فيه . الأمر الذى جعل كفار مكة لا يتصورون أن أحداً دخل الغار من مدة طويلة .

وبعدما خرج رسول الله "ﷺ" من الغار، وأخذ طريقه إلى المدينة تجلت عناية الله، وبرزت المعونة الإلهية للرسول، وصاحبه فى صور عديدة منها :

١) رد سراقة بن مالك :

رصدت قريش مائة من الإبل لمن يأتى برسول الله "ﷺ" أو بأبى بكر حياً أو ميتا، وتلك ثروة يلهث وراءها الشباب والرجال فى مكة وبخاصة إذا أتت من عمل يصون قوميتهم، ويحافظ على آلهتهم كما يتصورون .

ومن أكبر الذين اجتهدوا فى نيل هذه الجائزة سراقة بن مالك وكان له فى هذا المجال قصة يرويها البخارى فى صحيحه بسنده عن سراقة بن مالك .

يقول سراقة بن مالك : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله "ﷺ" وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره .

---

(١) صحيح البخارى كتاب فضائل الصحابة جـ٦ صـ٧٩ ط الأوقاف .

(٢) سيرة ابن كثير جـ٢ صـ٢٣٧.

فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال : يا سراقة، إنى قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه .

قال سراقة : فعرفت أنهم هم .

فقلت له : إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا .

ثم لبثت فى المجلس ساعة، ثم قمت، فدخلت، فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى، وهى من وراء أكمة فتحبسها على، وأخذت رمحى، فخرجت به من ظهر البيت، فحططت بزجة الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسى فركبتها، فرفعتها تقرب بى، حتى دنوت منهم فعثرت بى فرسى، فخررت عنها فقمت، فأهويت يدى إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها : أضرهم أم لا ؟

فخرج الذى أكره، فركبت فرسى وعصيت الأزلام، تقرب بى، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله "ﷺ" وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الإلتفات ساخت يدى فرسى فى الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان ساطع فى السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسى حتى جئتهم .

ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله "ﷺ" فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى، ولم يسألانى إلا أنه ﷺ قال : أخف عنا فسألته أن يكتب لى كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب الأمان فى رقعة من أديم[1]

٢) شاة أم معبد الخزاعية :

فى أثناء رحلة الهجرة مر الرسول وصحبه بخيمة أم معبد، وهى امرأة بدوية كريمة تطعم وتسقى من يأتيها ، واسمها عاتكة بنت خالد الخزاعية، تكنى باسم ولدها معبد .

---

(١) صحيح البخارة كتاب المناقب جـ٦ صـ٢١٠ ، ٢١١ ط الأوقاف .

وقف رسول الله "ﷺ" وأبو بكر ﷺ أمام خيمة أم معبد وسألاها :**هل عندك شئ ؟**

فقالت : **والله لو كان عندنا شئ ما أعوزكم القرى، والشاة عازب، والسنة سنة شهباء .**

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر **الخيمة، فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟**

قالت : **شاة خلفها الجهد عن الغنم .**

فقال ﷺ : **هل بها من لبن ؟**

قالت : **هى أجهد من ذلك .**

فقال ﷺ : أتأذنين لى أن أحلبها ؟

قالت : نعم بأبى وأمى، إن رأيت بها حلباً فاحلبها .

فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وسمى الله ودعا، فتفاجت عليه ودرت، فدعا بإناء لها يربض الرهط، فحلب فيه حتى علته الرغوة، فسقاها، فشربت حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب، وحلب فيه ثانياً حتى ملأ الإناء، ثم ارتحلوا .

فما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزالاً، فلما رأى اللبن عجب فقال : من أين لك هذا ؟ والشاء عازب ولا حلوبة فى البيت ؟

فقالت : لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا .

قال لها : إنى والله أراه صاحب قريش الذى تطلبه، صفيه لى يا أم معبد، فوصفته بصفته الرائعة، بكلام دقيق كأن السامع ينظر إليه ، وهو أمامه .

فقال أبو معبد : والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد همت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا (١) .

٣) إسلام أبى بريدة :

فى أثناء رحلة الهجرة، وفى الطريق على مقربة من المدينة المنورة لقى الرسول ﷺ أبا بريدة ونفراً من قومه، جاءوا يطلبون النبى وأبا بكر ليفوزوا بالمكافأة التى رصدتها

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد جـ٣ صـ٥٥-٧٥ موسسة الرسالة سنة ١٩٧٩

قريش للقضاء عليهما .

كلم أبو بريده رسول الله "ﷺ" فعلم صدقه، وأمانته وأسلم لوقته، وتبعه سبعون رجلاً من قومه، ثم خلع أبو بريدة عمامته، وعقدها برمح رسول الله "ﷺ" فاتخذها رسول الله ﷺ عمامة له ، وبذلك يعد أبو بريده والمؤمنون معه من أوائل الأنصار الذين اتبعوا الرسول ﷺ بعد الهجرة .

وبإيمان هؤلاء القوم صار للمسلمين قوة فى الطريق (١) وبدأ المسلمون فى تكوين المجتمع القوى المتماسك .

٤) تأمين الزاد :

ومر ﷺ وصاحبه فى الطريق على راع فاستسقياه اللبن، فاعتذر بأنه لا لبن فى شائه، إلا شاة جف لبنها قريباً، وهنا ظهرت معجزته ﷺ فلقد مسح ضرعها ودعا فرزقهم الله الكثير من اللبن، وكانت هذه آية كافية لتحويل قلب الراعى من الكفر إلى الإيمان، وتوسم فيه ﷺ الكثير من الخير، فأخبره بأنه رسول الله ، وطلب الراعى أن يسير معه فطلب منه ﷺ أن يتمهل حتى يسمع بظهور أمره ﷺ وحينذاك يلحق بالمدينة، ويهاجر إلى رسول الله ﷺ .

عن قيس بن النعمان قال : لما انطلق النبى "ﷺ" وأبو بكر مستخفيين مرا ... بعبد يرعى غنماً، فاستسقياه من اللبن، فقال : ما عندى شاة تحلب غير أن هاهنا عناقاً حملت أول الشتاء، وقد أخدجت وما بقى لها لبن .

فقال "ﷺ" : ادع بها فدعا بها، فاعتقلها النبى "ﷺ" ومسح ضرعها ، ودعا حتى أنزلت .

وجاء أبو بكر رضي الله عنه بمجن فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعى ، ثم حلب فشرب .

فقال الراعى : **بالله من أنت ، فوالله ما رأيت مثلك قط .**

قال ﷺ : **أو تراك تكتم على حتى أخبرك ؟**

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى جـ١ صـ٤٢

قال : نعم .

قال ﷺ : **فإنى محمد رسول الله .**

فقال : **أنت الذى تزعم قريش أنه صابئ .**

قال ﷺ : **إنهم ليقولون ذلك .**

قال : **فأشهد أنك نبى ، وأشهد أن ما جئت به حق ، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبى ، وأنا متبعك .**

قال ﷺ : **لا تستطيع ذلك يومك ، فإذا بلغك أنى قد ظهرت فائتنا** [١] .

٥) التبشير بالعودة إلى مكة :

ترك رسول الله "ﷺ"مكة وهى أحب البلاد إلى نفسه، ولذا رأيناه "ﷺ" حينما ابتعد عن مكة نظر إليها، وودعها بكلمات تؤكد حبه لها ، فعن عبد الله بن عدى بن الحمراء أنه قال : رأيت رسول الله "ﷺ" واقفاً على الحزورة وهو يقول : **والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت**[٢] .

وعن عبد الله بن عباس ﷺ أنه قال : قال رسول الله "ﷺ" وهو ينظر إلى مكة ليلة الهجرة : **ما أطيبك من بلد، وأحبك إلى، ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك**[٣] .

وقد كانت عناية الله تعالى برسوله إذ نزل عليه خلال رحلة الهجرة قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [٤].

يقول ابن عباس : **والمعاد هى مكة، وفى الآية بشرى لرسول الله "ﷺ" فى أنه سيعود إلى مكة ساعة أن يسلم أهلها، وتكون دار إسلام**[٥] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٣ صـ١٩٤ .

(٢) سنن الترمذى بشرحه تحفة الأحوذى جـ١٠ صـ٤٢٦ والحزورة مكان مرتفع فى مكة .

(٣) سنن الترمذى بشرحه تحفة الأحوذى جـ١٠ صـ٤٢٧.

(٤)سورة القصص آية ٨٥ .

(٥) صحيح البخارى – كتاب التفسير جـ٧ صـ٣٦٥ ط الأوقاف .

- رابعاً -

الوصول إلى المدينة

سار ركب الهجرة تحفة عناية الله تعالى حتى وصل إلى قباء فى يوم الإثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول من العام الأول للهجرة .

وكان أهل المدينة منذ أن علموا بخروج النبى "ﷺ" من مكة يغدون كل غداة، ينتظرونه عند الحرة، حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوما بعدما طال انتظارهم إلى بيوتهم، وإذا بيهودى يقف على أحد المرتفعات حول المدينة ليرى أمراً بعينه، فإذا به يبصر رسول الله "ﷺ" وأصحابه فى ثياب بيض، فلم يملك اليهودى نفسه ، فأخذ يصيح بأعلى صوته : **يا معشر العرب هذا جدكم الذى تنتظرونه** [١] .

يقول ابن القيم : وسمعت الرجة والتكبير فى ديار بنى عمرو بن عوف ، وكبر المسلمون فرحاً بقدوم رسول الله "ﷺ"، وخرجوا للقائه "ﷺ" والترحيب به، فأحاطوا به يملأهم الحب، وتغشاهم السكينة، والوحى يترل عليه بقوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾[٢]

يقول عروة ابن الزبير : فتلقوا رسول الله "ﷺ"، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف، فقام أبوبكر للناس، وجلس رسول الله "ﷺ" صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله "ﷺ" يحيي أبا بكر ظناً منهم أنه رسول الله ﷺ، حتى أصابت الشمس رسول الله "ﷺ"، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله "ﷺ" عند ذلك [٣].

وكانت المدينة كلها قد زحفت لاستقبال ركب الهجرة الميمون ، وكان يوماً مشهوداً لم تشهد المدينة مثله فى تاريخها .

ونزل رسول الله "ﷺ" بقباء على كلثوم بن الهدم [٤] ومكث على بن أبى طالب

---

(١) صحيح البخارى كتاب جـ١ صـ٢١٥ طـ الأوقاف .

(٢) سورة التحرم آية ٤ .

(٣) سيرة النبى جـ١ صـ٤٩٤

(٤) وقيل نزل على سعد بن خيثمة والجمهور على ما ذكرته .

بمكة ثلاثاً ، حتى أدى عن رسول الله "ﷺ" الودائع التي كانت عنده للناس، ثم هاجر ماشياً على قدميه حتى لحقهما بقباء ونزل على كلثوم بن الهدم مع رسول الله أيضاً .

وأقام رسول الله "ﷺ" بقباء أربعة أيام : الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس . وأسس مسجد قباء وصلى فيه، وكان موضع المسجد مربداً لكلثوم بن الهدم، وقيل بل هو مكان كان يملكه بنو عمرو بن عوف وهو الأولى ، وقد صلى الرسول "ﷺ" الجمعة فيهم . وعلى كل فإن المكان اختيار الله تعالى [١] .

وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة، فلما كان اليوم الخامس[٢] — يوم الجمعة — ركب ﷺ ناقته وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى أخواله بنى النجار فجاءوا متقلدين سيوفهم وسار معهم نحو المدينة فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف، فجمع بهم فى المسجد الذى فى بطن الوادى، وكانوا مائة رجل .

وهذه أول جمعة يقيمها رسول الله "ﷺ" فى الإسلام بعد هجرته فى ديار بنى سالم بن عوف، وألقى فيهم رسول الله "ﷺ" خطبة الجمعة، وعرفهم بالله، وحثهم على التقوى، وذكرهم بنعيم الله فى الآخرة .

يورد ابن كثير هذه الخطبة بنصها، وفيها يقول "ﷺ" : **الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ، ولا أكفره ، وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله الله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة ، على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً**

أوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة،

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ٣ صـ٣٨١ .

(٢) اختلفت الروايات فى المدة التى مكثها الرسول "ﷺ" فى قباء والمكثرون يروها أربعة وعشرين يوماً والمقلون يروها أربعة أيام ، وهو الأولى .

ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنه تقوى لمن عمل به على وجل، ومخافة، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً فى عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (١)

والذى صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لذلك فإنه يقول سبحانه : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (٢)

واتقوا الله فى عاجل أمركم، وآجله، فى السر، والعلانية فإنه : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ (٣) .

﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٤) .

إن تقوى الله توقى مقته ، وتوقى عقوبته ، وتوقى سخطه وإن تقوى الله تبيض الوجوه ، وترضى الرب ، وترفع الدرجة .

خذوا بحظكم، ولا تفرطوا فى جنب الله، قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ، وليعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينه، ويحي من حي عن بينه، ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه الله مابينه وبين الناس .

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٠ .

(٢) سورة ق آية ٢٩ .

(٣) سورة الطلاق آية ٥ .

(٤) سورة الأحزاب آية ٧١ .

إن الله يقضى على الناس، ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلى العظيم [١].

(١) البداية والنهاية جـ٣ صـ٢١٣ .

هذا وقد تحدث الفقهاء عن حكم هجرة المسلم من ديار الكفر إلى ديار الإسلام بعد فتح مكة ، وذهبوا إلى أن المسلمين أنواع ثلاثة ، ولكل نوع حكمه الشرعى

النوع الأول : مسلم قادر على الهجرة من ديار الشرك ، حيث لا يمكنه إظهار دينه فيها ، ولا أداء واجباته إذا أقام بين غير المسلمين ، فالهجرة عليه واجبة ، ويكون عاصياً بتركها ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء آية ٩٧ – وهذا الوعيد الشديد لا يكون إلا فى ارتكاب المحرم وترك الواجب وحينئذ لا يحل له البقاء إلا إذا كان مضطراً .

ومن أدلة السنة المشرفة ما أخرجه النسائى بسند صحيح من حديث عبد الله بن واقد السعدى قال (وفدنا على رسول الله "ﷺ" فدخل أصحابى فقضى حاجتهم ، وكنت آخرهم دخولاً

فقال "ﷺ" : ما حاجتك ؟

قلت : يا رسول الله ، متى تنقطع الهجرة ؟

قال رسول الله "ﷺ" لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار .

النوع الثانى : مسلم يوجد بين المشركين ، وهو عاجز عن الهجرة ، لعذر كالأسر أو المرض أو الإكراه على الإقامة ، فهؤلاء ومن فى حكمهم تجوز لهم الإقامة بين المشركين ، ولا تجب عليهم الهجرة ، فإن تحامل أحدهم على نفسه ، وتكلف الهجرة كانت له أجر ومثوبة .

ودليل ذلك قوله سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾

النوع الثالث : المسلم فى غير بلاد الإسلام ، يكون قادراً على الهجرة ، لكنه يمكنه إظهار دينه ، وأداء واجباته مع إقامته بين الكفار ، فهذا لا تجب عليه الهجرة لتمكنه من دعوة الكفار وهو آمن من غدرهم ، وراحته النفسية والمادية مصانة بينهم ، ودليل لذلك أن المسلم مكلف بالدعوة لدينة قولاً ، وعملاً ، وإقامته حينئذ دعوة عملية ، وكذا ترغيب المولى عز وجل المومنين فى الهجرة وحثهم عليها فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ

مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

وقد ذكر الشافعية : أن المسلم إذا قدر على إظهار دينه فى دار الحرب ، وأمكنه الاعتزال فى مكان خاص يمتنع فيه من الكفار فإنه تحرم عليه الهجرة ، لأن مكان اعتزاله وتحصنه صار دار إسلام لامتناعة ، فلو هاجر لعاد ذلك المكان بسبب هجرته إلى حوزة الكفار ، وهذا أمر لا يجوز ، لأن كل مكان قدر أهله على الامتناع فيه من الكفار صار دار إسلام .

ولتأييد ما ذهب إليه الشافعية وينقل الإمام النووى قول الماوردى فى كتابة الحاوى فيقول : فإن كان يرجو ظهور الإسلام هناك بمقامه فالأفضل أن يقيم ، وإن قدر على الامتناع والاعتزال وجب عليه المقام بها لأن موضعه دار إسلام ، فلو هاجر لصار دار حرب ، فيحرم ذلك ، ثم إن قدر على مجاراة الكفار ودعوتهم إلى الله ، لزمته الإقامة وإلا فلا .

ويستأنس النووى لمذهب إليه الشافعية بما كان عليه والد الأنبياء وإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام حيث كان مؤمناً وحده يعلم الناس الخير ، والناس كلهم حوله كفار ، فامتدحه رب العزة بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

والناظر فى أوضاع العالم المعاصرة يرى أن ديار الكفر الآن أكثر أمناً من غيرها ، لما تتضمنه من نظم تسمح بقدر وافر من حرية الحركة ، والكلمة ، والتدين ، والاعتقاد .. فى الوقت الذى نرى فيه الاستبداد ، والظلم ، والاضطهاد يوجه ضد المسلمين فيما يعرف بالعالم الثالث ، وبلاد الإسلام جزء منه .

إن دار الإسلام فى العصر الحديث ليست على وجهها المطلوب لما يوجد فيها من فسق ، وعرى ، وفن ، وانحلال وهى بذلك ، تشبه ما هو موجود فى بلاد غير المسلمين والدعاة فى البلاد الإسلامية الآن محاطون بالرقابة والقيود أكثر من غيرها من البلاد .

ولهذا نرى رجحان مذهب الإمام الشافعى .

النقطة الرابعة

وقفات مع الهجرة

تمت هجرة المسلمين إلى المدينة، وترك المسلمون ديارهم من أجل الله ورسوله، وتحملوا مشقة السفر، ووعثاء الطريق، وابتعدوا بذلك عن أهل مكة، و لم يكن ذلك أمراً سهلاً على نفوسهم، ولا ميسراً أمامهم، فلقد وقف القرشيون ضد ذوى الشأن منهم فمنعوا البعض من الهجرة، واعتدوا على آخرين، وبذلك فإنى أركز على بعض الوقفات لأبين مدى التضحيات التى بذلها جيل العظمة الإسلامية .

١) دقة الطاعة :

التزم أصحاب النبى "ﷺ" بأوامره لهم، وكان ذلك واضحاً فى كل من انتظر مع رسول الله "ﷺ" فى مكة، ولقد رأينا كيف قام على رضي الله عنه بالمبيت على فراش رسول الله ﷺ وعرض نفسه للموت، وكيف كان أبو بكر رضي الله عنه فى كل مراحل الهجرة .

ورأينا أبناء أبى بكر ومولاه وهم يعملون خارج الغار لتأمين السلامة للرسول وصاحبه، و لم يأهوا لعدوان قرشى يلحق هم، و لم يتأثروا بأى أذى يقع عليهم .

يروى ابن إسحاق عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : **لما خرج رسول الله "ﷺ" وأبو بكر رضي الله عنه إلى الغار أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبى بكر، فخرجت إليهم، فقالوا، أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟**

قلت : **لا أدرى والله أين أبى ؟**

فرفع أبو جهل يده، **وكان فاحشاً خبيثاً، فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى**[١].

وقد استمر أبناء أبى بكر فى بيته حتى علما بوجهة رسول الله "ﷺ" وأبى بكر من شاعر سمعاه يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتى أم معبد

(١) سيرة ابن هشام جـ١ صـ٤٨٧ .

هـــا نزلا بالبـــر ثم تروحـــــا فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنى كعب مكان فتـــاهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد

قالت أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها : **فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله "ﷺ"، وأن وجهته إلى المدينة، فرحلنا إليها حين جاءنا أمر من رسول الله "ﷺ"** (١) .

٢) حسن التصرف :

كان أبو بكر يملك خمسة آلاف درهم، حملها إليه ابنه عبد الله فى الغار، وجاء أبوه قحافة إلى بناته مغضباً وهو يقول : **والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، فقالت أسماء بنت أبي بكر : كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، وأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة فى البيت، كان أبى يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال، قالت : فوضع يده عليه ثم قال : لا بأس إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم .**

تقول أسماء: ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك(٢)

٣) تحمل الأذى :

كان من أول المهاجرين أبو سلمة، خرج وزوجته وابنه، فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره : هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ فأخذوا منه زوجته، وغضب آل أبى سلمة لرجلهم، فقالوا، لا نترك ابننا معها، إذ نزعتموها من صاحبنا ، **وتجاذبوا الغلام بينهم فخلعوا يده، وذهبوا به .**

وانطلق أبو سلمه وحده إلى المدينة ، وكانت أم سلمه بعد ذهاب زوجها ، وضياع ابنها ، تخرج كل غداة بالأبطح تبكى حتى تمسى ، ومضى على ذلك نحو سنة ، فرق لها أحد ذويها وقال : ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها ، وولدها .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ صـ ٤٨٧ ، ٤٨٩ .

(٢) سيرة النبى لابن هشام جـ١ صـ٤٨٨ وكان قحافة والد أبى بكر أعمى لا يبصر ، ولم يكن أسلم يومئذ

فقالوا لها : الحقى بزوجك إن شئت، فاسترجعت ابنها من عصبته، وخرجت تريد المدينة، وليس معها أحد من خلق الله، حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمان بن طلحة ، وبعد أن عرف حالها شيعها حتى أقدمها إلى المدينة، فلما نظر إلى قباء قال : **زوجك فى هذه القرية فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة**[١] .

٤) التضحية بالمال :

لما أراد صهيب الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذى بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ لا والله لا يكون ذلك

فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى، أتخلون سبيلى ؟

قالوا : نعم .

قال : فإنى قد جعلت لكم مالى .

فبلغ ذلك رسول الله "ﷺ" فقال : ربح صهيب ... ربح صهيب [٢] .

٥) كيد قريش بالمهاجرين :

تواعد عمر بن الخطاب، وعياش بن أبى ربيعة، وهشام بن العاصى بن وائل موضعاً يصبحون عنده، ثم يهاجرون إلى المدينة، فاجتمع عمر وعياش وحبس عنهما هشام .

ولما قدما المدينة، ونزلا بقباء، قدم أبو جهل، وأخوه الحارث إلى عياش – وأم الثلاثة واحدة – فقالا له : **إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط، ولا تستظل بشمس حتى تراك فرق لها .**

فقال له عمر : **يا عياش إن القوم يريدون فتنتك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو أذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت، فأبى عياش إلا الخروج معهما ليبر قسم أمه .**

فقال له عمر : **أما قد فعلت فخــذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول ، فالزم**

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ صـ٤٦٨-٤٧٠ .

(٢) المصدر السابق جـ١ صـ٤٧٧ .

ظهرها فإن رابك من القوم ريب فانج عليها . فخرج عليها معهما .

حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا ابن أخى والله لقد استغلظت بعيرى هذا، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟

قال : بلى .

فأناخ وأناخا ليتحول عليها أبو جهل، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة نهاراً موثقاً .

وقالا : يا أهل مكة، هكذا افعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا (١) .

٦) الاستيلاء على الدور .

كان آخر من بقى ممن هاجر عبد الله بن جحش، وكان قد كف بصره، فلما أجمع على الهجرة كرهت امرأته ذلك ، وجعلت تشير عليه أن يهاجر إلى غير المدينة ، فهاجر بأهله وماله مكتتماً من قريش حتى قدم المدينة على رسول الله "ﷺ"، فوثب أبو سفيان بن حرب على داره فباعها وملكها لغيره .

مر بها بعد ذلك أبو جهل بن هشام ، وعتبة ابن ربيعة، وشيبة بن ربيعة ، والعباس بن عبد المطلب ، وحويطب بن عبد العزى ، وفيها أهب معطونة فذرفت عينا عتبة وتمثل ببيت من شعر :

وكل دار وإن طالت سلامتها   يوماً سيدركها النكباء والحوب

فأقبل أبو جهل على العباس وقال : **هذا ما أدخلتم علينا** (٢).

هذه الوقفات السريعة مع المهاجرين تبين مدى الجهود التى بذلوها فى سبيل الله تعالى .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام جـ١ صـ٤٧٤ - ٤٧٦ مجمع الزوائد جـ٦ صـ٧٧

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٦ صـ٨١ .

المبحث الثانى
" الاستقرار فى المدينة "

مكث رسول الله "ﷺ" فى قباء حتى صلى الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، وبعدها واصل رحلته إلى المدينة التى نورت بهجرته "ﷺ" إليها .

وقد حزن بنو عوف لفراق رسول الله "ﷺ" لأنهم تصوروه هاجر إليهم وما تركهم إلا ضجراً فسألوه: **أتتركنا ملالا منا يا رسول الله ؟ أم إلى من هم خير منا ؟**

فقال لهم "ﷺ" **إنى أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهى المدينة تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد** (١) .

وإنما كانت المدينة هكذا لأنها تغزو غيرها ، وتنتصر ، وتكون حاضرة لسائر المدن والقرى وقد تحقق ذلك بتأسيس دولة الإسلام الكبرى .

وفى هذا تأكيد لبنى عوف أنه ﷺ ما تركهم ضجراً أو سآمة .

وكان يوم وصوله ﷺ إليها يوماً سعيداً مشرقاً ، امتلأت فيه قلوب الناس بالحب ، وعمهم الفرح ، وأخذ رسول الله "ﷺ" يؤسس لنفسه ، وللمسلمين ما يحقق لهم الاستقرار والأمن فى هذا المجتمع الجديد ، وفى هذا المبحث سنتناول الأمور التالية:

أولاً : الترحيب بقدوم الرسول "ﷺ" .

ثانياً : تأسيس المسجد النبوى .

ثالثاً : هجرة أهل الرسول "ﷺ" .

رابعاً : تأمين سكن النبى ﷺ وزوجاته .

وهى أمور تحتاج لتفصيل نورده فيما يلى :

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب الحج باب فضل المدينة جـ٣ صـ٢٧٤

- أولاً -

الترحيب بقدوم رسول الله "ﷺ"

لما صلى رسول الله "ﷺ" الجمعة فى بنى عمرو بن عوف أرسل إلى أخواله بنى النجار فجاءوا متقلدين السيوف ، وتقاطر الأنصار جميعاً خلفهم ، حتى اجتمعوا حول رسول الله "ﷺ" مرحبين به ، فركب الرسول "ﷺ" ناقته ، والناس عن يمينه وشماله وخلفه ، منهم الراكب ومنهم الماشى يهللون ويكبرون .

اجتمع بنو عمرو بن عوف وقالوا : **يا رسول الله أخرجت ملالا لنا ، أم تريد داراً خيراً من دارنا ؟**

فقال "ﷺ" : **أمرت بقرية تأكل القرى ، فخلوها ، فإنها مأمورة .**

فخرج رسول الله "ﷺ" من قباء يريد المدينة فوجد الناس قد ملأوا الطرق ومعهم الخدم والصبيان وهم يقولون : **الله أكبر ، جاءنا محمد ، جاءنا رسول الله .**

يقول أنس بن مالك: **إنى لأسعى مع الغلمان يقولون: محمد جاء فننطلق فلا نرى شيئاً حتى أقبل رسول الله "ﷺ" وصاحبه أبو بكر فكنا فى بعض جرار المدينة ، فبعث لنا رسول الله ﷺ رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار ، فخرج الأنصار واستقبلهما زهاء خمسمائة منهم ، حتى انتهوا إليهما فقالت الأنصار : انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله "ﷺ"وصاحبه بين أظهرهم ، وخرج أهل المدينة حتى أن العواتق فوق البيوت يتراءينه ويقلن : أيهم هو ؟ أيهم هو ؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به يومئذ** [1] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قدم رسول الله "ﷺ" المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البــــدر علينا	**من ثنيات الــوداع**
وجب الشكر علينا	**ما دعـــا لله داع**
أيها المبعـوث فينا	**جئت بالأمر المطاع**[2]

---

(١) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى جـ٢٠ صـ٢٩١ .

(٢) رحمة الله للعالمين جـ١ صـ١٠٦ والجرار بكسر الجاء وفتح الراء جمع حَرّة وهى الأرض الصلبة السوداء ، والعوائق جمع عائق وهى الفتاة التى بلغت و لم تتزوج .

وعن البراء ﷺ قال : **ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشئ فرحهم برسول الله "ﷺ"**[١] .

ويقول أنس : **ما رأيت يوماً قط أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر المدينة**[٢]

وقد تجلى الترحيب العام برسول الله "ﷺ" من كافة قبائل المدينة ، وكان كل منهم يتمنى أن يترل الرسول "ﷺ" عنده ، ويعده بالعدة ، والعدد ، والثروة ، والطاعة، وكان الرسول "ﷺ" يعرفهم بأنه سيترك الناقة تبرك حيث يريد الله لها .

ويقول لهم : **دعوها فإنها مأمورة**[٣] .

ولما علم الأنصار بذلك لم يتعرضوا للناقة ، وكل منهم يدعو الله أن يكون بيته هو المكان المختار لترول رسول الله "ﷺ" .

فسار رسول الله "ﷺ" راكباً ناقته ، حتى إذا أتت دار بنى عدى بن النجار قامت إليه وجوههم تأمل فى نزوله عندها ، ثم إن ناقته "ﷺ" لما أتت موضع مسجده بركت وهو عليها وأخذه الذى كان يأخذه عند الوحى ثم وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله "ﷺ" واضع لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة ، فبركت فيه ثم تحلحلت ، وأرزمت ووضعت جرانها ، وجعل جبار بن صخر ينخسها رجاء أن تقوم فتترل فى دار بنى سلمة فلم تفعل ، فترل رسول الله ﷺ عنها وقال : **هنا المترل إن شاء الله وقرأ قوله تعالى ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾**[٤]

وجاء أبو أيوب فقال له رسول الله ﷺ : **أى بيوت أهلنا أقرب ؟**

فقال أبو أيوب : **أنا يا نبى الله هذه دارى وهذا بابى ، وقد حططنا رحلك فيها**

---

(١) صحيح البخارى كتاب المناقب باب مقدم النبى ﷺ المدينة جـ٦ صـ٢٢٢

(٢) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى جـ٢٠ صـ٢٩٠

(٣) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٦ صـ٧٩

(٤) سورة المؤمنون آية ٢٩ .

قال "ﷺ" : **فانطلق فهيئ لنا مقيلاً ، فذهب فهيأ لهما مقيلاً** [١].

يروى الطبرانى عن عبد الله بن الزبير أنه كان هناك عريش يرشونه ، ويعمرونه ويتبردون فيه ، حتى نزل فيه رسول الله "ﷺ" عن راحلته فأوى على الظل فنزل فيه فأتاه أبو أيوب فقال : **يا رسول الله منزلى أقرب المنازل إليه أأنقل رحلك إليه .**

قال "ﷺ" : **نعم فذهب برحله إلى المنزل .**

فأتاه آخر فقال : **يا رسول الله أنزل علىَّ .**

فقال "ﷺ" : **المرء مع رحله حيث كان .**

فنزل رسول الله "ﷺ" فى منزل أبى أيوب وقر قراره ، واطمأنت داره ، ونزل معه زيد بن حارثة[٢] .

يقول عبد الله بن سلام ﷺ : لما قدم رسول الله "ﷺ" المدينة انجفل الناس إليه فجئت لأنظر إليه ، فلما تبينت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شئ سمعته يتكلم به أن قال : **يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام** [٣] .

ويقول أبو أيوب ﷺ : **لما نزل رسول الله "ﷺ" فى بيتى ، كان فى السفل ، وأنا وأم أيوب فى العلو .**

فقلت له : **يا نبى الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر أنت فكن فى العلو وننزل نحن فنكون فى السفل .**

فقال "ﷺ" : **إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت .**

يقول أبو أيوب فكان رسول الله "ﷺ" فى سفله ، وكنا فوقه فى المسكن ، وكنا نحرص على تحقيق ما يرضيه ويريحه .

حدث مرة أن انكسرت جرة لنا فيها ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ، ننشف بها الماء ، تخوفاً أن تقطر على رسول الله "ﷺ" منه شئ فيؤذيه ،

---

(١) صحيح البخارى كتاب المناقب ، باب الهجرة جـ٦ صـ٢١٦

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٦ صـ٧٩

(٣) سبل الهدى والرشاد جـ٣ صـ٣٩١ سنن الترمذى .

ويقال إن أبا أيوب بعد هذه الحادثة ألح على رسول الله "ﷺ" حتى أسكنه العلو [١].

وقد تكفل أهل المدينة بخدمة رسول الله "ﷺ" ، وتجهيز طعامه وشرابه ، وتحقيق كل ما يحتاج إليه ، يهدونه لرسول الله "ﷺ" حباً ، وتقديراً .

ولقد كان أبو أيوب يصنع له الطعام ، ويقدمه ، وينتظر فضله ليأكله .

يقول زيد بن ثابت : لقد كنا فى بنى مالك بن النجار ، ما من ليلة إلا على باب رسول الله "ﷺ" من بيت أبى أيوب ثلاث ، أو أربع جفان ، وما كانت تخطئه جفنة سعد بن عبادة ، وجفنة أسعد بن زرارة كل ليلة [٢].

وكان الأنصار يتحرون الطعام الذى يحبه رسول الله "ﷺ" لإعداده له .. فبرغم أنه ﷺ لم يعب طعاماً، ولم يأمر بطعام ، فإنهم لا حظوا إقبال رسول اللهﷺ على نوع من المرق يسمى (**الطفيشل**) **وعلى الهريس** ولذلك كانوا يكثرون له ﷺ منهما .

وكان "ﷺ" لا يأكل وحده ، وإنما كان يطعم معه من أصحابه عدداً يتراوح بين خمسة إلى ستة عشر رجلاً ، حسب كمية الطعام المهدى إليه .

وهكذا عاشت المدينة حياة البهجة ، والسرور ، وقدرت الخير الذى وفد عليها وأقبلوا على الإسلام فهماً وعلماً ، وتطبيقاً ... وشعروا أن رسول الله "ﷺ" جاءهم بخيرى الدنيا والآخرة ، فسعدوا بهجرته ، وأنزلوه فيهم مترلة الروح والعقل ، وجعلوا حبه فوق حبهم لأنفسهم ، فهو وهم معه برسالته يعيشون الإسلام نقياً واضحاً .

وفى نفس الوقت تقوقع الكفار والمنافقون واليهود فى المدينة ، وأدركوا أن دولتهم قد انهارت ، ولا سلطان لهم فى المدينة بعد اليوم .. وعبر بعضهم عما فى قلبه من حقد وغضب ، ومن ذلك أن رسول الله "ﷺ" رغب فى أن يترل على سيد الخزرج عبد الله بن أبى بن سلول فقال له عبد الله : **إذهب إلى الذين دعوك فأنزل إليهم ... ورفض أن يترله عنده كراهية له .**

ولم يأبه النبى "ﷺ" بهذه المعارضة من أهل الشرك والنفاق فهى معارضة ضعيفة خائفة .... وأين تلك المعارضة مما كان يراه فى مكة !!

---

(١) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى جـ ٢٠ صـ ٢٩٣

(٢) إمتاع الأسماع جـ ١ صـ ٤٧

ولقد اعتذر الأنصار لرسول الله "ﷺ" عن موقف أبى ، وبينوا له أن سببه ضياع المجد الذى كان يأمل فيه [١] .

ومن الملاحظ أن رسول الله "ﷺ" لم يطلب من أحد أن يترل عليه إلا ابن أبى ، ولعلها حكمة قدرها الله تعالى لرسوله ليعلم طبائع الناس ، وبخاصة هؤلاء الذين أضيروا بظهور الإسلام .

ـ ثانيا ـ

تأمين سكن النبى "ﷺ" وزوجاته

أقام رسول الله "ﷺ" فى بيت أبى أيوب الأنصارى سبعة أشهر حتى أقام بيوتاً لزوجاته رضى الله عنهن .

وقد أسس النبى "ﷺ" تسعة بيوت حول المسجد فى الجهة الجنوبية والشرقية والشمالية .

وقد أخذ النبى "ﷺ" فى تأسيسها بعد الهجرة ، واحداً بعد الآخر فبنى أولاً بيتا لسودة بنت زمعة ، كما بنى بيتاً ثانياً لعائشة بنت أبى بكر رضى الله عنهما ، فهما زوجتاه حين الهجرة وبعد ذلك كان ﷺ كلما أحدث أهلا بنى بيتاً ، واستمر هكذا حتى بنى سائر البيوت ، وعددها تسعة .

و الأرض التى أقيمت فيها البيوت كانت مملوكة لحارثة بن النعمان الخزرجى ﷺ وكان يتنازل لرسول الله "ﷺ" عن الأرض بقدر الحاجة ، فكلما بنى النبى بزوجة تنازل الحارث لرسول الله عن أرض لإقامة بيت لها فيه !!

وأول البيوت تأسيساً هو بيت سودة وثانيها هو بيت عائشة الذى يلى الروضة مباشرة من جهة الشرق . وفيه دفن رسول الله "ﷺ" وهو الذى يعرف الآن بالحضرة النبوية وقد أقيم فوقها قبة خضراء بعد وفاته ﷺ وبعدها كان بيت سودة بنت زمعة رضى الله عنها ملاصقاً لبيت عائشة من جهة الشرق ، وقد بنى النبى "ﷺ" بيتا لابنته

---

(١) كان الأوس والخزرج يتفاوضون فى جعل عبد الله بن أبى ملكاً عليهم ، وكادوا أن يملكوه ، فلما أسلموا وهاجر النبى ﷺ إلى المدينة ضاعت المملكة على ابن أبى فعاش بحقده منافقاً .

فاطمة حين تزوجها ابن عمها علي ﷺ فى شمال بيت عائشة عن يسار المصلى إلى القبلة فى الروضة الشريفة ، أى أنه كان خلف بيت عائشة ، وقد اتخذ النبى "ﷺ" طريقاً إلى بيت فاطمة يعرف بخوخة على حيث كان يأتى بابها كل يوم ، ويأخذ بعضادتيه ويقول : الصلاة ، الصلاة ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (١) .

يقول عمر بن على بن الحسين ﷺ : كان فى بيت فاطمة كوة إلى بيت عائشة رضى الله عنها ، فكان رسول الله "ﷺ" إذا خرج اطلع من الكوة إلى فاطمة وعلى يعلم خبرهم (٢) .

وقد توزعت بيوت أزواج النبى "ﷺ" حول مسجدة ، فلقد أقيم بيت زينب بنت خديجة الهلالية شرق بيت فاطمة وشمال بيت سودة ﷺ .

كما أقيم بيت زينب بنت خزيمة، وزينب بنت جحش إلى الشرق من بيت سودة وزينب الهلالية وأقيم بيت حفصة بنت عمر أمام بيت عائشة من جهة الجنوب وقد أقيمت الحجر الباقية خلف المسجد من الجهة الشمالية ، والشمالية الغربية المواجهة للقبلة وتعرف هذه البيوت ببيوت النبى ، أو بيوت أزواج النبى ، أو حجر النبى "ﷺ" .

وكان البيت مكونا من حجرة وفناء ، حيث حوائط الحجرة من جريد النخل المغطى من الخارج بالشعر والوبر ، والمطين من الداخل ، وللحجرة باب يفتح على الفناء الموجود أمامها وللبيت باب مرتبط بالخارج .

وقد بلغت مساحة كل واحدة من الحجرة و الفناء ثمانية أذرع طولاً ، وعرضاً، وبذلك بلغ الطول ستة عشر ذراعاً أى أن مجموعهما معاً كان مائة وثمانية وعشرين ذراعاً .

ويبدو أن مساحة البيوت لم تكن واحدة لأن خمسة منها كان مكونا من فناء فقط

يقول عمران بن أنس : ترك النبى "ﷺ" أربعة أبيات بلبن ، لها حجر من جريد، وخمسة أبيات مطينة لا حجر لها . على أبوابها مسوح الشعر ، أى أنها لم تكن على

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٣ .

(٢) رحلة المحبين إلى سيد المرسلين صـ١٦٢ .

مساحة واحدة [١] .

يروى ابن سعد فى طبقاته : أن حوائط بيوت النبى "ﷺ" كانت مكونة من جريد مطين بالطين ، وسقفها من الجريد ، وأبوابها من خشب العرعر الذى كان ينبت فى بلاد العرب وللباب حلقة من ساج [٢] .

وقد استدل بعض العلماء بما ورد من أن الصحابة كانوا ينقرون باب النبى "ﷺ" بأظافرهم على أن الأبواب لم تكن بها حلقة ، إلا أن الظاهر من قوله بأظافرهم أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يفعلون ذلك تأدباً مع رسول "ﷺ" مخافة إزعاجه إذا ضربوا بأيديهم على الحلقة .

وكانت الحجرة متوسطة الارتفاع ، ينال الواقف فيها السقف بيده ، وكانت بسيطة الفرش .

وقد أعد النبى ﷺ مكاناً خلف بيت فاطمة من جهة الشمال وجعله لمبيت الفقراء وهو المعروف بمكان الصفة .

أمر الوليد بن عبد الملك واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز بهدم حجر أزواج النبى "ﷺ" وضمها للمسجد فبكى أبناء الصحابة وقالوا : ليتها تركت و لم تهدم حتى يطلع الناس على البناء ، ويروا ما رضى الله لنبيه "ﷺ" ، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده[٣] .

ولعل فى هدم الحجرات أسباباً من أهمها عدم الحاجة إليها ، وللإستفادة بها فى توسعة المسجد ، وحتى لا يتخذها المسلمون مزاراً يعبد ، ولذلك لم يؤثر عن أحد من التابعين إنكاراً ، و لم يحدث أن عارض عمر بن عبد العزيز الأمر إليه بالهدم وهو من هو ..؟ إنه عمر بن عبد العزيز ... وكفى !! لقد رضى بالهدم ، و لم ينكر ...

وعن عبد الله بن زيد الهذلى قال : رأيت بيوت أزواج النبى "ﷺ" ، حين هدمها عمر بن عبد العزيز والى المدينة بأمر الوليد ، كانت بيوتاً باللبن ولها حجر من جريد مطرورة بالطين ، عددها تسعة بيوت ، وهى ما بين بيت عائشة رضى الله عنها

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ٣ صـ ٥٠٧

(٢) طبقات ابن سعد جـ١ صـ٤٩٩

(٣) سبل الهدى والرشاد جـ٣ صـ ٥٠٧ .

إلى الباب الذى يلى باب النبى "ﷺ" .

ورأيت بيت أم سلمة وحجرتها من لبن فسألت ابن إبنها : **من بناها ؟**

فقال : **لما غزا رسول الله "ﷺ" غزوة دومة الجندل بنت أم سلمة حجرتها بلبن ، فلما قدم رسول الله ﷺ نظر إلى اللبن فدخل عليها فقال : ما هذا البناء ؟**

فقالت : **أردت يا رسول الله أن أكف أبصار الناس .**

فقال : **يا أم سلمه إن شر ما ذهب فيه مال المسلمين البنيان** (١) .

وعن الحسن البصرى قال : **كنت أدخل بيوت أزواج النبى "ﷺ" ، فى خلافة عثمان بن عفان ، فأتناول سقفها بيدى** (٢) .

وقد كان الحسن صغيراً آنذاك فإنه ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ، وليس له عند المحدثين سماع من عثمان مما يدل على انخفاض السقف (٣) .

ثم إن هذا الارتفاع لحجراته "ﷺ" وهو أن الواقف يتناول سقفها بيده ، هو الذى تثبته النصوص ، ولقد سبق أنه "ﷺ" جعل ارتفاع مسجده على هذه الوتيرة ، وما كان ليجعل حجراته أعلى من المسجد ، وقد قال "ﷺ" فى شأن **البنيان " النفقة كلها فى سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه** (٤) .

وقد بقيت أمهات المؤمنين ، بعد وفاة رسول الله "ﷺ" كل فى حجرتها على هيئته التى بنى عليها ما عدا عائشة رضى الله عنها فإنها لما أذنت بدفن عمر بن الخطاب ﷺ بجوار أبيها أقامت جداراً داخلياً قسم بيتها إلى قسمين هما :

القسم الأول : هو الفناء ، ويضم القسم الجنوبى من البيت وفيه دفن النبى ﷺ وأبو بكر ، وعمر ﷺ .

القسم الثانى : وهو الحجرة ويقع شمال القسم الأول ، وهى الذى اتخذته عائشة رضى الله عنها بيتا لها .

---

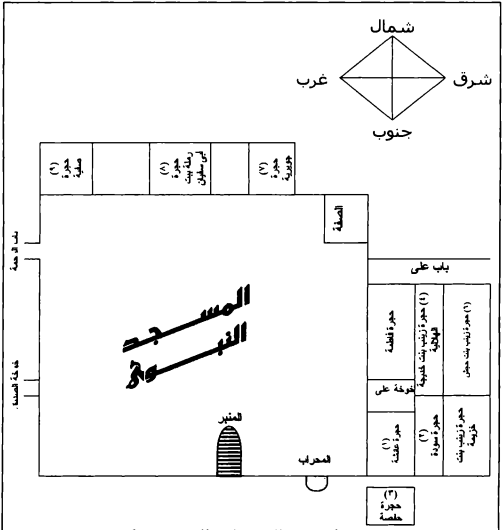
(١) الطبقات الكبرى جـ١ صـ٤٩٩ .

(٢) طبقات ابن سعد ١/٥٠٠

(٣) التهذيب ٢/٢٦٣ رقم ٤٨٨ .

(٤) سنن الترمذى كتاب صفة القيامة باب ٤٠ جـ٤ صـ٦٥٠ وقال حسن غريب .

واستمر الحال على هذا الوضع حتى هدمت البيوت جميعاً فى عهد الوليد بن عبد الملك .



(موقع الحجرات الشريفة)

حجرات زوجات النبى ﷺ واتصالهن بالمسجد النبوى

ـ ثالثا ـ

هجرة آل النبى "ﷺ"

لما استقر المقام برسول الله "ﷺ" فى المدينة ونزل عند أبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه كلف عبدالله بن أريقط الدؤلى ، دليله فى رحلة الهجرة أن يقوم برحلة ثانية يأتى فيها بأهله وأهل أبى بكر ، وأرسل معه زيد بن حارثه ، وأبا رافع مولى رسول الله "ﷺ" وزودهم بجملين ، وخمسمائة درهم ، ليشتروا بها إبلاً من " قديد " [١] .

وكان رسول الله "ﷺ" قد اختبر عبد الله بن أريقط ، وعلم أمانته ، وخبرته ، ولذلك اختاره ليأتى بأهله ، وهى ولا شك مهمة أسهل من مهمته الأولى .

فذهب ابن أريقط ومن معه ، وجاءوا بمن كلفوا بالإتيان بهم وهم :

١) سودة بنت زمعة زوجة النبى "ﷺ" وكان قد دخل بها فى مكة .

٢) عائشة بنت أبى بكر زوجة رسول الله "ﷺ" التى لم يدخل بها إلا بعد أن بنى لها بيتا فى المدينة .

٣) أم رومان زوجة أبى بكر ، وأم عائشة رضى الله عنها .

٤) فاطمة بنت رسول الله "ﷺ" .

٥) أم كلثوم بنت رسول الله "ﷺ" [٢] .

٦) أسماء بنت أبى بكر وزوجة الزبير بن العوام .

٧) عبد الله بن أبى بكر .

٨) أسامة بن زيد .

٩) أيمن بن زيد أخو أسامة .

١٠) أم أيمن ، حاضنة النبى ﷺ وأم أسامة وأيمن .

---

(١) قديد تصغير قد وهو موضع قرب مكة ينسب إلى أحد الخزاعيين .

(٢) هذا وقد توفى أولاد النبى "ﷺ" الذكور قبل الهجرة ، وأما بناته فقد هاجرت رقية مع زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه وكانت وفاتها بالمدينة حين رجوع المسلمين من بدر ، وبقيت زينب رضى الله عنها مع زوجها بمكة أبو العاص بن الربيع بن عبد شمس بن أميه حيث لم ينزل تحريم بقاء المسلمة عند المشرك بعد ، وقد تمت هجرتها إلى أبيها بعد غزوة بدر .

١١) أم أبى بكر رضى الله عنها [١] .

وكانت عائشة تركب جملاً مع أمها ، فشرد بهما ، فأخذت أم رومان تقــول واعروساه !!! وابنتاه !!! .

تقول عائشة رضى الله عنها : فسمعت قائلاً يقول : أرسلى خطامه ، فأرسلته ... فوقف بإذن الله تعالى ، وسلمنا الله عز وجل وسرنا حتى نزلنا بــــ"السُّــنْح"[٢] وذهب كل إلى وليه ، وأقامت سودة وأبناء النبي "ﷺ" فى دار أبى أيوب ، أما عائشة فقد ذهبت للإقامة مع أبيها ، و لم يدخل بها "ﷺ" إلا بعد إقامة بيتها بعد أن انتهى من بناء بيت سودة رضى الله عنها [٣]

تقول عائشة رضى الله عنها : وبنى بى رسول الله ﷺ فى بيتى هذا ، الذى أنــا فيه ، وهو الذى توفى فيه ، ودفن فيه ﷺ [٤] .

وقد تصادف أن طلحة بن عبد الله ﷺ خرج يريد الهجرة فتقابل مع آل النبى ﷺ خارج مكة فهاجر معهم وصحبهم حتى وصلوا جميعاً إلى المدينة المنورة .

---

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـــ٩ صـــ٣٦٦ .

(٢) السُّنْح بضم أوله وسكون ثانيه ، وهو أحد ضواحى المدينة كان به منزل أبى بكر الصديق ﷺ وبين السنح وبين منزل النبى ﷺ ميل واحد .

(٣) البداية والنهاية جـــ٣ صـــ٢٢١ .

(٤) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـــ٩ صـــ٣٦٧

- رابعاً -

إقامة المسجد النبوى

استقر مقام النبى "ﷺ" عند أبى أيوب قريباً من المكان الذى بركت فيه الناقة ، وكان مبرك الناقة مربداً لبنى النجار دفن المشركون فى جزء منه ، وفى جزء آخر نخل وشجر ، والباقى خراب يملأه ماء السيول والأمطار .

أرسل رسول الله ﷺ لبنى النجار وقال لهم : **ثامنونى على حائطكم هذا .**

فقالوا : **والله لا نطلب ثمنه إلا من الله تعالى .**

وكان المربد مملوكاً لغلامين يتيمين من بنى النجار هما : سهل وسهيل أبناء رافع ابن أبى عمرو ، وكانا فى حجر أسعد بن زرارة ، فدعاهما الرسول وساومهما على شراء المربد ليتخذه مسجداً .

فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله "ﷺ" .

فأبى النبى "ﷺ" أن يقبله منهما هبة ، واستمر معهما حتى ابتاعه ليكون مسجداً فلما اشتراه النبى "ﷺ" أمر بالنخل فقطع ، وبالقبور فنبشت ، وبالعظام فغيبت ، وبالخرب فسويت ، وبما فيه من مياه فجففت، وبذلك أصبح المكان جاهزاً للبناء فيه .

أخذ الصحابة فى البناء ، ومعهم رسول الله "ﷺ" . وكان "ﷺ" ينقل معهم اللبن ويقول :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة [1]

وأدى اشتراك رسول الله "ﷺ" فى العمل جميع الصحابة إلى بذل الجهد ، وتحمل مشاق العمل بنفس راضية .

رأى الصحابة رسول الله "ﷺ" يضع رداءه ويحمل اللبن ، حتى أن صدره أغبر من التراب فوضعوا أرديتهم وأكسيتهم وجعلوا يرتجزون ويعملون ويقولون :

لئن قعدنا والنبى يعمل ذاك إذا العمل المضلل

وفى أثناء العمل رأى الصحابة عثمان بن مظعون ﷺ يحمل لبنة ، ويبعدها عن

---

(١) صحيح البخارى كتاب المناقب باب مقدم النبى المدينة جـ٦ صـ٢٢٧

ثوبه ، فإذا وضعها نفض كمه ، ونظر إلى ثوبه فإذا أصابه غبار نفضه ، فنظر إليه على ابن أبي طالب وقال :

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائما وقاعداً

ومن يرى عن الغبار عائدا

فسمع عمار بن ياسر مقالة على ، فأخذ يرددها ، وهو لا يدرى من يعنى بها على ﷺ فسمعه عثمان بن مظعون فظن أنه يعرض به فقال له : **يا ابن سمية ما أعرفنى بمن تعرض .**

وكان مع عثمان جريدة فقال لعمار : **لتكفن أو لأعرضن بها وجهك .**

فسمعه رسول الله "ﷺ" فغضب وقال : **إن عمار بن ياسر جلدة ما بين عينى وأنفى** ، ووضع يده بين عينيه ، فكف الناس عن عمار إلا أنهم قالوا له : **إن النبى غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فينا قرآن .**

فقال عمار : **أنا أرضيه كما غضب .**

فذهب عمار إلى رسول الله "ﷺ" وقال له : **مالى ولأصحابك ؟**

فقال "ﷺ" : **مالك وهم ؟**

قال عمار : **يريدون قتلى يحملون لبنة لبنة ، ويحملون على لبنتين لبنتين .**

فأخذ النبى بيده وطاف به المسجد ، وأخذ يمسح جلد رأسه بيديه من التراب وهو "ﷺ" يقول : **يا ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك ، تقتلك الفئة الباغية تدعوهم إلى الجنة ، ويدعونك إلى النار .**

فقال عمار : **أعوذ بالله من الفتن** (١) .

يروى البخارى بسنده عن أبي سعيد الخدرى **أن أصحاب النبى ﷺ كانوا يحملون لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين ، فرآه النبى ﷺ فجعل ينفض التراب ويقول ويح عمار تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار** (٢) .

---

(١) سبيل الهدى والرشاد جـ٣ صـ٤٨٧ ، ٤٨٨ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الصلاة ، باب الحدث فى المسجد جـ١ صـ٣٠٢

وكان الرسول يعلم ذلك مما يؤكد أن قول عمار لرسول الله ﷺ إن أصحابك يريدون قتلى هى من الدعابة مع رسول الله ليذهب عنه الغضب .

وقد حاول الصحابة أن يستريح رسول الله ﷺ عن العمل فأبى يقول أسامة بن زيد: إن رسول الله "ﷺ" خرج ومعه حجر يحمله على كتفه فلقيه أسيد بن حضير فقال أسيد: **يا رسول الله أعطينيه .**

فأبى رسول الله "ﷺ" وقال له : **إذهب فاحتمل غيره فإنك لست بأفقر إلى الله منى** [١] .

وكان رسول الله "ﷺ" يكل الأعمال التى تحتاج لخبرة إلى من يملك هذه الخبرة، فلقد جاء طلق بن على ، وهو رجل من بنى حنيفة ، يحسن عجين الطين ، فلما رآه النبى "ﷺ" قال لأصحابه : إن هذا الحنفى لصاحب طين ، قربوا الحنفى من الطين ، فإنه أحسنكم له سبكاً ، وأشدكم منكباً [٢] .

وكانت سعة المسجد حين بناه النبى "ﷺ" أول مرة سبعين ذراعاً ، فى ستين أو يزيد ، وجعل جدره من خشب ، ولم يسطح ، فلما اشتكى الصحابة الحر والمطر ، جعل "ﷺ" جدره من الخشب ، والسوارى من جذوع النخل ، وظللوه بالخوص والجذوع ، فكان الظل ثم طينوه بالطين فانقطع المطر ، وابقوا وسط المسجد رحبة بلا سقف .

وقبلة المسجد كانت أولاً إلى بيت المقدس جهة الشمال ، وأسسوا له ثلاث أبواب فى مؤخرته هى :

أ) باب أبى بكر جنوب المسجد وهو الآن جهة القبلة بعدما حولت إلى مكة وصار بعد التوسعة العثمانية جزءاً داخل المسجد .

ب) باب عاتكة وهو باب الرحمة ويقع غرب المسجد داخل توسعة الملك فهد.

جـ) باب النبى وهو الباب الذى كان يدخل منه النبى "ﷺ" ويعرف بباب عثمان.

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ٣ صـ٤٨٩

(٢) الإصابة فى معرفة الصحابة جـ٣ صـ٥٣٨

وقد قام النبى "ﷺ" ببناء المسجد ليكون موضعاً للصلاة ، ومكانا لاجتماعه ﷺ مع أصحابه ، ومقر الحكم والإدارة ، ومنطلق الدعوة والإرشاد .

وبعد فتح خيبر أعاد النبى "ﷺ" بناء المسجد مرة ثانية وزاد مساحته لأن أبعاده فى البناء الثانى صارت مائة ذراع فى مائة ذراع وقد قام عثمان بن عفان بشراء المساحة الجديدة وأهداها لمسجد النبى "ﷺ" [١]

و لم يغال النبى "ﷺ" فى بناء المسجد ، ولا فى زخرفته ، بل كان القصد وترك الغلو ، فبنى المسجد باللبن ، وسقف بالجريد ، وكانت أعمدته سيقان النخل ، وقوائم الباب من الحجارة .

واتخذ النبى "ﷺ" لنفسه منبراً هو جذع نخلة حن يوم اتخذ النبى ﷺ منبراً من الخشب مكوناً من ثلاث درجات .

واستمر المسجد على ما تركه رسول الله "ﷺ" إلى أن كانت خلافة عمر فزاد مساحته وبناه باللبن والجريد فلما كان عثمان زاد فيه مساحة كبيرة ، وبنى عمده وجدره بالحجارة المنقوشة ، وسقفه بالساج .

يروى البخارى بسنده عن ابن عمر **أن مسجد رسول الله "ﷺ" كانت سواريه على عهد رسول الله "ﷺ" من جذوع النخل ، وأعلاه مظلل بجريد النخل .**

ثم أنها نخرت فى خلافة أبى بكر فبناه بجذوع النخل ولم يزد فيه وزاد فيه عمر وبناه بمواده فى عهد رسول "ﷺ" باللبن ، والجريد ، وأعاد عمده خشباً .

ثم أنها نخرت فى خلافة عثمان ، فزاد فيه زيادة كبيرة ، وبنى جدره بالحجارة المنقوشة والقصة ، وجعل عمده من حجارة منقوشة ، وسقفه بالساج ، ونقل إليه الحصباء من العقيق [٢] .

وأخذ الخلفاء والسلاطين يهتمون بالمسجد النبوى بناء ، ومساحة ، **حتى كانت الدولة السعودية الثالثة ، فتوسع المسجد مرتين ، الأولى فى عهد الملك سعود بن**

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ٣ صـ٤٩١ .

(٢) السيرة النبوية فى ضوء الكتاب والسنة صـ١٢٥ .

عبد العزيز ، والثانية في عهد أخيه الملك فهد بن عبد العزيز حتى بلغت مساحة المسجد مساحة المدينة كلها فى عهد رسول الله ﷺ .

وقد قام المسجد النبوى بمهام خطيرة ، ففيه بدأ رسول الله "ﷺ" يؤم المسلمين، ويلتقى بهم ، وكان "ﷺ" يلتقى بالوفود ، والغرباء بداخله .

وقد أدرك المسلمون أهمية المسجد النبوى لما فيه من كثرة البركة ، وعظم الخير كما علمهم رسول الله "ﷺ" .

فعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى "ﷺ" قال : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى (١) .

و عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله "ﷺ" قال : صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام (٢) .

و عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه قال : قال النبى "ﷺ" ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى (٣) .

والمسلمون فى كل عصر ، ومن كل مصر يشدون رحالهم إلى مسجد رسول الله "ﷺ" ويتشرفون بالسلام على رسول الله "ﷺ" تعاودهم الذكريات الخالدة ، ويعيشون حياة المصطفى "ﷺ" .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى باب فضل المساجد الثلاثة جـ٣ صـ٥٤١ ط الشعب.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى باب فضل المساجد الثلاثة جـ٣ صـ٥٣٧ ط الشعب .

(٣) صحيح البخارى كتاب الحج باب حدثنا مسدد جـ٣ صـ٢٨٤.

المبحث الثالث

تنظيم الحياة الاجتماعية فى المدينة

استقر رسول الله "ﷺ" فى المدينة بعدما هاجر إليها المسلمون من مكة ومن الجزيرة العربية ، وأصبح الرسول "ﷺ" أمام حال يختلف تماماً عن الحال فى مكة . .

وجد النبى "ﷺ" أمامه مجتمعاً يسلم أمره إليه ، مع اختلاف عناصره ، وتنوع مذاهبه و اتجاهاته ، وتباين طبقاته المادية والثقافية .

وجد النبى "ﷺ" أمامه المهاجرين بعدما تركوا ديارهم وأموالهم وأهاليهم ، وجاءوا بإيمانهم وثقتهم فى الله فقط ، و لم يكن عندهم تصور معين يعيشون فيه ، أو عمل يتوقعونه ، إنما جاءوا بفقرهم يرجون فضل الله ورحمته ، ويعبّدون أنفسهم لله تعالى ، وينصرون دعوته بصدق وإخلاص فهم كما قال الله عنهم : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (١) .

ومع المهاجرين كان الأنصار وهم من آمن بالإسلام ، وبايع رسول الله "ﷺ" وأغلبهم من الأوس والخزرج ، وهؤلاء لم يخرجوا من ديارهم ، وعاشوا مع أموالهم وأقربائهم وأعمالهم التى تعودوا عليها ، وكل ما جد عليهم أنهم جعلوا الإيمان فى قلوبهم يقينا صادقاً ، وأحبوا به كل مؤمن وبخاصة من هاجر إليهم ، ورحبوا بهم ، وأنزلوهم منزلة الروح والعقل ، وتنازلوا عن كل خصيصة لهم وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الحشر آية ٨ .

(٢) سورة الحشر آية ٩ .

ووجد رسول الله "ﷺ" مع المسلمين اليهود بقبائلهم ، وقد تفرقوا ، وسكنوا ظاهراً ، وأسلموا أمورهم مؤقتاً لرسول الله بسبب شعورهم بالضعف والخوف .

ومعهم كان المشركون الذين سلكوا مسلك اليهود ، فاستسلموا ظاهراً مع امتلاء قلوبهم بالحقد والحسد .

وتذبذب المنافقون بين هؤلاء وهؤلاء ، وقد أخفوا الكراهية للإسلام ، والمسلمين

أمام هذا الوضع الجديد كان من الضرورى تنظيم العلاقات بين سكان المدينة لتتكون منهم لأول مرة فى تاريخ المدينة دولة تملك الأرض والشعب والقيادة الواحدة والتعاليم الواحدة التى تحكم الأفراد جميعاً .

إن سكان المدينة هم الشعب ، ومعهم كان رسول الله "ﷺ" هو قائد الناس ، يتلقى وحى الله ، ويعلمه للناس ، ويشكل به الحياة علماً وفهماً وسلوكاً ، ويظهر الإسلام للعالم عقيدة وشريعة وخلقاً .

وابتدأ النبى "ﷺ" بتنظيم الحياة الاجتماعية بين الناس على أساس تحديد الحقوق والواجبات للجميع ، وقد اشتمل هذا التنظيم على ما يلى :

- ١ -

تنظيم الإخاء بين المسلمين

آخى الرسول "ﷺ" بين المهاجرين والأنصار ، إذ قال لهم : تآخوا فى الله أخوين أخوين ، ليتحقق الترابط ، والتكافل فيما بينهم .

ولم تكن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فقط ، وإنما كانت تتم أحياناً بين مهاجر ومهاجر ، **فقلد آخى النبى "ﷺ" بينه وبين على بن أبى طالب ، وآخى بين عبدالله بن الزبير وعبد الله بن مسعود ،وآخى بين عمه حمزة وبين زيد بن حارثة . وكل هؤلاء مهاجرون** [١] .

وابتدأت المؤاخاة فى مسـجد رسـول الله "ﷺ" عند أول مجيئه "ﷺ" وكانت تتجدد كلما ظهر مسلم جديد ، أو جاء المدينة مؤمن مهاجر .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام حـ١ صـ٥٠٥ .

يورد ابن إسحاق صوراً لهذه المؤاخاة ، ويحدد أشخاصها وعنه نقل غيره من المحدثين والعلماء .

يقول ابن إسحاق : وآخى النبى "ﷺ" بين أصحابة من المهاجرين والأنصار فقال : تآخوا فى الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال : هذا أخى فكان رسول الله "ﷺ" سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، ورسول رب العالمين ، الذى ليس له خطير ولا نظير من العباد وعلى بن أبى طالب رضي الله عنه أخوين .

وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، وأسد رسوله ﷺ ، وعم رسول الله ﷺ وزيد بن حارثة مولى رسول الله "ﷺ" أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضر القتال إن حدث به حادث الموت .

وجعفر بن أبى طالب ذو الجناحين ، الطيار فى الجنة ، ومعاذ بن جبل ، أخو بنى سلمه أخوين ، مع أن جعفر بن أبى طالب كان يومئذ غائباً بأرض الحبشة .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ابن أبى قحافه ، وخارجه بن زهير ، أخو بلحارث بن الخزرج أخوين .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وعتبان بن مالك ، أخو بنى سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج أخوين .

وأبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح ، واسمه عامر بن عبد الله ، وسعد بن معاذ ابن النعمان ، أخو بنى عبد الأشهل أخوين .

وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الربيع أخو بلحارث بن الخزرج أخوين
والزبير بن العوام ، وسلامة بن سلامة بن وقش ، أخو بنى عبد الأشهل أخوين
وعثمان بن عفان ، وأوس بن ثابت بن المنذر ، أخو بنى النجار أخوين .
وطلحة بن عبيد الله ، وكعب بن مالك ، أخو بنى سلمه أخوين .
وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبى بن كعب ،أخو بنى النجار أخوين .
ومصعب بن عمير بن هاشم ، وأبو أيوب خالج بن زيد ، أخو بنى النجار أخوين
وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعباد بن بشر بن وقش أخو بنى عبد الأشهل أخوين

وعمار بن ياسر حليف بنى مخزوم ، وحذيفة بن اليمان ، أخو بنى عبد عبس ، حليف بنى عبد الأشهل أخوين .

وثابت بن قيس بن الشماس ، أخو بلحارث بن الخزرج ، خطيب رسول الله ﷺ وعمار بن ياسر أخوين .

وأبو ذر ، وهو برير بن جنادة الغفارى ، والمنذر بن عمرو ، أخو بنى سعادة بن كعب بن الخزرج أخوين .

وكان حاطب بن أبى بلتعة ، حليف بنى أسد بن عبد العزى وعويم بن ساعدة، أخو بنى عمرو بن عوف أخوين .

وسلمان الفارسى، وأبو الدرداء عويمر بن ثعلبة ، أخو بلحارث بن الخزرج أخوين وبلال ، مولى أبى بكر رضى الله عنهما ، ومؤذن رسول الله "ﷺ" وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمى أخوين .

فهؤلاء من سمى لنا ، ممن كان رسول الله آخى بينهم من أصحابة (١).

ولقد برز خلق الأنصار العظيم ، وهم يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، وقد تجردوا من شح النفس ، وملأوا قلوبهم بحب الله ورسوله ، فكانوا قدوة مثالية فى عالم الإيثار الرائع ، والإنسانية النبيلة حتى أنهم قبلوا أخوه جعفر بن أبى طالب مع معاذ بن جبل رغم اغتراب جعفر وجعلوا له حق المشاركة والعطاء والولاء .

تورد كتب السنة نماذج لهؤلاء الصفوة من أتباع رســول الله ﷺ حيث نقرأ منها :
عن أبى هريرة ﷺ قال : **قالت الأنصار للنبى "ﷺ" : اقسم بيننا وبين إخوتنا النخيل**

قال "ﷺ" : لا .

فقالوا : : تكفونا المؤونة ونشرككم فى الثمرة .

قالوا : سمعنا وأطعنا (٢) .

روى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن رسول الله "ﷺ" قال للأنصار : **إن**

---

(١) سيرة النبى لابن هشام جـ١ صـ٥٠٤ ، ٥٠٧

(٢) صحيح البخارى ك المناقب . ب مناقب الأنصار جـ٦ صـ١٤٧ ط الأوقاف .

إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم .

فقالوا : أموالنا بيننا قطائع .

فقال "ﷺ" : أو غير ذلك ؟

قالوا : وما ذاك يا رسول الله .

قال "ﷺ" : هم قوم لا يعرفون العمل . فتكفوهم وتقاسموهم الثمر .

قالوا : نعم [١] .

و عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : دعا النبى "ﷺ" الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين فقالوا : لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها .

قال "ﷺ" : أما لا فاصبروا حتى تلقونى . فإنه سيصيبكم بعدى أثرة [٢] .

وعن انس بن مالك رضي الله عنه قال : قال المهاجرون يا رسول اله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ، ولا أحسن بذلاً من كثير ، لقد كفونا المؤونة ، وأشركونا فى المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

قال : لا ما أثنيتم عليهم ، ودعوتم الله لهم [٣] .

وقد سجلت السنة موقف أنصارى بلغ فى الإيثار مبلغاً يستجلب تمام رضى الله سبحانه تعالى ، لقد بات الرجل طاوياً وزوجته كذلك ، وفوق ذلك نوما صبيانهما دون عشاء ، وآثرا ضيف رسول الله "ﷺ" من المهاجرين بما كان عندهم من طعام .

والعظيم فى الأمر أن الأنصارى يطلب هذا وتوافقه زوجته، والأم على أطفالها جد حانية، ولا تؤثر بطعامها عليهم أحداً إلا أن صنيع الإيمان فى قلوب الأنصار غير الطبائع إلى أسمى ما يتصوره عقل يفهم أو يخطر ببال مفكر أريب ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [٤] .

---

(١) البداية والنهاية جـ٣ صـ٢٢٨ .

(٢) صحيح البخارى ك المناقب ب مناقب الأنصار جـ٦ صـ١٥٢ .

(٣) البداية والنهاية جـ٣ صـ٢٢٨ .

(٤) الحشر آية ٩ .

سبحان الله !!

والله لا يحدث هذا إلا بسبب صدق الإيمان .

ومحال أن يتم إلا لله سبحانه وتعالى .

عن أبى هريرة ﷺ أن رجلاً أتى النبى "ﷺ" فبعث إلى نسائه فقلن : **ما معنا إلا الماء فقال رسول الله "ﷺ" : من يضيف هذا ؟**

فقال رجل من الأنصار : أنا . فانطلق به إلى امرأته فقال لها : **أكرمى ضيف رسول الله "ﷺ" .**

فقالت : **ما عندنا إلا قوت صبيانى .**

فقال : **هيئى طعامك ، وأصبحى سراجك ، ونومى صبيانك ، إذا أرادوا عشاء ، فهيأت الأم طعامها ، وأصبحت سراجها ، ونومت صبيالها ، ثم قامت كألها تصلح سراجها فأطفأته ، فجعلا يريانه ألهما يأكلان بصوت يصدرونه ، وباتا طاويين فلما أصبح غدا الأنصارى إلى رسول الله "ﷺ" فقال له ﷺ : ضحك الله الليلة – أو عجب– من فعالكما** (١) .

فأنزل الله تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

و لم يكن المهاجرون أقل مروءة ، وإخلاصاً ، وحباً من الأنصار ، لأنهم بعدما استقروا ، وعرفوا طرق العمل ، وأتتهم الدنيا ردوا لإخوانهم الأنصار ما أخذوه منهم.

● عن أنس بن مالك أن رسول الله "ﷺ" لما فرغ من قتال أهل خيبر ، وانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم ، التى كانوا منحوهم إياها من ثمارهم (٢)

● يقول أنس : فرد رسول الله "ﷺ" إلى أمى عذاقها الذى أخذته من أم أيمن وأعطى رسول الله "ﷺ" أم أيمن مكانهن من حائطه (٣) .

---

(١) صحيح البخارى كتاب مناقب الأنصار باب ويؤثرون على أنفسهم جـ٦ صـ١٥٤ ط الأوقاف .

(٢) صحيح البخارى كتاب الهبة باب فضل المدينة جـ٤ صـ٣٤٧

(٣) تكملة الحديث السابق .

● قال أنس : وإن أهلى أمرونى أن آتى النبى "ﷺ" فأسأله ما كان أهله أعطوه، أو بعضه ، وكان النبى "ﷺ" قد أعطاه أم أيمن . فأتيت النبى "ﷺ" فأعطانيهن فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب فى عنقى وقالت : والله لا نعطيكهن ، قد أعطانيهن .

فقال نبى الله "ﷺ" : يا أم أيمن أتركيه ، ولك كذا وكذا ".

وتقول : كلا والذى لا إله إلا هو .

فجعل "ﷺ" : يقول كذا ثم كذا حتى أعطاها عشرة أمثاله ، أو قريباً من عشرة أمثاله حتى رضيت [(١)] .

بل إن بعض المهاجرين ما قبل أن يكون عبئاً على أخيه الأنصارى ، نعم هو لا يجيد الزراعة ، ولكنه يمكن أن يعمل فى التجارة ، وفعلا ذهب إلى السوق وتاجر ، وإذا كانت الأيام الأولى أيام تعلم ، وتعليم ، واستعداد ، وجهاد ، فإن فى الوقت سعة بجانب ذلك للذهاب إلى السوق ليعمل فى تجارة يتكسب من ورائها ولو قليلاً بدلا من الاعتماد على أخيه مهما كان سخياً غنياً .

● قال عبد الرحمن بن عوف ﷺ : لما قدمنا المدينة آخى رسول الله "ﷺ" بينى وبين سعد بن الربيع فقال سعد ابن الربيع : **إنى أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم لك نصف مالى ، وانظر أى زوجتى هويت نزلت لك عنها ، فإذا حلت تزوجها !!**

فقال له عبد الرحمن : **لا حاجة لى فى ذلك ، هل من سوق فيه تجارة ؟**

قال : **سوق بنى قينقاع .**

قال : **فغدا إليه عبد الرحمن فأتى بأقط وسمن ثم تابع الغدو .**

فما لبث أن جاء عبد الرحمن إلى رسول الله ﷺ وعليه أثر صفرة من زعفران فقال رسول الله "ﷺ" أتزوجت ؟

قال : نعم .

قال : ومن ؟

قال : امرأة من الأنصار .

قال : كم سقت ؟

---

(١) صحيح البخارى ك الهبة ، ب فضل المنحة جـ ٤ صـ ٣٤٥ ط الأوقاف .

قال : زنة نواة من ذهب ، أو نواة من ذهب .

فقال له النبى "ﷺ" أولم ولو بشاة (١) .

يتحدث الرسول "ﷺ" عن فضل الأنصار والمهاجرين فيما يرويه الإمام البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر ﷺ قال : **سمعت رسول الله "ﷺ" يقول : إن أول ثلة يدخلون الجنة لفقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره ، إذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت منهم حاجة إلى السلطان لم تقض حتى يموت وهو فى صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها ، فيقول : أين عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى وقتلوا وأوذوا فى سبيلى ، وجاهدوا فى سبيلى ادخلوا الجنة فيدخلونها بغير عذاب ولا حساب ، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون : ربنا نحن نسبح لك الليل والنهار ، ونقدس لك ... من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟**

فيقول الله: **هؤلاء عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى وأوذوا فى سبيلى فتدخل الملائكة عليهم من كل باب وهم يقولون ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾** (٢)

● وعن أنس بن مالك ﷺ قال : **مر أبو بكر والعباس ﷺ بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون ، وذلك فى مرض رسول الله "ﷺ" الأخير .**

فقال : ما يبكيكم ؟

قالوا : ذكرنا مجلس النبى "ﷺ" منا .

فدخل على النبى "ﷺ" فأخبره بذلك .

فخرج النبى "ﷺ" وقد عصب رأسه بحاشية برد ، فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كرشى "بطانتى" وعيبتى " خاصتى " وقد قضوا الذى عليهم وبقى الذى لهم ، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزا عن مسيئهم (٣) .

---

(١) صحيح البخارى ك المناقب ، ب إخاء النبى بين المهاجرين والأنصار جـ٦ صـ١٤٦ ط الأوقاف .

(٢) السيرة النبوية فى ضوء الكتاب والسنة صـ ١٣٩ .

(٣) صحيح البخارى ك المناقب جـ٦ صـ١٥٥ ط الأوقاف .

• وعن أنس قال : أن النبى "ﷺ"رأى صبياناً ونساءً مقبلين من عرس فقام النبى ﷺ منتصبا لهم فقال : **اللهم أنتم من أحب الناس إلى ، اللهم أنتم من أحب الناس إلى ، اللهم أنتم من أحب الناس إلى** (١)

لقد صهرت هذه الأخوة المسلمين فى بوتقة واحدة وربطتهم بحبل الله المتين ، وخلصت نفوسهم من شهوات النفس ، وأزاحت من حياتهم وساوس الهوى والشيطان ، وشعر كل مسلم بأخوته للآخرين بلا فرق بين حر ومولى ، أو غنى و فقير ، أو كبير وصغير ، أو مهاجر و أنصارى ... وصار الجميع جنوداً لله تعالى ، يضحون بكل ما يملكون فى صدق وإخلاص .

لقد أقاموا بجهدهم وجهادهم دولة الإسلام الأولى ، فى سموها ورفعتها ، وربانيتها ، وأصبحوا مثالاً يفتخر المسلمون بهم فى كل مكان ، وصدق قول الله فيهم ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ (٢) .

والآية تقدم صورة كريمة ، رائعة لهذا الجيل المتفرد فى حياة الأمة الإسلامية الذى اتصف وتميز بالحقائق التالية :-

١) جعلوا حياتهم لله تعالى ، فساروا بأمره واتبعوا منهجه ، وكانوا بحق خير معية لرسول الله ﷺ وخير جند لله تعالى .

٢) عاشت آمالهم وأحلامهم وأعمالهم كلها بفضل الله ورضوانه محفـوظة فى الدنيا .

---

(١) صحيح البخارى كتاب النكاح جـ٦ صـ١٤٨

(٢) سورة الفتح الآية ٢٩ .

بالنصر والتوفيق ، وفى الآخرة بالجنة والنعيم .

٣) كانوا عباداً لله مخلصين ، تراهم دائماً راكعين ساجدين خاشعين ، وتبرز فى وجوههم سيمة الخشوع والعبادة ، وتنمحى من حياهم علامات الاستعلاء والكبر .

٤) علاقتهم بالآخرين أساسها الإيمان ، فهم مع المؤمنين رحماء ، ومع الكفار أشداء، ولو كانوا أباءهم وإخوالهم .

٥) أكرم الله هذا الجيل العظيم بتتريل مثله فى التوراة والإنجيل ، فجعلهم صورة وضيئة فى التوراة ، وصورهم فى الإنجيل بالزرع النامى القوى الضخم المستقيم الذى يعجب زارعه ،وهو رسول الله ﷺ .

ولك أن تتخيل أثر هذه الآية على أصحاب رسول الله "ﷺ" ، وهم يتلقون هذا التكريم الإلهى الذى يوضح مقامهم عند الله وعند الناس ، ويستمر مع الناس مادامت تلاوة القرآن الكريم ، وما دامت الحياة .

- ٢ -

وضع الميثاق العام لسكان المدينة

لم يكتف النبى "ﷺ" بتحقيق الإخاء بين المسلمين ، وإنما وضع ميثاقاً لكل سكان المدينة ، يوضح ما لهم ، وما عليهم ، ويعرفهم بمصدر الحكم والتوجيه ، ويحدد لهم وسائل التعامل داخل المدينة وخارجها ، حتى عد بعضهم هذا الميثاق بأنه أول دستور إسلامى شرعه الله تعالى لحكم دولة الإسلام فى المدينة .

ويلاحظ أن هذا الميثاق أعلنه رسول الله ﷺ بعدما أوحى الله تعالى إليه به ، و لم يشاور أحداً من سكان المدينة فيه ، فهو تشريع خالص من الله تعالى ، ملزم لسكان المدينة جميعاً

وقد روى ابن إسحاق نص هذه الميثاق ، وعنه روى العلماء والمؤرخون ، وسوف أورد هذا الميثاق مقسماً على فقرات ، ومع كل فقرة أضع رقماً مسلسلاً ، تسهيلاً للفهم وتحديداً لمبادئ الميثاق وذلك فيما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

١) هذا كتاب محمد النبى رسول الله ، وبين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعه ، فلحق بهم وجاهد معهم .

٢) إنهم أمة واحدة من دون الناس .

٣) المهاجرون من قريش على ربعتهم (حالهم) ، يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤) وبنو عوف على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٥) وبنو الحارث بن الخزرج على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين .

٦) وبنو ساعدة على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٧) وبنو جشم على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٨) وبنو النجار على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٩) وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٠) وبنو النبيت على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١١) وبنو الأوس على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٢) وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً (مثقلاً بدين) بينهم إلا أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .

١٣) وأن لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

١٤) وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم

١٥) ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر مؤمن كافراً على مؤمن .

١٦) وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

١٧) وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصراً عليهم .

١٨) وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم .

١٩) وأن كل غازية (غزاة) غزت معنا ، يعقب بعضها بعضاً .

٢٠) وأن المؤمنين يبئ (يتعادل) بعضهم عن بعض ، بما نال دماءهم فى

سبيل الله .

٢١) وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

٢٢) وأن لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول (يحجز) دونه على مؤمن .

٢٣) وأنه من اعتبط (قتل) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود (قصاص) به ، إلا أن يرضى ولى المقتول بالعفو ، وأن المؤمنين عليه كافة لا يحل لهم إلا القيام عليه.

٢٤) وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً (قاتلاً) أو يؤويه ، وأن من نصره فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه عدل (فداء) ولا صرف (توبة) .

٢٥) وأن أهل المدينة مهما اختلفوا فى شئ فإن مرده إلى الله وإلى محمد .

٢٦) وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٢٧) وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم ، فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .

٢٨) وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٩) وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .

٣٠) وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .

٣١) وأن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف .

٣٢) وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .

٣٣) وأن ليهود بنى ثعلبه مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

٣٤) وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٣٥) وأن لبنى الشطبية مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن البر دون الإثم (الخبث)

٣٦) وأن موالى ثعلبة كأنفسهم .

٣٧) وأن بطانة يهود (اليهود خارج المدينة) كأنفسهم .

٣٨) وأنه لا يخرج منهم أحد (خارج المدينة) إلا بإذن محمد .

٣٩) وأنه لا ينحجز (يمنع) على ثار جرح ، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم ، وأن الله على أبر هذا .

٤٠) وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم

٤١) وأنه لا يأثم أمرؤ بحليفة ، وأن النصر للمظلوم .

٤٢) وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٤٣) وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٤٤) وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

٤٥) وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

٤٦) وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث (أمر منكر) أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

٤٧) وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

٤٨) وأن بينهم النصر من دهم يثرب .

٤٩) وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ، ويلبسونه (يشتركون فيه) فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين

٥٠) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قِبَلَهم .

٥١) وأن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره .

٥٢) وأنه لا يحول دون هذا الكتاب ظالم أو آثم ، وأنه من خرج من المدينة

فهو آمن ومن قعد بالمدينة فهو آمن إلا من ظلم أو أثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله[١]

* * *

وهذه الوثيقة تؤكد أن رسول الله "ﷺ" هو رئيس الدولة ، وهو المرجع فى التفسير والحكم والتنفيذ ، وهو "ﷺ" المسئول عن تحقيق أمن المدينة وسلامة المقيمين فيها ، وهو ﷺ المصدر الوحيد الذى يتلقى الوحى الإلهى ، ويبلغه لهم وللناس أجمعين .

وهذه الوثيقة تبين أن مواطنى الدولة الإسلامية هم المسلمون وغيرهم ، وأن الجميع مسئولون عن ضمان الحقوق داخل المدينة ، وعدم التعامل مع المجرمين وترك التعاون مع المعتدين داخل المدينة أو خارجها ، بحيث لا يخرج أحد من المدينة إلى مكة إلا بإذن رسول الله "ﷺ" ولا يأوى أحداً إلا بإذنه "ﷺ" كذلك .

وتنظم الوثيقة العلاقة بين قبائل المدينة جميعاً ، فى إطار قبول الجميع لحكم الله ورسوله "ﷺ" الذى يضمن لكل دينه وكرامته وحريته .

وبوضع هذا الميثاق ، وإحاطة جميع القبائل به يكون قد تم تحديد مسار الجميع ، ومعرفة كل فرد فى المدينة لما له ، وما عليه ، وبهذا الميثاق بدأت الملامح السياسية لدولة المدينة ترسخ، وتخضع لحكم تشريع واحد هو الإسلام ، ويقودها إمام واحد هو رسول الله ﷺ والكل فيها مواطنون يتمتعون بحقوق المواطنة ، وعليهم واجباتها .

وبذلك تم تنظيم المجتمع فى المدينة ، وأصبح الطريق مفتوحاً لنشر دعوة الله فى كل مكان . وبكل الوسائل الممكنة . ولذلك بدأ رسول الله "ﷺ" جهاد الدعوة بالسرايا والغزوات ، وهذا ما سيتضمنه مبحث حركة الرسول بالدعوة فى المدينة الذى سيأتى بعد الانتهاء من سيرته "ﷺ" .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ من صـ٥٠١ إلى ٥٠٤

المبحث الرابع
الحياة الأسرية
لرسول الله "ﷺ" فى المدينة المنورة

استقر رسول الله "ﷺ" فى المدينة، وأحضر أبناءه، وزوجته سودة من مكة، وتمت هجرة المؤمنين جميعاً وصارت الأمة مهيأة لانطلاقة الإسلام الكبرى، وتعددت مهمات النبى "ﷺ"، فهو فى بيته مع زوجاته، وأبنائه، زوجاً، وأباً، وموجهاً، ومع سائر الناس داعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً .

وقد وفى رسول الله "ﷺ" بكل ما كلف به، حتى صار الأسوة الكاملة فى كل مجال يحتاج له الناس، وفى هذا المبحث سأتناول الجانب الأسرى لرسول الله "ﷺ" فهو ألصق بسيرته "ﷺ" مع رد الافتراءات الموجهة ضد رسول الله ﷺ فى تعدد زوجاته وذلك فيما يلى :

ـ أولاً ـ
التعريف بأمهات المؤمنين
المتفق عليهن

أجمع المؤرخون وعلماء السيرة أن رسول الله "ﷺ" تزوج إحدى عشرة امرأة، مات عن تسعة منهن، واختلفوا فيما فوق هذا العدد .

وسأورد تعريفاً موجزاً بأمهات المؤمنين المتفق على أنهن زوجات رسول الله "ﷺ" ثم أجمل أسماء المختلف فيهن زواجاً أو خطبة أو غير ذلك فيما يلى :-

الزوجة الأولى : خديجة بنت خويلد رضى الله عنها :-

هى خديجة بنت خويلد القرشية من بنى أسد بن عبد العزى، تلتقى مع رسول الله فى جدة "قصى" تزوجها النبى "ﷺ" قبل الإسلام مع أنها تكبره بخمسة عشر عاماً [1]

وكانت خديجة رضى الله عنها خير معاشر لرسول الله "ﷺ"، وكانت له نعم الزوجة يصور ذلك رسول الله "ﷺ" وهو يقول عنها : **ما أبدلنى الله خيراً منها، آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس**

---

(١) انظر الكتاب الثانى من السلسلة صـ٢٣٧ .

ورزقنى الله أولادها، وحرمنى أولاد الناس (١)

يقول ابن إسحاق : كانت وفاة خديجة، وأبى طالب، فى عام واحد، وتوفيت وهى بنت خمس وستين سنة، ودفنت فى الحجون، ونزل رسول الله "ﷺ" حفرتها، و لم تكن شرعت صلاة الجنازة بعد (٢) .

الزوجة الثانية : سودة بنت زمعه رضى الله عنها :-

تزوجها النبى "ﷺ" بعد موت خديجة رضى الله عنها، وكانت قبله زوجا لابن عمها السكران بن عمرو، من السابقين إلى الإسلام الذين هاجروا إلى الحبشة الهجرة الثانية، جاء إلى مكة مع زوجته فتوفى بها ودفن بالحجون .

والحكمة فى زواجه "ﷺ" منها صيانتها من الشرك، لأنها لو عادت لقومها واحتاجت لهم لأهانوها، وعذبوها، وفتنوها فى دينها، ولذلك صانها النبى "ﷺ" بالزواج وكفلها .

توفيت سودة رضى الله عنها فى آخر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودفنت بالبقيع

الزوجة الثالثة : عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنها :

عقد النبى "ﷺ" عليها فى مكة قبل الهجرة وهى بنت ست سنوات، ودخل بها وهى بنت تسع سنوات، فى شوال من السنة الأولى من الهجرة . وفى زواج النبى "ﷺ" من عائشة تكريم لأول أصحابه، وأعلاهم قدراً، وأحبهم إلى قلبه "ﷺ" .

وكان لعائشة منزلة فى قلب رسول الله ﷺ يقول ﷺ : **فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام** (٣) .

تقول عائشة : **كان رسول الله ﷺ ليتفقد يقول : أين أنا اليوم ؟! ... أين أنا غداً ؟ . استبطاء ليوم عائشة : فلما كان يومى قبضه الله بين سحرى ونحرى** (٤) .

و لم ينس الرسول "ﷺ" لأبى بكر سبقه للإسلام، ونصره لدين الله تعالى، وإعانته

---

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٩ صـ٣٦١ .

(٢) صفوة الصفوة لابن الجوزى جـ٢ صـ٩ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب فضل عائشة جـ١٥ صـ٢١١

(٤) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب فضل عائشة جـ١٥ صـ٢٠٧ ، ٢٠٨

للمستضعفين، ولذا صاهره وتزوج ابنته عائشة رضى الله عنها [١] بأمر الله تعالى .

توفيت رضى الله عنها سنة سبع وخمسين من الهجرة، وصلى عليها أبو هريرة، ودفنت بالبقيع وعمرها ثمان وستون سنة .

الزوجة الرابعة : حفصة بنت عمر رضى الله عنها :

تزوج الرسول "ﷺ" حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنها فى شهر شعبان على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة .

كانت حفصة زوجة لـ " خنيس بن حذافة السهمى " الصحابى الجليل، الذى شهد بدراً وأحداً ، وتوفى بالمدينة بعد أحد مباشرة بجرح أصابه فيها فلما انقضت عدتها فكر أبوها فى تزويجها يقول أبوها عمر ﷺ : فلقيت عثمان بن عفان ﷺ فعرضت عليه حفصة ، فقال : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر .

قال : سأنظر فى أمرى .

فلبثت ليالى ثم قال : قد بدا لى أن لا أتزوج يومى هذا .

قال عمر : فلقيت أبا بكر ، فقلت له : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر ، فصمت أبو بكر ، فلم يرجع إلى شيئاً ، فكنت عليه أوجد منى على عثمان .

فلبثت ليالى ، ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه .

فلقينى أبو بكر فقال : لعلك وجدت على حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك ؟

قلت : نعم .

قال : فإنه لم يمنعنى أن أرجع إليك إلا أن النبى ﷺ قد ذكرها ، فلم أكن لأفشى سر رسول الله ﷺ ، ولو تركها لقبلتها [٢] .

نعم إن رسول الله "ﷺ" تزوج السيدة عائشة فى السنة الأولى من الهجرة، فكان هذا قرة عين لصاحبه أبى بكر، وخير مكافأة له فى الدنيا على صدقه وإخلاصه.

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب المناقب باب تزويج النبى عائشة جـ٦ صـ٢٠٢

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى باب حدثنا أبو اليمان جـ٦ صـ٢٦٢ ، وانظر الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى جـ٢٢ صـ١٢٩ ، ١٣٠

فلما توفى زوج السيدة حفصة بنت عمر رضى الله عنها رأى رسول الله "ﷺ" أن يساوى بين عمر وبين أبى بكر فى تشريفهما بمصاهرته ، ولم يكن فى الإمكان أن يكافئهما فى هذه الحياة بشرف أعلى من هذا، فتزوج حفصة فى السنة الثالثة .

فما أجل سياسته "ﷺ" !!

وما عظم وفائه للأوفياء له .

ويقابل ذلك إكرامه لعثمان ﷺ، ولعلى بن أبى طالب ﷺ، بتزويجهما ببناته (رقية وأم كلثوم وفاطمة رضى الله عنهن)

وهؤلاء الأربعة أعظم أصحابه فى حياته ، وخلفاؤه فى أمته ونشر دعوته بعد وفاته ﷺ وهم أفضل الصحابة على الإطلاق [١] .

توفيت حفصة رضى الله عنها سنة خمس وأربعين من الهجرة فى خلافة معاوية وصلى عليها مروان بن الحكم ودفنت بالبقيع وعمرها ثلاث وستون سنة .

الزوجة الخامسة : زينب بنت خزيمة رضى الله عنها :-

تزوج الرسول "ﷺ" زينب بنت خزيمة بن الحارث رضى الله عنها، وهى المعروفة فى الجاهلية بأم المساكين، وكانت قبله زوجة للصحابى " عبيدة بن الحارث " الذى استشهد يوم بدر ، وكان دخوله "ﷺ" بها فى رمضان من السنة الرابعة من الهجرة . وقد توفيت بعد زواجها من رسول الله "ﷺ" بثمانية أشهر ودفنت بالبقيع، ولم يمت من أزواجه "ﷺ" فى حياته إلا هى وخديجة ﷺ وكان عمر زينب يوم وفاتها ثلاثين عاماً [٢]

الزوجة السادسة : أم سلمة رضى الله عنها :-

تزوج النبى "ﷺ" أم سلمة وهى هند بنت أبى أمية القرشية المخزومية، تزوجت أولاً ابن عمها " عبد الله بن عبد الأسد المخزومى " من السابقين إلى الإسلام، وهو ابن عمة رسول الله "ﷺ"، وأخوه من الرضاع، شهد بدراً واستشهد يوم أحد .

وكان زوجها يحبها قالت له مرة : **بلغنى أنه ليس امراة يموت زوجها وهما من**

---

(١) منتقى النقول صـ ٤٥٠

(٢) الطبقات الكبرى جـ٨ صـ١١٦

أهل الجنة ثم لم تتزوج بعده إلا جمع الله بينهما فى الجنة ، وكذلك إذا ماتت المرأة وبقى الرجل بعدها ، فتعال أعاهدك أن لا تتزوج بعدى ولا أتزوج بعدك .

قال : أتعطينى ؟

قالت : ما سألتك إلا لأعطيك .

قال : فإذا أنا مت فتزوجى ، ثم قال : اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً منى لا يحزنها ولا يؤذيها ، فلما مات أبو سلمة قلت : من هذا الذى هو خير لى من أبى سلمة فلبثت ما لبثت فجاء رسول الله ﷺ فخطبنى ثم تزوجنى [(١)] .

وكانت أم سلمة وضيئة جميلة ، تقول السيدة عائشة عنها : لما تزوجها النبى ﷺ حزنت حزناً شديداً لما ذكر لى من جمالها فذكرت ذلك لحفصة فقالت : ما هى كما يقال فتلطفت حتى رأيتها فرأيتها والله أضعاف ما وصفت لى ، فذكرت ذلك لحفصة فقالت : نعم ولكنى كنت غيرى[(٢)] .

وأبلت أم سلمة بلاء حسناً فى الهجرة، و عزاها النبى "ﷺ" فى زوجها وقال لها : سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك، ويخلفك خيراً .

فقالت : ومن يكون خيراً من أبى سلمة ؟

فلم ير صلوات الله وسلامه عليه عزاء ولا كافلاً لها ولأولادها ترضاه غيره صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله فخطبها .

ولما خطبها لنفسه اعتذرت بأنها مسنة وأم أيتام وذات غيرة [(٣)] .

فأجابها ﷺ بأنه أكبر منها سنا، وبأن الغيرة يذهبها الله تعالى، وبأن الأيتام إلى الله ورسوله . وكان زواجه "ﷺ" بها فى شهر شوال من السنة الرابعة من الهجرة [(٤)] .

وتوفيت أم سلمة سنة ثلاثة وستين من الهجرة فى خلافة يزيد بن معاوية ﷺ وصلى عليها والى المدينة مروان بن الحكم، وهى آخر من مات من زوجات النبى "ﷺ" .

---

(١) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى جـ٢٢ صـ١٣١.

(٢) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى جـ٢٢ صـ١٣٢ .

(٣) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٩ صـ٣٩٤.

(٤) الطبقات الكبرى قسم النساء جـ٨ صـ٩١

الزوجة السابعة : زينب بنت جحش رضى الله عنها :-

تزوجها النبى "ﷺ" بعد زواجه من أم سلمة، سنة ست من الهجرة، وكان اسمها "برة " فسماها النبى "ﷺ" بـ " زينب " .

وقد أمر الله رسوله بتزوجها بعدما كان يخشى "ﷺ" قالة الناس، لأنه "ﷺ" هو الذى زوجها لمولاه " زيد بن حارثة " رغم معارضتها، وقد تعود الناس أن لا يتزوج السيد مطلقة مولاه، وحتى لا يتحدث الأفاكون عن طلاقها من زيد وزواجها من رسول الله "ﷺ" لجمالها وحسنها .

تحكى زينب رضى الله عنها قصتها فتقول :

خطبنى عدة من قريش، فأرسلت أختى حمنة إلى رسول الله ﷺ تستشيره .

فقال لها رسول الله ﷺ : أين هى ممن يعلمها كتاب ربها، وسنة نبيها ؟

قالت : ومن هو يا رسول الله ؟

قال : زيد بن حارثة .

فغضبت حمنة غضباً شديداً وقالت : يا رسول الله ﷺ تزوج بنت عمك مولاك؟

وجاءتنى فأعلمتنى فغضبت أشد من غضبها وقلت أشد من قولها، فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (١) .

فأرسلت إلى رسول الله ﷺ فقلت : إنى أستغفر الله، وأطيع الله ورسوله، افعل ما رأيت يا رسول الله .

فزوجنى زيداً، وكنت أزرى عليه، فشكانى إلى رسول الله ﷺ فعاتبنى رسول الله ﷺ ثم عدت، فأخذته بلسانى، فشكانى إلى رسول الله ﷺ واستأذنه فى فراقى .

فقال رسول الله ﷺ : أمسك عليك زوجك واتق الله .

فقال يا رسول الله : أنا أطلقها .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٦ .

تقول زينب : فطلقنى .

فلما انقضت عدتى لم أعلم إلا ورسول الله ﷺ قد دخل على، وأنا مكشوفة الشعر، فقلت : إنه أمر من السماء يا رسول الله ﷺ بلا خطبة ولا شهادة .

فقال ﷺ : الله هو المزوج وجبريل هو الشاهد [١] .

وقد بين القرآن الكريم قصة زواج زينب فقال تعالى ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [٢] .

والمراد بالذى أنعم الله عليه، وأنعمت عليه مولى رسول الله ﷺ "زيد بن حارثة" ﷺ، الذى زوجه النبى "ﷺ" من زينب، وكانت لذلك رافضة لما كانت تتمتع به من حسب، وجمال، ودين إلا أنها أطاعت رسول الله، وتزوجته .

وتمضى الأيام، ويفكر زيد فى طلاق زينب لما رآه من استعلائها، ويأتى لرسول الله يستأذنه فى ذلك، فينهاه لعلمه بأمر الله تعالى فى هذا الشأن ... إلا أن زيداً طلق زينباً، وأمر الله تعالى رسوله بالزواج من زينب .

والحكمة واضحة فى الآية ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

ذلك أن العرب كانوا يعدون الإبن بالتبنى مثل الإبن الأصلى، فى تحريم زوجته إذا دخل بها على والده، ولذلك زوج الله نبيه بزينب، قطعاً لهذه العادة التى لا سند لها فى شرع الله تعالى .

وقد قطع النبى "ﷺ" بزواجه من زينب عادة جاهلية أخرى، وهى استعلاء السادة عن الزواج بزوجات مواليهم كبراً وفساداً .

---

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٩ صـ٣٩٦ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

كما بين للمؤمنين قضية عقدية هامة، وهى أنه لا خيار لمؤمن ولا مؤمنة بعد قضاء الله وحكمه كما تفيد الآيات .

وقد توفيت زينب سنة عشرين للهجرة فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ وقد صلى عليها عمر ﷺ ودفنت بالبقيع (١) .

الزوجة الثامنة : جويرية بنت الحارث رضى الله عنها :

كانت جويرية من سبايا بنى المصطلق، جاءت للنبى "ﷺ" تستعين به فى كتابتها، فأدى "ﷺ" عنها كتابتها وتزوجها بعد ذلك، وكان قومها جميعاً سبايا عند الصحابة، وبعد أن تزوجها رسول الله "ﷺ" قال الصحابة : **أصهار رسول الله "ﷺ" يسترقون فأرسلوا ما بأيديهم من السبايا وأعتقوهم فصاروا جميعاً أحراراً .**

تقول عائشة : **فلا نعلم امرأة كانت أكثر بركة على قومها من جويرية .**

وقد توفيت جويرية بالمدينة سنة ست وخمسين من الهجرة وصلى عليها والى المدينة مروان بن الحكم ودفنت بالبقيع وكان عمرها يوم وفاتها خمساً وستين سنة (٢) .

الزوجة التاسعة : أم حبيبة رضى الله عنها:

هى رملة بنت أبى سفيان من السابقات للإسلام، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى الحبشة، وهناك ارتد عبد الله عن الإسلام وتنصر وثبتت هى على الإسلام، فأرسل النبى "ﷺ" إلى النجاشى يخطبها له، فزوجه إياها، وأصدقها أربعمائة دينار .

تقول أم المؤمنين رملة بنت أبى سفيان : **فارقت عبد الله بن جحش فما شعرت إلا بجارية يقال لها أبرهة كانت تقوم على ثياب النجاشى تأتينى وتقول : إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلى أن أزوجكه .**

قالت : بشرك الله بخير .

قالت : يقول لك الملك وكلى من يزوجك ، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته وأعطت أبرهة سوارين من فضة وخدمتين كانتا فى رجلى وخواتيم

---

(١) انظر بغية الرائد باب مناقب زينب جـ٩ صـ٣٩٨ .

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد باب مناقب صفية جـ٩ صـ٤٠٣ .

فضة سروراً بما بشرها ، فلما كان العشى أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب والمسلمين فحضروا فخطب النجاشى فقال : الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار ، أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم ﷺ أما بعد فإن رسول الله كتب إلى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان فأحببت إلى ما دعا إليه رسول الله وقد أصدقتها أربع مائة دينار ، ثم سكب الدنانير بين يدى القوم .

فتكلم خالد بن سعيد فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأستنصره وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أما بعد فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله وزوجته أم حبيبه بنت أبى سفيان فبارك الله رسول الله ، ودفع الدنانير إلى خالد بن سعيد بن العاص فقبضها ثم أرادوا أن يقوموا فقال النجاشى : اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج ، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا [١].

وقد حضرت أم حبيبة رضى الله عنها إلى زوجها رسول الله "ﷺ" سنة سبع من الهجرة فى المدينة المنورة وتوفيت زمن أخيها معاوية سنة أربع وأربعين من الهجرة، ودفنت بالبقيع[٢] .

الزوجة العاشرة : صفيه بنت حيى بن أخطب رضى الله عنها :

تزوج رسول الله "ﷺ" صفيه بنت حيي بن أخطب، سيد بنى النضير، وكانت من أجمل نساء العالمين، و لم تبلغ سبع عشرة سنة .

وقد صارت له من سبى خيبر أمة فأعتقها، وجعل عتقها صداقها، فصار ذلك سنة للأمة إلى يوم القيامة أن يعتق الرجل أمته، ويجعل عتقها صداقها فتصير زوجة حرة بذلك

قال أنس : لما جمع "ﷺ" بنى خيبر جاءه دحية الكلبى فقال : **يا رسول الله أعطنى جارية من السبى .**

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٨ ، ٩٧ ، ٩٨

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد باب مناقب أم حبيبة جـ٩ صـ٤٠٢

فقال ﷺ : **اذهب فخذ جارية فذهب وأخذ صفية بنت حيى .**

فجاء رجل وقال : **يا رسول الله إنها سيدة قريظة والنضير، وأنها لا تصلح إلا لك نظراً لما قد كانت فيه .**

قال ﷺ : **أدعو دحية إلى بها .**

فجاء دحية بها، فلما جاءت نظر إليها "ﷺ" وقال لدحية الكلبى: **خذ جارية من السبى غيرها، ثم أعتقها وتزوجها .**

يقول الحجاج : **إن رسول الله "ﷺ" خيرها بين أن يعتقها وتكون زوجته أو تلحق بأهلها، فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته** (١) .

ويقول ابن شهاب : كانت مما أفاء الله عليه ﷺ، فحجبها وأولم عليها بتمر وسويق وقسم لها (٢) .

وعن ابن عمر قال : **كان بعينى صفية خضرة، فقال لها النبى ﷺ : ما هذه الخضرة بعينيك؟**

قالت : **قلت لزوجى إنى رأيت فيما يرى النائم كأن قمراً وقع فى حجرى، فلطمنى وقال : أتريدين ملك يثرب ؟.. أتريدين ملك يثرب ؟**

قالت : **وما كان أبغض إلى من رسول الله ﷺ قتل أبى، وزوجى .**

فما زال يعتذر إلى ويقول : يا صفية إن أباك ألب على العرب، وفعل ... وفعل حتى ذهب ذلك من نفسى (٣) .

وعن وحشى بن حرب : **أن النبى ﷺ لما أفاء الله عليه صفية، قال لأصحابة ﷺ: ما تقولون فى هذه الجارية ؟**

قالوا نقول : **إنك أولى الناس بها وأحقهم .**

قال ﷺ : **فإنى أعتقها وأستنكحها، وجعلت عتقها مهرها .**

فقال رجل : **يا رسول الله الوليمة .**

---

(١) صحيح البخارى ك النكاح بباب من جعل عتق الجارية صداقها جـ٨ صـ١٣٥ .

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٩ صـ٤٠٤ .

(٣) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد باب مناقب صفية جـ٩ صـ٤٠٤ .

قال ﷺ : الوليمة حق، والثانية معروف، والثالثة، فخر وحرج [١] .

وعن صفية قالت : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وما من أحد أكره إلى منه فقال : إن قومك صنعوا كذا وكذا فما قمت من مقعدى ومن الناس أحد أحب إلى منه ﷺ [٢].

وفى رواية عن السيدة صفية رضى الله عنها قالت : ما رأيت قط أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ، لقد رأيته ركب بى من خيبر على عجز ناقته ليلاً، فجعلت أنعس فيضرب رأسى مؤخرة الرحل، فيمس بيده ويقول : يا هذه مهلاً يا بنت حيي .

حتى إذا جاء الصهباء قال : أما إنى أعتذر إليك يا صفية مما صنعت بقومك إنهم قالوا لى كذا وكذا [٣] .

وكانت صفية حليمة، عاقلة، فاضلة، ماتت سنة خمسين فى رمضان، وقيل سنة اثنتين وخمسين فى خلافة معاوية ودفنت بالبقيع .

الزوجة الحادية عشرة : ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها :-

ثم تزوج "ﷺ" بعد صفية بنت حيى : ميمونة بنت الحارث الهلالية، زوجه إياها العباس عمه، وكانت خالة ابن عباس ﷺ .

وكانت فى الجاهلية عند " مسعود بن عمرو بن عمير الثقفى " ففارقها وخلف عليها " أبو رهم بن عبد العزى " فتوفى عنها، فتزوجها رسول الله "ﷺ" فى شوال سنة سبع بمكة فى عمرة القضاء بعدما أحل .

وبنى بها بسرف حيث تزوج بها، وقد ماتت سنة إحدى وستين فى خلافة يزيد بن معاوية ، وقد بلغت ثمانين سنة، وهى آخر من تزوج "ﷺ"[٤].

وهى التى وهبت نفسها للنبى يقول السهيلى : لما جاءها الخاطب، وكانت على بعير رمت بنفسها من على البعير، وقالت : البعير وما عليه لرسول الله "ﷺ" [٥] .

---

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٩ صـ٤٠٦ .

(٢) المرجع السابق جـ٩ صـ٤٠٦

(٣) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٩ صـ٤٠٤-٤٠٦ .

(٤) الطبقات الكبرى جـ٨ صـ١٣٢ إلى ١٣٤

(٥) الروض الأنف جـ٤ صـ٧٨ وفيها نزل قوله تعالى ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾

أجمع المؤرخون، وكتاب السيرة على تزوج النبى "ﷺ" بأحدى عشرة إمرأة، هن أمهات المؤمنين المذكورات :

ست منهن قرشيات وهن : خديجة، وعائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وأم سلمة، وسودة بنت زمعة رضى الله عنهن .

وأربع عربيات وهن : زينب بنت جحش من بنى خزيمة، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت خزيمة من بنى صعصعة، وجويرية بنت الحارث من بنى المصطلق

ومن غير العربيات، صفية بنت حيي بن أخطب من بنى النضير .

وقد توفى النبى ﷺ عن تسع لوفاة خديجة وزينب بنت خزيمة فى حياته وكان يقسم لثمان، بعد أن تنازلت سودة عن ليلتها لعائشة رضى الله عنهن، وأول أزواجه لحوقاً به زينب بنت جحش، وآخرهن وفاة أم سلمة رضى الله عنهن جميعاً .

وكان للنبى "ﷺ" سريتان اختلفت الروايات حول زواج الرسول بهما وهما :

الأولى : مارية بنت شمعون القبطية المصرية، أهداها له صاحب الأسكندرية واسمه جريج بن مينا، وكانت جميلة، بيضاء، أعجب بها الرسول "ﷺ"، وأحبها وحظيت عنده، ولا سيما بعدما وضعت إبراهيم ولده .

ولما ولدت له إبراهيم غار نساء رسول الله "ﷺ"، واشتدت عليهن الغيرة حين صارت بذلك أم ولد حرة فقال رسول الله "ﷺ" : أعتقها ولدها .

وماتت فى المحرم سنة خمس عشرة فصلى عليها عمر ودفنها بالبقيع رحمها الله [١].

الثانية : ريحانة بنت زيد القرظية نسبت لبنى قريظة لتزوجها واحداً منهم وليست منهم لأنها عربية وكانت فى سبى بنى قريظة، وقد سباها النبى "ﷺ" فى شوال سنة أربع، وتوفيت سنة عشر، وصلى عليها عمر بن الخطاب، ودفنها بالبقيع [٢] وقيل بل أعتقها النبى ﷺ وفرض عيها الحجاب وتزوجها .

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٨ صـ١١٢

(٢) انظر الطبقات الكبرى جـ٨ صـ١٢٩ إلى ١٣٢

ـ ثانياً ـ
الزوجات المختلف فيهن

اختلف المؤرخون، وعلماء السير فى أخريات خطبهن النبى ﷺ أو تزوج بهن من غير المتفق عليهن وهن :

الأولى : أم شريك الواهبة نفسها له ﷺ طلقها قبل أن يدخل بها ، فلم تتزوج حتى ماتت

الثانية : خولة بنت الهذيل بن هبيرة، تزوجها ﷺ فهلكت قبل أن تصل إليه .

الثالثة : عمرة بنت يزيد الكلابية، طلقها، وأمر أسامة بن زيد فمتعها ثلاثة أثواب .

الرابعة : أسماء بنت النعمان الكندية، تزوجها فلما دعاها قالت : أعوذ بالله منك، فقال : عذت بمعاذ، ثم سرحها إلى أهلها، وكانت تسمى نفسها الشقية .

الخامسة : مليكة بنت كعب، ومنهم من ينكر تزويجها .

السادسة : فاطمة بنت الضحاك، تزوجها ثم فارقها ﷺ، وقيل : إن أباها قال إنها لم تصدع قط، فقال ﷺ : لا حاجة لى بها .

السابعة : العالية بنت ظبيان بن عمرو، تزوجها ﷺ وكانت عنده ما شاء الله ثم طلقها

الثامنة : قتيلة بنت قيس أخت الأشعث بن قيس الكندى، زوجه إياها أخوها فى سنة عشر، ثم انصرف إلى حضرموت فحملها، فقبض ﷺ قبل قدومه عليه .

التاسعة : سنا بنت الصلت بن حبيب السلمية ، تزوجها ﷺ، وماتت قبل أن يدخل بها، وعند ابن إسحاق أنه ﷺ طلقها قبل أن يدخل بها .

العاشرة : شراف بنت خليفة أخت دحية الكلبى، تزوجها ﷺ فماتت قبل دخوله ﷺ بها

الحادية عشرة : ليلى بنت الحطيم أخت قيس، تزوجها ﷺ، وكانت غيوراً فاستقالته فأقالها، فأكلها الذئب .

الثانية عشرة : امرأة من بنى غفار تزوجها ﷺ، فأمرها فنزعت ثيابها، فرأى بكشحها بياضاً، فقال، إلحقى بأهلك، و لم يأخذ مما أتاها شيئاً [١].

---

(١) زاد المعاد جـ صـ الطبقات جـ صـ

ـ ثالثاً ـ

من خطبها أو وهبت نفسها ولم يتزوجها ﷺ :

هناك بعض النسوة ذكر المؤرخون أن رسول الله ﷺ خطبهن، أو وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ و لم يدخل بهن، وهن :-

الأولى : امرأة من بنى مرة بن عوف خطبها ﷺ إلى أبيها، فقال أبوها : إن بها برصاً ــ وهو كاذب ــ فرجع فوجد البرص بها .

الثانية : امرأة قرشية يقال لها سودة خطبها ﷺ وكانت مصبية، فقالت : أخاف أن يضجوا ويبكوا عند رأسك، فدعا لها وتركها .

الثالثة : صفية بنت بشامة، وكان أصابها فى سبى، فخيرها بين نفسه الكريمة وبين زوجها، فاختارت زوجها .

الرابعة : أم هانئ فاختة بنت أبى طالب أخت على ﷺ، خطبها ﷺ، فقالت : إنى مصبية واعتذرت إليه فعذرها .

الخامسة : ضباعة بنت عامر بن قرط، خطبها إلى ابنها سلمة بن هاشم فقال : حتى أستأمرها، فقيل للنبى ﷺ إنها قد كبرت، فلما عاد ابنها ــ وقد أذنت له ــ سكت عنها ﷺ فلم ينكحها .

السادسة : أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب، عرضت عليه ﷺ، فقال : هى ابنه أخى من الرضاعة [1] .

---

(١) انظر زاد المعاد والطبقات الكبرى ففيهما تفصيل وتوضيح .

ـ المبحث الخامس ـ
رد ما يقال عن تعدد زوجاته "ﷺ"

يمكن تقسيم حياة النبى الأسرية إلى فترات أربع عاشهاالنبى ﷺ بدءا بزواجه من خديجة رضى الله عنها أولى زوجاته ، وانتهاء بميمونة رضى الله عنها آخر زوجاته حتى وفاته ﷺ وهى :-

الفترة الأولى : بدأت حين تزوج النبى "ﷺ" السيدة خديجة رضى الله عنها وعمره خمس وعشرون سنة ، واستمرت حتى وفاة خديجة رضى الله عنها، وعمره ﷺ خمسون سنة ، وهذه الفترة هى مرحلة شباب النبى ﷺ ومدتها خمس وعشرون سنة .

الفترة الثانية : بدأت بوفاة السيدة خديجة وعمره "ﷺ" خمسون سنة حيث تزوج ﷺ السيدة سودة بنت زمعة، وعاش معها أربع سنوات، انتهت بعد الهجرة بعام واحد، وكان عمره "ﷺ" أربعاً وخمسين سنة .

الفترة الثالثة : امتدت ست سنوات، منذ أن كان عمر النبى "ﷺ" أربعاً وخمسين سنة، إلى أن بلغ ستين سنة، وفيها تزوج النبى "ﷺ" عدداً من أمهات المؤمنين، توفى عن تسعة منهن، وكانت ميمونة آخر من تزوجهن ﷺ .

الفترة الرابعة : وتمتد من بلوغ النبى "ﷺ" سن الستين إلى أن توفى "ﷺ" عندما بلغ ثلاثاً وستين سنة، وفى هذه الفترة لم يتزوج النبى "ﷺ" أحداً حيث حرم الله تعالى عليه الزواج فيها ، وأمره أن لا يستبدل بإحدى زوجاته غيرها .

وحين ندقق النظر فى تعدد زوجات النبى "ﷺ"، وبخاصة فى المراحل العمرية المذكورة لرسول الله "ﷺ"نلحظ الآتى :-

أولاً : أن النبى "ﷺ" تزوج خديجة رضى الله عنها، وكانت تكبره بخمس عشرة سنة وعاش معها حتى لقيت ربها وعمرها خمسة وستون عاماً وكان عمر النبى ﷺ وقتها خمسين عاماً .

ثانياً : استمر رسول الله "ﷺ" مع زوجة واحدة حتى بلغ سنه أربعاً وخمسين سنة، لأنه تزوج سودة بنت زمعة الأرملة المسنة بعد وفاة خديجة، و لم يدخل بسواها إلا

بعد أربع سنوات من الدخول بسودة، وذلك بعد تمام الهجرة إلى المدينة المنورة .

ثالثاً : فترة التعدد كانت ستة أعوام، بعدما بلغ عمر رسول الله أربعاً وخمسين، ودخل فى سن الكبر والشيخوخة ، وهى الأعوام التى امتلأت بنزول القرآن ، وبيان الأحكام الشرعية وبناء الدولة المسلمة ، والحركة بالإسلام وسط الناس والقيام بالسرايا والغزوات، والاتصال بالعالم الخارجى، واستقبال الوفود من كل جهة ، وإرسال الرسائل، وتبليغ الدعوة عملياً إلى العالم كله .

رابعاً : أن زوجات النبى "ﷺ" كن ثيبات، سبق لهن الزواج قبل رسول الله ﷺ إلا عائشة رضى الله عنها، فقد عقد عليها بأمر الله تعالى، وسنها ست سنوات، و لم يدخل بها "ﷺ" إلا بعد الهجرة بسنة تقريباً، وعمرها تسع سنوات رضى الله عنها .

خامساً : لم يعترض أحد من اليهود، أو من المنافقين أو من كفار مكة على زواج النبى ﷺ مع أنهم كانوا يتربصون به الدوائر، ولو وجدوا فى زواج الرسول "ﷺ" لعباً، أو هوى، أو مطعناً لأذاعوه، ونشروه فى العالمين ، لكنهم مع عداوتهم لرسول الله لم يتكلموا فى زواجه ﷺ بل شهدوا له بالعفة والطهر .

وهذه الملاحظات تؤكد لنا حقيقة واضحة، وهى أن رسول الله "ﷺ" لم يكن شهوانياً أبداً كما يدعى بعض أعداء الإسلام، لأنه لو كان شهوانياً لاختار بكراً، صغيرةً وجميلة فى زواجه الأول، ولتزوج معها غيرها وبخاصة أن المجتمع الجاهلى كان يعدد الزوجات بلا حد معين .. وكان النبى "ﷺ" قبل الرسالة يملك الوقت الذى يمكنه من إشباع شهوته، بدل أن يضيعه فى الخلاء والبعد عن الناس .

ولو كان النبى "ﷺ" شهوانياً لأوثر عنه اتصال بالغوانى والبغايا، وكان لهن يومذاك دور معروفة، وكان المجتمع يقر هذا العمل لمن يريده .

لكنه "ﷺ" لم يكن كذلك وإنما عاش طاهراً عفيفاً، لم يتهم بريبة، و لم يرم بخطيئة، وعاش صادقاً أميناً .

وبعد موت خديجة رضى الله عنها تزوج سودة رضى الله عنها فى مكة، وهى الأرمله العجوز، وعاش معها وحدها أربع سنوات، وهو رسول الله "ﷺ"، ولو رغب فى

أى فتاه عذراء وجميلة ومسلمة لسعدت به، ولرحب به قومها جميعاً، لكنه "ﷺ" تزوج سودة لتعلم الدنيا كلها أن الغاية لم تكن أبداً إشباع شهوة، أو التمتع المجرد بالأنثى، أو الإنغماس فى الملذات الحسية .

يقول الأستاذ عباس العقاد : قال لنا بعض المستشرقين : إن تسع زوجات لمحمد لدليل على فرط الميول الجنسية .

قلنا له : إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر جنسيا لأنه لم يتزوج قط، فلا ينبغى أن تصف محمداً بأنه مفرط جنسيا لأنه جمع بين تسع نساء .

ونحن قبل كل شئ، لا نرى ضيراً على الرجل العظيم أن يتزوج ويتمتع لأنه الفطرة لا عيب فيه .

فحب المرأة لا معابة فيه ما دام فى إطاره المشروع، وفى حده المباح .

وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن حده، وحتى يشغل المرء عن غرضه، وحتى يكلفه شططاً فى طلابه، فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة، يعاب كما يعاب الجور فى جميع الطباع !!

فمن الذى يعلم حقيقة ما صنع النبى فى حياته، ثم يقع فى روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير، أو عن عمل صغير ؟!.... لم يوجد هذا بعد !!

مَن مِن بناة التاريخ قد بنى فى حياته، وبعد مماته، تاريخاً أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية، والدولة الإسلامية ؟!!

ومن ذا الذى يقول عن تراث محمد ﷺ : هذا عمل رجل مشغول بالنساء ؟

عم شغلته المرأة ؟

ومتى شغلته ؟

وكيف شغلته ؟

لم يتحدث أحد من المؤرخين أن محمداً شغل بالمرأة عن رسالته، ومسئوليته .

ومن ذا الذى تفرغ لعمل ما فبلغ فيه شأو محمد فى مسعاه ؟ ولو كان تخصصه فى جزئية صغيرة من تاريخ محمد ﷺ الشامل ؟

إن عظمة محمد ﷺ قد أتاحت له أن يعطى الدعـــوة حقها، ويعطى المرأة حقها، فالعظمة حينئذ رجحان يذكر ، وليست بنقص ينكر .

وهذا الاستيفاء السليم لكل واجباته ﷺ كمال فى الرجولة ، وفى الأداء ، وفى السلوك .

ورسالة محمد إذن هى الرسالة التى يفهمها أناس خلقوا للحياة، و لم يخلقوا نابذين لها، ولا منبوذين منها .

وشريعته إذا هى الشريعة المطلوبة لعامة الناس فى كافة العصور لما يتمتعون فيهـــا من حلال مشروع .

وأعجب شئ أن يقال عن النبى ﷺ إنه استسلم للذات الحس ، وقد أوشك أن يطلق نســـاءه أو يخيرهن فى الطلاق، لأنهن طلبن إليه المـــزيد مـــن النفقـــة، وهـــو لا يستطيعها .

نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة، ولو شاء لأغدق عليهن النعمة، وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات .

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه ؟

أما كان يسيراً عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفال والغنائم ما يرضيهن، ولا يغضب المسلمين، وهم موقنون أن إرادة الرسول من إرادة الله ؟

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء، حتى يقال إنه كان يفرط فى ميله إلى النساء؟

هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سننه ؟!!

أو هل دفعه إلى نقض العظمة ويخالف ما يحمد من سيرته ؟!!

وهل ألجأه أن يترخص فيما يرضاه أتباعه، ولا ينكرونه عليه ؟!!

لم يكلفه شيئاً من ذلك، و لم يشغله عن جليل أعماله، وصغيرها، و لم نر فيـــه ﷺ رجلاً تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهورن، بل رأيناه رجلاً يغلب تلك الملـــذات فى طعامه، ومعيشته، وفى ميّله إلى نسائه، فيحفظها بما يملك منها، ولا يأذن لها أن تســـومه ضريبة مفروضة عليه، ولو كانت هذه الضريبة بسطة قد ينالها أصغر المسلمين، ولا شك

فى قدرة النبى عليها لو أراد .

ويزيد فى غرابة اتهام النبى بالإفراط الجنسى أن الرجل الذى توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولاً قبل زواجه

ولا بعد زواجه، حتى تتخبط فيه الظنون ذلك التخبط الذريع .

فمحمد كان معروفاً بين الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة .

كان معروفاً من صباه إلى كهولته فلم يعرف عنه أنه استسلم للذات الحس فى ريعان صباه، و لم يسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان، حين كانت الجاهلية تبيح مالا يباح، بل عرف بالطهر والأمانة، واشتهر بالجد والرصانة، وقام بالدعوة بعدها، فلم يقل أحد من شانئيه والناعين عليه والمنقبين وراءه أهون الهنات .

لم يقل أحد : تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى، الذى كان من شأنه مع النساء كيت، وكيت، يدعوكم اليوم إلى الطهارة، والعفة، ونبذ الشهوات ..

كلا لم يقل أحد هذا قط من شانئيه، وهم عديد لا يحصى، ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل (١) .

وهناك من يعترض على تعدد زوجات النبى "ﷺ" لمجرد التعدد فى ذاته، ويرون ذلك غير لائق بعظماء الرجال .

والذين يقولون ذلك ضعيفوا العقول بسطاء التفكير لأنهم إن **كانوا من الإباحيين** الذين يعيشون بين الخليلات، والعاشقات، والصاحبات، فهؤلاء لا يصح الإلتفات إليهم، لأن اعتراضهم لا مقياس له، ولا معقولية فيه، ولأن الزواج عندهم لا قيمة ، له وحديثهم هراء لا مصداقية فيه ، ولا معنى له .

وإن كانوا أصحاب دين يقول بالتعدد، فهم قوم يحرمون على غيرهم ما أباحه دينهم، ولذلك فإهمالهم أمر عادى، واعتراضهم مردود عليهم ، وعليهم أن يناقشوا أنفسهم ودينهم فى إباحة التعدد .

---

(١) عبقرية محمد صـ١٣٦ – ١٤٠ بتصرف .

وإن كانوا من أهل الكتاب، (يهود أو نصارى) فإن الحقيقة يجب أن تتضح وهى أن العهد القديم يذكر أن عدداً من الأنبياء عددوا أزواجهم حيث لا عيب فى الزواج والتعدد .

إن فرط الرجولة ليس عيباً فى الرجل، بل هو كمال وقوة إذا ظهر ضمن الإطار الذى حدده الله تعالى، وحافظ على حقوق سائر الأطراف، وكان عامل خير للمجتمع، وتقدمه (١)

وإن كان العيب فى التعدد تكثير النسل، والمساهمة فى الإنفجار السكانى – كما يقولون – فإن الله تعالى قدر لرسوله "ﷺ" أن يموت وليس له من الأبناء إلا فاطمة رضى الله عنها فلقد توفاهم الله تعالى جميعاً فى حياة النبى "ﷺ" ما عدا فاطمة رضى الله عنها.

وإن تصور البعض أن التعدد يضر بالمرأة، فهو معارض بما يحققه التعدد للمرأة من فوائد عديدة (٢).

والخلاصة هى تأكيد حقيقة براءة النبى ﷺ من كل زيف أشاعه أعداؤه حول زواجه ﷺ .

---

(١) الإسلام للأستاذ سعيد حوى صـ١٥٧ .

(٢) والأمثلة على فوائد التعدد للمرأة عديدة منها :-

- أن تكون الزوجة عقيماً والرجل يريد الولد، فإن من الخير لها أن يتزوج ثانية عليها ، وتبقى فى رعايته .
- أن تكون مريضة يرعاها زوجها، ومن الخير لها أن يتزوج أخرى وتبقى هى فى عصمته .
- أن يملك الرجل طاقة " أى شبقاً " ويحتاج لأكثر من زوجة فزواجه أفضل من ارتكابه الحرام .
- وحينما يكثر النساء عقب الحروب فإن التعدد هو العلاج لذلك ، وإن لا فسد المجتمع كله .

إن التعدد فى هذه الحالات أكرم للمرأة لتعيش فى كنف رجل يرعى حقوقها ، بدل أن تضيع فى معترك الحياة الضروس، وهو أكرم للمجتمع حفاظاً على الطهر والفضيلة، وضماناً لحقوق كل فرد فيه، وهو أكرم للرجل ليصل ما بينه وبين الناس بذرية صالحة، وأسرة كريمة حانية .

ـ المبحث السادس ـ
الحكم العامة فى تعدد
زوجات النبى "ﷺ"

ينطوى زواج النبى "ﷺ" على حكم بليغة تعم زوجاته جميعاً، وتظهر مع كل واحدة منهن على حدة، مما يجعل ذلك التعدد ضرورة لابد منها من عدة زوايا .

أولاً :

محمد رسول الله، وخاتم الرسل، والرسالة بصورة عامة اختيار إلهى محض ، يختص بها الله بعض عباده، ويحيطهم بعنايته، ويصنعهم لنفسه، وذلك أمر يؤكد أن زواجه، وسائر حياته وحى من الله تعالى، وحينئذ يكون التسليم بتعدد زوجات النبى ﷺ مسألة إيمانية محضة .

فالرسول "ﷺ" تزوج بأمر الله تعالى له، يقول الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ (١) .

لقد أحل الله لرسوله أن يتزوج بما يشاء، وأن يملك بيمينه ما يشاء، وعلى الإنسان العاقل أن يسلم بفعل رسول الله فى الزواج، لأنه قدر ربانى، وأمر إلهى، ولن يضيع الله رسوله أبداً، ولن يأمره بسوء أبداً .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٠ – ٥١ .

ففى الآيات يحل الله للنبى أنواع النساء المذكورات فيها، ولو كن فوق الأربع، مما هو محرم على غيره، وهذه الأنواع هى : الأزواج اللواتى أمهرهن، وما ملكت يمينه إطلاقاً من الفئ، وبنات أعمامه، وبنات عماته، وبنات خاله، وبنات خالاته، ممن هاجرن معه، دون غيرهن ممن لم يهاجرن إكراماً للمهاجرات ، وأيما امرأة وهبت نفسها للنبى بلا مهر، ولا ولى، إن أراد النبى نكاحها نكحها .

وقد جعل الله هذه الخصوصية للنبى "ﷺ"، أما سائر المسلمون فهم خاضعون لما بينه الله، وفرضه عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم، ذلك كى لا يكون على النبى حرج فى استبقاء أزواجه، وفى الاستجابة للظروف الخاصة بشخصه .

ثم ترك الخيار له "ﷺ" فى أن يضم إلى عصمته من شاء، ممن يعرضن أنفسهن عليه، أو يؤجل ذلك، ومن أرجأهن فله أن يعود إليهن حين يشاء، وله أن يباشر من نسائه من يريد، ويرجئ من يريد، ثم يعود ..يقول الله تعالى ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾(١) فأوامر الله وتوجيهاته تراعى الظروف الخاصة المحيطة بشخص الرسول "ﷺ"، والرغبات الموجهة إليه، والحرص على شرف الاتصال به، مما يعلمه الله ويدبره بعلمه وحلمه ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ .

وعند وصول عمره "ﷺ" إلى الستين منعه ربه من الزواج، حيث نزل عليه قول الله تعالى ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾(٢) .

والآية تحرم على رسول الله "ﷺ" صراحة أن يتزوج أحداً غير نسـائه اللواتى فى

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥١ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٥٢ .

عصمته، لا من ناحية العدد، ولكن هن بذواتهن لا يستبدل بهن غيرهن، و لم يعرف أن رسول الله قد زاد عليهن بعد هذا التحريم الذى تضمنته الآية .

إذن أمر زواج النبى ﷺ توجيه إلهى محض، وكان هذا كاف فى الموضوع لأصحاب العقول السليمة لولا فلتات الهوى، وأمراض النفس، واعتراض قلوب وعقول لا تعطى للرسالة حقها، ولا تقدر للرسول ما يجب أن يكون له .

ثانيا :

يريد الله تعالى فى تجمع هذا العدد من الزوجات المتنوع أصلاً، وسناً، وحضارة، أن يتعلم الناس وبخاصة النساء أن الإسلام يصنع وحدة خالصة من المؤمنين، لا تتأثر بالعوامل المادية، أو العنصرية أو الثقافية ، فزوجات النبى ﷺ منهن العربية، والقرشية، واليهودية ، والنصرانية ، والمصرية، ومنهم من كان أبوها مهاجراً، ومن كان أبوها كافراً، ومنهن الجميلة، والدميمة، ومنهن الغنية، والفقيرة .

أراد الله تعالى أن يحيط هذا الجمع بتوجيهات نبيه "ﷺ" لتظهر من بينهن الأسوة والقدوة لسائر المؤمنات وبخاصة من ينلن الحظوة الدنيوية فى بيت الخلافة والزعامة والرئاسة ... وحتى لا تتصور مسلمة ما أن علو المكانة يودى بها إلى الترفع والاستعلاء على الناس .

لهذا التجمع فى بيت النبوة جاءت الأوامر الألهية .

* يقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ (١)

فلقد اختار النبى "ﷺ" لأهل بيته جميعاً عيشة الكفاف والتقشف، يمر الشهر والشهران لا يوقد فى بيته ﷺ نار، استعلاء على متاع الدنيا، ورغبة خالصة فيما عند الله لكن نساء النبى "ﷺ" كن من البشر، ورغبن فى المتعة الدنيوية، كما يتمتع البشر،

---

(١) سورة الأحزاب الآيتين ٢٨، ٢٩ .

وبخاصة أن الله أفاء على رسوله بالسعة، والرخاء، وقد تمتع بها سائر الناس ... فراجعن الرسول فى شأن النفقة، فحزن الرسول لذلك، وتألم كثيراً واحتجب عن أصحابه، و لم يؤذن لهم بالدخول لإعلان أسفه وغضبه .

يروى البخارى فى صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه قال : أقبل أبو بكر ﷺ يستأذن على رسول الله "ﷺ" والناس ببابه جلوس، فاستأذن فلم يؤذن له

ثم أذن بعد ذلك لأبى بكر، وعمر ﷺ فدخلا، والنبى "ﷺ" جالس، وحوله نساؤه، وهو "ﷺ" ساكت .

فقال عمر ﷺ لأكلمن النبى "ﷺ" لعله يضحك، فقال عمر ﷺ : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد – امرأة عمر – سألتنى النفقة آنفاً فوجأت عنقها ! فضحك النبى "ﷺ" حتى بدت نواجذه .

وقال "ﷺ" : هن حولى يسألننى النفقة .

فقام أبو بكر ﷺ إلى عائشة ليضربها .

وقام عمر إلى حفصة كذلك .

كلاهما يقولان : تسألان النبى "ﷺ" ما ليس عنده ؟

فنهاهما الرسول "ﷺ" .

فقلن : والله لا نسأل رسول الله "ﷺ" بعد هذا المجلس ما ليس عنده .

وأنزل الله عز وجل آيتى الخيار المذكورتين، فبدأ ﷺ بعائشة رضى الله عنها، فقال: إنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك .

قالت : وما هو ؟

قال : فتلا عليها الآيات .

قالت عائشة رضى الله عنها : أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله، أسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت فقال "ﷺ" : إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً، ولكن بعثنى معلماً ميسراً، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها [1] .

---

(١) صحيح البخارى . ك التفسير . باب " يا أيها النبى قل لأزواجك جـ٧ صـ٣٧٥، ٣٧٦ .

وفى رواية البخارى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى "ﷺ" أخبرته أن رسول الله "ﷺ" جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه فبدأ بى رسول الله "ﷺ"، فقال : إنى ذاكر لك أمراً، فلا عليك أن تستعجلى حتى تستأمرى أبويك، وقد علم أن أبوى، لم يكونا يأمرانى بفراقه ثم تلا على الآيات .

فقلت له : أفى هذا أستأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة[١].

لقد جاء القرآن الكريم ليحدد القيم الأساسية فى تصور الإسلام للحياة . هذه القيم التى ينبغى أن تجد ترجمتها الحية فى بيت النبى "ﷺ" وحياته الخاصة، وأن تتحقق فى أدق صورة ، وأوضحها فى هذا البيت الذى كان وسيبقى منارة للمسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ونزلت آيتا التخيير تحددان الطريق، فإما الحياة الدنيا وزينتها، وإما الله ورسوله والدار الآخرة . فالقلب الواحد لا يسع تصورين للحياة، وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

ونحب أن نقف أمام هذا الحادث نتدبر بعض العبر [٢]:

١) إنه يحدد التصور الإسلامى الواضح للقيم، ويرسم الطريق الشعورى للإحساس بالدنيا والآخرة، ويحسم فى القلب المسلم كل أرجحة، وكل لجلجة، بين قيم الدنيا وقيم الآخرة، بين الاتجاه إلى الأرض والاتجاه إلى السماء، ويخلص هذا القلب من كل وشيجة غريبة تحول بينه وبين التجرد لله، لأن الخلوص يجب أن يكون له سبحانه وتعالى وحده دون سواه .

٢) يصور لنا هذا الحادث حقيقة حياة رسول الله "ﷺ" والذين عاشوا معه واتصلوا به، وأجمل ما فى هذه الحقيقة أن تلك الحياة كانت حياة إنسان، وحياة ناس من البشر، لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم، وسماتهم الإنسانية مع كل تلك العظمة الفريدة البالغة التى ارتفعوا إليها، ومع هذا الخلوص لله والتجرد مما عداه، فالمشاعر

---

(١) صحيح البخارى ك النكاح جـ٧ صـ٣٧٦ ط الأوقاف .

(٢) انظر فى ظلال القرآن جـ٥ صـ٢٨٥٥ بتصرف يسير .

الإنسانية، والعواطف البشرية، لم تمت فى تلك النفوس، ولكنها ارتفعت وصفت من الأوشاب . ثم بقيت لها طبيعتها البشرية الحلوة، و لم تعوق هذه النفوس عن الارتفاع إلى أقصى درجات الكمال المقدر للإنسان .

وكثيراً ما نخطئ نحن حين نتصور للنبى "ﷺ"، ولصحابته رضوان الله عليهم صورة نجردهم فيها من كل المشاعر، والعواطف البشرية حاسبين أننا نرفعهم بهذا، وننزههم عما نعده نحن نقصاً وضعفاً .

وهذا الخطأ يقطع الصلة البشرية بيننا وبينهم، وتبقى شخوصهم فى حسنا فى رقى عال بين تلك الهالات، أقرب إلى الأطياف التى لا تلمس، ولا تتماسك فى الأيدى ! ونشعر بهم كما لو كانوا خلقاً آخر غيرنا .. ملائكة، أو خلقاً مثلهم، مجردين من مشاعر البشر، وعواطفهم على كل حال .

ومع شفافية هذه الصورة الخيالية فإنها تبعدهم عن محيطنا، فلا نعود نتأسى بهم أو نتأثر . يأساً من إمكان التشبه بهم، أو الاقتداء العملى بهم فى الحياة، لأن صورهم تختلف فى أذهاننا عن الواقع الموجود .

ونفقد بذلك التجاوب الحى بيننا وبين هذه الشخصيات العظيمة لأن التجاوب إنما يقع نتيجة لشعورنا بأنهم بشر حقيقيون عاشوا بعواطف ومشاعر وانفعالات حقيقية من نوع المشاعر والعواطف والانفعالات التى نعانيها نحن، ولكنهم ارتقوا بها، وطهروها من الشوائب التى تخالج مشاعرنا .

٣) اختار الله تعالى رسله من البشر لا من الملائكة، ولا من أى خلق آخر غير البشر، كى تبقى الصلة الحقيقية بين حياة الرسل وحياة أتباعهم قائمة، وكى يحس أتباعهم أن قلوبهم كانت تعمرها عواطف ومشاعر من جنس مشاعر البشر وعواطفهم وإن صفت، ورقت، وارتفعت، يحبونهم حب الإنسان للإنسان، ويطمعون فى تقليدهم تقليد الإنسان الصغير للإنسان الكبير، ويتعلمون منهم تعلم التلميذ من أستاذه، وبذلك يكونون أتباعاً مخلصين .

٤) وفى هذه الحادثة نقف أمام الرغبة الطبيعية فى نفوس نساء النبى "ﷺ" فى

المتاع، كما نقف أمام صورة الحياة البيتية للنبى "ﷺ"ونسائه رضى الله عنهن، وهن أزواج يراجعن زوجهن فى أمر النفقة ! فيؤذيه هذا ، ولكنه لا يقبل من أبى بكر ﷺ وعمر ﷺ أن يضربا عائشة، وحفصة على هذه المراجعة، فالمسألة مسألة مشاعر وميول بشرية تصفى وترفع، ولكنها لا تخمد ولا تكبت !

ويظل الأمر كذلك حتى يأتيه أمرالله بتخيير نسائه، فيخترن الله ورسوله والدار الآخرة، اختياراً لا إكراه فيه، ولا كبت، ولا ضغط، فيفرح رسول الله "ﷺ" بارتفاع قلوب أزواجه إلى هذا الأفق السامى الوضئ .

٥) ونقف كذلك أمام تلك العاطفة البشرية الحلوة، فى قلب رسول الله "ﷺ" وهو يحب عائشة حباً ظاهراً، ويحب لها أن ترتفع إلى مستوى القيم التى يريدها الله له، ولها، ولأهل بيته ، فيبدأ بها فى التخيير، ويريد أن يساعدها على الارتفاع والتجرد، فيطلب إليها ألا تعجل فى الأمر حتى تستشير أبويها، وقد علم أنهما لم يكونا يأمراها بفراقه كما قالت .

وهذه العاطفة الحلوة فى قلب النبى "ﷺ" لا تخطئ عائشة رضى الله عنها فى إدراكها، فتسر بها وتحفل بتسجيلها فى حديثها ، ومن خلال هذا الحديث يبدو النبى "ﷺ" إنساناً يحب زوجه الصغير، ويحب لها أن ترتفع إلى أفقه الذى يعيش فيه، وتبقى معه على هذا الأفق، تشاركه الشعور بالقيم الأصيلة فى حسه، والتى يريها ربه له ، ولأهل بيته .

كذلك تبدو عائشة رضى الله عنها إنسانة ، يسرها أن تكون مكينة فى قلب زوجها، فتسجل بفرح حرصه عليها، وحبه لها، ورغبته فى أن تستعين بأبويها على اختيار الأفق الأعلى، فتبقى معه على هذا الأفق الوضئ، ثم نلمح مشاعرها الأنثوية كذلك، وهى تطلب إليه ألا يخبر أزواجه الأخريات أنها اختارته حين يخيرهن !

وما فى هذا المطلب من رغبة فى أن يظهر تفردها فى هذا الاختيار، وميزتها على بقية نسائه، أو على بعضهن فى هذا المقام !

وهنا نلمح عظمة النبوة من جانب آخر فى رد رسول الله "ﷺ" وهو يقول لها :

إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً، ولكن بعثنى معلماً ميسراً . لا تسألنى واحدة منهن عما اخترت إلا أخبرتها .

فهو لا يود أن يحجب عن إحدى نسائه ما قد يعينها على الخير، ولا يمتحنها امتحان التعمية والتعسير، بل يقدم العون لكل من تريد العون، كى ترتفع على نفسها وتتخلص من جواذب الأرض، ومغريات المتاع .

* ومن هذه الأوامر نزل الله تعالى فى سورة الأحزاب ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (١)

وهذه الآيات تحمل نساء النبى "ﷺ" مسئولية الريادة، والقيادة، وهى مسئولية ضخمة، عليهن العمل لها، والقيام بلوازمها، فإن أخطأت خطأ ضوعفت العقوبة، وإن استقامت، وأطاعت، يضاعف لها الأجر كذلك، وعليهن أن يطعن الله ورسوله فيما يوحه إليهن، وإلى المسلمات من تشريع .

ينهاهن حين يخاطبن الأغراب من الرجال، أن يكون فى نبراتهن ذلك الخضوع اللين، الذى يثير شهوات الرجال، ويحرك غرائزهم، ويغرى مرضى القلوب، ويهيج رغائبهم .

ونهاهن من قبل عن النبرة اللينة، واللهجة الخاضعة، وأمرهن مع هذه أن يكون حديثهن فى أمور معروفة، غير منكرة، فإن موضوع الحديث قد يطمع مثل لهجة الحديث، فلا ينبغى أن يكون بين المرأة والرجل الغريب لحن، ولا إيماء، ولا هذر، ولا هزل، ولا دعابة، ولا مزاح . حتى لا يكون مدخلا إلى شئ آخر وراءه من قريب، أو من بعيد .

وأمرهن الله أيضاً بالمكث فى البيت لا يخرجن إلا لضرورة .

كما نهاهن عن تبرج الجاهلية إذا خرجن .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣١ ، ٣٢ .

وأمرهن بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله ليعشن فى طهارة دائمة، وعفه نقية تتلاءم مع بيت النبوة يقول الله تعالى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (١)

إن بيت النبوة هو موطن نزول الوحى، وعلى أمهات المؤمنين أن يعرفن ذلك، ويتأهلن له، وليذكرن ما يترل الوحى به فى بيوقمن من قرآن، أو من سنة، ليأخذ من يأتى بعدهم منهن .

ثالثا :

لقد جاء الإسلام بنظم كاملة تحتاج إليها النسوة فى حياقمن العامة، والخاصة، ولابد لهذه النظم أن تعرف، وقمضم، لتنتقل إلى الأجيال القادمة واضحة بينة، ولقد قامت أمهات المؤمنين بتبيلغ الإسلام بصورة حسنة، وبخاصة لأخواقمن المؤمنات، وإذا تأملنا فى مرويات أمهات المؤمنين، والفتاوى التى نقلنها إلى غيرهن، لعلمنا ضرورة تعدد زوجات النبى ﷺ ليتمكن من تحمل هذه المسئولية التى كلفوا بها فى قوله تعالى﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (٢) .

لقد كان الصحابة، والتابعون يقصدون أمهات المؤمنين لأخذ حديث، أو تصحيح آية، أو معرفة حكم شرعى عرفنه من رسول الله "ﷺ" وكان البعض يقصد أزواج النبى ﷺ لمعرفتهن أحواله ﷺ وعبادته، **ومعيشته كهؤلاء النفر الذين جاءوا إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا كأهم تقالوها .**

فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال أحدهم : أما أنا فإننى أصلى الليل أبداً .

---

(١) الأحزاب الآية ٣٣ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٤ .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً .

فجاء رسول الله ﷺ فقال : **أنت الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء تلك سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى** (١) .

يروى الترمذى بسنده قول أبى موسى الأشعرى : **ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً** (٢) .

رابعاً :

كان زواج النبى "ﷺ" المتعدد حلا لابد منه فى بعض الحالات .

فأم سلمة المخزومية بنت سيد بنى مخزوم، المهاجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة، وقد استشهد زوجها، وليس لها أحد، بعدما أصرت على ترك قومها، وهاجرت إلى رسول الله ﷺ وكانت شديدة التقدير، والتعلق بزوجها أبى سلمة فلما مات خطبها أبو بكر، و طلبها عمر فرفضت لأنها لم تجدهما خيراً من أبى سلمة .

فهل تبقى وحدها أرملة ؟.. وهى التى تحملت من أجل الإسلام ما تحملت .

إنه ليس هناك حل أبر، وأكرم من ضم رسول الله "ﷺ" لها إلى نسائه، وقد رضيت به عوضاً .

ورملة بنت أبى سفيان زعيم قريش أسلمت، وهجرت أباها وقومها، وهاجرت إلى الحبشة، مع زوجها، ثم تنصر زوجها، وارتد عن الإسلام، ومات كافراً، وثبتت هى على إسلامها، وظلت مقيمة فى الحبشة .

أهذه تترك ؟ ولمن ؟

هل تترك لتعود لقومها مع كفرهم ؟

أتترك للعزلة والشماتة ؟

---

(١) صحيح البخارى كتاب النكاح باب الترغيب فى النكاح جـ٨ صـ١٢٥ ط الأوقاف .

(٢) سنن الترمذى بشرح تحفة الأحوذى جـ١٠ صـ٢٥٨ والحديث حسن غريب .

أليست مكافأتها فى مكانتها أن تكون زوجة رسول الله "ﷺ" ؟؟ وتعيش مكرمة عزيزة أما من أمهات المؤمنين ؟!

وكم سيكون لهذا أثره فى نفس أبيها !!.... الذى لم يسلم بعد .

وزينب بنت جحش التى زوجها رسول الله "ﷺ" من متبناه ومولاه زيد، و لم تستقم حياتهما فافترقا، وأراد الله أن يهدم قاعدة التبنى عند العرب، التى لا تقوم على أساس معقول، فهدمها بشكل جذرى، يوم أن أمر رسول الله "ﷺ" أن يتزوج زينب مطلقة متبناه زيد .

وجويرية بنت الحارث بنت سيد قومها، وقومها من أعز بيوت العرب شرفاً، ومنزلة، وقد أسر رجالهم، وسبى نساؤهم، فلما تزوجها رسول الله "ﷺ" قال الناس : **أصهار رسول الله "ﷺ" ففرجوا عنهم ، وأعتقوا كل من له علاقة بها .**

وصفية بنت حيي : كان أبوها ملك اليهود تقريباً، وزوجها كذلك من خير ساداتهم، وقد هلك أبوها وأخوها وزوجها، وكان من سنته "ﷺ" الرحمة بعزيز قوم ذل، فضمها إلى نسائه رحمة بها، بدل أن تكون لرجل عادى من الصحابة، لا يتكافأ معها منزلة، ونسباً، فأعتقها النبى ﷺ، وتزوجها، واستل ما بفؤادها من حقد كان يمكن أن يعذبها مدى الحياة .

خامساً :

على المسلمين جميعاً أن يتعلموا من معاملة رسول الله "ﷺ" لزوجاته حسن العشرة، ولين المعاملة، والمحافظة على دين الله تعالى فى السر والعلن، وأن يلتمسوا صورة التعامل مع زوجات رسول الله "ﷺ"، ليكون منهجاً متبعاً على طول الزمن ، ومع امتداد العمران ، واختلاف الثقافات والحضارات .

ـ المبحث السابع ـ
حسن عشرة النبى "ﷺ" لزوجاته رضوان الله عليهم

عامل الرسول "ﷺ" نساءه معاملة كريمة، قائمة على حسن العشرة، ومكارم الأخلاق، ورفعة السلوك، وفى هذا المبحث أورد أهم جوانب هذه المعاملة .

أولاً :

كان رسول الله "ﷺ" يتحدث عن زوجاته، ويعلى شأنهن، ويقدر لهن مترلتهن.

يقول "ﷺ" عن خديجة بنت خويلد " **خير نسائها مريم بنت عمران خير نسائها خديجة** [١] .

ويقول لعائشة رضى الله عنها : **أريتك فى المنام ثلاث ليال جاءنى بك الملك فى سرقة من حرير، فيقول هذه امرأتك فاكشف عن وجهك، فإذا أنت هى، فأقول إن يك هذا من عند الله يمضه** [٢] .

ويقول "ﷺ" : **فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام** [٣].

ويقول "ﷺ" **عن زينب إنها أطولكن يداً لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق** [٤] .

ويقول لزينب : المزوج الله والشاهد جبريل [٥] .

وليس ذلك بغريب على رسول الله "ﷺ" فلقد أعلى الله شأنهن جميعاً، وجعلهن أمهات للمؤمنين بقوله تعالى ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [٦]

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب فضل خديجة جـ ١٥ صـ ١٩٨.

(٢) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب فضل عائشة جـ ١٥ صـ ٢٠٢.

(٣) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب فضل عائشة جـ ١٥ صـ ٢١١.

(٤) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى جـ٢٢ صـ١٣٤ .

(٥) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٩ صـ٣٩٦

(٦) سورة الأحزاب الآية ٦ .

فزوجات النبى ﷺ أمهات للمؤمنين جميعاً، على طول الزمن، لهن ما للأمهات من الرعاية، والتقدير، وحسن المعاشرة، وعدم الزواج بهن بعد رسول الله ﷺ، وملازمة الأدب، وحسن الخلق فى التعامل معهن .

كما نبه المسلمين على ضرورة التمسك بآداب الدخول فى البيوت حين التعامل مع زوجات النبى ﷺ فقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (١) .

والآيات تنظم علاقة المسلمين ببيوت النبى "ﷺ"، وبنسائه أمهات المؤمنين فى حياته، وبعد وفاته كذلك، ويواجه حالة كانت واقعة وهى أن بعض المسلمين كانوا إذا دعوا إلى طعام عند رسول الله ﷺ يستأنسون الحديث فيجلسون بعد الطعام، فأمر الله تعالى بالإنتشار بعد الطعام منعاً لإيذاء رسول الله ﷺ .

ثانياً :

كان رسول الله ﷺ يعدل بين زوجاته، ويسوى بينهن كما أمر الله تعالى، وفى إطار وسعه ﷺ، ولم يفرق الرسول ﷺ فى حسن معاملته، بين زوجاته أبدا، برغم تفاوتهن فى جوانب عديدة، فى الجمال، وفى السن، وما كان يبعده عن العدل شئ ما، فجعل لكل واحدة منهن ليلة، وإذا زار واحدة فى غير ليلتها زارهن جميعاً، ومع مراعاته للعدل الدقيق، كان يستغفر الله فى ميله القلبى لبعضهن ويقول : اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك .

وكان "ﷺ" يقرع بينهن إذا أراد السفر، فأيتهن خرجت القرعة عليها اصطحبها.

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٣ .

تقول أم سلمة : لما تزوجنى رسول الله ﷺ أقام عندى ثلاثاً، وقال : إنه ليس بك هوان على أهلك، إن شئت سبعت لك، وإن سبعت لك سبعت لنسائى [١] .

ثالثاً :

كان ﷺ يقدر لزوجاته حقوقهن الأساسية، ويصونها لهن، لم يتزوج واحـــدة إلا برضاها، وكان يشاورهن ، ويناقشهن ، ويصبر عليهن .

وقد رأينا موقفه ﷺ من النسوة اللاتى رفضن الزواج منه .

وكان ﷺ يستشير زوجاته فى المواقف الصعبة وينزل على رأيهن .

فى يوم الحديبية أمر المسلمين بأن يحلقوا، وينحروا، بعد الصلح ليتحللوا فبقوا واجمين، فدخل على زوجه أم سلمة، وهو متأثر يقول : **هلك المسلمون أمرهم بالحلق فلم يحلقوا، وأمرهم بالذبح فلم يذبحوا !!**

فقالت : **يا رسول الله أخرج و لا تكلم أحداً منهم، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك .**

فخرج ﷺ فلم يكلم أحداً منهم، حتى فعل ذلك .

فلما رأى المسلمون ما صنع النبى ﷺ انزاح عنهم الذهول، فقاموا عجلين، ينحرون هديهم، ويحلق بعضهم بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل الآخر [٢] .

وهكذا كان رسول الله ﷺ يشاور زوجاته، ويأخذ برأيهن فى الأمور العامة والخاصة، وكن رضى الله عنهن نعم الشريكات لزوجهن رسول الله ﷺ وبذلك نعمن بالحياة مع رسول الله ﷺ رغم ما كان فى حياتهن من تقشف .

رابعاً :

كان النبى ﷺ يحرص أن يكون جميلاً، أنيقاً، نظيفاً، فى صورته الجسدية، وفى سلوكه العملى، وفى سائر معاملاته معهن .

كان ﷺ ضاحكاً بساماً [٣] .

---

(١) من السنة أن من تزوج البكر يبقى عندها سبعاً، وإذا تزوج الثيب يبقى عندها ثلاثاً .

(٢) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٢٩٤

(٣) رواه ابن عساكر . انظر منتقى النقول صـ٢٩٨ .

وكان أفكه الناس مع نسائه [١] .

وكان ﷺ يقول : **اغسلوا ثيابكم، وخذوا من شعوركم، وتنظفوا** [٢] .

ويقول ﷺ : **إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها، ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها، حتى تقضى حاجتها** [٣] .

ويقول ﷺ : **خيركم خيركم لأهلة، وأنا خيركم لأهلى** [٤] .

إن رسول الله ﷺ لم يستنكف داخل بيته أن يقوم بحاجته، وأن يخدم نفسه، بل كان يقوم أحياناً بحاجة أهله، ويخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويقول ﷺ : **خدمتك زوجتك صدقة**

خامساً :

كان ﷺ يترفق معهن فى الحديث، ويداعبهن، ويلاعبهن، فقد لاعب عائشة رضى الله عنها **فسبقها فلما غضبت لاعبها وتراخى لها فسبقته، وقالت : هذه بتلك**[٥] وهو ﷺ **القائل لعائشة : إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية، وإذا كنت على غضبى فقالت له : ومن أين تعرف ذلك ؟**

قال ﷺ : **أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين : لا ورب محمد، وإذا كنت على عضبى قلت : ولا ورب إبراهيم .**

قالت : **أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك** [٦] .

سادساً :

وكان ﷺ يعرف ما جبلوا عليه كسائر النسوة، من غيرة وتنافس وحب الاستئثار بالرجل، ولذلك لم يندهش لبعض تصرفاقمن، فيرفق بمن، ويصبر عليهن .

حدث مرة أن ذبح ﷺ شاة وقال : **أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة .**

---

(١) المرجع السابق صـ١٩ .

(٢) فيض القدير جـ٢ صـ١٩

(٣) فيض القدير جـ١ صـ٣٢٥ .

(٤) المرجع السابق جـ٣ صـ٤٦٦ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب فضل عائشة جـ١٥صـ٢٠٣ .

(٦) صحيح مسلم كتاب الفضائل : باب فضل عائشة جـ١٥صـ٢٠٣

فغارت عائشة وقالت : **خديجة .... خديجة ...**

فما زاد ﷺ إلا أن قال لها : **إنى رزقت حبها** [(١)] .

وقالت عائشة رضى الله عنها لفاطمة بنت رسول الله : **إن رسول الله لم** يرزق بكراً غيرى : **فبكت فاطمة، وذهبت تشكو لأبيها ﷺ** .

فقال لها : **قولى لها إن أمى تزوجت أبى وكان بكراً، ولم يتزوج عليها** [(٢)] .

وكان ﷺ يعمل على إرضاء زوجاته ، وتهدئة خواطرهن بالمعروف يقول أنس بن مالك : **بلغ صفية أن حفصة قالت : بنت يهودى فبكت ، فدخل عليها النبى ﷺ وهى تبكى فقال : ما يبكيك ؟**

قالت : قالت لى حفصة إنى بنت يهودى .

فقال لها النبى ﷺ : **إنك لابنة نبى ، وإن عمك نبى ، وإنك لتحت نبى ، ففيم تفخر عليك ... ثم قال لحفصة : اتقى الله يا حفصة** [(٣)] .

وكان يقابل بعض تصرفاتهن بالصمت لينتهوا منه، ويعلموا ما فى تصرفهن من حق أو خطأ فى رفق وهدوء، بعيداً عن الإنفعال والغضب .

يروى الإمام مسلم بسنده عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : **أرسل أزواج رسول الله ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى أبيها ﷺ فاستأذنت عليه، وهو مضجع معى فى مرطى، فأذن لها .**

فقالت : يا رسول الله إن أزواجك أرسلننى إليك، يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة، وأنا ساكتة .

فقال لها رسول الله ﷺ : أى بنية ألست تحبين ما أحب ؟

فقالت : بلى .

قال : فأحبى هذه .

---

(١) صحيح البخارى ك . المناقب . باب فضل خديجة جـ ١٥ صـ ١٩٩ .

(٢) الإسلام صـ ١٧٥

(٣) سنن الترمذى بشرح تحفة الأحوذى أبواب المناقب جـ ١٠ صـ ٢٦٨ .

فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ فرجعت إلى أزواج النبى ﷺ، وأخبرهن بالذى قالت، وبالذى قال لها رسول الله ﷺ .

فقلن لها : ما نراك أغنيت عنا من شئ، فارجعى إلى أبيك ﷺ فقولى له : إن أزواجك ينشدنك العدل فى ابنة أبى قحافة .

فقالت فاطمة : والله لا أكلمه فيها أبداً .

فأرسل أزواج النبى ﷺ زينب بنت جحش رضى الله عنها، زوج النبى ﷺ وهى التى كانت تسامى عائشة فى المترلة عند رسول الله ﷺ .

تقول عائشة : لم أر امرأة قط خيراً فى الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها فى العمل الذى تتصدق به، وتتقرب به إلى الله تعالى، ما عدا سورة من حدة كانت فيها تسرع منها الفينة .

فاستأذنت زينب على رسول الله ﷺ وهو مع عائشة فى مرطها، على الحالة التى دخلت فاطمة عليها، وهو بها، فأذن لها رسول الله ﷺ .

فقالت يا رسول الله : إن أزواجك أرسلننى إليك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة فلم يتكلم رسول الله ﷺ .

تقول عائشة : ثم إن زينب وقعت بى، فاستطالت على، وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طرفه هل يأذن لى فيها، فلن تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر، فلما وقعت بها لم أنشبها، حتى أنحيت عليها .

فقال رسول الله ﷺ وتبسم : إنها ابنه أبى بكر (١).

وهو يدل على رفق رسول الله ﷺ بزوجاته، وصبره عليهن، فبرغم أنهن تجمعن، وأرسلن إليه يطلبن العدل، وفى هذا تحامل منهن على رسول الله ﷺ رغم ذلك كان ﷺ يتبسم، ويصمت، ويترك لهن تقدير الموقف ، و لم يأخذ واحدة منهن بالظنة أو يصدق ما يشاع عن إحداهن من سوء ، فلقد أشاع المنافقون الإفك حول عائشة رضى الله عنها، واتهموها زوراً بما ليس فيها ومع ذلك لم يتغير رسول الله ﷺ و لم يغاضب عائشة، وإنما بقى

(١) صحيح مسلم باب فضائل عائشة جـ ١٥ صـ ٢٠٥

صامتاً صابراً، مع شدة ألم الإفك فى نفسه، وذلك أكبر برهان على حسن معاملة رسول الله "ﷺ" لزوجاته، وأخذه لهن بالرفق والأناة .

إن سلامة العرض، والمحافظة على الشرف والفضيلة من السمات التى يحافظ عليها العرب، ويدافعون عنها بكل غال لديهم، ومع ذلك الوضع الخطير يحافظ رسول الله ﷺ على هدوءه، ويترفق بعائشة رضى الله عنها، ويســـتمر ذلك الحال شهراً كاملاً، ولا يتعرض لها بنقد أو تأنيب أو مقاطعة أو بنظرة عاتبة .

تروى السيدة عائشة رضى الله عنها حادثة الإفك كما عايشتها فتقول : **كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه ، فأيهن خرج سهمها، خرج بها رسول الله ﷺ معه، فأقرع بيننا، فى غزوة غزاها، فخرج فيها سهمى، فخرجت مع رسول الله ﷺ، بعدما أنزل الحجاب، فكنت أحمل فى هودجى، وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ، فلما دنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حتى آذنوا بالرحيل فمشيت، حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى، فلمست صدرى، فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى، فحبسنى ابتغاؤه .**

وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونى، فاحتملوا هودجى، فرحلوه على بعيرى، الذى كنت أركب عليه، وهو يحسبون أنى فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً، لم يهبلن الطعام ولم يغشهن اللحم، إنما كن يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدت عقدى، بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داع، ولا مجيب، فتيممت منزلى الذى كنت به، وظننت أنهم سيفتقدونى فيرجعون إلى، فبينا أنا جالسة فى منزلى، غلبتنى عينى، فنمت .

وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش، فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم، فعرفنى حين رآنى، وكان رآنى قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى، فخمرت وجهى بجلبابى، والله ما تكلمنا بكلمة،

ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش، موغرين في نحر الظهيرة، وهم نزول، فهلك من هلك، وكان الذى تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول .

فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشئ من ذلك .

وكان يريبنى فى وجعى ، أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين اشتكى، إنما يدخل على رسول الله ﷺ، فيسلم، ثم يقول : كيف تيكم، ثم ينصرف، فذلك يريبنى، ولا أشعر بشئ .

ثم خرجت، حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح فلما فرغنا من شأننا عدنا إلى بيتى ، وعنده عثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح .

فقلت لها : بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟

فقالت : أى هنتاه ، أولم تسمعى ما قال ؟

قلت : و ما قال ؟

فأخبرتنى، بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضى، فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله ﷺ فسلم ثم قال : كيف تيكم .

فقلت له : أتأذن لى أن آتى أبوى ؟ وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لى رسول الله ﷺ فقلت لأمى : يا أمتاه ماذا يتحدث الناس ؟

قالت : يا بنية هونى عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن عليها .

فقلت : سبحان الله ! أو قد تحدث الناس بهذا ؟

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكى .

ودعا رسول الله ﷺ، على بن أبى طالب، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله .

فأما أسامة، فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله، وبالذى يعلم لهم فى نفسه، وقال : أهلك ولا نعلم إلا خيراً .

وأما على فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك .

فدعا رسول الله ﷺ بريرة وقال لها : أى بريرة هل رأيت من شئ يريبك ؟

قالت له بريرة : والذى بعثك بالحق، ما رأيت عليها أمراً قط، أغمصه غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتى الداجن، فتأكله .

فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبى، وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين، من يعذرنى من رجل، قد بلغنى عنه، أذاه فى أهلى ؟ والله ما علمت على أهلى إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلى إلا معى .

فبكيت يومى ذلك كله، لا يرقأ لى دمع، ولا أكتحل بنوم، وأصبح أبواى عندى، وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم، حتى إنى لأظن أن البكاء فالق كبدى، فبينما أبواى جالسان عندى، وأنا أبكى، استأذنت على امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكى معى .

فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس، ولم يجلس عندى منذ ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً، لا يوحى إليه فى شأنى بشئ .

فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : أما بعد يا عائشة، إنه بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله، وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف، ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى، حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبى: أجب رسول الله ﷺ عنى فيما قال .

فقال أبى : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .

فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ﷺ، فيما قال .

قالت أمي : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .

فقلت وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ من القرآن كثيراً : إنى والله، لقد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث، حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إنى برئية لا تصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى فوالله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ثم تحولت، واضطجعت على فراشى، والله يعلم إنى حينئذ بريئة، وأعلم أن الله مبرئى ببراءتى، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحياً يتلى لشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه من العرق مثل الجمان وهو فى يوم شات، من ثقل القول الذى أنزل عليه .

فسرى عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكانت أول كلمه تكلم بها أن قال : يا عائشة أما الله فقد برأك .

فقالت لى أمى : قومى إليه .

فقلت والله لا أقوم إليه فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل [1] .

وفى قصة الإفك نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب حديث الإفك جـ٦ صـ٣٤٠ - ٣٤٨ ط الأوقاف .

وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾
وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ
﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ
وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

والآيات واضحة الدلالة على براءة السيدة عائشة رضى الله عنها، وتعيين الأفاكين فى عدد قليل، هم العصبة، وتوجيه المسلمين إلى المنهج القويم، الذى يجب إتباعه فى مثل هذه الحالات، مع ملاحظة أن إبطال الإفك كان فى كلمة واحدة أطلقت على كل ما جرى مسمى " الإفك " ، وبقية الآيات دروس تربوية وإيمانية لمجتمع يجب أن يدوم على خيريته وعظمته التى صنعها الإسلام ، ويجب أن تستمر به .

وأهم هذه الدروس ما يلى الدرس الأول :

إن رسول الله "ﷺ" عاش شهراً قبل نزول الآيات بالبراءة ، والإشاعة الكاذبة تملأ الدنيا، والهمس يدور بين أهل المدينة جميعاً، وأخذ ﷺ يبحث عن الحقيقة التى ترد هذا الزيف المتكاثر فأستبين آراء أصحابه، وسأل أسامة بن زيد، وعلى بن أبى طالب، كما سأل بريرة مولاته .

وقد أجابه كل من سأله إجابة تؤكد علو مقام السيدة عائشة وطهارتها، و لم يزد أحد عن ذلك إلا علياً ﷺ فإنه حاول أن يسرى عن رسول الله ﷺ، ويبعده عن الحزن، فنصحه بالزواج، فالنساء كثير . حتى لا يتأثر بما يشاع مع تقديره لمقام عائشة رضى الله عنها .

---

(١) سورة النور الآيات من ١١ إلى ٢١ .

الدرس الثانى :

إن حادثة الإفك قدر إلهى أراده الله تعالى لتحقيق الخير للمسلمين، به يعرفون عدوهم، ويعلمون المنافقين من بينهم، ولتبقى البراءة آيات قرآنية تعلى مكانة أم المؤمنين عائشة على الزمن كله .

فإذا علم أن هذا الإفك أشيع بين الناس بعد غزوة الأحزاب، لظهر أنه كان جزءا من مؤامرة شاملة خطط لها أعداء الإسلام وروجها المنافقون من أجل تقويض المجتمع الإسلامى، وتشويه صورة القيادة المحمدية، .

ومن هنا كان إثبات براءة السيدة عائشة رضى الله عنها ، وظهور طهارة بيت النبوة فى قرآن يتلى، ويبقى ثابتاً على طول الزمن من المبادئ الهامة التى لابد منها لصيانة المجتمع من الشائعات، وبخاصة تلك التى تتصل بالريادة المؤمنة التى يتأسى بها سائر الناس ولتبق القيادة المسلمة فى كل آن مثالاً عالياً للطهارة ، والخلق الكريم .

الدرس الثالث :

فى إطار الآيات التى تتحدث عن الإفك جاءت توجيهات تحدد أهمية تعاون المجتمع فى رد البهتان والزيف، حتى لا يروجه البعض وهو لا يدرى .

فلا يصح فى المجتمع المسلم أن ينتشر الإفك فيه وبخاصة ما يتعلق بالعرض والشرف، والواجب على كل من يسمع إفكاً أن لا يكرره، وعليه أن يستعيذ بالله منه، ولا يشيعه، تطبيقاً لقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ (١) .

ولا يجوز فى المجتمع المسلم أن يسمع أحد أفراده عن إخوانه أمراً ، ويصدقه بلا برهان يثبته ، أو دليل يؤكده .

ولا يصح لمسلم أن يضع نفسه فوق إخوانه، أو يتميز عنهم، وواجب على المسلم أن يقيس الأمر على نفسه وعلى أهله، وأن يضع نفسه مكان من دار الإفك

---

(١) سورة الحجرات آية ٦ .

حولهم، فإن استبعد على نفسه ما يسمعه فمن الأولى أن يستبعده على غيره، وبخاصة من هم أفضل منه فى الكرم، والخلق .

يروى المؤرخون أن أبا أيوب خالد بن زيد **قالت له امرأته أم أيوب : يـــا أبـــا أيوب أما تسمع ما يقوله الناس فى عائشة ؟**

قال : بلى وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ؟

قالت : لا والله ما كنت لأفعله .

قال : فعائشة والله خير منك (١) .

الدرس الرابع :

إن كرامة المجتمع المسلم يجب أن تصان من دعايات السوء ولذلك نزلت الآيات لعظة المسلمين حتى لا يقعوا فى مثل هذا الأمر مرة أخرى، ولا يكونوا فريسة توجيهات الشيطان من الإنس أو الجن التى تحاول جر المجتمع الإسلامى إلى الهاوية، وعلى المسلمين فى مثل هذه المواقف أن لا يتعجلوا فى الحكم، وأن لا يتحدثوا إلا بعد معرفة الحقيقة الصادقة، حتى لا يؤذوا أنفسهم، وغيرهم بجهالة ويصبحوا نادمين .

إن من تسرع فى الإفك، وخاض فيه بلا بينه أخطأ كثيراً ويكفى لظهور خطإ هؤلاء أن نعلم أن صفوان بن المعطل كان حصوراً لا يأتى النساء (٢) ومع ذلك قيل ما قيل فيه !!

الدرس الخامس :

الله عليم بعباده محيط بأخبارهم وأحوالهم ، ولذلك أنزل عقوبته علـــى هـــؤلاء الأفاكين على قدر مساهمتهم فى الإفك، وعذاب الله الأليم نازل بهم فى الدنيا والآخرة .

وأيضاً فإن رحمة الله تلحق بعبادة المؤمنين فى الدنيا والآخرة فيقبل توبة المســـئ، ويغفر لمن استغفر، ويزكى عباده الصالحين .

والدرس الهام والأخير :

هو بروز خلق رسول الله "ﷺ" الحليم، الرؤوف ، الرحيم، بالمؤمنين جميعـــاً ،

---

(١) سيرة النبى لابن هشام جـــ٢ صـــ٣٠٢ .

(٢) سيرة ابن هشام جـــ٢ صـــ٢٢٤ .

وبخاصة بأمهات المؤمنين .

فبرغم ما كان فيه من عناء يزلزل الجبال فى أيام حادثة الإفك كان يسأل عن عائشة رضى الله عنها، ويطمئن عليها، ويقول لها : كيف تيكم ؟

وستر عنها حديث الناس حتى لا تؤذى، ولم يرض بإثارتها، ومناقشتها، وكان يذكرها بالتوبة، والاستغفار إن كان وقع منها شئ، ويستمر الرسول ﷺ هكذا شهراً كاملاً حتى تنزل عليه آيات البراءة، فيخبر عائشة رضى الله عنها، وهو ﷺ أسعد منها بها

ويتحول جو الصمت، والحزن، فى بيت النبوة إلى سرور، وفرح ، وتنقلب المدينة كلها حديثاً عن طهارة أم المؤمنين عائشة وبراءتها مما أثير حولها .

تقول أم رومان لعائشة : قومى أشكرى رسول الله .

فترد عائشة رضى الله عنها : إنما أشكر الله الذى برأنى من فوق سبع سماوات[1]

وتستمر البراءة قرآنا يحفظ فى الصدور، ويتلى على الألسنة، شاهداً على طهارة هذا البيت العظيم .

هذا ..

وقد وقعت حادثة الإفك أثناء الرجوع من غزوة بنى المصطلق سنة ست من الهجرة .

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب المغازى باب حديث الإفك جـ٦ صـ٣٤٨

المبحث الثامن
أبناء النبى ﷺ

وهب الله لنبيه ﷺ عدداً من الأبناء والبنات كلهم من خديجة رضى الله عنهاما عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية .

وقد مات أبناء النبى ﷺ فى حياته، ما عدا فاطمة رضى الله عنها فإنها توفيت بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر على الصحيح. وأبناؤه ﷺ هم على ترتيب ميلادهم :

الأول :القاسم رضى الله عنه .

وهو أول أبنائه مولداً، وبه كان يكنى رسول الله ﷺ على عادة العرب، وقد ولد القاسم، ومات بمكة قبل البعثة، وعاش سبعة عشر شهراً فقط .

الثانية : زينب رضى الله عنها .

وهى المولود الثانى لرسول الله ﷺ، وأكبر بناته، ولدت قبل النبوة فى مكة، وتزوجت ابن خالتها أبا العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس فهو ابن أخت خديجة رضى الله عنها ، وأمه هالة بنت خويلد وكانت خديجة تحبه لما كان يتميز به ، فهو من رجال مكة المعدودين ، مالاً وأمانة وتجارة ، وقد رغبت خديجة رضى الله عنها فى تزويجه زينب ، فسألت رسول الله ﷺ أن يزوجها له وكان رسول الله ﷺ لا يخالف طلباً لخديجة وذلك قبل أن يترل عليه الوحى فزوجه ، وكانت خديجة تعد أبا العاص بمترلة ولدها ، فلما أكرم الله رسوله ﷺ بنبوته آمنت به خديجة وبناته ، فصدقنه وشهدن أن ما جاء به الحق ، ودن بدينه ، وثبت أبو العاص على شركه .

وكان رسول الله ﷺ قد زوج عتبة ، وعتيبة ابنا أبى لهب رقية و أم كلثوم فلما بادى قريشاً بأمر الله تعالى وبالعداوة ، قالوا للأزواج : إنكم قد فرغتم محمد من همه ، فردوا عليه بناته ، فاشغلوه بهن ، فأطاعهم أبناء أبى لهب ، فلما مشوا إلى أبى العاص وقالوا له : فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت ، قال لهم : لا والله لا أفارق صاحبتى ، وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش ، وكان رسول الله ﷺ يثنى عليه فى مصاهرته خيراً .

وكان رسول الله ﷺ لا يحل بمكة ولا يحرم ، وكان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله ﷺ حين أسلمت وبين أبى العاص بن الربيع ، لبقائه على شركه ، فقال رسول الله لزينب إنه لا يحل لك فأقامت معه على إسلامها ، وهو على شركه حتى هاجر رسول الله ﷺ وتركها معه ، وكانت قد رزقت منه بولد سمته علياً، وبنتـــاً أسمتها أمامة

وقد تأخر إسلام زوجها العاص، ووقع أسيراً فى يد المسلمين يوم بدر، لأنه كان فى صف الكفار يومها، وفدت زينب زوجها بقلادة ذهبية، أهدتها لها أمها خديجة رضى الله عنها، يوم زواجها ... فلما رأى رسول الله ﷺ القلادة تذكر خديجة وابنته زينب رضى الله عنها ، فرق قلبه ودمعت عيناه، فعفا عن أبى العاص، ومن عليه بالحرية، وأرسله إلى مكة، ومعه قلادة خديجة رضى الله عنها، واشترط عليه أن يسمح لزينب بالهجرة على أن يلحق بها إذا أسلم .

يقول ابن إسحاق : كان فى الأسرى يوم بدر أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس ختن رسول الله ﷺ و زوج ابنته زينب، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة، وهو ابن أخت خديجة، وكانت تعده بمنزلة ولدها، فسألت خديجة رسول الله ﷺ أن يزوجه زينب وذلك قبل الإسلام، **وكان رسول الله لا يخالفها** فلما أكرم الله نبيه ﷺ بالنبوة، وآمنت به خديجة رضى الله عنها ودخلت بناته فى الإسلام وصدقنه وشهدن أن ما جاء به هو الحق، ودن بدينه، وثبت أبو العاص على شركه ، فمشت قريش إلى أبى العاص بن الربيع فقالوا : **فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة شئت .**

فقال : **لا ـــ هاء الله ـــ إذا لا أفارق صاحبتى، وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش فكان رسول الله ﷺ يثنى علي صهره خيراً .**

وكان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله ﷺ وبين أبى العاص بن الربيع إلا أن رسول الله ﷺ لم يفرق بينهما بالطلاق، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وهى مقيمة معه بمكة، فلما سارت قريش إلى بدر سار فيهم أبو العاص بن الربيع، فأصيب فى الأسارى يوم بدر، فلما بعث أهل مكة فى فداء الأسرى، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص، وبعثت فيه

بقلادة لها كانت أمها خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص حين تزوجها، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال : **إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا** .

قالوا : نعم يا رسول الله ﷺ، فأطلقوه وردوا عليها الذى لها .

قال : وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه العهد مشافهة ، ووعده أبو العاص سراً أن يخلى سبيل زينب إليه كما شرط عليه فى إطلاقه فلما خرج أبو العاص إلى مكة، وخلى سبيله بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار وقال لهما : **كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحبانها فتأتيانى بها** . فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر أو نحوه فلما قدم أبو العاص مكة أمر زينب باللحوق بأبيها، فخرجت جهرة فتحدث بذلك رجال من قريش وكبر عليهم أن تخرج زينب علانية فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها بذى طوى فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب بن عبد العزى ، فروعها بالرمح وهى فى هودجها ، وكانت حاملاً فلما ريعت طرحت ذا بطنها ، وبرك حموها (أخو زوجها) كنانة ، ونثر كنانته ، ثم قال : والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهماً ، وأتى أبو سفيان فى جلة من قريش فقال : أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك فكف فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال : **إنك لم تصب ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس إذا خرجت بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا ، أن ذلك على ذل أصابنا عن مصيبتنا التى كانت ، وأن ذلك منا ضعف ووهن ، ولعمرى مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، ومالنا فى ذلك من ثأر ، ولكن ارجع بالمرأة ، حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسلها سراً ، وألحقها بأبيها ، ففعل ، فأقامت ليالى ، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبة بها على رسول الله ﷺ** [١] .

ولما أسلم أبو العاص ، وهاجر إلى رسول الله ﷺ فى المدينة رد زينب إليه بنكاحها الأول

---

(١) سيرة النبى لابن هشام جـ١ صـ٦٥٤ .

وكان إسلام أبى العاص وهجرته ﷺ سنة ست ، يروى ابن سعد ذلك فيقول : خرج أبو العاص بن الربيع فى عير إلى الشام فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى سبعين ومائة راكب فلقوا العير بناحية العيص فى جمادى الأولى سنة ست من الهجرة فأخذوها وما فيها من الأثقال وأسروا ناساً ممن كان فى العير منهم أبو العاص بن الربيع ، فلم يعد أن جاء المدينة فدخل على زينب بنت رسول الله ﷺ بسحر وهى امرأته فاستجارها فأجارته ، فلما صلى رسول الله الفجر قامت على باها فنادت بأعلى صوهّا : إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

فقال رسول الله ﷺ : أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟

قالوا : نعم .

قال : فو الذى نفسى بيده ما علمت بشئ مما كان حتى سمعت الذى سمعتم المؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجارت .

فلما انصرف النبى ﷺ إلى مترله دخلت عليه زينب فسألته أن يرد على أبى العاص ما أخذ منه ففعل ، وأمرها أن لا يقربها فإنها لا تحل له ما دام مشركاً ، ورجع أبو العاص إلى مكة فأدى إلى كل ذى حق حقه ، ثم أسلم ورجع إلى النبى ﷺ مسلماً مهاجراً فى المحرم سنة سبع من الهجرة فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بذلك النكاح الأول [1].

وقد ظلت زينب رضى الله عنها وجعة بسبب سقطها حتى لقيت ربها سنة ثمان من الهجرة، وقد صلى عليها عمر بن الخطاب ﷺ، ودفنت بالبقيع رضى الله عنها [2].

الثالثة : رقية رضى الله عنها .

هى الثالثة فى ترتيب أولاد النبى ﷺ، خطبها ابن عمها " عتبة بن أبى لهب " إلا أنه تخلى عنها، و لم يدخل بها، وطلقها بعد بعثة رسول الله ﷺ، نزولا على رغبة أبيه أبى لهب، وأمه أم جميل ، فتزوجها عثمان بن عفان ﷺ، وولدت له ولداً أسموه " عبدالله " مات صغيراً .

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٨ صـ٣٣

(٢) سيرة النبى جـ١ صـ٦٥٤ ، ٦٥٥ .

وهاجرت رضى الله عنها مع زوجها عثمان ﷺ إلى الحبشة الهجرة الأولى ، وعادت معه إلى مكة ثم هاجرت إلى المدينة المنورة بعد هجرة رسول الله إليها ومرضت بعد الهجرة واستمرت مريضة حتى وافاها أجلها، عند رجوع المسلمين من غزوة بدر فى رمضان سنة اثنين من الهجرة، وبسبب ذلك لم يشترك عثمان ﷺ فى بدر، وبقى مع زوجته رقية يمرضها، ويرعاها بأمر رسول الله ﷺ، وقد ضرب رسول الله ﷺ له سهمه، وأجره .

وعند عودة النبى ﷺ إلى المدينة بعد " بدر " كان عثمان ﷺ، راجعاً من البقيع بعد أن واراها مثواها الأخير رضى الله عنها (١) .

الرابع : أم كلثوم رضى الله عنها .

خطبها ابن عمها " عتيبة بن أبى لهب " إلا أنه تخلى عنها، وتركها بعد مبعث البنى ﷺ إرضاء لأبيه وأمه، هاجرت إلى المدينة مع أختها فاطمة رضى الله عنها، وعاشت مع أبيها فى بيته، وبعد وفاة رقية تزوجها عثمان بن عفان ﷺ فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة ولذلك عرف عثمان بن عفان بـــ " ذى النورين " و لم تنجب منه، واستمرت فى كنفه حتى ماتت رضى الله عنها سنة تسع من الهجرة، ودفنت بالبقيع (٢) ..

الخامسة : فاطمة رضى الله عنها .

هى أصغر بناته ﷺ، وكان لها دور بارز فى الهجرة النبوية، تزوجها على بن أبى طالب بأمر من الله تعالى، وولدت له : الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم، وزينب، وهى من النساء الكاملات اللائى أحبهن رسول الله ﷺ .

وكانت خديجة رضى الله عنها إذا ولدت ولداً دفعته إلى من يرضعه، فلما ولدت فاطمة لم يرضعها غيرها، فحظيت بعناية أبيها وأمها منذ صغرها (٣) .

أمر الله رسول الله ﷺ أن يزوج ابنته فاطمـــة رضى الله عنها ابن عمـــه على بن أبى طالب ﷺ ولذلك توقف ﷺ عن تزويجها لغيره من كبار الصحابة، بعدما ذكرها لأنفسهم، يقول أنس بن مالك ﷺ : إن عمر بن الخطاب ﷺ أتى أبا بكر ﷺ فقال :

---

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد باب ما جاء فى رقية جـــ٩ صـــ٣٤٧ .

(٢) المرجع السابق باب ما جاء فى أم كلثوم جـــ٩ صـــ٣٤٨ .

(٣) الطبقات الكبرى جـــ٨ صـــ٢١

يا أبا بكر ما يمنعك أن تتزوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ ؟

قال أبو بكر ﷺ : لا يزوجنى .

قال عمر : إذا لم يزوجك، فمن يزوج، وإنك من أكرم الناس عليه، وأقدمهم فى الإسلام . فانطلق أبو بكر ﷺ إلى بيت عائشة رضى الله عنها .

فقال : يا عائشة إذا رأيت من رسول الله ﷺ طيب نفس، وإقبالا عليك، فاذكرى له أنى ذكرت فاطمة، فلعل الله ــ عز وجل ــ أن ييسرها لى .

فجاء رسول الله ﷺ، فرأت عائشة منه طيب نفس وإقبالاً، فقالت : يا رسول الله إن أبا بكر ذكر فاطمة، وأمرنى أن أذكرها .

قال ﷺ : **حتى ينزل القضاء** .

فرجع إليها أبو بكر فقالت : يا أبتاه، وددت أنى لم أذكر الذى ذكرت .

فلقى أبو بكر عمر فذكر أبو بكر لعمر ما أخبرته عائشة .

فانطلق عمر إلى حفصة، فقال : يا حفصة إذا رأيت من رسول الله ﷺ إقبالاً ــ يعنى عليك ــ فاذكرينى له واذكرى فاطمة، لعل الله أن ييسرها لى .

فلقى رسول الله ﷺ حفصة، فرأت طيب نفس ورأت منه إقبالاً، فذكرت له فاطمة ــ رضى الله عنها .

فقال ﷺ : **حتى ينزل القضاء** .

فانطلق عمر ﷺ إلى على بن أبى طالب ﷺ فقال : ما يمنعك من فاطمة ؟

فقال على ﷺ : أخشى أن لا يزوجنى .

قال عمر ﷺ : فإن لم يزوجك فمن يزوج وأنت أقرب خلق الله إليه ؟

فانطلق على إلى رسول الله ﷺ مباشرة و لم يكن له مثل عائشة، ولامثل حفصة، فلقى رسول الله ﷺ، فقال : إنى أريد أن أتزوج فاطمة .

قال ﷺ : **فافعل** .

قال على : **ما عندى إلا درعى الحطمية** .

قال ﷺ : فأجمع ما قدرت عليه واتنى به، فأتى على باثنتى عشرة أوقية، أربع مئة وثمانين درهماً فأتى بها رسول الله ﷺ فزوجه فاطمة رضى الله عنها، فقبض ثلاث قبضات

فدفعها إلى أم أيمن وقال لها : **اجعلى منها قبضة فى الطيب** أحسبه قال : **والباقى فيما يصلح المرأة من المتاع** ، فلما فرغت أم أيمن من الجهاز، وأدخلتهم بيتاً قال ﷺ : **يا على لا تحدثن إلى أهلك شيئاً حتى آتيك** . فآتاهم رسول الله ﷺ **فإذا فاطمة متقنعة، وعلى قاعد، وأم أيمن فى البيت، فقال : يا أم أيمن ائتينى بقدح من ماء** .

فأتته بقعب فيه ماء، فشرب منه، ثم مج فيه، ثم ناوله فاطمة، فشربت، وأخذ منه فضرب جبينها، وبين كتفيها وصدرها .

ثم دفعه إلى على فقال : **يا على اشرب** ثم أخذ منه فضرب به جبينه وبين كتفيه ثم قال : **أهل بيتى، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً** . فخرج رسول الله ﷺ وأم أيمن وقال : **يا على أهلك** [١] .

وكان لفاطمة منزلة خاصة عند أبيها ﷺ .

➢ يروى الترمذى بسنده عن بريدة أنه قال : **كان أحب النساء إلى رسول الله ﷺ فاطمة ومن الرجال على** [٢] **يقول إبراهيم بن سعيد يقصد من أهل بيته** .

➢ وعن عائشة رضى الله عنها : **وكانت فاطمة رضى الله عنها إذا دخلت على رسول الله ﷺ قام إليها، فقبلها، وأجلسها فى مجلسه وكان النبى ﷺ إذا دخل عليها قامت له فقبلته، وأجلسته فى مجلسها** [٣] .

➢ ثم إن على بن أبى طالب ؓ خطب بنت أبى جهل على فاطمة، فأتت فاطمة أباها، غاضبة تقول له : **إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا على ناكحاً ابنة أبى‌جهل** [٤] .

فجمع رسول الله ﷺ الناس ثم خطبهم . وقال : **إن فاطمة منى، وأنى أتخوف أن تفتن فى دينهـــا، ثم ذكـــر صهراً له من بنى عبد شمس، هو زوج زينب، فأثنى عليه فى**

---

(١) الطبقات الكبرى جــ٨ صــ١٩ ، ٢٠

(٢) سنن الترمذى جــ٥ صــ٦٩٨

(٣) تحفة الأحوذى بشرح سنن الترمذى ، باب ما جاء فى فضل فاطمة جــ١٠ صــ٢٥٣ وهو حديث حسن غريب

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى . فضائل فاطمة جــ١٦ صــ٤ .

مصاهرته إياه [١] **وقال عنه : حدثنى فصدقنى ووعدنى فوفى لى وإنى لست أحرم حلالاً ولا أحلل حراماً ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله فى مكان احد أبداً** [٢] .

وقال ﷺ : **إن فاطمة بنت محمد مضغة منى، وإنما أكره أن يفتنوها** [٣] .

وقال ﷺ : **ابنتى مضغة منى، يريبنى ما رابها، ويؤذينى ما آذاها** [٤] .

فترك على رضي الله عنه ما شرع فيه [٥] .

وقد بشرها رسول الله ﷺ أنها سيدة نساء العالمين، كما جاء فى صحيح مسلم، عن عائشة رضى الله عنها قالت : **أقبلت فاطمة تمشى، كأن مشيها مشية رسول الله ﷺ فقال ﷺ : " مرحباً بابنتى " ثم أجلسها عن يمينه، ثم أسر إليها حديثاً، فبكت، ثم أسر إليها حديثاً، فضحكت .**

تقول عائشة : **ما رأيت كاليوم أقرب فرحاً من حزن ؟ فسألتها عما قال ﷺ ؟**

فقالت : **ما كنت لأفشى على رسول الله "ﷺ" سره .**

تقول عائشة : **فلما قبض ﷺ سألتها .**

فأخبرتنى أنه ﷺ قال : **إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن كل سنة مرة، وإنه عارضنى العام مرتين، وما أراه إلا قد حضر أجلى، وإنك أول أهل بيتى لحوقاً بى، ونعم السلف أنا لك، فبكيت لذلك .**

ثم إنه ﷺ سارنى فقال : **ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين ؟ فضحكت لذلك**[٦]

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى . فضائل فاطمة جـ١٦ صـ٤

(٢) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان باب تفضيل فاطمة جـ٦ صـ٢٧٩

(٣) صحيح مسلم فضائل فاطمة جـ١٦ صـ٣

(٤) صحيح مسلم فضائل فاطمة جـ١٦ صـ٤

(٥) ترجع معارضة النبى ﷺ لزواج على رضي الله عنه على ابنته فاطمة لتأذيه من ذلك، والمسلم مأمور بعدم إيذاء النبى ﷺ، وأيضاً فإن رسول الله خاف على فاطمة من الفتنة بسبب الغيرة، ويقال : إن النبى ﷺ قد اشترط على علىّ حين زواجه بعدم الزواج على فاطمة، ولعل فى إعلان النبى ﷺ معارضته على المنبر ليتعلم الناس كيفية التعامل مع رسول الله ﷺ وعدم فعل شئ يؤذيه وبدل قوله ﷺ : وإنى لست أحرم حلالا أو أحل حراماً أن علياً لو تزوج لجاز .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووى . فضائل فاطمة جـ١٦ صـ٥ .

≻ وعن ابن عباس قال : **صلى رسول الله ﷺ صلاة العصر، فلما كان فى الركعة الرابعة أقبل الحسن والحسين، حتى ركبا على ظهر رسول الله ﷺ، فلما سلم وضعهما بين يديه وأقبل الحسن فحمل رسول الله الحسن على عاتقه الأيمن والحسين على عاتقه الأيسر** ثم قال : **أيها الناس ألا أخبركم بخير الناس جداً وجدة ؟**

ألا أخبركم بخير الناس عماً وعمة ؟

ألا أخبركم بخير الناس خالاً وخالة ؟

ألا أخبركم بخير الناس أباً وأماً ؟

هما الحسن والحسين، جدهما رسول الله ﷺ، وجدتهما خديجة بنت خويلد، وأمهما فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأبوهما على بن أبى طالب ؓ، وخالهما القاسم بن رسول الله ﷺ وخالاتهما زينب، ورقية، وأم كلثوم، بنات رسول الله ﷺ .

جدهما فى الجنة، وأبوهما فى الجنة، وأمهما فى الجنة، وعمهما فى الجنة، وعمتهما فى الجنة، وخالاتهما فى الجنة، وهما فى الجنة، ومن أحبهما فى الجنة .[1]

وقد عاشت فاطمة رضى الله عنها فى كنف زوجها على بن أبى طالب ؓ حتى لقيت ربها بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمسة أشهر، ودفنت بالبقيع .

السادس : عبد الله ؓ .

ولد عبد الله فى مكة بعد البعثة، وهو أول أبنائه الذكور الذين ولدوا بعد ظهور الإسلام ، سماه النبى ﷺ باسم أبيه عبد الله، وكناه بالطاهر، والطيب، والمطهر، والمطيب، وقد سمى، وكنى بذلك لأنه ولد بعد النبوة .

ونظراً لكثرة أسماء عبد الله، وجدنا من يقول : إن هذه الأسماء لأولاد آخرين لرسول الله ﷺ من خديجة رضى الله عنها، حتى تصور أحدهم أن خديجة رضى الله عنها ولدت مرتين توأماً ففى المرة الأولى ولدت الطيب، والمطيب، وفى المرة الثانية ولدت الطاهر، والمطهر [2] .

---

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ ٩ صـ ٢٩٥ .

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد باب أولاد النبى ﷺ جـ ٩ صـ ٤٣٩

إلا أن هذه أقوال غير مشهورة، و لم يجمع عليها، والمجمع عليه أنه ﷺ أنجب عبدالله بعد البعثة وقد مات صغيراً فى مكة بعد أخيه القاسم بوقت قصير، ودفن بالحجون .

السابع : إبراهيم ﷺ .

ولد إبراهيم بالمدينة فى شهر ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة .. وهو الوحيد من غير خديجة، فأمه مارية القبطية ، وأخواله مصريون .

وقد عق عنه النبى ﷺ فى يوم سبوعه، وتوفى وعمره ستة عشر شهراً فى ربيع [١] الأول سنة عشر، ودفن بالبقيع بعد أن صلى عليه رسول الله ﷺ .

وقد سر النبى ﷺ بولادة إبراهيم، وسماه باسم جده إبراهيم عليه السلام، ودفعه إلى ظئر ترضعه، وحزن لموته كذلك [٢] يروى الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : **ولد لى الليلة غلام فسميته باسم أبى إبراهيم، ثم دفعه إلى أم سيف، امرأة قين يقال له أبوسيف، فانطلق يأتيه، واتبعته، فانتهينا إلى أبى سيف، وهو ينفخ بكيره، قد امتلأ البيت دخاناً، فأسرعت المشى بين يدى رسول الله ﷺ فقلت : يا أبا سيف، أمسك جاء رسول الله ﷺ فأمسك فدعا النبى ﷺ بالصبى فضمه إليه وقال : ما شاء الله أن يقول**

يقول أنس : لقد رأيته وهو يكيد بنفسه بين يدى رسول الله ﷺ فدمعت عينا رسول الله ﷺ فقال : تدمع العين، ويحزن القلب، و لا نقول إلا ما يرضى ربنا، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون [٣] .

وقد حدث أن انكسفت الشمس يوم موت إبراهيم، فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم .

فخطب النبى ﷺ وقال : **إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته** [٤] .

وقد ظهر حب رسول الله ﷺ لأولاده ، وحسن رعايته لهم ، ولذلك أنزل

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى . باب رحمته ﷺ جـ٥ صـ١٧٤ الشعب .

(٢) المرجع السابق جـ٥ صـ١٧٢

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى جـ٥ صـ١٧٢ ط الشعب .

(٤) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد باب فضل إبراهيم جـ٩ صـ٢٥٦ .

خديجة رضى الله عنها منزلة، تليق بها، حيث رزقه الله منها الولد .

وحينما غارت عائشة رضى الله عنها من كثرة ذكر النبى لخديجة رضى الله عنها وقالت : هل كانت إلا امرأة عجوزاً رزقك الله خير منها قال لها : ما أبدلنى الله خيراً منها ، آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد و لم أرزق من أحد سواها [١] .

وكان ﷺ يحب الأطفال عموماً ، ويحس إليهم ويرق لهم .

وقد رأينا ما كان منه ﷺ مع أولاده جميعاً ، وكان يحبهن ، و يحب أبناءهن كحبه لهن

● يروى مسلم **أن الناس كانوا إذا رأوا أول الثمر ، جاءوا به إلى رسول الله ﷺ، فإذا أخذه قال: اللهم بارك لنا فى ثمرنا، وبارك لنا فى مدينتنا، وبارك لنا فى صاعنا، وبارك لنا فى مدنا ثم يدعو أصغر وليد له، فيعطيه ذلك الثمر** [٢].

---

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٩ صـ٣٦١

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى . باب فضل المدينة جـ٩ صـ١٤٦ .

ـ المبحث التاسع ـ
الحياة الشخصية
لرسول الله ﷺ فى المدينة

النبى ﷺ هو قدوة المسلمين على الزمن كله، وطريق الناس لتحقيق سعادتهم فى الدنيا والآخرة، وكافة أنشطته تشريع متبع إلا ما بين أنه خاص به ﷺ .

ولذلك كانت الحاجة إلى تحديد ملامح حياته الشخصية ﷺ إبرازاً لسيرته ﷺ وتحديدا لمعالم الصورة الإسلامية التى يتمناها كل مخلص، تنفيذاً لقوله تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[١]

ومن صور حياته الشخصية نذكر ما يلى :

ـ أولاً ـ
أكلـه ﷺ

كان ﷺ يبدأ طعامه بالتسمية، ويأكل بيمينه، ويأكل مما يليه، وكان يعلم ذلك من يأكل معه، فعن عمر بن أبى سلمة ﷺ أنه قال : **كنت غلاماً فى حجر النبى ﷺ وكانت يدى تطيش فى الصحفة، فقال لى ﷺ : يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك، فما زالت تلك طعمتى بعد** [٢] .

وكان ﷺ يقول : **إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال.** [٣].

وكان ﷺ إذا دعى لطعام أجاب فإذا انتهى من الطعام قال : أكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة الأطهار وذكركم الله فيمن عنده [٤] .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢١ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الأشربة باب أداب الطعام جـ٤ صـ٧٠٥ الشعب .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ك . إجابة الدعوة جـ٣ صـ ٧٠٣ الشعب .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى إجابة الدعوة جـ٣ صـ٦٠١ .

وعنـــد أبي داود أن النبى ﷺ أكل عنـــد ســـعد بن عباده ثم قال : أفطـــــر عنـــدكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة (١) .

وكان ﷺ لا يحبس نفسه على نوع واحد من الأغذية، وكان لا يجمع بين حارين، ولا باردين، ولا سهلين، ولا قابضين، ولا غليظين، ولم يأكل طعاماً قط فى حال شدة حرارته، ولا شيئاً من الأطعمة العفنة . (٢)

ولم يكن ﷺ يملأ بطنه بالطعام، وينصح أصحابه بذلك، ويقول لهم ﷺ : ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه (٣) .

وكان ﷺ يأكل على الأرض، ويجلس على الأرض (٤) .

يقول أنس بن مالك : ما أكل نبى الله ﷺ على خوان، ولا سكرجة، ولا خبز مرقق، فقلت لقتادة : فعلام كانوا يأكلون ؟

قال : على السفر ؟ (٥) .

وكان ﷺ يأكل التمر وتراً، وكان لا يجمع بين التمر والنوى فى طبق واحد، ولا يجمع النوى فى كفه، بل يسقط النوى على ظهر كفه ثم يلقيها، وأحياناً كان يرفع النوى، بأصبعيه ثم يلقيها (٦) .

وكان ﷺ يحب أكل التمر بعد غليه بالســـمن، وخلطه باللبن، وهو المعـــروف بـــ " الحيس "، وكان هو الطعام الذى صنعة يوم بنى بـــ " صفيه بنت حيي " .

وكان ﷺ يحب الزبد بالتمر (٧) .

---

(١) سنن أبي داود . كتاب الأطعمة باب ما يقول الرجل إذا طعم جـــ٢ صـــ٣٣٠

(٢) زاد المعاد جـــ١ صـــ١٤٧

(٣) سنن الترمذى كتاب الزهد باب كراهية كثرة الأكل جـــ٤ صـــ٥٩٠ .

(٤) زاد المعاد جـــ١ صـــ١٤٧

(٥) صحيح البخارى بشرح فتح البارى . كتاب الأطعمة جـــ٩ صـــ٥٣٠ – الخوان : المرتفع المعد للأكل مثل الخوان "الترابيزة" والسكرجة أوان معدة للمشهيات، والسفر ما يمد ويبسط على الأرض، كالمفرش وهذا من تواضعه ﷺ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووى . ك الأطعمة ب. وضع النوى جـــ٤ صـــ٧٣٤ الشعب .

(٧) صحيح مسلم بشرح النووى . كتاب الأطعمة . باب وضع النوى جـــ٤ صـــ٧٣٤ .

وكان ﷺ يأكل البطيخ بالرطب، ويأكل القثاء بالرطب كذلك [١].

وكان ﷺ يحب الحلواء والعسل [٢].

وكان ﷺ يأكل زيت الزيتون، ويحث عليه، ويقول : كلوا الزيت، وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة .

وكان يأكل الدجاج، ويحب الدباء [٣] وهو القرع ويسمى اليقطين، وكان ﷺ يحب الثريد، ويفضله على سائر الطعام، كما يفهم من ثنائه على أم المؤمنين عائشة يقول ﷺ : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام [٤] .

والثريد خبز مبلل بمرق، وعليه اللحم، وهو الذى يعرف بـــ " الفتة " .

وكان ﷺ يكتفى بالطعام القليل، ولم يكن همه الأكل والشبع .

وكان ﷺ يبيت الليالي المتتابعة خاوياً، وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم الشعير .

عن عروة عن عائشة أنها كانت تقول : والله يا ابن أختى، إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة فى شهرين، وما أوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نار.

قلت يا خالة : فما كان يعيشكم ؟

قالت : الأسودان، التمر، والماء . إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح، فكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من أبياتهم، فيسقيناه [٥]

وعن ابن عباس ﷺ أنه قال : كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل عليه السلام على الصفا .

فقال رسول الله ﷺ : يا جبريل، والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفة من دقيق، ولا كف من سويق .. فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته

---

(١) صحيح البخارى كتاب الأطعمة باب أكل الرطب بالقثاء جـ٩ صـ٥٦٤ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الأطعمة – باب الحلواء والعسل جـ٩ صـ٣٦ .

(٣) صحيح البخارى ك الأطعمة باب الدباء جـ٩ صـ٣٧ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب فضائل عائشة جـ٥ صـ٣٠٢ الشعب .

(٥) صحيح البخارى كتاب الرقاق باب عيس النبى وأصحابة جـ١٠ صـ١٤٦ .

فقال رسول الله ﷺ : هل أمر الله القيامة أن تقوم ؟

قال جبريل : لا، ولكن أمر إسرافيل، فنزل إليك حين سمع كلامك .

فأتاه إسرافيل فقال : إن الله سمع ما ذكرت فبعثنى إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرنى أن أعرض عليك أن تكون جبال تهامة زمرداً، وياقوتاً، وذهباً، وفضة، فإن شئت نبياً ملكاً وإن شئت نبياً عبداً، فأومأ إليه جبريل أن تواضع .

فقال ﷺ بل نبياً عبداً ... ثلاثاً (١) .

وكان ﷺ إذا رفع الطعام من بين يديه يقول : **الحمد لله حمداً كثيراً، طيباً، مباركاً، غير مكفى، ولا مودع، ولا مستغنى عنه ربنا عز وجل .**

وكان ﷺ يقول : إذا فرغ من طعامه : **اللهم لك الحمد، أطعمت وسقيت، وأشبعت ورويت، فلك الحمد** (٢) .

وكان ﷺ يقول . **الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم ، من علينا فهدانا ، وأطعمنا وسقانا ، وكل بلاء حسن أبلانا ، الحمد لله الذى أطعم من الطعام ، وسقى من الشراب وكسا من العرى ، وهدى من الضلالة ، وبصر من العمى ، وفضل على كثير ممن خلق تفضيلاً ، الحمد لله رب العاملين .**

وربما قال : **الحمد لله الذى أطعم وسقى ، وسوغه** (٣).

ويقول ﷺ : **إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمده عليها** (٤) .

و لم يعب ﷺ طعاماً قط إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه(٥).

---

(١) منتقى النقول صـ٤٠٢ .

(٢) بغية الرائد جـ٥ صـ٣٠ .

(٣) زاد المعاد جـ١ صـ١٤٨ ، ١٤٩

(٤) سنن الترمذى باب ما جاء فى الحمد على الطعام إذا فرغ منه جـ٤ صـ٢٦٥

(٥) صحيح البخارى كتاب الأطعمة باب ما عاب النبى ﷺ طعاماً جـ٩ صـ٣٠

ـ ثانيا ـ
شرابه ﷺ

لم يكن من عادة النبى ﷺ الشرب على الطعام، وكان يشرب العسل الممزوج بالماء، تقول عائشة رضى الله عنها : **كان أحب شراب النبى ﷺ الحلو البارد** [١] وكان الصحابة يأتون بالماء لرسول الله ﷺ من بئر عرس مرة، ومن السقيا مرة .

وكان ﷺ يشرب اللبن ويقول : **اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه** [٢]

وكان رسول الله ﷺ يتنفس فى الإناء ثلاثاً، ويقول : إنه أبرأ، وأروى، وأمرأ[٣]

وكان النبى ﷺ يشرب واقفاً، وقاعداً، يقول ميسرة، رأيت علياً يشرب قائماً، فقلت له : أتشرب قائماً ؟

فقال : إن شربت قائماً فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب قائماً، وإن شربت قاعداً فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب قاعداً [٤] .

هذا وقد روى مسلم بسنده عن أنس ﷺ **أن رسول الله ﷺ نهى عن الشرب قائماً** [٥] وقد تصور البعض من هذا النهى حرمة الشرب قائماً، وهذا تصور مردود، لأن النبى ﷺ، شرب قائماً ، وقاعداً، وهذا يدل على الجواز، لأنه فعله لبيان الجواز، وأقصى ما يفيده النهى أنه خلاف الأولى .

ـ ثالثا ـ
نومه ﷺ

كان ﷺ ينام، إذا دعته الحاجة إلى النوم، ينام على شقة الأيمن، ذاكراً الله حتى تغلبه عيناه، وكان يضطجع على الوسادة، ويضع يده تحت خده أحياناً .

وكان ﷺ ينام بعينه ولا ينام قلبه [٦] .

---

(١) سنن الترمذى باب أى الشراب كان أحب إلى رسول الله جـ٤ صـ٣٠٧

(٢) سنن أبى داود جـ٢ صـ٣٠٤ .

(٣) صحيح مسلم ك الأشربة جـ٤ صـ١٧١١ الشعب .

(٤) سنن أبى داود باب فى الشرب قائماً جـ٢ صـ٣٠٢ ط الحلبى .

(٥) صحيح البخارى كتاب الأشربة باب الشرب قائماً جـ٩ صـ٩٦ .

(٦) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان جـ٨ صـ٧٨ .

ومن تدبر صفة نومه ويقظته ﷺ وجده أعدل نوم وأنفعه للبدن، فإنه كان ينام على الفراش تارة، وعلى الأرض تارة، وعلى السرير تارة، وكان له بساط ينام عليه بعد أن يثنيه ثنيتين، وكانت وسادته جلداً حشوها ليف، وأنه كان ينام أول الليل ويستيقظ النصف الثانى لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ .

فيحمد الله تعالى ويكبره، ويدعوه، ويستاك، ثم يقوم إلى وضوءه، ثم يقف للصلاة بين يدى ربه عز وجل خاشعاً، راهباً، متدبراً .

وقد حدد الله عز وجل أوقات النوم فى اليوم والليلة التى يجب فيها الاستئذان إذ قال سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (١) .

وكان من هدى النبى ﷺ النوم وقت القيلولة (٢) .

- عن أنس ﷺ قال : **إن أم سليم كانت تبسط للنبى ﷺ نطعاً (٣) فيقيل عندها على ذلك النطع (٤) .**
- وعن أنس قال : قال ﷺ : **قيلوا فإن الشياطين لا تقيل (٥) .**

و رسول الله ﷺ بذلك يخبرنا بأن هذا وقت لا تهدأ فيه الشياطين، بل تزداد ثورة فى وقت الظهيرة، لأنها خلقت من نار السموم، فمن المستحب أن ننام ، ونريح جسـدنا فى وقت القيلولة، حتى نستعد لقيام الليل، وكان هذا دأبه، وعمله، ﷺ حتى

---

(١) سورة النور الآية ٥٨ .

(٢) القيلولة : وقت الظهيرة .

(٣) نطعاً : بساط من الجلد .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى . ك الفضائل جـ٥ صـ١٨٤ الشعب .

(٥) قاله الألبانى فى الجامع : رواه الطبرانى وأبو نعيم . بسند حسن . حديث رقم ٤٤٣١ .

لقى ربه، وكان ﷺ ينام غالباً على قفاه .

• يقول الشافعى ﷺ : النوم على أربعة أنحاء :ـ

نوم على القفا، وهو نوم الأنبياء عليهم السلام، يتفكرون فى خلق السماوات والأرض

ونوم على اليمين وهو نوم العلماء والعباد .

ونوم على الشمال وهو نوم الملوك ليهضم طعامهم .

ونوم على الوجه وهو نوم الشياطين .

وقد نهى النبى ﷺ أن ينام الرجل على وجهه، فعن أبى هريرة ﷺ أنه قال : **مر النبى ﷺ برجل مضطجع على بطنه، فقال : هذه ضجعة لا يحبها الله عز وجل** [(١)].

• وعن عائشة رضى الله عنها : **أن رسول الله ﷺ كان إذا سكت المؤذن بالأولى من صلاة الفجر قام فركع ركعتين حفيفتين قبل صلاة الفجر بعد أن يستبين الفجر ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للإقامة** [(٢)] .

ورؤى النبى ﷺ **مستلقياً على ظهره واضعاً إحدى رجليه على الأخرى**[(٣)] .

وفى ذلك إباحة الإستلقاء على الظهر ووضع إحدى الرجلين على الأخرى للراحة، ولكن هذه ليست نومة النبى ﷺ المستديمة ولكنه ﷺ نام بها ، ويمكن فعلها فى أوقات الراحة، وفى غيرها لمن أراد بعدما أباحها ﷺ .

وكان رسول الله ﷺ يدعو ربه قبل نومه .

• عن البراء بن عازب ﷺ أن النبى ﷺ **كان إذا آوى إلى فراشة نام على شقة الأيمن ثم قال : اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتاب الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت)**[(٤)] .

قال النووى فى زاد المعاد :

---

(١) سنن الترمذى باب ما جاء فى كراهية الاضطجاع على البطن جـ٥ صـ٩٧

(٢) صحيح البخارى كتاب الأذان باب من انتظر الإقامة جـ٢ صـ١٤

(٣) صحيح البخارى كتاب الصلاة باب الاستلقاء فى المسجد جـ١ صـ٣١٧

(٤) صحيح البخارى كتاب الدعوات جـ١٠ صـ٨٨.

معنى وضع رأسه على كفة، أى : وضع راحته مع أصابعه اليمنى تحت شقه الأيمن من وجهه، فالكف للراحة مع الأصابع، وسميت به لألها تكف الأذى عن البدن وتريح صاحبها لوضعها تحت خده الأيمن .

● **عن أبى ذر ﷺ قال : كان النبى ﷺ إذا أخذ مضطجعة من الليل قال : اللهم باسمك أموت وأحيا .**

فإذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور (١) .

وكان النبى ﷺ إذا أوى إلى فراشة يقول : اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت (٢) .

● **عن عائشة رضى الله عنها قالت :**

كان النبى ﷺ إذا آوى إلى فراشه كل ليله جمع كفيه فنفث فيهما، وقرأ فيهما:

سورة : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾

وسورة : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾

وسورة : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾

ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما رأسه، ووجهه، وما أقبل من جسده يصنع ذلك ثلاث مرات (٣) .

●**عن جبلة بن حارثة أن النبى ﷺ قال : إذا آويت إلى فراشك فاقرأ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾**

حتى تمر بآخرها فإنها براءة من الشرك (٤) .

● **عن أنس أن رسول الله ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه قال : باسمك اللهم**

---

(١) صحيح البخارى كتاب الدعوات باب وضع اليد تحت الخد اليمنى جـ١٠ صـ٨٧

(٢) صحيح البخارى كتاب الدعوات باب ما يقول إذا نام جـ١ صـ٨٨

(٣) سنن الترمذى باب ما يقرأ من القرآن عند المنام جـ٥ صـ٤٧٣ والحديث حسن صحيح غريب.

(٤) المرجع السابق جـ٥ صـ٤٧٤

أموت وأحيا ، وإذا قام من نومه قال : الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور [١] .

• عن سهيل قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام، أن يضطجع على شقه الأيمن، ثم يقول : اللهم رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شئ فالق الحب والنوى، منزل التوراه، والأنجيل، والفرقان، أعوذ بك من شر كل شئ أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شئ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ، وأنت الظاهر فليس فوقك شئ، وأنت الباطن فليس دونك شئ، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر [٢] .

وكان النبى ﷺ إذا قام من الليل يقول : اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ووعدك حق ، وقولك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ،لا إله إلا أنت ، أو لا إله غيرك [٣].

ـ رابعاً ـ

سماحتـــه ﷺ

كان رسول الله "ﷺ" يتحاوب مع جلسائه، ويتساهل معهم، ويشاركهم الحال والقال، فإذا تحدثوا بأمر شاركهم فى حديثهم ما لم يكن إثماً .

فعن خارجة بن زيد ﷺ أن نفراً دخلوا على أبيه زيد بن ثابت ﷺ **فقالوا : حدثنا ببعض حديث النبى ﷺ .**

فقال : وما أحدثكم ؟ كنت جاره ﷺ فكان إذا نزل عليه الوحى بعث إلىّ

---

(١) صحيح البخارى كتاب الدعوات جـ١٠ صـ٨٧ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الدعاء جـ١٧ صـ٣٥ .

(٣) صحيح البخارى كتاب الدعوات باب الدعاء بالليل جـ١٠ صـ٨٩ .

فآتيه، فأكتب الوحى، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخره ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، كل هذا أحدثكم عنه ﷺ .

وروى الإمام أحمد عن جابر بن سمرة ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ طويل الصمت، قليل الضحك، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر وأشياء من أمورهم_ فى الجاهلية _ فيضحكون، وربما تبسم معهم [١].

وروى مسلم عن سماك بن حرب قال : قلت لجابر بن سمرة ﷺ : أكنت تجالس رسول الله "ﷺ" ؟

فقال جابر : نعم كثيراً ! كان رسول الله "ﷺ" لا يقوم من مصلاه الذى يصلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون، ويبتسم ﷺ [٢].

يقول عبد الله بن زيد : ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ [٣]
ويقول عبد الله بن الحارث : ما كان ضحك رسول الله إلا تبسماً [٤] .

وكان ﷺ يمزح مع أصحابه، لإدخال السرور عليهم، ليباسطهم، وليهتدوا بهديه، ويتخلقوا بخلقه، فلوا أنه ﷺ ترك الطلاقة مع أصحابه، والمباسطة معهم، ولزم العبوس، والإنقباض، لألزم الصحابة أنفسهم بذلك، وكذلك التابعون من بعدهم، فمزح ﷺ ليمزحوا، ولكنه ﷺ بين لهم أنه لا يقول فى مزاحة إلا حقاً، فلا يأتى بباطل ولا بعبث أو يلعب .

وفى الصحيحين عن أنس ﷺ قال : إن كان النبى ﷺ ليخالطنا _ أى ليلاطفنا ويمازحنا _ حتى يقول لأخ لى : يا أبا عمير ما فعل النغير [٥].

يروى الإمام أحمد بسنده عن أنس ﷺ أن رجلا من أهـــل البادية كان اسمه

---

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد باب فى حسن خلقه ﷺ جـــ٨ صـــ٥٧٨ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى – ك الفضائل – باب تبسمه ﷺ جـــ٥ صـــ١٧٦ .

(٣) سنن الترمذى باب فى بشاشة النبى ﷺ جـــ٥ صـــ٦٠١ والحديث حسن غريب .

(٤) سنن الترمذى باب فى بشاشة النبى ﷺ جـــ٥ صـــ٦٠١

(٥) سنن الترمذى باب فى المزاح جـــ٤ صـــ٣٥٧

زاهــراً، وكان يهدى إلى النبى ﷺ هدية من البادية، فيجهزه النبى ﷺ إذا أراد أن يخرج إلى البادية إثابة على هداياه، وكان النبى ﷺ يحبه ، ويداعبه ، ويقول : إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه وكان زاهر رجلاً دميماً، فأتاه النبى ﷺ يوماً وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، وهو لا يبصره .

فقال زاهر : من هذا ؟ أرسلنى ... !!

فالتفت زاهر فعرف أنه النبى ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبى ﷺ حين عرفه .

فجعل النبى ﷺ يقول : من يشترى هذا العبد ؟

فقال : يا رسول الله إذا والله تجدنى كاسداً .

فقال النبى ﷺ : لكنك عند الله لست بكاسد أنت عند الله غال (١) .

➢ ومن جملة ما ورد فى مزاحه ﷺ، ما ورد عن أنس ﷺ : أن رجلا أتى النبى ﷺ يستحمله _ أى يطلب منه دابة _ فقال له ﷺ : إنى حاملك على ولد الناقة فقال : يا رسول الله "ﷺ" ما أصنع بولد الناقة ؟

فقال ﷺ : وهل يلد الإبل إلا النوق ؟ (٢)

➢ وجاءت إمرأة فقالت : يا رسول الله ﷺ إحملنى على بعير .

فقال ﷺ : أحملها على ابن بعير .

فقالت : ما أصنع به ؟ وما يحملنى يا رسول الله ؟

فقال ﷺ : وهل يجئ بعير إلا ابن بعير .

➢ وروى ابن بكار عن زيد بن أسلم أن امرأة يقال لها أم أيمن الحبشية، جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : إن زوجى يدعوك .

فقال : من هو ؟ أهو الذى بعينيه بياض ؟

فقالت : ما بعينيه بياض .

---

(١) الفتح الربانى لتحقيق مسند الإمام أحمد الشيبانى جـ٢٢ صـ٢٣٩

(٢) سنن الترمذى باب فى المزاح جـ٤ صـ٣٥٧

فقال ﷺ : بلى بعينيه بياض .

فقالت : لا والله .

فقال ﷺ : ما من أحد إلا بعينيه بياض يريد البياض المحيط بالحدقة .

> ومن ذلك ممازحته للمرأة العجوز التى جاءته ترغب الجنة، يروى الترمذى بسنده عن الحسن البصرى ﷺ قال : أتت عجوز النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله"ﷺ" ادع الله أن يدخلنى الجنة .

فقال ﷺ : يا أم فرن إن الجنة لا يدخلها عجوز . فولت وهى تبكى .

فقال ﷺ : أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز(١) . و الله تعالى يقول ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ (٢) .

وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يبتسم فى وجوه أصحابه حين يلقاهم، وفى حديثه إليهم، تلطفاً بهم، ومؤانسة لهم .

> يقول جرير بن عبد الله ﷺ : ما حجبنى رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآنى إلا تبسم (٣) .

> وروى الترمذى وغيره عن هند بن أبى هالة فى حديثه يصف النبى ﷺ قال فيه: جل ضحكه التبسم، يفتر عن مثل حب الغمام، والمعنى أنه ﷺ كان يضحك ضحكاً حسناً، كاشفاً عن سن مثل حب الغمام _ وهو البرد _ فى البياض والصفاء والبريق(٤) .

> وعن عبد الله بن الحارث ﷺ قال : ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسماً وكان ﷺ يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذه (٥) .

---

(١) سنن الترمذى

(٢) سورة الواقعة الآيات ٣٥ -٣٧ .

(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان جـ٨ صـ٧٨ .

(٤) سنن الترمذى

(٥) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان جـ٨ صـ٧٨ .

➢ وعن عبد الله بن مسعود قال : **قال رسول الله ﷺ : إنى لأعرف آخر أهل النار خروجاً ، رجل يخرج منها زحفاً ، فيقول : يا رب قد أخذ الناس المنازل ، فيقال له : انطلق فادخل الجنة ، فيذهب ليدخل فيجد الناس قد أخذوا المنازل ، فيرجع فيقول : يا رب قد أخذ الناس المنازل ، فيقال له : أتذكر الزمان الذى كنت فيه ؟**

فيقول : نعم .

فيقال له: تمن قال : فيتمنى ، فيقال له: فإن لك ما تمنيت وعشره أضعاف الدنيا

فيقول : أتسخر بى وأنت الملك ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه (١) .

➢ وعن أبى ذر قال : **قال رسول الله ﷺ : إنى لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، يؤتى برجل فيقول : سلوا عن صغار ذنوبه واخبئوا كبارها ، فيقال له : عملت كذا وكذا يوم كذا وكذا ، عملت كذا وكذا فى يوم كذا وكذا ، فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول يا رب لقد عملت أشياء ما أراها هاهنا يقول أبو ذر : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه** (٢) .

➢ وأخرج الإمام أحمد عن أم سلمة رضى الله عنها، **أن أبا بكر ﷺ خرج إلى بصرى ومعه النعيمان وسويبط بن حرملة ﷺ وكلاهما بدرى، وكان سويبط على الزاد، فقال له النعيمان : أطعمنى .**

فقال سويبط : حتى يجئ أبو بكر.

وكان النعيمان ضحاكاً، مزاحاً، فذهب إلى أناس جلبوا ظهراً _ أى إبلاً _ فقال لهم النعيمان : أتبتاعون _ أى تشترون _ منى غلامـاً _ أى عبداً _ عربيـاً فتياً، فارهاً ؟

---

(١) سنن الترمذى كتاب صفة جهنم جـ ٤ صـ ٧١٢

(٢) سنن الترمذى كتاب صفة جهنم جـ ٤ صـ ٧١٣

قالوا : نعم .

قال : إنه ذو لسان، ولعله يقول : أنا حر، فإن كنتم تاركيه لذلك، فدعونى لا تفسدوه على .

فقالوا : بل نبتاعه، فابتاعوه بعشر قلائص _ أى نوق شابة _ فأقبل ليسوقها وقال لهم : دونكم هو هذا .

فقال سويبط : هو _ أى النعيمان _ كاذب، أنا رجل حر .

فقالوا قد أخبرنا خبرك، فطرحوا الحبل فى رقبته، فذهبوا به فجاء أبـــو بكر فأخبر، فذهب هو وأصحابه إليهم، فردوا القلائص وأخذوه، ثم أخبروا النبى ﷺ بذلك فضحك هو وأصحابه حولاً أى كلما تذكروا هذه الفعلة (١)

ومن ذلك ضحكه ﷺ من الأمر العجيب يبلغه .

روى الإمام أحمد فى مسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : **جاءت سلمى امرأة أبى رافع مولى رسول الله ﷺ تستأذن رســـول الله ﷺ على أبى رافع وقالت : إنه ليضربنى .**

فقال ﷺ : مالك وما لها ؟

قال : تؤذينى يا رسول الله .

قال : بما آذيته يا سلمى ؟

قالت : ما آذيته بشىء، ولكنه أحدث وهو يصلى، فقلت له : يا أبا رافع إن رسول الله ﷺ قد أمر المسلمين إذا خرج من أحدهم ريح أن يتوضأ . فقام يضربنى فجعل رسول الله ﷺ يضحك ويقول : يا أبا رافع لم تأمرك إلا بخير (٢) .

وسئل ابن عمر ﷺ : هل كان أصحاب النبى ﷺ يضحكون ؟

فقال : نعم وإن الإيمان فى قلوبهم أمثال الجبال .

وقد صنع خلق رسول الله ﷺ مع أصحابه ترابطاً معهم تميز بالحب والتقدير

---

(١) مسند أحمد

(٢) مسند أحمد

والتعظيم ، وكانوا رضوان الله عليهم كالفراش بتجميع حول النور تعلقاً وعشقاً .

إن هذا الحب من أصحاب رسول الله ﷺ نابع من قوة إيمانهم ، وصدق يقينهم الذى أودع فى قلوبهم توقير صاحب الرسالة التى أخرجتهم من الظلمات إلى النور ، فأقروا بما له ﷺ من فضل عليهم .

يؤكد هذا الحب كريم خلقه ﷺ وعظمته ، فقد استطاع ﷺ بالحب أن يجمع القلوب من حوله ، وإن يملأها بالصدق .. ولو كان بغير هذا الخلق لانفضوا من حوله يقول الله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١) .

لقد رأينا كثيراً من الرؤساء والملوك تنهال عليهم الأسنة ، وتنالهم الأقلام ويتعرضون لحملات ضارية من النقد والتجريح ، والاتهام والإشاعات ، بمجرد بعدهم عن سلطانهم وانتقال القوة إلى غيرهم وذلك لأنهم لم يعملوا بالإقناع والحب و لم ينشروا بين الناس قيم العدل والتسامح والتكريم ، وإنما اغتروا بالقوة والجاه ، وأهملوا حقوق الناس ، ولجأوا إلى البطش والإرهاب ، فلما ذهبوا ذهب كل شئ معهم .

أما محمد ﷺ فقد ملأ الدنيا بالخير ، واقنع العقول بالحق ، وفاض خلقه على الناس فتعلموا بالسماحة ، والرضى ، والحب ، والكرم ودخلوا فى الإسلام راضين وسعداء ، ويكفى ما فى قلوب الملايين من أتباعه ﷺ من حب صادق ، وإخلاص كبير .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩

ـ المبحث العاشر ـ
قيامه ﷺ بمهام الرسالة

بجانب أعمال الرسول ﷺ مع أهله وأولاده وأصحابه ، نراه ﷺ يعيش حياته كلها لدين الله تعالى ، متوكلاً على الله سبحانه وتعالى فى كل أعماله .

فلقد عاش ﷺ ، قائد للجماعة ، ومبلغاً للرسالة ، ومجاهداً فى سبيل الله تعالى ، ومصدر الفتوى والتعليم للأمة كلها ، ولا غرابة فى هذا فلقد أدى ﷺ بذلك الأمانة وبلغ الرسالة ، وجاهد فى الله حق الجهاد ، واستمر على ذلك حتى تمت النعمة ، وكمل الدين ، وأصبح الإسلام دين العالمين .

لقد كان ﷺ حركة دائمة فى كل حياته بعد الهجرة كما كان قبلها ، ولقد أنجز فى وقت قصير ما كان يحتاج لمدة طويلة ، فهيأ للمهاجرين معيشتهم ، وربط المسلمين جميعاً برباط الحب، والمودة، والتآلف .

ونظم الحياة الاجتماعية لمواطنى المدينة مسلمين وغير مسلمين ، وحدد لكل طائفة ما لها وما عليها ، واستسلم الجميع لحكم الله تعالى ، وارتضوا أن يكون الرسول ﷺ هو الحاكم فيهم .

أقام النبى ﷺ المسجد النبوى ليجتمع المسلمون فيه للعبادة ، ولأداء كافة الأنشطة التى لابد منها للحركة بالدعوة إلى الله تعالى ، من تعليم وتنظيم ، وإعداد .... إلخ .

وأخذ الوحى يترل عليه بكافة التشريعات الدينية ، ويوضح أمامه الأخلاق النبيلة وأصبح المسلمون بما تمتعوا به قوة وضاءة فى أفق الحياة ، تعمل الخير وتنشره بين الناس ، وتواصل الدعوة إلى دين الله تعالى .

وتتابع نزول القرآن الكريم تبعاً للأحداث والوقائع والمناسبات وتربيةً لأمة أراد الله لها أن تكون خير ما أخرج للناس .

وكان ﷺ يتابع الناس بالتوجيه والإرشاد ، ويبين لهم الوحى ، ويوجههم به حتى كمل الدين ، وتم نزول القرآن ، وتعاظمت السنة خلال المرحلة المدنية .

وكان من الواضح أن الإسلام أخذ يزداد أتباعه كل يوم ، وصارت حقيقته بادية

أمام غير المسلمين ... الأمر الذى أدى إلى زيادة حقد القرشيين على المسلمين فى المدينة.

و لم يكن عجباً أن يبدأ العدوان القرشى على المسلمين بعد نجاح الهجرة ، الأمر الذى أدى إلى بدء الجهاد القتالى ضد أعداء الإسلام واستمرت الحركة بالدعوة حتى تم الإسلام ، وكمل الدين ، ونزل قول الله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (١) .

لم تكن مدة الرسالة المدنية طويلة لكنها رغم قصرها امتلأت بالحوادث العديدة ، والمواقف الشاقة ، والمواجهات المتنوعة ، حتى أن العقل يندهش حين ينظر فى المرحلة المدنية ، ويرى ما حدث فيها .

لقد استمرت المرحلة المدنية عشر سنوات بدأت بالهجرة وانتهت بوفاة رسول الله ﷺ وخلالها عاش المسلمون بالإسلام ... وتحركوا به فى العالمين .

لقد قام رسول الله ﷺ خلال هذه السنوات العشر بكل ما كلف به على خير وجه أراده الله تعالى .

تلقى القرآن الكريم من جبريل عليه السلام ونقله كما تلقاه إلى أصحابه الذين اهتموا به حفظاً وفهماً واتباعاً .

وبين لهم بسنته ﷺ القرآن الكريم حتى صار الإسلام معلوماً ، مفصلاً ، كاملاً ، شاملاً .

وربى رسول الله ﷺ الأمة على منهج الله تعالى ، وبطريقة تتلاءم مع الواقع ، وتلتقى مع الخصائص البشرية للإنسان .

وحول ﷺ معايب الجاهلية إلى محاسن دينية بعد أن تسامى بها ، وهذب حركتها وطهر غايتها ، وضبط حركتها ووجهتها بتعاليم الله حتى صارت عوناً للمحتاج ، وانتصاراً للعدل ، والحرية ، والكرامة .

وعرف الناس حقوقهم وواجباتهم ، فقاموا بما عليهم ، ونالوا مالهم حتى ظهرت أمة الإسلام بحضارتها تباهى الدنيا بحقيقتها الرائعة التى حافظت على حقوق الفقراء والضعفاء

---

(١) سورة المائدة الآية ٣ .

قبل الأغنياء والأقوياء وأنصفت أصحاب الحقوق من المعتدين ، وحررت مسارات الحياة من أى غلو ، أو عدوان ، أو إهمال ، أو تفريط .

إن أمة الإسلام التى رباها رسول الله ﷺ هى النموذج الأسوة فقد بلغت الأوج وتميزت بكرم الخلق ، وحسن المعاملة ونبل الهدف ... مع التخلص التام من عنصرية الجاهلية ، وعدوانية الظلم والضلال ، والبعد المطلق عن الأنانية ، والأثرة ، والكبرياء والتعالى .

لقد حققت أمة الإسلام فى مدة وجيزة ما يعجز عن تحقيقه الأخرون فى مئات السنين .

لقد أوجدت على أرض الواقع العدل العام ، وأسست قوة الخير والسلام ، وحققت عملياً التوازن الدقيق بين المسئولية والجزاء ، والتناغم الجميل بين الحقوق والواجبات ... كل ذلك وغيره بتعاليم الله تعالى التى قدمت الإسلام هدية لإسعاد العالمين .

لقد شهد الواقع بما قام به رسول الله ﷺ حيث دخل الناس فى الإسلام ، وزالت دولة الفرس والروم ... ولمن يتمكن أحد من الأعداء أن يتهم محمد ﷺ بأنه ظلم إنساناً ، أو ضيع حقوقاً ، أو أهان ضعيفاً ، أو فرط فى إصلاح .

لقد حرك ﷺ أناساً نائمين ، ووضع فى قلوبهم سر الحركة والنشاط ، حتى صنع منهم الأمة الإسلامية العظيمة التى تصون حقوق رعاياها ، وتحسن تعاملها مع غيرها .

والمسلمون اليوم عليهم أن يعودوا للسيرة الذاتية لرسول الله ﷺ ليتشبهوا بها ، ويقتدوا بمسلكها لأن هذا الاقتداء واجب شرعاً ، وبخاصة أن رسول الله ﷺ مع أنه صناعة ربانية فقد نشأ وتربى ، وعاش كسائر البشر .

رأيناه ﷺ يتيماً ، فقيراً ، عالة ... وشاهدناه يتاجر ويعمل للناس راعياً ... ووقفنا على حياته ﷺ مع زوجاته وأبنائه ، وإخوانه ... وعلمنا كيفيه نومه وأكله وشربه ... كل ذلك عشناه معه وتأكدنا من صدق روايته مما يؤكد أن الاتباع والاقتداء أمر سهل ممكن لمن أراد أن يكـــون إنساناً كاملاً يعمل للدنيا وللآخرة معـــاً ... يقـــول الله تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (١)

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢١

الفصل الثانى

حركة الرسول ﷺ بالدعوة فى المدينة المنورة

تمهيد :

تمت الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بأمر الله تعالى ، وبذلك بدأت مرحلة جديدة مع الدعوة إلى الله تعالى ، تتميز بخصائصها ، ومفاهيمها ، وأهميتها وتختلف عن المرحلة المكية بصورة كلية ، وصار الأمر فيها مهيأ لانطلاقة الإسلام إلى العالم كله ، بصورة عملية دائمة .

و لم يعد الصراع بين مجتمع واسع وبين أفراد قلائل فيه ، كما كان الحال فى مكة وإنما تحول إلى صراع بين مجتمع ومجتمع آخر يعادله ، ويتفوق عليه بالإيمان الحق ، وتتبع الصراط المستقيم .

وقد وصلت الدعوة الإسلامية نظرياً إلى العالم كله ، خلال المرحلة المكية ومعها وصلت أخبار ما بين رسول الله ﷺ وبين كفار مكة من عداوة وصراع ، وهذا جعل الناس ينتظرون ما تسفر عنه الأحداث بعد الهجرة ، وما ينتهى إليه الصراع بين أهل مكة وأهل المدينة .... وأخذ أبناء الجزيرة على الخصوص ينتظرون نتيجة هذا الصراع ، ليتخذوا قرارهم بعد أن تهدأ العاصفة ، ويستقر البركان .

وأراد الله تعالى أن ينتصر دينه بمفهوم البشر وسننهم ، ليشعر المؤمنون بمسئوليتهم تجاه الإسلام ، ويقوم المسلمون بالواجب المنوط بهم فى مجال الدعوة إلى الله تعالى ، وليعلم سائر الناس أن الإسلام قوى بما فيه من تعاليم ، وإرشاد ، وأن الإيمان أساسه الاقتناع والرضى ، وأن الاستفادة بالإسلام تحتاج إلى الاستقامة والطاعة والانقياد والتسليم وخلوص العبودية لله رب العالمين .

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون معه خير أمة أخرجت للناس فى الفهم والتطبيق والصدق والإخلاص فاستقاموا على الطريقة الحقة ، وجاهدوا فى الله حق الجهاد ، وجعلوا كل أمانيهم إرضاء الله ورسوله ، و لم يبالوا بأى أذى ينالهم ، أو بأى ضرر ينزل بهم ما داموا على المنهج القويم الذى ارتضاه الله للناس .

لقد تمتعت هذه الجماعة بالإسلام فى المدينة ، وحولت الفكرة المجردة إلى عمل واقعى ، وجعلت المبادئ حركة ناصعة تخاطب العقل ، وتتراءى للعين ، ويلمسها

بوضوح كل من شاهد صحابياً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فلقد تحولوا رضوان الله عليهم إلى عباد ربانيين ، يعيشون لله حياتهم كلها .

لقد تمكن المسلمون خلال العهد المدنى بقيادة رسول الله ﷺ من إسكات صوت الباطل ، وقهر قوته ، وإيصال الدعوة إلى العالم كله ، بعدما أزاحوا رموز الفساد وطواغيت الدنيا ، وجابوا العالم كله دعاة يحملون رسالة الله ، ويجاهدون فى سبيله ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وينشرون الخير بين الناس أجمعين .

وفى هذا الفصل سنعيش مع رسول الله ﷺ ، وهو يتحرك بدعوة الله ، بصور عديدة ، وأنواع كثيرة ، ومعه كان أصحابه ﷺ .

وسيأتى هذا الفصل مكوناً من المباحث التالية :

المبحث الأول :

بناء المجتمع الإسلامى .

المبحث الثانى :

تشريع الجهاد وحركة الدعوة .

المبحث الثالث :

السرايا والغزوات قبل بدر .

المبحث الرابع :

غزوة بدر الكبرى .

المبحث الخامس :

أحداث ما بين " بدر " و " أحد " .

المبحث السادس :

غزوة أحد .

المبحث السابع :

أحداث ما بين " أحد " و " الأحزاب "

المبحث الثامن :

غزوة الأحزاب

المبحث التاسع :

أحداث ما بين الأحزاب والحديبية

المبحث العاشر :

غزوة الحديبية

المبحث الحادى عشر :

الأحداث بين صلح الحديبية وفتح مكة

المبحث الثانى عشر :

فتح مكة

المبحث الثالث عشر :

الاستقرار العام فى الجزيرة ومواجهة غير العرب .

المبحث الرابع عشر :

السرايا والغزوات فى الميزان

المبحث الخامس عشر :

وجاء نصر الله تعالى

المبحث السادس عشر :

انتقال الرسول ﷺ إلى الله تعالى

والله الموفق ،

ـ المبحث الأول ـ
بناء المجتمع الإسلامى

استقر المهاجرون فى المدينة المنورة ، ودخل أغلب الأوس والخزرج فى الإسلام ، وتحولت المدينة كلها إلى مجتمع متكامل ، خال من الصراع ، بعيد عن الضلال والضياع واستسلم الجميع لحكم الله تعالى ، وأنزلوا رسول الله ﷺ بينهم بما يليق به ، فحكموه فى كل ماعن لهم ، وأخذوا برأيه فى سائر ما وجههم إليه . وبذلك ظهر المجتمع الإسلامى بخصائصه ، ومزاياه التى بعث الرسول ﷺ لإيجادها فى واقع الحياة ، ولقد قدم هذا المجتمع صورة فريدة فى دنيا الناس ، لم تسبق ، ولم تلحق ، لقد صنع من الضعفاء قوة ، ومن الفقر غنى ، ومن التشرذم والضياع رجالاً عرفوا الحقيقة ، وتمسكوا بها ، فعاش الحق لهم وسار بهم ، وصاروا أمثولة رائعة ، ومثالاً تجريبياً لمن يريد حياة الكرامة والعزة والرقى .

ومسلمو اليوم أحوج الناس إلى معرفة هذا المجتمع العظيم ليتأسوا به فهم خلوفه ، وهو سلفهم .. وكل ما هم فيه من هوان وضياع يجب أن يعيدهم إلى ماضيهم الخالد عساهم أن يتذكروا ، وعساهم أن ينتفعوا .

إن عوامل صناعة المجتمع المدنى بعد الهجرة ليست أموراً فوق الطاقة ، ولكنها أمور تحتاج إلى الصدق معها ، ولابد فيها من إيمان يستلزم العمل بها، وإلى معرفة واضحة لمجموعة من الأشياء التى لابد منها فى الحياة الإسلامية وهى :

- معرفة الله تعالى معرفة تؤكد حقه على العبيد ، وحق العبيد عليه ليقوم الناس بما عليهم ... وينالوا ما لهم .
- تقرير مقام رسول الله ﷺ فى الناس ، ومعرفة دور ما تركة من وحى فى النشاط ، والخلق ، والسلوك ، لأن رسول الله ﷺ لم يستقبل الوحى ليبقى فكرة مجردة ، وإنما حولها بالإيمان إلى طاقة عملية ، وحركة شاملة فى أعمال الناس وأخلاقهم ، وصبغ ﷺ بما أنزل عليه كل الحياة فى المدينة المنورة ، لتتأسى به كل المجتمعات بعد ذلك .
- ضرورة التزام الإنسان بتعاليم الإسلام ، وبخاصة الإنسان المسلم ... حتى لا يتحول الإسلام إلى فكرة للتثقيف المجرد ، وليبق الدين كما كان فى مجتمع المدينة ،

قواعد للسلوك ، وضوابط للعمل ، ومنهجاً يسير الأحياء ، وينظم الحياة فى كافة جوانبها ، وحتى نستفيد بمجتمع المدينة المسلم نحاول الوقوف على ملامحه الرئيسية التى بها كان مجتمعاً إسلامياً ، وصار أسوة للناس أجمعين .

وأهم العناصر التى ظهرت فى هذا المجتمع ما يلى :-

ـ أولاً ـ

دين كامل

استمر الرسول ﷺ يدعو الناس فى مكة ثلاثة عشر عاماً ، مكتفياً خلالها بالدعوة إلى العقيدة ، لأنها أساس البناء الإسلامى ، والركيزة الكبرى لإقامة المجتمع المسلم .

إن التنشئة الصحيحة تعتمد على العقيدة لإتصالها بالجانب الباطنى فى الإنسان ... ومن المعلوم أن الإنسان يتميز عن سائر الكائنات بهذا الجانب الهام ، إذ به يتم التصور ويكون التصديق ... وأى عمل خارجى ظاهر يحتاج إلى قرار باطنى ... والإنسان الحر يعمل بما يؤمن به ، ويتفق ظاهره مع باطنه دائماً ... والمنافقون ... والضعفاء ... والمرضى ... والأرقاء هم الذين يفعلون عكس ما ينطقون ، ويبطنون غير ما يظهرون وهذا حال يأباه دين الله تعالى .

إن الإنسان يقوده عقله ، وهو الذي يسهل أمام صاحبه الصعب بعد اقتناعه ورضاه ، وكثيراً ما رأينا من يقدم على إفناء الجسد وهو به راض سعيد ، بصدور القرار من باطن مؤمن بفعل صاحبه .

لقد مكث رسول الله ﷺ يربى المسلمين بالعقيدة حتى صفت نفوسهم ، وسكن الإيمان قلوبهم ، وصاروا عبيداً للمعبود ، واستسلموا لربهم الخالق العظيم .. وحينئذ أتتهم الشريعة جزءاً جزءاً حسب أحوالهم ، وحاجاتهم فأسرعوا إلى التطبيق ، والالتزام العملي الدقيق.

لم يحدث مرة أن ترددوا فى تنفيذ أمر أمروا به ، أو توقفوا عن ترك عمل أمروا بتركه ولو كان العمل هو حاجتهم ، وكل نشاطهم .

والإيمان بالعقيدة هو الذى كون الجماعة الإسلامية الأولى فى مكة قبل الهجرة .

و لم يكن عجباً أن دار القرآن المكى كله حول بيان حقيقة العقيدة ، وتوضيح أركانها ، والاستدلال عليها بمختلف الأدلة لأنه بذلك صنع الأمة ، وحقق فى عالم الناس المجتمع الإسلامى العظيم .

فلما تمت الهجرة بدأت التشريعات تنزل ، وأخذت التكاليف الإلهية تظهر ، والمسلمون يسارعون إلى الطاعة والتنفيذ ، ولذلك لم يكرر القرآن الكريم توجيهاته كثيراً فى أمر شرعى واحد و لم يدلل على حقيقتها ، و لم يبرهن على أحقيتها ، بل كان يكتفى غالباً بمجرد الأمر أو النهى .

وكان الصحابة ﷺ يترقبون الأمر ليتحول سريعاً إلى العمل ، وإذا تضمن التوجيه نهياً يظهر أثره قولاً ، ويختفي المنهى عنه حالاً ، وقد شملت التوجيهات الشرعية كافة الجوانب العملية فى حياة الأفراد وسائر الناس .

وكانت مسارعة المسلمين للتلقى سبباً لتوجههم نحو رسول الله ﷺ يأخذون قوله وعمله ، ويسألونه عما لا يعرفون ، ويسمعون منه ما يريده ﷺ وما ينزل عليه .

لقد تعلم الصحابة العقيدة ، وآمنوا بها وهم فى مكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة .

فلما تمت الهجرة بدأ الوحى يوضح الأحكام الشرعية لأفعال الناس .... واستمر ذلك حتى تمت الشريعة . فتم الإسلام بذلك وكمل الدين ، ونزل قول الله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾ (١)

إن الأحكام الشرعية تنقسم إلى قسمين :-

القسم الأول : الأحكام الشرعية المحددة المعروفة . وهى المتصلة بالعبادات المشروعة كالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ... وأحكام هذه العبادات مفصلة بأدلتها الشرعية وكذلك أحكام النكاح ، والميراث ، والفرق بين الزوجين .... إلى غير ذلك مما ورد مفصلاً فى شريعة الإسلام .

ومن المعلوم أن الصلاة شرعت فى ليلة الإسراء والمعراج على نحو ما سبق ذكره . وكان ذلك قبل الهجرة ، و لم يتمكن المسلمون من إقامتها فى جماعة ، وكانوا يؤدونها

---

(١) سورة المائدة الآية رقم ٣ .

فى البيت الحرام ، والكعبة محاطة بالأصنام والأوثان ، فلما كانت الهجرة تأسس مسجد قباء ، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام يقول الله تعالى فيه ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (١) وقد صلى الرسول ﷺ والمسلمون معه فى هذا المسجد جماعة ، وأقاموا به أول جمعة فى الإسلام .

وبالنسبة للزكاة فقد شرعت بعد الهجرة بخمسة أشهر فى إطار المؤاخاة التى نظمها رسول الله ﷺ بين أصحابه من الهاجرين والأنصار (٢) .

وبالنسبة للصوم فقد شرع بعد الهجرة بثمانية أشهر بعد تحويل القبلة بشهر واحد، ومع تشريع الصوم شرعت زكاة الفطر ، كما شرع الحج لما تيسر أداؤه بعد الحديبية ، واستمرت أحكام هذه العبادات تنزل تباعا ، فكلما جد أمر نزل حكمه ، وعندما يحتاج المسلمون لحكم جاء الوحى به .

القسم الثانى : الأحكام الشرعية للعبادات غير المحددة وهى تشمل سائر أنشطة الإنسان فى الحياة ، لأن لكل جزئية حياتيه حكم شرعى يضبطها .

وأنشطة الإنسان ليست ثابتة ، ولكنها متغيرة متجددة ، وللإيمان دخل فيها . فحياة الإنسان ومعايشه فى تطور دائم ، ولذلك قضت حكمة الله تعالى أن تنزل أحكام هذه العبادات فى صورة مبادئ كلية ، وقواعد عامة ، حتى يتمكن العلماء من أخذ أحكام الحوادث الجديدة من القواعد والمبادئ وفق أصول علمية ، وتبعاً لضوابط إسلامية لابد منها فى أى حكم مستنبط .

وفى إطار أحكام هذا القسم لا يمكن تصور مسألة ما بلا حكم شرعى إسلامى ، وبذلك كان صلاح الإسلام لكل زمان ومكان .

لقد تم الإسلام فى المدينة بعد الهجرة بعناصره جميعاً ، وبرزت الأحكام الشرعية بجانب أحكام العقيدة ، وتكامل حسنهما معاً بالأخلاق الإسلامية الكريمة .

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٨ .

(٢) الفصول فى سيرة الرسول ﷺ لابن كثير صـ٥٦

وقد تميز الإسلام بمزايا عديدة ، من أهمها ما يلى :-

١) مراعاة الفطرة البشرية :

الفطرة هى الطبيعة الأولى التى خلق الله الإنسان عليها ، والجبلة الحقيقة التى يتكون منها ، والإسلام يراعى هذه الفطرة ، وينميها ، ويمكنها من مسارها الصحيح ، وذلك ملحوظ فى دوران كافة الأحكام الشرعية فى إطار الطاقة البشرية ، فلا يأمر الإسلام بمستحيل فعله ، ولا ينهى عن فعل مستحيل تركه ، بل كل ما جاءت به الشريعة يمكن عمله وتنفيذه ، كما أن الاستقامة عليه تريح النفس ، وترضيها .

إن الفطرة تجد راحتها حينما تصدق فى طاعة دين الله تعالى ، وتتلاءم معها وتسعد بها ، و تتشوق للعمل الإسلامى إن تركته ، وتبحث عنه إن بعد عنها .

إن الإسلام يعرف طريقه إلى النفس البشرية .. يعرف مداخلها ومخارجها ، فيسلك إليها على استقامة ، ويعرف حاجاتها ومطالبها فيلبيها ، ويعرف طاقاتها فيطلقها للعمل والبناء .. وينمى الجوانب الإيجابية فى النفس البشرية كالميل نحو الخير ، وحب الأمن ، وغلبة العدو ، ويحارب الجوانب السلبية كسوء الخلق ، والإندفاع نحو الشهوات المحرمة .

إن الإسلام نظام كامل للإنسان الذى يعيش على سطح هذه الأرض . يضع فى اعتباره فطرته ، وخصائصه النفسية ، والعادية ، والعقلية .

إن تعاليم الإسلام تلتقى مع الفطرة السوية ، وتحقق لها سائر رغباتها ، وتوجد معها الأمن والسعادة ، وذلك لما فيها من حلول لكافة حاجات الإنسان ، على وجه كامل تام .

٢) الشمول :

ونعنى بالشمول فى الإسلام أنه يشرع للإنسان فى كل حالاته ، وفى مختلف قضاياه ، يشرع له صغيراً وكبيراً ، ذكراً وأنثى ، حياً و ميتاً ، قوياً و ضعيفاً ، مريضاً و صحيحاً غنياً و فقيراً ، حاكماً و محكوماً .

ويشرع له وهو فرد واحد ، أو وهو فى جماعة ، بل ويشرع لعلاقة الجماعة مع غيرها وللأمة مع سواها .

إن الإنسان أينما كان يجد فى شرع الله طلبه ، ويعرف طريقه ، وهو نوع من الإعجاز يشهد بربانية الشريعة ، وإتيانها من عند الله تعالى .

ومن روعة هذا الشمول الاستمرارية، فهو دائم إلى يوم القيامة بلا خلل ولا نقص أبداً

لقد عاش المسلمون فى عصر النبى ﷺ مع شريعة الله ، واستقاموا على توجيهاتها بدقة ، فوجدوا فيها حلا لكل قضاياهم ، وتقدماً فى حياتهم فسعدوا ، وعاشوا فى بركات الله تتزل عليهم من فوقهم ، وتأتيهم رغداً من كل مكان .

يقول الله تعالى ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (٢) .

وقد تحقق للمسلمين ما وعدهم به الآيات ، فبعدوا بفضل الله تعالى عن الإنحراف العقلى ، والشقاء فى الحياة ، وأحاطتهم بركات الله من كل ناحية ، وعاشوا آمنين سعداء .

ـ ثانياً ـ
قيادة أمينة رائدة

أخذ رسول الله ﷺ فى قيادة المجتمع الإسلامى فى المدينة بمنهج الله تعالى ، بعدما صار أكثر من فيها مسلمين .

وأخذ رسول الله ﷺ يغذى أرواحهم بالقرآن المتزل عليه ، ويقوى إيمانهم بالتقوى، ويعبدهم لله رب العالمين .

وقد تجلت عظمة القيادة فى شخصية رسول الله ﷺ فهو عليه الصلاة والسلام كان يبلغهم كل ما يتزل عليه من ربه بمجرد نزوله ، ويحضهم على الاهتمام بالقرآن الكريم ويقول لهم ﷺ : **من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنه ، والحسنة بعشر أمثالها لا أقوال الم حرف بل ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف** (٣) .

إن إقبال القلوب على القرآن الكريم يجعلها تعيش نوره ، وتسعد بطاعته ، وتعتز بهدى الله ، ورضاه ، لقد بلغ الرسول ﷺ كل ما نزل استجابة لأمر الله تعالى له فى قوله

---

(١) سورة طه آية ١٢٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٩٦ .

(٣) زاد المعاد جـ ١ صـ ٣٣٩

سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (١) .

وكان ﷺ يقول للناس ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ (٢) .

لم يكتم ﷺ أمراً كلف بتبليغه ، و لم يتقول على الله كلمة واحدة .. وكانت أمانته بارزة لكل من عاشره فهو الأمين مع نفسه ، ومع الناس ، ومع الله .

وكان ﷺ شديد الحرص على إسعاد الناس بالإسلام ، وكثيراً ما كان يتألم لانصراف البعض عن الإيمان ، والتصديق .

يقول الله تعالى ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣)

ويقول سبحانه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٤) .

وكان الله تعالى يخفف عن الرسول حزنه وألمه لما كان يراه من بعد فريق عن الإيمان فيقول سبحانه ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٥) .

كان ﷺ شديد الحب لأصحابه وأتباعه ، وكثيراً ما حذر من أى أذى يلحق بهم .

يقول ﷺ : " **الله الله فى أصحابى فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ، ولا نصيفة** " (٦) .

ويقول ﷺ " **لا تسبوا أصحابى** " (٧) .

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٧ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٩ .

(٣) سورة المائدة الآية ١٢٨ .

(٤) سورة الكهف الآية ٦ .

(٥) سورة ق الآية ٤٥ .

(٦) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة جـ١٦ صـ٩٢

(٧) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة جـ١٦ صـ٩٢

وكان ﷺ يزكى أهل التزكية منهم ، ويصفه بما هو فيه ، ويعلى قدره بين الناس ...

يقول ﷺ عن أبي بكر الصديق " **أن أمن الناس على فى ماله وصحبته أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً** " (١) .

ويقول ﷺ : **ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه بها ، ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله تعالى بها يوم القيامة ، وما نفعنى مال قط ما نفعنى مال أبى بكر ، وما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له كبوة إلا أبا بكر ، إلا أبا بكر** " .

ويقول ﷺ عن عمر بن الخطاب : **قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم** "(٢) .

ومن أقواله ﷺ : **أرحم أمتى بأمتى أبو بكر .**

وأشدهم فى أمر الله تعالى عمر.

وأشدهم حياءً عثمان .

وأقضاهم على .

وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل .

وأفرضهم زيد بن حارثة .

وأقرؤهم أبى بن كعب .

ولكل أمه أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح .

وما أظلت الخضراء (يعنى السماء ، واظلالها تغطيتها لما تحتها) ولا أقلت الغبراء (يعنى الأرض ، وإقلالها حملها لما فوقها) أصدق لهجة من أبى ذر – أشبه عيسى عليه السلام فى ورعه (٣) .

وكان ﷺ شديد الحرص على أصحابه ، رحيماً بهم ، عطوفاً عليهم ، يتمنى أن لا يصيبهم أذى ، فلم يأخذهم بظنه ، ولم يسرع بعقوبة ، أملاً فى مخرج لهم .

---

(١)صحيح مسلم بشرح النووى ك : فضائل أبى بكر جـ١٥ صـ١٥٠ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى – فضائل عمر جـ١٥ صـ١٦٦ .

(٣) الفتح الربانى باب فضل أبى جـ٢٢ صـ٣٧٠

يروى مسلم بسنده أن ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت ، وإنى أريد أن تطهرنى فرده .

فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله إنى قد زنيت فرده الثانية .

فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال : أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً ؟

فقالوا : ما نعلمه إلا وفى العقل من صالحينا فيما نرى .

فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله .

فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم .

فجاءت الغامدية فقالت : يا رسول الله إنى قد زنيت فطهرنى وإنه ردها فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لم تردنى ؟ .. لعلك أن تردنى كما رددت ماعزاً فوالله إنى لحبلى .

قال لها: إما لا فاذهبى حتى تلدى فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة قالت : هذا قد ولدته

قال لها : اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز فقالت هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد ، فسبها ، فسمع نبى الله ﷺ سبه إياها فقال مهلاً يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت [١] .

وكان ﷺ لا يسمح بالشفاعة فى الحدود أبداً بعد ثبوتها ، والتأكد من وقـوعها ولذلك لما أهم قريش شأن المخزومية التى سرقت ، وكلمه أسامه بن زيد ﵁ - كطلبهم - قال له ﷺ : أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة ؟

ثم قام فاختطب ثم قال ، إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف ، أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها [٢] .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الحدود باب حد الزنا جـ١١ صـ٢٠٢ ، ٢٠٣

(٢) صحيح البخارى كتاب الحدود باب كراهية الشفاعة فى الحد جـ١٠ صـ٢٧٣

وكان نبينا ﷺ يحب مع هذا درء الحدود عن المسلمين ما استطاعوا، ومن أقواله ﷺ : **ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن كان له مخـــرج فخلـــوا سبيله ، فإن الإمام أن يخطئ فى العفو ، خير من أن يخطئ فى العقوبة** [1] .

وكان ﷺ يلتزم بفعل كل ما يأمر به ، ويترك كل ما ينهى عنه ، ويتحرك فى مقدمة الجيش حين الغزو ، ويقول لأصحابه ما قاله الله تعالى ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [2] .

عاش ﷺ بين أصحابة يربيهم بالقرآن ، ويدعوهم إلى الله تعالى ، وقد هداه الله إلى مفاتيح القلوب بالحسنى ففتحها ، واستمر يغذى نفوسهم بعظمة الإسلام ، ونور الوحى حتى خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، وصاروا رجالاً يعملون لله ، ويوجهون الدنيا لسعادة الآخرة .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى : لقد كان هذا الإنقلاب الذى أحدثه ﷺ فى نفوس المسلمين أغرب ما فى تاريخ البشر ، وقد كان هذا الإنقلاب غريباً فى كل شئ : كان غريباً فى سرعته ، وكان غريباً فى عمقه ، وكان غريباً فى سعته وشموله ، وكان غريباً فى وضوحه وقربه إلى الفهـــم . فلم يكن غامضاً ، ولم يكن مدهشاً ، ولم يكن شاذاً ككثير من الحوادث الخارقة للعادة ، ولم يكن لغزاً من الألغاز يصعب إدراكه، والوقوف على أسراره وإنما كان انقلاباً قائماً على فهم واع ، وقناعة كاملة ، وحب صادق متجذر فى الوجدان ، والضمير .

إنه حب لرسولهم الذى جاءهم من الله بدين الله يقول الله تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [3]

---

(١) نفحات الحبيب الشفيع صـــ١٥٦ .

(٢) سورة هود الآية ٨٨ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٦٤ .

إنه ﷺ لم يدعهم للملك شخصى ، أو مجد قومى ، أو دنيا زائلة ... وإنما هداهم الله إلى الصراط المستقيم وعرفهم بطرق الخير ، ووضعهم أمام حجة الله خالصة نقية ، فكان منهم ما استحقه ﷺ [1] .

ـ ثالثاً ـ

مؤمنون صادقون

صدق مجتمع المدينة فى إيمانه بالله ، وقدم أفراده صورة صحيحة عن الإسلام ، وبدأوا يتلقون تعاليم الله تعال التى جاء بها الوحى تلقيا صحيحاً .

فلقد كانوا يهتمون بالقرآن الكريم والسنة النبوية حفظاً وفهماً، ويحيطون بكل ما يترل، ويعلمون ما يحمله من توجيه وأحكام، وإن غاب عنهم معنى سألوا عنه رسول الله ﷺ

وكانوا يتلقون ما يأتيهم من الوحى بالعمل والتطبيق والتنفيذ ، وبذلك كانوا صورة عملية للوحى المترل ، أحلوا حلاله ، وحرموا حرامه بكل دقة وإخلاص .

وكان عملهم وفق تعاليم الله مصاحباً للحب والرضى ، لأنهم بهذا العمل يعيشون مع الشرع المحكم ، ومع الله العزيز ، ومع الحق المطلق الذى أنزله العليم الخبير .

وكان من إخلاصهم مع تعاليم الله أنهم طرحوا ما عداه فلم يأخذوا من مواريث فارس أو الروم ، وإن تلاقى فى بعض جزئياته مع تعاليم الله .

إن ما جاء من عند الله يكفيهم ، وهم به سعداء ، فلم يتركونه وهو الكامل إلى غيره وهو الناقص ؟!!

و لم يتركونه وقد التزموا بإسلامهم وعليهم أن يتمسكوا به ؟!!

و لم يتركونه ، والترك يمثل خللاً فى إيمانهم ، ونقصاً فى تدينهم ؟!!

و لم يتركونه ؟ وقد ثبت فضله ، وتأكدت نتائجه ؟!!

إن تلقى هذه الجماعة المؤمنة للوحى المترل كان قائماً على معرفتهم بحقيقته ، وإيمانهم بالواجب معه ، وفهمهم لضرورة وضعه فى المقام الذى هو جدير به .

---

(١) نفحات الحبيب الشفيع صـ١٥٩ .

إن الوحى هو كلام الله الذى نزل للناس ليكون دستور الحركة ، وقانون الحياة ، وهو يصور علامة فارقة بين حياة الجاهلية والحياة الإسلامية .

ولقد تلقى الصحابة الوحى بعقولهم ، وأعمالهم ، وسلوكهم ، وأحوالهم ، وصاروا به صناعة جديدة .

لم يتلفتوا معه إلى غيره مما صنعه البشر ، ولو أتاهم من ممالك الأرض المشهورة (فارس والروم) لأنهم لا يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير، و لم يخلطوا الوحى بغيره لأنهم لو فعلوها لكانوا ظالمين لأنفسهم ولدينهم لأنهم حينئذ يساوون تعاليم البشر بتعاليم الله تعالى .

إنهم كانوا مع الله صادقين ، وكانوا يعلمون أن أهل الباطل يعملون على إضلالهم ، وإبعادهم عن الحق ، فى جرأة على الخير ، واستهتار بالحقيقة ، واستدلال قبيح يعتمد على البهتان والسوء .

إن منطق أعداء الله واضــح فى قيامه على الإفك ، وبعده عن مسلمات العقل وبداهة الحكمة ، إنها جرأة تقلب الأمور ، وتجعل الحقائق أباطيل ، بلا أدنى إحساس بالخجل والأسف مثل قــوله تعالى عن قوم لوط إذ قال بعضهم لبعض: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (١) فلقد جعلوا الطهارة والعفة تهمة يعاقب فاعلها بالطرد والنفى .

ومثل فرعون ، وهامان ، وقارون ، إذ قالوا : ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ (٢) .

ومثل قول فرعون إذ قال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ (٣) ومثل قوله تعالى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ

---

(١) سورة النمل آية ٥٦ .

(٢) سورة طه آية ٦٣.

(٣) سورة القصص آية ٣٨ .

دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [1] حيث نرى الآيات تبرز كلمات فرعون وهو يثبت أنه الإله، وأنه واضع الطريقة المثالية ، وأن موسى عليه السلام داعية فساد ، وأنه يعمل على صرف الناس عن دينهم الصحيح ؟!!

علمت الجماعة المؤمنة فى المدينة المنورة كل هذا ، وفهمت الإسلام حق الفهم ولذلك اقتصرت على الأخذ من وحى الله ، وتركت ما عداه وإن تزين وتزخرف .

ولقد قدموا من أعمالهم وأخلاقهم المثاليات العوالى التى نتمنى أن نراها فى دنيا المسلمين اليوم ، ومن هذه الروائع :

< بايع بعض أصحابه ﷺ أن لا يسأل الناس ، فكان السوط يسقط من أحدهم ، فيترل عن دابته فيأخذه ولا يقول لأحد : ناولنيه .

وكان من شدة حبهم وطاعتهم له ﷺ أنه ﷺ نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فما كان من الناس إلا أن أطاعوه ﷺ، وأصبحت المدينة لهؤلاء الثلاثة غريبة ، عجيبة ، كأنها مدينة الأموات ليس بها من يكلمهم ، أو يجيبهم ، كأنها لا تعرفهم ، وكأنهم فى خصومة مع الجميع ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت .

يقول كعب بن مالك : ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا حتى تنكرت لى نفس الأرض ، فما هى الأرض التى أعرف .

ولقد مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام .

فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟؟؟

فسكت ، فعدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ففاضت عينى وتوليت حتى تسورت الجدار .

وكان من صدق طاعة كعب بن مالك وهو فى المحنة أن رسول رسول الله ﷺ

---

(١) سورة غافر آية ٢٦ .

يأتيه ويقول له : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك .

فيسأله : أطلقها أم ماذا أفعل ؟

فيقول له الصحابى : لا ، بل اعتزلها فلا تقربنها .

فيقول كعب لامرأته : إلحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر

وكان من حبه ﷺ ، للرسول ﷺ وإيثاره على كل أحد فى الدنيا ، أن ملك غسان يخطب وده ، ويستلحقه بنفسه ، (وتلك محنة عظيمة) ولكنه يرفض ذلك .

يقول كعب : بينما أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام لبيعه بالمدينة يقول : من يدلنى على كعب بن مالك ، فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاءنى فدفع إلى كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فقرأته ، فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ، ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك .

فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها [1] .

ومن دقتهم ﷺ فى طاعة شرع الله تعالى ، ومسارعتهم فى الامتثال أنه لما نزلت آية تحريم الخمر حرموها على أنفسهم للحظتها ، يقول بريدة : بينما نحن قعود على مجلس شراب وعندنا باطية (إناء خمر) لنا ونحن نشرب الخمر حلالاً ، إذ قمت حتى آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وقد نزل تحريم الخمر بقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [2] .

يقول بردة : فجئت إلى أصحابى فقرأتها عليهم ، وبعض القوم شربته فى يده ، شرب بعضاً ، وبقى بعضاً فى الإناء ، فألقوا بالآنية ، ورموا ما فى باطيتهم وقالوا : انتهينا

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب حديث كعب بن مالك جـ ٨ صـ ٨٦ ، ٨٧

(٢) سورة المائدة الآيات من ٩٠ حتى ٩١ .

ربنا ... انتهينا ربنا !! [١] .

يقول أنس بن مالك : **إنى لقائم أسقى أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال : وهل بلغكم الخبر ؟**

فقالوا : وما ذاك .

قال : حرمت الخمر .

قالوا : أحرق هذه القلال يا أنس

فما سألوا عنها ، ولا راجعوها بعد خبر الرجل [٢] .

وعن أبى هريرة قال : حرمت الخمر ثلاث مرات ، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾[٣] فقال الناس ما حرم علينا إنما قال فيهما إثم كبير ، وكانوا يشربون الخمر حتى إذا كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أمَّ الصحابة فى المغرب خلط فى قراءته فأنزل الله فيها آية أغلظ منها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾[٤] وكان الناس يشربون حتى يأتى أحدهم الصلاة وهو مفيق ، ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[٥] فقالوا : انتهينا ربنا .

ووصل الصدق فى التسليم والخضوع إلى أن الواحد منهم كانت تنتابه لحظة ضعف

---

(١) انظر سنن النسائى جـ٨ صـ٢٥٣

(٢) صحيح البخارى كتاب التفسير باب إنما والخمر والميسر جـ٧ صـ١٩٧

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٩

(٤) سورة النساء الآية ٤٣

(٥) سورة المائدة الآيتان ٩٠ ، ٩١

فيأتى لرسول الله مقراً بفعله لينال العقاب الذى حدده الله تعالى ، وقد يكون فى العقاب إزهاق روحه ، وذلك كما فعل ماعز والغامدية إذ جاءا للرسول وأقرا بالزنى وهما محصنان فرجمهما عليه السلام [١] .

إن هذا المجتمع الذى أسسه رسول الله ﷺ بالعقيدة الإسلامية كان صورة صادقة لتعليم الإسلام وتطبيقاته ، فكل من فيه صدق إيمانه ، وقويت عقيدته ، وعبد نفسه للمعبود العظيم .

إن الأمة الإسلامية التى أخرجت للناس قد بلغت الأوج ، كانت تعمل لله ، وتجاهد لله ، وتسعى إلى غايتها المرموقة فى حب وثقه ، التفت حول نبيها التفاف التلامذة بالمعلم ، والجند بالقائد ، والأبناء بالوالد الحنون .

وتساندت فيما بينها ، بالأخوة المتبادلة المتناصرة ، فهم نفس واحدة فى أجسام متعددة ، ولبنات مشدودة ، فى بناء منسق صلب .

وأدارت علاقتها بالآخرين على العدل والبر ، فليس يظلم فى جوارهم برئ ، أو يحرم من ألطافهم عان أو يؤاخذ أحدهم بذنب غيره، أو يعطى لواحد ما يستحقه غيره من ثواب

وبرغم ما وقع على المؤمنين من بغى قديم ، فقد جعلت الإسلام يجب ما قبله ، فمن تطهر من جاهليته ، وتاب إلى ربه لا ينظر أحد إلى ماضيه ، بل يصير فى الجماعة المسلمة عضواً كريماً فيها ، يملأ بصالح عمله كتابه الجديد .

أما الذين بقوا يكفرون ويصدون ، فلابد من الإعداد لهم ، حتى تخلص الأرض من كفرهم وصدهم .

قال تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [٢]

كانت هذه الأمة تكدح لله ، وتصل مساءها بصباحها فى عبادته ، وقد حزمت أمرها على واحد من اثنين ، أما أن تحيا لله ، وإما أن تموت فيه .

---

(١) الفتح الربان جـ ١٨ صـ ٨٥ وانظر تفصيل ذلك فى صـ ٢١٢

(٢) سورة النساء الآيتان ١٦٨ ، ١٦٩ .

ولو ذهبت توازن بين المسلمين يومئذ وبين سائر أمم العالم لرأيت عناصر الغلب والامتياز تتجمع لديهم صاعدة ، على حين تفور فى كيان الأمم الأخرى زلازل عنيفة ، فلا غرو إذا صاروا بعد سنوات معدودات دولة فتية تقضى لربها ولنفسها ما تشاء .

وقد وضع ﷺ من سلوكه مبادئ للعلاقات بين الناس لتحقيق المصلحة للجميع ، وتأكيد الأمن لكل فرد .

إن التزام الأمة بتطبيق الإسلام تطبيقاً كاملاً واعياً أبرز كافة عناصر الخير فى الإسلام ، وحول المسلمين من جماعة همجية إلى أمة متماسكة تسير بالعدل ، وتصون الحقوق ، وتحفظ الكرامة الإنسانية ، وتوجد الأمن والسلام والسعادة ، بصورة أصيلة ثابتة

وهذا الحال للأمة المسلمة جعل غير المسلمين ينظرون بحب وإعجاب إليهم ، ويتمنى أن يكون مثلهم ، ولذلك سارع الناس إلى اعتناق الإسلام رغبة ، واقتناعاً بعدما شاهدوه تطبيقاً عملياً بآثاره ونتائجه .

إن الجماعة المؤمنة التى صاحبت رسول الله ﷺ عاشت حياتها مجاهدة فى سبيل الله فتحركه إلى سائر الآفاق ومعها المصحف والسيف ... واستمرت على ذلك حتى تمكنت من صناعة أمة عظيمة تنشر العدل ، وتحمى السلام ، وتصون الحقوق ، وتضمن الكرامة لكل الناس ... وقد اعترف الجميع بما نشرته من خير وإصلاح للعاملين .

ـ رابعاً ـ

التفاعل التام بين المسلمين والإسلام

لما تمت الهجرة إلى المدينة المنورة ، صار للإسلام دولة تؤمن به ، وتؤازره ، وتدعو إليه وصدق المسلمون فيما عاهدوا الله عليه ، فتحولت مظاهر الحياة ، وكل الأنشطة وسائر المؤسسات إلى شريعة إسلامية تتحرك مع الناس وبهم فى صورة عملية تعبر عن دين الله تعالى ، وتؤكد التفاعل العظيم بين تعاليم الله و بين المؤمنين الصادقين .

وكان المسجد هو أول المؤسسات الدينية التى أقامها المسلمون فى المدينة ، فلقد أسس الرسول ﷺ مسجد قباء وهو فى الطريق إلى المدينة . ولما وصل إليها ونزل فى دار أبى أيوب الأنصارى أسس المسجد الحرام بالمدينة ، واتخذه المسلمون دار عبادتهم ،

وسياستهم ، ففيه كان يترل الوحى ، وفيه يجتمع الأصحاب برسول الله ﷺ ، وعنده تلتقى الوفود برسول الله ﷺ ، ومنه تتحرك الرسائل ، وينطلق الدعاة ، وتجهز الجيوش .

لقد أصبح المسجد هو بيت الإسلام فى المدينة ، **وبخاصة بعد أن شرع الله الآذان يدوى فى الأفاق خمس مرات فى اليوم والليلة ، ويتردد صداه فى الأفق البعيد ...** ويعلم القاصى والدانى أن أمة الإسلام عزيزة كريمة تعلن حقيقتها بصوت جهورى مكرر واضح المعالم بين ، معروف ، فالله ربهم وهو الكبير المتعال، ومحمد هو رسولهم ، والمبعوث بدين الله فيهم ، وهو رائدهم إلى الفوز والفلاح ، وإمامهم فى الصلاة ، وحياقم هى الإسلام كله .

يقول ابن إسحاق : **كان رسول الله ﷺ حين قدم المدينة ، إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ، فَهَمَّ رسول ﷺ حين قدمها أن يجعل لها بوقاً كبوق اليهود الذين يدعون به لصلاقم ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس ليضرب به للمسلمين للصلاة ، فبينما هم على ذلك إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه ﷺ أخو بلحارث بن الخزرج النداء ، فأتى رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله ، إنه طاف بى هذه الليلة طائف مر بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً فى يده فقلت له ، يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟**

قال : وما تصنع به ؟

قلت : ندعو به إلى الصلاة .

قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟

قلت : وما هو ؟

قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال : إنها لرؤية حق ، إن شاء الله فقم مع بلال فألقها

عليه ، فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتا منك .

فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب ، وهو فى بيته فخرج على رسول الله ﷺ ، وهو يجر رداءه ، وهو يقول : يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول الله ﷺ فلله الحمد على ذلك (١).

لقد آخى النبى ﷺ بينهم فصارت الأخوة رباطاً يربط المسلم بأخيه ، ويلزمه بواجبه نحوه ، ويجعل العلاقة بينهما كلها حب ، وبر ، وتكريم ، وعلت أخوة العقيدة على أخوة النسب والمصاهرة ، وخلا المجتمع من أى صورة غير إسلامية فى أى ناحية من نواحى الحياة وأصبح الكل يحافظ على دين الله تعالى بلا مخالفة ، أو تردد ، ويكتفى به كفاية يعيش بها ، ويعمل لها حتى أن أهل الذمة أقروا بحق الله عليهم ، واستسلموا لحكم رسول الله ﷺ وعاشوا بعهد الذمة آمنين فى الدولة المسلمة ... و لم يتمردوا على المسلمين إلا بعد أن لعب بهم الهوى ، وأضلهم شيطانهم ، وكان الله لهم بالمرصاد ، **فدل رسول الله ﷺ على خبيئة أنفسهم ، فكان أن طهر الرسول ﷺ المدينة منهم حتى صارت مدينة خالصة لله ورسوله**

وأخذت عناصر تنظيم المجتمع تتفاعل ، وتؤدى دورها فى إطار منهج الله تعالى :

- فالإسلام هو المحرك للحياة ، والأحياء .
- والرسول هو رائد الخير ، وقائد الناس .
- والمسلمون هم الصورة العملية لدين الله تعالى .

وبذلك قام المجتمع الإسلامى ، وظهرت معالمه ، واستحق أن ينزل فى وصفه قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢)

واطلع الله على قلوب وأعمال الجماعة المؤمنة فكان معهم بالنصر ، والتأييد ، ويسر لهم بقدرته أمر الحياة والمعاش وخصهم بما استحقوه من العون ، والتوفيق ، والسداد .

---

(١) السيرة النبوة جـ١ صـ٨٠٥

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٠

المبحث الثانى

تشريع الجهاد وحركة الدعوة

لم يرض القرشيون بما آل إليه شأن المسلمين ، و لم يقبلوا أن يعيش المسلمون فى مجتمع آمن مستقر .

كان المظنون أن تهدأ ثائرة كفار مكة ، وعباد الأوثان بعدما هاجر المسلمون إلى المدينة ، وتركوا ديارهم وأموالهم عندهم ، وابتعدوا عن مقابلتهم ، وتخلصوا من مضايقاتهم وعدوانهم المتكرر على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين .

كان المظنون ذلك لكن الواقع شهد بغير هذا لأن أهل مكة درسوا موقف المسلمين بعد الهجرة ، وتصوروا أن تواجدهم فى مجتمع خاص بهم سوف يؤدى إلى بروز الإسلام ، ووصوله إلى الأماكن البعيدة لعلمهم أن الإسلام هو دين الحق ، وأنه يتلاءم مع الإنسان السوى ، ويرضى العقل السليم .

ومن أجل هذا التصور وضعوا خطة حصار المسلمين ، وحاولوا القضاء عليهم فى مستقرهم الجديد .

علم كفار مكة ما كان من عبد الله بن أبى سلول من كراهيته للإسلام فكتبوا إليه ومن كان يعبد معهم الأوثان قائلين لهم : **إنكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مقاتلتكم ، ونستبيح نساءكم** [١] .

فجمع ابن أبى أشياعه لقتال رسول الله ﷺ والمسلمين معه ، فلقيهم رسول الله ﷺ وقال لهم : **لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم ، وإخوانكم ، فلما سمعوا ذلك من النبى تفرقوا** [٢] .

كما عملوا على منع المسلمين من زيارة البيت الحرام بمكة ، **وقد حدث أن سعد بن معاذ دخل مكة معتمراً ، ونزل على أمية بن خلف ، فقال لأمية : انظر لى ساعة**

---

(١) سنن أبى داود باب خبر النضير جـ٢ صـ١٣٩ ، ١٤٠ ط الحلبى .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

خلوة لعلى أن أطوف بالبيت ، فخرج به قريباً من لقف النهار .

فلقيهما أبو جهل فقال : يا أبا صفوان ، من معك ؟

فقال : هذا سعد .

فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصباة ، وزعمتم أنكم تنصرونهم ، وتعينونهم ، أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً .

فقال له سعد ورفع صوته عليه : أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه ، طريقك على أهل المدينة [1] .

وحاولوا العدوان على المسلمين فى المدينة ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يبيت ساهراً ، واتخذ لنفسه حرساً .

ففى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : سهر رسول الله ﷺ حين مقدمه المدينة ليلة ، فقال ﷺ : ليت رجلاً صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة .

تقول عائشة : فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح .

فقال ﷺ : من هذا ؟

قال : سعد بن أبى وقاص .

فقال له رسول الله ﷺ : ماجاء بك ؟

فقال : وقع فى نفسى خوف على رسول الله ﷺ ، فجئت أحرسه ، فدعا له رسول الله ﷺ ، ثم نام [2] .

ووجد الرسول ﷺ والمسلمون معه أنهم أمام عدو لا يريد السلام ، ولا يفكر إلا فى القضاء على الإسلام ، ورأوا ضرورة التصدى لهذا الطاغوت الظالم الذى يعمل على إفساد الحياة ، والقضاء على دين الله تعالى .

وشاءت إرادة الله تعالى أن ينصر جنده ، فكلفهم بالجهاد ، وأذن لهم فيه .

ودراستنا للجهاد هنا تتناول النقاط التالية :-

---

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى . ك المغازى . باب ذكر النبى من قتل ببدر جـ٧ صـ٢٨٢ .

(٢) صحيح مسلم

ـ أولاً ـ
تعريف الجهاد

الجهاد فى اللغة مشتق من الجهد وهو بذل الوسع ـ والطاقة ، قولاً وعملاً ، ويعرفه العلماء بأنه بذل الوسع والطاقة مع أعداء الله بالكلمة ، والمال ، والقتال ، لتحقيق غايات عليا .

والجهاد شامل لكل جهد يبذل لترقية الروح وتهذيب النفس ونشر الإسلام ومقاتلة الأعداء إلا أنه عند الإطلاق ينصرف إلى مقاتلة الأعداء ودعوتهم ، وهو مرادنا فى هذه الدراسة .

ويعد تعريف صاحب الفتاوى الهندية للجهاد أو فى تعريف الفقهاء وفيه يقول : **إن الجهاد هو الدعاء إلى الدين الحق، والقتال مع من امتنع، وتمرد عن القبول إما بالنفس ، أو بالمال ، أو بالكلمة ، أو بغير ذلك**[1]

وهذا التعريف الفقهى للجهاد يشتمل على الحقائق التالية :

١) اشتمل هذا التعريف على سائر العناصر التى تضمنتها أقوال الفقهاء ، وهم يتحدثون عن حقيقة الجهاد ، إذ فيه الدعوة إلى الدين الحق ، والقتال الموجه ضد الممتنعين ، و المتمردين ، والطغاة الذين يصدون عن دين الله تعالى ، ويقفون سداً بين الحق والناس .

٢) قدم هذا التعريف الدعوة بالحسنى قبل القتال ، وهو الترتيب الطبيعى لشريعة الإسلام فى الجهاد ، كما أن هذا الترتيب هو واقع ما فعله النبى ﷺ وأصحابه ، حيث مكث ثلاثة عشر عاماً فى مكة يدعو بالحجة ، والبرهان ، مع الصبر على ما وقع عليهم من الكفار وتحمل الأذى ، و لم يلجأ النبى وأصحابه إلى القتال إلا بعد استنفاد كافة الوسائل السلمية التى ينشرون بها دعوة الله ، ويصونون حياتهم معها .

٣) قيد التعريف القتال بأنه ضد من امتنع عن القبول ، وتمرد على الأدلة ، صاداً عن سبيل الله ليخرج من الجهاد قتال المستأمن ، والمعاهد ، والذمى ، لأن قتالهم لا يسمى جهاداً ، ولا تقره شريعة الإسلام .

٤) ذكر التعريف وسائل الجهاد وأشار إلى أنها تكون بالمال ، وبالنفس ، دعوة أو قتالاً ، وبذلك فحصر الجهاد فى القتال أمر غير مستساغ فى دين الله تعالى .

٥) وصف التعريف الدعوة فى الجهاد بأنها الدعوة إلى الدين الحق ، فأغلق بذلك

---

(١) الفتاوى الهندية جـ٢ صـ١٧٤ .

الأبواب فى وجه دعاة الهوى ، الذين يلتصقون بالدين زوراً للكيد له ، أو التكسب به ، ومنع التعريف بهذا القيد وصف دعاة الوثنية ، ودعاة الأديان المحرفة بالمجاهدين ، لأن دعوة هؤلاء وأمثالهم ، ليست إلى الدين الحق ، لأن الدين الحق هو الإسلام يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾[1] .

ويقول سبحانه ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[2] .

٦) يتفق هذا التعريف مع القرآن الكريم فى تقييد الجهاد بأنه فى سبيل الله ، وسبيل الله هو دينه جاء فى الفتوحات الإلهية " أن المراد بالسبيل دين الله ، لأن السبيل فى الأصل الطريق فتجوز به عن الدين لما كان طريقاً إلى الله بعلاقة المجاورة[3] .

يقول الرازى : سبيل الله أى طاعته وطلب رضوانه ، وهذا لا يكون إلا باتباع دين الله وتطبيق تعاليمه[4] .

ومن الملاحظ أن لفظ " **سبيل الله** " الذى هو اتباع الدين ، كما جاء فى القرآن الكريم قيداً للقتال لإعلاء دين الله ، جاء أيضاً قيداً للإنفاق لتقوية دين الله تعالى كقوله تعالى ﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[5] .

وجاء قيداً لأى عمل يؤدى إلى الهدف المذكور كقوله تعالى ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾[6] حيث جعلت الآية الهجرة من أجل الدين فى سبيل الله .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

(٣) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين جـ١ صـ١٥٣ .

(٤) تفسير الرازى جـ٤ صـ٢٥٥ ط دار الفكر .

(٥) سورة التوبة الآية ٤١ .

(٦) سورة النساء الآية ١٠٠ .

وبهذا ندرك شمول الجهاد للدعوة ، وللقتال ، بالنفس ، والمال ، واللسان ، وتكثير السواد ، وعمل الخير ، وإعداد الناس بالعلم ، وتقويتهم بالعمل والسلوك القويم ، ما دام ذلك لإعزاز الدين ، ولإعلاء كلمة الله ، وهذا ما عناه جمهور الفقهاء عند تعريفهم للجهاد بمعناه الشامل .

والحق مع هؤلاء الفقهاء لأن الجهاد الإسلامى يعنى بذل الجهد لتبليغ الدعوة بالوسائل السلمية ، وبلوغ الغاية المرجوه فى ذلك ، ولا يلجأ إلى القتال إلا عند حدوث مقتضاه كاعتداء على الدعوة ، أو على الدعاة ، أو على الوطن .

إنه باختصار لنشر العقيدة الإسلامية ، ولحمايتها من الفتنة ، ولحماية دعاتها فى ديارهم وبين سائر الناس .

وإذا تبين الجهاد بهذا المعنى الشامل فإن من الخطأ فهم الجهاد على أنه اعتداء ، أو إيذاء ، أو قهر ، أوجبر على الدخول فى الإسلام .

إن الجهاد فى سبيل الله كما اتضح من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية لا يصادر الحرية ، بل هو صيانة لها .

وليس الجهاد وسيلة لاندلاع نيران الحروب ، لأنه فى الواقع يضع النهايات السلمية للصراع ويريح البشرية من شرور الحروب .

وليس الجهاد نهباً للأموال ، بل هو الوسيلة لحماية الإيمان ، والإيمان هو العاصم الحافظ للمقدسات ، والأعراض ، والأموال .

ليس الجهاد لقهر الناس وإخضاعهم مهما كانت الغاية ، لأنه إفساح الطرق للدخول فى دين الله ، وهو الدين الذى ينشر لواء العزة ، ويحمى الذمار ، ويصون الكرامات ، ويعتمد على الاختيار الحر ، والاقتناع السليم والله تعالى يقول ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .

إن الجهاد يتقرر فى الإسلام حماية للحرية ، وصيانة للفكر ، ليحول بين الناس وبين من يصدهم عن اختيارهم للدين القويم .

إن الأمر فى قوله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (١) يحدد الوسائل المشروعة وهى تعنى أن تكون الدعوة فى الإسلام بالحجة والبرهان لا بالسيف والمعارك ، وأن التاريخ ليسجل دائماً أن العقائد لا تتحقق بالطغيان ، إذ هى اعتقاد بحل فى القلب وتتبوأ فى الضمير ، وتسكن فى الباطن الأمين .

و لم يدع الله أمر القلوب للكشف ، والبروز ، والظهور ، حتى لا تكون هدفاً يدركه الطغاة ، ويحركونه تبعاً لأهوائهم بضربات الأيدى ، أو برشقات السيوف ، أو بما شاكلها من أدوات الحديد والنار .

إن القلب غيب عن الناس لا تدرك مشاعره إلا بالإحساس الروحى ، أو المعنوى — ولا سبيل للسلاح إلى هذه المعانى حتى تفتح بالضرب ، وتغلف بالضراب .

وما دام شأن القلب هكذا ، فإنه من المحال أن يوجه السيف إليه ، أو يغير بقوة وإرهاب ... وذلك يؤكد سمو غايات الجهاد ، وبعده عن أى عنت أو ظلم ، أو عداون .

لقد أمضى النبى ﷺ فى مكة ثلاثة عشر عاماً وهو يتلقى مع أصحابه كل يوم منذ أن جهر بالدعوة صنوفاً من العذاب تحملوها صابرين ، وصمدوا لكل مكروه ، فلم يفتنهم عن دينهم عذاب مهما طال ، ولا إيذاء مهما عظم ، بل اعتزوا بالله ورسوله ،وكفوا حتى عن مقابلة الإساءه بمثلها .

وعلى كل حال فإن الجهاد فى سبيل الله لم يمتهن كرامة ، و لم يبدأ بعدوان ، و لم يلجأ المجاهدون فى سبيل الله إلى أموال الوادعين لنهبها ، وإن كانت ظروف القتال قد ألقت إليهم أموال العدو ، ووضعت فى أكفهم الغنائم فأحلها الله لهم .

وهكذا كان الجهاد ، وعلى هدى ذلك يجب أن يستمر (٢) .

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٢) الجهاد فى الشريعة صـ١٤ رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الدراسات الإسلامية للبنات القاهرة تأليف الدكتورة نعمات محمد على الهانسى .

ـ ثانياً ـ

مراحل تشريع الجهاد

يتصور بعض المستشرقين ، ومن يشايعهم من أعداء الإسلام أن الجهاد شرع لقهر الناس ، وإجبارهم على الدخول فى دين الله تعالى ، وهذا افتراء مردود ، لا دليل له، وكل الوقائع تشهد بكذبه .

إن الجهاد فى جملته يخضع للمبدأ العام الذى يتفق مع الفطرة ، القائم على أساس مدافعة العدوان ، والتصدى للظلم ، وحماية حق الإنسان فى الحرية والكرامة ،وهو مبدأ ثابت يقول الله تعالى ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (١)

والعقوبة بكافة صورها فى الإسلام نوع من مدافعة الجريمة على قدرها ، وهو مبدأ حق وعدل ، لأن الظلم لو ترك لعم الفساد ، ولو تجرد الحق والعدل من قوة الحماية لأصبحت الشئون للطغاة ، وساد فى الناس البغى ، والفساد .

والمجتمعات على اختلافها تتمنى مدافعة الاعوجاج ليستقيم لها الأمر ، وتصلح الحياة ، والجهاد هو الذى يحول هذه الأمانى إلى حقيقة [illegible]

ولا لوم مطلقاً على من يدفع ظلماً ويرده ، بل إن رد الظلم هو [illegible] البقاء يقول تعالى ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢) .

وقد تمسك المؤمنون [illegible] بحقهم فى الانتصار ، ورد الظلم والبغى مع المحافظة على العدل وصيانة حقوق الناس [illegible] فى القرآن المكى واصفاً المؤمنين فيقول الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥١ .

بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾[١] .

يقول الرازى : إن الانتصار يجب أن يكون بالمثل ، فإن النقصان حيف ، والزيادة ظلم ، والتساوى هو العدل ، وبه قامت السماوات والأرض ، ويقول : إنه لا يصح العفو إلا إذا كان سبباً لتسكين الفتنه ورجوع الجانى عن جنايته [٢] .

والجهاد الإسلامى حق وعدل كله وذلك يتضح من المراحل التى مر بها تشريعه وهى :

المرحلة الأولى

مرحلة التحمل والصبر

أمر الله تعالى المسلمين بالصبر والتحمل وكف الأيدى وهم فى مكة قبل الهجرة لأنهم كانوا ضعفاء لا يمكنهم رد الإيذاء ، ومواجهة العدوان .

فى هذه المرحلة كان الأمر بالصبر والتحمل ، مع المحافظة على الدين ، وعدم التسليم للطغاة، وإباحة الانتصار للنفس بصورة فردية ، آمنة .

والسلبية فى هذه المرحلة ضرورة اقتضتها ظروف المسلمين ، فهم فى مكة قليلو العدد مستضعفون ، يخافون أن يتخطفهم الناس ، يقول ابن كثير " **إن المسلمين لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً منهم ، فلو أمر المسلمون بقتالهم وهم أقل من العشر لشق عليهم** [٣] .

وتطبيقاً لتنفيذ فكرة المقاومة السلبية كانت الآيات تأمر فى هذه المرحلة بالمصابرة والتحمل وعدم إطاعة الحاقدين .

يقول الله تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [٤] .

ويقول تعالى ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [٥] .

---

(١) سورة الشورى الآيات من ٣٩حتى ٤١ وهذه الآيات مكية .

(٢) تفسير الرازى جـ٢٧ صـ١٧٩ ط دار الفكر

(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٣٠٠ .

(٤) سورة المزمل الآية ١٠ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٩٩ .

ومن المعلوم أن الأمر الموجه للرسول ﷺ هو أمر لأمته .

وحتى يكون التحمل أمراً مسلماً به وسهلاً عرف الله المؤمنين بأنه يدافع عنهم فقال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ [١] .

ويجب أن يكون واضحاً أن سلبية هذه المرحلة كانت فى ترك المقاتلة ، وتحمل الأذى منعاً لضرر أعلى، وما عدا ذلك فالإيجابية ثابتة موجودة ، والجهاد بالكلمة تشريع مقرر ، يقول الله تعالى فى سورة الفرقان ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾[٢] وسورة الفرقان سورة مكية ، وفى هذه الآية أمر بعدم طاعة الكفار وهم يعارضون القرآن الكريم ، وفيها كذلك الجهاد بآيات القرآن لأن الضمير فى " به " يعود عليه .

فهذه آية مكية أمر الله فيها بالجهاد ، ولذلك استمرت الدعوة فى كافة صورها ، ففى مجال إبلاغ الدعوة وتبيينها وشرح أهدافها لم يحدث أبداً توقف ، وفى مقابلة شبه القوم كانت الحجج المقنعة والمواجهة الفكرية ، وأمام اتهامات المعاندين للرسول ﷺ وتشككهم فى الوحى كان التصدى بالرد والحوار وإثبات ضلال المعاندين ، وخطإهم ، وكان الوحى خير نصير فى المواجهة .

ويجب أن يتضح كذلك أن هذه السلبية فى المقاتلة لم تكن مبدأ ، وإنما كانت ضرورة عاشها المسلمون ، وعليهم أن يتذكروا حقوقهم خلالها ، ويترقبوا لأنفسهم وينتظروا الوقت الذى يتمكنون فيه من استرجاعها ، عساهم يأخذون حقهم الذى سوف ينتصر حتماً .

وكان النبى ﷺ فى خلال هذه المرحلة يشير لأصحابه إلى الفرج ، والمخرج حيث قال للمسلمين قبيل الهجرة إلى الحبشة : **لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**[٣] .

---

(١) سورة الحج آية ٣٨ .

(٢) سورة الفرقان آية ٥٢ .

(٣) سيرة النبى جـ١ صـ٣٢٣

المرحلة الثانية

مرحلة الإذن بالقتال

بدأ الإذن بالقتال بعد الهجرة مباشرة لتنتهى مرحلة المقاومة السلبية وذلك بنزول قوله تعالى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [١]

فالله سبحانه وتعالى حين أذن لهم فى الذى كفهم عنه بين السبب فى الإذن ، وهو أنهم ظلموا خلال المرحلة المكية التى انتهت بإخراجهم ، والاستيلاء على أموالهم ، يقول الزمخشرى : **هم أصحاب رسول الله ﷺ كان يؤذيهم المشركون أذى شديداً ، فيأتون الرسول ﷺ ما بين مضروب ، ومشجوج ، يتظلمون إليه ، فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أومر بقتال حتى هاجر** [٢] .

وقد بدأت ملامح هذا الإذن خلال بيعة العقبة الثانية حيث بايع رسول الله ﷺ الأنصار على حمايته بما يحمون به أنفسهم وذراريهم وجرت خلال مفاوضات البيعة كلمات تشير إلى ضرورة الاستعداد للتصدى لعدوان من يعتدى على رسول الله وعلى دينه إذا قصدوا المدينة المنورة .

ولما تمت الهجرة بدت القوة الإسلامية وأصبح المسلمون مستعدين لملاقاة أعدائهم وفى إطار هذا الوضع نزل الإذن للمهاجرين بالقتال لاسترداد بعض حقهم .

وهكذا أذن الله لهم بالقتال بعد الهجرة ، وبدأت مرحلة المواجهة الإيجابية ، وهى المرحلة الثانية ، وفيها نرى المهاجرين يتصرفون خلالها على أساس أنهم أصحاب حق مهان يجب أن يهاب ، ومن حقهم أخذه بالظفر إن تمكنوا منه ، ولذلك قاموا بعدد من السرايا والغزوات عقب الهجرة لإرهاب من ظلموهم ، واستولوا على أموالهم ، وحرموهم من ديارهم ، وقد صحبهم رسول الله "ﷺ" فى بعض هذه الحملات الصغيرة التى حدثت بعد الهجرة ، وقبل غزوة بدر الكبرى .

ولعل ما يؤكد ارتباط الإذن بالقتال بالمهاجرين وحدهم أن تجميع المشتركين فى هذه

---

(١) سورة الحج الآية ٣٩ .

(٢) تفسير الزمخشرى جـ٣ صـ١٥ ط دار المعرفة .

السرايا كانوا من المهاجرين فقط ، يؤكد ابن إسحاق أنهم جميعاً من المهاجرين فيذكر عقب حديثه عند كل سرية قوله : وليس من الأنصار معهم أحد ، ويبين أن رسول الله ﷺ خرج مع أصحابه من المهاجرين فى أربع غزوات قبل بدر (١)

وما ذكره ابن إسحق يؤكد أن سلبية المرحلة الأولى كانت ضرورة ، فلما زال سببها أذن الله للمسلمين بالقتال ، لاسترداد حقوقهم ، فى إطار المحافظة على حقوق الآخرين .

وإنما كان الإذن لازماً فى بداية المرحلة الثانية ليكون المسلمون فى حل من الدفاع القتالى ، وحتى لا يتخيلوا أن أوامر المصابرة وحدها هى أوامر هذه المرحلة أيضاً

إن الإذن بالقتال لم ينسخ العفو والمصابرة حيث لا مناقضة بينهما ، لأن الصبر طريق إعانة ، والقتال يحتاج إليه ، والعفو أسلوب دعوة ، وتبليغ دين الله يقوم عليه .

والإذن بالقتال غير الأمر به ، ولذا لم يشعر المؤمنون بفرضية القتال بعد هذا الإذن فكان خروجهم فى بدر اختيارياً ، بعدما علموا أن من خرج للقتال أثيب ، ومن تخلف لم يحاسبه رسول الله ﷺ وهذا ملاحظ فى قلة عدد المسلمين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى بدر .

ولما كان الخروج اختيارياً فى " بدر " وكان الإذن خاصاً بالمهاجرين فقد اهتم النبى ﷺ بأخذ رأى الأنصار فى ميدان المعركة قبيل الاشتباك ، لأنهم عنصر لم يكلف بالقتال لأنه لم يفرض بعد ، ولم يظلم كالمهاجرين وأيضاً فإنهم بايعوا رسول الله ﷺ على الدفاع عنه ضد من يهاجمه فى المدينة ، وهو الآن خارجها ، وكان اشتراكهم مع المهاجرين ، وخروجهم مع رسول الله ﷺ تبرعاً محضاً ، ردءاً لرسول الله ﷺ ، ومساعدة للمهاجرين وحباً للجهاد فى سبيل الله تعالى .

وكان القرشيون فى بدر يعلمون أن المهاجرين وحدهم هم غرماؤهم ، امتداداً للحوادث القديمة ، ولذلك حينما بدأت الحرب بالمبارزة خرج من المسلمين أنصار فأبى الكفار مقاتلتهم ، وطلبوا أن يكون المبارزون من بنى عمومتهم .

وقد استمرت هذه المرحلة الثانية مدة عاش المسلمون خلالها فترة التمهيد للمرحلة الثالثة

---

(١) انظر سيرة النبى لابن هشام جـ١ صـ٥٩١ وما بعدها بتصرف .

ومن هذا التمهيد أن الله حثهم على الثبات فى الحرب وأخبرهم بذلك ضمنياً فى قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾[١]

فلقد شبه لهم الفرار بصورة مؤلمة وكأن من يفر من القتال يسلم دبره إلى أعدائه الزاحفين .

ومن هذا التمهيد أن الله تعالى أمرهم أمراً صريحاً بالثبات حين المواجهة فى قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٢] كما أمرهم بضرورة إحكام الضرب والنزال وتقييد الأسرى وحبسهم حتى ينتهى اللقاء ، وعلى المؤمنين أن يثقوا فى نصر الله تعالى ومعونته ما داموا على الحق سائرين فقال الله تعالى ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[٣] .

ومن هذا التمهيد قوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[٤] لأن الإعداد المسبق ، وتجهيز شئون القتال يخوف الأعداء ، ويدخل الرعب فى قلوبهم ، الأمر الذى يكفهم عن القتال .

ومن التمهيد كذلك قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ

---

(١) سورة الأنفال الآية ١٥ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٥ .

(٣) سورة محمد الآيات من ٤ إلى ٧ .

(٤) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

وفى هذه الآية أمر الله المسلمين بالتحريض على القتال ، والثبات أمام العدو ، ولو كان الأعداء أكثر عدداً منهم ، لأن الله يؤيد القلة المؤمنة الصابرة على عدوها الكافر ، كما هو واضح من الآيات .

المرحلة الثالثة

مرحلة القتال المقيد

احتاج المسلمون إلى الأمر بالقتال بعد الإذن به ، لأن منهم من أسلم حديثاً و لم يقع إيذاء عليه ، ومنهم من طبع على ضعف فطرى ، ومنهم من بينه وبين أهل مكة قرابة وصلة وهؤلاء لا يكفى معهم الإذن بالقتال ، وإنما لابد لهم من الأمر به ليشعروا بوجوبه ، ويقيموه مخافة الإثم من ترك فرض .

وهذه المرحلة لم تخرج هى الأخرى عن التزام الحق ومقاومة الباطل ورد العدوان كما يستفاد من آيات تشريعها .

يقول الله تعالى ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

وفى هذه الآيات أمر الله تعالى بالقتال المقيد وعرف بأنه موجه لقتال المعتدين الذين قاتلون المسلمين وحدهم ، مع الالتزام بعدم العدوان ، وعلى المسلمين أن يعرفوا جيداً أنه لا عدوان إلا على الظالمين .

وقد بدأت هذه المرحلة الثالثة بعد بدر مباشرة حيث بدأت قريش تعمل للحرب

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) سورة البقرة آية ١٩٠ .

(٣) سورة البقرة آية ١٩٣

وأخذت تستعد للإنتقام من هزيمتهم في بدر ، جاء في أسباب النزول للنيسابوري أنه لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجعوا إلى مكة ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في رجال من قريش ، أصيب آباؤهم ، وأبناؤهم ، وإخوانهم في بدر فقابلوا أبا سفيان، ومن كان له في ذلكم العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا [١] فأنزل الله قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [٢].

وكان الله مع المؤمنين فوجههم بعد بدر مباشرة إلى وجوب الاستعداد للحرب ولزوم الثبات فيها ، ثم كانت قمة المعية الإلهية أن وجه المسلمين إلى أن مرحلة الإذن المجرد قد انتهت ، لتبدأ مرحلة أوســع منها هي مرحلة فرضية القتال فقال الله تعالى ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [٣] .

والآية تؤكد خاصية المرحلة الثالثة ، وهي الأمر بقتال من يقاتل المسلمين من أهل مكة ، ومن ظاهرهم وقصر العدوان على من يعتدي .

---

(١) أسباب النزول صـــ ١٦٣ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٣٦ .

(٣) سورة الأنفال أية ٣٨ ، ٣٩ .

المرحلة الرابعة

مرحلة الأمر بالقتال العام

وأخيراً كان تشريع المرحلة الرابعة حيث أمر الله المسلمين بالحرب العامة ضد كل المشركين أيا كان نوعهم ، وجنسهم ، ومكانهم ،وزمانهم ، فقال الله تعالى ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (١) ودلالة الآية ظاهر ، لأن المشركين فى مكة ، وفى قبائل العرب ، وفى البوادى أجمعوا أمرهم على محاربة المسلمين للقضاء عليهم ، وأخذوا فى الإعداد لتحقيق غاياتهم قبل غزوة الأحزاب ، فكان أن نزل تشريع الجهاد العام للتصدى لكافة المشركين .

ويقول سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (٢) .

والأمر واضح فى قتال أعداء الله لأنهم بسبب كفرهم ونفاقهم تمكنت العداوة منهم فأصبحوا خطراً يجب الخلاص منه بالجهاد .

وقد أمر الله تعالى بالقتال العام لأعداء الله بعدما اتضح إصرار أحزاب الكفر على إطفاء نور الله فى الأرض باذلين كل ما يمكنهم لتحقيق ذلك ، ولهذا كان الأمر بالجهاد العام مناسباً للوضع الموجود الذى يقول الله تعالى عنه ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (٣) .

ومع هذا التعميم فى الحرب لا نسخ فى أوامر المرحلة الثالثة لاندراجها فى سعة هذا العموم من باب أولى .

والحرب فى المرحلة الرابعة لا تعارض مبدأ مقاومة الباطل ، ورد العدوان ، لأن الأمر فيه ﴿ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ ﴾ فقتالهم لكم هو المشبه ، به وهو السبب ، لأن

---

(١) سورة التوبة آية ٣٦.

(٢) سورة التحريم آية ٩ .

(٣) سورة الصف آية ٨ .

الكاف زادت هنا عن مجرد التشبيه فتضمنت معنى المقابلة والعقوبة ، وقتالكم يجب أن يشبهه ، وذلك يستلزم أن وجه الشبه في قتالهم أوضح وأسبق .

وأيضاً فإن المشركين هم اللذين بدأوا فى العام الخامس الهجرى بالمقاتلة العامة ساعة أن تجمعوا فى عدد هائل ، ضم قريشاً وأحابيشها ، ومن تبعها من بنى كنانة وأهل تهامة ، ومعهم غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، يعاونهم يهود بنو قريظة .

يقول ابن إسحاق فى حديثه عن هذا التجمع : فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان وقائدها عيينه بن حصن بن حذيفة بن بدر فى بنى فزارة ، والحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى فى مرة ، وسعد بن رخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعة من قومه بنى أشجع .

وقد بلغ تجمع المشركين فى الأحزاب عشرة آلاف ، وكان أملهم القضاء على المسلمين أجمعين كما يوضحه قول حيي بن أخطب لكعب بن أسد القرظي : عاهدنى القوم وعاقدونى علي أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه [(١)].

فكان لزاماً أمام اتجاهات هذا التجمع الشامل أن يأمر الله المسلمين بالمقاتلة العامة لتبدأ المرحلة الرابعة قبيل غزوة الأحزاب التي وقعت فى الخامس من شوال فى العام الخامس الهجري ، ومن يومها والمسلمون مكلفون بقتال من قاتلهم من سائر الفئات المشركة ومن ظاهرهم من بقية الناس .

وإذا نظرنا إلى وقائع الجهاد ، وأعمال المجاهدين ، والتزامهم بأخلاق الإسلام لظهر جلياً براءة الجهاد الإسلامى من أى اتهام يوجه إليه ، لأنه فى كل صورة يحقق الحرية ، ويضمن الكرامة ، ويحفظ للإنسان حقوقه وكل ما هو ضرورى له ... كما سيتضح عند دراسة الغزوات .

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ٢١٤ ، ٢١٥ .

المبحث الثالث
السرايا والغزوات قبل بدر

استقر المسلمون فى المدينة ، وأخذوا يحيون الإسلام المنزل عليهم قولاً وعملاً، وظهرت قوتهم فى دولة للإسلام ، واجتهدوا بقيادة رسول الله ﷺ فى تبليغ الإسلام ، والدعوة لدين الله تعالى .

ولم يتوقف القرشيون عن محاولاتهم فى صد الناس عن دين الله ، وإعداد العدة للقضاء على المسلمين فى المدينة ، فأخذوا فى تحريض أعراب البوادى ، وتأليب قبائل العرب ، وتهييج اليهود ليكونوا جميعاً معهم فيما يعملون له .

وشعر المسلمون أن قريشاً تتعامل مع القبائل المحيطة بالمدينة ، والتى تسكن الطريق إلى مكة ، لتتحرك فى أمان ويسر ، وتتنقل بقوافلها التجارية فى طمأنينة واستقرار ، وفى نفس الوقت تحرم المسلمين من الخروج من المدينة ، ودعوة هؤلاء الناس .

واستفادت قريش بما أشاعته كذباً فى أن محمداً وأصحابه فروا من مكة خوفاً ، وضعفاً ، وبذلك تعاون الأعراب معها ، وتصوروا الأمر كما زعم القرشيون .

وأخذ القرشيون يتفاخرون بالاستيلاء على أموال المهاجرين، بلا رادع يردعهم أو أناس يخافون منهم ، ويعلنون أن قوتهم غالبة ، ودينهم صحيح .

وهذه أمور تؤثر فى نفوس العرب ، وتدفعهم بعيداً عن تصور الحق ، أو البحث عنه ما دام الوضع كما سمعوا وتصوروا .

ولم يغب هذا الأمر عن رسول الله ﷺ فرأى أن الحركة بالدعوة فى هذه الظروف تحتاج إلى تصرف عملى ، يصحح مفاهيم الناس ، ويظهر القوة الإسلامية ، ويعد الأعراب والقبائل المحيطة بالمدينة عن أكاذيب قريش ، ويبين لقريش أن حقوق المهاجرين لن تضيع ، وأن قوة المدينة ثابتة بموقعها ، وبرجالها المؤمنين ، وبصدق ما تدعو إليه ، وفوق ذلك بمعية الله لها .

وصار من الضرورى إظهار الإسلام بصفائه ، ونقائه ، وإنقاذه من غبش الطغاة ، وأكاذيب المفترين

وقد اقتضى هذا الوضع حتمية القيام بما عرف بـــ " السرايا والغزوات " وهى عبارة عن دوريات ، أو مفارز مكونة من عدد من الرجال ، ومعهم سلاحهم البسيط للقيام بعمليات الاستطلاع ، والتعرف على الطرق ، و اكتشاف المسالك المؤدية إلى المدينة ، وإلى مكة ، والتعرض للقوافل المكية الذاهبة إلى الشام ، أو إلى اليمن ، وعقد المعاهدات مع من يقبل من العرب وسكان البوادى ، وإبراز قوة المسلمين أمام مشركى العرب ، ويهود المدينة ، والأعراب ، ليعلموا جميعاً أن المسلمين أقوياء ، وأنهم تخلصوا من الضعف الذى عاشوه فى مكة .... وأيضاً لإنذار أهل مكة ليفيقوا من غفلتهم ، وليدعوا إيذاء المسلمين ، ويتركوا العدوان عليهم ، وينتهوا عن صد الناس عن دين الله تعالى ، ويمتنعوا عن نشر الأكاذيب وتضليل الناس .

والغزو : هو السير إلى القتال فى عدد قليل أو كثير ، والغزوة المرة الواحدة ، وجمعها غزوات (١) .

والسرية : عدد مسلح من الرجال لا يقل عن خمسة ولا يزيد عن أربعمائة ، يسبقون الجيش للحصول على معلومات ، وأخبار ، وسميت السرية بالسرية لتحركها خفية وسراً ، أما الغزوة فإنها تخرج ظاهرة غالباً (٢) .

يقول ابن الإثير : السرية من الجيش الطائفة يبلغ أقصاها أربعمائة من المقاتلين الأشداء وتخرج خفية وسراً (٣) .

وقد اصطلح علماء السيرة على أن الجماعة التى يقودها رسول الله ﷺ تسمى "غزوة" والجماعة التى يقودها أحد الصحابة تعرف بـــ" السرية "

وقد غزا النبى ﷺ غزوات عدة منها :

غزوة الأبواء ، ويقال لها " ودان " ، ثم غزوة بواط ، ثم غزوة سفوان ، وهى بدر

---

(١) لسان العرب مادة غزا ، سرا .

(٢) لسان العرب مادة غزا ، سرا .

(٣) البداية والنهاية لابن الإثير جـــ٢ صـــ١٥٩ وعدد الخارجين إن كان أقل من عشرة يسمى "بعثا" وإن كان أقل من أربعين يسمى "حضيرة "و "عصبة " والأربعمائة " سرية " فإن زاد فهو " كتيبة " والخمسمائة " منسر " والثمانمائة " جيش والآلاف " جحفل " وقد تنوب الأسماء عن بعضها مجازاً .

الأولى ، ثم غزوة العشيرة ، ثم غزوة بدر الكبرى ، ثم غزوة بنى سليم ، ويقال لها قرقرة الكدر ، ثم غزوة السويق ، ثم غزوة غطفان ، وهى غزوة ذى أمر ، ثم غزوة الفرع ، ثم غزوة بنى قينقاع ، ثم غزوة أحد ، ثم غزوة حمراء الأسد ، ثم غزوة بنى النضير ، ثم غزوة بدر الأخيرة ، وهى غزوة بدر الموعد ، ثم غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة بنى المصطلق وهى المريسيع ، ثم غزوة الخندق ، ثم غزوة بنى قريظة ، ثم غزوة بنى لحيان ، ثم غزوة الحديبية ، ثم غزوة ذى قرد ، ثم غزوة خيبر ، ثم غزوة ذات الرقاع ، وهى غزوة محارب وبنى ثعلبه ، ثم غزوة عمرة القضاء ، ثم غزوة فتح مكة ، ثم غزوة حنين ، ثم غزوة الطائف ، ثم غزوة تبوك وفى بعض ذلك تقديم وتأخير عند الرواة والمحدثين .

والغزوات الكبار الأمهات ثمان هى :

بدر ، وأحد ، والخندق ، وخيبر ، والحديبية ، والفتح ، وحنين ، وتبوك .

وفى شأن هذه الغزوات نزل القرآن ، ففى بدر نزل قرآن كثير من سورة الأنفال وفى " أحد " نزل آخر آل عمران من قوله تعالى ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] إلى قبيل آخرها بيسير .

وفى قصة الخندق وقريظة نزل صدر سورة الأحزاب .

وفى بنى النضير نزلت سورة الحشر .

وفى قصة الحديبية وخيبر نزلت سورة الفتح ، وأشير فيها إلى الفتح وهو الحديبية .

وفى فتح مكة نزلت سورة النصر .

وذكرت تبوك فى سورة براءة .

وجرح رسول الله ﷺ فى غزوة "أحد " فقط .

وقاتلت معه الملائكة فى بدر ، وحنين ، وأحد على خلاف فى الثالثة .

ونزلت الملائكة يوم الخندق ، فزلزلوا المشركين ، وهزموهم ، ورمى ﷺ بالحصباء فى وجوه المشركين فهربوا ، وكان الفتح فى غزوتين : بدر ، وحنين .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢١

وقاتل المسلمون بالمنجنيق فى غزوة واحدة وهى الطائف ، وتحصن المجاهدون بالخندق فى واحدة هى الأحزاب ، وهو الخندق الذى أشار به سلمان الفارسى ﷺ (١)

أولاً -

أسباب وقوع السرايا والغزوات

قبل بدر

أذن الله تعالى للمسلمين بالقتال بعد الهجرة ، وشرع لهم القيام بالسرايا والغزوات على نحو ما ذكرت ، وكان ذلك من صميم حركة النبى ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى .

وبيان ذلك أن أهل مكة نشطوا بعد الهجرة فى صد الناس عن سبيل الله تعالى ، واستغلوا وضعيتهم عند العرب فى عداوتهم ، وعدوانهم على الإسلام والمسلمين .

وقد ألف العرب فى كل الجزيرة تقدير أهل مكة ، لأنهم حماة البيت وأصل العرب ، وإلى بلدهم (أم القرى) يأتى الجميع حجاجاً ومعتمرين ، وزواراً ، ومتاجرين ... الأمر الذى مكن لهم فى قلوب العرب ، ومكنهم فى الوقت نفسه من الاتصال بهم ، وكثرة مقابلتهم فى الأسواق ، والمناسبات ، والأحداث ... ولقد رأينا مدى تقدير العرب لأهل مكة أثناء مجئ أبرهة بجيشه قبل الإسلام يريد هدم الكعبة حيث وقف العرب ضد حملة أبرهة ، وتمنوا لها البوار والهزيمة .

استغل أهل مكة هذا الوضع وأخذوا يشيعون بين الناس أن محمداً ﷺ وصحبه فروا هاربين من مكة ، وتركوا وراءهم كل شئ ليستمر ضعفهم ، وهوانهم الذى كان معهم فى مكة .

إن المسلمين وهم فى مكة كانوا عدداً قليلاً ضعيفاً خائفاً من طغيان المكيين وظلمهم يقول الله تعالى واصفاً هذا الحال ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) أوصل الحاكم النيسابورى عدد غزوات رسول الله وسراياه إلى ما فوق المائة .

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٦ .

ومن هنا تمكن أهل مكة من عقول الناس ، واستمروا فى إذاعة إفكهم ، وبهتانهم وفى هذا صرف للناس عن استماع الدعوة ، وعدم إقبالهم على رسول الله ﷺ .

والله عليم بخلقه ، حكيم فى تشريعه وتعاليمه ، رحيم بعباده ، حافظ لدينه ورسوله ، ولذا كان تشريع الجهاد ، والإذن بالسرايا والغزوات ، بعد الهجرة مباشرة لتصحيح بعض المفاهيم التى يجب أن تصحح ، وإحاطة الناس بالحقيقة المجردة بعيداً عن غوغائية أهل مكة ، ورد البهتان الذى أذاعوه بين الناس .

لقد أدى تشريع الجهاد إلى نفى كل ما قيل عن ضعف المسلمين وهوانهم ، وبين أنهم بعد الهجرة صاروا قوة ترد الظلم ، وتعيد الحق ، وتحمى الدين ، ولذلك أذن الله لهم بالقتال والحرب ، وحقق بالجهاد ما عجز عنه الحوار الطيب ، والجدال الحسن .

ولنا أن نتصور الحال إذا استمر على ما كان فيه ، وبقى القرشيون على عتوهم ، وعدوانهم .

إن الضعيف لا يتعامل مع الجبابرة ، والعاجز لا يقدر على المواجهة !!

والخائف لا يمكنه إمساك الرمح والسيف !!

والمهين يضعف فى مواقف العزة والكرامة !!

والقوة الغاشمة لا تسمع إلا لأمثالها لأنه لا يفل الحديد إلا الحديد !!

ولقد كان أقصى ما يتمناه أهل مكة أن يتقوقع المسلمون حول أنفسهم فى المدينة ويتركوا دعوة غيرهم إلى الإسلام ، ويستمروا مقيمين فيها كما فعل إخوانهم الذين هاجروا إلى الحبشة ، ولو تحققت هذه الأمنية للقرشيين لسعدوا بها ، وعاشوا فى حياتهم الجاهلية آمنين .

ولكن الله تعالى قضى لدينه أن ينتشر ، وقضى للناس أن يسعدوا بالإسلام ، ولذا كان ضرورياً أن يتحرك الإسلام [illegible] بالأسلوب المناسب لهم ، ويتعامل مع الواقع بما يكافئه .... ولذا كانت السرايا والغزوات .

و لم يقف أمر الإسلام عند التعاليم المجردة ، وإنما باشرها المسلمون عملياً خلال الغزوات والسرايا ، فتحركوا بأعداد مسلحة لملاقاة القوافل المكية التى كانت تفر منهم ، ولما رأى العرب التحرك السريع والمتكرر من السرايا الإسلامية سالموهم ، ووادعوهم ،

وبعدوا عن دعايات أهل مكة ، وانتظروا تغيير الحال ، وتبدل الوضع ، ليقرروا ما يرونه حينئذ ، وكان رسول الله ﷺ خير معلم ، وأعظم مرب ، وهو يقود الجماعة المسلمة بعد الهجرة ، إذ رأيناه ﷺ يقود أكثر هذه السرايا ، ويخرج لملاقاة القرشيين ، ويعاهد العرب على السلم والإسلام ، حتى لا يتصور أحد من أعدائه أنه سكن المدينة ، ورضى بالمكث فيها ، معتمداً على حركة أصحابة وحدهم .

وحتى فى السرايا التى لم يخرج فيها كان ﷺ يرسل عمه " حمزة " أو أبناء عمومته ليكونوا فى مقدمة الخارجين ... وبذلك كان ﷺ القدوة الحسنة ، والسراج المنير للناس أجمعين

إن المسلمين الذين خرجوا فى السرايا والغزوات كانوا يؤدون مناسكهم ، ويحافظون على شعائر دينهم ، ويقيمون الصلاة ، ويلتزمون بالعدل والخلق الكريم ، مع البعد التام عن كل ما نهى الله عنه ، وبذلك قدموا دعوة عملية ، ظهر أثرها بعد غزوة بدر الكبرى ، حيث دخل الناس فى الإسلام وهم عارفون بنسكه وتكاليفه ، التى رأوها تطبيقاً عملياً أمامهم .

ومن أثار هذه السرايا فى الدعوة إلى الله تعالى فتح العقول لسماع الحق ، وتخليصها من استبداد الطغاة ، وتحقيق الحرية أمام الأعراب بعيداً عن أى إكراه ، لتكون عقيدتهم مرتبطة بالرشد الصادق ، والبيان الأمين .

كما أدت السرايا إلى تفرق العرب عن أهل مكة بعدما علموا أكاذيبهم ، وفقدوا الثقة فيهم ، وبذلك فشل المكيون فى تكوين كتلة واسعة معادية لرسول الله ﷺ ، تشمل قبائل العرب فى البوادى ، وفى القبائل التى تقيم على جوانب الطريق بين مكة والمدينة ومعهم اليهود والمنافقون ، وبذلك كان الجهاد ... وكانت السرايا تحركا فى خدمة الدعوة لدين الله تعالى .

- ثانيا -

السرايا والغزوات قبل " بدر "

وقد بلغ عدد السرايا والغزوات قبل بدر ثمان منها أربع غزوات ، وأربع سرايا بيانها كالآتى :

١) سرية سيف البحر :

كانت فى رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة . وقد أمر رسول الله ﷺ على هذه السرية عمه حمزة بن عبد المطلب ، وبعثه فى ثلاثين رجلاً من المهاجرين ، يعترض عيراً لقريش جاءت من الشام ، وفيها أبو جهل بن هشام فى ثلاثمائة رجل ، فبلغوا سيف البحر [١] من ناحية العيص [٢] ، والتقوا بقافلة المشركين ، فلما شعر بهم القرشيون دافعوا عن تجارتهم ، واصطفوا للقتال ، فمشى " مجى بن عمرة الجهنى " وكان حليفاً للفريقين جميعاً ، بين هؤلاء وهؤلاء ، حتى حجز بينهم ، فلم يقتتلوا .

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ ، وكان أبيضاً ، وحمله أبو مرثد كناز بن الحصين الغنوى [٣] .

يقول ابن هشام : إن سرية حمزة هذه كانت فى وقت واحد مع سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ ، ولذلك اختلف المؤرخون فى أيهما كان أولاً ... والحقيقة أنهما كانا معاً فى وقت واحد .

٢) سرية رابغ :

حدثت فى شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة ، حيث بعث رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب فى ستين راكباً من المهاجرين ، فلقى أبا سفيان وهو فى مائتين عند بطن رابغ [٤] ، وقد ترامى الفريقان بالنبل، ولم يقع قتال، ولم تسل السيوف وفى هذه السرية انضم رجلان من جيش مكة إلى المسلمين ، وهما المقداد بن عمرو البهرانى حليف بنى زهرة ، وعتبة بن غزوان المازنى ، وكانا مسلمين ، خرجا مع الكفار ، ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين ، وكان لواء عبيدة أبيضاً ، وحامله مسطح بن أثاثة بن عبد المطلب بن عبد مناف [٥] .

---

(١) سيف البحر مكان فى بلاد بنى سليم قرب العيص .

(٢) العيص بالكسر فسكون موضع ببلاد بنى سليم به ماء على ساحل البحر ، وفيه عسكر أبو بصير .

(٣) سيرة النبى جـ١ صـ٥٩٥ .

(٤) رابغ بعد الألف باء مكسورة واد من يقع بين الجحفة وودان .

(٥) سيرة النبى جـ١ صـ٥٩١ ، ٥٩٢ .

٣) سرية الخرار :

كانت فى شهر ذى القعدة على رأس تسعة أشهر من الهجرة ، حيث بعث رسول الله ﷺ سعد بن أبى وقاص فى عشرين راكباً ، يعترضون عيراً لقريش ، وعهد إليه أن لا يجاوز " الخراز " [(١)] فخرجوا مشاة ، يكمنون بالنهار ، ويسيرون بالليل ، حتى بلغوا الخرار بأرض الحجاز صبيحة خمس من ذى القعدة ، فوجدوا العير قد مرت بالأمس وكان لواء سعد ﷺ أبيضاً ، وحمله المقداد بن عمرو [(٢)].

٤) غزوة ودان :

حدثت فى صفر من السنة الثانية على رأس اثنى عشر شهراً من الهجرة ، حيث خرج رسول الله ﷺ بنفسه ، بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة ، فى سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة ، يعترض عيراً لقريش حتى بلغ " ودان "[(٣)] فلم يلق كيداً .

وفى هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشى الضمرى ، وكان سيد بنى ضمرة فى زمانه على أن لا يغزوهم ولا يغزوه ولا يكثروا عليه جميعاً ، ولا يعينوا عليه عدواً وكتب معهم كتاباً ، وهاك نص المعاهدة :

هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبنى ضمرة ، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا فى دين الله ، ما بل بحر صوفه ، وإن النبى إذا دعاهم لنصره أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله ، وذمة رسوله ، ولهم النصر على من بر منهم واتقى .

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، غاب خلالها عن المدينة خمس عشرة ليلة وكان اللواء أبيضاً ، وحامله حمزة بن عبد المطلب ﷺ [(٤)].

٥) غزوة بواط :

حدثت فى شهر ربيع الأول فى العام الهجرى الثانى على رأس ثلاثة عشر شهراً من

---

(١) الخرار بفتح الخاء وتشديد الراء المفتوحة موضع بالحجاز قريبة من الجحفة .

(٢) سيرة النبى لابن هشام جـ١ صـ٦٠٠

(٣) ودان بواد مفتوحة ودال مشتقة من الود والمحبة وهى قرية جامعة قريبة من نواحى الفرع تقع بين الأبواء والجحفة

(٤) سيرة النبى جـ١ صـ٥٩١ .

الهجرة ، حيث خرج رسول الله ﷺ فى مائتين من أصحابه المهاجرين ، يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجمحى ، ومعه مائة رجل من قريش ، وألفان وخمسمائة بعير تحمل تجارة المكيين إلى الشام ، فبلغ ﷺ بواطاً [١] من ناحية رضوى ، و لم يلق كيداً و لم يقع قتال فأقام فيها ﷺ مدة ثم رجع بعدها إلى المدينة .

واستخلف ﷺ فى هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ ﷺ ، وكان اللواء أبيضاً وحمله سعد بن أبى وقاص ﷺ [٢].

٦) غزوة سفوان :

حدثت فى شهر ربيع الأول سنة فى العام الثانى الهجرى على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة ، حيث أغار " كرز بن جابر الفهرى " فى قوات خفيفة من المشركين على مراعى المدينة ونهب بعض المواشى ، فخرج رسول الله ﷺ فى سبعين رجلا من أصحابه لمطاردته ، حتى بلغ وادياً يقال له " سفوان "[٣] من ناحية بدر ، ولكنه لم يدرك كرزاً وأصحابه ، فرجع من دون حرب ، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى لقربها من بدر .

واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة " زيد بن حارثة " وكان اللواء أبيضاً ، وحمله على بن أبى طالب ﷺ [٤] .

٧) غزوة ذى العشيرة [٥]:

حدثت فى جمادى الأولى وجمادى الآخرة سنة فى العام الثانى الهجرى على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة، حيث خرج رسول الله ﷺ فى خمسين ومائة، ويقال: فى مائتين، من المهاجرين، و لم يكره أحداً على الخروج، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يتعقبونها، ليعترضوا عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام، وقد جاء الخبر بخروجها من مكة، وفيها أموال كثيرة لقريش، فبلغ ﷺ ذا العشيرة ، فوجد العير قد فاتته بأيام ، وهذه العير التى خرج فى طلبها حين رجعت من الشام ، فصارت سبباً لغزوة بدر الكبرى .

---

(١) بواط بفتح الباء وضم الواو جبل فى جهينة من ناحية رضوى .

(٢) سيرة النبى جـ١ صـ٥٩٨ .

(٣) سفوان بفتح أوله وثانية وأخره نون واد فى ناحية بدر .

(٤) سيرة النبى جـ١ صـ٦٠١ .

(٥) العشيرة : بضم العين وفتح الشين تصغير عشرة مكان قرب ينبع .

وكان خروجه ﷺ في أواخر جمادى الأولى ، ورجوعه في أوائل جمادى الآخرة كما جاء في سيرة ابن إسحاق ، ولعل هذا هو سبب اختلاف أهل السير في تعيين شهر هذه الغزوة [1] لأن بعضهم يراها في جمادى الأولى ، والبعض يراها في جمادى الآخرة .

وفي هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة ، وادعه رئيسهم مجدى بن عمرو الضمري ، ورجع إلى المدينة بغير قتال [2]

واستخلف على المدينة في هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وكان اللواء في هذه الغزوة أبيضاً ، وحامله حمزة بن عبد المطلب ﷺ.

وفي هذه الغزوة كنى رسول الله ﷺ علياً بأبي تراب ، وقصة ذلك أنه أرسله وعمار بن ياسر عيونا على بني مدلج — فنظروا إليهم ساعة ، ثم غشيهم النوم .

يقول عمار : فانطلقت أنا وعلي حتى اضطجعنا في صور ، من النخل ، وفي دقعاء من التراب قمنا ، فوالله ما أهبنا إلا رسول الله ﷺ يحركنا برجله ، وقد تتربنا من تلك الدقعاء التي نمنا فيها فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعلي بن طالب : ما لك يا أبا تراب لما يرى عليه من التراب

وكان علي ﷺ إذا عتب على فاطمة في شيء لم يكلمها ، ولم يقل لها شيئاً تكرهه إلا أنه يأخذ تراباً فيضعه على رأسه ، قال : فكان رسول الله ﷺ إذا رأى عليه التراب عرف أنه عاتب على فاطمة ، فيقول له : مالك يا أبا تراب ؟ [4]

٨) سرية نخلة :

وقعت في رجب سنة في العام الثاني الهجرى على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة حيث بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة [5] في اثني عشر رجلاً من المهاجرين كل اثنين يعتقبان على بعير .

---

(١) سيرة النبي ﷺ جـ١ صـ٥٩٩

(٢) فتح الباري جـ٧ صـ٥٧٩

(٣) فتح الباري جـ٧ صـ٢٨١ .

(٤) سيرة النبي جـ١ صـ٥٩٩-٦٠٠

(٥) نخلة بفتح النون وسكون الخاء موضع بالحجاز قريب من مكة فيه نخل وكروم .

وكان رسول الله ﷺ قد كتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه فسار عبد الله ، ثم قرأ الكتاب بعد يومين ، فإذا فيه " **إذا نظرت فى كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها عير قريش ، وتعلم لنا من أخبارهم**

فقال : سمعاً وطاعة ، وأخبر أصحابة بذلك ، وبين لهم أنه لا يستكرههم ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كرة الموت فليرجع ، وأما أنا فناهض ، فنهضوا كلهم ، غير أنه لما كان فى أثناء الطريق أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه فتخلفا فى طلبه .

وسار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة ، فمرت عير لقريش تحمل زبيباً ، وأدماً وتجارة ، وفيها عمرو بن الحضرمى ، وعثمان ، ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة ، والحكم بن كيسان ، مولى بنى المغيرة ، فتشاور المسلمون وقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب ، الشهر الحرام ، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اجتمعوا على اللقاء ، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمى فقتله ، وأسروا عثمان ، والحكم وأفلت نوفل ثم قدموا بالعير ، والأسيرين ، إلى المدينة ، وقد عزلوا من غنيمتهم الخمس ، وهو أول خمس كان فى الإسلام ، ويعد عمرو الحضرمى أول قتيل فى الإسلام ، وعثمان والحكم أول أسيرين فى الإسلام .

وقد أنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه لأنهم اعتدوا فى شهر حرام ، وقال : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، ومنع التصرف فى العير والأسيرين ثم ردها لأصحابها [١] .

إن توجه هذه السرايا كان لجهات متعددة ولقبائل مختلفة ، ولأماكن تنوعت بين البداوة ، والتقدم مما يؤكد دقة التخطيط ويقظة القيادة ، والعمل الدءوب لخدمة الإسلام والمسلمين .

---

(١) سيرة النبى جـ ١ صـ ٦٠٢

ـ ثالثا ـ
السرايا وحركة الدعوة

أدت السرايا والغزوات إلى تغيير كثير من المفاهيم التى سارت بين العرب قبلها ، لقد تصور العرب أن المسلمين خرجوا من مكة فارين لا شأن لهم ، وأن أمر الإسلام سيبقى حبيساً فى المدينة ، وأن سلطان المكيين سيبقى عالياً ، ولذلك لم يدخل أحد من العرب فى الإسلام بعدما صدقوا ما يشيعه أهل مكة عن الإسلام والمسلمين ، وبخاصة أن المكيين يفاخرون بأمجادهم ، ويظهرون قوتهم وسلطانهم .

وقد أدت السرايا إلى تغيير كل هذه الأفكار لأنها تمت بطريقة سديدة ، فقد تحركت السرايا إلى سائر القبائل المنتشرة فى البوادى ، وتعددت النواحى التى قصدتها حيث اتجهت كل واحدة منها لجهة ما ، ولقوم معينين .

كما أن كل واحدة منها قصدت فى توجهها أهل هذه النواحى **أولاً** مع محاولة الإمساك بأموال تجارة قريش التى تمر فى هذه الناحية **ثانياً** ، لأنها فى الحقيقة أموالهم ، وذلك لإحداث تأثير مزدوج فى نفوس القبائل ، وعند أهل مكة .

وهذا الأمر يمثل ما عرف حديثاً بالحرب الاقتصادية التى يقصد بها تحقيق النصر بلا قتال ، كما تعرف بالحرب النفسية لإدخال الرعب والهزيمة فى نفس الأعداء أيضاً .

وحين نعلم أن السرايا والغزوات بدأت بعد الهجرة بسبعة أشهر ، واستغرقت عشرة أشهر تقريباً يظهر لنا ولكل عاقل مدى شجاعة المسلمين ، ومدى استعدادهم للبذل من أجل نيل حقوقهم ، ومدى طاعتهم لرسول الله ﷺ .

إن هجرة الرسول ﷺ كانت فى محرم من العام الأول للهجرة ، ووقعت السرية الأولى فى شهر رمضان من السنة الأولى ، ووقعت السرية الأخيرة فى شهر رجب من العام الثانى .. حين نعلم ذلك (وهو حق) ندرك مدى حيوية المسلمين ومدى نشاطهم ، وحركتهم التى أذهلت قبائل العرب فى الجزيرة كلها ، وأظهرت قوة المسلمين واستعدادهم لمواجهة أهل مكة ومن يشايعهم بعد أشهر قليلة من الهجرة ، مما جعل أهل مكة لا يهنأون بما اغتصبوا من أموال وديار ، فبدأوا يعيشون الواقع الجديد وبعدما كانت قوافلهم تسافر بعدد قليل من الحرس والرعاة أصبحت تسافر بمئات من الرجال المسلحين .

وقد أفصحت هذه السرايا عن شجاعة المسلمين ، لأنهم خرجوا بأعداد قليلة للتصدى للقوافل المكية ، وهى فى حراسة مئات من الرجال المسلحين .

و لم يحدث قتال فى هذه السرايا ، ومع ذلك فقد قامت بدروها فى الاستطلاع ، والمعرفة ، وإرهاب كفار مكة ، وتحييد سكان البوادى والأعراب ، واختيار المكان المناسب للنزال والحرب ... الأمر الذى جعل المسلمين يخرجون لبدر حيث وقع القتال بينهم وبين وأهل مكة وحدهم ، من غير أن يساعد المكيين أحد .

وأيضاً فقلد أدت هذه السرايا إلى تفتح أذهان الناس ، وتطلعهم لمعرفة شئ عن الله الذى يدعو محمد ﷺ إلى الإيمان به ، بعدما كانوا عنه منصرفين ، وقد أدى ذلك إلى دخول كثير من الناس فى الإسلام عقب غزوة بدر ، لسابق علمهم به .

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى القول بظفر صاحب المال المغصوب إن تمكن منه ، وبخاصة إن كان المغتصب متمرداً على الشرع ، والقانون ، مستدلاً بخروج المسلمين لأخذ أموالهم المغصوبة من القوافل حين يظفرون بها ، وقد أباحها الله تعالى لهم .

ويرى المعارضون للظفر أن هذا الخروج كان فى إطار سلطة شرعية ، وكان استثناء للرسول ﷺ وصحابته .

ولقد اشترك فى هذه السرايا المهاجرون وحدهم لأنهم أصحاب الحق ، وعليهم وحدهم أن يعملوا لاسترداده ، والظفر به ، أما غيرهم فلا حق لهم ، ولو قاموا به لعد عدواناً منهم ، الأمر الذى يأباه الله ورسوله ﷺ .

المبحث الرابع

غزوة بدر الكبرى

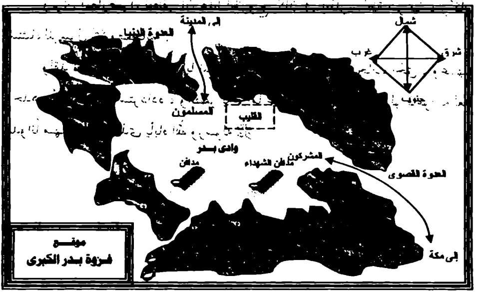
تعرف غزوة " بدر " (١) بأنها الغزوة الكبرى في الإسلام مع أنها كانت قليلة العـــدد بالنسبة لمن اشترك فيها ، وبالنسبة لآثارها المادية ... ومع ذلك فهـي الغـزوة الكبـرى لنتائجها المعنوية ، وتأثيرها في العرب ، وفي العالم كله .

وقعت غزوة " بدر " هذه في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة .

لقد تصور العرب وغيرهم أن المسلمين ضعاف لا يقدرون علي المواجهة ، وأنهم خرجوا من مكة هرباً من قوة المكيين ، وأن الإسلام سيبقى معزولاً مع أصحابه في المدينة المنورة .

و لم تغير السرايا والغزوات التي وقعت قبل غزوة بدر هذا التصور تماماً لانتهائها جميعاً بلا قتال ، واستمر الأمر علي ذلك حتى وقعت الغزوة ، وتغير كل شئ ، تغيرت المفاهيم ، وتغيرت التصورات ، وانمحت كل الآمال التي صنعها الكفار افتراءً وكذباً ، وبدأ عهد جديد للدعوة إلى الله تعالى ... **ولهذا كانت بدر هي الغزوة الكبرى .**

وحين نتناول الغزوة بالدراسة أرى ضرورة دراسة ما يلي :



---

(١) " بدر " اسم بئر حفرها رجل من غفار اسمه بدر ، وقيل هو بدر بن قريش الذى سميت قريش به ، وهى على بعد مائة ميل جنوب المدينة فى طريق الذاهب إلى مكة وهى قرية من ساحل البحر وسميت بدراً لتمامها و كمالها (معجم البلدان جـــ١ صـــ٣٥٧) .

أولاً
أسباب الغزوة

ترك المسلمون مكة ، وتركوا فيها أموالهم ، وديارهم ، ليحافظوا على دينهم ، ويتحركوا به للناس فى أمن واستقرار .. ولم يرتض القرشيون ذلك ، فاستولوا على الأموال واغتصبوا الدور ، وحرموا المهاجرين من اصطحاب نسائهم ، وذراريهم ، ومنعوهم من دخول المسجد الحرام .

وحاولوا قتل رسول الله ﷺ وتعقبوه أثناء هجرته ، وأخذوا يؤلبون أعراب البوادى ضد رسول الله ﷺ حتى أن " كرز بن جابر الفهرى " أغار على المدينة (١) واستاق بعض إبلها استهانة بقوة المسلمين

وحاول القرشيون تأليب غير المسلمين من سكان المدينة فأخذ اليهود وعبدة الأصنام ، والمنافقون يجاهرون بعداوتهم لرسول الله ﷺ .

ووجد المسلمون أنفسهم أمام عداوة ظاهرة ، وحرب موجهة إليهم من كل جانب ، ورأوا أن قريشاً تعمل بلا كلل فى تكثير أعداء الإسلام ، وتوحيد أنشطتهم ، وأعمالهم لمحاصرة المسلمين فى المدينة ، والقضاء عليهم .

رأى المسلمون ذلك ، فتيقنوا من ضرورة العمل لحماية دينهم ، وموطنهم ، وأنفسهم ، وتأكدوا من أهمية التأهب ، والاستعداد لمواجهة هذا الإجرام المتنامى من أعداء الله تعالى .

إن للمسلمين حقوقاً تركوها فى مكة ، فعملوا للوصول إليها وأخذها ليفيق المكيون من غيهم ، ويتعلموا أن الأمن لن يتحقق لهم إلا بأداء حقوق الآخرين ، وليعرفوا أن المهاجرين ليسوا هملاً لا حقوق لهم ، وليسوا جماعة خائفة لا تقدر على المواجهة .

وكان الله تعالى مع حق المسلمين العادل ، فأمرهم بالاستعداد ، والتهيؤ ، للتصدى لأعدائهم ، وأنزل قوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن

---

(١) فتح البارى جـ٧ صـ٨٥٠

رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[١]

وقوله تعالى ﴿ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾[٢]

والآيات واضحة الدلالة فى أن إعداد القوة ، والتهيئة للقتال ، وقبول التضحية ، يضمن الحقوق ، ويمنع الحرب ، لأن العدو المعتدى إذا رأى أمامه قوة تخيفه ، وترهبه يمسك عن الظلم ، ويخشى عاقبة عدوانه على غيره .

وإعداد القوة يرهب عدو المسلمين الظاهر ، وهم أهل مكة ، ويرهب كذلك العدو المستتر وهم المنافقون ، واليهود ، ومن على شاكالتهم من الأعراب والرعاة .

وكانت السرايا والغزوات قبل بدر جزءا من هذا الاستعداد ، والمواجهة ، وقد اشترك فى هذه السرايا المهاجرون وحدهم لأنهم أصحاب حق مسلوب يبحثون عنه ، ولذلك قصدوا القوافل التجارية لأهل مكة الذاهبة إلى الشام ، أو العائدة منها ... وفى نفس الوقت لإظهار قوتهم وعزيمتهم ، وشجاعتهم أمام أعدائهم .

ونلاحظ حكمة التوجيه النبوى لأصحابه فى هذه السرايا والغزوات ، فلقد تم توجيهها إلى أماكن عديدة ، وإلى قبائل مختلفة تقطن الطرق بين مكة والمدينة .

كما نلاحظ أن السرايا كما قصدت القوافل المتجهة إلى الشام قصدت القوافل المتجهة إلى اليمن أيضاً فى مكان وزمن لم يتوقعه القرشيون ، ذلك أن سرية عبد الله بن جحش اتجهت إلى " نخلة " وهى مكان بين مكة والطائف فى الطرق المتجهة إلى الجنوب وكان هدف هذه السرية هو المراقبة والاستطلاع .

وقضى الله تعالى بنجاة كل قوافل قريش ، وعدم وقوع إحداها فى يد المهاجرين ولذلك بقى الأمر على ما كان عليه ، واستمر الإذن بالقتال للمظلومين الذين أخرجوا

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠

(٢) سورة النساء آية ٨٤

من ديارهم ، وسلبت أموالهم .

وفى غزوة العشيرة خرج عدد من المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ للتصدى لقافلة قرشية أثناء ذهابها إلى الشام ، ولكنها أفلتت منهم ، فأخذ المسلمون يترقبون رجوعها ، وأرسل النبى ﷺ طلحة بن عبيد الله ، وسعد بن زيد ، إلى شمال المدينة لاكتشاف القافلة حين رجوعها ، فقبعا فى " الحوراء "[١] حتى مرت بهم راجعة ، فأسرعا إلى المدينة ، وأخبرا رسول الله ﷺ برجوعها [٢] .

كانت القافلة مكونة من ألف بعير محملة بثروات ضخمة ، وكان يحرسها أربعون قرشياً بقيادة أبى سفيان بن حرب [٣] .

إن الاستيلاء على هذه القافلة فرصة طيبة للمهاجرين ، وضربة قاصمة لأهل مكة ، وإعلان واضح يظهر قوة المسلمين ، ويبين حرصهم على نيل حقوقهم ، ومدى عزمهم وشجاعتهم .

أخذت الأحداث تجرى بقدر الله إلى حيث يشاء وقال رسول الله ﷺ لأصحابه : **هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها** [٤] .

فخرج عدد قليل بأسلحة عادية ظناً منهم أنها واحدة من السرايا السابقة ، وبخاصة أن الرسول لم يأمر بقتال ، ولم يكلفهم به ، وكانت الحالة التى تصورها المسلمون أن الخروج خاص بالمهاجرين ليأخذوا أموال القافلة عوضاً عن أموالهم ، والذين خرجوا من الأنصار خرجوا لمساعدة إخوانهم ، نظراً لضخامة القافلة ، ومصاحبة لرسول الله ﷺ .

ثانياً
مواقف الفريقين قبل المعركة

فهم القرشيون غاية المسلمين من محاولة التعرض لقوافلهم التجارية ، فأخذوا حذرهم للإفلات والهرب ، وقد نجحوا فى ذلك إلى حد بعيد ، يؤكد ذلك ما أشار

---

(١) الحوراء بفتح الحاء وسكون الواو مكان يقع شمال المدينة .

(٢) المغازى جـ صـ ٢٠

(٣)سيرة النبى جـ١ صـ٦٠٦

(٤)بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٦ صـ٦٧ .

أبوجهل به لأبي سفيان قبل رحيله من مكة قائلاً له :" **يا معشر قريش إن محمداً قد نزل يثرب وأرسل طلائعه وإنما يريد أن ينال منكم شيئاً، فاحذروا أن تمروا طريقه أو أن تقاربوه** [١] وكانت آخر محاولات المسلمين خروجهم للاستيلاء على قافلة أبي سفيان بعد أن جاء خبر رجوعها من الشام وهي التي فرت منهم حين ذهابها إلى الشام ، وأراد الله تعالى أن تقع غزوة " بدر " هذه المرة حيث نشب القتال ، وكان ما كان من أحداث ، وأحكام ويمكن توضيح موقف كل من المسلمين والقرشيين قبيل المعركة فيما يلى :

أ-

موقف المسلمين

بعدما علم رسول الله ﷺ بعودة القافلة من الشام ، وفيها ألف بعير محملة بتجارات قبائل مكة ، تحت حراسة ثلاثين أو أربعين رجلاً ، أخبر رسول الله أصحابه وندبهم للخروج وهو يقول لهم : **"هذه عير قريش فاخرجوا لعل الله أن ينفلكموها"**.

انتدب الرسول أصحابه للخروج و لم يأمرهم ، وترك الأمر لاختيارهم فخف بعضهم ، وقعد الأكثرون ، ظناً منهم أنها واحدة من الغزوات السابقة التي أفلتت فيها القوافل ، وتمكنت من الهرب ، وعادوا بعدها إلى المدينة المنورة .

ورأوا كذلك أن العدد الذى خرج مع رسول الله ﷺ كاف فى أداء المهمة ، و لم يتأهب الذين خرجوا للحرب التي فيها صناديد مكة ، فلم يصطحبوا معهم كامل أسلحتهم وخيلهم [٢] .

وقد استعمل النبى ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ولما بلغ "الروحاء" [٣] رد أبالبابة إلى المدينة وولاه أمرها [٤] .

وقد بلغت قوات المسلمين ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً ، معهم فرسان ، وسبعون

---

(١) سيرة النبى جـ١ صـ٦٠٢

(٢) سيرة النبى جـ١ صـ٦٠٧ .

(٣) الروحاء بفتح الراء مشددة وسكون الواو وآخرها ألف ممدودة تقع جنوب المدينة وهى تابعة لإقليم الفرع سميت بذلك لاتخاذها مكاناً للراحة والسكون (معجم البلدان جـ٢ صـ٧٦)

(٤) سيرة النبى جـ١ صـ٦١٢ .

بعيراً ، فأخذ الرجال يتعاقبون على الإبل " **كل ثلاثة على جمل** [١] وكان النبى ﷺ يتعاقب معهم [٢] وساروا للقاء القافلة قرب " بدر " التى تبعد عن المدينة بمائة ميل تقريباً فى الجهة الجنوبية ، فى الطريق الذاهب إلى مكة .

وكان خروج النبى ﷺ من المدينة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان على رأس تسعة عشر شهراً من مهاجره ، وضرب النبى ﷺ عسكره فى بئر أبى عنبة [٣] وهى على ميل جنوب المدينة ، فعرض أصحابه ورد الصغار منهم ، وبعدها واصل السير نحو بدر [٤].

وعندما اقترب الركب الإسلامى من " الذفراء "وهى قرية قريبة من " بدر " أرسل المسلمون عيونهم لمعرفة أخبار القافلة فجاءهم الخبر بما لم يتوقعوه .

جاءهم الخبر بأن أبا سفيان بن حرب اكتشف خروج المسلمين لملاقاة القافلة ، فغير طريقه إلى الساحل ، تاركاً بدراً إلى يساره ، وأسرع فى سيره حتى بعدت القافلة عن المسلمين ، وفى نفس الوقت أرسل أبو سفيان لأهل مكة يستنجد بهم لإنقاذ تجارتهم من محاولة استيلاء المسلمين عليها .

وصل المسلمون إلى " بدر " وعسكروا فيها يومين ليستريحوا من وعثاء السفر ، وليرى الأعراب وغيرهم من تواجدهم فى بدر مدى شجاعتهم وقوتهم، ويعرفوا استعدادهم للقتال من أجل حماية الحقوق ، وصيانة المبادئ والخلق الكريم .

ولما استقر رسول الله ﷺ وجنده فى "بدر" علم أن أهل مكة خرجوا لملاقاة المسلمين فى تحد سافر ، واستعداد تام للقضاء على المسلمين والإسلام .

وبرغم علم القرشيين أن القافلة التجارية نجت إلا أنهم أصروا على الحرب آملين تلقين المسلمين درساً يمنعهم من التصدى لقوافلهم بعد ذلك ، وحتى يعلم أهل الجزيرة قوة أهل مكة وشدتهم فى الحرب واللقاء ، وكان رأس الداعين إلى ضرورة محاربة المسلمين أبا جهل لعنه الله .

---

(١) صحيح البخارى كتاب المناقب باب عدة أصحاب بدر جـ٦ صـ٢٣٩ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٢ صـ١٢ وقد رد رسول الله يوم بدر (امتاع الأسماع جـ١ صـ٦٢)

(٣) بئر فى جنوب المدينة على بعد ميل واحد .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٢ صـ١٢ .

وجد رسول الله ﷺ نفسه والمسلمين معه أنهم أمام حرب فرضت عليهم بلا استعداد لها ، ورأوا أن القتال أصبح ضرورة ، وبخاصة أن الله تعالى وعدهم إحدى الطائفتين العير أو النفير ، وما دامت العير قد فرت ، فإن النفير أصبح قدر الله فيهم .

نظر الرسول ﷺ إلى الموقف العام وتأمل فى موقف أصحابه الذين خرجوا معه من المهاجرين والأنصار ، ورأى أن المهاجرين أصحاب حق ، ولذلك أذن الله لهم بالقتال .... ورأى ﷺ أن الأنصار لم يبايعوه يوم العقبة على القتال خارج المدينة ، وإنما بايعوه على حمايته داخل المدينة وها هو القتال قد أتى وهم خارجها .

رأى النبى ﷺ ذلك فبدأ يستشير أصحابه ، ويأخذ رأيهم ، فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما ، ثم قام المقداد بن عمر الأسود فقال : **يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه** [1]

وسكت الناس بعد مقالة المقداد فقال رسول الله ﷺ : **أشيروا على أيها الناس ، وكان ﷺ يريد بكلمته هذه الأنصار .**

فلما أحس الأنصار أن الرسول يريد سماع رأيهم ، قام سعد بن معاذ وقال : **كأنك تريدنا يا رسول الله ؟**

فقال ﷺ : **أجل .**

قال سعد : لقد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ، ومواثيقنا ، على السمع ، والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحـــد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً : إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله [2] .

---

(١) الدرر جـ٣ صـ١٦٣ وعزاه إلى ابن أبى شيبه ، وبرك الغماد موضع فى هجر يكنى به عن المكان البعيد .

(٢) بلوغ الأمانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيبانى جـ٢١ صـ٢٩ ، ٣٠ وانظر شرح النووى على صحيح مسلم جـ١٢ صـ١٢٤ .

وبعد أن اطمأن رسول الله ﷺ إلى رأى الأنصار أخذ فى التأهب للقتال الذى أصرت عليه قريش ، واستعد جميع من معه ﷺ من المهاجرين والأنصار على قدر استطاعتهم ، لهذا اللقاء الذى فرض عليهم ، وكان أملهم أن لا يقع قتال .

وقدر الله أن يتم اللقاء ، وتقع هذه الحرب لتكون فارقة بين الحق والباطل ، وقد سبق أن وعدهم سبحانه وتعالى بتحقيق أحد أمرين " الغنيمة بعد القتال ، أو الظفر بما تحمله القافلة من مال ومتاع وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (١) فلما نجت القافلة وسقط الخيار الأول لم يبق إلا القتال الذى وعدوا بالنصر فيه والغنيمة منه .

وقد رحب الجميع بالقتال ، وساروا مع رسول الله ﷺ نحو بدر ، وأخذوا يستعدون للقاء .

ومن أهم أعمال الاستعداد للقتال فى المعسكر الإسلامى ما يلى :

١) معرفة مكان القرشيين :

بدأ النبى ﷺ وأبو بكر الصديق ﷺ فى البحث عن المكان الذى نزل فيه جيش قريش وأخذا يتجولان فى منطقة " بدر " فإذا هما بشيخ من العرب ، فسأله رسول الله ﷺ عن مكان جيش قريش ، وعن مكان محمد وأصحابه (**وإنما سأله عن مكان المسلمين حتى لا يعرف من هما**) .

قال الشيخ : **لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟**

فقال له رسول الله ﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك .

قال : أو ذاك بذلك ؟

قال ﷺ : نعم

قال الشيخ : فإنه قد بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن

---

(١) سورة الأنفال آية ٧ .

كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا – للمكان الذى به جيش المدينة – وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا – للمكان الذى به جيش مكة .

ولما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟

فقال له رسول الله ﷺ : نحن من ماء ، ثم انصرفا عنه .

وبقى الشيخ يتفوه ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟ أم ماذا ؟ [1]

وبذلك علم النبى ﷺ مكان جيش قريش فنظم جيشه ، وأخذ يعده للقاء .

٢) معرفة قوة العدو :

كلف النبى ﷺ أربعة من قادة المهاجرين على رأس نفر من أصحابه ، لتحرى عدد العدو ، ومدى قوتهم ، والأربعة هم : **على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وسعيد بن العاص ، وبَسْبَسَ بن عمرو** ﷺ ، فذهبوا إلى ماء بدر ، فوجدوا سقاة قريش عنده فلما اقتربوا منهم حاولوا الفرار ، فقبض الصحابة على ثلاثة هم : أبو يسار غلام أبى العاص بن سعيد ، وأسلم غلام منبه بن الحجاج ، وأبو رافع غلام أمية بن خلف ، وجاءوا بهم إلى الرسول ﷺ وهو فى الصلاة ، فاستخبرهم القوم فقالوا : نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم قولهم ، ورجوا أن يكونوا لأبى سـفيان ، فضربوهم ضرباً موجعاً ، حتى اضطر الغلمان أن يقولا : نحن لأبى سـفيان ، فتركوهم .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة قال لهم كالعاتب : **إذا صدقوكم ضربتموهم وإذا كذبوكم تركتموهم ، صدقوا والله إنهم لقريش .**

ثم خاطبهم قائلاً : أخبرونى عن قريش .

قالوا : هم وراء الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى .

فقال لهم ﷺ : كم القوم ؟

قالوا : كثير .

قال ﷺ : ما عدتهم ؟

---

(١) سيرة النبى ﷺ جـ١ صـ٦١٦ .

قالوا : لا ندرى .

قال ﷺ : كم ينحرون كل يوم ؟

قالوا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً .

قال ﷺ : القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف .

ثم قال لهم ﷺ : فمن فيهم من أشراف قريش ؟

قالوا : عتبة ، وشيبة ، ابنا ربيعة ، وأبو البحترى بن هشام ، وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدى ، والنضر بن الحارث ، وزمعة ابن الأسود ، وأبو جهل عمرو بن هشام ، وأمية بن خلف فى رجال سماهم .

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس ، فقال : **هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**[1]

٣) النزول فى مكان حيوى :

تحرك النبى بجيشه نحو بدر ، ونزل ليلاً عند أدنى مياه فى بدر مما يلى جهة المدينة ، وهنا قال الحباب بن المنذر لرسول الله ﷺ : **يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟**

قال ﷺ : **بل هو الرأى والحرب والمكيدة .**

قال الحباب : **يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ونغور – أى نخرب ما وراءه من القلب – ثم نبنى عليه حوضاً فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .**

فقال رسول الله ﷺ : **لقد أشرت بالرأى .**

فنهض رسول الله ﷺ بالجيش ، حتى وصل عند أقرب ماء من العدو ، فنزل عليه شطر الليل، ثم صنعوا الحياض ، وغوروا ما عداها من القلب [2].

٤) تحديد المهام القتالية :

جهز الرسول ﷺ جيش المسلمين للقتال وصف الصفوف ، وعقد الألوية ، وحدد لكل لواء شعاره .

---

(١) بلوغ الأمانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيبانى جـ ٢١ صـ ٣٤ تاريخ الطبرى جـ ١ صـ ٤٣٦

(٢) سيرة النبى جـ ١ صـ ٦٢٠ .

يقول ابن سعد : وعقد رسول الله ﷺ يومئذ الألوية ، وكان لواء رسول الله ﷺ يومئذ الأعظم ، ولواء المهاجرين مع مصعب بن عمير ، ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر ولواء الأوس مع سعد بن معاذ ، وجعل رسول الله ﷺ شعار المهاجرين : **يابنى عبد الرحمن** وشعار الخزرج : **يابنى عبد الله** ، وشعار الأوس : **يابنى عبيد الله** ، ويقال: بل كان شعار المسلمين جميعاً يومئذ : **يا منصور أمت** ، ومن الممكن أن يكون هناك شعار خاص لكل فريق ، وشعار واحد لهم جميعاً .

وبنى لرسول الله ﷺ عريشاً ، وقام سعد بن معاذ على بابه يحرسه ، ونزل النبى ﷺ إلى الصفوف ، فلما رأى القرشيين يتجهون إلى وادى بدر قال : **اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها ، وفخرها ، تحاربك ، وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى اللهم احنهم الغداة " أى أمتهم "**(١) .

ولما قرب اللقاء وقف النبى ﷺ وخطب فى أصحابه وقال لهم : **بعد حمد الله والثناء عليه : أما بعد فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم عنه ، فإن الله عظيم شأنه ، يأمر بالحق ، ويحب الصدق ، ويعطى على الخير أهله ، على منازلهم عنده ، به يذكرون ، وبه يتفاضلون ، وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحق ، لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه ، وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من الغم ، وتدركون النجاة فى الآخرة ، فيكم نبى الله يحذركم ، ويأمركم ، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شئ من أمركم يمقتكم عليه ، فإن الله يقول ﴿ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ انظروا الذى أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وأعزكم به بعد ذلة ، فاستمسكوا به يرضى به ربكم عنكم ، وأبلوا ربكم فى هذه المواطن أمراً تستوجبون الذى وعدكم به من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديد ، وإنما أنا وأنتم نستعين بالله الحى القيوم ، إليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، يغفر الله لى وللمسلمين**(٢) .

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ١٧٦

(٢) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٨١

وقد بلغ عدد الذين خرجوا مع رسول الله ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً ، أغلبهم من الأنصار مع أنهم كانوا يعلمون أن الإذن بالقتال لم يكن لهم [١] .

وجملة من خرج من المهاجرين أربع وثمانون صحابياً ، ومن الأوس واحد وستون ومن الخزرج مائة وسبعون .

٥) الجيش الإسلامى فى رعاية الله :

أرض وادى بدر رملية ناعمة ، تؤذى من يسير عليها ، ويتحرك فوقها ، وقد شعر المسلمون بالتعب لطول السفر ، وعدم النوم ، وسيطر عليهم قلق الانتظار والترقب .. وهنا تحوطهم رعاية الله تعالى فيترل عليهم المطر ، وتتلبد الأرض ، ويسهل عليهم السير ويغشاهم نعاس ألقاه الله عليهم لتهدأ خواطرهم، ويذهب تعبهم وذلك من فضل الله عليهم يقول الله تعالى ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [٢] .

وقد احتلم عدد من الصحابة فلما أصبحوا وجدوا الماء فاغتسلوا وتطهروا ، وبذلك دخلوا المعركة أطهاراً ، ناجين من رجس الشيطان ، ثابتى الأقدام ، مطمئنى القلوب .

ومكث الرسول ﷺ هذه الليلة فى صلواته ، ودعائه ليصبح على يوم اللقاء والمعركة وهو **يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة** حيث كان نصر الله تعالى .

وفى صباح يوم الجمعة تراءى الجمعان فقال رسول الله ﷺ : **اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك ، وتكذب رسولك ، اللهم نصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم الغداة** [٣].

وعدل رسول الله ﷺ صفوف المسلمين ، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب ، فقد كان فى يده قدح يعدل به ، **وكان " سواد بن غزية " خارجاً عن الصف فدفع النبى ﷺ**

---

(١) صحيح البخارى كتاب المناقب باب عدة أصحاب بدر جـ٦ صـ٢٣٩

(٢) سورة الأنفال آية ١١

(٣) سيرة النبى جـ١ صـ٦٢١ ، زاد المعاد جـ٣ صـ١٧٦

القدح فى بطنه ليتساوى مع الصف ، فاشتكى سواد وجع القدح إلى رسول الله ﷺ .

فقال له ﷺ : استقد منى .

وهنا اعتنق سواد النبى ﷺ وقبل بطنه .

فقال ﷺ : ما حملك على هذا يا سواد ؟

قال سواد : يا رسول الله قد حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير(١) .

ولما أتم ﷺ تعديل الصفوف ، أصدر أوامره إلى جيشه ، بأن لا يبدأوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر الأخيرة ، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص فى أمر الحرب فقال : " **إذا أكثبوكم ، يعنى كثروكم – فارموهم ، واستبقوا نبلكم ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم** " (٢) ثم رجع إلى العريش ومعه أبو بكر ، وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش .

وبعد أن سوى ﷺ الصفوف ، وتهيأ الجميع للقتال أرسل إلى القرشيين عمر بن الخطاب ﷺ فى فرصة أخيرة يقول لهم : **ارجعوا فإنه إن يل هذا الأمر منى غيركم أحب إلى من أن تلوه منى ، وأن آليه من غيركم أحب إلى من أن آليه منكم .**

فقال حكيم بن حزام : **قد عرض نصحاً فاقبلوه ، فوالله لا تنتصرون عليه بعدما عرض من النصح ، فأبوا النصيحة ، وأصروا على القتال** (٣) .

وهكذا يبدو الخلق الإسلامى من توجيهات رسول الله ﷺ بعدم البدء فى القتال ، وعدم استعمال سلاح إلا إذا استعمله الأعداء أولاً ، فإن كان الرمى بالنبال يكون الرد بالنبال ، وإن سلوا السيوف فلا مانع من الرد بها ، وفى إرسال عمر لهم بيان تام لرغبة المسلمين فى السلام الكريم الذى لا يضيع الحقوق .

---

(١) سيرة النبى جـ١ صـ٦٢٦

(٢) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب غزوة بدر جـ٦ صـ٢٠٥ .

(٣) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد جـ٤ صـ٥٣ .

ـ ب ـ
موقف القرشيين

أرسلت قريش عيرها إلى الشام ، فى قافلة ضخمة ، بقيادة أبى سفيان بن حـــرب ، وكانت القافلة مكونة من ألف بعير ، فيها أموال عظام ، و لم يبق بمكة قرشى ، ولا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعث به فى هذه العير ، فأدركهم رجل من جـــذام بـــ"الزرقاء " [١] من ناحية " معان " [٢] – وهم منحدرون إلى مكة – فأخبر أبا سفيان أن محمداً ﷺ كان قد عرض لعيرهم فى بدأهم ، وأنه تركه مقيماً ينتظر رجعتهم، وقد حالف أهل الطريق ، ووادعهم ، فخرجوا خائفين الرصد ، وبعثوا "ضمضم بن عمرو" حين فصلوا من الشام، وأمره أبوسفيان صخر بن حرب بن أمية أن يخبر قريشاً أن محمداً قد عرض لعيرهم ، وأمره أن يجدع بعيره إذا دخل مكة ، ويحول رحله ، ويشق قميصه من قبله ودبره ، ويصيح الغوث ... الغوث ...

فلم يرع أهل مكة إلا وضمضم يقول : **يا معشر قريش ، يا آل لؤى بن غالب اللطيمة ... اللطيمة** ، قد عرض لها محمد فى أصحابه ، **الغوث ... الغوث** ، والله ما أرى أن تدركوها ، وقد جدع أذنى بعيره ، وشق قميصه ، وحول رحله ، فلم تملك قريش من أمرها شيئاً حتى نفروا على الصعب والذلول ،وتجهزوا للحرب فى ثلاثة أيام ، وأعان قويهم ضعيفهم ، وقام سهيل بن عمرو ، وزمعة بن الأسود ، وطعيمة بن عدى ، وحنظلة بن أبى سفيان ، وعمرو بن أبى سفيان ، يحضون الناس على الخروج .

فقال سهيل : يا آل غالب ، **أتاركون أنتم محمداً والصباة من أهل يثرب يأخذون عيراتكم وأموالكم ؟ من أراد مالاً فهذا مالى ، ومن أراد قوة فهذه قوتى ، فمدحه أمية بن أبى ، وأيده فى تهييج أهل مكة .**

ومشى نوفل بن معاوية الديلمى إلى أهل القوة من قريش ، فكلمهم فى بذل النفقة والحملان ، لمن خرج ، فقال عبد الله بن أبى ربيعة : هذه خمسمائة دينار فضعها حيث رأيت

---

(١) الزرقاء تأنيث الأزرق موضع جنوب الشام جهة معان .

(٢) معان بفتح الميم أو ضمها وهى مدينة فى طرف بلاد الشام الدنيا .

وأخذ من حويطب بن عبد العزى مائتى دينار ، وثلاثمائة دينـــار لتقويـــة السلاح ، والظهر .

وحمل طعيمة بن عدى على عشرين بعيراً ، وقواهم ، وخلفهم فى أهله بمعونة ومال.

ولم يتخلف أحد من قريش إلا بعث مكانه بعيثاً ، فلما مشوا إلى أبى لهب أبى أن يخرج ، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكان مديناً له بأربعة آلاف درهم .

قال أبولهب للعاص : أخرج ، ودينى لك فخرج عنه وتحمل أبو لهب ما وعد به .

واستقسم أمية بن خلف ، وعتبة ، وشيبة ، عند هبل بالآمر بالخروج والناهى عنه فخرج القدح الناهى ، وأجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل واستقسم زمعة بن الأسود فخرج الناهى أيضاً ، وكذلك خرج لعمير بن وهب ، وخرج حكيم بن حزام وهو كاره لمسيره ، بعدما خرج له القدح الناهى مثل غيره ، فلما نزلوا مر الظهران نحر أبو جهل جزرا وزعها عليهم ، فما بقى خباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمها وأخذ عداس يخذل شيبة، وعتبة ابنى ربيعة ، والعاصى بن منبه بن الحجاج، وأبا أمية بن خلف فأتاه عقبة بن أبى معيط ، وأبو جهل فعنفاه .

فقال : ابتاعوا لى أفضل بعير فى الوادى ، فابتاعوا له جملاً بثلاثمائة درهم من نعم بنى قشير ، فخرج بها مع الجيش ، أملاً فى أن يفر بها حين الهزيمة التى يتوقعها ، وأقبل القرشيون فى تجمل عظيم ، وحنق زائد ، على رسول الله ﷺ وأصحابه لما يريدون من أخذ عيرهم وتجرؤهم على قوافلهم ورجالهم (١) .

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا قبل مجئ ضمضم بثلاث ليال ، رأت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يالغدر لمصارعكم فى ثلاث ، فأرى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله قام به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ بمثلها ، ثم قام به على رأس جبل أبى قبيس فصرخ بمثلها ، ثم أخذت صخرة فرماها فتفتت ودخلت كل بيوت مكة ... وشاعت الرؤيا فى مكة ... وخاف منها الكثير غير ابى جهل فإنه سخر منها (٢) .

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٦٦

(٢) سيرة النبى جـ١ صـ٦٠٧

فكان عمرو بن العاص يحدث فيقول : **لقد رأيت كل هذا ، ولقد رأيت فى دارنا فلقة من الصخرة التى انفلقت من أبى قبيس ، فلقد كان ذلك عبرة ، ولكن الله لم يرد أن نسلم يومئذ فأخر إسلامنا إلى ما أراد .**

و لم يدخل داراً ولا بيتاً من دور بنى هاشم ولا بنى زهرة من تلك الصخرة شئ [١].

تمكن أبو سفيان من الإفلات بالقافلة ، لأنه علم بخروج المسلمين للإستيلاء عليها فلما اقترب من بدر أخذ طريق الساحل ، بعد أن علم بوصول المسلمين إليها، ذلك أنه كان يسير على الطريق الرئيسي حذراً متيقظاً ، وقد ضاعف حركاته الاستكشافية .

ولما اقترب من بدر تقدم عيره ، حتى لقى " مجدى بن عمرو " وسأله عن جيش المدينة ، فقال : ما رأيت أحداً أنكره ، إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شن لهما ، ثم انطلقا .

فبادر أبو سفيان إلى مناخهما ، فأخذ من أبعار بعيرهما ، ففته ، فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ، فرجع إلى عيره سريعاً ، وضرب وجهها محولاً اتجاهها نحو الساحل غرباً ، تاركاً الطريق الرئيسي الذى يمر ببدر على اليسار ، وبهذا نجا أبو سفيان بالقافلة من الوقوع فى قبضة جيش المدينة ، وأرسل رسالته إلى جيش مكة التى تلقاها القرشيون عند وصولهم إلى الجحفة [٢].

وخرج الجيش القرشى ، بعدته ، وعتاده ، **وقد بلغ عدده تسعمائة وخمسون رجلاً، بقيادة عدد من صناديد مكة ، وكان معهم مائتا فرس ، وعدد كبير من الإبل لركوبهم، وحمل أمتعتهم ومئونة طعامهم ، وليتاجروا فيها ، ولى أحمالها ، بعد تحقيق النصر الذى تصوروه مؤكداً .**

وقبل أن يتحرك جيش الشرك أخذ القرشيون لأنفسهم الأمان من " كنانة " بعدما قال لهم مالك بن جشعم المدلجى ، وهو من أشراف كنانة : **" أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشئ تكرهونه ".**

---

(١) المغازى جـ١ صـ٢٩

(٢) المغازى جـ١ صـ٣٠

وقد كره أهل الرأى أن يخرجوا للقتال بعد نجاة القافلة ، ومشى بعضهم لبعض فى ذلك إلا أن دعاة الحرب ، وعلى رأسهم أبو جهل (عمرو بن هشام) جعلوا يحرضون على الخروج ، ويحضون على القتال ، حتى تمكنوا من غايتهم ، و لم يخالفهم إلا بنو زهرة وبنوعدى ونفر من بنى هاشم .

أما بنو زهرة فقد قال لهم الأخنس بن شريف حليفهم : **يا بنى زهرة قد نجى الله أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وأنما نفرتم لتمنعوه وماله ، فاجعلوا بى جبنها وارجعوا فإنه لا حاجة لكم أن تخرجوا فى غير منفعة ، لا كما يقول هؤلاء فرجعوا ، وكانوا نحو المائة ، ويقال للاثمائة ، فما شهدها زهرى إلا رجلين هما عما مسلم بن شهاب الزهرى ، وقتلا كافرين ببدر .**

واغتبطت بنو زهرة بعد برأى الأخنس ، فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً .

وأما بنو عدى بن كعب فقد خرجوا مع الجيش حتى وصلوا إلى ثنية " لفت "[(١)] وهى مكان بين مكة والمدينة ، فعدلوا فى السحر إلى الساحل منصرفين إلى مكة ، فقابلهم أبوجهل فقال لهم : **يا بنى عدى كيف رجعتم ؟ لا فى العير ولا فى النفير ؟؟**

قالوا : **أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ، فرجعنا .**

وأما بنو هاشم : فإنهم لما أزمعوا التخلف قال لهم أبوجهل : **لا تفارقنا هذه العصابة منكم حتى نرجع .**

و لم يترك أبو جهل شخصاً فى مكة ، كارهاً للخروج ، أو مسلماً يعلمون إسلامه ولا أحداً من بنى هاشم إلا وأشخصوه معهم بما بذلوه من جهد وحيلة ، وكان على رأس من أخذوهم معهم : العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث ، وطالب بن أبى طالب وعقيل بن أبى طالب ، وأبو العاص بن الربيع .

وقد حاول أبو سفيان صرف قريش عن الخروج ، فأرسل إليهم رسالة حملها قيس بن أمرؤ القيس ، وجاء فيها : **إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله فارجعوا** "[(٢)] .

---

(١) لفت بفتح أوله وسكون ثانية موضع بين مكة والمدينة

(٢) المغازى جـ١ صـ٤٣

فلما علم أبو جهل بالرسالة قال : والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم ثلاثاً فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها .

وواصل جيش قريش مسيرته نحو بدر حتى وصل إلى العدوة القصوى فبات عندها.

وقد قام القرشيون بعدد من العمليات عند بدر استعداداً للقتال ، إلا أن الله تعالى أخزاهم ، وجعل تخطيطهم وسعيهم وبالاً عليهم ، **يتضح ذلك من أعمالهم التالية** :

١) اختيار المكان :

اختار القرشيون لأنفسهم مكاناً حيوياً نزلوا فيه عند العدوة القصوى فى بطن الوادى حيث قربه من الماء ، وأرضه صخرية لا تسيخ فيه الأقدام ، بينما نزل المسلمون فى أرض رملية ، بعيداً عن الماء وذلك يمنعهم من الحركة ، ويوقع بهم الظمأ .

اشتد الأمر بالمسلمين وأصابهم التعب والظمأ ، بينما كان الماء وفيراً لدى القرشيين ، والأرض تحت أقدامهم صلبة وأراد الله تعالى بقدرته وحكمته أن يبدل الأمر ويغير الحال فأنزل فى ليلة المعركة مطراً كثيراً ألحق الأذى بالكفار ، ومنعهم من التقدم ، وشق عليهم أن يتحركوا فوق الصخر المبلل بالماء أما المسلمون فقد تطهروا ، وتصلب الرمل تحت أقدامهم وسهل المشى ، وثبتت الأقدام ، وملأوا أسقيتهم وشربوا ، وسقوا إبلهم

وهكذا تحولت مزية المكان الذى اختاره القرشيون إلى سوأة ألمت بهم .

٢) محاولة تخريب معسكر المسلمين :

نظر القرشيون إلى معسكر المسلمين فوجدوا أن المسلمين قد بنو حوضاً وملأوه ماءً وخربوا ما عداه فأرسلوا نفراً منهم لهدم الحوض ، وإسالة مائه فحاول المسلمون طردهم ، ومنعهم من الاقتراب ، فقال ﷺ : **دعوهم يشربون ، فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل سوى حكيم بن حزام ، فإنه لم يقتل وأسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان إذا اجتهد فى اليمين فيما بعد يقول : لا والذى نجانى من يوم بدر وهكذا ضلت محاولة القرشيين فى تخريب حوض المسلمين .**

٣) معرفة عدد المسلمين :

اطمأنت قريش لمنزلتها فى بدر فبعثت "عمير بن وهب الجمحى" للتعرف على مدى

قوة جيش المدينة ، فدار عمير بفرسه حول المعسكر ، ثم رجع إليهم فقال : **ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظر للقوم كمين ، أو مدد ؟**

فضرب فى الوادى حتى أبعد ، فلم ير شيئاً فرجع إليهم ، فقال : **ما وجدت شيئاً ، ولكنى قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ، ولا ملجأ ، إلا سيوفهم ،والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادكم ، فما خير العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم ... وأنى لهؤلاء القوم لهم أن يفكروا ويتدبروا ، ودعاة الحرب فيهم تنذر وتحرض وتحول بينهم وبين التعقل والفهم السليم !!**

٤) مقاومة معارضى القتال :

قامت معارضة ضد أبى جهل – المصمم على المعركة – تدعو إلى العودة بالجيش إلى مكة دونما قتال، فقد مشى حكيم بن حزام فى الناس، وأتى عتبة بن ربيعة فقال: **يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر؟**

قال : وما ذاك يا حكيم ؟

قال : ترجع بالناس وتحمل دية حليفك عمرو بن الحضرمى – المقتول فى سرية النخلة .

فقال عتبة : قد فعلت ، أنت ضامن على بذلك ، إنما هو حليفى فعلى عقله ، وديته وما أصيب من ماله .

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام : فأت ابن الحنظلية (أبا جهل) فإنى لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره .

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال : **يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تقتلوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .**

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل – وهو يهيئ درعاً له – فقال له : **يا أبا الحكم إن عتبة أرسلنى بكذا وكذا .**

فقال أبو جهل : **انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال ، ولكنه رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه (وهو أبو حذيفة بن عتبة ، كان قد أسلم قديماً ، وهاجر) فتخوفكم عليه .**

ولما بلغ عتبة قول أبي جهل " انتفخ والله سحره " ، قال عتبة : سيعلم مصفر أسته من انتفخ سحره ، أنا أم هو ؟[1]

وتعجل أبو جهل الحرب مخافة أن تقوى هذه المعارضة ، فبعث على إثر هذه المحاورة إلى عامر بن الحضرمى – أخى عمرو بن الحضرمى المقتول فى سرية عبد الله بن جحش – فقال : هذا حليفك (أى عتبة) يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانشد خفرتك ، ومقتل أخيك ، فقام عامر ، فكشف عن أسته، وصرخ: **واعمراه ... واعمراه فحمى القوم** ، واشتد أمرهم وانفعلوا لثأرهم ، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر[2] .

وبذلك أفسد أبو جهل على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة ، وتغلب الطيش على الحكمة ، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى .

- ثالثا -

أحداث المعركة

التقى الجمعان وجهاً لوجه ، وفى صباح يوم **الجمعة السابع عشر من شهر رمضان فى العام الثانى من هجرة النبى ﷺ بدأ القتال وكان الجو حاراً .**

وكانت بدايته عدواناً قرشياً ضد المسلمين ، فلقد جاء الأسود بن عبد الأسد المخزومى ، ودنا من حوض ماء المسلمين ، وقال : أعاهد الله لآشربن من حوضهم ، أو

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٨٣ بتصرف

(٢) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٨٣

لأهدمنه ، أو لأموتن دونه ، فاستقبله حمزة بن عبد المطلب ، فضربه فقطع قدمه ، فزحف الأسود حتى وقع فى الحوض ، فهدمة برجله الصحيحة ، وشرب منه ، وحمـــزة يتبعه فضربه فى الحوض ، فقتله [١] .

وجاء عمير بن وهب فناوش المسلمين ، فثبتوا على حقهم ، ولم يزولوا ، وشد عليهم عامر بن الحضرمى ، ونشبت الحرب ، فكان أول من خرج من المسلمين مهجع بن عائش بن عريف مولى عمر بن الخطاب ، فقلته عامر بن الحضرمى ، **ومهجع هو أول شهيد قتل من المهاجرين** [٢] .

وكان أول قتيل قتل من الأنصار حارثة بن سراقة ، ويقال قتله حبان بن عرقة ويقال عمير بن الحمام قتله خالد بن الأعلم العقيلى [٣] .

دنا الجيشان بعضهم من بعض ، وخرج عتبة ، وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ودعوا إلى المبارزة ، فخرج إليهم ثلاثة فتيان من الأنصار وهم ، معوذ ، وعوف ابنا عفراء ، ثالثهم عبد الله بن رواحة ، فاستحيا رسول الله ﷺ ، وكره أن يكون أول قتال لقى فيه المسلمون المشركين فى الأنصار ، وأحب أن تكون الشوكة بين بنى عمه وقومه ، فأمرهم فرجعوا إلى مصافهم ، وقال لهم خيراً .

ثم نادى منادى المشركين : **يا محمد أخرج إلينا الأكفاء من قومنا** .

فقال ﷺ : **يا بنى هاشم قوموا فقاتلوا بحقكم الذى بعث نبيكم به ، إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله** .

فقام على ، وحمزة ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، فمشوا إليهم ، وكان على رضى الله عنه معلماً بصوفة بيضاء .

فقال عتبة لابنه : قم يا وليد ، فقام فقتله على .

ثم قام عتبة فقتله حمزة .

ثم قام شيبة فقام إليه عبيدة فضربه شيبة ضربة فقطع ساقة ، فكر حمزة وعلى فقتلا

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٨٣

(٢) الطبقات الكبرى جـ٢ صـ١٧ .

(٣) المصدر السابق جـ٢ صـ١٨

شيبة واحتملا عبيدة إلى الصف فترلت فيهما هذه الآية ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ [١] ﴾ [٢] .

واستفتح أبو جهل يومئذ فقال : اللهم اقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا يعلم ، فأحنه الغداة اللهم أينا كان أحب إليك ، وأرضى عندك فانصره اليوم [٣] فأنزل الله تعالى ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤]

وبذلك حكم أبو جهل على نفسه .

وأخذ أبو جهل يصيح فى قومه ويقول : **لنا العزى ولا عزى لكم** .

فنادى منادى رسول الله ﷺ : **الله مولانا ولا مولى لكم ، قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار** [٥].

وتصور إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى يذمر المشركين، ويخبرهم أنه لا غالب لهم من الناس ، فلما أبصر عدو الله الملائكة نكص على عقبية وقال ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [٦] فتشبث به الحارث بن هشام وهو يظنه سراقة ، فضرب صدر الحارث فسقط ، وانطلق إبليس لا يرى حتى وقع فى البحر [٧] .

وأقبل أبو جهل يحض المشركين على القتال بكلام كثير ، ويهون عليهم ما شاهدوه

---

(١) سورة الحج آية ١٩.

(٢) صحيح البخارى كتاب المناقب باب غزوة بدر جـ٦ صـ٢٤٣ .

(٣) زاد المعاد جـ٣ صـ١٨٤

(٤) سورة الأنفال آية ١٩.

(٥) سورة الأنفال آية ١٩.

(٦) سورة الأنفال آية ٤٨.

(٧) زاد المعاد جـ٣ صـ٨١

من صورة سراقة بن مالك وقال لهم : **يا معشر الناس لا يهمنكم خذلان سراقة فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهمنكم قتل عتبة ، وشيبة ، فإنهم قد عجلوا ، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقيد محمداً وأصحابه ونربطهم بالحبال ، ولا ألفين رجلاً منكم قتل رجلا واحداً منهم فقط ، ولكن خذوهم أخذاً حتى نعرفهم سوء صنيعهم** (١) .

اتسع نطاق المعركة ، وأجهد المسلمون أعداءهم ، والنبى فى العريش يدعو على أعداء الله ، ويحرض المسلمين على القتال ، يقول لهم ﷺ : **والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة .**

تعلق أمل المسلمين فى معونة الله وبذلوا للنصر كل طاقتهم ، وأخذوا فى الاستغاثة والدعاء حتى أتاهم المدد الإلهى العظيم ، وعنه يقول الله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (٢) .

وهكذا جاءت الملائكة فى صورة متتابعة استجابة لاستغاثة المجاهدين فى بدر .

يقول ابن إسحاق : **خفق النبى ﷺ خفقة فى العريش فقال : أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده ثنايا النقع** (٣) .

وأخذ ﷺ ينادى ربه ويقول : **اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد فى الأرض فما زال ﷺ يهتف بربه ، ماداً يديه ، مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه وأبو بكر ؓ يقول له : يا رسول الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك** (٤).

يقول ﷺ : **إن الملائكة قد سومت فسوموا ، فأعلموا بالصوف فى مغازهم وقلانسهم، وكان أربعة يعلمون فى الزحوف، فكان حمزة معلماً بريشة نعامة، وعلى معلماً بصوفة بيضاء، والزبير معلماً بعصابة صفراء ، وأبو دجانة معلماً بعصابة حمراء** (٥)

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ١٨٤

(٢) سورة الأنفال آية ٩

(٣) سيرة النبى جـ١ صـ٦٣٢

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى باب الأمداد بالملائكة فى بدر جـ١٢ صـ٨٤ ، ٨٥ .

(٥) المغازى جـ١ صـ٧٦

يقول سهيل بن عمرو : ولقد رأيت يوم بدر رجالا بيضاً ، على خيـــل بلق ، بين السماء والأرض ، معلمين ، يقتلون ، ويأسرون [١] .

ويقول أبو أسيد الساعدى ، (بعد أن ذهب بصره) : لو كنت معكم الآن ببدر (ومعى بصرى) لأريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة لا أشك فيه ولا أتمارى [٢]

وكان ابن عباس يحدث أن أبا رهم الغفارى قال : أقبلت أنا وابن عم لى يوم بدر حتى أصعدنا فى جبل (ونحن مشركان) ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة، فننتهب مع من ينتهب (فبينا نحن فى الجبل) إذ رأيت سحابة دنت منا ، فسمعت فيها حمحمة الخيل وقعقعة الحديد ، وسمعت قائلاً يقول : أقدم حيزوم، فأما ابن عمى فانكشف قناع قلبه فمات مكانه ، وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت ، وأتبعت البصر حيث تذهب السحابة ، فجاءت إلى النبى ﷺ وأصحابه ، ثم رجعت وليس فيها شئ مما كنت أسمع [٣]

يقول رسول الله ﷺ : ما رؤى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ، ولا أحقر ، ولا أدحر ولا أغيظ منه فى يوم عرفه وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام ، إلا ما رؤى يوم بدر .

قيل : وما رأى يوم بدر ؟

قال ﷺ : أما إنه قد رأى جبريل يزع الملائكة .

وقال ﷺ يومئذ : هذا جبريل يسوق الريح كأنه دحية الكلبى ، إنى نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور [٤] .

وقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ : رأيت يوم بدر رجلين ، عن يمين النبى ﷺ أحدهما وعن يساره أحدهما ، يقاتلان أشد القتال ، ثم يليهما ثالث من خلفه ، ثم رابعهما رابع أمامه [٥] .

---

(١) زاد المعاد جـ٥ صـ١٨٣

(٢) سيرة النبى جـ١ صـ٦٣٣

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى — باب الإمداد بالملائكة يوم بدر جـ١٢ صـ٨٧ .

(٤) المغازى جـ١ صـ٧٧ ، ٧٨

(٥) المصدر السابق جـ١ صـ٧٨

وعن صهيب ﷺ : ما أدرى كم يد مقطوع ، أو ضربة جائفة لم يدم كلمها يوم بدر قد رأيتها [١] .

وعن أبى بردة بن نيار ﷺ قال : جئت يوم بدر بثلاثة رؤوس فوضعتهن بين يدى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أما رأسان فقتلتهما ، وأما الثالث فإنى رأيت رجلاً أبيض ، طويلاً ، ضربه ، فتدهده أمامه فأخذت رأسه .

فقال ﷺ : ذاك فلان من الملائكة .

وعن ابن عباس : كان الملك يتصور فى صورة من يعرفون من الناس تثبيتاً للمسلمين فيقول : إنى قد دنوت منهم فسمعتهم يقولون: لو حملوا علينا ما ثبتنا، ليسوا بشئ ، وذلك قول الله تعالى ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [٢] .

وعن حكيم بن حزام : لقد رأيتنا يوم بدر ، وقد وقع بوادى خَلْص بِجَادٌ من السماء قد سد الأفق ، فإذا الوادى يسيل نملاً، فوقع فى نفسى أن هذا شئ من السماء أيد الله به محمداً ﷺ فما كانت إلا الهزيمة لحقت بجيش الكفر ، وما كان النمل إلا الملائكة [٣] .

وعن ابن عباس ﷺ يقول : إن رسول الله ﷺ قال يوم بدر : هذا جبريل آخذ بعنان فرسه وعليه أداة الحرب [٤] .

وعن ابن عباس ﷺ قال : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه فإذا به يسمع ضربة السوط ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، فينظر إلى المشرك أمامه مستلقياً وقد خطم أنفه، وشق وجهه ، من ضربة السوط ويخضر ذلك الموضع أجمع ، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال ﷺ : صدقت ، ذلك مدد من السماء الثالثة [٥] .

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٨٨

(٢) سورة الأنفال آية ١٢

(٣) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٨٩ وخَلْص واد بين مكة والمدينة ، والبِجَاد الكساء .

(٤) المغازى جـ١ صـ٨٠

(٥) صحيح مسلم بشرح النووى باب الإمداد بالملائكة جـ١٢ صـ٨٦ ، ٨٧

وروى البيهقى عن السائب بن أبى حبيش ﷺ وكان مع المشركين فى بدر أنه كان يقول : والله ما أسرنى أحد من الناس .

فيقال له : فمن ؟

فيقول : لما انهزمت قريش انهزمت معها ، فيدركنى رجل أبيض طويل على فرس أبلق بين السماء والأرض ، فأوثقنى رباطاً [(١)] .

وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدنى مربوطاً ، فنادى فى العسكر : من أسر هذا ؟ فليس أحد يزعم أنه أسرنى ، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أبى حبيش من أسرك ؟

فقلت : لا أعرفه ، وكرهت أن أخبره بالذى رأيت .

وهنا قال ﷺ : أسرك ملك من الملائكة [(٢)] .

وروى ابن سعد وأبو الشيخ عن عطية بن قيس قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من قتال بدر جاء جبريل على فرس أنثى أحمر ، عليه درعه ، ومعه رمحه ، فقال : يا محمد ، إن الله بعثنى إليك وأمرنى ألا أفارقك حتى ترضى ، هل رضيت ؟

قال ﷺ : نعم ، رضيت فانصرف [(٣)] .

وروى أبو يعلى عن جابر قال : كنا نصلى مع رسـول الله ﷺ فى غزوة بدر إذ تبسم فى صلاته، فلما قضى صلاته قلنا يا رسول الله: رأيناك تبسمت، قال مر بى ميكائيل وعلى جناحه أثر الغبار، وهو راجع من طلب القوم، فضحك إلى فتبسمت إليه [(٤)] .

وروى البخارى عن رفاعة بن رافع الزرقى قال : جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟

قلنا : من أفضل المسلمين ، أو كلمة نحوها .

قال جبريل : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة [(٥)].

وروى ابن سعد عن عكرمة قال : كنا يومئذ يندر رأس الرجل لا يدرى من

---

(١) مسند أحمد جـ٢ صـ١٩٤ تحقيق أحمد شاكر .

(٢) المغازى جـ١ صـ٧٩

(٣) الطبقات الكبرى جـ٢ صـ٢٧

(٤) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٦ صـ١١١

(٥) صحيح البخارى كتاب المغازى باب شهود الملائكة بدراً جـ٦ صـ٢٥٦

ضربه ، وتندر يد الرجل لا يدرى من ضربه [١] .

وهى رسول الله ﷺ يومئذ عن قتل بنى هاشم ، فقال : من لقى منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله [٢] .

ونهى عن قتل العباس بن عبد المطلب .

ونادى مناديه : من أسر أم حكيم بنت حزام فليخل سبيلها فإن رسول الله قد أمنها وكان قد أسرها رجل من الأنصار ، وكتفها بذؤابتها فلما سمع المنادى خلى سبيلها .

ونهى ﷺ أيضاً عن قتل أبي البخترى فقتله أبو داود المازنى ، ويقال قتله المجذربن زياد

ونهى عن قتل الحارث بن عامر بن نوفل فقتله خبيب بن يساف ولا يعرفه.

ونهى عن قتل زمعة بن الأسود فقتله ثابت بن الجذع ولا يعرفه [٣] .

ولما التحم القتال كان رسول الله ﷺ رافعاً يديه يسأل الله النصر ، وما وعده ، وأمر ﷺ فأخذ من الحصا كفاً فرماهم بها وقال : " شاهت الوجوه ، اللهم أرعب قلوبهم ، وزلزل أقدامهم " [٤] فانهزم أعداء الله لا يلوون على شئ ، وألقوا دروعهم ، والمسلمون يقتلون ، ويأسرون ، وما بقى منهم أحد إلا امتلأ وجهه وعيناه ، ما يدرى أين يتوجه والملائكة يقتلونهم وذلك قوله تعالى ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٥]

وجمح بعقبة بن أبى معيط فرسه ، فأخذه عبد الله بن سلمه العجلانى ، فأمر النبى ﷺ عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح فضرب عنقه صبراً ، وصدق الله رسوله ﷺ فى قوله لعقبة : إن وجدتك خارج جبال مكة قتلتك صبراً .

وبينا عبد الرحمن بن عوف ﷺ يجمع أدرعاً ، بعد أن ولى الناس ، إذا هو بأمية

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٢ صـ٢٠٦

(٢) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٨٨

(٣) وسبب قتل من نهى النبى ﷺ عن قتلهم عدم وصول النهى إلى الصحابى القاتل ، أو أنه لم يعرف الشخص الذى نهى النبى ﷺ (عن قتله إمتاع الأسماع جـ١ صـ٨٩)

(٤) زاد المعاد جـ٣ صـ١٨٥

(٥) سورة الأنفال آية ١٧

بن خلف ، وابنه على ، فأخذ يسوقهما أمامه فأبصره بلال فنادى : **يا معشر الأنصار ، أمية بن خلف رأس الكفر ، لا نجوت إن نجا ! فأقبلوا حتى طرح أمية على ظهره ، وقطع الحباب بن المنذر أرنبة أنفه ، وضربه خبيب بن يساف حتى قتله** [١] .

وقتل عمار بن ياسر ﷺ على بن أمية بن خلف .

وقتل الزبير بن العوام ﷺ عبيدة بن سعيد بن العاص .

وقتل أبو دجانة ﷺ عاصم بن أبى عوف بن ضبيرة السهمى .

وقتل على ﷺ عبد الله بن المنذر بن أبى رفاعة، وحرملة بن عمرو وهو يراهما أبا جهل .

وقتل حمزة ﷺ أبا قيس بن الفاكه بن المغيرة ، وهو يراه أبا جهل .

وكان أبو جهل فى مثل الحرجة (هى الشجر الملتف) والمشركون يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه ، فصمد معاذ بن الجموح إلى أبى جهل فضربه ضربة ، وطرح رجله من الساق ، فأقبل عليه **عكرمة بن أبى جهل** فضربه على عاتقة فطرح يده من العاتق ، وبقيت الجلدة ، فوضع معاذ عليها رجله ، وتمطى بها عليها حتى قطعها ، وضربه مع معاذ ، ومعوذ وعوف ابنا العفراء فنفل رسول الله ﷺ معاذا سيف أبى جهل ودرعه وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم والأموال ، ويأخذون الأسرى ، فرحين بنصر الله تعالى .

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ ١٨٥

■ رابعاً -
نتائج المعركة

لم تغرب شمس يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من العام الثانى للهجرة إلا وقد تم النصر لجند الله فى بدر ، وتأكد المسلمون المجاهدون من نصر الله تعالى ، بعدما رأوا الملائكة تنزل عليهم فى صورة بشرية ، معونة ، وتثبيتاً ، وأسفرت المعركة عن هزيمة ساحقة لكفار مكة ، وانتصار كبير للمسلمين ، وكان لهذا النصر صدى واسع فى الجزيرة العربية كلها .

وقد لقى **سبعون من صناديد مكة مصرعهم فى بدر ، وعلى رأسهم أبو جهل ، وأمية بن خلف ، وحنظلة بن أبي سفيان ، وعبيدة ، والعاص ابنا سعيد بن العاص ، وعقبةبن أبي معيط ... وغيرهم من القادة والزعماء كما أسر منهم سبعون آخرون**[١] .

وفر الباقون إلى مكة تاركين وراءهم الأموال وكثيراً من الإبل ، والخيل التى كانت فى صحبتهم .

وقد حفر المسلمون قليباً ، **دفنوا فيه قتلى المشركين** ، بعدما أمرهم ﷺ بإلقائهم فيه **دفعة واحدة** .

ذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا مر بجيفة إنسان أمر بدفنه ، لا يسأل عنه ، مؤمناً كان أو كافراً ، احتراماً لإنسانيته ، وإلقاء القتلى فى القليب من هذا الباب ، إلا أنه ﷺ كره أن يشق على أصحابه بكثرة جيف الكفار أن يأمر بدفنهم ، واحداً ، واحداً ، فرأى أن دحرجتهم إلى القليب جملة أيسر عليهم وعلى المسلمين فأمر به ، وبخاصة أن نتن الجيف قد انتشرت لبقائها فى العراء مدة ليست قليلة .

وقد أمر النبى ﷺ بإلقاء القتلى جميعاً فى القليب بأجسادهم ، إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ فى درعه فملأها ، فذهبوا ليحركوه ، فتزايل جسده وتقطع ، فأهالوا عليه التراب حيث هو، ووقف الرسول ﷺ على القليب ثم قال: **يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإنى**

---

(١) أنظر صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب فى غزوة بدر جـ٦ صـ٢٥٠ .

قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ؟

بئس القوم كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس .

قال المسلمون : يا رسول الله تنادى قوماً قد ماتوا ؟

قال ﷺ : قد علموا أن ما وعدهم ربهم حق [١] .

وقال السدى عن مقسم عن ابن عباس : وقف رسول الله ﷺ على قتلى بدر فقال: جزاكم الله عني من عصابة شراً فقد خونتموني أميناً ، وكذبتموني صادقاً ، ثم التفت إلى أبي جهل فقال : هذا أعتى على الله من فرعون ، إن فرعون لما أيقن بالهلكة وحد الله ، وإن هذا لما أيقن بالهلكة دعا باللات والعزى .

وأما الأسرى والجرحى فقد اهتم بهم رسول الله ﷺ وأخذهم إلى المدينة ، وفرق الأسرى على أصحابه لإعالتهم ورعايتهم وقال لهم : استوصوا بالأسارى خيراً ، وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى .

يقول أخو مصعب : وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر ، فكانوا إذا قدموا غذاءهم ، وعشاءهم خصوني بالخبز ، وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا ، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها ، فأستحي فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسها .

وقد استشهد من المسلمين أربعة عشر شهيداً وهم ﷺ :

١) عبيدة بن الحارث ﷺ .

٢) عمير بن أبي وقاص ﷺ .

٣) عمير بن الحمام من بني سلمة ﷺ .

٤) سعد بن خيثمة من بني عمرو بن عوف من الأوس ﷺ .

٥) ذو الشمالين بن عبد عمرو بن نضلة الخزاعي حليف بني زهرة ﷺ .

٦) مبشر بن عبد المنذر من بني عمرو بن عوف ﷺ .

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب المناقب باب غزوة بدر جـ٦ صـ٢٤٩ .

٧) عاقل بن البكير الليثى ﷺ .

٨) مهجع مولى عمر حليف بنى عدى ﷺ .

٩) صفوان بن بيضاء الفهرى ﷺ .

١٠) بيضاء الفهرى ﷺ .

١١) يزيد بن الحارث من بنى الحارث بن الخزرج ﷺ .

١٢) رافع بن المعلى ﷺ .

١٣) حارثة بن سراقى وهو ابن عمة أنس بن مالك خرج نظاراً ، وهو غلام ، فأصابة سهم فقتله ﷺ .

١٤) عوف ، ومعوذ ابنا العفراء وكان سنهما أربعة عشرة سنة (١) رضى الله عنهما

وهؤلاء الشهداء منهم ستة من المهاجرين ، وستة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

وقد أحاط الله شهداء المسلمين بالخير، وميزهم بالفضل ، وأحاطهم بالنعيم .

يروى البخارى عن رفاعة ابن رافع الزرقى ﷺ ، وكان من أهل بدر قال : **جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟**

قال ﷺ : من أفضل المسلمين ، أو كلمة نحوها .

قال جبريل : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة (٢) .

وروى أبو داود وابن ماجه والطبرانى بسند جيد ، عن أبى هريرة ﷺ قال : **قال رسول الله ﷺ : اطلع الله تعالى على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم** (٣)

وروى مسلم والترمذى عن جابر ﷺ **أن عبداً لحاطب جاء إلى رسول الله ﷺ يشكو حاطباً إليه فقال : يا رسول الله ﷺ ليدخلن حاطب النار ، فقال كذبت لا يدخلها ، فإنه قد شهد بدراً والحديبية** (٤).

وفى الصحيح عن على ﷺ فى قصة كتاب حاطب : **وأن عمر بن الخطاب قال : يا رسول**

---

(١) سيرة النبى لابن هشام جـ١ صـ٧٠٦ ، ٧٠٨

(٢) صحيح البخارى . كتاب المناقب باب شهود الملائكة بدراً جـ٦ صـ٢٥٦

(٣) صحيح البخارى باب شهود الملائكة بدراً جـ٦ صـ٢٥٧

(٤) صحيح مسلم باب فضائل حاطب جـ١٩ صـ٥٦ .

الله أضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ أليس من أهل بدر ؟ ولعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، أو قال فقد وجبت لكم الجنة (١) .

وروى البخارى عن أنس ﷺ قال : **أصيب حارثة بن زيد ببدر فجاءت أمه إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة منى فإن يك فى الجنة أصبر وأحتسب ، وإن تكن الأخرى فترى ما أصنع ؟**

فقال ﷺ : ويحك أو هبلت أو جنة واحدة هى ؟ إنها جنان كثيرة ، وإنه فى الفردوس (٢) .

وإنما استحق أهل بدر كل هذا الفضل ، لأنهم قدموا أنفسهم لنصر دين الله تعالى ، فجعل الله ذنوبهم بعد ذلك تقع مغفورة ، كما أنهم لصفاء أرواحهم ، وصدق إيمانهم لا يقع الذنب منهم إلا خطأ ، وبصورة نادرة .

والمغفرة المذكورة تتعلق بأحكام الآخرة ، وبحقوق الله تعالى ، أما أحكام الدنيا وحقوق الناس فلابد من استيفائها ، وأدائها لأصحابها بعد أحدثت .

ومن مواقف المسلمين فى بدر ما حدث من عمير بن الحمام الأنصارى فلقد روى الإمام أحمد فى مسنده أنه ﷺ قال لأصحابه يوم بدر : **قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض .**

فقال عمير بن الحمام الأنصارى : **يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟**

فقال ﷺ : نعم .

فقال عمير : بخ بخ .

فقال ﷺ : ما يحملك على قولك بخ بخ ؟

قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها .

قال ﷺ : فإنك من أهلها .

فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منهن ثم قال لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة ، ثم رمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل .

---

(١) صحيح البخارى كتاب المناقب باب غزوة بدر جـ٦ صـ٢٤٩ .

(٢) صحيح البخارى كتاب المناقب باب غزوة بدر جـ٦ صـ٢٤٨ .

ـ خامساً ـ
قريش والهزيمة

تقهقرت فلول جيش مكة ، وولوا الأدبار فى الظلام وأسرعوا فارين إلى مكة ، وشربوا من الكأس التى أذاقوه لغيرهم كثيراً .

وقد أخذ المتخلفون فى مكة يتحسسون أخبار المعركة ، وكان أول خبر أتاهم من "الحيسمان بن إياس الخزاعى " الذى وصل إلى مكة .

فقالوا له : ما وراءك ؟

فقال لهم : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأمية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، ونبيه ، ومنبه ابنا الحجاج ، وأبو البحترى بن هشام .

فلما جعل يعدد أشراف قريش ، قال صفوان بن أمية وهو قاعد فى الحجر ، والله إن يعقل هذا لقد طار قلبه ، فسلوه عنى .

فقالوا : ما فعل صفوان بن أمية ؟

قال : ها هو ذاك قاعد فى الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

يروى ابن إسحاق عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ قال : كنت غلاماً للعباس بن عبدالمطلب وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وكان العباس يهاب قومه ، ويكره خلافهم ، فكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مال كثير ، متفرق فى قومه ، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر ، فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش ، (كبته الله تعالى وأخزاه) ووجدنا فى أنفسنا قوة ، وعزة ، وكنت أعمل الأقداح فى حجرة زمزم ، فوالله إنى جالس فيها أنحت أقداحى ، وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر ، إذا أقبل أبو لهب يجر رجلية بشر ، حتى جلس على طنب الحجرة ، فطان ظهره إلى ظهرى ، فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم .

فقال أبو لهب : هلم إلى يا ابن أخى فعندك لعمرى الخبر .

فجلس إليه والناس قيام عليه فقال : يا ابن أخى أخبرنى كيف كان أمر الناس ، فقال : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا ، يقتلوننا كيف شاءوا ،

ويأسروننا كيف شاءوا ، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تليق شيئاً ، ولا يقوم لها شئ .

قال أبو رافع فرفعت طنب الحجرة بيدى ، ثم قلت : تلك والله الملائكة .

فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة، وثاورته فاحتملنى، وضرب بى الأرض ثم برك على يضربنى، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة، فأخذته فضربته به ضربة فلقت فى رأسه شجة منكرة، وقالت، استضعفته أن غاب عنه سيده، **فقام مولياً ذليلاً فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله تعالى بالعدسة فقتلته**[١]

وكانت نهاية أبى لهب على نحو يعادل جريمته لأن العدسة قرحة كانت العرب تتشاءم بها ويرون أنها تعدى أشد العدوى ، فلما أصابت أبا لهب تباعد عنه بنوه ، وبقى بعد موته ثلاثة أيام ، لا يقترب أحد من جثته ، ولا يحاول أحد دفنه ، فلما خاف بنوه السبة فى تركهم له دفعوه بعصا فى حفرته ، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى تغطت جثته [٢] .

يروى بن إسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : ناحت قريش على قتلاها بمكة شهراً ، وجز النساء شعورهن ، وما أن يؤتى براحلة الرجل منهم ، أو بفرسه ، إلا وتوقف بين أظهر النساء ، ويسترنها بالستور حولها ، وينحن حولها ، ويخرجن إلى الأزقة صائحين ثم قالوا : لا تفعلوا ذلك فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا فيكم ، ولا تبعثوا فى أسراكم حتى تستأنوا بهم ، حتى لا يتعالى عليكم محمد وأصحابه فى الفداء .

وشعر القرشيون بعد هزيمتهم فى بدر بهوان شديد عملوا على التخلص منه ، فلما عادوا إلى مكة وجدوا أن أبا سفيان أوقف عير القافلة والأموال التى عاد بها من الشام فى دار الندوة ، ولم يحركها ، ولم يوزعها على أصحابها ، فاتفق كبراؤهم على أن يجهزوا بها جيشاً كثيفاً لقتال محمد ﷺ والأخذ بثأر هزيمتهم فى بدر ، فباعوا الإبل التى بلغت ألف بعير ، وضموها إلى الأموال التى بلغت خمسين ألف دينار ، بعد أن أخذوا أرباحهم ، وقدرها خمسون ألفاً أخرى ، وكان الدينار يربح مثله [٣] .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ٢ صـ٤٦٢ والعدسة قرحة قاتلة مثل الطاعون .

(٢) المرجع السابق جـ٢ صـ٤٦٣

(٣) إمتاع الأسماع جـ١ صـ١١٣

كما قاموا بتشكيل مجموعة من رجالهم ، لتدور على العرب فى البوادى ، تؤلبهم على رسول الله ﷺ وتحضهم على قتال المسلمين فى المدينة ، وقد تكونت هذه المجموعة من **عمرو بن العاص ، وهبيرة بن أبى وهب ، وابن الزبعرى ، وأبى غرة عمرو بن عبدالله الجمحى** ، وقد استمع العرب لهؤلاء ونفروا مع قريش فى غزو أحد (١) .

وبذلك أشعلت قريش نار الحرب فى الجزيرة كلها ، وأخذت تعد عدتها لحرب شاملة وكان من الضرورى أن يكلف المسلمون بقتال من يعتدى عليهم ، وهنا كان فرض الجهاد مقيداً بقتال المعتدى ، وهو المرحلة الثانية فى تشريع الجهاد .

ـ سادساً ـ

المسلمون فى إطار انتصار بدر

تحقق النصر للملسمين فى بدر ، وقد استشهد منهم أربعة عشر شهيداً ، وغنموا ما كان مع القرشيين من عتاد ، وأموال ، وقد أقام النبى ﷺ والمسلمون بعد المعركة فى بدر ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع أخذوا فى الرجوع إلى المدينة بعد أن انتهوا من دفن الشهداء ووضع قتلى المشركين فى القليب .

وقد عاش المسلمون بعد النصر الحقائق التالية :-

-١-

الاختلاف فى توزيع الغنائم

عندما أتم النبى ﷺ تسوية الصفوف قال للمجاهدين : من قتل قتيلاً فله سلبه ، من أسر أسيراً فهو له ، فلما انهزم المشركون تفرق المجاهدون إلى أعمال متعددة ... فمنهم من وقف عند خيمة النبى ﷺ يحرسه ، ومنهم من أغار على الأعداء ليهزمهم ، ويقتلهم ، ومنهم من اتجه للأسر والغنيمة .

وقد غنم المسلمون مائة وخمسين بعيراً ، وعشرة أفراس ، وأداما كثيرا حمله القرشيون معهم للتجارة بعد النصر الذى أملوا فيه .

وقد اختلف المسلمون فى الغنائم، لأن الذين كانوا حول النبى ﷺ لم يأخذوا شيئاً، **وقالوا : ما منعنا أن نطلب العدو زهادة فى الأجر ، ولا جبنا عن لقاء العدو ، ولكـــن**

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ٦١ ، ٦٢

خفنا على رسول الله ﷺ من أن يميل عليه خيل المشركين ، ورجالهم ، وقد أقام عند رسول الله ﷺ وجوه المهاجرين والأنصار و لم يغنم أحد منهم شيئاً ... ومتى أعطى الشباب لا يبقى للشيوخ شئ ، وبخاصة أن الغنيمة قليلة ، فنزل قول الله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وهكذا لم يترك الله أمر الغنائم لعقولهم واجتهادهم ، وإنما جعلها لحكم الله ورسوله جاء فى تفسير ابن كثير عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ، ويقتلون ، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ، ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض .

قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب .

وقال الذين خرجوا فى طلب العدو: لستم بأحق به منا نحن منعنا عنه العدو، وهزمناهم.

وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به (٢)

فأمر رسول الله ﷺ برد الغنائم حتى يقضى الله فيها ، فرد أصحابه ﷺ الغنائم التى جمعوها من أعدائهم ، أما ما أخذ بغير قتال فقسمه ﷺ بينهم .

وجمعت الغنائم ، واستعمل عليها رسول الله ﷺ عبد الله بن كعب بن عمرو المازنى وسار بها حتى وصل إلى " سير " وهناك قسمها على المجاهدين ، وقيل بل استعمل عليها خباب بن الأرت ، وكان فيها إبل ، ومتاع ، وأنطاع ، وثياب (٣) .

وأنزل الله تعالى قوله فى شأن الغنيمة ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ

(١) سورة الأنفال الآية ١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٢٨٣ .

(٣) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٩٣ .

أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

وقد جعل النبى ﷺ الغنيمة أسهماً ، بعد أن أخذ الخمس منها ، فأعطى للراجل سهماً ، وللفارس سهمين ، وضرب لثمانية من الصحابة ﷺ ، تخلفوا عن الغزوة لعذر ألم بهم وهم :

من المهاجرين :

١) عثمان بن عفان ، خلفه رسول الله ﷺ على ابنته رقية ، ليعودها فى مرضها ، وقد ماتت يوم قدوم زيد بن حارثة بنبأ النصر ، وعند عودة النبى ﷺ إلى المدينة كانوا عائدين من دفنها فى البقيع .

٢) طلحة بن عبيد الله ﷺ .

٣) وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ﷺ ، بعثه رسول الله ﷺ مع طلحه بن عبيد الله يتحسسان العير تلقاء "الحوراء" فلم يلحقا بالجيش .

ومن الأنصار :

٤) أبو لبابة بن عبد الله ﷺ ، خلفه على المدينة .

٥) عاصم بن عدى ﷺ ، خلفه رسول الله ﷺ على قباء ، وأهل العالية .

٦) الحارث بن حاطب ﷺ ، أمره ﷺ بأمر فى بنى عمرو بن عوف .

٧) خوات بن جبير ﷺ ، كسر بالروحاء .

٨) الحارث بن الصمة ﷺ ، كسر بالروحاء[2] .

وضرب النبى ﷺ كذلك لمن استشهد ببدر ، وسلم غنائمهم لأبنائهم ، واصطفى النبى ﷺ لنفسه من الغنيمة جمل أبى جهل ، فجعل يغزو ﷺ عليه حتى ساقه هدياً فى الحديبية

-٢-

الاختلاف فى مصير الأسرى

لما وصل رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة اهتم بأمر الأسرى ، فبدأ يأخذ رأى أصحابه فى كيفية التعامل معهم، يروى أبو الحسن النيسابورى بسنده إلى عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ لما جئ إليه بالأسرى يوم بدر ، جمع أصحابه وقال لهم : **ما تقولون فى**

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤١ .

(٢) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٩٤ .

هؤلاء الأسرى ؟

فقال أبو بكر ﷺ : يا رسول الله قومك وأصلك ، استبقهم ، وأستأن بهم ، لعل الله عز وجل يتوب عليهم .

وقال عمر : كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم .

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله أنظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ، ثم أضرم عليهم ناراً .

فقال العباس : قطعت رحمك .

فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبهم ، ثم دخل فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر .

وقال ناس : يأخذ بقول عمر .

وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله .

ثم خرج عليهم ﷺ فقال : إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله عز وجل ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١) .

وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٢) .

ومثلك يا عمر كمثل موسى قال ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾(٣) .

ومثلك يا عمر كمثل نوح قال ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾(٤)

ثم قال رسول الله ﷺ : أنتم اليوم عالة ... ! أنتم اليوم عالة ...! فلا ينقلبن منهم

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ١١٨ .

(٣) سورة يونس الآية ٨٨ .

(٤) سورة نوح الآية ٢٦ .

أحد إلا بفداء أو ضرب عنق ؟

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ برأى أبي بكر ، وأخذ منهم الفداء ، فلما كان الغد جاء عمر إلى رسول الله ﷺ وأبي بكر ، فوجدهما فى حزن وألم ، لما نزل فى شأن الأسرى من عتاب لرسول الله ﷺ .

يقول عمر : فغدوت إلى النبى ﷺ وأبي بكر ، وهما يبكيان ، فقلت : يا رسول الله أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما .

فقال رسول الله ﷺ " **أبكى للذى عرض على أصحابك : من أخذهم الفداء ، فقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة** [1] شجرة قريبة ، وعندها أنزل الله قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [2] .

والكتاب الذى سبق من الله هو قوله تعالى ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [3] .

ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسارى ، ولذلك لم يعذبوا ، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يثخنوا فى الأرض ، وكان على المجاهدين أن يجهزوا على أعدائهم فى ميدان المعركة ، جزاءً وفاقاً لما جاءوا من أجله ..

وكان على ﷺ يقول : أتى جبريل إلى النبى ﷺ بعد انتهاء القتال يوم بدر فخيره فى الأسرى، بين أن تضرب أعناقهم، أو يؤخذ منهم الفداء، أو يستشهد منهم فى قابل عدتهم واستقر الرأى على رأى الصديق مع العتاب، والعفو، فأخذ ﷺ منهم الفداء ، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم ، إلى ثلاثة آلاف درهم ، إلى ألف درهم ، وكان بعض الأسرى يكتبون فجعل رسول الله ﷺ فداء من يكتب تعليم عشرة من غلمان المدينة القراءة

---

(١) أسباب النزول للنيسابورى صـ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) سورة الأنفال الآيتان ٦٧ ، ٦٨ .

(٣) سورة محمد الآية ٤ .

والكتابة، فإذا حذقوها فهو فداء لهم ، وممن تعلم فى بدر زيد بن حارثة ﷺ.

ومنَّ رسول ﷺ على عدد من الأسارى ، فأطلقهم بغير فداء منهم : المطلب بن حنطب ، وصيفى بن أبى رفاعة ، وأبو عزة الجمحى .

ومنَّ على ختنه أبى العاص بشرط أن يخلى سبيل زينب ، وكانت قد بعثت فى فدائه بقلادة لها كانت عند خديجة رضى الله عنها ، أهدتها لها حين أدخلتها به على أبى العاص فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، واستأذن أصحابه فى إطلاق أبى العاص ففعلوا ، واشترط رسول الله ﷺ على أبى العاص أن يخلى سبيل زينب ، فخلاها ، فهاجرت إلى أبيها فى المدينة بعد ذلك ، وقد بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثه ، ورجلاً من الأنصار وقال لهما : كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها ، فخرجا حتى رجعا بها .

وكان فى الأسرى سهيل بن عمرو ، وكان خطيباً مصقعاً ، قال عمر : يا رسول الله ، انزع ثنيتى سهيل بن عمرو يدلع لسانه ، فلا يقوم خطيباً عليك فى موطن أبداً ، بيد أن رسول الله ﷺ رفض هذا الطلب ، احترازاً عن المثلة ، وعن بطش الله يوم القيامة .

ومن أحداث الأسرى ما روى أنه بعد أسر عمرو بن أبى سفيان بن حرب ، قيل لأبى سفيان : ألا تفدى عمروا ؟

فقال أبو سفيان : حنظلة قتل ، وأفتدى عمروا ! فأصاب بمالى وولدى ؟ لا أفعل ولكن أنتظر حتى أصيب منهم رجلاً فأفديه ، فأصاب سعد بن النعمان بن زيد بن أكال أحد بنى عمرو بن عوف ، جاء معتمراً مع المنذر بن عمرو ، فلما قضيا عمرتهما طلبهما أبو سفيان ، فأدرك سعداً فأسره ، وفاته المنذر ، ففى ذلك يقول ضرار بن الخطاب :

تداركت سعداً عنوة فأسرته ... وكان شفاء لو تداركت منذراً

وهنا تمكن أبو سفيان من بغيته وتبادل مع المسلمين فى الأسر ، فأفدى ابنه عمرو بسعد بن النعمان .

-٣-

الابتهاج بنصر الله تعالى

أشاع اليهود والمنافقون فى المدينة أكاذيب وتحدثوا عن هزيمة المسلمين ، ولذلك عجل رسول الله ﷺ برد هذا الافتراء ، وإخبار أهل المدينة بانتصار المسلمين فى بدر ،

فأرسل رسولين هما عبد الله بن رواحه بشيراً لأهل العالية ، وزيد بن حارثة بشيراً لأهل السافلة فنادى عبد الله : **يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ ، وقتل المشركين وأسرهم ، ثم أتبع دور الأنصار فبشرهم .**

وقدم زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ﷺ القصواء يبشر أهل المدينة ، فلم يصدق المنافقون ذلك ، وشنعوا ، وقدم شقران بالأسرى وهم سبعون رجلاً ، وتلقى الناس رسول الله ﷺ بالروحاء يهنئونه بفتح الله ، فقدم المدينة ﷺ مؤيداً ، مظفراً ، منصوراً قد أعلى الله كلمته ، ومكن له وأعز نصره ، ودخلها من **ثنية الوداع فى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من رمضان** ، فتلقاه الولائد بالدفوف وهن يقلن :

طلع البـــــدر علينا　　　من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا　　　ما دعــا لله داع

فأذل الله بوقعة بدر رقاب المشركين والمنافقين واليهود ، ولم يبق بالمدينة يهودى ولا منافق إلا وشعر بالخزى ، وأسلم حينئذ بشر كثير من أهل المدينة ، ومن ثم دخل عبدالله بن أبى سلول وجماعته من المنافقين فى دين الإسلام تقية .

وقد عم السرور ، والفرح قلوب المسلمين جميعاً ، وشكروا الله تعالى على ما أنعم عليهم من نصر ، حتى أن النجاشى ملك الحبشة لما جاءه خبر انتصار رسول الله ﷺ وهو فى الحبشة أرسل إلى جعفر وأصحابه فدخلوا عليه وهو فى بيت قديم عليه ثياب رثه ، جالس على التراب فأخذ يبشرهم بالنصر ، ويهنئهم بالفوز والفلاح .

يقول جعفر ﷺ : فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال ، فلما أن رأى ما فى وجوهنا قال : إنى أبشركم بما يسركم ، إنه جاءنى من نحو أرضكم عين لى فأخبرنى أن الله قد نصر نبيه ﷺ ، وأهلك عدوه ، وأسر فلان ، وفلان ، وفلان ، وقتل فلان ، وفلان ، التقوا بواد يقال له " بدر " كثير الأراك كأنى أنظر إليه ، كنت أرعى لسيدى رجل من بنى ضمره إبله .

فقال له جعفر: ما بالك جالس على التراب ليس تحتك بساط، وعليك هذه الأخلاط؟

قال له النجاشى : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى أن حقا على عباد الله أن يحدثوا

لله تواضعاً عندما يحدث لهم من نعمة ، فلما أحدث الله لى نصر نبيه ﷺ أحدثت له هذا التواضع [١] .

-٤-
تشريع زكاة وعيد الفطر

كان من تمام نصر الله للمسلمين فى شهر رمضان أن فرض الله عليهم زكاة الفطر يتعاطونها فيما بينهم جميعاً ، غنيهم وفقيرهم ، من يملك ، ومن لا يملك فقام ﷺ فيهم قبل نهاية رمضان بيومين ، وعلمهم زكاة الفطر ، وعرفهم بتشريع صلاة العيد فى نهاية رمضان وخرج ﷺ إلى المصلى صباح يوم عيد الفطر فصلى بالناس أول صلاة فى يوم العيد .

فلما كان شهر ذى الحجة من نفس العام ضحى ﷺ وصلى صلاة عيد الأضحى وأخذ ﷺ يضحى كل عام بكبشين حتى لقى ربه .

وهكذا عاش المسلمون فى المدينة فرحة النصر ، وفرحة الصوم ، وفرحة العيد فى ترابط وائتلاف وفى تميز ورفعة .

- سابعاً -
بدر فى رحاب القرآن الكريم

وجه القرآن الكريم المسلمين نحو الجهاد ، وأذن لهم فيه قبل بدر ، وصاحبهم فى مسيرتهم تعليماً ، وتوجيهاً قبل المعركة ، وأثناءها ، وبعد الانتهاء منها ، ليستمروا فى معية الله تعالى عباداً طائعين مستسلمين وقد أنزل الله سورة الأنفال تتحدث عن غزوة بدر ، وتشمل أحداثها ، ولذلك سماها ابن عباس بسورة " بدر " [٢] وقال عنها تلك سورة بدر وقد كان حديث السورة شاملاً لكل أحداث بدر ، أذكر منها ما يلى :-

١) حديث ما قبل المعركة :

أخذ القرآن الكريم يوجه المسلمين إلى أهمية الاستعداد للمعركة وتهيئة أنفسهم بالعتاد والتدريب فقال تعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا

---

(١) البداية والنهاية جـ٣ صـ٣٠٧ .

(٢) فتح القدير جـ٢ صـ٢٨٢ .

﴿ تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (١) لأن الإعداد الجاد يحقق العزة ، ويرهب الأعداء ، وأمر المسلمين أن يجنحوا للسلم إذا رغبه أعداء الله فقال تعالى ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٢)

ووجه القرآن الكريم المسلمين إلى جوانب الضعف فيهم ، وبين لهم عوامل التغلب عليها فقال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٣) .

فهم ضعفاء ، يحتاجون إلى تقوية أنفسهم ، وإيمانهم ، وذلك يكون بالصبر ، والتوكل على الله والثقة فى نصره سبحانه وتعالى .

ووجه القرآن الكريم المسلمين إلى أهمية معرفة ما فى ذواتهم من نقص ليعملوا على إتمامه ، وإكماله ، وذلك فى قوله سبحانه ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (٤) .

وحذر القرآن الكريم المسلمين من الفرار أمام الأعداء ، فقال تعالى ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٦١ .

(٣) سورة الأنفال الآيتان ٦٥ ، ٦٦ .

(٤) سورة الأنفال الآيات من ٦ إلى ٨ .

تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾[(١)] .

٢) حديث القرآن الكريم عن المعركة :

بين الله نصره للمسلمين بمختلف صوره ، فلقد أرسل لهم الملائكة يقول الله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[(٢)] .

وأنزل المطر، ورزقهم النعاس ليستريحوا ، ويطمئنوا ، يقول الله تعالى ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[(٣)] .

وكان تأييد الله للمسلمين فى القتال ، يقول الله تعالى ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[(٤)] .

وملأ الله عز وجل قلوب المؤمنين بالثقة ، يقول الله تعالى ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ وَإِذْ

---

(١) سورة الأنفال الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٢) سورة الأنفال الآيتان ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة الأنفال الآية ١١ .

(٤) سورة الأنفال الآيتان ١٧ ، ١٨ .

يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (١) .

٣) حديث ما بعد المعركة :

عاش القرآن الكريم مع المسلمين فى قضية الغنيمة والأسرى ووضح حكم الله فيها فقال تعالى تعليقاً على اختلافهم فى توزيع الغنائم ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى فى شأن الأسرى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣)

٤) توجيهات قرآنية تربوية :

تحدثت سورة الأنفال عن غزوة بدر ، وعن مواقف كل أطرافها ، وقدمت وصفا متكاملاً لأهم أحداثها .

ويلاحظ أن الأحداث لم تذكر فى السورة متتابعة وفق ترتيب وقوعها ، لأن القرآن الكريم لا يقصد إيراد قصة ، أو مجرد سرد الأخبار ... وإنما يقصد التربية والتوجيه ، وإبراز القضايا التى يحتاجها المسلمون ، وهذا القصد لا يحتاج إلى ترتيب الأحداث وإنما يعتمد على التركيز على الحدث ، وإبراز مناط التأثير فيه .

لقد بدأت السورة تعرض مواقف المجاهدين من الأنفال ، ومجيئهم لرسول الله ﷺ ليحكم بينهم بعدما اختلفوا وهو موقف حدث بعد انتهاء المعركة ، فكان أن نزلت

(١) سورة الأنفال الآيات من ٤٢ حتى ٤٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية ١ .

(٣) سورة الأنفال الآيات من ٦٧ حتى ٧٠ .

الآيات بأن الحكم فى الغنائم لله ورسوله ، وعلى المسلمين أن يحافظوا على تقوى الله تعالى ، ويصلحوا ذات بينهم ، ويستمروا على طاعة الله ورسوله فيما يقضيان به ، ويحافظوا على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ويقبلوا على آيات الله تذكيراً وعبرة .

وهكذا لم تكتف السورة بعرض أحداث بدر ، وإنما جعلت أحداثها منطلقاً للتذكير ، والتوجيه ، والتربية ، وأن الأمر كله لله يقول الله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (١) .

وجهت السورة المسلمين إلى أن الأمر كله لله ، يقع بقدرته حسب ما يريد سبحانه وتعالى ، وعرفهم أنهم خرجوا للعير ، خائفين من الحرب لكن الله أراد لهم غير ذلك لتحقيق غايات عليا ، يقول الله تعالى ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (٢) .

وعرفت السورة المسلمين بضرورة الدعاء والاستغاثة لتحقيق النصر الذى هو بيد الله تعالى يقول الله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ

---

(١) سورة الأنفال الآيات من ١ إلى ٤ .

(٢) سورة الأنفال الآيات من ٥ إلى ٨ .

ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (١) .

وتتابع التوجيهات الإلهية لعباده المؤمنين ليكونوا مجتمع الصفوة والنصر ، فيقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٢) .

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٣) .

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (٤) .

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٥)

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٦) .

(١) سورة الأنفال الآيات من ٩ إلى ١٢ .

(٢) سورة الأنفال الآيتان ١٥ ، ١٦ .

(٣) سورة الأنفال الآيتان ٢٠ ، ٢١ .

(٤) سورة الأنفال الآيتان ٢٤ ، ٢٥.

(٥) سورة الأنفال الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

(٦) سورة الأنفال الآيتان ٤٥ ، ٤٦ .

- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢).

-﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾(٣).

وعاشوا الحياة الإسلامية متميزة ، صورة ، ومعنى ، بعيدة عن أى لبس ، وبخاصة بعد أن شرع الله الآذان شعيرة خاصة بالمسلمين ، وأصبحت الكعبة قبلتهم ، وهم يتصلون بالله وبذلك التميز سقطت دعاوى أهل الكتاب .

لقد كان رسول الله ﷺ يتجه فى صلاته إلى بيت المقدس بعد الهجرة ، واستمر على ذلك ستة عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً، وكان يحب أن يتجه إلى الكعبة، بيت الله تعالى يقول الله تعـالى ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

فاستجاب الله لرسوله ﷺ ، وحقق له ما كان يتمنى ويرضى قبيل بدر .

وفى البخارى أنه ﷺ صلى على بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ، وأن أول صلاة صلاها متجهاً إلى الكعبة فى مكة كانت

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٧٢ .

(٣) سورة الأنفال الآيتان ٧٤ ، ٧٥ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٤٤ .

صلاة العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد[1] وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة ، فداروا كماهم قبل البيت وقد تساءل بعض الصحابة عن الذين ماتوا قبل تحويل القبلة ، وكان صلاتهم إلى بيت المقدس فأنزل الله قوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] .

وبتحويل القبلة ، وتوجه المسلمين إلى بيت الله بمكة ، تمت المفاصلة التامة بين المسلمين واليهود ، وتميز المسلمون بقبلتهم ، فأخذ اليهود فى إثارة الشبه والحقد على رسول الله ﷺ ودينه يصور القرآن الكريم ذلك فيقول سبحانه وتعالى ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [3] .

وبدأ المسلمون يتجهون فى صلواتهم إلى مكة المكرمة ، فتحركت شجوهم وتيقنوا بمدى ارتباط الإسلام بمكة ، وبالمكيين .

يقول ﷺ : إن اليهود لا يحسدوننا على شئ كما يحسدوننا على يوم الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين .

وجاء انتصار بدر لتبدأ مرحلة جديدة ، اتضحت خلالها خفايا القلوب ، وتوجيهات سائر الطوائف ، وشعر الجميع أن المواجهة الحاسمة قريبة ، بعد أن اتضحت الحقائق ، وبانت السبل ، وأخذ كل طريقه نحو ما يأمله ، ويرجوه .

وهكذا جاء انتصار بدر قمة النصر ، وقمة الوضوح ، وقمة المفاصلة بين الحق والباطل ، ولذلك سماه الله تعالى يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان .

---

(١) والمسجد الذى تحول الصحابة فيه بعدما أخبرهم أخوهم هو مسجد القبلتين وهو مسجد مشهور بالمدينة المنورة ، وقد اشتهر بهذا الاسم لأن المسلمين صلوا صلاة العصر متجهين إلى قبلتين .

(٢) سورة البقرة الآية ١٤٣ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٤٢

المبحث الخامس
أحداث ما بين بدر وأحد

انتصر المسلمون فى " بدر " انتصاراً باهراً ، تحدث به أبناء الجزيرة العربية جميعاً ، مما جعلهم يخططون لمستقبلهم إزاء هذه القوة الإسلامية التى ظهرت فى المدينة المنورة .

وأهم هذه القوى التى تأثرت بانتصار بدر ، وسارعت إلى اتخاذ مواقف تتناسب مع هذا الوضع الجديد هى :

١) القرشيون في مكة :

وهم الذين تحملوا مذلة الهزيمة ، وفقدوا قادهم ، وأئمتهم فى بدر ، وأجبروا على فداء أسراهم ، وقد أخذوا يستعدون للثأر بعد " بدر " مباشرة وحاولوا إيذاء المسلمين ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ فاحتفظوا بمال القافلة التى كانت سبباً فى حرب "بدر" ليشتروا به السلاح ، ويعدوا العدة ، وكونوا جماعات منهم تقوم بتحريض المشركين على ضرورة الثأر لهزيمتهم، وتطهير الطريق التجارى إلى الشام، حتى لا تنقطع تجارهم التى هى حياهم .

٢) اليهود في المدينة :

وهم القبائل اليهودية التى كانت تسكن المدينة ، وحولها لأهم رأوا أن انتصار المسلمين فى بدر جعلهم يزدادون قوة ، ويؤكدون سيطرهم على سائر شئون المدينة ، وازدياد نفوذهم الاقتصادى ، وبخاصة بعدما شاهدوا المسلمين ينشطون فى السعى والعمل ويعيشون كافة حاجات الحياة ، ويحرمون الربا ، ويمنعون الاستغلال ، ويحققون التعاون التام بينهم .. الأمر الذى أضعف قوهم ،وأفقدهم صور الكيد التى كانوا يعيشون بها بين المسلمين وغيرهم ، وشعروا أن الأحداث تتحرك فى غير ما يأملون .

٣) المنافقون :

وهؤلاء أفراد من الأوس والخزرج ومن غيرهم كانوا يسكنون المدينة ، و لم يدخلوا فى الإسلام ، وبقوا على الشرك ، إلا أن هؤلاء الأفراد بعد انتصار المسلمين فى "بدر " دخلوا فى الإسلام تقية ، وهم يبطنون العداوة ، ويتعاونون مع أعداء الإسلام سراً ليتحقق ما يتمنون .

٤) أعراب البوادي:

وهم الأعراب الذين يسكنون حول المدينة، وعلى الطرق التجارية بين مكة والمدينة وهؤلاء الأعراب كانوا يعيشون على السلب والنهب، والقنص والإغارة، وفرض الإتاوات على المارة، فلما ظهرت قوة المسلمين فى بدر رأوا دولة قوية سوف تتحكم فى كل الخارجين على النظام والعدل، ولذلك وجدوا أنفسهم فى مواجهة عدائية مع المسلمين فى المدينة المنورة.

وأخذت هذه القوى على اختلاف مقاصدها تعمل لإضعاف المسلمين، وإسقاط ما تحقق لهم بنصر بدر، بكل ما أمكنهم من مؤامرات خفية ، وتحرشات ظاهرة ، وعقد تحالفات من أجل تكوين قوة واحدة فى مواجهة المسلمين فى المدينة .

واستمر عون الله تعالى للحق وأهله ، فأمد المسلمين بالرشاد والهدى ،وأضل أعداءهم ، وأخزاهم فى كل ما خططوا له ، وعملوا من أجله وفى هذا المبحث سأورد (بإذن الله تعالى) أهم الأحداث التى وقعت بين غزوتى بدر ، وأحد وكيف تعامل معها رسول الله ﷺ وذلك فيما يلى :-

ـ أولاً ـ
محاولة قتل النبى ﷺ

عمرو بن وهب الجمحى من تجار مكة ، وقادتها المعدودين ، وكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ قبل الهجرة ، اشترك مع ابنه " وهب " مع المشركين فى بدر ، ووقع ابنه "وهب " فى الأسر فشعر بالذل لأسر ابنه ، وقتل أصحابه .

جلس عمير مع صاحبه صفوان بن أمية فى حجر إسماعيل ، وتذاكرا بدراً ، فقال صفوان : والله ما فى العيش بعدهم خير .

فرد عليه عمير : صدقت ، أما والله لولا دين على ليس له قضاء عندى ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبلهم علة ، ابنى أسير عندهم .

فقال له صفوان : على دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما عاشوا ، لا يسعنى شئ ، وأعجز عنهم .

فقال له عمير : فاكتم عنى شأنى وشأنك .

قال صفوان : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له ، وسم ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة ، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب ﷺ — وهو فى نفر من المسلمين يتحدثون بما أكرمهم الله به يوم بدر — فقال عمر : هذا عدو الله عمير ما جاء إلا لشر .

ثم دخل على النبى ﷺ فقال : يا نبى الله هذا عدو الله عمير قد جاء متوحشاً سيفه

قال ﷺ : فأدخله على .

فلما أقبل عمير لببه عمر بحمالة سيفه ، وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به ، فلما رآه رسول الله ﷺ – وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه .

قال ﷺ أرسله يا عمر أدن يا عمير ، فدنا وقال : أنعموا صباحاً .

فقال النبى ﷺ قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير بالسلام، تحية أهل الجنة

ثم قال ﷺ : ما جاء بك يا عمير ؟

قال عمير : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه .

قال ﷺ : فما بال السيف فى عنقك ؟

قال عمير : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟

قال ﷺ : أصدقنى ما الذى جئت له ؟

قال عمير : ما جئت إلا لذلك .

قال ﷺ : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت لولا دين على ، وعيال عندى ، لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل صفوان بدينك ، وعيالك على أن تقتلنى والله حائل بينك وبين ذلك .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وساقنى هذا المساق

ثم تشهد شهادة الحق .

فقال رسول الله ﷺ : فقهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره ، ففعلوا ثم قال عمير : يا رسول الله : إنى كنت جاهدا فى إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله ، وإنى أحب أن تأذن لى فاقدم مكة ، فأدعوهم إلى الله ، وإلى الإسلام ، لعل الله أن يهديهم ! وإلا آذيتهم فى دينهم ، كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم .

فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة ، وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب يقول لقريش : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان صفوان يسأل عنه الركبان ، حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه ، فحلف ألا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه بنفع أبداً فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعوا إلى الإسلام ، ويؤذى من خالفه أذى شديداً ، فأسلم على يديه أناس كثير ، وسبحان مقلب القلوب ، ومغير الأحوال ، وبيده الأمر كله [١] .

ـ ثانياً ـ
غزوة بنى سليم [٢]

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من (بنى سليم ، وغطفان) يوجد عند ماء يقال له "قرقرة الكدر " [٣] ويقع فى وسط الطريق بين مكة والشام جهة نجد ، وأن هذا الجمع يريد مهاجمة المسلمين فى المدينة ، فبادر رسول الله ﷺ بالخروج إليهم قبل أن يستفحل أمرهم.

وكان خروج رسول ﷺ إلى بنى سليم فى مائتين من أصحابه فى أوائل شوال عقب " بدر " بسبعة أيام فقط وحمل اللواء على بن أبى طالب ﷺ [٤] .

وقد فر بنو سليم عندما علموا بخروج المسلمين إليهم ، وتركوا خلفهم خمسمائة بعير ، غنمها المسلمون ، وقسمها رسول الله ﷺ على المشتركين وفق حكم الله تعالى .

---

(١) البداية والنهاية جـ٣ صـ٣٠٩

(٢) سليم بضم السين وفتح اللام مصغرة سُلَم

(٣) قرقرة الكدر قرقرة بفتح القاف وسكون الراء الأرض الملساء ، والكدر بضم الكاف وسكون الدال لون .

(٤) وقيل أن غزوة بنى سليم كانت فى منتصف المحرم من العام الثالث للهجرة والرأى المذكور أعلاه أولى لتسلسل الغزوات بعده .

ووجد الرسول ﷺ فى الديار غلاماً اسمه " يسار " فسأله ﷺ عن الناس فقال يسار: **لا علم لى بهم ، فأخذه النبى ﷺ وأعتقه حينما رآه يصلى .**

وقد خلف الرسول ﷺ على المدينة سِباَع بن عُرفطُة الغفارى ، وقيل عبد الله بن أم مكتوم ، وأقام الرسول ﷺ فى ديار بنى سليم ثلاثة أيام ، ثم عاد إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمسة عشر يوماً [١] .

ـ ثالثاً ـ
غزوة السويق

امتلأ قلب أبى سفيان حقداً ، وغيظاً بسبب هزيمة قريش فى بدر ، ونذر أن لا يمس رأسة من جنابة حتى يغزو محمداً ، ويثأر لهزيمة المكيين ، فجمع رجالاً ، وخرج فى مائتين راكب وفاء لنذره ، وشفاء لمرض نفسه ، وسار برجاله حتى نزل عند قناة قرب جبل "نيب" قريباً من المدينة ، وعسكر فى هذا المكان حتى جاء الليل ، ودخل المدينة مستخفياً تحت جنح الظلام ، فأتى حيى بن أخطب ، فاستفتح بابه ، فأبى .

ثم أتى إلى سلام بن مشكم " سيد بنى النضير " وصاحب كنزهم أنذاك ، فاستأذن عليه فأذن له ، وقراه وسقاه الخمر ، وبطن له من خبر الناس .

ثم خرج أبو سفيان فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث مفرزة منهم ، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها " العريض"[٢] فقطعوا أشجاراً ، وأحرقوا أسواراً من النخل ، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له معه فى حرث لهما فقتلوهما ، وفروا راجعين إلى مكة .

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فجمع أصحابه ، وسارع لمطاردة أبى سفيان ومن معه ولكن رجال أبى سفيان فروا سراعاً ، وطرحوا سويقاً كثيراً من أزوادهم وتموينالهم على الطريق يتخففون به منه وتمكنوا من الإفلات ، وبلغ رسول الله ﷺ إلى " قرقرة الكدر " ثم انصرف راجعاً ، وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم ، وسموا هذا الخروج بغزوة السويق نسبة إلى الغنائم التى طرحها أبو سفيان ورجاله ، وقد وقعت الغزوة فى ذى الحجة

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٢ صـ٢١

(٢) المغازى جـ١ صـ١٩٦

بعد بدر بشهرين، واستعمل الرسول ﷺ خلالها على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر ﷺ [١].

ـ رابعاً ـ
غزوة غطفان

كانت غطفان تسكن ناحية نجد ، حول ماء يعرف بـــ" ذى أمر " (بفتح الهمزة والميم) وقد غزاها النبى ﷺ من شهر المحرم فى العام الثالث الهجرى ، وسبب هذه الغزوة أن بطنين من غطفان ، وهما بطنا ثعلبة ومحارب ، تجمعوا يريدون الإغارة على أطراف المدينة بقيادة "دعثور بن الحارث المحاربى " الذى تميز فى قومه بالشجاعة، وحب الإغارة علم النبى ﷺ ما يعد له " دعثور " بواسطة عيونه ، فندب المسلمين ، وخرج معهم إلى بطنى ثعلبة ومحارب فى أربعمائة وخمسين مقاتلاً ، ما بين راكب وراجل ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان ﷺ .

فوجئ دعثور وجنوده بمقدم رسول الله ﷺ ففروا فى رؤوس الجبـــال ، ووصـــل المسلمون إلى مكان الماء ، وعسكروا به ، وأخذوا يبحثون عن دعثور ورجاله ، فأصابوا رجلاً منهم يقال له " جبار بن ثعلبة " فجاءوا به إلى رسول الله ﷺ ، فلمـــا دعـــاه إلى الإسلام أسلم فضمه الرسول ﷺ إلى بلال .. وجعله دليلاً للمسلمين فى أرض غطفان .

ويقال أن السماء أمطرت فابتل ثوب رسول الله ﷺ فنزل ﷺ تحت شـــجرة هناك ونشر ثيابه لتجف ، واضطجع بمرأى من المشركين ، واشـــتغل المســـلمون فى شئونهم ، وأعمالهم ، فبعث المشركون " دعثور بن الحارث " ومعه سيف متقلد بـــه ، فبادر "دعثور" وأقبل نحو رسول الله ﷺ بسلاحه ، حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف مشهوراً ، فقال : يامحمد ، من يمنعك منى اليوم ؟

فقال رسول الله ﷺ : الله .

ودفع جبريل ﷺ فى صدر " دعثور " فوقع السيف من يده .

فأخذ رسول الله ﷺ السيف ، وقال له : يا دعثور من يمنعك منى ؟

فقال دعثور : لا أحد ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ،

---

(١) المغازى جـــ١ صــــ١٨١

والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً ، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه .

ثم أتى " دعثور " قومه فقالوا : مالك ؟ ويلك !!

فقال لهم: نظرت إلى رجل طويل، فدفع فى صدرى، فوقعت لظهرى، فعرفت أنه ملك، وشهدت بأن محمداً رسول الله، والله لا أكثر عليه جمعاً، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام وأنزل الله تعالى قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾(١)

وقد تكررت هذه الحادثة فى غزوة "ذات الرقاع" وكان الذى حمل السيف فيها "غورى بن الحارث " وقد بقى على شركه ، وعاهد النبى ﷺ على عدم مقاتلته أبداً .

وقد أقام الرسول ﷺ وجيش المسلمين فى غطفان قريباً من شهر ليعلم الناس قوة المسلمين ، وشجاعتهم ، وحسن أخلاقهم ، وبخاصة أنهم انسحبوا من غطفان بلا عدوان على إنسان ، أو مال ، أو بغير ذلك من صور الظلم والعدوان (٢) .

ـ خامساً ـ
غزوة بحران (٣)

وتسمى غزوة بنى سليم نسبة إلى جماعة من بنى سليم كانت تقطن ناحية الفرع (بضم الفاء والراء) وهى قرية قرب المدينة فى طريق الذاهب إلى مكة على بعد عشرين ميلاً تقريباً وسببها أن رسول الله ﷺ بلغه أن بها جمعاً يريد مهاجمة المدينة ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى شهر ربيع الأول من العام الثالث الهجرى ، فى ثلاثمائة مقاتل ... فلما وصل إلى مكانهم وجدهم قد تفرقوا فى واديهم فأقام بينهم عشرة أيام ، عاد بعدها إلى المدينة وكان قد ولى على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ﷺ (٤) .

---

(١) سورة المائدة الآية ١١

(٢) المغازى جـ١ صـ١٩٥

(٣)بحران بباء مضمومة ، وقيل بفتحها ، وسكون الحاء .

(٤) المغازى جـ١ صـ ١٩٦

ـ سادساً ـ
سرية زيد بن حارثة

توقفت تجارة قريش إلى الشـام بعد " بدر " وتملك القرشيون الخوف على تجارتهم فلما جاء الصيف ، وحان موعد خروج القوافل اختارت قريش "صفوان بن أمية " لقيادة قافلتها إلى الشام فقال لهم : **إن محمداً وصحبه عوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه ؟ ... وهم لا يبرحون الساحل ؟** ... وأهل الساحل قد وادعهم ، ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسـلك ؟ ...... وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف ، وإلى اليمن فى الشتاء .

فقال الأسود بن عبد المطلب لصفوان : تنكب الطريق على الساحل ، وخذ طريق العراق ، وهى طريق طويلة جداً تخترق نجداً إلى الشام ، وتمر فى شرقى المدينة على بعد كبير منها ، وكانت قريش تجهل هذه الطرق كل الجهل ، فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فرات بن حيان – من بنى بكر بن وائل – دليلاً له ، يكون رائده فى هذه الرحلة .

وخرجت عير قريش يقودها صفوان بن أمية ، آخذة الطريق الجديد ، إلا أن أنباء هذه القافلة ، وخطة سيرها طارت إلى المدينة ، وذلك أن سليط بن النعمان ، وكان قد أسلم ، اجتمع فى مجلس شرب ، وذلك قبل تحريم الخمر ، مع نعيم بن مسعود الأشجعى و لم يكن أسلم إذ ذاك ، فلما أخذت الخمر من نعيم تحدث بالتفصيل عن قضية العير ، وخطة سيرها ، فأسرع سليط إلى النبى ﷺ وروى له القصة .

جهز رسول الله ﷺ لوقته حملة قوامها مائة راكب بقيادة زيد بن حارثة الكلبى فأسرع زيد حتى دهم القافلة بغتة ، وهى تنزل على ماء فى أرض نجد يقال له قردة – بالفتح فالسكون – فاستولى عليها كلها ، و لم يكن مع صفوان ورجاله من يحرس القافلة فلاذ بالفرار دون أى مقاومة .

وأسر المسلمون دليل القافلة ، فرات بن حيان ورجلين غيره ، وحملوا غنيمة كبيرة من الأوانى ، والفضة ، كانت تحملها القافلة ، قدرت قيمتها بمائة ألف ، فقسم رسول الله ﷺ

هذه الغنيمة على أفراد السرية بعد أخذ الخمس ، ثم جاء فرات بن حيان إلى رسول الله ﷺ وأسلم على يديه .

وقد مثلت هذه الغزوة مأساة شديدة ، ونكبة كبيرة أصابت القرشيين بعد بدر ، اشتد لها قلقهم وزادهم هماً وحزناً ، ولم يبق أمامهم إلا طريقين ، إما **أن تمتنع عن غطرستها** وكبريائها ، وتأخذ طريق الموادعة والمصالحة مع المسلمين ، **أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها** مجدها التليد ، وعزها القديم ، وتقضى على قوات المسلمين ، بحيث لا يبقى لهم سيطرة على هذا ولا ذاك ، وقد اختارت مكة الطريق الثانية ، فأخذت تعد العدة ، وتضاعف الأعمال التى بدأتها بعد بدر وازداد إصرارها على المطالبة بالثأر ، والتهيؤ للقاء المسلمين فى تعبئة كاملة ، وتصميم على الغزو ، فكان ذلك وما سبق من أحداث مقدمات واضحة لمعركة أحد .

وقد كان لسرية زيد أثرها الكبير على القرشيين، فقد فقدوا كثيراً من أموالهم ، وشعروا بأن المسلمين قد أحكموا حصارهم، ولذلك نشطوا فى إعداد العدة لمهاجمة المسلمين ، وحصارهم فى المدينة ، وتلقينهم درساً يعوضهم عن كل ما فقدوه فى " بدر " وفيما بعدها

وكانت سرية زيد بن حارثة ﷺ فى جمادى الآخرة من العام الثالث الهجرى [١] .

ـ سابعاً ـ
غزوة بنى قينقاع

بنو قينقاع بطن من يهود المدينة ، وهم قوم عبد الله بن سلام ، عاهدهم رسول الله ﷺ بعد تمام الهجرة مع سائر اليهود ، وحدد لهم الحقوق التى لهم ، والواجبات التى يلتزمون بها ، فى إطار واضح أساسه" **لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين** " .

لكن اليهود وبخاصة يهود بنى قينقاع هالهم توحد الأوس والخزرج فى إطار الإسلام فازدادوا حقداً وحاولوا الإيقاع بينهم ليعودوا لجاهليتهم ، وتئول السيادة لهم مرة أخرى ، يروى ابن إسحاق أن شاس بن قيس ، وكان شيخاً (يهودياً) عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، مر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم ، وجماعتهم ،

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ٥٠ ، ٥١

وصلاح ذات بينهم بالإسلام وعلى الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم حياة إذا اجتمع ملؤهم واتحدوا ، وتماسكوا ، فأمر فتى شاباً يهودياً كان معه، وقال له: إعمد إليهم ، فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث ، وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار .

ففعل الغلام ، وتأثر القوم ، وعاودتهم ذكريات الماضى عند ذلك ، وتنازعوا ، وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة ، وغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة ، السلاح ، السلاح ، فخرجوا إليها (وكادت أن تنشب الحرب) .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين ، حتى جاءهم فقال : **يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية ،وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟ .**

فعرف القوم أنها نزغة شيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ،وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس [١] .

وكان بنو قينقاع من أشد اليهود عداوة لله ورسوله ، وكانوا يسكنون وسط المدينة ويشتغلون بصناعة الذهب والحديد ، فلما انتصر المسلمون فى " بدر " بدأوا يظهرون حقدهم ، ويثيرون المشاحنات مع المسلمين، **فذهب إليهم ﷺ فى سوقهم وقال لهم:يا معشر يهود ، أسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون أنى رسول الله ﷺ ، يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة فأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم ، وعهد الله إليكم قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً .**

قالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش ، كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله تعالى

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ٤٨ ، ٤٩

قوله ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (١)

و لم ينته بنو قينقاع بعد هذا اللقاء ، فأخذوا يتحرشون بالمسلمين فى جرأة ، واستهتار ، حتى أهم أخذوا فى التعدى على نساء المسلمين .

يروى ابن هشام أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ، فباعته فى سوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ ، فجعلوا يريدوها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها-وهى غافلة — فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا بها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله — وكان يهودياً — فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

وأنزل الله سبحانه وتعالى قوله ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (٢) .

فقال ﷺ : إنما اخاف من بنى قينقاع ، فسار إليهم رسول الله ﷺ لهذه الآية ، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب ، وكان اللواء أبيض اللون .

قال ابن سعد : و لم تكن الرايات يومئذ قد حدثت ، ولذلك لم تكن هناك راية للمسلمين ، واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا لبابه بن عبد المنذر فتحصنوا فى حصنهم فحاصرهم أشد الحصار ، فأقاموا على ذلك خمس عشرة ليلة ، حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب ، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، على أن لرسول الله ﷺ أموالهم ، وأن لهم النساء والذرية ، فأمر بهم فكتفوا ، واستعمل على كتافهم المنذر بن قدامة السلمى ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان لهم من حلفه مثل الذى لهم من عبد الله بن أبى سلول ، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله تعالى ورسوله من حلفهم ، وقال : يا رسول الله :

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٢ ، ١٣ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٥٨ .

أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الرجال .

فقام إلى رسول الله ﷺ عبد الله بن أبى سلول حين أمكنه الله منهم ، فقال : **يا محمد أحسن فى موالى ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ .**

فقال ابن أبى : **يا محمد أحسن فى موالى ، فأعرض عنه ، فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ﷺ من خلفه ، وكان يقال لها ذات الفضول .**

فقال له رسول الله ﷺ : ويحك أرسلنى ،وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللا ثم قال : ويحك أرسلنى .

قال : **والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى : أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع ، قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة ، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر .**

فقال ﷺ : خلوهم لعنهم الله ، ولعنه معهم ، وتركهم من القتل ، وأمر بهم أن يجلوا عن المدينة ، فخرجوا بعد ثلاث ، وولى إخراجهم منها عبادة بن الصامت ، وقيل : محمد بن مسلمة ، فلحقوا " بأذرعات " (١) فما كان أقل بقاءهم بها (٢) .

ووجد المسلمون فى منازلهم سلاحاً كثيراً ، وآلة للصياغة ، فأخذ رسول الله ﷺ صفيه والخمس ، وقسم أربعة أخماسه على أصحابه ، فكان أول خمس وزع بعد " بدر " وكان الذى قبض أموالهم محمد بن مسلمة ، وأنزل الله تعالى فى شأن عبد الله بن أبى ، وفى شأن عبادة بن الصامت قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ (٣) أى عبد الله بن أبى وقوله: إنى أخشى الدوائر ، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ أما المؤمنون الصادقون فهم أولياء المؤمنين ، يفضلون ولاية الله ورسوله على أى ولاية سواها ، وفى ذلك

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٢ صـ٢٩

(٢) المغازى جـ١ صـ١٧٩

(٣) سورة المائدة الآيتان ٥١ ، ٥٢

نزل قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾ [١] وذلك لتولى عبادة بن الصامت الله تعالى ، ورسوله والذين آمنوا وتبرؤه من بنى قينقاع ، وحلفهم ، وولايتهم يقول تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾

ـ ثامناً ـ
قتل النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط

رجع المسلمون بالأسرى حتى وصلوا إلى " الصفراء "[٢] قرب المدينة ، فاستراحوا بها ، فأمر رسول الله ﷺ بقتل النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط من بين الأسرى ، جزاء وفاقاً لما ارتكبوه من جنايات ضد رسول الله ﷺ والمسلمين والإسلام ، يقول ابن إسحاق: حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث فقتله على ابن أبى طالب ﷺ ثم خرج حتى كان بعرق الظبية فأمر ﷺ بقتل عقبة بن أبى معيط .فقال عقبة حين أمر رسول الله ﷺ بقتله : **فمن للصبية يا محمد؟**

قال ﷺ : **" النار " وكان الذى قتله عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح .**

ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت : **قال يا معشر قريش علام أقتل من بين من ههنا ؟**

فرد عليه عاصم وقال : **على عداوتك الله ورسوله .**

وقال للرسول ﷺ : **أتقتلنى يا محمد من بين قريش ؟**

قال ﷺ : **نعم ! أتدرون ما صنع هذا بى ؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقى ، وغمزها ، فما رفعها حتى ظننت أن عينى ستندران ، وجاء مرة أخرى بسلا شاة على رأسى وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى**[٣] .

كان هذان الرجلان من شر عباد الله ، وأكثرهم كفراً ، وعناداً ، وبغياً ، وحسداً وهجاء للإسلام، وأهله ، وأقواهم عداوة لرسول الله ﷺ لعنهما الله (وقد وقع) .

---

(١) سورة المائدة الآية ٥٥

(٢) الصفراء واد قرب المدينة كثير الماء والزرع والخير .

(٣) سيرة النبى جـ١ صـ٦٤٤

- تاسعاً -
قتل كعب بن الأشرف

انتصر المسلمون فى بدر ، وقدم زيد بن حارثة إلى أهل السافلة ، وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية ، يبشران بالنصر ، ويوضحان مدى توفيق الله تعالى ، فذكروا رؤوس القرشيين الذين وضعوا فى القليب ، فلما سمع كعب بن الأشرف بنبأ الهزام قريش ، وقتل رءوسهم قال : أحق هذا ؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يذكرهم هذان الرجلان ؟ هؤلاء أشراف العرب ، وملوك الناس ، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها [1] .

فلما أيقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة ، فنزل على المطلب بن أبى وداعة السهمى ، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار ، ويبكى على أصحاب القليب ، ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم .

ثم انبعث كعب عدو الله يهجو رسول الله والمسلمين ، ويمدح عدوهم ، ويحرض عليهم ولم يكتف بموقفه العدائى فى المدينة فركب إلى قريش فى مكة واستعداهم على رسول الله ﷺ .

فقال له أبو سفيان والمشركون : **أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه ؟ وأى ديننا أهدى فى رأيك ، وأقرب إلى الحق ؟**

فقال كعب لأبى سفيان : **أنتم أهدى منهم سبيلاً ، وأفضل .**

فقال رسول الله ﷺ : **ما لنا بابن الأشرف ، فقد استعلن بعداوتنا ، وهجائنا ، وقد خرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا ، وقد أخبرنى الله بذلك[2] ، ثم قرأ على المسلمين ما أنزل الله فيه** ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [3] .

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ٥١

(٢) سيرة النبى جـ٢ صـ١٩٧

(٣) سورة النساء الآية ٥١

يروى البخارى فى الصحيح عن جابر بن عبد الله قصة كعب بن الأشرف وفيها يقول قال رسـول الله ﷺ : **من لكعب بن الأشرف ، فإنه قد آذى الله ورسوله ؟**

فقام محمد بن مسلمة فقال : **يا رسول الله أتحب أن أقتله ؟**

قال ﷺ : **نعم .**

قال : **فأذن لى أن أقول شيئاً .**

قال ﷺ : **قل .**

فأتاه محمد بن مسلمة ومعه أبو نائلة وقال له : **إن هذا الرجل يعنى محمداً قد سألنا الصدقة ، وإنه قد عنانا وإنى قد أتيتك أستسلفك .**

قال كعب : **وأيضاً لتملنه .**

قال : **فإنا قد أتبعناه فلا نحب أن ندعه ، حتى ننظر إلى أى شئ يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين (١) .**

فقال كعب : **نعم ، ارهنونى .**

فقالوا : **أى شئ تريد ؟**

قال كعب : **ارهنونى نساءكم .**

قالوا : **كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟**

قال كعب : **فارهنونى أبناءكم .**

قالوا : **نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال له : رهن بوسق أو وسقين ؟ هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأمة – يعنى السلاح – فواعداه أن يأتياه، فجاءاه ليلاً ومعه أبو نائله ، وهو أخو كعب من الرضاعة ، فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم .**

فقالت له امرأته : **أين تخرج هذه الساعة ؟**

قال كعب : إنما هو محمد بن مسلمة ، وأخى ورضيعى أبو نائلة ،إن الكريم إذا دعى إلى طعنة بليل لأجاب .

فدخل محمد بن مسلمة برجال معه هم : أبو عبس بن جبر ، والحارث بن أوس ،

---

(١) الوسق ستون صاعاً ، والصاع قدح وثلث بالكيل المصرى.

وعبادة بن بشر وقال لهم : **إذا ما جاء فإنى قائم بشعره** (أى آخذه) **فأشمه ، فإذا رأيتمونى استمكنت من رأسه ، فدونكم فاضربوه ، فنزل إليهم متوشحاً وهو ينفح ريح الطيب فقال لهم : ما رأيت كاليوم ريحاً ، أى أطيب ، عندى أعطر من نساء العرب ، وأكمل العرب .**

فقال محمد بن مسلمة : **أتأذن لى أن أشم رأسك ؟**

قال : **نعم .**

فشمه ثم أشم أصحابه .

فلما استمكن منه قال : دونكم ، فاقتلوه ، فلما قتلوه ساروا إلى النبى ﷺ ، وحينما بلغوا بقيع الغرقد كبروا ، وقد قام عليه السلام تلك الليلة يصلى فلما سمع تكبيرهم كبر ، وعرف أن قد قتلوه فلما انتهوا إليه قال : أفلحت الوجوه .

قالوا : ووجهك يا رسول الله ، ورموا برأسه بين يدية فحمد الله على قتله (١)

ويقال إن الذى قام على شعره أبو نائلة ﷺ .

ـ عاشراً ـ

أهم أحداث المجتمع الإسلامى

وقعت أحداث عديدة ، عاشها المجتمع الإسلامى فى المدة ما بين بدر وأحد ومن أهمها :-

١) زيدت صلاة الحضر ركعتين ، وكانت قبل ذلك كصلاة السفر ركعتان .

٢) شرع صوم رمضان .

٣) شرعت زكاة الفطر فى نهاية شهر رمضان .

٤) شرع عيد الفطر بصلاته فى آخر شهر رمضان وشرع عيد الأضحى كذلك

٥) بنى النبى ﷺ بعائشة فى شهر شوال من السنة الأولى ، وكان قد عقد عليها فى مكة قبل الهجرة بثلاث سنوات .

٦) تزوج على بن أبى طالب ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ ودخل بها فى ذى الحجة من السنة الأولى رضى الله عنها .

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى ، باب قتل كعب بن الأشرف جـ٦ صـ٢٧٧-٢٧٩ .

٧) تزوج عثمان بن عفان ﷺ أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ فى جمادى الآخرة من السنة الثالثة بعد موت رقية رضى الله عنها ودفنها بالبقيع أثناء غزوة بدر .

٨) تزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب ﷺ فى شهر شعبان من السنة الثالثة .

٩) وفى شهر رمضان من السنة الثالثة تزوج رسول الله ﷺ زينب أم المساكين وكان ذلك قبل "أحد" بشهر واحد .

١٠) فى منتصف رمضان من السنة الثالثة ولد الحسن بن على ﷺ .

١١) ولد عبد الله بن الزبير فى شوال من السنة الثانية ، وهو أول مولود للمهاجرين كما ولد النعمان بن بشير قبله بستة أشهر ، وهو أول مولود للأنصار ، وكان لهذين المولودين فرح بين المسلمين ، لأن اليهود أشاعوا أنهم سحروا المسلمين ، حتى لا تكون لهم ذرية .

١٢) وفيها شرعت عقوبة الجنايات ، وحدد رسول الله ﷺ المعاقل ، والديات ، وكتب كتاباها ، وعلمه للمسلمين وبدأ تطبيق أحكام الجنايات كما شرعها الله تعالى .

تلك أهم أحداث المجتمع الإسلامى التى حدثت بين بدر وأحد [١] .

ـ حادى عشر ـ
حركة الدعوة بين بدر وأحد

تحركت سائر القوى بعد انتصار بدر ، وشعر أعداء الإسلام أن الدائرة آتية عليهم لا محالة ، فنشطوا فى عدوانهم عساهم يحققون لأنفسهم شيئاً من المهابة والقوة .

وأدرك رسول الله ﷺ كل ما يحيط به ، وبالمسلمين ، فارسل عيونه إلى كل الجهات التى يوجد فيها أعداء الله ، ليحيط بكيدهم عند بدء ظهوره .

وقد رأينا جدوى هذه العيون ، حيث كان رسول الله ﷺ ومعه بعض أصحـــابه يفاجئون الأعداء وهم فى مرحلة التجميع ، والإعداد لمهاجمة المسلمين ، الأمر الذى جعلهم يتفرقون ، ويفرون فى الجبال والوديان .

---

(١) انظر إمتاع الأسماع والبداية والنهاية وسيرة النبى ﷺ فى مواضع متعددة .

وكان من أهداف القرشيين ضم كافة الأعراب إلى صفهم وتحويل كافة اليهود ليتحركوا معهم بعد بدر ، لكنهم لم يحققوا كل ما يأملون بسبب ما قام به الرسول ﷺ من غزوات بعد بدر .

وكان الرسول ﷺ خلال هذه المدة يهتم بنشر الدعوة ،وتعليم أصحابه ما يترل عليه من وحى الله تعالى ، ومن أهم ما عرفهم به ، وعاشه معهم صوم رمضان ، والفرحة بعيد الفطر ، وصلاة السفر والحضر ، وما يتصل بكل ذلك من أحكام ، كما شرع للمسلمين فى هذه المدة أحكام المعاقل والديات حيث دعت الحاجة لمعرفة حكم الله تعالى فيها .

وكان ﷺ يدعو من يلقاه إلى الإسلام ويهتم بتعليم من يدخل الإسلام ، ويكله إلى بعض إخوانه ليفقهه فى الدين .

وبرغم قصر المدة بين بدر وأحد فإنها امتلأت بالنشاط والحيوية ، والعمل لخدمة الدعوة ، وتطبيق شرع الله فى الحياة الشخصية ، والاجتماعية .

لقد كان حرص رسول الله ﷺ واضحاً فى إبرار قوة المسلمين ، وإدخال الهيبة والخوف فى قلوب الأعداء ، ولذلك كان ﷺ يذهب بنفسه قائداً للمسلمين ، ويقيم مدة فى ديار القوم ، إعلانا لقوة المسلمين ، وإظهاراً لشريعة الله تعالى ، وتبليغاً للدين بطريقة عملية لقد تعلم المسلمون خلال هذه الغزوات القصر أثناء السفر ، واستفادوا ضرورة الطاعة لله ورسوله وعلموا أحكام الفئ كما تعلموا أحكام الغنيمة من قبل ، وتعامل رسول الله ﷺ مع يهود بنى قينقاع بما يستحقون فقاتلهم ، وأجلاهم إلى " أذرعات " ... وأمر بقتل كعب بن الأشرف لظهور عداوته ، وإصراره على إيذاء المسلمين ، ومهاجمة الإسلام ، والعدوان على الأعراض ، والأموال .

ومع كل هذه الأحداث باشر الرسول ﷺ والمسلمون معه حياتهم ،ومعاشهم بصورة طبيعية فدخل رسول الله ﷺ بعائشة رضى الله عنها ، وتزوج حفصة بنت عمر رضى الله عنها كما تزوج ﷺ زينب أم المساكين خلال هذه المدة مما يدل على أن الزواج كان لغايات سامية تخدم الدعوة ، وتنشر القيم والأخلاق .

كما زوج ابنتيه فاطمة وأم كلثوم لعلى بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ﷺ ، وبذلك قرب إليه أربعة من مستشاريه الكبار ، وهم : أبو بكر والد عائشة ، وعمر والد حفصة ، وعثمان زوج أم كلثوم ، ورقية من قبلها ، وعلى بن أبي طالب زوج فاطمة رضى الله عنهم أجمعين .

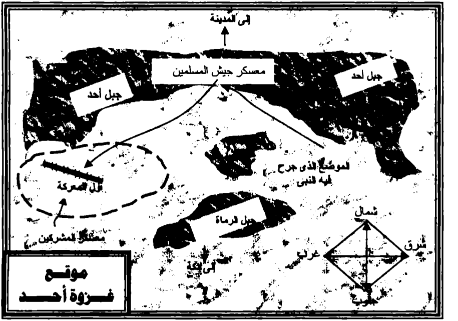
ولقد ساهمت هذه الغزوات فى تعريف المسلمين بأعدائهم وأماكن تواجدهم ، وطريقتهم فى الكر والفر ، كما أكدت لهم أن الأعداء لم يهدأوا بعد بدر ،وإنما أخذوا فى العمل للتغلب على القوة الإسلامية بكل ما أمكنهم من حيلة وعمل .... ولذلك لم يتمكن الأعداء من نيل غرة فى المسلمين ، يفاجئونهم خلالها بالعدوان وبخاصة أن القضاء على الإسلام والمسلمين فى المدينة أصبح هدفاً أساسياً لسائر الأعداء ، الأمر الذى جمع بينهم ، وجعلهم يأتون إلى المدينة محاربين حيث كانت غزوة أحد .

المبحث السادس
غـــــزوة أحــــــد

وقعت غزوة " أحد "[١] فى شهر شوال من السنة الثالثة : بعد هجرة النبى ﷺ بواحد وثلاثين شهراً ، وبعد غزوة " بدر " بثلاثة عشر شهراً ، وقد استخلف النبى ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ﷺ ، ونسبة الغزوة إلى " أحد " نسبة للمكان الذى حدثت فيه ، وهى من الغزوات المليئة بالدروس ، والعبر ، التى لابد منها لحركة الحياة السليمة ، وكان عدوان قريش على المسلمين فى المدينة سبباً لفرض الجهاد لمقاتلة المعتدى ، وصده عن العدوان ، وهى المرحلة الثالثة فى تشريع الجهاد .

وقد وقعت غزوة " أحد " فى شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة بالإجماع إلا أنهم اختلفوا فى يومها فذكر البعض إنها كانت فى اليوم السابع ، والبعض ذكر إنها كانت فى اليوم الحادى عشر وآخرون ذكروا إنها كانت فى اليوم الخامس عشر .

والإحاطة بالغزوة يحتاج إلى دراسة الموضوعات التالية :



---

(١) " أحد " جبل مشهور يقع على بعد خمسة أميال من المدينة ، وسمى بذلك لظهوره جبلاً واحداً ، منقطعاً عن جبال أخر موجودة قريباً منه ، ويقال له : ذو عينين بكسر العين وفتحها ، مثنى عين .

أولاً
أسباب الغزوة

عاد أهل مكة إلى موطنهم من غزوة " بدر " بعدما رأوا ذل الهزيمة ، وعار الإنكسار وعز عليهم أن يحدث ذلك لهم من جماعة خرجت فارة من بينهم منذ أقل من عام ، فأخذوا يعدون العدة للثأر ، وهزيمة المسلمين .

كما أنهم رأوا أن المسلمين أخذوا يسدون منافذ كل طرقهم إلى الشام ، المارة فى الحجاز ، أو فى نجـــد ، وهذا بوار لهـــم ، ولتجارتهم التى هى أهم أسباب حياتهم ... وتصوروا أن استمرار هذا الحال يمثل موتاً بطيئاً لمكة كلها .

وقف صفوان بن أمية فى قريش بعد بدر ، وقال لهم : إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا فما ندرى كيف نصنع بأصحابه ، وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ، ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسكن ؟.... وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا .. فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف وإلى الحبشة فى الشتاء .

قال له الأسود بن المطلب : تنكب طريق الساحل ، وخذ طريق العراق ، فخرج منهم تجار ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، ومعه فضة كثيرة ، وهى أعظم تجارتهم ، واستأجروا رجلاً من بنى بكر بن وائل ، يقال له فرات بن حيان ، يدلهم على ذلك الطريق الجديد الذى دلهم عليه الأسود .

وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، فلقيهم ، فأصاب تلك العير وما فيها ، وأعجزه الرجال ، فقدم بها على رسول الله ﷺ [1] .

وبهذا فقدت قريش طريق العراق كما فقدوا من قبله طريق الساحل .

وأدرك القرشيون من غزوة رسول الله ﷺ لغطفان وسليم حينما هموا بمهاجمة المدينة وفرارهم حين علموا بسيره ﷺ إليهم أن قوة المسلمين لا يستهان بها ، وأن طرقهم التجارية إلى الشام أصبحت غير مأمونة ، وأن القبائل المتحالفة معهم أصبحت غير قادرة

---

(١) المغازى جـ١ صـ٢٠٢

على حمايتهم وبدأت تشك فى قوتهم وصمودهم .

ورأى المكيون كذلك أن الوثنيين ، وأعراب البوادى ، واليهود يشاركونهم فى كراهية الإسلام ، والعداوة لرسول الله ﷺ فاتصلوا بهم ، وتصوروا أن اتحادهم فى الهدف سبب رئيسى لتوحيد صفوفهم أمام المسلمين ، الأمر الذى يؤدى إلى قهر المسلمين ، والقضاء عليهم وعلى دعوتهم .... ولذلك نشطوا فى الإعداد للحرب ، وأسرعوا فى مهاجمة المسلمين .... وجمعوا ما أمكنهم من العتاد والعدة وتحركوا لحرب المسلمين فكانت وقعة " أحد " .

ثانياً
موقف أطراف
معركة أحد قبل القتال

علم رسول الله ﷺ بنوايا القرشيين ، فأخذ يعد للأمر عدته ، واجتهد القرشيون فى تحقيق غاياتهم فى محاربة المسلمين ، والقضاء عليهم ، وعلى دينهم ، وتأمين حركتهم التجارية ، وتأديب أى خارج عليهم ، وانطلقوا بجمعهم إلى المدينة ، فوقعت الوقعة المعروفة فى " أحد " ... وكان لكل فريق موقفه ، وخطته ، ولذلك لزم معرفة موقف كل طرف قبل المعركة .

- ١ -
موقف المشركين

اتخذ القرشيون صوراً عملية عديدة بعد هزيمة "بدر" مباشرة ، واستمرت جهودهم على نشاطها حتى وقعت المعركة ، فلقد نشطوا فى جمع الأموال ، وتكثير الجنود والتأثير على القبائل ، وخططوا لتحركهم بدقة عالية ، لكن الله غالب على أمره ومن أهم مواقفهم مايلى :-

- أ -
الإعداد المالي

بدأ القرشيون يعدون للحرب عقب " بدر " مباشرة ، وبدأوا فى جمع أموال يستعدون بها ، فلما رجعوا إلى مكة من " بدر " وجدوا العير التى عاد بها أبو سفيان

موقوفه عند دار الندوة ، لم توزع لأصحابها بعد ، فمشى إلى أبى سفيان بمجموعة من أشراف مكة هم : الأسود بن المطلب بن أسد ، وجبير بن مطعم ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل والحراث بن هشام ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، وحويطب بن عبد العزى ، وحجير بن أبى إهاب ، فقالوا : يا أبا سفيان ، انظر هذه العير التى قدمت بها فاحتبسها ، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ، ولطيمة قريش ، وهم طيبو الأنفس ، يجهزون بهذه العير جيشاً كثيفاً إلى محمد ، وأنت ترى من قتل من آبائنا وأبنائنا وعشائرنا وأهلنا .

قال أبو سفيان : وهل طابت أنفس قريش بذلك ؟

قالوا : نعم .

قال : فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معى ، فأنا والله الموتور الثائر قد قتل ابنى حنظلة وأشراف قومى ببدر فلم تزل العير موقوفة حتى تجهزوا ، واقترب موعد الخروج إلى أحد .

قالوا : يا أبا سفيان ، بع العير ثم اعزل أرباحها ، وكانت العير ألف بعير ، وكان المال خمسين ألف دينار ، وكانوا يربحون فى تجارتهم للدينار ديناراً ، وكان متجرهم من الشام غزة لا يعدونها إلى غيرها ، وكان أبو سفيان قد حبس عير بنى زهرة لأنهم رجعوا من طريق بدر و لم يقاتلوا ، وسلم ما كان لمخرمة بن نوفل ، ولبنى أبيه ، وبنى عبد مناف بن زهرة ، فأبى مخرمة أن يقبل عيره حتى يسلم إلى بنى زهرة جميعاً .

وتكلم الأخنس فقال : ما لعير بنى زهرة من بين عيرات قريش ؟

قال أبو سفيان : لأنهم رجعوا عن قريش .

قال الأخنس : أنت أرسلت إلى قريش أن ارجعوا فقد أحرزنا العير ، لا تخرجوا فى غير شئ ، فرجعنا ، فأخذت زهرة عيرها ، وأخذ أقوام من أهل مكة كل ما كان لهم فى العير [1] .

وهكذا اجتمعت قريش على حرب رسول الله ﷺ ، ودفعوا أموالهم للإعداد

---

(١) المغازى جـ١ صـ١٩٩ ، ٢٠٠ .

وجلب العدد ، وأخذوا يحرضون غيرهم معهم ، فوافقهم الأحباش وهم أقوام من غير العرب ، وقبائل كندة ، وأهل تهامة ، وغيرهم .

- ب -

التعبئة العامة للمشركين

نشط المكيون فى جمع أكبر عدد لقتال المسلمين ، فأخذوا يمرون على القبائل ويدورون على سائر المجتمعات العربية ، مستفيدين فى ذلك بشعرائهم ومشاهيرهم ، وخطبائهم فاجتمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش لهذه المهمة ، **فبعثوا عمرو بن العاص وهبيرة بن أبى وهب ، وابن الزبعرى ، وأبا عزة الجمحى .**

وكان أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحى من الشعراء المشهورين ، المعروفين عند الناس ، وكان رسول الله ﷺ قد منَّ عليه يوم " بدر" وأطلق سراحه بلا فداء لأنه كان فقيراً ذا عيال وحاجة ، فلما عرضوا عليه أن يشترك معهم فى التحريض على قتال المسلمين عرفهم بأنه مدين لرسول الله ﷺ حين من عليه ، وأطلق سراحه يوم "بدر" ، بلا فداء بسبب عوزه وبنيه ، ورفض أن يشترك معهم .

فقال له صفوان بن أمية : يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك ، فاخرج معنا

فقال له أبو عزة : إن محمداً ﷺ قد منَّ على فلا أريد أن أظاهر عليه .

قال صفوان : فأعنا بنفسك ، فلك الله إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى ، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر ، وما زال به حتى وافق على الخروج معهم .

فخرج أبو عزة فى تهامة يحرضهم ويهيجهم بشعره وخطبه .

وخرج مسافح بن عبد مناف بن وهب إلى بنى مالك بن كنانة يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ .

ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له : وحشى ، يقذف بحربة له قذف الحبشة ، قلما يخطئ بها ، فقال له : اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة بن عدى فأنت عتيق .

وقصد المكيون كل من أصيب ببدر فى ماله وأهله ، ودفعوهم إلى المشاركة بالمال أو بالنفس ، أو بالتحريض لقتال المسلمين ، ورحبوا بكل قادم غريب ليكون معهم فى حربهم ضد المسلمين .

ولحق أبو عامر الفاسق بالمكيين وخرج إليهم فى خمسة عشر رجلاً من الأوس ، وتابع قريشاً وسار معها ، وهو يعدها أن قومه يؤازرونهم .

واسم أبى عامر هذا : عبد عمرو بن صيفى الراهب ، وكان رأس الأوس فى الجاهلية وكان مترهباً ، فلما جاء الإسلام خذل ، فلم يدخل فيه ، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة فدعا عليه ﷺ فخرج من المدينة إلى مكة و لم يرجع إليها إلا مع جيش المكيين يوم أحد .

وقد اجتمع العرب على ما دعتهم إلى قريش ، غير أنهم رفضوا الخروج بالنسوة ، وقالوا : إننا نخشى أن تكون الدائرة علينا ، ونعيش العار والفضيحة [١] .

- ج -
اصطحاب قريش للنسوة

خرجت قريش بحدها ، وجدها ، وحديدها ، وأحابيشها ، ومن تابعها من بنى كنانة ، وأهل تهامة ، ثم أمر أبو سفيان باصطحاب عدد من النسوة ليباشرن عملية التحريض ، ويقمن بشحن المقاتلين ، ومنعهم من الفرار حرصاً على الكرامة وحماية للعرض ، فلما وجه أبوسفيان قومه لذلك خرج كبارهم بالظعن معهم التماس الحفيظة والحماسة ، وبذل أقصى الجهد لحماية العرض والشرف ، وقد بلغ عدد الخارجات خمس عشرة امرأة كلهن من قريش بعد أن رفض الأعراب والأحابيش خروج النساء .

وقد خرج أبو سفيان بن حرب وهو قائد الناس بهند بنت عتبة زوجته .

وخرج عكرمة بن أبى جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة .

وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة .

وخرج صفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفية ، وهى أم عبد الله بن صفوان بن أمية .

---

(١) المغازى حـ ١ صـ ٢٠١ ، ٢٠٢

وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج ، وهى أم عبد الله بن عمرو وخرج طلحة بن أبي طلحة ، وأبو طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بسلافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية وهى أم بنى طلحة مسافع ، والجلاس ، وكلاب وقد قتلوا يومئذ مع أبيهم .

وخرجت خناس بنت مالك بن المضرب إحدى نساء بنى مالك بن حسل مع ابنها أبى عزيز بن عمير ، وهى أم مصعب بن عمير .

وخرجت عمرة بنت علقمة إحدى نساء بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة .

وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشى أو مر بها قالت : **ويها أبا دسمة اشف واستشف ، وكان وحشى يكنى بأبى دسمة** [١] .

وكان لهؤلاء النسوة دور بارز خلال المعركة ، فكن ينشدن الشعر ، ويحمسن الرجال ويخوفونهم من عار الهزيمة وذل الإنكسار ، الأمر الذى ظهر أثره فى سير القتال يوم " أحد " .

- د -

التحرك نحو المدينة

تابع جيش مكة سيره على الطرق الغربية الرئيسية المعتادة ، ولما وصل إلى "الأبواء"[٢] اقترحت هند بنت عتبة — زوج أبى سفيان — أن ينبش القرشيون قبر أم رسول الله ﷺ آمنة رضى الله عنها ، بيد أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب ، وحذروا من العواقب الوخيمة التى تلحقهم لو فتحوا هذا الباب ، فلعل الدائرة تكون عليهم ، ولأنه عمل يجلب الخزى والعار لفاعله [٣] .

واصل جيش مكة سيرة حتى اقترب من المدينة فاستراح عند مدينة تسمى "الصمغة" وأطلق الإبل والخيل ترعى ، وبعدها تابع الجيش مسيرته ، فسلك وادى العقيق ، ثم انحرف منه إلى ذات اليمين ، حتى نزل قريباً من جبل " أحد " فى مكان يقال له عينين [٤] ، فى بطن السبخة ، من قناة على شفير الوادى ، الذى يقع شمالى المدينة ، فعسكر هناك يوم الجمعة

---

(١) سيرة الرسول جـ٢ صـ٦٠ .

(٢) الأبواء بفتح الهمزة وسكون الباء قرية صغيرة قرب المدينة .

(٣) المغازى جـ١ صـ٢٠٦ .

(٤) عينين (بفتح العين تثنية عين) اسم من أسماء جبل أحد ، أو اسم جزء منه .

السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة [١] .

- هـ -
التعبئة النفسية

أدى اصطحاب النسوة إلى بعث روح الحماس فى جيش قريش ، فقد كن يولــولن ويذكرن بقتلى "بدر" ، ويدرن على المقاتلين محرضات حتى لا يضعفون .

وقد أخذ أبو سفيان يحرض رجاله كذلك على الثبات والقتال بوســائل مــاكرة ، فقال لأصحاب اللواء من بنى عبد الدار : يا بنى عبد الدار ، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونــا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا به وتواعدوه وقالوا : نحن نســلم إليــك لواءنا ، ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع ! وذلك الذى أراده أبو سفيان .

وشاركت هند زوجها أبا سفيان فى هذه المهمة مع باقى النسوة ، فإنه لمــا التقــى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قامت هند بنت عتبة فى النسوة اللاتى معها ، وأخــذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ، ويحرضنهم على القتال ، فقالت هند فيما تقول :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار

ضرباً بكل بتار

وتقول :

إن تقبلــوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

- و -
الحرب المعنوية

قبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين فأرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم : خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم ، فلا حاجة لنا إلى قتالكم ، ولكن أين هذه المحاولة أمام إيمان الأنصار الراسخ ، ولذا رد عليه الأنصار رداً عنيفاً ، وأسمعوه ما يكره .

---

(١) المغازى جـــ١ صـــ٢٠٧

واقتربت ساعة الصفر ، وتدانت الفئتان ، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض ، فقد خرج إليهم عميل خائن يسمى أبو عامر الفاسق ، واسمه عبد عمرو بن صيفى ، وكان يسمى الراهب ، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق ، وكان رأس الأوس فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ، ويحضهم على قتاله ، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ، ومالوا معه ، فكان أول من خرج إلى المسلمين فى الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى قومه وتعرف عليهم ، وقال : **يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر**

فقالوا : **لا أنعم الله بك عينا يا فاسق** .

فقال : **لقد أصاب قومى بعدى شر وقاتلهم قتالاً شديداً ورماهم بالحجارة** .

وهكذا فشلت قريش فى محاولتها الثانية للتفريق بين صفوف أهل الإيمان مما جعلهم يزدادون خوفاً من المسلمين ، ويمتلئون هيبة من لقائهم [١] .

- ز -

عدة الجيش المكى وتنظيمه

تجمع مشركو مكة ، والأحباش ، وأعراب البوادى ، وبنو ثقيف لحرب رسول الله ﷺ وحصار المدينة حتى **بلغ عددهم ألفين وتسعمائة مقاتل ، منهم سبعمائة دارع ، والباقون رماة وكان مع الجيش مائتا فرس وثلاثة آلاف بعير بالإضافة إلى ما كان معهم من نساء.**

سار الجيش المكى حتى قرب من المدينة وعند " أحد " نظم القرشيون جيشهم للقتال فاصطفوا صفاً واحداً، وأمنوا الميمنة، والميسرة ، فجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل، وحمل اللواء طلحة بن أبى طلحة من بنى عبد الدار ، وولوا قيادة الخيل لـ "صفوان بن أمية " وجعلوا قيادة الرماة لـ "عبد الله بن أبى ربيعة " [٢] .

وتولى القيادة العامة أبو سفيان بن حرب لهلاك أكابرهم فى " بدر " .

---

(١) السيرة النبوية جـ٢ صـ٦٧

(٢) سيرة النبى جـ٢ صـ٦٧

ـ ٢ ـ
موقف المسلمين

تأهبت قريش لقتال المسلمين ، وأخذت عدها لتثأر لهزيمتها فى " بدر " وسارت نحو المدينة فى قوات ضخمة ، وأسلحة عديدة ، دفعت المحبين لرسول الله ﷺ أن يرسلوا له بخبر القوم حتى لا يؤخذ والمسلمون معه على غرة .

وسارت الأمور على نحو يحتم ضرورة القتال والمواجهة كما يتضح من النقاط التالية :

ـ أ ـ
العلم بموقف العدو

أول من أرسل إلى رسول الله ﷺ يخبره بما عزم عليه القرشيون العباس عم النبى ﷺ حيث كتب كتاباً إلى رسول الله ﷺ مع رجل من بنى غفار ، يخبره بذلك ، فقدم عليه الرجل وهو فى قباء ، فقرأه عليه أبى بن كعب ، فطلب النبى ﷺ من أبى أن يكتم الخبر . وقال له : لا تطلع عليه أحداً .

ونزل رسول الله ﷺ على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس .

فقال : والله إنى لأرجوا أن يكون فى ذلك خير [١] .

وقدم عمرو بن سالم الخزاعى فى نفر وقد فارقوا قريشاً من ذى طوى، فأخبر النبى ﷺ بخبر أهل مكة وانصرفوا [٢].

وبعث رسول الله ﷺ أنساً ومؤنساً ابنى فضالة ليلة الخميس عينين ، فاعترضا لقريش بالعقيق ، وعادا إلى النبى ﷺ فأخبراه بما رأوا [٣].

وبعث رسول الله ﷺ الحباب بن المنذر بن الجموح فنظر إليهم ، وعاد وقد حزر عددهم وما معهم ، فقال ﷺ : **لا تذكروا من شأنهم حرفاً ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم بك أجول ، وبك أصول** [٤] .

وطلب رسول الله ﷺ من أصحابه الإستعداد لملاقاة الكفار، بعدما أشار إليهم وعرفهم .

---

(١) المغازى جـ١ صـ٢٠٦
(٢) إمتاع الأسماع جـ١ صـ١١٤
(٣) إمتاع الأسماع جـ١ صـ١١٥
(٤) سيرة النبى جـ٢ صـ٦٣

وباتت وجوه الأوس والخزرج ليلة الجمعة لست مضين من شوال ، عليهم السلاح فى المسجد ، بباب النبى ﷺ ، خوفاً من بيات المشركين، وحرست المدينة حتى أصبحوا .

- ب -
رؤيا رسول الله ﷺ

رأى رسول الله ﷺ رؤيا ، فلما أصبح يوم الجمعة ، واجتمع الناس خطب على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، **إنى رأيت فى منامى رؤيا رأيت كأنى فى درع حصينة ، ورأيت كأن سيفى ذا الفقار انقصم ، من عند ظبته (أى انكسر وتثلم من عند طرفه) ورأيت بقراً تذبح ، ورأيت كأنى مردف كبشاً .**

فقال الناس يا رسول الله ، فما أولتها ؟

قال ﷺ : أما الدرع الحصينة فالمدينة، فامكثوا فيها، وأما انقصام سيفى من عند ظبته فمصيبة فى نفسى، أو قتل رجل من أهل بيتى وأما البقر المذبح فقتلى فى أصحابى وأما أنى مردف كبشاً فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله ، ويراد به طلحة بن أبى طلحة ، وقد حدث [1]

- ج -
المشاورة فى خطة المواجهة

جمع رسول الله ﷺ أهل الرأى من الصحابة ليشتركوا معه فى وضع خطة للجهاد ، والمقاومة ، فقال ﷺ : **أشيروا على أيها الناس .**

فتكلم الصحابة ،واختلفوا فى الرأى ، حيث رأى أغلبهم الخروج لملاقاة الكفار خارج المدينة ورأى القليل غير ذلك .

وكان رأى رسول الله ﷺ ألا يخرج من المدينة ، ووافقه عبد الله بن أبى ، والأكابر من الصحابة مهاجرهم ، وأنصارهم .

وقال ﷺ : امكثوا فى المدينة ، واجعلوا النساء والذرارى فى الآطام فإن دخلوا علينا قاتلناهم فى الأزقة ، فنحن أعلم بها منهم ، ونرميهم من فوق الصياصى والآطام ، وكان هذا هو الرأى وبخاصة أن الصحابة قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية حتى صارت كالحصن .

---

(١) فتح البارى جـ٧ صـ٣٤٦ .

وقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً وطلبوا الشهادة وأحبوا لقاء العدو : اخرج بنا إلى عدونا .

وقال حمزة ، وسعد بن عبادة والنعمان بن مالك بن ثعلبه ، فى طائفة من الأنصار : إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم ، جبنا عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت يوم بدر فى ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير ، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به ، فساقه الله إلينا فى ساحتنا .

وقال حمزة : والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً ، حتى أجالدهم بسيفى خارجاً من المدينة .

وتكلم مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى ، والنعمان بن مالك بن ثعلبه ، وإياس بن أوس بن عتيك ورأوا الخروج للقتال .

فلما رأى ﷺ ذلك ، وأشار الكثيرون بالخروج من المدينة ، ولم يتزل وحى محدد فى هذا الأمر صلى رسول الله ﷺ الجمعة بالناس فوعظهم ، وأمرهم بالجد والجهاد ، وأخبرهم أن النصر لهم ما صبروا ، ففرح الناس بالخروج من المدينة لقتال عدوهم ، وكره ﷺ ذلك المخرج إلا أنه وافقهم ونزل على رأيهم ما دام لم يتزل فيه وحى من الله تعالى[1] .

صلى رسول الله ﷺ العصر بالناس وقد حشدوا ، وحضر أهل العوالى ، ورفعوا النساء فى الآطام ، ودخل ﷺ بيته ، ومعه أبوبكر وعمر بن الخطاب ﷺ فعمماه ولبساه ، واصطف الناس له ما بين حجرته إلى منبره ، فجاء سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير فقالا للناس : قلتم لرسول الله ﷺ ما قلتم ، واستكرهتموه على الخروج ، والأمر يتزل عليه من السماء فردوا الأمر إليه ، فما أمركم فافعلوه ، وما رأيتم فيه له هوى أو رأى فأطيعوه .

فبينا هم على ذلك إذ خرج رسول الله ﷺ قد لبس لأمته ولبس الدرع فأظهرها ، وحزم وسطها بمنطقه من حمائل سيف ، واعتم وتقلد السيف .

فقال الذين يلحون : يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك .

فقال ﷺ : قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله

---

(١) السيرة النبوية جـ٢ صـ٦٣ ، ٦٤

فلكم النصر ما صبرتم [١] .

- د -

رد الغلمان

عسكر الجيش الإسلامى بالشيخين ، وفيها طلب النبى ﷺ رؤية صغار من خرج مع الجيش للجهاد ، فعرضوا جميعاً عليه ﷺ وهم : **عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأسامة بن زيد بن ثابت ، والنعمان بن بشير ، وزيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وعمرو بن حزم ، وأسيد بن ظهير ، وعرابة بن أوس ، وأبو سعيد الخدرى ، وسعد بن حبتة الأنصارى ، وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج** ، فردهم ، ثم أجاز رافع بن خديج لأنه رام ، فقال سمرة بن جندب لزوج أمه مرى بن سنان : أجاز رسول الله ﷺ رافع بن خديج وردنى وأنا أصرعه ، فأعلم بذلك رسول الله ﷺ فقال : تصارعا ، فصرع سمرة رافعاً فأجازه [٢] .

- هـ -

تنظيم الحراسة الليلية

لما فرغ العرض ، وغربت الشمس ، أذن بلال بالمغرب فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ثم أذن بالعشاء فصلى بهم ، واستعمل على الحرس محمد بن مسلمة فى خمسين رجلاً يطوفون بالعسكر ، وقال ﷺ **حين صلى العشاء : من يحفظنا الليلة ؟**

فقام رجل فقال : أنا يا رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ : من أنت ؟

قال : ذكوان بن عبد قيس .

قال ﷺ : اجلس ثم قال ﷺ : من رجل يحفظنا هذه الليلة ؟

فقام رجل فقال : أنا .

فقال ﷺ : من أنت ؟

قال : أنا أبو سبع .

قال ﷺ : اجلس ، ثم قال ﷺ : من رجل يحفظنا الليلة ؟

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ٦٦

(٢) الطبقات الكبرى جـ٢ صـ٣٩

فقام رجل فقال : أنا .

فقال ﷺ : من أنت ؟

قال : ابن عبد قيس .

قال ﷺ : اجلس ، ومكث رسول الله ﷺ ساعة .

ثم قال : قوموا ثلاثتكم .

فقام ذكوان بن عبد قيس .

فقال رسول الله ﷺ : أين صاحباك ؟

فقال ذكوان بن عبد القيس : أنا الذى كنت أجبتك الليلة .

قال ﷺ : فاذهب ، حفظك الله .

فقام ذكوان بن عبد قيس فلبس درعه ، وأخذ درقته ، فكان يطيف بالعسكر ليلته ويقال بل كان يحرس رسول الله ﷺ و لم يفارقه ، وبذلك نام المسلمون ليلتهم آمنين استعداداً للقاء عدو الله وعدوهم [1] .

- و -

تنظيم الجيش الإسلامى فى أحد

نام ﷺ حتى إذا كان السحر قال : أين الأدلاء ؟

فلما جاءوا إليه قال لهم ﷺ : من رجل يدلنا على طريق يخرجنا على القوم من كثب ؟

فقام أبو حثمة الحارثى فقال : أنا يا رسول الله .

فخرج ﷺ فركب فرسه ، فسلك به فى حرة بنى حارثة ، فذب فرس أبى بردة بن نيار بذنبه فأصاب كلاب سيفه فسل سيفه ، فقال رسول الله ﷺ : يا صاحب السيف ، شم سيفك ، فإنى إخال السيوف ستسل فيكثر سلها [2] .

دعا رسول الله ﷺ بثلاثة أرماح لعقد ثلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج إلى حباب بن المنذر بن الجموح ، ويقال إلى سعد بن عبادة

---

(١) المغازى جـ١ صـ٢١٧

(٢) إمتاع الأسماع جـ١ صـ١٢٠

ودفع لواء المهاجرين إلى مصعب بن عمير ﷺ [١].

ثم ركب فرسه ، وتقلد القوس ، وأخذ قناة بيده ، والمسلمون عليهم السلاح فيهم مائة دارع .

وخرج سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ﷺ أمامه يعدوان والناس عن يمينه ، وشماله حتى انتهى إلى رأس الثنية ، عند مكان يقال له الشيخان ، نسبة إلى شيخ وشيخة عمياوان كانا يجلسان فى الجاهلية فوقه يتناجيان .

وهناك رأى ﷺ كتيبة خشناء لها جلبة وضجيج فقال ﷺ : ما هذه ؟

فقالوا : هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبى ابن سلول من اليهود .

فقال ﷺ : لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك وردهم [٢].

ومضى فعسكر بالشيخين قريباً من أحد ، ولبس درعه الأول ، وبعد استراحة الجيش أخذ سيره إلى أحد .

وفى الطريق عند " الحائط " رجع عبد الله بن أبى ومن معه من أهل النفاق ، وهم ثلاثمائة رجل وهو يقول : عصانى وأطاع الولدان ، ومن لا رأى له ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ؟ ارجعوا أيها الناس ، فرجعوا .

فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام (وكان خزرجياً كابن أبى) .

فقال ﷺ : أذكركم الله أن لا تخذلوا قومكم ، ونبيكم بعدما حضر عدوهم .

قالوا : لو نعلم قتالا ما أسلمناكم ، ولكنا لا نرى أن يكون قتال .

فلما أبوا قال : أبعدكم الله ، فسيغنى الله عنكم نبيه .

ولما رأى بنو سلمة من الأوس ، وبنو حارث من الخزرج عبد الله بن أبى قد خذل ، هموا بالإنصراف، وكانوا جناحين من المعسكر، ثم عصمهما الله، وفيهم نزل قوله تعالى ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٣]

---

(١) الطبقات جـ٢ صـ٣٩ ، ٤٠

(٢) سيرة النبى جـ٢ صـ٦٤

(٣) سورة آل عمران الآية ١٢٢

فعن جابر ﷺ قال : نزلت هذه الآية فينا ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ والطائفتان هما بنو سلمه وبنو حارثة ، وقد عصمهما الله فثبتا ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ .

وقالت طائفة من الأوس لرسول الله ﷺ لما رجع ابن أبى : يا رسول الله ألا تستعين بحلفائنا من يهود بنى قريظة ، وذلك لأن بنى قريظة من حلفاء سعد بن معاذ ، وهو سيد الأوس ؟!

فقال ﷺ : لا حاجة لنا فيهم .

وتحرك الجيش الإسلامى إلى أحد ، فبلغها عند صلاة الفجر يوم الخامس عشر من شوال ، وهو (يوم المعركة) فأذن بلال وأقام ، وصلى ﷺ بأصحابه الصبح صفوفاً .

وهكذا أراد الله تعالى للمسلمين أن يكونوا وحدهم حماة دينهم ، ليعيشوا المسئولية كاملة ، ولينتفعوا بما فى الجهاد من خير فى الدنيا والآخرة ، ولذا تطهر الصف الإسلامى من المنافقين وغيرهم ، ورفض رسول الله ﷺ أن يستعين بغير المسلمين .

ونزل رسول الله ﷺ الشعب من " أحد " ونظم جيشه فى عدوة الوادى إلى الجبل ، وجعل ظهره وعسكره إلى " أحد " ، ولبس درعه الثانية فوق الأولى ، ومغفراً فوقها ، وبيضة فوق المغفر ، ثم قال : لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال .

وقد سخرت قريش الظهر والكراع ، فى زروع كانت بالصمغة ، من قناة المسلمين ، فقال رجل من الأنصار حين نهى رسول الله ﷺ عن القتال : أترعى زروع بنى قبيلة ، ولما نضارب [١] .

وتعبأ رسول الله ﷺ للقتال ، وسبعمائة رجل ، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير ، وهو معلم يومئذ بثياب بيضاء ، وكان الرماة خمسين رجلاً ، فقال لهم ﷺ : انضحوا عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبتوا مكانكم لا نؤتين من قبلكم ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، آخى بنى عبد الدار .

وكان المسلمون سبعمائة مقاتل فيهم مائة دارع ، وفرسان أحدهما لرسول الله ﷺ والآخر لأبى برد بن نيار .

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ١١٥

وصف رسول الله ﷺ أصحابه ، وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بـــن العـــوام ، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو الغنوى .

ثم قام ﷺ فخطب الناس فقال : (يا أيها الناس : أوصيكم بما أوصانى به الله فى كتابه من العمل بطاعته ، والتناهى عن محارمه ، ثم إنكم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذى عليه ثم وطن نفسه له على الصبر واليقين ، والجد ، والنشاط ، فإن جهاد العدو شديد كريه قليل من يصبر عليه إلا من عزم الله له رشده ، فإن الله مع من أطاعه ، وإن الشيطان مع من عصاه ، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالذى أمركم به فإنى حريص على رشدكم ، وإن الاختلاف ، والتنازع ، والتثبيط ، من أمر العجز ، والضعف ، وهو مما لا يحب الله ، ولا يعطى عليه النصر ، ولا الظفر .

يا أيها الناس : حدد (تأكد) فى صدرى أن من كان على حرام فرق الله بينه وبينه ورغب له عنه غفر الله له ذنبه ، ومن صلى على صلاة صلى الله عليه وملائكته عشراً ، ومن أحسن من مسلم أو كافر وقع أجره على الله فى عاجل دنياه أو آجل آخرته ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا صبياً ، أو امرأة ، أو مريضاً أو عبداً مملوكاً ، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه ، والله غنى حميد .

ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه .

وإنه نفث فى روعى الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها ، لا ينقص منه شئ وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم ، وأجملوا فى طلب الرزق ، ولا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية ربكم ، فإنه لا يقدر على ما عنده إلا بطاعته .

إن الله تعالى قد بين لكم الحلال والحرام ، غير أن بينهما شبهاً من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلا من عصم الله ، فمن تركها حفظ عرضه ودينه ومن وقع فيها كان كالراعى إلى جنب الحمى أوشك أن يقع فيه ، وليس ملك إلا وله حمى ألا وإن حمى الله محارمة ، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده ،

والسلام عليكم [١].

وهكذا وجه رسول الله ﷺ أصحابه إلى عوامل النصر ، والغلبة ، وأساسها إعداد العدة ، والصبر ، واللجوء إلى الله وحسن الطاعة والانقياد ، وأداء الواجبات ، وصدق التوكل ، وإخلاص التقوى ، وتقدير محارم الله تعالى ، والإيمان التام بقدره سبحانه وتعالى .

ـ ثالثاً ـ
أحداث المعركة

بدأت قريش بالهجوم حيث قام أبوعامر عبد عمرو بن ضيفى الأوسى مع مجموعة بلغ عددها خمسين مقاتلاً بالهجوم على المسلمين ، فنشبت الحرب بعدها

وكان أبو عامر قد ترك المدينة ، ورحل إلى مكة بعد " بدر " واصطحب معه خمسة عشر رجلاً من الأوس ، وكون بهم قوات خاصة ، بعدما انضم إليهم خمسة وثلاثون رجلاً من عبيد أهل مكة .

وكان أبو عامر يزعم لأهل مكة أنه إذا نادى الأوس جميعاً ، وهم يحاربون فى صف المسلمين يستجيبون له وينحازون لقريش .

فلما بدأ القتال **نادى قومه وقال : يا معشر الأوس أنا أبو عامر .**

فأجابه الأوس : **لا مرحباً بك ، ولا أهلاً ، يا فاسق .**

فقال أبو عامر : **لقد أصاب قومى بعدى شر** [٢].

وتراموا بالحجارة ساعة حتى ولى .

وقد مرت المعركة بثلاث مراحل ، كانت الأولى مرحلة انتصار كاسح للمسلمين وكانت الثانية خسارة للمسلمين ، وكانت الثالثة مرحلة صمود المسلمين ومقاومتهم ، وبيان هذه المراحل فيما يلى :

المرحلة الأولى للقتال
انتصار المسلمين

اشتد وطيس المعركة ، وكان أول البشائر فيها مقتل حامل لواء قريش طلحة بن أبى

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ١٢١ ، ١٢٢

(٢) سيرة النبى جـ٢ صـ٦٧

طلحة بعدما نادى بالمبارزة ، فخرج إليه الزبير بن العوام ﷺ ووثب على جمله ، وأمسك به وأنزله على الأرض ، وذبحه بسيفه ، فكبر المسلمون ، وسر رسول الله ﷺ لمقتل طلحة الذى كان يعرف بــ" كبش الكتيبة " لشجاعته ، وقوته [١].

واندلع القتال بعد مقتل طلحة فى كل أرض المعركة ، وشد المسلمون على لواء المشركين لأهميته فى هزيمتهم .... وقد تمكن المسلمون من حملة اللواء حتى أفنوهم جميعاً ، لأنه بعد مقتل طلحة حمل اللواء أخوه عثمان بن طلحة فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه حتى وصلت إلى سرته ، فبانت رئته .

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبى طلحة ، فرماه سعد بن أبى وقاص بسهم أصاب حنجرته فأدلع لسانه ومات لحينه ، وقيل : بل خرج أبو سعد يدعو إلى المبارزة ، فتقدم إليه على بن أبى طالب فاختلفا ضربتين فضربه على فقتله .

ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبى طلحة فرماه عاصم بن ثابت بـــن أبى الأقلـــح بسهم فقتله .

فحمل اللواء بعده أخوه كلاب بن طلحة بن أبى طلحة ، فانقض عليه الزبير بن العوام وقاتله حتى قتله .

ثم حمل اللواء أخوهما الجلاس بن طلحة بن أبى طلحة ، فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته ، وقيل : بل رماه عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح بسهم فقضى عليه .

ثم حمله من بنى عبد الدار أرطاة بن شرحبيل ، فقتله على بن أبى طالب ، وقيل حمزة بـــن عبد المطلب .

ثم حمله شريح بن قارظ فقتله قزمان ، وكان منافقاً قاتل مع المسلمين حمية ، لا عن الإسلام

ثم حمله أبو زيد بن عبد مناف العبدرى فقتله قزمان أيضاً .

ثم حمله ولد لشرحبيل بن هاشم العبدرى فقتله قزمان أيضاً .

فتقدم غلام حبشى – اسمه صُوَّاب – فحمل اللواء ، وأبدى من صنوف الشجاعة والثبات ، ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله ، فقد قاتل حتى قطعت يداه ، فبرك على اللواء بصدره وعنقه ، لئلا يسقط حتى قتل وهو يقول : **اللهم هل أعـــذرت ،**

---

(١) إمتاع الأسماع جـــ١ صـــ١٢٥

يعنى هل أعذرت ؟ أمام سادته المكيين .

وبعد أن قتل هذا الغلام – صواب – سقط اللواء على الأرض ، و لم يبق أحد يحمله فبقى ساقطاً [1] .

وأخذ المسلمون يهتفون بشعار يوم أحد (أمت ، أمت) ، ويتزلون بأعدائهم الضرب والقتل ، ويشدون عليهم فى كل ناحية ، ويبرزون من ضروب الفداء والتضحية ما يعده المؤرخون أمثلة خالدة فى إطار الجهاد ، وحب الله ورسوله ومن هذه الأمثلة :

١) قتال أبي دجانة ﷺ :

أقبل أبو دجانة ﷺ معلماً بعصابته الحمراء ، آخذاً بسيف رسول الله ﷺ ، مقبلاً على الجهاد والنصر ، فقاتل حتى أمعن فى المشركين ، وكان لا يلتقى بمشرك إلا وقتله ، وأخذ يهد صفوف المشركين هداً ويفرقهم بدداً .

يقول الزبير بن العوام ﷺ : وجدت فى نفسى حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه ، وأعطاه أبا دجانة ، وقلت فى نفسى : **أنا ابن صفية عمته ، ومن قريش ، وقد قمت إليه ، فسألته إياه قبله ، فآتاه إياه ، وتركنى ، والله لأنظرن ما يصنع ؟**

فاتبعته فرأيته قد أخرج من جيبه عصابة له حمراء ، فعصب بها رأسه .

فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، فلبسها وخرج وهو يقول :

أنا الذى عاهـــدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل

أن لا أقوم الدهر فى الكيول أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله ، وكان فى المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا أجهز عليه ، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه أبو دجانة بدرقته ، فعضه بسيفه ، فضربه أبو دجانة فقتله .

ثم أمعن أبو دجانة فى هد الصفوف ، حتى خلص إلى قائدة نسوة قريش وهـــو لا يدرى بها .

---

(١) المغازى جـــ١ صـــ٢٢٥-٢٢٨ بتصرف

قال أبو دجانة : رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً فصمدت له ، فلما حملت عليه السيف ولول فإذا هو امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن اضرب به امرأة ، وكانت تلك المرأة هى هند بنت عتبة .

يقول الزبير بن العوام : رأيت أبا دجانة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها ، فقلت : الله ورسوله أعلم (1) .

٢) قتال حمزة بن عبد المطلب ﷺ :

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليوث الأبطال ، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين فى شجاعة منقطعة النظير ، ففر من أمامه أبطال قريش ، وتطايروا كما تتطاير الأوراق أمام الرياح العاتية، واستمر فى اندفاعه ﷺ حتى صرعه وحشى، وهو مختبئ فى مكنه، أملاً فى الحرية التى وعده بها سيده جبير بن مطعم، ولينال رضى هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان .

يروى البخارى بسنده قصة استشهاد حمزة كما رواها وحشى بعدما أسلم فيقول:

إن حمزة قتل طعيمة بن عدى بن الخيار ببدر ، فقال لى مولاى جبير بن مطعم : إن قتلت حمزة بعمى فأنت حر .

فلما خرج الناس عام عينين خرجت مع الناس ، إلى القتال ، فلما اصطفوا للقتال ، خرج سباع فقال : هل من مبارز ؟

فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال : يا سباع يا ابن أم أنمار ، مقطعة البظور أتحاد الله ورسوله ﷺ ؟

ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب ، وكمنت لحمزة تحت صخرة ، فلما دنا منى رميته بحربتى ، فوضعتها فى ثنيته ، حتى خرجت من بين وركيه ، فكان ذاك العهد به .

فلما رجع الناس رجعت معهم ، فأقمت بمكة ، حتى فشا فيها الإسلام ، ثم خرجت إلى الطائف ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسولاً ، فقيل لى : إنه لا يهيج الرسل ، فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ .

---

(١) البداية والنهاية جـ٤ صـ١٥ ، ١٦

فلما رآنى قال ﷺ : آنت وحشى ؟

قلت : نعم .

قال ﷺ : أنت قتلت حمزة ؟

قلت : قد كان من الأمر ما بلغك .

قال : فهل تستطيع أن تغيب وجهك عنى ؟

قال : فخرجت (١) .

وبهذه الطريقة استشهد حمزة ﷺ يوم " أحد " ، وجاءت هند إلى جسده فمثلت به ، وأخرجت كبده ، ولاكته فى فمها لغلها الدفين ، وحقدها الكامن ، ولكنها لم تتمكن من أكله ، فلفظته، وقد حزن النبى ﷺ كثيراً لموت حمزة ﷺ ولذلك أبعد وجهه عن رؤية وحشى رغم أن وحشياً كان قد أسلم ، وحسن إسلامه .

وقد غسلت الملائكة حمزة بعدما احتلم فى نومه ، أثناء النعاس الذى رزقه الله للمؤمنين أثناء المعركة .

ومن العجيب أن وحشياً لم يشترك فى القتال و لم يقتل غير حمزة يوم أحد لأنه لم يأت مع الجيش إلا لهذه الغاية ، ولما أسلم اشترك فى حرب الردة بعد وفاة رسول الله ﷺ وقتل مسيلمة الكذاب وجاهد فى الله حق الجهاد ، ولله فى خلقه شئون (٢) .

٣) تعدد البطولات :

برغم هذه الخسارة الفادحة التى لحقت بالمسلمين بقتل أسد الله ، وأسد رسوله ﷺ ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله ، فقد قاتل يومئذ أبو بكر ، وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن جحش ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وسعد بن الربيع ، وأنس بن النضر ، وأمثالهم ﷺ قتالاً فل عزائم المشركين ، وفتت أعضادهم ، وفرق جمعهم ، ودفعهم إلى ترك ميدان المعركة ففروا إلى قمم الجبل (٣) .

---

(١) صحيح البخارى . ك المغازى باب قتل حمزة جـ٦ صـ٣٠٣

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى باب قتل حمزة جـ٦ صـ٣٠٢ ، ٣٠٤

(٣) البداية والنهاية جـ٤ صـ٢١

٤) بطولة حنظلة الغسيل :

وكان من أبطال الجهاد يومئذ حنظلة الغسيل – وهو حنظلة بن أبي عامر ، وأبو عامر هذا هو الذى سمى بالفاسق ، كان حنظلة حديث عهد بالعرس ، فلما سمع هواتف الحرب ، وهو على امرأته ، انخلع من أحضانها ، وقام من فوره إلى الجهاد ، فلما التقى بجيش المشركين فى ساحة القتال ، أخذ يشق الصفوف ، حتى خلص إلى قائد المشركين أبى سفيان ابن حرب ، وكاد يقضى عليه لولا أن أتاح الله له الشـــهادة ، فقد شد على أبى سفيان ، فلما استعلاه ، وتمكن منه رآه شداد بن الأسود فضربه بالسيف حتى قتله ، فغسلته الملائكة ولذلك سمى بحنظله الغسيل [١] .

٥) جهاد الرماة :

وكان للفصيلة التى عينها الرسول ﷺ على جبل الرماة يد بيضاء فى إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامى ، فقد هجم فرسان من جيش مكة بقيادة خالد بن الوليد ، يساندهم أبو عامر الفاسق ، ثلاث مرات على الرماة ليحطموا جناح الجيش الإسلامى الأيسر ، و يتسربوا إلى ظهور المسلمين ، فيحدثوا البلبلة والارتباك فى صفوفهم ، وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة ، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم [٢] .

وهكذا ظهرت البطولات الإسلامية ، وانهارت مقاومة المكيين فولوا الأدبار ، وفروا هاربين فوق الجبل ، وكادت أن تنتهى المعركة بهذا النصر الحاسم ، لولا خطأ وقع فيه الرماة ، أدى إلى تغير الوضع ، وتحول النصر إلى هزيمة وانكسار ، وهو ما حدث فى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية للقتال
هزيمة المسلمين

لما انهزم المشركون ، وولوا الأدبار ، أقبل المسلمون على الغنائم والأسلاب ، وهنا جاء خطأ الرماة حين تركوا الجبل ، وخالفوا أمر رسول الله ﷺ الذى ذكره لهم وهو ينظم المعركة ، وغرتهم الأسلاب والغنائم ، وقال بعضهم لبعض : **تقيمون ها هنا فى غير شئ ؟**

---

(١) المرجع السابق جـ٤ صـ٢٢

(٢) انظر الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيبانى جـ٢١ صـ٥٣ ، ٥٤

قد هزم الله العدو ، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ! فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم !!

فقال بعضهم : **ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم : احموا ظهورنا ، ولا تبرحوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن غنمنا فلا تشركونا .**

فقال الآخرون : **لم يرد رسول الله هذا ، وانطلقوا ، فلم يبق منهم مع أميرهم عبد الله بن جبير إلا دون العشرة ، وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون** (١) .

انتهز خالد بن الوليد فرصة ترك الرماة لمكانهم ، وكان قريباً منه على ميمنة خيل المشركين ، فهجم على موضع الرماة ، واحتله بفرسانه ، وتمكن وجنوده من قتل قائد الرماة عبد الله بن جبير رضي الله عنه وجرح من بقى معه ، و لم يفطن المسلمون لهذه المباغته .

وصاح خالد فى قريش ليعودوا إلى الميدان مرة أخرى ، ويلتفوا وراء المسلمين ، فعادت قوات قريش المهزومة للقيام بهجوم جديد ، بينما خالد وفرسانه يحكمون قبضتهم على جبل الرماة ، الموجود خلف المسلمين ، وبذلك أصبح المسلمون محاطين من كافة جوانبهم ، وتحرج موقفهم وصاروا عرضة للسهام تأتيهم من كل جانب ، فانهارت مقاومتهم ، وبخاصة أن صفوفهم لم تكن ثابتة فى مواضعها ، لتستطيع الصمود بعد تبعثر أفرادها لجمع الغنائم .

تفككت صفوف المسلمين وقام إبليس بهمهته فنادى عند جبل عينين وظهر للناس فى صورة جعال بن سراقة وصرخ فى الناس إن محمداً قد قتل ، ثلاث صرخات دوت فى الوادى (٢) .

وبهذه الصورة تحول الموقف بسرعة كبيرة ، وعاد المشركون من هزيمتهم إلى انتصار يتحقق ، وبعدما كان المسلمون يعيشون فرحة الانتصار صاروا إلى هزيمة مؤلمة ، وتخبط حالهم ، واختلط توجههم ، وتداخل المسلمون ، وصاروا يقتتلون فيما بينهم ، ويضرب بعضهم بعضاً ولا يشعرون بسبب ما هم فيه من العجلة ، والدهشة ، والمفاجأة .

وجرح أسيد بن حضير جرحين ، ضربه أحدهما أبو بردة بن نيار وهو لا يدرى .

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب المغازى جـ٦ صـ٢٨٧

(٢) المغازى جـ١ صـ٢٣٢ وهذا ابتلاء نزل بجعال لأنه كان يقاتل فى صفوف المسلمين فظن المسلمون أنه ارتد حين صاح إبليس فيهم .

وضرب أبو زعنة أبا بردة ضربتين وما يشعر .

والتقت أسياف المسلمين على اليمان حسيل بن جابر وهم لا يعرفونه حين اختلطوا ، وحذيفة يقول أبى ، أبى حتى قتل ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ، فزادته مقالته هذه عند رسول الله ﷺ خيراً ، وأمر رسول الله ﷺ بديته أن تخرج ، فتصدق حذيفة بن اليمان بديته على المسلمين ، ويقال إن الذى أصابه عتبة بن مسعود .

وأقبل الحباب بن المنذر بن الجموح يصيح : يا آل سلمة !! فأقبلوا إليه جماعة واحدة : **لبيك داعى الله ! فيضرب يومئذ جبار بن صخر فى رأسه وما يدرى** [١] .

و لم ينقذهم من هذا الاضطراب إلا ظهور صيحتهم التى تميز المسلم من المشرك فأظهروا الشعار بينهم ، فجعلوا يصيحون : أمت أمت ! .... فكف بعضهم عن بعض .

وأصاب الوهن المسلمين ، وتصوروا أن دولتهم قد زالت ، وأن كيانهم تهدم ، وبخاصة بعدما سمعوا صيحة إبليس المؤذنة بقتل رسول الله ﷺ .

لقد زعزعت صيحة إبليس المعسكر الإسلامى كله ، وفى نفس الوقت قوت عزيمة المشركين لشعورهم بقرب تحقيق أمانيهم ، و لم يدم ذلك الحال طويلاً ، فلقد جاء الخبر بسلامة رسول الله ﷺ ونجاته .

وكان أول من بشرهم بسلامة رسول الله ﷺ كعب بن مالك ، فجعل يصيح ورسول الله ﷺ يشير إليه بإصبعه على فيه : أن اسكت ودعا بلأمة كعب فلبسها ، ونزع لأمته فلبسها كعب ، وقاتل كعب حتى جرح سبعة عشر جرحاً لشدة قتاله .

وأخذ أبو سفيان فى البحث عن حقيقة خبر مقتل رسول الله ﷺ **لتهدأ نفسه ، ويتيقن من تحقق هدف المشركين الأول ، فأخذ يسأل من يقابله ، ويقول : يا معشر قريش أيكم قتل محمداً ؟**

فقال ابن قميئة : أنا قتلته .

قال أبو سفيان : نسورك كما تفعل الأعاجم بأبطالها .

وأخذ أبو سفيان يطوف بأبى عامر فى أرض المعركة عساه يرى محمداً ويتأكد من قتله ؟

---

(١) المغازى جـ١ صـ٢٣٤

ولما تصفح أبو سفيان القتلى قال : ما نرى مصرع محمد ؟ كذب ابن قميئة .

ولقى أبو سفيان خالد بن الوليد فقال : هل تبين عندك قتل محمد ؟

قال خالد : رأيته قبل قليل فى نفر من أصحابه ، مصعدين فى الجبل .

قال أبو سفيان : هذا حق ، كذب ابن قميئة ، زعم أنه قتله (١) .

وهنا تغير الأمر ثانية وانكسرت شوكة الحماس القرشي وفترت حدتهم ، وثبتت فئة مع رسول الله ﷺ ، وأخذ المسلمون يفيئون إلى رسول الله ﷺ فتماسكت قوتهم ، وتمكنوا من الصمود حتى انتهت المعركة .

المرحلة الثالثة للقتال
الصمود الإسلامى

أدت مخالفة الرماة للأوامر التى تلقوها من رسول الله ﷺ إلى انكسار الجيش الإسلامى وتفكك صفوفه ، وفرار المسلمين إلى الجبل فى كل جوانبه .

ولما انكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ لم يبق منهم معه ﷺ إلا نفر يسير ، و لم يبق للمسلمين لواء قائم ولا فئة ثابتة ، وأخذت خيل المشركين تجوسهم مقبلة ومدبرة ، فى جنبات الوادى ، وتجمع المشركون ، يلتقون ولا يتفرقون ، ما يرون أحداً من الناس يردهم بعدما فر المسلمون ، وصعدوا إلى الجبل ، وقد استشهد من المسلمين من أكرمه الله تعالى بالشهادة ولولا ثبات النبى ﷺ وشجاعته لكانت النكسة الماحقة ، ولوقعت الهزيمة التى لا انتصار بعدها .

روى البيهقى عن المقداد بن عمرو ﷺ قال : **أوجع المشركون والله فينا قتلاً ذريعاً ، ونالوا من رسول الله ﷺ ما نالوا ، ألا والذى بعثه بالحق ما زال رسول الله ﷺ شبراً واحداً ، وإنه لفى وجه العدو ، ويفئ إليه طائفة من أصحابه مرة ، وتفترق عنه مرة ، فربما رأيته قائماً يرمى عن قوسه ويرمى بالحجر حتى تحاجزوا ، وثبت رسول الله ﷺ فى عصابة ثبتت معه (٢) .**

وقال محمد بن عمر : ثبت رسول الله ﷺ مكانه ، ما يزول قدماً واحداً ، بل وقف فى

---

(١) المغازى جـ١ صـ٢٣٦ ، ٢٣٧

(٢) المغازى جـ١ صـ٢٠٤

وجه العدو ، وما يزال يرمى عن قوسه ،حتى تقطع وتره ، وبقيت فى يده منه قطعة تكون شبراً فى سية القوس ، فأخذ القوس عكاشة بن محصن ليوتره له .

فقال عكاشة ﷺ : **يا رسول الله لا يبلغ الوتر .**

فقال ﷺ : **مده فيبلغ .**

قال عكاشة ﷺ : **فوالذى بعثه بالحق لمددته حتى بلغ ، وطويت منه لبتين أو ثلاثاً على سية القوس** (١) .

ثم أخذ رسول الله ﷺ قوسه ، فما زال يرمى به ، وأبو طلحة يستره متترساً عنه ، حتى تحطمت القوس وصارت شظايا ، وفنيت نبله ، فأخذ القوس قتادة بن النعمان فلم تزل عنده ، ورمى رسول الله ﷺ بالحجارة وكان أقرب الناس إلى العدو .

وثبت معه ﷺ خمسة عشر رجلاً ، **ثمانية من المهاجرين** هم : أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ﷺ ، **وسبعة من الأنصار** هم : الحباب بن المنذر ، وأبو دجانة ، وعاصم بن ثابت ، والحارث بن الصمة ، وسهل بن حنيف ، وسعد بن معاذ ، وقيل : سعد بن عبادة ، ومحمد بن مسلمة ﷺ ويقال : ثبت بين يديه يومئذ ثلاثون رجلاً كلهم يقول : **وجهى دون وجهك ، ونفسى دون نفسك ، وعليك السلام غير مودع !** (٢)

وصان الله رسوله من كيد أعدائه فى هذه المحنة القياسية فشتت رميهم ، وأفسد سهامهم وأرسل ملائكته لحفظ رسوله ﷺ .

روى الطبرانى عن ابن عباس : أن ابن مسعود ثبت يومئذ مع رسول الله ﷺ ، وجعل رسول الله ﷺ لما انكشف الناس عنه إلى الجبل لا يلوون عليه ، يدعوهم فى أخراهم ويقول: **إلى يا فلان ، أنا رسول الله ، فما يعرج عليه أحد ، هذا و النبل يأتيه ﷺ من كل ناحية ، والله تعالى يصرف ذلك عنه** (٣).

وروى محمد بن عمر الأسلمى عن نافع بن جبير قال : سمعت رجلاً من المهاجرين

---

(١) المغازى جـ١ صـ٢٤٢ ، بلوغ الأمانى جـ٢٢ صـ٣٢٧

(٢) المغازى جـ١ صـ٢٤١ ، ٢٤٢

(٣) البداية والنهاية جـ٤ صـ٣٠ ، المغازى جـ١ صـ٢٣٨

يقول : شهدت أحداً فنظرت إلى النبل من كل ناحية ، ورسول الله ﷺ وسطها ، كل ذلك يصرفه الله عنه ، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يقول يومئذ : دلونى على محمد ، لا نجوت إن نجا ، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ما معه أحد ، ثم جاوزه ولم يره فعاتبه صفوان بن أمية فى ذلك ، فقال له : والله ما رأيته ، أحلف بالله أنه منا ممنوع أما والله لقد خرجنا فتعاهدنا ، وتعاقدنا على قتله ، فلم نخلص إليه (١).

وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا ، وتعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ ، وعرفوا المشركين بذلك ، وهم : عبد الله بن شهاب ، وعتبة بن أبى وقاص ، وعمرو بن قميئة ، وأبى بن خلف ، وزاد بعضهم عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد عبد العزى ابن قصى .

قال ابن سعد : قال أبو النمر الكنانى وهو جد شريك بن عبد الله بن أبى نمر : شهدت أحداً مع المشركين ، ورميت يومئذ بخمس رميات ، فأصبت منها بأسهم ، وإنى لأنظر إلى رسول الله ﷺ ، وإن أصحابه لمحدقون به ، وإن النبل لتمر عن يمنيه ، وعن شماله ، وتقصر بين يديه ،وتخرج من ورائه ، ثم هدانى الله للإسلام (٢).

وروى عبد الرازق عن الزهرى قال : ضرب وجه رسول الله ﷺ يوم " أحد " سبعين ضربة بالسيف ، وقاه الله شرها كلها .

وبايعه يومئذ على الموت ثمانية : **ثلاثة من المهاجرين وهم : على ، والزبير ، وطلحة وخمسة من الأنصار : أبو دجانة ، والحارث بن الصمة ، والحباب بن المنذر ، وعاصم بن ثابت ، وسهل بن حنيف ، فلم يقتل منهم أحد** (٣).

وروى أبو يعلى بسند حسن ، عن على ﷺ قال : لما انجلى الناس عن رسول الله ﷺ يوم " أحد " نظرت فى القتلى ، فلم أر رسول الله ﷺ فقلت : والله ما كان ليفر وما أراه فى القتلى ، ولكن أرى أن الله تعالى غضب علينا بما صنعنا ، فرفع نبيه ﷺ ، فما لى خير من أن أقاتل حتى أقتل ، فكسرت جفن سيفى ، ثم حملت على القوم فأفرجوا لى ، فإذا أنا برسول

---

(١) البداية والنهاية جـ٤ صـ٣٠

(٢) الطبقات جـ٢ صـ٤٢

(٣) البداية والنهاية جـ٤ صـ٢٩

الله ﷺ بينهم أى يقاتلهم ﷺ [١].

وتكاثر المشركون على رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله، رمى عتبة بن أبي وقاص– لعنه الله–رسول الله ﷺ بأربعة أحجار فكسر حجر منها رباعيته اليمنى السفلى ، وجرح شفته السفلى [٢] .

وشجه عبد الله بن شهاب الزهرى فى وجهه ، وسال الدم من الشجة حتى أخضل الدم لحيته الشريفة [٣].

ورماه عبد الله بن قميئة (بفتح القاف وكسر الميم وبعدها همزة) فشج وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته وعلاه بالسيف ، وكان عليه درعان ، فوقع ﷺ فى حفرة أمامه على جنبه ، وهى من الحفر التى عملها أبو عامر الفاسق ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون ، فأغمى عليه ﷺ ، فأخذه على بن أبي طالب بيده ورفعه طلحة حتى استوى قائماً فجحشت ركبتاه ، ولم يصنع سيف ابن قميئة شيئاً إلا وهن الضربة بثقل السيف ، ومكث ﷺ يجد وهن الضربة على عاتقة شهراً أو أكثر من شهر ، ورمته جماعة كثيرة بالحجارة حتى وقع لشقه [٤].

لقد دبت روح الإيمان فى نفوس المسلمين ودفعتهم إلى قوة المجاهدة ، وطلب الشهادة فى سبيل الله صادقين ، مخلصين عندما رأوا الأعداء يقصدون رسول الله ﷺ .

وقد أدى ثبات رسول الله ﷺ أمام هاتيك الضربات الموجعة ، وهذا الحصار المحكم وتلك الرميان المتتابعة ، أدى إلى عودة الروح إلى قلوب المؤمنين ، فاندفعوا لحماية دينهم الذى تحملوا مسئوليته مع رسول الله ﷺ و لم يرتضوا لأنفسهم الحياة الذليلة المهينة وبخاصة أن استشهادهم فى سبيل الله يحقق لهم الحياة عند الله فرحين مستبشرين .

ذلك أن فريقاً من الصحابة حينما سمعوا صائحاً يقول : قتل محمد طار صوابهم ، وانهارت عزيمتهم ، فمر بهم أنس بن النضر ، **وقال لهم : ما تنظرون ؟**

---

(١) المغازى جـ١ صـ١٦٠ ، ١٦١

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى باب ما أصاب النبى ﷺ يوم أحد جـ٦ صـ٢٠٣

(٣) المصدر السابق جـ٦ صـ٢٠٤

(٤) البداية والنهاية جـ٤ صـ٢٩ ، ٣٠

قالوا : قتل رسول الله ﷺ .

قال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى المسلمين ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين ، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ ، فقال أين يا أبا عمر ؟

فقال أنس : واها لريح الجنة يا سعد ، إنى أجده دون أحد ، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل ، فما عرف حتى عرفته أخته بعد نهاية المعركة ببنانه وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم [١] .

ونادى ثابت بن الدحداح أنس بن النضر ، وهو يتشحط فى دمه فقال له : يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل ؟!!

فقال أنس : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم [٢] .

وبمثل هذا الاستبسال والفداء عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية ، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم ، وأخذوا سلاحهم ، وانطلقوا يهاجمون تيارات المشركين ، الذين يحاولون الوصول إلى رسول الله بعدما بلغهم أن خبر مقتل النبى ﷺ كذب مختلق .

ولما تأكد المسلمون من حياة رسول الله ﷺ ازدادوا قوة ، وتمكنوا من الإفلات من التطويق ، وتجمعوا حول رسول الله ﷺ بعد أن باشروا القتال المرير، وجالدوا بضراوة بالغة ، وثبتوا ثبوت الجبال الرواسى، و لم يتمكن المشركون من زحزحتهم ، وإبعادهم عن رسول الله ﷺ .

أبدى المسلمون بعد تجمعهم حول رسول الله ﷺ شجاعة نادرة ، وأصروا على الصمود حتى الموت ، و لم يرضوا لأنفسهم الذل والهوان ، و لم يقبلوا أن يؤتى الإسلام من قبلهم ، وجاهدوا مخلصين ، وفدوا رسول الله ﷺ بأرواحهم ، **ومن هؤلاء** :

١) **سعد بن أبي وقاص** : فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته ، وقال: إرم فداك أبى وأمى و لم يجمع النبى ﷺ أبويه فداء لأحد فى يوم أحد لغير سعد ﷺ[٣]

٢) **طلحة بن عبيد الله** يروى النسائى بسنده عن جابر بن عبد الله يقول : أدرك

---

(١) المرجع السابق جـ٤ صـ٣٢

(٢) البداية والنهاية جـ٤ صـ٣١

(٣) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة أحد جـ٦ صـ٢٩٣

المشركون رسول الله ﷺ فقال ﷺ : من للقوم ؟

فقال طلحة : أنا .

فلما قتل الأنصار كلهم ، تقدم طلحة فقاتلهم كقتال الأحد عشر ، حتى ضربت يده وقطعت أصابعه ، فقال : حس .

فقال النبى ﷺ لو قلت : بسم الله لرفعتك الملائكة ، والناس ينظرون .

وقد جرح طلحة يوم " أحد " تسعاً وثلاثين جرحاً ، أو خمساً وثلاثين ، وشلت إصبعه السبابه والتى تليها [١] .

وروى الترمذى أن النبى ﷺ قال فيه يومئذ : " من نظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله [٢] .

وروى أبو داود الطيالسى عن عائشة قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم " أحد " قال: هذا يوم طلحة .

وكان ﷺ يقول إذا رأى طلحة ﷺ : هذا سلفى فى الدنيا وسلفى فى الآخرة [٣] .

وقال فيه أبو بكر أيضاً :

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت　　　لك الجنان وبوأت المها العينا

يقول أبو بكر الصديق : لما كان يوم " أحد " انصرف الناس كلهم عن النبى ﷺ فكنت أول من فاء إلى النبى ﷺ فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ، ويحميه ، قلت : كن طلحه ، فداك أبي وأمى ، كن طلحه فداك أبي وأمى ، فلم أنشب أن أدركنى أبو عبيدة بن الجراح ، وإذا هو يشتد كأنه طير حتى لحقنى ، فدفعنا إلى النبى ﷺ ، فإذا طلحة بين يديه صريعاً ، فقال النبى ﷺ " دونكم أخاكم فقد أوجب " .

وقد رمى النبى ﷺ فى جبهته ووجنته ، حتى غابت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته فذهبت لأنزعهما عن انبى ﷺ فقال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر ألا تركتنى .

فأخذ بفيه ، فجعل ينضضه كراهية أن يؤذى رسول الله ﷺ ثم استل السهم بفيه

---

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان جـ١ صـ٢٨٦

(٢) سنن الترمذى كتاب المناقب باب مناقب طلحة جـ٥ صـ٦٤٤

(٣) فتح البارى جـ٧ صـ٣٦١

فندرت ثنية أبي عبيدة ، قال أبو بكر : ثم ذهبت لآخذ الآخر ، فقال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتنى فأخذ بفيه ، فجعل ينضضه حتى استله فندرت ثنية أبي عبيدة الأخرى ، ثم قال رسول الله ﷺ " دونكم أخاكم ، فقد أوجب .

يقول أبو بكر : فأقبلنا على طلحة نعالجه ، وقد أصابته بضع وثلاثون بين ضـربة وطعنة ورمية .

وهذا أيضا يدل على مدى كفاءة طلحة ذلك اليوم وتفانيه فى الكفاح والنضال [١]

٣) **ومن المسلمين الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ** وصدوا أعداءه عنه أبـو دجانـة ، ومصعب بن عمير ، وعلى بن أبى طالب ، وسهيل بن حنيف ، ومالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى ، وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ، وقتادة بن النعمان ، وعمـر بن الخطاب ، وحاطب بن أبى بلتعة ، وسهل بن حنيف ، وأبو طلحة .

٤) **كان أبو طلحة** ﷺ يسور نفسه بين يدى رسول الله ﷺ ، ويرفع صدره ليقيه من سهام العدو ، يقول أنس : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى ﷺ ، وأبو طلحة بين يديه مجوب عليه بحجفه له ، وكان رجلاً رامياً شديداً النزع ، كسر يومئذ قوسين ، أو ثلاثاً ، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل ، فيقول " انثرها لأبى طلحة " ويشرف النبى ﷺ ينظر إلى القوم ، فيقول أبو طلحة ، بأبى أنت وأمى لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك .

يقول أنس : كان أبو طلحة يتترس مع النبى ﷺ بترس واحد ، وكان أبـو طلحـة حسن الرمى ، فكان إذا رمى تشرف النبى ﷺ فينظر إلى موقع نبله .

٥) **حاطب بن أبى بلتعة ﷺ تعقب حاطب ﷺ عقبة بن أبى وقاص** -الذى كسـر الرباعية الشريفة لرسول الله ﷺ فضربة بالسيف حتى طرح رأسه ، ثم أخذ فرسه وسـيفه ، وكان سعد بن أبى وقاص ﷺ شديد الحرص على قتل أخيه عتبة هذا إلا أنه لم يظفر به ، بل ظفر به حاطب .

٦) **وكان سهل بن حنيف** ﷺ أحد الرماة الأبطال ، بايع رسول ﷺ على الموت ،

---

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان جـ٦ صـ٢٨٦

ثم قام بدور فعال فى رد المشركين .

٧) وقاتل **عبد الرحمن بن عوف** حتى أصيب فوه يومئذ فهتم ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر ، بعضها فى رجله فعرج .

٨) وامتص **مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى** الدم من وجنته ﷺ حتى أنقاه ، فقال : " مجه " .

فقال ﷺ : **والله لا أمجه أبداً ، ثم أدبر يقاتل .**

فقال النبى ﷺ "**من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا، فقتل شهيداً**

٩) **وكانت أم عمارة (نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف)** قد شهدت أحداً هى وزوجها وابنها ، ومعها شن تسقى به الجرحى ، فقاتلت وأبلت بلاء حسناً يومئذ ، وهى حاجزة ثوبها على وسطها ، حتى جرحت اثنى عشر جرحاً ، بين طعنة برمح ، أو ضربة بسيف : وذلك أنها كانت بين يدى رسول ﷺ هى وابناها عبد الله ، وحبيب ابنا زيد بن عاصم ، وزوجها غزية بن عمرو ، يذبون عنه .

فلما انهزم المسلمون أخذت أم عمارة **تباشر القتال ، وتذب عن رسول الله ﷺ بالسيف ، وترمى بالقوس ، ولما أقبل ابن قميئة –لعنه الله– يريد النبى ﷺ كانت فيمن اعترض له ، فضربها على عاتقها ضربة صار لها فيما بعد ذلك غور أجوف ، وضربته هى ضربات**

فقال رسول الله ﷺ : لمقام نسيبه بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان .

وقال ﷺ : ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى .

وقال ﷺ : لابنها عبد الله بن زيد : بارك الله عليكم من أهل بيت ، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيبك (يعنى زوج أمه) خير من مقام فلان ، وفلان ، ومقامك خير من مقام فلان وفلان ، رحمكم الله أهل بيت .

قالت أم عمارة : ادع الله أن نرافقك فى الجنة .

قال ﷺ : اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة .

قالت : ما أبالى ما أصابنى من الدنيا [١] .

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ١٤٨ والمغازى جـ١ صـ٢٦٩ ، ٢٧٣

١٠) وقاتل **مصعب بن عمير** بضراوة بالغة ، يدافع عن النبى ﷺ هجوم ابن قميئة وأصحابه ، وكان اللواء بيده ، فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت ، فأخذ اللواء بيده اليسرى ، وصمد فى وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى ، ثم برك عليه بصدره وعنقه حتى قتل ، وكان الذى قتله هو ابن قميئة ، وهو يظنه رسول الله ﷺ - لشبهه به - فانصرف ابن قميئة إلى المشركين وصاح : إن محمداً قد قتل [١] .

١١) وخرج **محمد بن مسلمة** يطلب من النساء ماء ، وكن قد جئن أربع عشرة امرأة مسلمة منهن **فاطمة وأم سليم بنت ملحان ، وعائشة أم المؤمنين وحمنة بنت جحش** ومنهن **أم أيمن** رضى الله عنهن ، وكن يسقين العطشى ، ويداوين الجرحى ، ويناولن الطعام ، ويحملن على ظهورهن ما يحتاج إليه المقاتلون من طعام ، وشراب ، وسلاح .

خرج إليهم محمد بن مسلمة فلم يجد عندهم ماء ، وكان رسول الله ﷺ قد عطش عطشاً شديداً ، فذهب محمد إلى قناة بها ماء حتى استقى وأتى بماء عذب ، فشرب رسول الله ﷺ ودعا له بخير ، وجعل الدم لا ينقطع .

فلما رأت فاطمة الدم لا يرقأ ، وهى تغسله وعلى يصب الماء عليها بالمجن ، أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رماداً ، ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم ، ويقال إن فاطمة رضى الله عنها داوته بصوفه محترقة ، وكان ﷺ بعد ذلك يدواى الجرح فى وجهه بعظم بال حتى يذهب أثره ، ومكث يجدوهن ضربة ابن قميئة على عاتقه شهراً أو أكثر من شهر [٢]

١٢) **وكان شماس بن عثمان بن الشريد المخزومى** لا يرمى رسول الله ﷺ ببصره يميناً وشمالاً إلا رآه فى ذلك الوجه يذب بسيفه ، حتى غشى رسول الله ﷺ فترس بنفسه دونه حتى قتل رحمه الله ، فذلك قول النبى ﷺ : **ما وجدت لشماس شبهاً إلا الجنة**[٣].

١٣) ولقى **رشيد الفارسى** مولى بنى معاوية رجلاً من المشركين قد ضرب سعداً مولى حاطب، فضربه على عاتقه فقتله ، فاعترض له أخوه فقتله أيضاً فقال رسول الله ﷺ : **أحسنت يا أبا عبد الله وكناه يومئذ ولا ولد له**[٤] .

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة أحد جـ٦ صـ٢٨٨

(٢) البداية والنهاية جـ٤ صـ٣٠

(٣) إمتاع الأسماع جـ١ صـ١٤٤

(٤) المرجع السابق جـ١ صـ١٤٦

١٤) وقال **مخيريق من أحبار يهود** ، لقومه : يا معشر يهود ! والله إنكم لتعلمون أن محمداً لنبى ، وأن نصره عليكم لحق ! ثم أخذ سلاحه ، وحضر أحداً مع النبى ﷺ فقتل ، وقال حين خرج : إن أصبت فأموالى لمحمد يضعها حيث أراد الله ، فهى عامة صدقات رسول الله ﷺ وقال فيه ﷺ : مخيريق خير يهود (١).

فى ذلك الظرف الدقيق ، والساعة الحرجة ، أنزل الله نصره على رسول ﷺ وأرسل ملائكته لحمايته والدفاع عنه ، وتخذيل المشركين وصرفهم من أن ينالوه ﷺ بسوء ، وقد كان هدفهم الأول قتل رسول الله ﷺ ففى الصحيحين عن سعد قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم " أحد " ، ومعه رجلان يقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد ، يعنى جبريل وميكائيل (٢) .

وقد نزلت الملائكة يوم أحد ، إلا أنها لم تقاتل لعدم صبر المؤمنين ، الذى جعله الله تعالى شرطاً لاشتراك الملائكة فى القتال ، وقيل بل نزلوا فرادى دفاعاً عن رسول الله ﷺ .

ومن الله على المجاهدين ، الذين أحاطوا برسول الله ﷺ وتكاتفوا فى الدفاع والصمود من عليهم سبحانه وتعالى بنعاس ، فناموا وذهب ما بهم من حزن وتعب .

يقول طلحة بن عبيد الله : غشينا النعاس حتى كان جحف القوم تتناطح .

ويقول الزبير بن العوام : غشينا النعاس فما منا رجل إلا وذقنه فى صدره من النوم فأسمع متعب بن قشير يقول، وإنى لكالحالم ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾(٣) فأنزل الله تعالى فيه ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (٤)

يقول أبو اليسر : لقد رأيتنى يومئذ فى أربعة عشر رجلاً من قومى إلى جنب رسول الله ﷺ وقد أصابنا النعاس أمنة منه ، ما منهم رجل إلا يغط غطيطاً حتى إن الحجف لتتناطح ولقد رأيت سيف بشر بن البراء بن معرور يسقط من يده وما يشعر به ، وأخذه بعدما تثلم وإن

---

(١) المغازى جـ١ صـ٢٦٢ ، ٢٦٣

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة أحد جـ٦ صـ٢٩٢

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٤ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٥٤ .

المشركين لتحتنا [١] .

ويقول أبو طلحة : ألقى علينا النعاس ، فكنت أنعس حتى سقط سيفى من يدى ، وكان النعاس لم يصب أهل النفاق والشك يومئذ ، فكل منافق يتكلم بما فى نفسه ، وإنما أصاب النعاس أهل اليقين والإيمان [٢] .

وقعت هذه الأحداث كلها بسرعة هائلة ، فى لحظات خاطفة ، وأدرك المصطفون الأخيار من صحابته ﷺ الذين كانوا فى مقدمة المسلمين عند بدء القتال خطورة الموقف ، وضرورة الصمود ، والتصدى لأعداء الله ، وأعداء رسوله ، وزاد حماسهم لما سمعوا صوته ﷺ فأسرعوا إليه ، لئلا يصل إليه شئ يكرهونه ، إلا أنهم وصلوا وقد لقى رسول الله ﷺ ما لقى من الجراحات ، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح ، فلما وصلوا أقاموا حوله سياجاً من أجسادهم وسلاحهم ، وبالغوا فى وقايته من ضربات العدو ورد هجماتهم .

وانتهت الجولة الثالثة بتكافؤ الفريقين ، بعدما أصابهما التعب والإرهاق ، فلقد عاشوا اليوم كله بين الكر والفر ، وكثرت الجراحات ، وتكسرت الرماح وقل النبل ، وعقرت الخيل ، ورأت قريش ضرورة الانسحاب والرجوع إلى مكة قبل أن يتغير الأمر ....

سئل عمرو بن العاص عن كيفية افتراق المشركين والمسلمين يوم أحد وكان وقتها فى معسكر المشركين .. فقال : لما كررنا عليهم أصبنا من أصبنا منهم ، وتفرقوا فى كل وجه وفاءت لهم فئة بعد ، فتشاورت قريش فقالوا : لنا الغلبة ، فلو انصرفنا فإنه بلغنا أن ابن أبى انصرف بثلث الناس وقد تخلف ناس من الأوس والخزرج ، ولا نأمن أن يكروا علينا ، وفينا جراح ، وخلينا عامتها قد عقرت منا النبل فمضوا [٣].

وبدأ القرشيون فى الانسحاب ، والرجوع إلى مكة ، وأقبل أبو سفيان يفاخر بانتصار المشركين ، وسار حتى أشرف على المسلمين ، وهم فى عرض الجبل ، فأخذ يصيح بأعلى صوته : أعل هبل ... أين ابن أبى كبشه ؟ .... أين ابن أبى قحافة ؟ ..... أين ابن الخطاب ؟ .... يوم بيوم ببدر ، ألا إن الأيام دول ، وإن الحرب سجال

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ١٥٩

(٢) المغازى جـ١ صـ٢٩٦ .

(٣) المغازى جـ١ صـ٢٩٩ .

وحنظلة بحنظلة .

فقال عمر ﷺ : ألا أجيبه يا رسول الله ؟

فقال ﷺ : بلى فأجبه .

فقال أبو سفيان : أعل هبل !

فقال عمر ﷺ : الله أعلى وأجل !

قال أبو سفيان : إنها قد أنعمت فعلا ، أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟

فقال عمر ﷺ : هذا رسول الله ، وهذا أبو بكر ، وهذا عمر .

فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، ألا إن الأيام دول ، وإن الحرب سجال .

فقال عمر : لا سواء ! قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار .

قال أبو سفيان : إنكم لتقولون ذلك ، لقد خبنا إذا وخسرنا ! لنا العزى ولا عزى لكم .

فقال عمر : الله مولانا ، ولا مولى لكم .

قال أبو سفيان: إنها قد أنعمت يا ابن الخطاب علينا، قم إلى يا ابن الخطاب أكلمك فقام عمر فقال أبو سفيان : أنشدتك بدينك هل قتلنا محمداً ؟

قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .

قال أبو سفيان : أنت أصدق عندى من ابن قميئة .

ثم قال أبو سفيان ورفع صوته : إنكم واجدون فى قتلاكم عنتاً ومثلاً ، ألا إن ذلك لم يكن عن رأى سراتنا ، أما إذا كان ذاك فلم نكرهه ثم نادى : ألا إن موعدكم بدر الصفراء على رأس الحول .

فقال رسول الله ﷺ : قل نعم !

فقال عمر ﷺ : نعم .

وانصرف أبو سفيان إلى أصحابه ، وأخذوا فى الرحيل [1] .

---

(١) صحيح البخارى . ك المغازى باب غزوة أحد جـ٦ صـ٢٨٧.

فأشفق رسول الله ﷺ والمسلمون من أن يغير المشركون على المدينة فتهلك الذرارى والنساء ، فبعث رسول الله ﷺ سعد بن أبى وقاص لينظر وقال له : إن ركبوا الإبل ، وجنبوا الخيل فهو الظعن ، وإن ركبوا الخيل ، وجنبوا الإبل فهى الغارة .

ثم قال ﷺ : والذى نفسى بيده لئن ساروا إليها لأسيرن إليهم ، ثم لأناجزنهم .

فذهب سعد يسعى إلى العقيق ، فإذا هم قد ركبوا الإبل ، وجنبوا الخيل بعدما تشاوروا حول نهب المدينة ، فأشار عليهم صفوان بن أمية ألا يفعلوا ، فإنهم لا يدرون ما يغشاهم ، فعاد فأخبر النبى ﷺ (١) .

وقدم أبو سفيان مكة فلم يصل إلى بيته حتى أتى هبل فقال : **قد أنعمت ونصرتنى وشفيت نفسى من محمد وأصحابه ، وحلق رأسه .**

وكان أول من قدم مكة بخبر أحد ، وانصراف المشركين عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فكره أن يأتيهم بهزيمة أهلهم ، فقدم الطائف وأخبر أن أصحاب محمد قد ظفروا وانهزمنا .

ثم قدم وحشى مكة فأخبرهم بمصاب المسلمين ، ووقف على الثنية التى تشرف على الحجون فنادى : **يا معشر قريش ! أبشروا ، قد قتلنا أصحاب محمد مقتلة لم يقتل مثلها فى زحف قط ، وجرحنا محمداً فأثبتناه بالجراح ، وقتل حمزة ، فسروا بذلك .**

وبعد انتهاء القتال أخذ المسلمون يتفقدون قتلاهم ، ليقفوا على مدى مصابهم يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه : **بعثنى رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لى : إن رأيته فأقرئه منى السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله ﷺ : كيف تجدك ؟**

فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بآخر رمق ، وفيه سبعون ضربة ، ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم ، فقلت : يا سعد ، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أخبرنى كيف تجدك ؟

فقال سعد : وعلى رسول الله السلام ، قل له : يا رسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومى الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خلص عدوكم إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته فجاء زيد إلى رسول الله ﷺ وأخبره خبره (٢) .

---

(١) فتح البارى جـ٧ صـ٣٤٧ .

(٢) المغازى جـ١ صـ٢٩٢ ، ٢٩٣

يقول ابن إسحاق: وخرج رسول الله ﷺ- فيما بلغنى- يلتمس حمزة بن عبد المطلب وجعل يقول : ما فعل عمى ؟ ويكرر ذلك ، فخرج الحارث بن الصمة يلتمسه فأبطأ، فخرج على فوجد حمزة ببطن الوادى مقتولاً، فأخبر النبى ﷺ فخرج يمشى حتى وقف عليه فوجده قد بقر بطنه عن كبده ، ومثل به ، فجدع أنفه ، وأذناه ، فنظر إلى شئ لم ينظر إلى شئ قط كان أوجع لقلبه منه ، ونظر وقد مثل به .

فقال ﷺ : أحتسبك عند الله رحمة الله عليك يا عمى ، فإنك كنت كما علمتك فعولاً للخير ، وصولاً للرحم ، ولولا حزن من بعدى عليك ، وتكون سبة من بعدى لتركتك ، حتى تحشر فى بطون السباع ، وحواصل الطير [(١)] .

ثم قال ﷺ لمن حوله : أبشروا جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة مكتوب فى أهـــل السموات السبع ، حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، وأسد رسوله ﷺ .

وقال ﷺ : لئن أظهرنى الله تعالى على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن ثلاثين رجلاً منهم [(٢)] .

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ ، وغيظه على من فعل بعمه ما فعل قالوا : والله لئن ظفرنا الله تعالى بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب .

وفى توعده ﷺ وتوعد أصحابه لكفار مكة مخالفة للعقوبة الشرعية المقررة، ولذلك نزل جبريل والنبى ﷺ واقف عند أحد بعد مقالته بخواتيم سورة النحل وفيها يقول الله تعالى ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [(٣)] .

فكفر النبى ﷺ عن يمينه وأمسك عن الذى أراد وصبر ، وفعل أصحابه مثل ما فعل [(٤)]

يقول ابن إسحاق أيضاً : وأقبلت صفيه بنت عبد المطلب رضى الله عنها لتنظر إلى حمزة وكان أخاها لأمها وأبيها، فكره رسول الله ﷺ أن تراه، فقال ﷺ : المرأة ..المرأة .

---

(١) أسباب النزول للنيسابورى صـــ١٦٤

(٢) سيرة النبى جـــ٢ صـــ٩٦ ، بغية الرائد جـــ٦ صـــ١٧٣ وفيه سبعون بدل ثلاثين .

(٣) سورة النحل الآية ١٢٦

(٤) أسباب النزول صـــ١٦٤

فقال الزبير بن العوام: فتوسمت أنها أمي صفية .

فقال ﷺ له : ألقها فأرجعها لا ترى ما بأخيها ، فخرج الزبير يسعى فأدركها ، قبل أن تنتهي إلى القتلى ، فردها فلكمت صدره ، وكانت امرأة جلـد ة وقالت : إليك عني لا أرض لك [١].

فقال الزبير لها : يا أمة إن رسول الله يأمرك أن ترجعي .

قالت : ولم ؟ وقد بلغني أنه قد مثل بأخي ؟ وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك فلأصبرن ، وأحتسبن إن شاء الله .

فجاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره .

فقال ﷺ : خل سبيلها .

فأتته فنظرت إليه ، واسترجعت ، واستغفرت له [٢] .

وروى الإمام أحمد وأبو يعلى والبزار عن الزبير والطبراني بسند رجاله ثقات ، عن ابن عباس : أن صفيه رضي الله عنها أتت بثوبين معها فقالت : هذان ثوبان جئت بهمـا لأخي حمزة ، فقد بلغني مقتله فكفنوه فيهما .

يقول ابن عبـاس ﷺ : فجئنا بالثوبين لنلفه فيهما ، فإذا إلى جنبه رجـل مـن الأنصار ، فعل به مثل ما فعل بحمزة ، فوجدنا غضـاضة وحيـاء أن نكفن حمزة في ثوبين ، والأنصاري لا كفن له .

فقلنا : لحمزة ثوب ، وللأنصاري ثوب ، فكان أحدهما أكبر من الآخر ، فأقرعنا بينهما فكفنا كلاً منهما في الثوب الذي صار [٣] .

وأراد أبو قتادة الأنصاري ﷺ أن ينال من قريش ، لما رأى من غم رسول الله ﷺ في قتل حمزة وما مثل به ، ورسول الله ﷺ يشير إليه أن اجلس وكان قائماً ، ثم قال ﷺ له: يا أبا قتادة ، إن قريشاً أهل أمانة من بغاهم العواثر أكبه الله تعالى لفيه ، وعسى

---

(١) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد جـ٦ صـ١٧٠

(٢) سيرة النبي جـ٢ صـ٩٧

(٣) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد جـ٦ صـ١٧٠

إن طالت بك حياة أن تحقر عملك مع أعمالهم ، وفعالك مع فعالهم ، ولولا أن تبطر قريش لأخبرها بما لها عند الله تعالى [١] .

فقال أبو قتادة : يا رسول الله ، ما غضبت إلا لله عز وجل ، ولرسوله ﷺ ، حين نالوا من حمزة ما نالوا .

فقال رسول الله ﷺ : صدقت ، بئس القوم كانوا لنبيهم .

ووجد المسلمون فى الجرحى الأصيرم — عمرو بن ثابت — وبه رمق يسير ، وكانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه ، فقالوا : إن هذا الأصيرم ما جاء به ؟

لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر ، ثم سألوه : ما الذى جاء بك ؟ أحرباً على قومك أم رغبة فى الإسلام ؟

فقال : بل رغبة فى الإسلام ، آمنت بالله ورسوله وأسلمت ثم أخذت سيفى فغدوت إلى رسول الله ﷺ ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابنى ما ترون ، ومات من وقته ، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال : هو من أهل الجنة [٢]

ووجدوا فى الجرحى قزمان — وكان قد قاتل قتال الأبطال، قتل وحده سبعه، أو ثمانية من المشركين— وجدوه قد أثخنته الجراح، فاحتملوه إلى دار بنى ظفر، وبشره المسلمون فقال: والله ما قاتلت إلا عن أحساب قومى، ولولا ذلك ما قاتلت، فلما اشتد به الجراح نحر نفسه، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذكر له : إنه من أهل النار [٣].

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ١٤٥

(٢) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى جـ٢٢ صـ٢٠٣

(٣) المغازى جـ١ صـ٢٢٤

ـ رابعاً ـ
نتائج المعركة

اختلفت نتيجة معركة " أحد " عن نتيجة معركة " بدر " فقد استشهد من المسلمين عدد كبير ما بين السبعين إلى خمسة وسبعين شهيداً ، ولحقت الجراح بسائر أفراد الجيش الإسلامى ، و لم يقتل من المشركين إلا أربعة وعشرون رجلاً ، و لم يؤسر منهم أحد مع قلة الجرحى منهم .

يروى الأمام أحمد والشيخان والنسائى عن البراء بن عازب ﷺ قال : أصاب المشركون منا يوم أحد سبعين[١] .

وروى ابن حبان والحاكم والبيهقى عن أبى بن كعب ﷺ قال : أصيب يوم أحد من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة يقول الحافظ : وكان الخامس سعد مولى حاطب بن أبى بلتعة ، والسادس ثقف بن عمرو الأسلمى حليف بنى عبد شمس [٢] .

ونقل الحافظ محب الدين الطبرى عن الإمام مالك رحمه الله : أن شهداء " أحد : خمسة وسبعون من الأنصار ، أو أحد وسبعون .

وعن الإمام الشافعى رحمه الله أنهم اثنان وسبعون شهيداً [٣] .

وقد دفن الشهداء بملابسهم التى كانوا يلبسونها ، بلا غسل ما عدا حمزة وأبا حنظلة فقد غسلتهم الملائكة .

وأما الصلاة عليهم فقد روى ابن إسحاق عن من لايتهم عن مقسم عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ أمر بعمه حمزة فسجى ببردة ، ثم صلى عليه فكبر سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى ووضعهم بجوار حمزة وصلى عليهم واحداً بعد واحد ، فصلى عليه وهو مع كل منهم ثنتين وسبعين صلاة [٤].

---

(١) الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيبانى جـ٢١ صـ٥٣

(٢) فتح البارى جـ٧ صـ٣٥١

(٣) يرجح المفسرون أن عدد الشهداء سبعون شهيداً ويستدلون بقوله ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا ﴾ لأن المسلمين أصابوا المشركين يوم " بدر " بمائة وأربعين مابين قتيل وأسير ، والآية تشير إلى أن إصابة المشركين فى "بدر " ضعف إصابة المسلمين فى " أحد " .

(٤) سيرة النبى جـ٢ صـ٩٨

و لم يأخذ بهذا الحديث فقهاء الحجاز ولا الأوزاعى ، وذكروا أن النبى ﷺ لم يصل على أحد من الشهداء ، واستدلوا على رأيهم بوجوه :

الوجه الأول :

ضعف إسناد هذا الحديث ، لأن ابن إسحاق قال : حدثنى من لا يتهم ، يعنى : الحسين بن عمارة – **فيما ذكروا** – ولا خلاف فى ضعف الحسين بن عمارة عند أهل الحديث ، وأكثرهم لا يرونه شيئاً ، وإن كان الذى عناه ابن إسحاق فى قوله : حدثنى من لا أتهم غير الحسين ، فهو مجهول ، والجهل يضعف الحديث ، وكل الروايات الواردة فى هذا الموضوع تعتمد على رواية ابن إسحاق وبذلك تكون كل الروايات ضعيفة .

الوجه الثانى :

حديث الصلاة على شهداء أحد لم يصحبه العمل بما دل عليه ، لأن الثابت أن رسول الله ﷺ لم يصل على شهيد فى شئ من مغازيه كلها و لم ترد رواية فى هذا الشأن إلا هذه الرواية التى رواها ابن إسحاق فى شهداء أحد .

وكذلك لم يثبت و لم يرو أن الخليفتين أبا بكر وعمر ﷺ صليا على شهداء أبداً وحكمة عدم الصلاة على الشهداء والله أعلم ، تحقيق حياة الشهداء ، ومعاملتهم معاملة الأحياء تصديقاً لقوله سبحانه ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾(١) فالتعامل معهم على اعتبار هذه الحياة التى ذكرتها الآية .

والقائلون بأن رسول الله ﷺ لم يصل على الشهداء يؤولون ما رواه الشيخان من أنه ﷺ صلى على قتلى أحد ، ويذكرون أن ذلك كان بعد ثمانى سنوات حيث صلى عليهم ﷺ كالمودع للأحياء والأموات ، فيكون المراد بالصلاة حينئذ الدعاء ، وكان النبى ﷺ يدعو للموتى عموماً بلا تكبير ، ولا نية (٢) .

يروى البخارى بسنده عن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ : **صلى على قتلى "أحد " بعد ثمانى سنين ، كالمودع للأحياء والأموات ، ثم طلع المنبر ، فقال : إنى بين**

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٩ .

(٢) الروض الأنف جـ٣ صـ١٧٨ .

أيديكم فرط ، وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض ، وإنى لأنظر إليه من مقامى هذا، وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها (١) .

يؤيد ذلك ما رواه البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله : **كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد ، فى ثوب واحد ثم يقول : أيهم أكثر أخذا للقرآن ؟ فإذا أشير له إلى أحد ، قدمه فى اللحد وقال ﷺ : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة ، وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يصل عليهم ولم يغسلوا** (٢).

الوجه الثالث :

إن المسلمين حملوا قتلاهم إلى المدينة ، ودفنوهم بالبقيع ، و لم يتمكنوا من إعادتهم إلى "أحد" .... ولو كان النبى ﷺ صلى عليهم لدفنهم عقب الصلاة كما رغب .

ومما يذكر هنا أن الناس ، أو عامتهم قد حملوا قتلاهم إلى المدينة ، ودفنوهم بالبقيع ، فلما أمر الرسول ﷺ بردهم إلى أحد لم يتمكنوا من ذلك ، و لم يردوا إلا رجلاً واحداً أدركه المنادى قبل أن يدفن ، **وهو شماس بن عثمان المخزومى** ﷺ ، الذى حمل إلى المدينة وبه رمق فأدخل على عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ .

فقالت أم سلمة زوج النبى ﷺ : إبن عمى يدخل على غيرى !

فقال رسول الله ﷺ : إحملوه إلى أم سلمة ، فحمل إليها فمات عندها .

فأمر رسول الله ﷺ برده إلى " أحد " ، فرد إليها ، ودفن هناك كما هو فى ثيابه التى مات فيها بلا غسل ولا صلاة ، وكان قد مكث يوماً وليلة فى المدينة ولكنه لم يذق شيئاً .

وما ذهب إليه فقهاء الحجاز أقرب للفضل لأن ترك الصلاة عليهم إقرار باستمرار حياتهم ، وفى ترك الغسل محافظة على أثر عبادة قاموا بها لأن الشهيد يأتى يوم القيامة وجرحه يثغب دماً اللون لون الدم ، والريح ريح المسك فكيف نزيل عنه هذا الطيب ، ونحرمه من أثر العبادة المشرق .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء جمع أصحابه ، وقال لهم : **تعالوا نثنى على الله ، وصفهم صفين ، وجعل النساء خلفهم، ثم دعا ﷺ فقال :**

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة أحد جـ٦ صـ٢٨٦

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى باب من قتل من المسلمين يوم أحد جـ٦ صـ٣٠٦

اللهم لك الحمد كله .

اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت !

اللهم ابسط علينا من بركاتك ، ورحمتك ، وفضلك ، وعافيتك ، ورزقك !

اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول !

اللهم إنى أسألك العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف ، والغناء يوم الفاقة .

اللهم إنى أعوذ بك من شر ما أعطيتنا ، ومن شر ما منعت منا !

اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين !

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين !

اللهم عذب الكفرة الذين يكذبون رسولك ، ويصدون عن سبيلك !

اللهم أنزل عليهم رجسك وعذابك! اللهم اقتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق ! آمين (١) .

وبعدها أخذ رسول الله ﷺ سيره إلى المدينة فى جو من الألم والأسف .

وامتلأت بيوت الأنصار والمهاجرين بالحزن على قتلاهم ، فلما رجع الرسول ﷺ إلى المدينة سالماً وجد الجميع العزاء فى سلامته ﷺ فواساهم رسول الله ﷺ ، وبشرهم بأن ذويهم فى الجنة وأنهم سيشفعون لهم ، فرضوا بما قدر لهم ، وصبروا على ما أصابهم ، وهو أليم شديد

لقد قتل من بنى عبد الأشهل اثنا عشر رجلاً ، وجاءت أم سعد بن معاذ فعزاها رسول الله ﷺ فى ابنها عمرو بن معاذ ، وقال لها : **يا أم سعد أبشرى ، وبشرى أهليهم أن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعاً ، وقد شفعوا فى أهليهم .**

قالت : رضينا برسول الله ﷺ ، ومن يبكى عليهم بعد هذا .

ثم قالت : ادع يا رسول الله لمن خلفوا .

قال ﷺ : اللهم أذهب حـــزن قلوبهم ، وأجبر مصيبتهم ، وأحسن الخلف على

---

(١) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٦ صـ١٧٧ يقول الهيثمى ورجاله رجال الصحيح .

من خلفوا[١].

ثم قال ﷺ : لأبي عمرو سعد بن معاذ : يا أبا عمرو ، إن الجراح فى أهل دارك فاشية ، وليس منهم مجروح ، إلا يأتى يوم القيامة وجرحه كأغزر ما كان ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك ، فمن كان مجروحاً ، فليقر فى داره ، وليداوى جرحه ، ولا يبلغ معى بيتى، عزمة منى ، وكان فى بنى عبد الأشهل وحدهم ثلاثون جريحاً يوم " أحد" .

فنادى فيهم سعد : عزمة من رسول الله ألا يتبعه جريح من بنى عبد الأشهل .

فتخلف الجرحى ، وباتوا يوقدون النيران، ويداوون الجراح ، ومضى سعد مع رسول الله ﷺ حتى جاء بيته ، فما نزل ﷺ عن فرسه إلا محملاً ، واتكأ على سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ، حتى دخل بيته، فلما أذن بلال ﷺ بصلاة المغرب خرج ﷺ على مثل تلك الحال، يتوكأ على السعدين فصلى ، ثم عاد إلى بيته .

وأراد رسول الله ﷺ أن يسرى على بنى عبد الأشهل ، ونساؤهم يبكون على قتلاهم فقال لهم : " أما حمزة فلا بواكى له[٢] " عسى أن يكون ذلك قدوة للنسوة فيدعن النواح والعويل ، إلا أن سعد بن معاذ ﷺ مضى إلى نسائه فساقهن ، حتى لم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله ﷺ ، فبكين حمزة ﷺ بين المغرب والعشاء ، والناس فى المسجد يوقدون النيران، يتكمدون بها من الجراح ، وأذن بلال ﷺ حين غاب الشفق فلم يخرج ﷺ فجلس بلال عند بابه ﷺ حتى ذهب ثلث الليل ، ثم ناداه : الصلاة ، يا رسول الله ، فهب ﷺ من نومه وخرج، فإذا هو أخف فى مشيته منه حين دخل .

وسمع ﷺ البكاء فقال : ما هذا ؟

فقيل : نساء الأنصار يبكين على حمزة .

فقال ﷺ : رضى الله عنكن ، وعن أولادكن ، وأمر أن ترد النسوة إلى منازلهن ، فرجعن بعد ليل مع رجالهن ، وصلى رسول الله ﷺ العشاء ثم رجع إلى بيته ، وقد صف

---

(١) المغازى جـ١ صـ٣١٦

(٢) بغية الرائد بتحقيق مجمع الزوائد جـ٦ صـ١٧٥

له الرجال ما بين بيته إلى مصلاه ، يمشي وحده حتى دخل ، وباتت وجوه الأوس والخزرج على بابه في المسجد يحرسونه ، فرقاً من قريش أن تكر .

وبادر الصحابة ﷺ فأحضروا نساءهم ليبكين حمزة ﷺ فجاء معاذ بن جبل ﷺ بنساء بني سلمه : وجاء عبد الله بن رواحة ﷺ بنساء بلحارث بن الخزرج ولم يرض بذلك رسول الله ﷺ فقال ﷺ لهم : ما أردت هذا ونهاهن الغد عن النوح أشد النهى [١]

وكان لنجاة رسول الله ﷺ أثر كبير في تسلية أهل الشهداء ، لأنهم رضوان الله عليهم رأوا في نجاة رسولهم خير عوض عما فقدوه .

مر ﷺ بامرأة من بني دينار ، وقد أصيب زوجها ، وأخوها ، وأبوها بأحد ، فلما نعوا لها أقاربها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟

قالوا : خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين .

قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير إليها ، حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله [٢] .

ومن ابتلاءات يوم " أحد " ، وتغلب روح الإيمان على المصائب ما حدث من حمنة بنت جحش زوجة مصعب بن عمير ﷺ فإنها أصيبت بعدد من أهلها ، وأقبلت على رسول الله ﷺ فقال لها : يا حمنة احتسبي .

قالت : من يا رسول الله ؟

قال : خالك حمزة .

قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ورحمه هنيئاً له الشهادة .

ثم قال لها : احتسبي .

قالت : من يا رسول الله ؟

قال : أخوك .

قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ورحمه هنيئاً له الشهادة .

---

(١) بغية الرائد بتحقيق مجمع الزوائد جـ٦ صـ١٧٥

(٢) نفس المرجع جـ٦ صـ١٦٥

ثم قال : لها احتسبى .

قالت : من يا رسول الله ؟

قال : مصعب بن عمير .

قالت : واحزناه !! وفى رواية أنها قالت : واعقراه .

فقال ﷺ : إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد .

ثم قال لها : لم قلت هذا ؟

قالت : يا رسول الله ذكرت يتم بنيه فراعنى [١].

فدعا رسول الله ﷺ لولده أن يحسن الله عليهم الخلف، فتزوجت طلحة فولدت له محمد بن طلحة، وكان أوصل الناس لولدها [٢].

وقد قتل من المشركين فى أحد أربعة وعشرون قتيلاً ، وأسر منهم رجل واحد هو أبو عزة عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب من بنى جمح وكان أسره فى اليوم الثانى للمعركة والمسلمون فى طريقهم إلى حمراء الأسد .

وفى الوقت الذى عاد فيه المسلمون إلى المدينة يداوون جرحاهم ، ويعزى بعضهم بعضاً فى القتلى والجرحى ... نرى الكفار وقد عادوا منتصرين ، وقتلاهم أقل عدداً من قتلى المسلمين ، وقد أخذوهم معهم إلى مكة حتى لا يحفر لهم قليب آخر .

لقد عاد المكيون من " أحد " منتصرين ، وقد تصوروه نصراً دائماً يحقق لهم ما يبغون لكن الأيام أثبتت أنهم لم يحققوا شيئاً من الأهداف التى حاربوا لتحقيقها ... لأن روح الإيمان فى قلوب المسلمين لم تهن ، و لم تضعف .... ولذلك بادر المسلمون باتخاذ عدد من الأعمال بعد أحد أجهضت كل أحلام أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والأعراب وأهل مكة كما سيتضح من أحداث ما بعد " أحد " .

---

(١) المغازى جـ١ صـ٢٩١

(٢) المغازى جـ١ صـ٢٩٢

ـ خامساً ـ
الآيات الربانية الخارقة
فى (أحد)

استمر عون الله تعالى لرسوله ﷺ والمسلمين معه خلال معركة " أحد " وظهرت آيات بينات ، خارقة للعادة ، تبرز هذه المعونة ، وتؤكدها للناس وقد سبق إيرادها فى سياق ذكر أحداث غزوة أحد ، وإنى هنا أشير إلى أهم هذه الآيات للتذكير بشأنها ، والاعتبار بها ومن أهمها :

١) إمداد المسلمين بالملائكة :

يروى البخارى بسنده عن سعد بن أبى وقاص ﷺ قال : **رأيت رسول الله ﷺ يوم " أحد " ومعه رجلان يقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيض كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد**(١)

وروى أحمد بسنده عن سعد بن أبى وقاص ﷺ قال : **رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم " أحد " رجلين عليهما ثياب بيض ، ما رأيتهما قبل ولا بعد ، يعنى جبريل وميكائيل يقاتلان عنه كأشد القتال** (٢) .

وروى الطبرانى وابن منده أنه ﷺ سأل الحارث بن الصمة **عن مكان عبد الرحمن بن عوف فقال: هو بجنب الجبل .**

فقال ﷺ : **إن الملائكة تقاتل معه .**

قال الحارث :**فذهبت إليه فوجدت بين يديه سبعة فقلت له: ظفرت يمينك أكل هؤلاء قتلت ؟**

فقال : أما هذا وهذا فأنا قتلتهما ، وأما هؤلاء فقتلهم من لم أره .

فقلت : **صدق الله ورسوله ﷺ** (٣) .

وروى ابن سعد أن مصعباً لما قتل أخذ اللواء ملك فى صورته ، فجعل ﷺ يقول : **تقدم يا مصعب ، فالتفت الملك إليه وقال : لست بمصعب فعرف ﷺ أنه ملك أيده الله به** (٤) .

---

(١) صحيح البخارى جـ٦ صـ٢٩٢

(٢) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى جـ٢١ صـ٥٧ ، ٥٨

(٣) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٦ صـ١٦٤

(٤) المغازى جـ١ صـ٢٤٥

وروى ابن إسحاق أن سعد بن أبي وقاص قال : **كنت أرمى السهم يومئذ ، فرده على رجل أبيض ، حسن الوجه ، ما كنت أعرفه فظننت أنه ملك** (١) .

وهناك من ذهب إلى أن الملائكة لم تقاتل يوم " أحد " عن المسلمين .

ولا تعارض بين هؤلاء الذين قالوا بأن الملائكة لم تقاتل ، وهؤلاء الذين قالوا : إن الملائكة قاتلت حول النبى ﷺ ومع عبد الرحمن بن عوف ﷺ لأن من قال بالمدد بالملائكى ، واشتراك الملائكة فى القتال يريد نزول أفراد قلائل منهم ، للدفاع عن رسول الله ﷺ أو عن أحد من الصحابة .... ومن ينفى المدد يقصد نزول الآلاف للقتال كما حدث فى " أحد " وهذا لم يحدث لأن المســـلمين لم يصبروا ، و لم يتقوا الله على النحو الذى وجب عليهم .

٢) مد عكاشة بقية وتر قوسه ﷺ بعدما انقطع :

وذلك أنه ما زال ﷺ يرمى عن قوسه حتى تقطع وتره ، وبقيت فى يده منه قطعة صغيرة تكون شبراً فى سية القوس فأخذ القوس عكاشة بن محصن ﷺ ليوتره له **فقال : يا رسول الله لا يبلغ الوتر .**

فقال ﷺ : مده فيبلغ .

قال عكاشة : فوالذى بعثه بالحق ، لمددته حتى بلغ ، وطويت منه لفتين ، أو ثلاثاً على سية القوس (٢) .

٣) رد عين قتادة ﷺ :

عن قتادة ﷺ قال : كنت أتقى السهام بوجهى دون وجه النبى ﷺ فكان آخرها سهماً ندرت منه حدقتى ، وسالت على خدى ، فأخذتها بيدى ، وسعيت بها إلى رسول ﷺ فلما رآها ﷺ فى كفى دمعت عيناه ، فقال ﷺ **اللهم ق عين قتادة كما وقيت وجه نبيك فاجعلها أحسن عينيه وأحدهما نظراً ، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى ، و صارت لا تعرف ولا يدرى أيتهما التى سالت على خده** (٣) .

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ٩٠

(٢) المغازى جـ١ صـ٢٤٢

(٣) المغازى جـ١ صـ٢٤٢

٤) شفاء نحر أبي رهم ببصاقة النبي ﷺ :

رمى أبو رهم الغفارى بسهم فوقع فى نحره ، فبصق ﷺ عليه فبرئ [١] .

٥) انقلاب العرجون سيفاً فى يد عبد الله بن جحش ﷺ:

انقطع سيف عبد الله بن جحش ، فأعطاه ﷺ عرجوناً فعاد فى يده سيفاً فقاتل به ، وكان ذلك السيف يسمى العرجون ، ولم يزل يتوارث حتى بيع لبغاء التركى من أمراء المعتصم بالله فى بغداد بمائتى دينار ، وهذا السيف غير سيف عكاشة يوم " بدر " فسيف عكاشة أصله جذر من حطب، والجذر أصل الشجرة، وسيف عبد الله بن جحش أصله عرجون نخلة [٢].

٦) غسل الملائكة لحنظلة ﷺ :

التقى حنظلة وأبو سفيان فعلاه حنظلة ، فجاء شداد بن أوس وضرب حنظله فقتله .

فقال ﷺ : إن حنظلة لتغسله الملائكة بماء المزن ، فى صحاف الفضة ، بين السماء والأرض

فسألوا امرأته جميلة أخت عبد الله بن أبي سلول ، وكان ابتنى بها تلك الليلة، وكانت عروساً عنده ، فرأت فى المنام تلك الليلة كأن باباً من السماء قد فتح له فدخله ثم أغلق دونه فعلمت أنه ميت من غده ، فدعت رجالاً حين أصبحت من قومها ، فأشهدتهم على الدخول بها خشية أن يكون فى ذلك نزاع ، فلما سألوها عن حالته وقت خروجه .

قالت : خرج وهو جنب ، حين سمع الهاتفة .

فقال ﷺ : لذلك غسلته الملائكة [٣] .

وذكر السهيلى نقلاً عن الواقدى وغيره أنه ﷺ التمس فى القتلى فوجدوه يقطر رأسه ماء ، وليس بقربه ماء ، تصديقاً لقوله ﷺ [٤].

٧) إلقاء النعاس على المؤمنين :

وألقى الله النعاس على المؤمنين حين اشتد عليهم الخوف مع أن الخائف لا ينام عادة فعن الزبير بن العوام ﷺ قال : لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ يوم " أحد " حين اشتد علينا

---

(١) المغازى جـ١ صـ٢٤٣

(٢) إمتاع الأسماع جـ١ صـ١٥٥

(٣)البداية والنهاية جـ٤ صـ٢١

(٤) الروض الأنف جـ٣ صـ١٦٤

الخوف وأرسل علينا النوم فما منا أحد إلا ذقنه فى صدره [١].

وروى البخارى عن أبى طلحه قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم " أحد " ، حتى سقط سيفى من يدى مراراً يسقط وآخذه ويسقط وآخذه .

وروى البيهقى أن أبا طلحه قال : غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم " أحد " فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ، ويسقط وآخذه .

أما الطائفة الأخرى وهم المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعبهم ، وأخذلهم للحق فلم يأتهم النعاس ، وبقوا يفكرون فى الهزيمة والخسران .

والآيات كثيرة وقد ذكرت بعضها للدلالة على العون الإلهى الذى أمد الله به رسول الله ﷺ والمؤمنين معه وفى أثناء الحديث من الغزوة أشرت إلى كثير منها .

ـ سادساً ـ

أحـــد

فى رحاب القرآن الكريم

أنزل الله سبحانه وتعالى فى شأن غزوة " أحد " آيات عدة من سورة آل عمران ، بلغت تسعاً وخمسين آية وهى الآيات من رقم (١٢١) إلى رقم (١٧٩) .

وبالنظر فى هذا نرى أن الآيات من ١٢٩ إلى ١٣٦ تتناول موضوع نهى المسلمين عن القيام ببعض الأعمال المحرمة التى يقوم بها اليهود ، وهو أكل الربا ، والتعامل مع فاعليه والآيات من رقم (١٦٢) إلى الآية رقم (١٦٤) توجه المسلمين إلى ضرورة إتباع رضوان الله و إتباع النبى ﷺ لما فى ذلك من خير فى الدنيا والآخرة .

وهذه الآيات التى جاءت فى ثنايا آيات غزوة " أحد " تتصل بالغزوة بوجه ما فهى تتحدث عن سلوكيات اليهود السيئة التى لا يجوز للمسلمين فعلها وتوجههم إلى طريق الفوز والفلاح حتى يتم لهم النصر ، ويأتيهم عون الله تعالى .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : إعلم أن وضع هذه الآيات الواردة فى الترغيب والترهيب ، والإنذار ، والتبشير فى سياق الآيات الواردة فى قصة " أحد " هو من سنة القرآن فى مزج فنون الكلام ، وضروب الحكم ، والأحكام ، بعضها ببعض ، على أن هذه السنة لا تنافى

---

(١) المغازى جـ١ صـ٢٩٦

أن يكون لكل آية أو لمجموع آيات اتصال بالآيات السابقة بوجه وجيه تتقبله البلاغة بقبول حسن .

تبدأ الآيات بالحديث عن مقدمات الغزوة فيقول تعالى ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ ﴾ (١).

والحديث فى الآيات واضح فى أن المواجهة كانت صباحاً ، برغم أن المسلمين خرجوا من المدينة بعد صلاة الجمعة ، والمراد بالقتال الذى بوأ رسول الله ﷺ المؤمنين مقاعد لهم فيه قتال يوم " أحد " يقول الطبرى : والآية تعنى يوم " أحد " لأن الله عز وجل يقول فى الآية التى بعدها ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ ولا خلاف بين أهل التأويل ، أنه عنى بالطائفتين بنو سلمه وبنو حارثة (٢) ، ولا خلاف بين أهل السير والمعرفة بمغازى رسول الله ﷺ أن الذى ذكره الله من أمرهما فى هذه الآيات إنما كان يوم "أحد " دون " يوم الأحزاب " (٣) .

وإنما ذكرهم بنصر يوم " بدر " ليعلموا أن الله تعالى ينصر الفئة القليلة الصابرة التقية ليسيروا على منهجها حتى يتحقق لهم النصر ، وعليهم ألا يغتروا بكثرتهم ، وأن يداوموا الصبر والتقوى ، والتوكل على الله تعالى .

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ

---

(١) سورة آل عمران الآيات من ١٢١ إلى ١٢٣ .

(٢) صحيح البخارى ك المغازى باب غزوة أحد جـ٦ صـ٢٩١

(٣) أسباب النزول صـ٦٩

يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [1] .

والآيات تشير إلى قول النبى ﷺ للمؤمنين أن الله كاف فى نصرهم ، وأن مـــدد الملائكة موجود بشرط الصبر والتقوى، وعلى المؤمنين أن يعلموا أن الأمر كله بيد الله تعالى

وتتحدث الآيات بعد ذلك عن علو مقام المؤمنين ، وتسفل مقام غيرهم فيقول الله تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [2] .

والإشارة واضحة فى أن الإيمان يعلوا بصاحبه ، ويرضيه ، ويبعده عن اليأس ، والقنوط وعلى المسلمين الذى أصيبوا يوم " أحد " أن يدركوا أن الآلام قد أصابت عدوهم أيضاً ، وأن الأيام دول ، والنصر لا يدوم لفريق ، والرضا بما يقضى الله به ضرورة لازمة ... وعلى المؤمنين أن يعرفوا أن المصائب ابتلاء للمؤمن ، ليظهر على حقيقته ، وليسعد المؤمنون بالشهادة التى يرفعهم الله بها .

إن جنة الله غالية ولابد لها من البذل ، والتضحية ، والصدق ، والوفاء .... وعلى من يرجوها من المؤمنين أن يعمل لها ، وأن يصدق فيما كان يتمناه ، وليرض بما كتب الله له من بلاء فى نفسه ، أو ماله ، أو ولده .

وتتحدث الآيات عن قمة الابتلاء يوم " أحد " بعدما انهزم المسلمون وأوذى رسول الله ﷺ وأصاب المسلمين ما أصابهم بعدما أشيع أن رسول الله ﷺ قد قتل فيقول تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ

---

(١) سورة آل عمران الآيات من ١٢٤ إلى ١٢٨ .

(٢) سورة آل عمران الآيات من ١٣٩ إلى ١٤٣ .

عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾(١) حيث أسقط فى أيدى المسلمين حينما أشيع أن رسول الله ﷺ قد قتل فى المعركة ، فبين الله لهم أن الموت قدر محتم على كل نفس ، أما الرسالة فهى باقية والإيمان بالله حقيقة ثابتة يحاسب كل إنسان على ما كلفه الله به ، وعلى المؤمن أن يكون قوياً ، يتحمل المسئولية ، ويجاهد فى سبيل الله تعالى صابراً محتسباً ، وأن يلجأ إلى الله تعالى بالدعاء ، والرجاء ، والاستغفار وطلب النصر ليأتيه الله بثواب الدنيا ، وثواب الآخرة والله على كل شئ قدير .

ثم يوجه الله المؤمنين بعد ذلك إلى ما يرفع معنوياتهم ، ويعلى من شأنهم فيقول سبحانه وتعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٢) .

والآيات توجه المؤمنين إلى عدم اتباع الكافرين لأنهم يعملون لخذلان المسلمين ،

---

(١) سورة آل عمران الآيات من ١٤٤ إلى ١٤٨ .

(٢) سورة آل عمران الآيات من ١٤٩ إلى ١٥٣ .

وإضعافهم ، وعليهم أن يلجأوا إلى الله مولاهم ، وناصرهم ... والله سبحانه وتعالى كفيل بإلقاء الرعب فى قلوب الأعداء ،وإنزال العقوبات الماحقة بهم فى الدنيا وفى الآخرة ثم ذكر الله المؤمنين بما أصيبوا به من فزع ، وهلع ، وفرار ، وترك لرسول الله وهو يناديهم ... وعليهم أن يندموا على ما حدث منهم ، ويعودوا إلى ما يجب أن يقوموا به ثم بين الله سبحانه وتعالى مننه على المجاهدين ، إذ أصابهم النعاس ، فأمنت نفوسهم ، وهدأت أصواتهم فيقول تعالى ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[١] .

وفى الآيات بيان لما أنزل الله عليهم من نعاس أصاب المؤمنين دون غيرهم من المنافقين الذين أخذوا يشككون المؤمنين فى إيمانهم ، وهم يظنون بالله ظناً سيئاً ، فرد الله عليهم بأن الأمر كله لله ، وأن الموت حق مقدر يأتى لصاحبه عند حلول أجله ، أياً كان مكانه وزمانه ، وقد أخفى الله الأجل عن الناس ليبتليهم ، ويختبرهم ... كما ابتلى المسلمين يوم " أحد " .

وتبين الآيات ما كان من المنافقين ، وتفصل فى صفاتهم ، وحيلتهم فى توهين المسلمين

---

(١) سورة آل عمران الآيات من ١٥٤ إلى ١٥٦ .

وبث الذعر فى قلوبهم وبخاصة حينما انسحبوا من ميدان المعركة وعلى رأسهم عبد الله بن أبى متعللين بعدم وجود قتال زاعمين أنهم لو تأكدوا من تحقق القتال لبقوا ، وهذا كذب يقولونه بألسنتهم وليس منه فى قلوبهم شئ يقول الله تعالى ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (١)

وقد كشف الله المنافقين ، وعرف بهم وربطهم بمقالتهم فهم الذين قالوا : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، وهم الذين قالوا : لو أطاعونا ما قتلوا .

إن الأمر كله بيد الله ، والمنافقون لا يعلمون الغيب وأن كان فى مقدورهم منع القتل فليدرأوا الموت عن أنفسهم إن كانوا صادقين .

وأخيراً تتحدث الآيات عن الشهداء فيقول الله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢).

ومنزلة الشهداء عند الله عالية ، فهم أحياء عنده سبحانه وتعالى ، يجرى عليهم الرزق ويعيشون فى بشر وسرور، ولا ينالهم خوف ولا حزن ، ويدومون فى الخير ، والنعيم المقيم.

يقول الشيخ محمد الغزالى معلقاً على حديث القرآن الكريم عن غزوة " أحد" : ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين فى " أحد " على عكس ما نزل فى "بدر" من آيات ، ولا غرو فحساب المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر ، فى المرة الأولى قال تعـــالى ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٦٧ ، ١٦٨

(٢) سورة آل عمران الآيات من ١٦٩ إلى ١٧١ .

كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

أما فى " أحد " فقال تعالى ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

حسب المخطئين ما أصابهم من أوضار الهزيمة ، وفى القصاص العاجل الذى حل بهم درس يذكر المخطئ بسوء ما وقع فيه .

وقد اتجهت الآيات إلى مزج العتاب الرقيق بالدرس النافع ، وتطهير المؤمنين ، حتى لا يتحول انكسارهم فى الميدان إلى قنوط يفل قواهم ، وينقلب إلى حسرة تشل إنتاجهم ونشاطهم فقال تعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

ثم مضى الوحى يعلم المسلمين ما جهلوا من سنن الدين والحياة ، و يذكرهم بما نسوا من ذلك ، فبين أن المؤمن مهما عظمت بالله صلته فلا ينبغى له أن يغتر ، أو يحسب الدنيا قد دانت له ، أو يظن أن قوانينها الثابتة أصبحت طوع يديه .

كلا... كلا.... فالحذر البالغ ، والعمل الدائم هما عدتا المسلم لبلوغ أهدافه المرسومة ويوم يحسب المسلم أن الأيام كلها كتبت له ، وأن شيئاً منها لن يكون عليه ،وأن أمجاد الدارين تنال دون بذل التكاليف الباهظة ، فقد سار فى طريق الفشل الذريع يقول الله تعالى ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (٤) .

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٥)

---

(١) سورة الأنفال الآيتان ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٢ .

(٣) سورة آل عمران الآيات من ١٣٧إلى ١٣٩ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٤٠ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٤٢ .

وفى هذه الآيات توضيح لمعالم طريق الدعوة ، فطريق الدعوة ملئ بالأشواك والصعاب ، والأعداء متربصون ، والأيام دول ، والجنة مهرها غال ثمين ، وأولو الألباب يستحيون أن يطلبوا السلعة الغالية بالثمن التافه أو يتصورون تحقق الأمل بلا عمل ، أو يحلمون بالنتيجة بلا سبق مقدماتها وهم لذلك يضحون بأنفسهم لقاء ما ينشدون ويبذلون أقصى ما يمكنهم لتحقيق المراد المنشود .

إن الاستعداد أيام الأمن يجب أن يستمر أيام الروع ، بل هو فى أيام الفزع أشد ، وعلى المسلم أن يداوم على مجاهدة نفسه ، والالتزام المستمر بما وجب عليه

إن الإنسان — فى عافيته — قد يتصور الأمور سهلة مبسطة ، وقد يؤدى به ذلك إلى المجازفة ، والخداع ، وعدم تقدير الأمور على وجهها الصحيح ، وليس كذلك المسلم .

فليحذر المؤمن هذا الموقف ، وليستمع إلى تأنيب الله لمن تمنوا الموت قبل "أحد" ثم حادوا عنه لما جاءهم ، لأن ذلك ضعف فى الوعد ، وخذلان فى الإقدام .

يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[1].

ثم عاتب الله عز وجل من سقط فى أيديهم ، وانكسرت همتهم ، حينما أشيع أن الرسول ﷺ قد مات ، لأن العقائد اتباع مبادئ لا اتباع أشخاص ، والمسلم عند الله خاضع له وحده .

ولو افترض أن الرسول ﷺ قتل وهو ينافح عن دين الله ، فحق على أصحابه أن يثبتوا فى مستنقع الموت ، وأن يردوا المصير نفسه ، الذى ورده قائدهم ، لا أن ينهاروا ويتخاذلوا ويضيعوا ما بايعوا الله عليه ، وهم يعلمون أن الموت حق على الجميع .

إن عمل محمد ﷺ فى أصحابه ينحصر فى إضاءة الجوانب المعتمة من فكر الإنسان وضميره ، وينيرها بنور الله تعالى ، فإذا أدى رسالته ومضى ، فهل يسوغ للمستنير أن يعود إلى ظلماته التى خرج منها .

لقد جمع محمد ﷺ الناس حوله على أنه عبد الله ورسوله ، والذين ارتبطوا به ،

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٣ .

عرفوه إماماً لهم فى الحق ، وصلة لهم بالله ، وهو أول المؤمنين ، وأول الصابرين .

فإذا مات عبد الله ظلت الصلة الكبرى بالحى الذى لا يموت باقية ثاقبة ، كما بين ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (١)

وقد استطرد النظم الكريم يبصر المؤمنين بمواطن العبرة فيما نالهم ، ويعلمهم كيف يتقون فى المستقبل هذه المآزق ، وكيف يستفيدون من هذه الكبوة العارضة بعد أن عزل عن جماعة المسلمين من خالطوهم على دخل ، وعاشروهم على نفاق .

ولئن أفادت وقعة " بدر " خذلان الكافرين فإن وقعة " أحـد " أفـادت فضـح المنافقين ، ورب ضارة نافعة ، وربما صحت الأجسام بالعلل .

ولعل ما ترتب على عصيان الأوامر فى هذه الموقعة ، درس عميق تعلم منه المسلمون قيمة الطاعة ، فالجماعة التى لا يحكمها أمر واحد ، أو التى تغلب على أفرادها ، وطوائفها النزعات الفردية النافرة لا تنجح فى صدام ، بل لا تشرف نفسها فى حرب أو سلام .

إن الحياة تحتاج من المسلمين أن يعيشوا أمة متكاملة تعرف طريقها ، وتحدد غاياتها وتلتزم بكل ما جاءها من عند الله تعالى ... وعليهم أن يبذلوا كل جهدهم كما أمـروا ولا يستسلموا لأحلام النصر ... أو خطرات اليأس ... وليتيقنوا دائماً أن الدنيا هى دار السعى والعمل والصبر والتحمل ... وأن الآخرة هى دار الخير والسلام ... ومن يعمـل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤ .

ـ سابعاً ـ
أحد وحركة الدعوة

حين ننظر إلى معركة " أحد " نرى تقلب أحداثها ، وتبدل أحوالها فى كل أطرافها فلقد عاش كل فريق الغلبة والانكسار ، مرة بعد أخرى ، إلا أن محصلة الخسائر فى المسلمين كانت أكبر منها فى معسكر المشركين ، وهذا ما جعل بعض المؤرخين يرى أن المسلمين قد انهزموا فى أحد ، باعتبار عدد القتلى ، وكثرة الجرحى ، ورجوع المشركين بقتلاهم دون أن يؤسر منهم أحد ، رغم أن القتال كان بجوار المدينة بعيداً عن موطنهم مكة

والأمر بمقياس ذاك الزمان يشير إلى هزيمة المسلمين ، لأن المعارك كانت عبارة عن تشابك بالأيدى ، وتلاحم بالسيوف ، ومواجهة مباشرة بالدروع والنبال ... وكانت الحرب تستمر يوماً أو بعض يوم ، كما حدث فى " بدر " وفى " أحد " وفى غيرهما من السرايا والغزوات وبعدها يقف القتال ، ويعود كل فريق لموطنه ، والنصر حينئذ يكون لمن ألحق بخصمه خسائر أكبر .

وبهذا المقياس يظهر انتصار القرشيين كما فهمه معاصرو " أحد " ولذلك أتى أبوسفيان حين قدم مكة هبل وقال له : **قد أنعمت على ونصرتنى ، وشفيت نفسى من محمد ، وأصحابه ، وحلق رأسه ... وما فعل أبو سفيان ذلك إلا لشعوره بانتصار المكين على المسلمين .**

وبسبب هذا الفهم أخذ الأعداء يجاهرون بعداوتهم لرسول الله ﷺ وللإسلام ، وجرأوا على معاداة المسلمين ، وكثر التواصل بينهم شماتة بالمسلمين ، وفرحاً بهزيمتهم وأملاً فى استمرار الإحساس بالنصر .

لكن بعض العلماء ينظر لأحداث " أحد " من ناحية أخرى ، ويرى أنها كانت صقلاً للمسلمين ، وتقوية لإيمانهم ، وتجلية لما يجب أن يلتزموا به فى إطار حركة الدعوة وهم يعملون للإسلام ، ويسلم هؤلاء العلماء بانتصار القرشيين ظاهراً ، ويرونه انتصاراً مؤقتاً لا يلبث أن يزول ، وأن خسائر المسلمين جزء من الإعداد والتدريب ، ويقولون : إن انكسار المسلمين يوم " أحد " كان عامل قوة لهم أدت بهم إلى انتصارات لاحقة ، بعدما استفادوا من دروس " أحد " ... وتمكنوا بالانتصارات اللاحقة من نشر الإسلام ، وإيصال الدعوة

إلى العالم كله ، وعملوا على إبراز ما فى دينهم من قوة ذاتية معنوية ، بجوار استعدادهم لبذل أموالهم وأرواحهم لخدمة دين الله تعالى ، وهؤلاء المتفائلون يبنون نظرتهم تلك على معطيات واقعية أهمها ما يلى :

١) بروز بطولة النبى ﷺ وشجاعته وثباته فى وجه أعدائه وإصراره على مقاتلتهم وحده مع أن الصحابة فروا عنه وتركوه ، وتلك مسألة لابد من وضوحها لبيان ما قام به رسول الله ﷺ وتحمله فى سبيل دين الله تعالى .

وتظهر شجاعة النبى ﷺ من ثباته وحيداً أمام جيش قريش ، وحرصه على قتل ابن الأشرف ، بعدما أصيب وبقى وحده، وكان ﷺ فى حالة يفر فيها الأبطال المغاوير ، وكان أبى بن خلف يتصور نفسه قادراً على قتل رسول الله ﷺ بعدما جاءه فوجده جريحاً ووحيداً .

فلقد أقبل أبى بن خلف يركض بفرسه حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ اعترض له ناس من المسلمين ليقتلوه ، فقال ﷺ : استأخروا عنه .

وقام ﷺ وحربته فى يده فرماه بها بين سابغة البيضة والدرع فطعنه ﷺ فى هذا الموضع فوقع عن قوسه ، وكسر ضلعاً من أضلاعه ، فاحتملوه فمات لما ولوا قافلين بالطريق ... وتحقق بذلك ما أنبأ به ﷺ قبل " أحد " .

وقصة ذلك النبأ أن أبى بن خلف قدم المدينة فى فداء ابنه حين أسر يوم " بدر " ، فقال : يا محمد إن عندى فرساً أعلفها كمية كبيرة من ذرة كل يوم حتى أقتلك عليها .

فقال رسول الله ﷺ : بل أنا أقتلك عليها إن شاء الله .

وكان ﷺ فى القتال لا يلتفت وراءه وكان يقول لأصحابه : كأنى أخشى أن يأتى أبى بن خلف من خلفى ، فإذا رأيتموه فآذنونى ، فإذا بأبى يركض على فرسه ، وقد رأى رسول الله ﷺ فعرفه ، فجعل يصيح بأعلى صوته : يا محمد لا نجوت إن نجوت .

فقال القوم : يا رسول الله ! ما كنت صانعاً حين يغشاك فقد جاءك ! وإن شئت عطف عليه بعضنا .

فأبى ﷺ ودنا أبى فتناول ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ، ويقال من الزبير بن

العوام ، ثم انتفض بأصحابه كما ينتفض البعير فتطاير عنه أصحابه و لم يكن أحـــد يشـــبه رسول الله إذا جد الجد ، ثم أخذ الحربة فطعن أبى بن خلف بها فى عنقه ، وهو على فرســـه فجعل يخور كما يخور الثور .

يقول له أصحابه : **يا أبا عامر ! والله ما بك بأس ، ولو كان هذا الذى بك بعـــين أحدنا ما ضره .**

فيقول لهم : **لا واللات والعزى، ولو كان هذا الذى بى بأهل " ذى المجاز " لمـــاتوا أجمعون**[1].

وهكذا تحققت النبوءة المحمدية ، وقتل أبى ابن خلف ، وتأكدت شجاعة النبى ﷺ.

وبهذه الصورة الشجاعة لرسول الله ﷺ **تعلمت الأمة ضرورة وجود القائد الشجاع الذى يقود الأمة لمحو تحقيق شرع الله تعالى ، وحماية دينه فى الأرض كلها ، وبخاصة فى الأوقات الصعبة ، ووسط الظروف الحاسمة ، ويبين للمسلمين ولغيرهم أهليته ﷺ لتحمل الرسالة وأعبائها ، وتفرده ليكون الأسوة والقدوة لكل عاقل أريب .**

وقد استوعب المسلمون هذا الدرس ، وأحاطوا برسول الله ﷺ ، ولاموا أنفسهم على ما فرطوا فيه ، وبخاصة ما فعله الرماة منهم ، وحرصوا بعد رسول الله ﷺ على بيعة الراشدين من الخلفاء ، وتولية الرجال القادرين على حمل الأمانة ، وتقرير المسئولية .

٢) التسليم بضرورة وقوع الابتلاء لتمييز الخبيث من الطيب، ولذلك كان ابتلاء الأنبياء والرسل، فلم يحدث لهم انتصار دائم، أو هزيمة دائمة، وإنما تفاوت أمرهم بين هذا وذاك .

يقول الحافظ بن حجر : والحكمة فى ذلك أنهم لو انتصروا دائماً لدخل فى المؤمنين من ليس منهم ، و لم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين ، حتى يتميز الصادق من الكاذب وقد ظهر المنافقون ، وعرفهم المؤمنون فى " أحد " وذلك أن باطن المنافقين كان مخفياً عن المسلمين فلما جرت أحداث " أحد " وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول ، عاد التلويح تصريحاً ، وعرف المسلمون أن لهم عدواً فى دورهم ، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم [2]

---

(١) المغازى جـ١ صـ٢٥٠ ، ٢٥١ ، زاد المعاد فى هدى خير العباد جـ٣ صـ٢٠٩ ، ٢١٠

(٢) فتح البارى جـ٧ صـ٣٤٧

ولذلك كانت هزيمة " أحد " بعد انتصار " بدر " ، وكانت " أحد " سبباً فى إقبال المسلمين بعد ذلك ، والتزامهم بطاعة الله ورسوله حتى نصرهم الله تعالى .

إن الإبتلاء بصورة عامة يمحص الجبهة الإسلامية من عدة نواح .

فهو يطهر القلوب ، ويخلصها من شوائب المادة ، وثقل الغرائز ، لأن القلوب تخالطها الشهوات ، وتؤذيها الخواطر النفسية ، وتحكمها العادات ، وتستولى عليها الغفلة ، ويلعب بها الشيطان ، وهى فى حاجة مستمرة للمجاهدة والتوجيه والإنذار ،ولذلك اقتضت حكمة العزيز الرحيم أن يقيض لها من المحن والبلاء ما يكون كالدواء الكريه مذاقه وفيه الشفاء ، فكانت نعمته سبحانه وتعالى عليهم بهذه الكسرة والهزيمة ، وقتل من قتل منهم تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم ، وظفرهم بعدوهم ، فله عليهم النعمة التامة فى هذا وذاك .

كما أنه سبحانه لو نصرهم دائماً لطغت نفوسهم ، شأن طغيانها لو بسط لهم الرزق قال تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (١) فدارت حياة المؤمنين بين السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والقبض والبسط ، فإن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغناء طغياناً وركوناً إلى العجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها فى سيرها إلى الله والدار الآخرة ، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه ، فيكون ذلك البلاء وتلك المحنة بمنزلة الطبيب يسقى العليل الدواء الكريه ، ويقطع العروق المؤلمة ، لاستخراج الأدواء منه ، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه .

كما أنه سبحانه قد هيأ لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته لم تبلغها أعمالهم ، و لم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة ، فقيض لهم الأسباب التى توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه قال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الشورى آية ٢٧ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٢ .

كما أن فى هذه المحن استخراج عبودية أوليائه ، وبروز معدن حزبه فى أحوال يظهر فيها الإنسان على حقيقته فى السراء والضراء ، وفيما يحبون ويكرهون ، وفى حال ظفرهم ، وظفر عدوهم بهم ، فإذا ثبتوا على العبودية فيما يحبون ويكرهون فهم عبيده حقاً ، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء ، والنعمة ، والعافية .

وهناك **تمحيص خارجى للمؤمنين** ، لتمحيص صفوفهم ممن كان يظن أنه منهم وهو عدو لهم ، وقد أشار إليه الله تعالى بقوله ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وذلك حتى يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فإن المسلمين لما أظهرهم الله تعالى " ببدر " ، دخل معهم جمهور كبير ممن لم يدخل الإيمان فى قلوبهم من المنافقين ، فاقتضت حكمته تعالى أن يسبب لهم محنة " أحد " حتى يميز الخبيث من الطيب بتمييز المنافق من المؤمن ، قال تعالى ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ (١) .

إن من أخطر الأمور على بنيان أمة الإسلام أن يعيش بين صفوفها من لا يؤمن بمبادئها وأهدافها ، ومن يمالئ العدو ساعة الشدة عليها ، يعيش بينهم مجهولاً منهم فلا يأخذون حذرهم منه ، يظنونه معهم وهم عليهم ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (٢) .

إن المنافقين جرثومة فساد فى جسم الأمة ، وبؤرة خبيثة فى كيانها ، يعيشون بين صفها الواهن ، ويبلبلون الأفكار ، ويشككون فى المواقف ، وهم فوق هذا وذاك طابور خامس للعدو الخارجى، من هنا كان عذابهم أشد قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (٣) .

وقد يتمنى البعض أن يُطْلع الله تعالى المؤمنين على غيبه حتى يعلموا هؤلاء المنافقين

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٩ .

(٢) سورة المنافقون الآية ٤ .

(٣) سورة النساء الآية ١٤٥ .

فيتقوا شرورهم بلا محن وابتلاء ؟ والله قادر على إظهار ما عليه المنافقون ، وإزهاق ما يقومون به من أباطيل ، لكن الحكمة الإلهية اقتضت غير ذلك .

إن هذه الأمنية لا تلتقى مع حكمة الله العليا ، يقول الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ ﴾(١) ذلك أن المنافقين وإن كانوا متميزين فى علمه وغيبه، لكن ذلك شئ وتمييزهم تميزاً مشهوداً مطلب آخر، فيه تكمن حكمة الله تعالى، حتى يقع غيبه شهادة ، فيجازيهم على واقع مشهود ، لا على غيب معلوم له تعالى وحده .

وقد قدر سبحانه وتعالى للمسلمين محنة يوم " أحد" ليتحول الغيب المجهول إلى واقع معلوم ، وليعلم المسلمون درساً فى سياسة الحياة ، وهى أن العدو يداجى خططه ، ويخفيها ويلبسها بلباس غيرها ، ليصل إلى ما يريد ، وعليهم أن يحذروا ، ويعملوا على تجنبه مهما تزين ، وتزخرف .

وبذلك فقد حصل للمسلمين تمحيصان : **تمحيص داخلى ، وتمحيص خارجى** ، وفى كل خير جليل ، ونفع للمسلمين عظيم ، وبهذا كشف الله قناع الخير ، وأسفر ليل المحنة عن نهار النعمة ، وأشرقت النفوس بعد فيض الدروس ، وتهللت الأرواح بعد زوال الأشباح ، وخرجت نفوس المؤمنين من المحنة أنقى ما كانت ، وأصفى وأرضى بقضاء الله وأغبط ، بعد تجلية القرآن لما منحوهم من خير عميم ، خصوا به دون غيرهم من المنافقين الذين لا يحبهم الله ، ولذا حال بينهم وبين ما ابتلى به المؤمنين ، حتى لا يتخذ منهم شهداء مع عصيانهم كما اتخذ من أوليائه شهداء ، يشير الله تعالى إلى إيثار المؤمنين بالشهادة دون المنافقين فى قوله تعالى ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢) وفى هذا دلالة صريحة على أن اتخاذ الشهداء نعمة يهبها الله لمن أحب من عباده المؤمنين .

٣) تلقى المسلمون درساً فى ضرورة دقة الطاعة ، وعدم الاجتهاد فيما فيه نص ، فلقد أتى المسلمون من قبل الرماة الذى تركوا أماكنهم لجمع الغنائم ، وعصوا بذلك أمر رسول الله ﷺ الصريح بعدم ترك الجبل مهما كانت الظروف ، وقد أفاد هذا الدرس

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٠ .

المسلمين فى المعارك التى حدثت بعد ذلك ، وتأكدوا من نتائج المخالفة ، وآثارها السيئة فلم يقعوا فيها ، واستمروا يعملون بمقتضى الأمر الصريح ، والنص الفصيح ، والتزموا حدود الاتباع ودقة والطاعة .

٤) لم تحقق قريش شيئاً من أهدافها التى جاءت من أجلها ، فلا هى قضت على رسول الله ﷺ ، و لم تستول على المدينة ، و لم تمنع المسلمين من الحركة بدينهم ، وتطبيق شريعة الله تعالى و لم تحرر طرقها التجارية إلى الشام، ولذلك عد نصرها نصراً جزئياً مؤقتاً .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : لا أتفق مع المؤرخين فى اعتبار نتيجة غزوة " أحد" نصراً للمشركين ، واندحاراً للمسلمين ، لأن مناقشة المعركة عسكرياً تظهر انتصار المسلمين على الرغم من خسائرهم الفادحة بالأرواح فى هذه المعركة ونبدأ المناقشة من الوجهة العسكرية البحتة ، لإظهار حقيقة نتائج غزوة أحد .

لقد انتصر المسلمون فى ابتداء المعركة حتى استطاعوا طرد المشركين من معسكرهم والإحاطة بنسائهم وأموالهم ، وتعفير لوائهم فى التراب ، ولكن التفاف خالد بن الوليد وراء المسلمين ، وقطع خط رجعتهم ، وهجوم المشركين من الأمام جعل قوات المشركين تطبق من كافة الجوانب على قوات المسلمين ، هذا الموقف فى المعركة جعل خسائر المسلمين تتكاثر ، ولكن بقى النصر بجانبهم إلى الوقت الأخير .

إن نتيجة كل معركة عسكرية لا تقاس علمياً، وواقعياً ، بعدد الخسائر فى الأرواح فقط بل تقاس بالحصول على هدف القتال الحيوى، وهو القضاء المبرم على العدو مادياً ومعنوياً ؟؟

فهل استطاع المشركون القضاء على المسلمين مادياً أو ومعنوياً ؟!!.

إن حركة خالد كانت مباغتة للمسلمين بلا شك ، وقيام المشركين بالهجوم المقابل وإطباقهم على قوات المسلمين من كافة الجوانب وهم متفوقون بالعدد إلى خمسة أمثال المسلمين ، كل ذلك كان يجب أن تكون نتائجه القضاء الأكيد على كافة قوات المسلمين ، لكن ذلك لم يحدث ، ولا يمكن أن يعد التفاف قوة متفوقة تفوقاً ساحقاً على قوة صغيرة من جميع جوانبها، ثم نجاة تلك القوة الصغيرة بعد خسائر العشر فقط من عددها هزيمة ، لا يعد ذلك إلا انتصاراً لتلك القوة الصغيرة ، ولا يمكن اعتبار فشل القوة الكبيرة فى القضاء على القوة الصغيرة مادياً فى مثل هذا الموقف الحرج للغاية ، انتصاراً بل هو الفشل

والإنكسار لهذه القوة الكبيرة .

و لم تستطع قريش أن تؤثر على معنويات المسلمين أيضاً ، وإلا لما استطاع المسلمون الخروج لمطاردتها بعد يوم فقط من يوم " أحد " دون أن تتجرأ قريش على لقائها بعيداً عن المدينة ، خاصة وأن الرسول قد خرج للقاء قريش بقوته التى اشتركت (فعلاً) بمعركة أحد ، دون أن يستعين بغيرهم من الناس .

إن نجاة المسلمين من موقفهم الحرج الذى كانوا فيه بأحد نصر عظيم لهم، لأن أول نتائج إطباق المشركين على المسلمين من كافة الجهات فى التصور العقلى هو الفناء التام، لكن ذلك لم يحدث[1] .

إن المكيين لم يسيطروا على معسكر المسلمين ، و لم يتمكنوا من أسر مسلم واحد و لم يغنموا شيئاً ، ولو يقطعوا رابطة الإتصال بين المسلمين وقيادتهم ، وذلك يؤكد النظرة القائلة بأن ما حدث فى " أحد " لم يكن هزيمة مطلقة .. وإن لا لما انسحب المشركون فى نهاية النهار خوفاً من ظلال الليل ... وشجاعة المؤمنين .

٥) تعلم المسلمون من معركة " أحد " دروساً استفادوا بها فى مواجهة أعداء الله بعد ذلك.

ومن هذه الدروس ضرورة الطاعة ، وتنفيذ توجيهات القيادة ، وأهمية مفاجأة العدو وعدم تركه يتخير زمان ومكان وكيفية المعركة ... وعلموا كذلك ضرورة مطاردة العدو حين انكساره، وعدم تركه لتجميع صفوفه مره أخرى، كما ظهر فى السرايا، والغزوات بعد " أحد " .

ولو قدر الله للمسلمين أن يطاردوا أعداءهم فى المرحلة الأولى التى انهزم فيها الكفار لقضوا عليهم ، وألحقوا بهم الخسائر الكثيرة لكنهم لم يفعلوا ذلك ، وانشغلوا بجمع الغنائم فكانت الجائرة عليهم .

٦) علم المسلمون ما يناله الشهداء من فوز ، وبذلك عد من قتل منهم فائزاً منتصراً فأسرعوا إلى الجهاد رجاء نيل الشهادة .

يروى البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ **قال: جاء رجل للنبى ﷺ يوم "أحد"**

---

(١) الرسول القائد صـ١٢ .

وقال له : أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟

قال ﷺ : فى الجنة .

فألقى تمرات كن فى يده ، ثم قاتل حتى قتل [١] .

وروى الإمام مسلم بسنده من حديث أنس (أن عمير بن الحمام أخرج تمرات فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة) ثم قاتل حتى قتل .

والقصتان مختلفتان ، قد وقعتا لرجلين مختلفين ، حيث وقع التصريح فى حديث أنس أن ذلك كان يوم " بدر " كما صرح فى حديث جابر أن ذلك كان فى يوم " أحد " .

وهذان شيخان كبيران من الصحب الكرام رخص لهما رسول الله ﷺ فى التخلف لسنهما ، غير أن الرغبة فى الشهادة قد دفعتهما إلى اللحاق بالمسلمين ليحرزاها ، يروى ابن إسحاق بسنده قائلاً : كان اليمان والد حذيفة وثابت بن وقش شيخين كبيرين ، فتركهما رسول الله ﷺ مع النساء والصبيان ، فتذاكرا بينهما ، ورغبا فى الشهادة ، فأخذا سيفيهما ، ولحقا بالمسلمين بعد الهزيمة ، فلم يعرفوا بهما ، فأما ثابت فقتله المشركون ، وأما اليمان فاختلفت عليه أسياف المسلمين فقتلوه ولا يعرفونه [٢] .

ويوضح لنا رسول الله ﷺ ما أنعم الله به عليهم فيقول ﷺ : لما أصيب إخوانكم "بأحد" جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ، ومشربهم ، وحسن مقيلهم ، قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله : أنا أبلغهم عنكم [٣] فأنزل الله قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [٤] .

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة أحد جـ٦ صـ٢٨٨

(٢) سيرة النبى جـ٢ صـ٨٧ وقد أراد رسول الله ﷺ دفع دية اليمان ﷺ لكن ولده حذيفة عفا وتصدق بديته على المسلمين .

(٣) أسباب النزول صـ٧٣

(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٩ .

وما لهم لا يفرحون بالشهادة ويستبشرون بها ، والمولى عز وجل يحدثنا عنهم ويبين أنهم أحياء فى رحاب فضله وكرمه ومستقر رحمته وواسع جناته ، ينعمون بالنعيم الدائم فى خير جوار ، قد أبيحت لهم أنهار الجنة وثمارها ، طعام لا كالطعام ، وشراب لا كالشراب ، فشتان بين طعام الأرض وطعامهم ، وشراب الأرض وشرابهم ، وهيئت لهم مساكن لا فى جبال الأرض ، وهجيرها وزمهريرها ، ولكن فى ساق العرش ، قناديلها من ذهب وملاطها من فضة ، فطاب المثوى ، وكرم المأوى .

فجمع الله لهم بذلك إلى الحياة الدائمة ، منزلة القرب منه ، ومعيشة لهم، وجريان الرزق المستمر عليهم ، وفرحهم بما آتاهم من فضله إنهم يعيشون عنده بالرضا ، بل بما هو فوق الرضا ، بل هو كمال الرضا ، وفرحهم التام بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم ، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته .

وعلى هذا فإن الآثار التى تركتها " أحد " فى المسلمين ، محصت إيمانهم ، وجعلتهم يقبلون على الله دائماً ، ويتمنون الحياة لله والموت فى سبيله سبحانه وتعالى [١] .

* * *

(١) انظر زاد المعاد فى هدى خير العباد صـ ٢١٨-٢٤٢

المبحث السابع
أحداث
ما بين أحد والأحزاب

بدأت الأحداث تأخذ مجرى جديداً بعد " أحد " حيث اتخذ جميع الفرقاء مواقف عديدة بناء على نظرتهم لأحداث " أحد ".

فمشركو مكة رأوا فيما حدث فى " أحد " فرصة يصعب تكرارها ، وقد أفلتت منهم ، لعلمهم أن انكسار المسلمين جاء بسبب خطإ مجموعة الرماة ، وجرأة خالد ، وبراعته فى الاستفادة من انسحاب الرماة من موقعهم ، ولذلك انسحبوا سريعاً إلى بلدهم ، ومكنوا فيها ، و لم يخرجوا لملاقاة المسلمين بعد ذلك وحدهم ، واكتفوا بالفخر الكاذب وإدعاء النصر ، ونشر الأكاذيب ، وتحريض القبائل على رسول الله ﷺ .

ورأى الأعراب ، وأهل البادية أن انكسار المسلمين فى " أحد " موقف لابد أن يستفيدوا به ، ولذلك فكروا فى الإغارة على المدينة للسلب والنهب ، ولإظهار قوتهم أمام المسلمين لتكون لهم مهابة ومترلة عندهم ، وتصوروا أن حالة المسلمين تمكنهم من ذلك .

ورأى اليهود أن المسلمين أصيبوا إصابة تؤدى إلى ضعف قوتهم وهمتهم ، وإنهم فى حاجة إلى وقت طويل لتعود لهم إرادتهم القوية ، وشجاعتهم الوثابة ، وقدرتهم على مواجهة خصومهم .

ورأى المنافقون إن وضعهم قد عرف بعودتهم من "أحد" وعدم اشتراكهم فى القتال ، وتأكدوا أن النفاق لم يعد خطة تحقق لهم الحياة ، وليس هناك ما يمنع حينئذ من إظهار العداوة ، والبغضاء لرسول الله ﷺ وللمسلمين .

لكل هذا كثرت التحركات ، وتعددت الأعمال فى المدة ما بين غزوتى " أحد " و "الأحزاب" و لم تقف أفكار الأعداء عند حد القول والأماني ، وإنما ظهرت فى خطط ، ومعاهدات ، ومواجهات .

يروى الواقدى حال اليهود ، والمنافقين بعد " أحد " فيقول " أخذ عبد الله بن أبى والمنافقون معه يشمتون بالمسلمين ، ويسرون بما أصابهم ، ويظهرون أقبح القول لهم ، فلما رجع الصحابى الجليل **عبد الله بن عبد الله بن أبى** إلى المدينة وهو جريح ، وبات

يكوى الجراحة بالنار حتى ذهب الليل ، جعل أبوه المنافق يقول له شامتاً : ما كان خروجك مع محمد إلى هذا الوجه برأي ! عصاني محمد وأطاع الولدان ، والله لكأني كنت أنظر إلى هذا !!!

فيقول له ابنه : الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير .

وأظهرت اليهود القول السيئ فقالوا : ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب هكذا نبى قط ، أصيب فى بدنه ، وأصيب فى أصحابه ! وأخذوا يخذلون عن رسول الله ﷺ أصحابه ! ويأمرونهم بالتفرق عن رسول الله ﷺ .

وجعل المنافقون يقولون لأصحاب رسول الله ﷺ : لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل ، حتى سمع عمر بن الخطاب ﷺ ذلك فى أماكن عدة ، فمشى إلى رسول الله ﷺ ليستأذنه فى قتل من سمع ذلك منه من اليهود ، والمنافقين ، فقال له رسول الله ﷺ : **يا عمر: إن الله مظهر دينه ومعز نبيه ، ولليهود ذمة فلا أقتلهم .**

قال عمر ﷺ : فهؤلاء المنافقون يا رسول الله ﷺ !

فقال رسول الله ﷺ : أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟

قال عمر ﷺ : بلى يا رسول الله ، وإنما يفعلون ذلك تعوذاً من السيف ، فقد بان لنا أمرهم ، وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة .

فقال رسول الله ﷺ : نهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يا ابن الخطاب : إن قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن [1].

وحتى تستمر حركة الدعوة ، ويعيش المسلمون حياة العزة والكرامة ، ويحافظوا على حقوق الإنسان التى شرعها الله تعالى ، وحفظها للناس أجمعين ، كان لابد من مواجهة الواقع الذى عاشه أعداء الإسلام بعد " أحد " بما يليق به ، ولذلك وقعت أحداث عدة ، بدأت بعد " أحد " مباشرة ، واستمرت إلى قبيل غزوة " الأحزاب " أوردها هنا إتماماً لترتيب أحداث تاريخ الدعوة ، وإبرازاً للجهد الذى أداه المسلمون صادقين مخلصين .

---

(١) المغازى جـ١ صـ٣١٧ .

- أولاً -

غزوة (حمراء الأسد)

انسحب القرشيون من ميدان معركة " أحد " وأخذوا طريقهم إلى مكة ، فلما وصلوا إلى " الروحاء " على بعد ست وثلاثين ميلاً من المدينة ، استراحوا بها ، وأخذ قادتهم يتأملون فى نتائج معركة " أحد " وفى تدبير أمورهم بعدها ، **فقال بعضهم لبعض : لا محمداً أصبتم ولا الكواعب أردفتم ، فبئس ما صنعتم** .

وقال عكرمة بن أبى جهل : **ما صنعنا شيئاً ، أصبنا أشرافهم ، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم وقبل أن يكون لهم وفر وقوة** [١] .

ولما رجع المسلمون إلى المدينة بجراحهم ومصابهم باتوا ليلتهم بين الحزن والألم، وبات رسول الله ﷺ يفكر فى الأمر، ويتأمله ورأى ضرورة ملاحقة كفار مكة وطلبهم ومفاجأتهم حتى لا يفكروا فى الرجوع إلى المدينة .

فلما صلى رسول الله ﷺ فى اليوم التالى لـ" أحد" ، أمر بلالاً ﷺ أن ينادى فى الناس أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس ، فهب المسلمون رغم ما بهم من جراح ، طاعة للنداء ، وطمعاً فى الثأر ، وأملاً فى إدخال الرعب فى قلوب أعداء الله حتى لا يظنوا بالمسلمين ضعفاً وخوراً .

جاء سعد بن معاذ ﷺ إلى قومه بنى عبد الأشهل ، والجراح فى جميعهم فاشية ، فقال لهم : **إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تطلبوا عدوكم فيجيبه** أسيد بن حضير ، وبه سبع جراحات تحتاج للعلاج : **سمعاً وطاعة لله ورسوله ! فأخذ سلاحه ، ولم يعرج على دواء جراحه ، ولحق برسول الله ﷺ** .

وجاء سعد بن عبادة قومه بنى ساعدة فأمرهم بالمسير ، فتلبسوا ولحقوا .

وجاء أبو قتادة أهل خربى ، وهم يداوون الجراح، فقال: **هذا منادى رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ، فوثبوا إلى سلاحهم ، وما عرجوا على جراحاتهم ، فخرج من بنى سلمه أربعون جريحاً ، بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً ، وبقطبة بن عامر بن حديدة تسع جراحات** ، حتى وافوا النبى ﷺ عند بئر أبى عنبة إلى رأس الثنية وهى على

---

(١) المغازى جـ١ صـ٣٣٨ .

الطريق الرئيسى بين مكة والمدينة ، وعليهم السلاح ، فاصطفوا لرسول الله ﷺ ، فلما نظر رسول الله ﷺ إليهم ، والجراح فيهم فاشية قال : **اللهم ارحم بنى سلمة** [١] .

وكان حرص المسلمين على الخروج واضحاً ، لدرجة أن جابر بن عبد الله ﷺ جاء إلى النبى ﷺ وبين له عذره فى عدم الخروج لـ " أحد"واستأذنه فى الخروج هذه المرة، وقال لرسول الله ﷺ : **يا رسول الله ، إن منادياً نادى ألا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس وقد كنت حريصاً على الحضور بالأمس فى " أحد " ، ولكن أبى خلفنى على أخوات لى وقال: يا بنى ، لا ينبغى لى ولك أن ندعهن ، ولا رجل عندهن ، وأخاف عليهن ، وهن بنات ضعاف ، وأنا خارج مع رسول الله ﷺ، لعل الله يرزقنى الشهادة، فتخلفت عليهن فاستأثره الله على بالشهادة ، وكنت رجوتها لنفسى ، فأذن لى يا رسول الله أن أسير معك ، فأذن له رسول الله ﷺ .**

يقول جابر : **فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال بالأمس غيرى** [٢] .

وولى النبى ﷺ على المدينة الصحابى عبد الله بن أم مكتوم .

ومن نوادر الطاعة خروج عبد الله ، ورافع ابنى سهل بن عبد الأشهل ، فلقد رجعا من " أحد" وجراحهما ثقيلة، فلما سمعا النداء عزما على الخروج، وليس لهم دابة ولا يقدران على السير، فخرجا يزحفان على بطونهما ، فلما عجز رافع عن الزحف حمله أخوه عبد الله على ظهره ، حتى أتيا رسول الله ﷺ عند العشاء، فلما علم أمرهما قال لهما ﷺ: لو طالت لكم المدة كانت لكم مراكب من خيل ، وبغال ، وإبل ، وليس ذلك بخير لكم[٣] .

وخرج مع رسول الله كل من خرج فى أحد فبلغ عددهم ستمائة وسبعين رجلاً وخرج معهم جابر بن عبد الله بإذن رسول الله ﷺ ، وجاء رسول الله باللواء ، وهو على حاله يوم " أحد " لأنه لم يحل و لم يتغير ، وأعطاه لعلى بن أبى طالب ، وواصل الجيش الإسلامى سيره إلى "حمراء الأسد " على بعد ستة أميال من المدينة ، حتى بلغها ، وعسكر بها [٤] .

---

(١) المغازى جـ١ صـ٣٣٤ ، ٣٣٥

(٢) المغازى جـ١ صـ٣٣٦ سيرة النبى جـ٢ صـ١٠٠

(٣) المغازى جـ١ صـ٣٣٥

(٤) إمتاع الأسماع جـ١ صـ١٦٨

وأخذت الأحداث تتفاعل فى كلاً المعسكرين .

المشركون يفكرون فى الرجوع إلى المدينة ، ليدركوا ما فاتهم فى القضاء على المسلمين والمسلمون يفكرون فى إرهاب العدو ، وطرده ، وإبعاده عن المدينة حفاظاً على الذرارى والنساء ، وإعادة هيبتهم التى فقدوها فى " أحد ".

وهنا نجد دقة التحركات الإسلامية الرشيدة ، والتى من أهمها :-

١) أرسل رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من أسلم ليأتوه بخبر القوم ، فلحق الثلاثة بالقوم عند " حمراء الأسد " فأبصرهم القرشيون وقتلوا اثنين منهم وهما سليط ، ونعمان ، ابنا سفيان بن خالد من بنى سهم ، وأما الثالث فقد تخلف لبطئة فى السير ونجا فلما وجدهما المسلمون فى " حمراء الأسد " قبروهما فى قبر واحد ، فعرفا بالقرينين (١) وقد أدى ذلك إلى زيادة خوف العدو لأنه علم ملاحقة المسلمين لهم .

٢) لما عسكر المسلمون فى " حمراء الأسد " أمرهم رسول الله ﷺ بجمع الحطب فى النهار على أن يوقد كل رجل منهم ناراً مستقلة ، فبلغت النيران خمسمائة ، تبدو عالية من البعد (٢) ، وتحدث الأعراب بهذا فأصيبوا بالذعر والخوف ، وتوقعوا أن القوة الإسلامية أضعاف أضعاف ما هى عليه وأبلغوا رؤيتهم لأهل مكة .

٣) **جاء معبد بن أبى معبد الخزاعى** ، وكانت خزاعة سلما لرسول الله والمسلمين ، وقال : يا محمد لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولوددنا أن الله أعلى كعبك ، وأن المصيبة كانت بغيرك .... فطلب منه ﷺ أن يخذل الأعداء ، فذهب إلى القرشيين وهم بالروحاء **فقال له أبو سفيان : ما وراءك ؟**

قال : تركت محمداً وأصحابه خلفى ، يتحرقون عليكم بمثل النيران ، وقد أجمع معه من تخلف عنه بالأمس ، من الأوس والخزرج ،وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم وغضبوا لقومهم غضباً شديداً ، ولمن أصبتم من أشرافهم .

قالوا : ويلك ! ما تقول ؟!

قال : والله ما أرى إلا أن نرتحل حتى نرى نواصى الخيل .

---

(١) المغازى جـ١ صـ٣٣٨

(٢) سيرة النبى جـ٢ صـ١٠٢

وأرسل معبد إلى رسول الله ﷺ رجلاً من خزاعة يعلمه بانصراف القرشيين إلى مكة خائفين ، مذعورين [١] .

٤) علم الله تعالى إخلاص أصحاب رسول الله ﷺ وهم حزبه وجنده ، فجعل من بين المشركين من يخذلهم ، ويصرفهم عن مهاجمة المدينة مرة أخرى ، وذلك أن أبا سفيان حينما فكر مع بعض رفاقه فى العودة إلى المدينة ومهاجمتها ، قال له صفوان بن أمية وهو واحد من جيش القرشيين : يا قوم لا تفعلوا !! فإن المسلمين قد حزنوا على ما أصابهم ، وأخشى أن يجمعوا عليكم من تخلف من الخزرج ، فعودوا إلى مكة ، والدولة لكم ، فإنى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم [٢] .

وأدخل الله الرعب فى قلوب القرشيين فأسرعوا بالرحيل إلى مكة ، وأراد أبو سفيان أن يخيف المسلمين ، فانتهز مرور نفر من عبد القيس يريدون المدينة ، فطلب منهم أن يخبروا محمداً وأصحابه بأن قريشاً اجتمعت على الرجعة إليهم ... فلما ذكر الوفد ذلك للمسلمين قال رسول الله ﷺ : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقويت عزائم المسلمين للقاء العدو ، ورغبوا فى إلحاق الأذى بالمشركين ، رغم ما بهم من جراح ، وفى ذلك نزل قول الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ [٣] .

ومكث النبى ﷺ والمسلمون فى " حمراء الأسد " ثلاثة أيام عادوا بعدها إلى المدينة المنورة ، وقد استفاد المسلمون من غزوة " حمراء الأسد " عدة فوائد :-

أ) تجديد روح التضحية ، وإظهار حب المسلمين للجهاد، والاستشهاد فى سبيل الله تعالى ، فلقد خرجوا مع رسول الله للجهاد بعد أقل من يوم من هزيمتهم فى " أحد " رغم الجراح ، والآلام ، وكانوا على شوق للحرب ، والقتال .

ب) إبراز القوة الإسلامية ، وإعلام الآخرين بها ، حتى يكونوا على حذر فى عداوتهم

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ١٠٤

(٢)

(٣) سورة آل عمران الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣ .

ولا يستهينوا بالقوة الإسلامية ، ولذلك أمرهم رسول الله ﷺ بإظهار ملامح القوة ، وإرهاب العدو ، وعمل على تخذيل الكفار وتخويفهم .

ج) ضرورة الاهتمام بالتخطيط ، والتنفيذ ، والالتزام بالطاعة ، ليبرز العمل فى وقته وزمانه ، وليعود بالفائدة المأمولة لدين الله تعالى ، وللمسلمين ، ولهذا كان الخروج بعد أقل من يوم ، مع الاستعداد للتضحية والفداء .

د) ضرورة أخذ الحذر ، وعدم تصديق من غدر وخان ، فلقد أسر المسلمون أباغرة ، الجمحى بـ"حمراء الأسد" فطلب أن يمن رسول الله ﷺ عليه، وقال له: لا تقتلنى ، فأبى النبى ﷺ وقال له : لن تقول خدعت محمداً مرتين ، وكان قد من عليه وفك أسره فى "بدر " وقال ﷺ : " **إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين** " .

ـ ثانياً ـ

سرية أبى سلمه رضي الله عنه

بعد شهرين من غزوة " أحد " علم رسول الله ﷺ أن طلحة ، وسلمة ، ابنى خويلد أخذا فى تحريض قومهما بنى خزيمة لحرب المسلمين والإغارة على المدينة المنورة لسلب الأموال ، وإثبات كيان قوى لهم أمام المسلمين، بعدما تصوروا أن هزيمة المسلمين فى أحد فرصة تساعدهم على ما أرادوه من بغى وعدوان .

يروى الواقدى حال بنى خزيمة وهم يستعدون ، ويتشاورون فى مهاجمة المسلمين ويقول بعضهم لبعض : نسير إلى محمد فى عقر داره ، ونصيب من أطراف المسلمين ، فإن لهم سرحا يرعى جوانب المدينة ونخرج على متون الخيل ، ونخرج على النجائب المخبورة فقد أربعنا خيلنا وإبلنا فإن أصبنا نهباً لم ندرك ، وإن لاقينا جمعهم كنا قد أخذنا للحرب عدتها ، معنا خيل ولا خيل معهم ، ومعنا نجائب أمثال الخيل ، والقوم منكوبون قد أوقعت بهم قريش حديثاً ، فهم لا يستبلون دهراً ، ولا يثبتون على أمر .

فقام فيهم رجل منهم يقال له قيس بن الحارث بن عمير ، **فقال : يا قوم ، والله ما هذا برأى ! ما لنا قبلهم وتر ، وما هم نهبة لمنتهب ، إن دارنا لبعيدة من يثرب ، وما لنا جمع كجمع قريش ، مكثت قريش دهراً تسير فى العرب تستنصرها ، ولهم وتر يطلبونه ثم ساروا وقد امتطوا الإبل ، وقادوا الخيل ، وحملوا السلاح مع العدد الكثير — ثلاثة**

آلاف مقاتل سوى أتباعهم – وإنما جهدكم أن تخرجوا فى ثلاثمائة رجل إن كملوا ، فتغررون بأنفسكم وتخرجون من بلدكم ، ولا آمن أن تكـون الدائرة عليكم ، فكـاد ذلك أن يشككهم فى السير [١] .

وقد سمع هذا النقاش رجل من طئ[٢] فقدم على صهره ، الذى هو من صحابة رسول الله ﷺ بالمدينة وأخبر بما عزم عليه بنو خزيمة فجاء الصحابى إلى رسول الله ، وأخبره خبر بنى خزيمة فأرسل رسول الله إلى **أبى سلمة ﷺ وهو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال القرشى المخزومى** وولاه على سرية قوامها مائة وخمسون رجلاً وأوصاه بتقوى الله وأمره بالإسراع فى الخروج فخرج ﷺ مع السرية، وكان معهم الطائى يدلهم على الطريق وواصلوا السير ليلاً ونهاراً ، فى طريق غير مألوف ، حتى وصل بجيشه إلى أدنى ماء لبنى أسد بن خزيمة ، فوجد عند الماء إبلاً ، وغنماً مع الرعاة ، فاستولوا عليها ، وهرب الرعاة إلا ثلاثة ، وحذروا بنى أسد من جمع أبى سلمة، وكثروهم عندهم، ففروا فى كل وجه هلعاً، وخوفاً .

فلما ورد أبو سلمة مكان تجمع القوم لم يجد أحداً فعسكر فيه ، وفرق أصحابه فى طلب النعم والشاه ، فجعلهم ثلاث فرق – فرقة أقامت معه ، وفرقتان أغارتا فى ناحيتين مختلفتين ، وأوعز إليهما ألا يمعنوا فى طلب ، وألا يبيتوا إلا عنده إن سلموا ، وأمرهم ألاّ يفترقوا ، واستعمل على كل فرقة عاملاً منهم ، فآبوا إليه جميعاً سالمين ، قد أصابوا إبلاً وشياه، و لم يلقوا أحداً ، فرجع أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة راجعاً ، ورجع معه الطائى فلما ساروا ليلة قال أبو سلمة : اقتسموا غنائمكم ، فأعطى أبو سلمة الطائى الدليل رضاه من المغنم ، وأخرج صفياً لرسول الله ﷺ عبداً ، ثم أخرج الخمس ، ثم قسم ما بقى بين أصحابه ، فعرفوا سهمانهم ، وأقبلوا بالنعم والشاه يسوقونها حتى دخلوا المدينة[٣] .

وكانت سرية أبى سلمة [٤] فى مستهل شهر المحرم من العام الرابع الهجرى .

---

(١) المغازى جـ١ صـ٣٤٢ .

(٢) هو الوليد بن زهير بن طريف من بنى طئ .

(٣) المغازى جـ١ صـ٣٤٣ .

(٤) أبو سلمة من بنى مخزوم شهد " أحداً " وجرح بها ، وقد استمر فى مداواة الجرح شهراً حتى دمل على فساد ، واشترك فى " حمراء الأسد " فلما استعمله النبى ﷺ على السرية عاوده ألم الجرح ، واشتد عليه بعد رجوعه إلى المدينة ، فمات بها ، فهو من شهداء " أحد " وقد خلفه الرسول ﷺ على زوجته أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها.

- ثالثاً -
بعث عبد الله بن أنيس

فى الخامس من شهر المحرم من العام الرابع للهجرة جاءت الأخبار إلى رسول الله ﷺ أن خالد بن سفيان الهذلى يحشد الجموع لحرب رسول الله ﷺ، ويحرض على مهاجمة المدينة وقد نزل بـــ"عوانة" فأرسل رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس ﷺ إليه ليقضى عليه وينهى الفتنة التى يعمل لإشعالها .

قال عبد الله بن أنيس : يا رسول الله ! انعته لى حتى أعرفه .

قال ﷺ : إذا رأيته هبته ، وفرقت منه ، وذكرت الشيطان ، وآية ما بينك وبينه أن تجد له قشعريرة إذا رأيته ، وأذن له أن يقول ما بدا له .

وكان أنيس لا يهاب الرجال ، فأخذ سيفه وخرج ، حتى إذا كان ببطن عرنة لقى سفيان يمشى ، ووراءه الأحابيش فهابه ، وعرفه بالنعت الذى نعت له رسول الله ﷺ ، وقد دخل وقت العصر فصلى وهو يمشى يومئ إيماء برأسه ، فلما دنا منه قال : من الرجل ؟

قال : رجل من خزاعة ، سمعت بجمعك لمحمد فجئتك لأكون معك عجباً لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث ، فارق الآباء وسفه أحلامهم .

فصحبه سفيان معه و أكرم قراه ، فلما تفرق عنه أصحابه ، قال: هلم يا أخا خزاعة فدنا منه وجلس عنده حتى نام الناس فقتله ، وأخذ رأسه واختفى فى غار، والخيل تطلبه فى كل وجه ، ثم سار الليل ، وتوارى فى النهار إلى أن قدم المدينة (١) ...الذى ظل غائباً عنها ثمانى عشرة ليلة بدءا من السبت لسبع بقين من المحرم وقد قتل خالداً ، وجاء برأسه فوضعه بين يدى رسول الله ﷺ (٢)، فأعطاه ﷺ عصاه ، وقال له ﷺ : **" هذه آية بينى وبينك يوم القيامة " فلما حضرت بن أنيس الوفاة أوصى أن تجعل معه فى أكفانه وكانت غيبته ﷺ عن المدينة ثمانية عشر يوماً** (٣) .

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٢٥٣

(٢) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٢٥٤

(٣) زاد المعاد فى هدى خير العباد جـ٣ صـ٢٤٤ .

ـ رابعاً ـ
بعث الرجيع

والرجيع بفتح الراء المشددة وكسر الجيم اسم ماء لهذيل يقع بين مكة وعسفان بأرض الحجاز ، وسمى البعث به لحدوث الوقعة عنده .

وسبب هذه الوقعة أن نفراً من القارة ، وعضل[١] ، وهما بطنان من بطون الهون بن خزيمة ابن مدركة قدموا على رسول الله ﷺ ، وذكروا أن فيهم إسلاماً ، وطلبوا منه ﷺ أن يبعث معهم من يعلمهم القرآن الكريم ، ويفهمهم الإسلام ، فبعث لهم الرسول ﷺ سرية مؤلفة من عشر رجال ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت رضي الله عنه فانطلقوا بهم حتى كانوا بين عسفان ومكة

وهنا غدر القوم بهم ، واستصرخوا عليهم النضر وحياً من هذيل ليغدروا بهم معهم فأتوهم بقريب من مائة رام ، تتبعوا آثار أفراد السرية حتى لحقوا بهم عند "فدفد" .. فلجأ عاصم ومن معه إليها ، وأقاموا بها حتى لحقوا بهم .

وجاء الرماة فأحاطوا بعاصم ومن معه وقالوا لهم : **لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً .**

فقال عاصم : **أما أنا فلا أنزل فى ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا رسولك ، فقاتلوهم ولم يستسلموا واستمر الرمى حتى قتل عاصم مع سبعة نفر من أصحابه .**

وبقى خبيب ، **وزيد، ورجل آخر** ، فأعطوهم العهد والميثاق ، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم وربطوهم بها .

فقال الرجل الثالث : **هذا أول الغدر ، وأبى أن يصحبهم فجروه ، وعاجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه .**

وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة .

فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل ، وكان خبيب هو الذى قتل أباهم الحارث يوم بدر ، فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله خرجوا به من الحرم ليقتلوه فقال : **دعونى أصلى ركعتين**، فتركوه فصلاهما فلما سلم قال : **والله لولا إن تقولوا أن ما بى جزع من الموت لزدت ، وكان أول من سن الركعتين عند القتل ، ثم قال : اللهـــم**

---

(١) القارة بتخفيف الراء وعضل بضم العين وفتحها وفتح الضاد .

احصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً ..... [1] وأخذ يقول :-

لقد أجمع الأحزاب حولى وألبوا قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم وقربت من جذع طويل ممنع
إلى الله أشكو غربتى بعد كربتى وما أرصد الأحزاب لى عند مضجعى
فذا العرش صبّرنى على ما يراد بى فقد بضّعوا لحمى وقد ياس مطعمى
وقد خيرونى الكفر والموت دونه فقد ذرفت عيناى من غير مجزع
وما بى حذار الموت إنى لميت وإنى إلى ربى إيابى ومرجعى
ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى شق كان فى الله مضجعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع
فلست بمبد للعدو تخشعاً ولا جزعاً إنى إلى الله مرجعى

ولما صلبوه ، وأرادوا قتله قال له أبو سفيان : **أيسرك أن محمداً عندنا نضرب عنقه ، وأنك فى أهلك ؟**

فقال : **لا والله ما يسرنى أنى فى أهلى وأن محمداً فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه** ثم صلبوه ووكلوا به من يحرس جثته ، فجاء عمرو بن أمية الضمرى ، فاحتمله بخدعة ليلاً فذهب به فدفنه ، وكان الذى تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث [2] .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه أمية بن خلف [3] .

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشئ من جسده يعرفونه ، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر ، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر (الزنابير) فحمته من رسلهم

---

(١) قال السهيلى : وإنما صارت سنة لأنها فعلت فى زمنه ﷺ واستحسنت من صنيعه ، وقد صلاها زيد بن حارثة فى حياة النبى ﷺ ، كما صلاها حجر بن عدى بن الأدبر حين حمل إلى معاوية من العراق ، ومعه كتاب زياد ابن أبيه يشهد عليه أنه خرج عليه ، وأراد خلعه ، وفى الكتاب شهادة جماعة من التابعين منهم الحسن ، وابن سيرين ، فلما دخل حجر بن عدى على معاوية قال له : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

قال معاوية : أو أنا للمؤمنين أمير ؟ ثم أمر بقتله ، فصلى ركعتين قبل قتله يرحمه الله وقد عاتبت عائشة معاوية فى قتله ، فقال : إنما قتله من شهد عليه ، ثم قال : دعينى وحجراً ، فإنى سألقاه على الجادة يوم القيامة .

قالت : فأين ذهب عنك حلم أبى سفيان ؟ قال : حين غاب مثلك من قومى (الروض الأنف جـ٣ صـ٢٣٥)

(٢) السيرة النبوية جـ٢ صـ١٧٣

(٣) السيرة النبوية جـ٢ صـ١٧٢

فلم يقدروا منه على شئ ، وكان عاصم أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً ، وكان عمر لما بلغه خبره يقول : **يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه فى حياته** [1] .

- خامساً -
سرية عمرو بن أمية الضمرى لقتل أبى سفيان

كان أبو سفيان بن حرب قد قال لنفر من قريش بمكة : أما أحد يغتال محمداً فإنه يمشى فى الأسواق فندرك ثأرنا ؟!!

فأتاه رجل من العرب فدخل عليه منزله بمكة وقال له : **يا أبا سفيان إن أنت وفيتنى خرجت إليه حتى أغتاله ، فإنى هاد بالطريق ومعى خنجر مثل خافية النسر .**

قال أبو سفيان : **أنت صاحبنا ، وأعطاه بعيراً ، ونفقة ، وقال له : اطو أمرك ، فإنى لا آمن أن يسمع هذا أحد فينميه إلى محمد .**

قال الرجل : **العربى لا يعمله** ، فخرج ليلاً على راحلته فسار خمساً ، ووصل المدينة فى اليوم السادس ، ثم أقبل يسأل عن رسول الله ﷺ حتى أتى المصلى ، فعقل راحلته ، ثم أقبل يؤم رسول الله ﷺ فوجده فى جماعة من أصحابه يحدث فى مسجده ، فلما دخل ورآه رسول الله ﷺ قال لأصحابه : إن هذا الرجل يريد غدراً ، والله حائل بينه وبين ما يريده .

فوقف وقال : **أيكم ابن عبد المطلب ؟**

فقال له رسول الله ﷺ : **أنا ابن عبد المطلب ، فذهب ينحنى على رسول الله ﷺ كأنه يساره ، فجبذه أسيد بن حضير وقال : تنح عن رسول الله ﷺ ، وجذبه بداخل إزاره ، فإذا الخنجر يظهر فقال : يا رسول الله هذا غادر .**

فأسقط فى يد الأعرابى وقال : **دمى دمى يا محمد ، وأخذه أسيد بن حضير يلببه فقال له النبى ﷺ اصدقنى من أنت ، وما أقدمك ، فإن صدقتنى نفعك الصدق ، وإن كذبتنى فقد اطلعت على ما هممت به .**

قال العربى : فأنا آمن ؟!!

---

(١) صحيح البخارى ك المغازى باب غزوة الرجيع جـ٦ صـ٣١٠-٣١٢ ، زاد المعاد جـ٣ صـ٢٤٤-٢٤٦

قال ﷺ : وأنت آمن .

فأخبره بخبر أبي سفيان ، وما جعل له فأمر به فحبس عند أسيد بن حضير ، ثم دعا به من الغد وقال له ﷺ : قد أمنتك فاذهب حيث شئت ، أو خير لك من ذلك ؟

قال : وما هو ؟

فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله .

فقال الرجل : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، والله يا محمد ما كنت أفرق بين الرجال ، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت ، ثم اطلعت على ما هممت به فما سبقت به الركبان ، ولم يطلع عليه أحد ، فعرفت أنك ممنوع ، وأنك على حق ، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان ، فجعل النبي ﷺ يبتسم، وأقام الرجل أياماً بالمدينة ، ثم استأذن النبي ﷺ فخرج من عنده ، ولم يسمع له ذكر بعد ذلك [1] .

وقد أدى هذا التصرف العدواني من أبي سفيان أن أرسل رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري مع رجل من الأنصار إلى مكة لقتل أبي سفيان إن أصابا فيه غرة ، فلما رأى أهل مكة ابن أمية عرفوه وأدركوا شراً وراءه ، وتجمعوا له ... فرجع مع صاحبه إلى المدينة ، يقول عمرو بن أمية : بعثني رسول الله ﷺ وبعث معي جبّار بن ضمر الأنصاري إلى ابي سفيان بن حرب وقال : إن أصبتما فيه غرة فاقتلاه .

فخرجنا حتى قدمنا مكة وحبسنا جملينا بشعب من شعاب يأجج ثم دخلنا مكة ليلاً فقال جبار لعمرو : لو أنا طفنا بالبيت وصلينا ركعتين .

فقال عمرو : إن القوم إذا تعشوا جلسوا بأفنيتهم ، وإنهم إن رأوني عرفوني فإني أعرف بمكة من الفرس الأبلق .

فقال جبار : كلا إن شاء الله فأبى أن يطيعني فطفنا بالبيت وصلينا ثم خرجنا نريد أبا سفيان ، فوالله إنا لنمشي بمكة إذ نظر إلى معاوية بن أبي سفيان فعرفني فقال معاوية : عمرو بن أمية فوالله ما قدمها إلا لشر ، فأخبر قريشاً بمكاني فخافوني وطلبوني وقالوا : لم يأت عمرو بخير ، فحشدوا وتجمعوا .

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ٦ صـ١٩٤ ، ١٩٥

قال عمرو : فقلت لصاحبى : النجاء ، فخرجنا نشتد حتى صعدنا فى جبل ، وخرجوا فى طلبنا حتى إذا علونا الجبل يئسوا منا ، فرجعنا فدخلنا كهفاً فى الجبل فبتنا فيه وقد أخذنا حجارة فرضمناها دوننا ، فلما أصبحنا غدا عبيد الله بن مالك بن عبيد الله التيمى يقود فرساً له فغشينا ونحن فى الغار وكان معى خنجر قد أعددته فخرجت إليه وضربته ضربة فصاح صيحة فأسمع أهل مكة وجاءه الناس يشتدون وهو بآخر رمق فقالوا : من ضربك ؟

فقال : **عمرو بن أمية** وغلبه الموت فمات مكانه و لم يدلل على مكاننا ، فاحتملوه فقلت لصاحبى لما أمسينا : النجاء ، فخرجنا ليلاً من مكة نريد المدينة فمررنا بالحرس وهم يحرسون جيفة خبيب بن عدى ، فقال أحدهم : **والله ما رأيت كالليلة أشبه بمشية عمرو بن أمية لولا أنه بالمدينة لقلت هو عمرو ابن أمية** فلما حاذينا الخشبة شددنا عليها وحملناها وخرجنا بها شداً حتى أتينا جرفاً بمهبط مسيل يأجج فدفناها فى الجرف فغيبه الله تعالى عنهم فلم يقدروا عليه وعدنا بعدها إلى المدينة [١] .

ـ سادساً ـ
وقعة بئر معونة

وبئر معونة موضع ببلاد هذيل بين مكة وعسفان ، قريب من الرجيع ، وفيه حدثت الواقعة المشهورة ، التى استشهد فيها سبعون من القراء ، حفظة القرآن الكريم .

ويبدو أن أهل هذه المنطقة خططوا لخديعة المسلمين ، وعارضوا رسول الله ﷺ بسبب قربهم من مكة ، وتأثرهم بأهلها .

يروى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ بعث أصحابه إلى بئر معونة فى شهر صفر على رأس أربعة أشهر من " أحد " بعدما جاء أبو براء عامر بن مالك بن جعفر المعروف بـــ "ملاعب الأسنة " إلى المدينة فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، ودعاه إلى دين الله تعالى فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام ، وقال : **يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهــــل نجـــد ، يدعوهم إلى أمرك ، فإنى أرجو أن يستجيبوا لك .**

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـــ٦ صــ١٩٥ ، ١٩٦ بتصرف

فقال رسول الله ﷺ : إنى أخشى عليهم أهل نجد .

قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم ، فليدعوا الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو ، أخا بنى ساعدة فى سبعين رجلاً من الصحابة منهم : الحارث بن الصمة ، وحرام بن ملحان أخو بنى عدى بن النجار ، وعروة بن أسماء بن الصلت السلمى ، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعى ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق ، فى رجال من خيار المسلمين الحفظة فساروا حتى نزلوا بـ "بئر معونة " وهى بين أرض بنى عامر ، وحرة بنى سليم ، كلا البلدين منها قريب ، وهى إلى حرة بنى سليم أقرب .

فلما نزلوا "بئر معونة" بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر ابن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر فى الكتاب وعدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر ، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا : لن ننقض عهد أبى براء ، وقد عقد لهم عقداً وجواراً ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم ، وهم : عُصَيَّة ، ورِعْل ، وذَكْوان [١] فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم فى رحالهم ، **فلما رآهم القراء أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ، "يرحمهم الله " إلا كعب بن زيد ، أخا بنى دينار بن النجار ، فإنهم تركوه وبه رمق ، فحمل من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً ، رحمه الله [٢] .**

وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضمرى ، ورجل من الأنصار ، أحد بنى عمرو ابن عوف ، و هو المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح .

يقول ابن إسحاق: فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر فقالا : **والله إن لهذه الطير لشأناً، فأقبلا لينظرا فإذا القوم فى دمائهم، وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة .**

فقال الأنصارى لعمرو بن أمية : ما ترى ؟

---

(١) عُصَيَّة بضم العين وفتح الصاد وتشديد الياء المفتوحة ورِعْل بكسر الراء وسكون العين ، وذَكْوان بفتح الذال وسكون الكاف أسماء قبائل .

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة الرجيع جـ٦ صـ٣١٢ ، زاد المعاد جـ٣ صـ٢٤٦ ، ٢٤٧

قال عمرو : **أرى أن نلحق برسول الله ﷺ ، فنخبره الخبر .**

فقال الأنصارى : لكنى ما كنت لأرغب بنفسى غن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو وما كنت لتخبرنى عنه الرجال ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً

فلما أخبرهم أنه من مضر ، أطلقه عمرو بن الطفيل ، وجز ناصيته ، وأعتقه عن رقبته زعم أنها كانت على أمه .

فخرج عمرو بن أمية ، حتى إذا كان بـــ "قرقرة الكدر " من صدر قناة أقبل رجلان من بنى عامر [١] حتى نزلا معه فى ظل هو فيه .

وكان مع العامريين عقد من رسول الله ﷺ وجوار ، لم يعلم به عمرو بن أمية ، وقد سألهما حين نزلا : **ممن أنتما ؟**

فقالا : من بنى عامر ، فأمهلهما ، حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما ، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأرة ، من بنى عامر ، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ .

فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ ، فأخبره الخبر ، قال رسول الله ﷺ : لقد قتلت قتيلين ، لأدينهما [٢].

وقد تألم النبى ﷺ لأجل مأساة "بئر معونة " ولأجل مأساة "الرجيع" اللتين وقعتا خلال أيام معدودة تألماً شديداً ، وتغلب عليه الحزن والقلق ، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التى قامت بالغدر والفتك فى أصحابه ، ففى البخارى عن أنس ﷺ قال : دعا النبى ﷺ على الذين قتلوا **أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحاً ، يدعو فى صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية** ، ويقول : " **عصية عصت الله ورسوله** "[٣] فأنزل الله تعالى على نبيه قرآناً قرأناه حتى نسخ بعد ((**بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه**)) فترك رسول الله ﷺ قنوته [٤] .

---

(١) وقيل إنهما من بنى كلب ، والراجح ما ذكرته وقرقرة الكدر موضع قريب من المدينة .

(٢) سيرة النبى لابن هشام جـــ٢ صـــ١٨٥ ، ١٨٦

(٣) صحيح البخارى – كتاب المغازى – باب غزوة الرجيع جـــ٦ صـــ٣١٧ .

(٤) نفس المرجع السابق جـــ٦ صـــ٣١٨ .

وأورد البخاري فى صحيحة رواية أخرى تحدد محل القنوت ضمن أعمال الصلاة حيث ذكر بسنده عن عاصم الأحول أنه قال : سألت أنس بن مالك ﷺ عن القنوت فى الصلاة .

قال : نعم .

فقلت كان قبل الركوع أو بعده ؟

قال : قبله .

قلت : فإن فلاناً أخبرنى عنك ، أنك قلت بعده .

قال : كذب ، إنما قنت رسول الله ﷺ بعد الركوع شهراً ، أنه كان بعث ناساً يقال لهم القراء ، وهم سبعون رجلاً إلى ناس من المشركين ، وبينهم وبين رسول الله ﷺ عهد قبلهم ، فظهر هؤلاء الذين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد ، فقنت رسول الله ﷺ بعد الركوع شهراً يدعو عليهم [١] .

وقد بين الحافظ ابن حجر فى الفتح أن المراد بالقنوت الدعاء ، وأورد حديث أئمة الحديث والفقة الذين بينوا أن القنوت يجوز فى صلوات الليل والنهار ، وأولاها صلاة المغرب دبر صلاة النهار ، وصلاة الفجر دبر صلاة الليل .

وبينوا أن رسول الله ﷺ قنت قبل الركوع قليلاً ، وأكثر قنوته كان بعده ، وذكروا أن قول أنس فى الرواية " كذب " يعنى أخطأ بلغة أهل الحجاز .

وقد أجمع الفقهاء والمحدثون أن رسول الله ﷺ قنت فى صلاة الصبح .

فلا عبرة لمن أنكر القنوت أمام هذا الإجماع ، لأن الدليل لا ينقض إلا بما يساويه ، أو يزيد عليه فى القوة .

والحكمة فى جعل القنوت جهراً ، وأثناء القيام هو اشتراك الإمام والمأموم فى الدعاء وهم فى حالة نشاط وإقبال على الله تعالى ... ولذلك أجمعوا على الجهر بالقنوت لتحقيق هذه المشاركة بين الإمام يدعو ، والمأمومين يؤمنون .. ولا خلاف فى الجهر بالقنوت بين الأئمة فى أوقات الصلاة ما عدا صلاة الصبح فإنهم اختلفوا فى محله ، وفى الجهر به [٢] .

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة الرجيع جـ٦ صـ٣١٨

(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى كتاب الوتر باب القنوت جـ٢ صـ٤٩٠ ، ٤٩١

ـ سابعاً ـ
غزوة بنى النضير

فرح اليهود بهزيمة المسلمين فى " أحد " وأخذوا يعلنون قوتهم وبأسهم ، والحقيقة أنهم لم يكونوا أصحاب قتال وحرب ، بل كانوا أصحاب خداع وتآمر ، وكانوا يتعاونون خفية مع المنافقين ، ومع كل من يعادى رسول الله ﷺ ، و لم ينس يهود بنى النضير ما لحق بإخوانهم من بنى قينقاع ، وبكعب بن الأشرف ، فأخذوا يتحينون الفرص للغدر برسول الله ﷺ ، وبالمؤمنين .

فلما وقعت غزوة " أحد " [1] وخدع المشركون المسلمين فى "الرجيع" ، وفى "بئر معونة" فكر يهود بنى النضير فى الغدر برسول الله ﷺ ، وانتهزوا فرصة ذهابه إلى ديارهم لمطالبتهم بالمساهمة فى دية الرجلين من بنى عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى تطبيقاً للعهد الذى قطعة الرسول ﷺ معهم عند مجيئهم إلى المدينة .

وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلفاً وعهداً ... فلما طالبهم الرسول ﷺ بالاشتراك فى الدية قالوا : **نعم يا أبا القاسم : نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد فمن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟**

فانتدبوا لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقى على رسول الله ﷺ صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه ، هم أبو بكر، وعمر ، وعثمان وعلى ﷺ ، والزبير ، وطلحة ، وسعد بن معاذ ، وأسيد بن الحضير ، وسعد بن عبادة .

فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ،

---

(١) ذهب البعض إلى أن غزوة بنى النضير كانت بعد بدر ، وقبل أحد ، والحق أنها كانت بعد " أحد " وبعد بئر معونة لأن سببها كان غدر بنى النضير برسول الله ﷺ حين ذهب إليهم ليدفعوا ما عليهم من دية الرجلين من بنى عامر الذين قتلهم عمرو بن أمية بعد نجاته فى بئر معونة ، وأيضاً فإن فكرة التآمر لاغتيال رسول الله ﷺ تواترت بين اليهود وبين أبى سفيان كما دلت الأحداث عما ذلك بعد " أحد " .

فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه قاموا فى طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال : رأيته داخلاً المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ ، فأخبرهم الخبر ، وعرفهم أن اليهود أرادت الغدر به ، وأمرهم بالتهيؤ لحربهم ، والسير إليهم ، واستعمل على المدينة **ابن أم مكتوم** [١] .

وحاول ابن أبى إشعال الفتنة فذهب إلى بنى النضير ، ومناهم بأن قريظة ، وغطفان ، وألفين معه سيكونون معهم إن قاتلوا المسلمين ، فلما اشتد الأمر نكص على عقبه كما فعل مع بنى قينقاع ، فتنبه بنو النضير ، وأعدوا للأمر عدته .

وسار النبى ﷺ بالناس ، حتى نزل بهم ، وذلك فى شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة ، فحاصرهم ست ليال ، فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها ، فنادوه : **أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد ، وتعيبه على من يصنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟**

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج منهم (عدو الله) عبد الله بن أبى بن سلول ، ووديعة مالك بن أبى قوقل ، وسويد ، وداعس ، قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا بذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وانخذل المنافقون وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الدروع ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته ويحمل الأبواب والشبابيك فيضعها على ظهر بعيره فينطلق بها ، فخرج أكثرهم إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام [٢] .

وممن سار منهم إلى خيبر " سلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وحيى بن أخطب فلقد نزلوها ، وصار لهم فيها شأن وقوة ورأى .

حمل اليهود معهم النساء والأبناء وبعض الأموال وخلوا الأموال لرســول الله ﷺ يضعها حيث يشاء ، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا أن

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٢٤٨

(٢) سيرة النبى جـ٢ صـ١٩١

سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك ابن خرشة ذكرا فقراً فأعطاهما رسول الله ﷺ .

و لم يسلم من بنى النضير إلا رجلان: يامين بن عمير، أبو كعب بن عمرو بن جحاش ، وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها .

يقول ابن إسحاق وقد حدثنى بعض آل يامين : أن رسول الله ﷺ قال ليامين : ألم تر ما لقيت من ابن عمك ، وما هم به من شأنى ؟ فجعل يامين بن عمير لرجل جعلا على أن يقتل له عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون (١).

وقد أنزل الله سورة الحشر تتحدث عن بنى النضير ، ولذلك سماها ابن عباس سورة بنى النضير (٢)، وقد ابتدأت السورة بالحديث عن خروجهم من المدينة ، رغم قوة حصونهم ودقة تخطيطهم ، و لم يكن أحد يتصور لهم هذا الخروج ، لكن قضاء الله نفد عليهم فخربوا بيوتهم بأيديهم واستولى الرعب عليهم ، فقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝ ﴾ (٣) والمراد بالذين كفروا يهود بنى النضير ، وأول الحشر هى أرض خيبر ، وذكرت الآيات أن كل ما فعله المسلمون هو بأمر الله تعالى ، وهم حين قطعوا نخيل بنى النضير ، كانوا عبيداً يلتزمون بما أمروا به ، حتى ينفد مراد الله، فى إذلال اليهود ، وحرمانهم من سائر ما يتحصنون به، وإظهار عجزهم، وضعفهم، يقول الله تعالى ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝ ﴾ (٤) .

كما بينت الآيات موقف المنافقين ، وطريقتهم فى التحريض وهم كاذبون ، فلقد

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ١٩٢

(٢) صحيح البخارى .ك المغازى باب حديث بنى النضير جـ٦ صـ ٢٧١

(٣) سورة الحشر الآيات من ٢ إلى ٤ .

(٤) سورة الحشر الآية ٥ .

وعدوا اليهود بمشاركتهم فى القتال والخروج ، فلما جد الجد نكصوا ، و لم ينفذوا وعداً وعدوه لليهود ، لأنهم شديدو الخوف من المسلمين يقول تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (١)

وتتناول الآيات صفات اليهود القائمة على الخور والضعف،والخوف، فهم لا يقاتلون إلا بمساندة مادية ، ومعونة خاصة ، ويحصنون قراهم من شدة الخوف ... كما أنهم أشتات متفرقون لا تجمعهم وحدة النشأة ، والتكوين ، وإنما مثل المنافقين معهم كمثل الشيطان يغوى الإنسان ويؤذيه، يقول تعالى ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ ﴾(٢)

والآيات فى سورة الحشر تعايش المسلمين ، وتبين لهم حقيقة الفئ وأحكامه ، لأن ما أصابوه من أموال بنى النضير كان أول فئ أصابوه ، فهو إلى رسول الله ﷺ يوزعه على المستحقين له ، يقول الله تعالى ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ

---

(١) سورة الحشر الآيات من ١١ إلى ١٣ .

(٢) سورة الحشر الآيات من ١٣ إلى ١٧ .

ٱلسَّبِيلِ كَىۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ (١) .

وتوضح الآيات الصفات الأساسية للمسلم فرداً ، وجماعة ، وتبين أن جماعة الإيمان متحابة ، مترابطة ، مطيعة لله تعالى ، وتوضح بجلاء أخلاق المهاجرين والأنصار ، وتذكر الصورة العملية لمسلكهم ، وتعاونهم ، فلقد كانوا ﷺ يبتغون رضى الله ورضوانه ، وينصرون الله ورسوله ، فى صدق عام ، وإخلاص شامل ، وكان كل واحد منهم يؤثر أخاه على نفسه ويدعو له ، ويسأل الله تعالى أن يملأ قلبه بالحب لكافة المسلمين ، أحياءً وأمواتا يقول تعالى ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢)

كما توجه الآيات المسلمين إلى ضرورة الإخلاص فى التقوى ، والعمل ليوم الدين ، والتذكر الدائم لله رب العالمين ، والاهتمام بالقرآن الكريم حفظاً وفهماً وعملاً يقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الحشر الآيات من ٦ إلى ٧ .

(٢) سورة الحشر الآيات من ٨ إلى ١٠.

(٣) سورة الحشر الآيات من ١٣ إلى ١٧ .

وهكذا سجلت سورة الحشر أحداث غزوة بنى النضير بمنهجية القرآن الكريم فى ذكر الحدث ، ذلك المنهج الذى يركز على العبرة ، ويبين مناط القدوة والتأثير بلا ترتيب بين الأحداث والوقائع للوصول إلى الغاية المأمولة وهى إيجاد الإنسان الصالح ، وتكوين المجتمع السعيد .

ـ ثامناً ـ
غزوة نجد

بعد هزيمة بنى النضير ، وطردهم من المدينة تخاذل المنافقون عن الجهر بكيدهم وغدرهم ، ورأى رسول الله ﷺ أن عددا من القبائل البعيدة عن المدينة تحتاج لعملية تأديبية ، فخرج رسول الله ﷺ لتأديب هؤلاء الأعراب الخارجين المخادعين الذين يقيمون فى الأماكن البعيدة عن المدينة فى "نجد" وغيرها ، وبخاصة بعدما علم أن جموعاً من بنى محارب ، وبنى ثعلبة من غطفان تحتشد لمهاجمة المسلمين فى المدينة .

أسرع رسول الله ﷺ للخروج إليهم فى أربعمائة من أصحابه بعدما ولى على المدينة أبا ذر الغفارى رضي الله عنه فلما وصل إلى ديارهم بنجد فروا فى رؤوس الجبال فلم يقابل منهم أحداً وقد وقعت هذه الغزوة فى ربيع الثانية وأوائل جمادى الأولى من العام الرابع للهجرة [1].

وأهمية هذه الغزوة تتجلى فى مساهمتها فى القضاء على العداوات المختلفة الموجودة عند الأعراب والبوادى، وبخاصة هؤلاء الذين يقطنون بعيداً عن المدينة ، ليتفرغ المسلمون لملاقاة المكيين الذين كانوا يتوعدون المسلمين ، ويهددونهم مستعينين بهؤلاء الأعراب .

ويلاحظ أن هذه الغزوة كانت فى بلاد نجد البعيدة عن المدينة ، وهذا يؤكد قوة المسلمين ويعرف الجميع أن يد المسلمين طويلة ، وأنها تستطيع الوصول إلى الأعداء فى كل مكان لإبطال كيدهم ، ومنعهم من العدوان أو التفكير فيه .

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٢٥٠ والبعض يسمى هذه الغزوة بذات الرقاع وهو غير صحيح لأن غزوة ذات الرقاع شهدها أبو هريرة وأبو موسى الأشعرى اللذان أسلما وقدما إلى رسول الله ﷺ قبل خيبر بأيام وبذلك فزمنها بعد خيبر على الأرجح .

ـ تاسعاً ـ
غزوة بدر الثانية

بعد تأديب الأعراب ، والقضاء على شوكتهم أخذ المسلمون يتهيأون لملاقاة كفار مكة فى الموعد الذى ضربوه لهم بعد " أحد " .

وسبب هذه الغزوة أن أبا سفيان بن حرب لما أراد أن ينصرف يوم أحد نادى المسلمين وقال لهم جهراً وعلانية : موعد ما بيننا وبينكم بدر الصفراء ، رأس الحول ، نلتقى فيه فنقتتل .

فقال رسول الله ﷺ ، لعمر بن الخطاب : قل نعم إن شاء الله (١) .

فافترق الناس على ذلك ، ورجعت قريش وأخبروا من قبلهم بالموعد .

وكانت بدر الصفراء مجمعاً للعرب ، وسوقاً تقوم لهلال ذى القعدة إلى ثمان ليال خلون منه ، فإذا مضت ثمانى ليال تفرق الناس إلى بلادهم .

فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله ﷺ ، وأحب ألا يوافى رسول الله ﷺ الموعد حتى يدعى أن التخلف عن اللقاء بسبب المسلمين لا بسببه .

واستعمل أبو سفيان سلاح الضغط النفسى فكان يظهر أنه يريد أن يغزو رسول الله ﷺ فى جمع كثيف ، ويتحدث فى ذلك حتى يصل الخبر إلى أهل المدينة ، ويعلموا أنه يجمع الجموع ويحشد العرب ، فيخافون ويقعدون .

قدم نعيم بن مسعود الأشجعى مكة — وأسلم بعد ذلك — فأخبر أبا سفيان ، وقريشاً أن المسلمين يتهيأون لحربهم فأعلمه أبو سفيان بأنه كاره للخروج إلى لقاء المسلمين ، واعتل بجدب الأرض ، وجعل لنعيم عشرين فريضة توضع تحت يد سهل بن عمرو ، على أن يخذل المسلمين عن المسير لموعده ، وحمله على بعير .

فقدم نعيم المدينة ، وأرجف بكثرة جموع أبى سفيان حتى أرعب المسلمين ، وتمنوا عدم الخروج فى الموعد واستبشر المنافقون واليهود وقالوا : **لن يفلت محمد من هذا الجمع**

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، حتى خشى ألا يخرج معه أحد .

وجاءه أبو بكر وعمر ﷺ وقد سمعا ما سمعا فقالا : **يا رسول الله ﷺ إن الله تعالى**

---

(١) انظر غزوة أحد

مظهر دينه ، ومعز نبيه ، وقد وعدنا القوم موعداً لا نحب أن نتخلف عنه ، فيرون أن هذا جبن فسر لموعدهم ، فوالله إن فى ذلك لخيرة .

فسر رسول الله ﷺ بذلك ، ثم قال : " والذى نفسى بيده لأخرجن ، وإن لم يخرج معى أحد " [١] فنصر الله تعالى المسلمين ، وأذهب عنهم الرعب الذى غرسه الشيطان فى نفوسهم .

وكان اللقاء ضرورياً لتتضح حقيقة كل طرف ، وتظهر قوته ، ويعلم أهل مكة أن المسلمين لن يستكينوا أبداً ، وأن هزيمتهم فى " أحد " كانت خطأ لن يتكرر .

ففى شهر شعبان من السنة الرابعة للهجرة خرج رسول الله ﷺ لموعده فى ألف وخمسمائة ، وكانت الخيل عشرة أفراس ، وحمل لواءه على بن أبى طالب ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة ، وقيل إنه استخلف عبد الله بن عبد الله بن أبى ﷺ وانتهى إلى " بدر " فأقام بها ينتظر المشركين [٢] .

وأما أبو سفيان ، فخرج فى ألفين من مشركى مكة ، ومعهم خمسون فرساً ، حتى انتهى إلى " مر الظهران " على بعد مرحلة من مكة فنزل بـــ " مجنة "(ماء فى تلك الناحية) .

خرج أبو سفيان من مكة متثاقلاً وهو خائف من عقبى القتال مع المسلمين ، وقد أخذه الرعب، واستولت على مشاعره الهيبة، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه ، فاحتال للرجوع، وقال لأصحابه : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ، ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا جدب ، وإنى راجع فارجعوا [٣] .

ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستولية على مشاعر أفراد الجيش المكى أيضاً ، ولذلك أسرعوا فى الرجوع إلى مكة بمجرد إشارة أبى سفيان بلا اعتراض من أحد و لم يبدوا أى مصادمة لهذا الرأى ، أو يظهروا أى إصرار على القتال ، و لم يلحوا على مواصلة السير للقاء المسلمين وبدا منهم أن الرجوع أمل تمنوه فلما رآه أبو ســـفيان رحبوا به .

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ، ينتظرون العدو ، وباعوا ما معهم من التجارة

---

(١) إمتاع الأسماع جـــ١ صـــ١٤٨

(٢) سيرة النبى جـــ٢ صـــ٢١١

(٣) زاد المعاد جـــ٣ صـــ٢٥٥

فربحوا بكل درهم درهمين ، ثم رجعوا إلى المدينة ، وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم ، وتوطدت هيبتهم فى النفوس وسادوا على الموقف ، ولجأ الأعداء إلى المسالمة[١] .

وتعرف هذه الغزوة "ببدر الموعد" و "بدر الثانية" و "بدر الصغرى" و "بدر الأخرة".

ـ عاشراً ـ

غزوة دومة الجندل

ودومة الجندل (بضم الدال) مدينة بعيدة ، تقع قرب الشام بينها وبين دمشق ست ليال وبينهما وبين المدينة ست عشرة ليلة [٢].

تقع " دومة الجندل " فى الشمال بعيداً عن المدينة ، وبذلك فهى تكمل مع غزوة "نجد" عملاً متكاملاً لأن "نجد" تقع فى أقصى الشرق ، وهذه تقع فى أقصى الشمال .

إن الاقتراب من بلاد الشام بهذه القوة بعد تحذيراً للرومان الذين يحتلونها ، حتى يتركوا الحرية للناس ، ولا يقفوا ضد حركة الدعوة إلى الله تعالى .

وكان سبب هذه الغزوة المباشر أنه بلغه ﷺ أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مر بهم ، فخرج ﷺ لخمس ليال بقين من ربيع الأول فى العام الخامس الهجرى بعد "بدر الأخيرة" بستة أشهر .

وقد خرج فى ألف من أصحابه ومعه دليل من بنى غدرة يقال له " مذكور " فكان يسير الليل ، ويكمن النهار ، ويغاير فى الطريق ، واستخلف على المدينة " سِبَاع بن عُرْفُطة الغفارى ".

فلما دنا رسول الله ﷺ من "دومة الجندل" قال له الدليل : **يا رسول الله إن سوائمهم ترعى عندك فأقم لى ، حتى أطلع لك .**

قال رسول الله ﷺ : نعم .

فخرج العذرى طليعة وحده ، حتى وجد آثار النعم والشاء وهم مغربون، ثم رجع إلى النبى ﷺ فأخبره ، وقد عرف مواضعهم ، فسار رسول الله ﷺ حتى هجم على ماشيتهم ، ورعائهم ، فأصاب رسول الله ﷺ منها ، وفر باقيهم ، فتفــرق أهــل " دومة الجندل "

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ١٨٤

(٢) زاد المعاد جـ٣ صـ٢٥٦

وهربوا بعيداً عن ديارهم .

ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد بها أحداً ، فأقام بها أياماً ، وبث السرايا فعادت كل سرية بإبل و لم تلق أحداً ، إلا أن محمد بن مسلمة أخذ رجلاً منهم ، فأتى النبى ﷺ ، فسأله عن أصحابه فقال : هربوا أمس لما سمعوا أنك أخذت نعمهم ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، فأسلم .

ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فى العشرين من ربيع الآخر ، ووادع ﷺ فى طريقه **عيينة بن محصن الفزارى** على أن يرعى أنعامه بـــ"تغلمين" وما والاها إلى "المراض" وكانت بلاده قد أجدبت [١] .

ـ حادى عشر ـ
أهم الأحداث الاجتماعية
بين أحد والأحزاب

برغم كثرة السرايا والغزوات التى وقعت خلال هذه الفترة نرى المسلمين يعيشون حياتهم الاجتماعية بصورة عادية ، ومن أهم الأحداث الاجتماعية التى عاشها المسلمون ما يلى :-

١) تزوج عثمان بن عفان ﷺ أم كلثوم بنت النبى ﷺ التى عقد عليها فى ربيع الأول ودخل بها فى شهر جمادى الأخرى من السنة الثالثة من الهجرة وذلك بعد أن توفيت "رقية" يوم بدر من العام الثانى .

ومما يذكر أن عبد الله بن عثمان بن عفان من زوجته رقية مات فى جمادى الأولى وهو ابن ست سنوات ، ودفنه أبوه بالبقيع .

٢) ولد الحسن بن على بن أبى طالب فى السنة الثالثة وحملت أمه فاطمة ﷺ بالحسين ﷺ

٣) ولد الحسين بن على فى أول شهر شعبان من السنة الرابعة .

٤) فى شهر رمضان من السنة الرابعة تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة بنت الحارث الهلالية وهى المعروفة بأم المساكين لكثرة صدقاتها لهم ، وبرها بهم ، وإحسانها عليهم ، وكانت قبله ﷺ زوجة لـــ " عبد الله بن جحش " وماتت رضى الله عنها بعد شهرين أو ثلاثة من زواجها به ﷺ وقد صلى عليها النبى ﷺ ودفنها بالبقيع .

---

(١) سبل الهدى والرشاد جــ٤ صــ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، زاد المعاد جــ٣ صــ٢٥٦

٥) فى شهر شوال من السنة الرابعة تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة وكانت قبله عند زوجها أبى أولادها ، أبى سلمة بن عبد الأسد ﷺ الذى شهد " أحداً " وجرح بها فداوى جرحه شهراً حتى برئ ، ثم خرج فى سرية فغنم منها نعماً ، ومغنماً جيداً ، ثم أقام بعد ذلك سبعة عشر يوماً ، ثم انتقض عليه جرحه فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ، فلما حلت أم سلمة فى شوال خطبها رسول الله ﷺ إلى نفسها بنفسه الكريمة ، وبعث إليها عمر بن الخطاب فى ذلك مراراً ، فتذكر أنها امرأة غيرى أى شديدة الغيرة ، وأنها مصبية أى لها صبيان يشغلونها عنه ، ويحتاجون إلى مؤنة تحتاج معها أن تعمل لهم فى قوتهم ، فقال ﷺ: **أما الصبية فإلى الله وإلى رسوله ، أى نفقتهم ليس إليك ، وأما الغيرة فأدعوا الله فيذهبها فأذنت فى ذلك وقالت لعمر آخر ما قالت له : قم فزوج النبى ﷺ تعنى قد رضيت وأذنت .**

يروى الإمام أحمد بسنده عن أم سلمة أنها قالت : **أتانى أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به ، قال : " لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ، ثم يقول اللهم آجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها إلا فعل به " فحفظت ذلك منه ، فلما توفى أبو سلمة استرجعت ، وقلت : اللهم آجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها ، ثم رجعت إلى نفسى فقلت : من أين لى خير من أبى سلمة ؟**

فلما انقضت عدتى استأذن على رسول ﷺ ، وأنا أدبغ إهاباً لى ، فغسلت يدى من القرظ، وأذنت له فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف، فقعد عليها، فخطبنى إلى نفسى فلما فرغ من مقالته، قلت: يا رسول الله ما بى أن لا تكون بك الرغبة، ولكنى امرأة بى غيرة شديدة ، فأخاف أن ترى منى شيئاً يعذبنى الله به ، وأنا امرأة قد دخلت فى السن وأنا ذات عيال فقال ﷺ : أما ما ذكرت من الغيرة فسيذهبها الله عنك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك، وأما ما ذكرت من العيال، فإنما عيالك عيالى فقالت: فقد سلمت لرسول الله ﷺ فقالت أم سلمة : فقد أبدلنى الله بأبى سلمة خيراً منه رسول الله ﷺ [1]

---

(١) الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيبانى جـ٢٢ صـ١٣٢ ، بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٩ صـ٣٩٤

٦) وفى السنة الرابعة أمر النبى ﷺ زيد بن ثابت ﷺ أن يتعلـــم اللغة الســـريانية ليتمكن ﷺ من معرفة ما فى كتب أهلها، ويرسل إليهم كتبه بلغتهم بواسطة أصحابه الدعاة

قال ﷺ لزيد بن ثابت ، يا زيد أتحسن السريانية أنه تأتينى كتب بها ؟؟؟

فقال زيد : لا يا رسول الله .

فقال له ﷺ : تعلمها .

يقول زيد ﷺ : فتعلمتها فى سبعة عشر يوماً [1] .

وعلم المسلمون بذلك أهمية معرفة لغة من سيدعونهم لأن الدعوة لا تصح إلا بلغة المدعوين ليفهموا المراد ، ويطلعوا على حقيقة الإسلام .

ـ ثانى عشر ـ
حركة الدعوة
بين أحد والأحزاب

المدة بين " أحد " و " الأحزاب " عامان على الصحيح ، ومع ذلك وقعت فيها أحداث جسام ، ذكرت أهمها ، مما يدل على الجهد الكبير الذى بذله رسول الله ﷺ ، والمسلمون معه ، فى خدمة الإسلام ، والحركة بالدعوة إلى دين الله تعالى .

لقد وصلت القوات الإسلامية خلال هذا العام إلى بلاد نجد فى أقصى الشرق ، وإلى أطراف الشام فى الشمال ، والاقتراب من مكة فى حملات تأديبية هادفة .

ذلك أن الشيطان زين لغير المسلمين قوتهم ، وغرهم بما حدث يوم " أحد " ، ودفعهم إلى التطاول على المسلمين ، وإعداد العدة لمهاجمة المدينة .

ولولا فطانة النبى ﷺ وإخلاص المسلمين معه لأوتى المسلمون ، ولأصابهم من الأذى الكثير ، وكانت المعونة الإلهية مع عباده فألهمهم الرشد ، ووجهم نحو الطريق المستقيم .

لقد اهتم النبى ﷺ بجمع المعلومات عن طريق العيون التى بثها فى هذه الأماكن البعيدة، وبذلك وضع سياجاً من الأمن حول المدينة ، ولم يترك أعداءه يتخيرون مكان وزمان مقاتلة المسلمين ... وهذا هو السبب فى كثرة السرايا والغزوات خلال الزمن الفاصل بين "أحد " و " الأحزاب " .

---

(١) الفتح الربان بشرح مسند الإمام أحمد الشيبانى كتاب العلم والعلماء جـ١ صـ١٤٥ .

واستفاد النبى ﷺ من عنصر المفاجأة ، والمباغتة ، ولذلك كان المجاهدون يسيرون بالليل ، ويكمنون بالنهار ... واستفاد الرسول من سلاح الضغط المعنوى ، وإرهاب العدو حتى يتحقق السلام بلا قتال ، وتصان الحقوق بلا دماء ... ولهذا كان تحركه فى حمراء الأسد ، وإشعاله النيران الكثيفة والمتعددة ليلاً ليشعر العدو أن الجيش الإسلامى كثير العدد قوى العدة .

وكان ﷺ يرسل لكل جماعة ما يكافئها من الرجال عدداً ، واستعداداً ، حتى لقد بلغ عدد المسلمين فى بعض الغزوات ألفاً وخمسمائة مقاتل ، وفى بعضها الآخر كانت السرية مكونة من رجل واحد فقط .

وفى خضم الصراع بين المسلمين وأعداء الإسلام لم تغب الدعوة إلى الله تعالى ، وإنما كان ﷺ يعلم أصحابه ما نزل من القرآن الكريم ، ويفهمهم أحكام الإسلام التى جاء الوحى بها ، ويتابع تحفيظهم الوحى المنزل ، وترسيخه فى حياقم وسلوكهم ، وإن العقل يندهش لاستيعاب المسلمين لكل الوحى الذى تتابع نزوله مع كثرة السرايا وتعدد المهام .

وكان التوجيه النبوى مرتبطاً بالأحداث والوقائع ، فكلما حدث أمر ظهر حكمه وإذا احتاج المسلمون لمسألة وسألوا عنها كان الجواب الشافى يأتيهم من الله ورسوله ﷺ فتعلموا بذلك ضرورة التلقى من الوحى ، وملازمة الطاعة والاتباع ، وعلموا أن الالتزام بحكم الله أساس الإيمان ، وطريق الفوز والفلاح وكانوا بحق نعم الرجال ، ونعم المؤمنين ، وخير أمة أخرجت للناس .

ومن خلال السرايا والغزوات تعلم المسلمون أحكام الفئ وفهموا أن الفئ هو المال الذى يقع فى أيديهم من أعدائهم بلا قتال ، أو مواجهة ، وقد فصل لهم الرسول ﷺ حكم الله فيه ، يوزعه على ذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل حتى لا يبقى المال فى أيدى الأغنياء وحدهم .... ولذلك وزع أموال بنى النضير على المهاجرين وحدهم ، ولم يشاركهم من الأنصار إلا رجلين شكوا الفقر والعالة لرسول الله ﷺ .

وتعلم المسلمون كذلك مشروعية القنوت ، والدعاء على الأعداء فى صلواتهم ، وعلموا كيفيتها، وترتيبها فى أعمال الصلاة ... وبذلك وقفوا على سلاح قوى يساعدهم فى النصر على أعداء الله تعالى .

وكان الرسول ﷺ إذا خرج فى غزوة يولى على المدينة أحد أصحابه ، وإذا أرسل سرية عين أميراً لها ... وكان يعطى الراية لرجل يختاره ﷺ ليتعلم أصحـــابه فى حياته ﷺ سلوك القيادة ، ويتحملوا مسئولية الحكم والإمارة ويتدربوا على استنباط الرأى ، والقدرة على اتخاذ القرار ، وحسن التصرف فيما يجد من شئون الحياة .

و لم تخل تحركاته ﷺ من دعوة الله تعالى فى كل حال ، كان ﷺ يعلم أصحابه ما نزل من القرآن الكريم وكان يؤمهم فى الصلاة ، ويعرفهم أحكام شرع الله تعالى ، ويعيش حياته الاجتماعية بصورة إنسانية عادية ، فتزوج ، وزوج ، وولد له .

و لم يجعل هذه المرحلة رغم كثرة الغزوات والسرايا تدور فى إطار إجراءات طارئة خاصة بها، وإنما عاشها ﷺ ومعه أصحابه بصورة عادية، يجاهدون ويستريحون ، يعبدون الله ويتمتعون بالدنيا، ولذلك تعجب أعداء الإسلام مما رأوا من المسلمين ، وانعكس هذا العجب على سلوكهم وأعمالهم ، ولذلك لم يفكروا مرة فى مواجهة المسلمين وقتالهم حين أتوا إليهم ، بل كانوا يفرون ويهربون لسابق معرفتهم بشجاعتهم ورجولتهم .

وقد تعرض المسلمون للخداع من أعدائهم كما حدث فى الرجيع، وبئر معونة، و لم يضعف حالهم بذلك ، وإنما تصوروا الأمر على حقيقته ، وتيقنوا أن طريق الإسلام طريق شاق ، يحتاج للمجاهدة والتضحية ، وعلى المسلمين أن يستعدوا لتجاوز هذا الطريق ، وعليهم أن يؤمنوا بأن الأخرة خير من الأولى ، وأن كل ما يصيبهم فى سبيل الله هو خير لهم وإن الإيمان الحق يحتاج لدماء تحميه من أعدائه المتربصين الذين يريدون إطفاء نور الحق ، والقضاء على منهج الله القويم ... ولذلك كانوا وقود النور ، ومشعل الخير للناس أجمعين .

ولعل أهم ما فى هذه المرحلة هو الترابط التام بين المسلمين بعدما اندمج المهاجرون والأنصار فى أخوة تامة وترابط شامل للظاهر والباطن ، وعاش المسلمون جميعاً أخوة الإيمان والعقيدة ... ولذلك لم يكن غريباً عليهم أن يواجه المسلم أباه أو أخاه ، أو ابنه أثناء الغزوات لأن ماعدا رباط العقيدة بين الناس زال وانتهى .

المبحث الثامن

غــــزوة الأحـــزاب

أدت تحركات المسلمين قبل الأحزاب إلى إعادة الهيبة لرسول الله ﷺ وصحابته ، وأخذ أهل مكة وأعراب البوادى وقبائل العرب المنتشرة فى أرجاء الجزيرة العربية يميلون إلى السلام مع المسلمين، ويهربون من عدم مواجهتهم كما رأينا من أبى سفيان فى بدر الآخرة .

ونظر يهود بنى النضير إلى حالتهم فوجدوا أنهم أخرجوا من ديارهم ، وفقدوا أموالهم وشق عليهم أن يستقر المسلمون فى المدينة ، وينتشر الإسلام بين الناس فعملوا على القضاء على المسلمين ليعودوا إلى المدينة مرة أخرى ... ورأوا انه لا قبل لهم بالمسلمين فأخذوا يؤلبون الناس ، ويجمعون الأحزاب لمقاتلة المسلمين .

وتولى كبر هذا التحريض نفر من اليهود على رأسهم سلام بن مشكم بن أبى الحقيق النضرى ، وحيي بن أخطب فى نفر من بنى النضير ، وهوذة بن قيس الوائلى من الأوس فى بضعة عشر رجلاً حيث خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ، وقالوا لهم : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

فقالت لهم قريش : يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بالدين الذى أصبحنا نختلف فيه ، نحن ومحمد ، أديننا خير أم دينه ؟ فنحن عمار البيت ، ننحر الإبل ، ونسقى الحجيج ، ونعبد الأصنام ؟!

فقالوا لهم : بل دينكم خير من دينه ، وإنكم أولى بالحق منه .

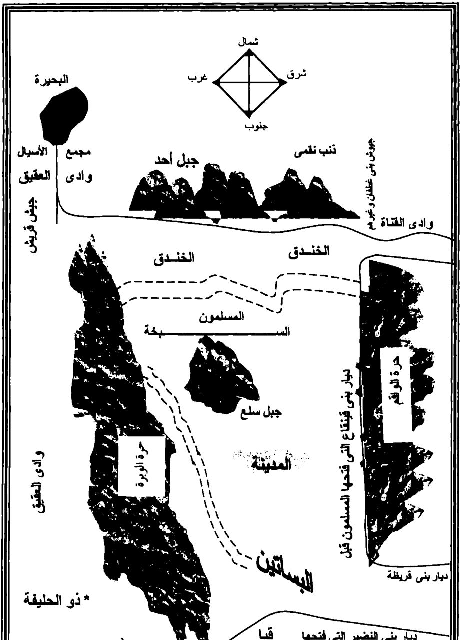
فأنزل الله فيهم قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ [(١)] .

يقول المفسرون :

خرج كعب بن الأشرف فى سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشاً على غدر رسول الله ﷺ وينقصوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله ﷺ فنزل كعب على أبى سفيان ، ونزلت اليهود فى دور قريش ، فقال أهل مكة :

---

(١) سورة النساء الآية ٥١


شمال
غرب
شرق
جنوب
البحيرة
مجمع
الأسيال
وادى
العقيق
جبل أحد
ذنب نقمى
جيوش بنى غطفان وغيرهم
وادى القناة
جيش قريش
الخنـدق
الخنـدق
المسلمون
السـبخة
حرة الواقم
ديار بنى قينقاع التى فتحها المسلمون قبل
جبل سلع
حرة الوبرة
المدينة
وادى العقيق
البساتين
ديار بنى قريظة
* ذو الحليفة
ديار بنى النضير التى فتحها
المسلمون قبل الأحزاب
قبا
موقع
غزوة الأحزاب

إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ، ولا نأمن أن يكون هذا مكر منكم فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما فذلك قوله ، يؤمنون بالجبت والطاغوت

ثم قال كعب لأهل مكة : ليجئ منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة ، فنعاهد رب البيت لنجهدن على قتال محمد ، ففعلوا ذلك .

فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحق ؟ أنحن أم محمد ؟

فقال كعب : اعرضوا على دينكم .

فقال أبو سفيان : نحن ننحر للحجيج الكوماء ، ونسقيهم الماء ، ونقرى الضيف ، ونفك العانى ، ونصل الرحم ، ونعمر بيت ربنا ونطوف به ، ونحن أهل الحرم ، ومحمد فارق دين آبائه ، وقطع الرحم ، وفارق الحرم ، وديننا القديم ودين محمد الحديث .

فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلا مما هو عليه .

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما سمعوا ، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا لذلك ، واتعدوا له ، وقال لهم أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد .

ثم خرج ذلك النفر حتى أتوا غطفان من قيس عيلان ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأنهم سيعطونهم تمر خيبر سنة إن هم نصروهم ، وأخبروهم أن قريشاً تابعوهم على ذلك .

ثم ذهبوا إلى بنى سليم فوعدوهم المسير معهم إذا خرجت قريش [1] .

وأخذ المنافقون فى المدينة يبتعدون عن رسول الله ﷺ ، ولا يشاركون المسلمين فى المحافظة على المدينة ، ويتحايلون فى عدم الالتزام بالعهود الموجودة وصاروا يعملون ضد الإسلام فى لؤم وخفاء .

وتمكن يهود بنى النضير من التأثير على بنى قريظة كذلك وضموهم إلى معسكر المقاتلين لرسول الله وصحابته .

وظن الأحزاب بهذا التجمع أن الأمور دالت لهم ، وإن انتصارهم بكثرتهم حق ثابت

---

(١) المغازى جـ٢ صـ٤٤٣

ولذلك تحركوا جماعات نحو المدينة ، وتواعدوا اللقاء حولها ، وقدموا من كل صوب بعددهم وعدهم وعداوتهم ، لينالوا من دين الله تعالى ، ومن رسوله ﷺ ، ويستأصلوا المسلمين من المدينة .

ولكن الله ناصر لدينه ، ومظهر للحق ، ومعين لجنده الذين يعملون فى إخلاص وصدق فأيدهم ونصرهم وخذل عدوهم وهزمهم بقدرته سبحانه وتعالى .

ودراسة غزوة الأحزاب تحتاج إلى دراسة ما يلى :-

- أولاً -
وقت الغزوة

تعرف غزوة الأحزاب بغزوة " الخندق " لأنها الغزوة الوحيدة التى حفر فيها المسلمون خندقاً يفصل بينهم وبين أعدائهم .

يروى ابن إسحاق أن هذه الغزوة حدثت فى شهر شوال من العام الخامس الهجرى ونص على ذلك غير واحد من العلماء كعروة بن الزبير ، وقتادة ، والبيهقى ، والذهبى ، وابن القيم ... وقال آخرون ، إنها وقعت فى شوال سنة أربع للهجرة مستدلين بحديث ابن عمر رضي الله عنه الذى قال فيه: **"عرضت على رسول الله ﷺ يوم " أحد " ، وأنا ابن أربع عشرة سنة فردنى ، وعرضت عليه يوم " الخندق " وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى "** [(١)]

ولا خلاف بين الرأيين فى الحقيقة ، لأن مرادهم أنها كانت بعد مضى أربع سنوات كاملة وقبل استكمال السنة الخامسة ، وأن حديث ابن عمر يشير إلى أنه عرض على النبى ﷺ فى " أحد" وهو فى أول الرابعة عشرة ، وعرض يوم " الأحزاب " وهو فى نهاية الخامسة عشرة ويمكن فهم قول ابن عمر رضي الله عنه على أنه فى يوم الخندق بلغ سن القتال وتجاوز عمره الخامس عشرة ولو بأكثر من سنة .

ومن المعلوم أن غزوة بنى قريظة كانت بعد الخندق مباشرة ، والجمهور يرى أن الخندق كانت فى اليوم السابع من ذى القعدة فى السنة الخامسة فدل ذلك على أن الأحزاب كانت فى الخامسة كذلك .

ولا شك أن المشركين لما انصرفوا من " أحد " واعدوا الرسول بدراً فى العام القابل

---

(١) صحيح البخارى – كتاب المغازى – باب غزوة الخندق جـ٦ صـ٣١٩ .

فذهب النبى ﷺ وأصحابه إلى " بدر " بعد عام من " أحد " وجاء أبو سفيان مع قريش فى شعبان من العام الرابع ، إلا أنه رجع إلى مكة لجدب ذلك العام كما زعموا ، وهذا يؤيد أن "الأحزاب " لم تقع فى العام الرابع لأن كفار مكة بعد رجوعهم لضعفهم ما كان لهم أن يأتوا إلى المدينة بعد شهرين من رجوعهم وضعفهم الذى تعللوا به (١) .

ـ ثانياً ـ
تجمع الأحزاب

نشط يهود بنى النضير فى خطتهم للأخذ بثأرهم ، والقضاء على المسلمين حتى يعودوا إلى المدينة مرة أخرى فجمعوا الجموع وحرضوا الأحزاب حتى جاءوا جميعاً لحصار المدينة وقتال المسلمين فى وقت وقتوه ، ومكان بينوه ، وانضم إليهم المنافقون ويهـــود بنى قريظة داخل المدينة ، وبذلك وجد المسلمون أنفسهم محاطين بالأعداء من كل جانب .

يقول ابن كثير : إن كفار مكة لما سمعوا مقالة يهود بنى النضير سروا ، وفرحوا ، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس ، وعيلان ، فدعوهم إلى حرب النبى ﷺ وأخبروهم أنهم يكونون معهم عليه ، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك ، واجتمعوا معهم فيه .

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب فى أربعة آلاف ، وحمل اللواء عثمان ابن طلحة وقادوا معهم ثلاثمائة فرس ، وألفا وخمسمائة بعير والتقت بهم سليم بمر الظهران ، فى سبعمائة مقاتل يقودهم سفيان بن عبد شمس السلمى .

وخرجت غطفان فى ألف يقودهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فى بنى فزارة .

وخرج الحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى بألف من بنى مرة .

وخرج مسعر بن رخلة بن نويرة بن طريف بن سحمة بن عبد الله بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان فيمن تابعة من قومه من أشجع (٢) .

ووصلت القبائل إلى مشارف المدينة ، وعسكرت بها ، فترلت قريش ومن تبعهـــم

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٢٧٠

(٢) زاد المعاد جـ٣ صـ٢٧١

من الأحابيش ، وبنى كنانة ، وأهل تهامة بــ"مجمع الأسيال " المعروف بــ"وادى العقيق" ونزلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، والأعراب بــ" ذنب نقمى" .

ومجمع الأسيال وذنب نقمى موقعان متجاوران عند " أحد"[١] وهما الموضعان اللذان نزل فيهما الأحزاب .

ولما عسكرت الأحزاب حول المدينة قاطعهم بنو قريظة ودخلوا حصونهم، وأغلقوها عليهم ...فخرج إليهم حيي بن أخطب النضرى حتى أتى كعب بن أسد القرظى صاحب عقدهم وعهدهم ، فلما سمع به كعب أغلق باب حصنه دون حيي فاستأذن عليه حيي ، فأبى أن يفتح له .

فناداه حيي وقال : **ويحك يا كعب ، افتح لى .**

قال له كعب : **ويحك يا حيي ، إنك امرؤ مشئوم ، وإنى قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بينى وبينه ، فإنى لم أر منه إلا وفاء وصدقاً .**

قال حيي : **ويحك افتح لى أكلمك .**

قال : **ما أنا بفاعل .**

قال : **والله ما أغلقت دونى إلا خوفاً على جشيشتك أن آكل معك منها ، فأحفظ الرجل بهذه المقالة ففتح له فقال : ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر ، وبجد الدنيا .**

قال : **وما ذاك .**

قال حيي : **جئتك بــ"قريش" على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بــ"مجمع الأسيال" من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بــ" ذنب نقمى " إلى جانب أحد قد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا المدينة حتى نستأصل محمداً ومن معه .**

فقال كعب : **جئتنى والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق ماؤه[٢] يرعد ويبرق وليس فيه شئ ، ويحك يا حيي فدعنى وما أنا عليه فإنى لم أرمن محمد إلا وفاء وصدقا فلم يزل حيي بكعب يناقشه، ويحاوره ، ويمنيه حتى سمع له، ونقض عهد رسول الله**

---

(١) البداية والنهاية جـــ٤ صـــ١٠٢ وذنب نقى بفتح الذال والنون فى ذنب ، وفتح النوق والقاف فى نقمى .

(٢) الجهام هو السحاب ، والمعنى أنه سحاب لا ماء فيه .

ﷺ ووافقه على محاربته مع الأحزاب بعد أن أعطاه حيي عهد الله وميثاقه لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل معه فى حصنه حتى يصيبه ما يترل ببنى قريظة فنقض كعب بن أسد زعيم بنى قريظة العهد، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ [١]

وأمر كعب بن أسد ، وبنو قريظة حيي بن أخطب أن يأخذ لهم من قريش ، وغطفان رهائن تكون عندهم لئلا ينالهم ضيم ، إن هم رجعوا و لم يناجزوا محمدا على أن تكون الرهائن تسعين رجلاً من أشرافهم، فوافقهم حيي على ذلك فعند ذلك نقضوا العهد **ومزقوا الصحيفة التى كان فيها العقد إلا بنى سعنة أسد ، وأسيد ، وثعلبة فإنهم خرجوا إلى رسول الله ﷺ ، ولم ينقضوا عهدهم .**

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين بعث الزبير بن العوام ﷺ لينظر الأمر فعاد إلى رسول الله ﷺ ، وأخبره أن بنى قريظة يصلحون حصونهم ، وطرقهم[٢] فبعث النبى ﷺ سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وأسيد بن حضير ، وعبد الله بن رواحة ، وخوات بن خبير ﷺ ليؤكدوا للنبى ﷺ خبر القوم .

وقد قال لهم ﷺ : انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم ، فتنظروا أحق ما بلغنا عنهم ، فإن كان حقاً فالحنوا لى لحنا أعرفه ، ولا تفتوا فى أعضاد المسلمين ، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس .

فخرجوا حتى أتوهم فدخلوا معهم حصنهم فدعوهم إلى الموادعة وتجديد الحلف **فقالوا : الآن وقد كسر محمد جناحنا ، وأخرجه من بيننا (يريدون بنى النضير) ونالوا من رسول الله ﷺ فجعل سعد بن عبادة يشاتمهم فأغضبوه .**

فقال له سعد بن معاذ : إنا والله ما جئنا لهذا ، والذى بيننا أكبر من المشاتمة .

ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال : إنكم قد علمتم الذى بيننا وبينكم يا بنى قريظة وأنا خائف عليكم مثل يوم بنى النضير أو أمر منه .

فاستهزأوا به وردوا عليه رداً قبيحاً .

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٢٧٢

(٢) صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة الخندق جـ٦ صـ٣٢٧ ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : إن لكل نبى حوارى ، وإن حوارى الزبير .

فقال : غير هذا القول كان أجمل بكم وأحسن ، ثم نالوا من رسول الله ﷺ ساخرين وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد !!!

فشاتمهم سعد بن معاذ ، وشاتموه ، وكان رجلاً فيه حدة .

فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، الذى بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ، ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا : عضل ، والقارة أى غدروا كغدر هؤلاء بأصحاب الرجيع .

فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين [١].

وتلك نبوءة من رسول الله ﷺ كان الواقع يشير لغيرها ، لأن الأحزاب جاءوا بأعداد كثيفة ، وأحاطوا بالمسلمين من كل جانب ، وجندوا جنودهم خارج المدينة ، وداخلها حتى سيطر الخوف على المسلمين ، وزلزلت نفوسهم ، وزاغت أبصارهم وظنوا أن الهزيمة لهم لاحقة ، فاتجهوا إلى الله بالدعاء ، والرجاء ليعينهم بأمره ، وينصرهم بقدرته ، والله على كل شئ قدير .

وظهر النفاق من بعض المنافقين ، فقال معتب بن بشر : كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر وأن أموالهما تنفق فى سبيل الله وأحدنا اليوم لايأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط وقالوا ما حكاه الله عنهم فى قوله تعالى ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [٢] وقال رجال ممن كانوا مع معتب ﴿ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ [٣]

وهمت بنو قريظة بالإغارة على المدينة ليلاً ، وأرسلوا إلى الأحزاب ليمدوهم بألف من قريش ، وألف من غطفان ، فبلغ ذلك المسلمين فعظم الخطب واشتد البلاء ثم كفهم الله تعالى عن ذلك لما بلغهم أن رسول الله ﷺ أرسل سلمة بن أسلم بن حريش الأشهلى فى مائتى رجل ، وزيد بن حارثة فى ثلاثمائة يحرسون المدينة ، ويظهرون التكبير ، ومعهم خيل المسلمين وكان المسلمون يبيتون بالخندق خائفين ، فإذا أصبحوا أمنوا .

وبعث رسول الله ﷺ خوات بن جبير لينظر غرة فى بنى قريظة ، لأن رسول الله ﷺ

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ٢٢١ ، ٢٢٢ ، زاد المعاد جـ٣ صـ٢٧٢

(٢) سورة الأحزاب الآية ١٢

(٣) سورة الأحزاب الآية ١٣

خاف على الذرارى منهم ، لكن النوم غلب خوات ، فحمله يهودى ، فلما استيقظ خوات تمكن من قتل اليهودى وتمكن المسلمون من هزيمة عشرة من اليهود جاءوا يريدون المدينة فأدى ذلك إلى خوف اليهود من ورائهم .

واجتمعت جماعة منافقة من بنى حارثة فبعثوا أوس بن قيظى إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن بيوتنا عورة ، وليس دار من دور الأنصار مثل دورنا ، وليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا فنمنع ذرارينا ونساءنا فأذن لهم رسول الله ﷺ وفرحوا بذلك ، وتهيأوا للإنصراف .

فقال سعد بن معاذ : **يا رسول الله** : **لا تأذن لهم إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة قط إلا صنعوا هكذا .**

ثم أقبل سعد عليهم فقال : **يا بنى حارثة ، هذا لنا منكم أبداً ما أصابنا وإياكم شدة إلا صنعتم هكذا فردهم رسول الله ﷺ** .

وقد بلغت حشود المشركين عند الخندق أكثر من عشرة آلاف مقاتل منهم أربعة آلاف من قريش ، والباقون من بنى سليم ، وأسد ، وفزارة ، وغطفان ومع هؤلاء كان بنو قريظة وأشجع [١] .

ـ ثالثاً ـ
استعداد المسلمين للأحزاب

نشط يهود بنى النضير فى التحريض على قتال المسلمين ، وتمكنوا من تجميع أحزاب عدة ، وتعاهدوا معهم على القتال و لم يكتفوا بالاتفاق مع القرشيين ، وغطفان ، وعرب نجد ، وغيرها ، وإنما ظلوا بيهود بنى قريظة والمنافقين حتى ضموهم إليهم وكونوا بذلك قوة ضخمة تحيط بالمسلمين من ظاهر المدينة ، ومن داخلها ، بلغ عددها أكثر من عشرة آلاف من خيرة رجال القبائل وفرسانها ، يصور الله تعالى هذا الحال فى قوله تعالى ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[٢] .

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ٢١٩ ، ٢٢٠

(٢) سورة الأحزاب الآيتان ١١ ، ١٢

ولو تمكن هذا الجمع الغفير من مفاجأة المسلمين وأخذهم على غرة لأتوا عليهم ولقضوا على المدينة قضاءً كلياً ... لكن معونة الله كانت مع عباده المؤمنين فألهمهم الحق ، ووفق رسوله ﷺ فى تتبع أخبار أعدائه ، فبث العيون لمعرفة ما يعدون له ، ولذلك لما جاءت الأخبار بتجمع الأحزاب وتأليب القبائل **قرر رسول الله ﷺ وكبار الصحابة عدم الخروج من المدينة ، وتحصين كافة الطرق الموصلة إليها ، وسد جميع المسارات التى تمكن قاصدها من الدخول فيها ، ورأوا أن المدينة من الشرق والجنوب والغرب محصنة بحصون طبيعية ، تتكون من البساتين الكثيفة ، والموانع الطبيعية التى تحول دون إجراء قتال فيها بين قوات كثيرة ما عدا جانبها الشمالى فإنه منطقة مكشوفة واسعة يسهل القتال فيها والولوج منها إلى المدينة .**

ولى رسول الله ﷺ **عبد الله بن أم مكتوم** على المدينة ، وبدأ يستعد لملاقاة الأحزاب فجعل شعار المسلمين " **هم لا ينصرون** " ثم أخذ رأى أصحابه العالمين بشأن الحرب والقتال فى تحصين الجانب الشمالى للمدينة ، وتنظيم المجاهدين ، والاستعداد للقتال والمواجهة فأشار عليه **سلمان الفارسى ﷺ بحفر خندق عميق ، واسع ، يغطى المنطقة الشمالية ، المفتوحة بطولها ، الممتد من الحرة الشرقية إلى جبل سلع .**

ولم يكن للعرب معرفة بالخندق فى حروبهم السابقة ، لأنهم تعودوا المواجهة المباشرة ، والتلاحم اللصيق كما حدث فى "بدر" و "أحد" ولذلك فوجئ الأحزاب حين مجيئهم بهذا الخندق الذى حفره المسلمون بعدما أخذوه من أساليب الفرس القتالية وكما ذكره لهم سلمان الفارسى ﷺ **ولذلك قال المشركون حين رأوا الخندق : والله إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها** [1] .

رحب رسول الله بفكرة الخندق ، وأمر أصحابه بالحفر ، وأشار لهم ﷺ بأهميته فعمل المسلمون فيه بجد ونشاط ورسول الله ﷺ يحثهم ، ويساعدهم فى عملهم هذا بعدما قسم الحفر على المهاجرين والأنصار ، وجعل لكل عشرة من الصحابة أربعين

---

(١) سيرة النبى ﷺ جـ٢ صـ٢٢٤

ذراعاً يحفرونها ويسوونها ، على الطريقة الفارسية ليكون الحرف قائماً ، عموديا على بطن عريض مستقيم .

وقد بلغ طول الخندق خمسة آلاف متر فى عرض بلغ ستة أمتار ، وعمق بلغ خمسة أمتار ، وتم الحفر فى مدة تقل عن نصف شهر عمل خلالها المسلمون بكل جد ، واشتغل النبى ﷺ معهم ، **ففى البخارى عن سهل بن سعد قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتافنا فقال رسول الله ﷺ**

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة [١]

وعن أنس ﷺ قال : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً [٢]

وعن البراء بن عازب قال : لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة ، وهو ينقل من التراب ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

قال : ثم يمد بها صوته بآخرها [٣] **ويرددها ، ويقول أبينا ، أبينا ، أبينا .**

واستمر المسلمون يعملون بهذا النشاط ، وهم يقاسون من شدة الجوع الذى يفتت الأكباد ويقعد عن العمل .

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى – باب غزوة الخندق جـ٦ صـ٣١٩
(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى – باب غزوة الخندق جـ٦ صـ٣٢٠
(٣) صحيح البخارى كتاب المغازى – باب غزوة الخندق جـ٦ صـ٣٢٤

يقول أنس ﷺ **كان أهل الخندق يؤتون بملء كفى من الشعير ، فيصنع به إهالة سخنة توضع بين يدى القوم ، والقوم جياع ، وهى بشعة فى الحلق ، ولها ريح منتن .**

يقول أبو طلحة : شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ، فرفعنا أمامه بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين .

وأثناء حفر الخندق عرض الرسول ﷺ **الغلمان فأجاز منهم عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب لبلوغهم خمسة عشر عاماً كاملة ... ورد من هم دون ذلك ، إلا إنه ﷺ سمح لهم بالإشتراك فى حفر الخندق ، وعادوا بعدها إلى المدينة**

واصل المسلمون عملهم فى الحفر ، فكانوا يعملون بالنهار ، ويذهبون للمبيت فى بيوتهم ليلا حتى أتموا الحفر .

وعندما وصل الأحزاب قرب المدينة فوجئوا بالخندق يمنعهم من دخول المدينة ، فأخذوا يدورون حوله ليعثروا على نقطة ضعف ، أو مكان ضيق يجتازونه فلم يجدوه ، فأسقط فى أيديهم فوقفوا على شاطئ الخندق ، مكتفين بالحصار بدل القتال .

ـ رابعاً ـ

سير القتال

عسكر الأحزاب فى الجهة الشمالية من الخندق ، ووقف المسلمون قبالتهم من الجهة الجنوبية ، وجعلوا ظهورهم إلى جبل " سلع " وبذلك تمكن المسلمون من منع الأحزاب من القفز على الخندق ، أو بناء قنطرة يعبرون فوقها إلى المدينة وقد بلغ عدد المسلمين أربعة ألاف مقاتل .

وفى أثناء ذلك أعلن بنو قريظة انضمامهم إلى معسكر الأحزاب ، وكان يسكنون فى ضواحى المدينة من الناحية الجنوبية ، وبإمكانهم التسلل إلى داخل المدينة ، لمعرفتهم السابقة بمسالكها وأهلها ، ولو قدر لليهود أن ينجحوا فى مهاجمة المدينة وإتيان المسلمين من ظهورهم لكانت ضربة أليمة للمسلمين .

لقد عمل اليهود على مهاجمة تجمع نساء المسلمين وأطفالهم فأرسلوا رجلاً منهم يحدد مكانهم ويعرف غرتهم ويكتشف الطريق إليهم ، لكن هذا اليهودى لم يتمكن من القيام بمهمته لأن امرأة مسلمة رأته يستطلع المواضع التى يوجد فيها النساء والأطفال ففاجأته

بضربة فوق رأسه بخشبة كانت معها فقتلته .

يقول ابن إسحاق : **كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسان بن ثابت وهى التى روت الحادثة حيث قالت : وكان حسان معنا فى الحصن مع النساء والصبيان فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم ، ولا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إذ أتانا آت فقلت : يا حسان إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من ورائنا من يهود ، وقد شغل رسول الله ﷺ وأصحابه ، فأنزل إليه فاقتله .**

قال حسان : **يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا**
تقول صفية : فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيئاً احتجزت ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته ، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت : يا حسان انزل فاستلبه فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل .

قال حسان : **مالى بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطلب** [١].

وعندما وجد يهود " بنى قريظة " أن دسيستهم لم تعد إليهم ظنوا وجود حراس ، ورجال مع النساء والأطفال فقبعوا فى بيوتهم ، وانصرفوا عن مهاجمة المدينة ، و لم يخرجوا إلى قتال ، واكتفوا بمد الأحزاب بالمؤن والطعام .

ولما علم المسلمون وهم عند الخندق ، بمقتل هذا اليهودى ملكهم الخوف على نسائهم وذراريهم ، ووجدوا أنفسهم أمام عدو يواجهونه فى الخندق ، وآخر يأتيهم من خلف ظهورهم ، فزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتوقعوا هزيمة مفاجئة .

وهنا فكر رسول الله ﷺ فى هذا الموقف ، **وأراد أن يضع له حلاً فبعث إلى عيينه بن حصن ، والحارث بن عوف المرى ، وهما قائدا غطفان ، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة .**

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ٢٢٧ ، ٢٢٨ وهذا حديث متصل صحيح ومع ذلك فإنه لا يدل على جبن حسان ﷺ ويرجع سبب عدم خروجه لاعتلال صحته هذا اليوم وهو سبب بقائه خلف المجاهدين ... ويرد البعض الحديث لعدم جبن حسان لأنه ﷺ لو كان جباناً لهجاه الشعراء بهذه الصفة ... ولكن أحداً لم يعارضه بهذه الصفة .

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك بعث إلى السعدين (سعد بن معاذ ، وسعد ابن عبادة) فذكر لهما ذلك ، واستشارهما فيه .

فقالا : يا رسول الله هل هذا أمر أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم أنه شئ تصنعه لنا ؟؟

فقال ﷺ : بل شئ أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم .

فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان لا نعبد الله ، ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة ، إلا قرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا ، وأعزنا بك ، وبه نعطيهم أموالنا ؟

مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فقال النبى ﷺ : أنت وذاك .

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ، ثم قال ليجهدوا علينا(١)

فأقام النبى ﷺ وأصحابه محاصرين ، ولم يكن بينهم وبين عدوهم قتال إلا أن بعض رجال من قريش — منهم عمرو بن عبد ود بن أبى قيس أحد بنى عامر بن لؤى ، وعكرمة بن أبى جهل ، وهبيرة بن أبى وهب المخزوميان ، وضرار بن الخطاب بن مرداس أحد بنى محارب بن فهر تحمسوا للقتال ، ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بنى كنانة فقالوا: تهيأوا يا بنى كنانة للحرب ، فستعلمون من الفرسان اليوم ، ثم أقبلوا بخيلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ثم تيمموا مكاناً من الخندق ضيقاً ، فضربوا خيلهم ، فاقتحمته فجالت بهم فى السبخة بين الخندق ، وسلع .

وخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى سدوا الثغرة التى أقحم الفرسان منها خيلهم .

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٢٧٣ ، سيرة النبى جـ٢ صـ٢٢٢

وأقبلت الفرسان فى عزيمة وقوة وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم " بدر " حتى ثبتته الجراحة ، فلم يشهد " أحدا " فلما كان يوم " الخندق " خرج معلما ليرى مكانه فلما خرج هو وخيله قال : **من يبارز ؟**

فبرز له على بن طالب ﷺ ، وقال له : **يا عمرو إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذها منه .**

قال : أجل .

قال له على : فإنى أدعوك إلى الله ، وإلى رسول الله ، وإلى الإسلام .

قال : لا حاجة لى بذلك .

قال : فإنى أدعوك إلى النزال .

قال له : لم يا ابن أخى فوالله ما أحب أن أقتلك .

قال له على : لكنى والله أحب أن أقتلك .

فحمىَ عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على على ﷺ فتنازلا ، وتجاولا ، فقتله على ﷺ ، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت الخندق وولت هاربة إلى حيث يوجد الأحزاب (١) .

ثم أقبل على ﷺ نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل ، **فقال له عمر بن الخطاب : هلا استلبته درعه فإنه ليس للعرب درع خير منا ؟**

فقال على ﷺ : **ضربته فاتقانى بسوءته ، فاستحييت من ابن عمى أن أسلبه ،** وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفته بعشرة آلاف ، فقال هو لكم لا نأكل ثمن الموتى ، وقال رسول الله ﷺ لأصحابه : ادفعوا إليهم جيفته ، فإنه خبيث الجيفة ، خبيث الدية ، و لم يقبل منهم شيئاً (٢).

تقول عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله ﷺ يختلف إلى ثلمة فى الخندق يحرسها حتى إذا آذاه البرد جاءنى فأدفأته فى حضنى ، فإذا دفئ خرج إلى تلك الثلمة ، ويقول : ما

---

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ صـ٢٨٥ ، ٢٨٦

(٢) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٢٣٤

أخشى أن يؤتى الناس إلا منها ، فبينما رسول الله ﷺ ، فى حضنى قد دفئ وهو يقول : ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثلمة الليلة ، فسمع صوت السلاح ، فقال رسول الله ﷺ : من هذا ؟

فقال سعد بن أبى وقاص : سعد يا رسول الله .

فقال ﷺ : عليك هذه الثلمة فاحرسها .

تقول عائشة : فنام رسول الله ﷺ ، حتى سمعت غطيطه .

وكان عباد بن بشر ، والزبير بن العوام ، على حرس رسول الله ﷺ .

وروى محمد بن عمر عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : كنت مع رسول الله ﷺ فى الخندق ، وكنا فى قر شديد ، فإنى لأنظر إليه ليلة قام فصلى ما شاء الله أن يصلى فى قبته ، ثم خرج فنظر ساعة فأسمعه يقول : هذه خيل المشركين تطيف بالخندق ، ثم نادى عباد بن بشر .

فقال عباد : لبيك !

قال : أمعك أحد ؟

قال : نعم ، أنا فى نفر من أصحابى نحرس قبتك .

قال ﷺ : خذ أصحابك فأطف بالخندق ، فهذه خيل المشركين تطيف بكم ، يطمعون أن يصيبوا منكم غرة ، اللهم فادفع عنا شرهم ، وانصرنا عليهم واغلبهم فلا يغلبهم أحد غيرك .

فخرج عباد فى أصحابه فإذا هو بأبى سفيان بن حرب فى خيل المشركين يطوفون بمضيق من الخندق ، وقد نذر بهم المسلمون فرموهم بالحجارة والنبل حتى أذلقهم المسلمون بالرمى ، فانكشفوا منهزمين إلى منازلهم .

قال عباد : ورجعت إلى رسول الله ﷺ ، فوجدته يصلى فأخبرته .

قالت أم سلمه : يرحم الله عباد بن بشر ، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله ﷺ لقبته يحرسها أبداً .

وكان المشركون يتناوبون بينهم ، فيغدوا أبو سفيان بن حرب فى أصحابه يوماً ، ويغدو خالد بن الوليد يوماً : ويغدو عمرو بن العاص يوماً ، ويغدو هبيرة بن أبى وهب

يوماً ، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوماً ، ويغدو ضرار بن الخطاب يوماً ، حتى عظم البلاء ، وخاف الناس خوفاً شديداً ، وكان معهم رماة يقدمونهم إذا غدوا ، متفرقين أو مجتمعين بين أيديهم : وهم حبان بن العَرِقة ، وأبو أسامة الجُشَمى فى آخرين ، فتناوشوا يوماً بالنبل ساعة ، وهم جميعاً فى وجه واحد وجاه قبة رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ قائم بسلاحه على فرسه ، فرمى حبان بن العرقة سعد بن معاذ بسهم فأصاب أكحله، وقال: خذها وأنا ابن القِرقة .

فقال رسول الله ﷺ : **عرق الله وجهه فى النار** .

ثم إن الأحزاب عبأوا قوتهم ، واشتدوا فى القتال بدءاً من السحر إلى هوى من الليل حتى شغل النبى والمسلمون معه عن صلاة الظهر ، والعصر ، ولم يتمكنوا من صلاتهما إلا بعد أن كشف الله الأحزاب [1].

واستمر الحصار مدة طويلة قاربت شهراً فتأثر جيش المشركين ، وخارت معنوياته وأصيب بالألم من الوضع الذى وجد فيه نفسه .

فهو لم يفعل شيئاً طوال هذه المدة ، ولم يحقق نتيجة تذكر وهو يعيش فى جو شديد البرودة ، ومؤنه بدأت فى النفاذ واستمرارية هذا الوضع لا تتفق مع استعداداته وخبرته ، لأنه جاء للقتال يوماً أو بعض يوم ، وليس من خبرته التعامل من وراء الخندق والبقاء ساكناً فى مكان واحد مدة طويلة .

وهو لم ير من اليهود شيئاً يساعد على تغيير هذا الوضع ، بعدما أمل منهم مهاجمة النساء والأطفال لينصرف المسلمون أو بعضهم للدفاع عن ذراريهم ، فتتخلخل الجبهة ويتمكن القرشيون من اقتحام الخندق ، ومهاجمة المدينة .

وبدأت علائف خيل وإبل القرشيين تنفد فاستعانوا باليهود فأعانوهم بما طلبوا ، غير أن الله جعلها للمسلمين ، ذلك أن أبا سفيان قال لحيي بن أخطب : **قد نفدت علافتنا فهل عندكم من علف ؟**

فقال حيي : **نعم مالنا مالك فاصنع ما رأيت** ، مر القوم يأتوا بحمولة فيحملوا ما

---

(١) المغازى جـ٢ صـ٤٦٩

أرادوا ، فأرسلوا عشرين بعيراً ، فحملوها شعيراً ، وتمراً ، وتبنا ، وخرجوا بها إلى قريش حتى إذا كانوا بـــ"صفنه"[١] وهم يريدون أن يسلكوا "العقيق" قابلوا جمعاً من بنى عمرو بن عوف ، وهم عشرون رجلاً ، فيهم أبو لبابة بن عبد المنذر ، وعويم بن ساعدة ، ومعن بن عدى ، خرجوا لميت لهم مات منهم فى حصنهم ليدفنوه فناهضوا الحمولة وقاتلهم القرشيون ساعة وكان فيهم ضرار بن الخطاب فمنع الحمولة ثم جرح فغلبهم المسلمون وأخذوا الإبل بحمولتها ، وانصرفوا بها يقودونها إلى رسول الله ﷺ بعدما دفنوا ميتهم ، فكان أهل الخندق يأكلون منها ، فتوسعوا بذلك وأكلوه حتى نفد ، ونحروا من تلك الإبل أبعرة فى الخندق ، وبقى منها ما بقى حتى دخلوا به المدينة .

فلما رجع ضرار بن الخطاب إلى القرشين أخبرهم الخبر .

فقال أبو سفيان: إن حيياً لمشئوم، ما أعلمه إلا قطع بنا، ما نجد ما نتحمل عليه إذا رجعنا[٢]

ثم إن الله عز وجل – وله الحمد – صنع أمراً من عنده خذل بـــه العـــدو ، وهـــزم جموعهم ، وفل قوتهم ، فكان مما هيأ من ذلك أن رجلاً من غطفان يقال له " نعـــيم بـــن مسعود بن عامر الأشجعى ﷺ " جاء إلى رســـول الله ﷺ فقال : يا رســـول الله إنى قد أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمرنى ما شئت .

فقال رسول الله ﷺ : "إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة ".

فذهب من فوره إلى بنى قريظة – وكان عشيراً لهم فى الجاهلية – فدخل عليهم وقال: قد عرفتم ودى إياكم ، وخاصة ما بينى وبينكم .

قالوا : صدقت .

قال : فإن قريشاً ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم فيه أموالكم ، وأبناؤكم ونساؤكم لن تتحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فإن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا لحقوا ببلادهم ، وتركوكم ومحمداً فينتقم منكم .

قالوا : فما العمل يا نعيم ؟

---

(١) صفنه بفتح الصاد وسكون الفاء

(٢) المغازى جـــ٢ صـــ٤٧٠

قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن .

قالوا : لقد أشرت بالرأى .

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش ، وقال لهم : تعلمون ودى لكم ونصحى لكم؟

قالوا : نعم .

قال : إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه ، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ، ثم يوالونه عليكم ، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم ، ثم ذهب إلى غطفان ، فقال لهم مثل ذلك .

فلما كانت ليلة سبت من شوال بعث الأحزاب إلى اليهود وقالوا لهم : إنا لسنا بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخف ، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً ، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم هو يوم سبت ، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن ، فلما جاءتهم رسلهم بذلك ، قالت قريش وغطفان : صدقكم والله نعيم ، فبعثوا إلى اليهود : إنا والله لا نرسل إليكم أحداً ، فأخرجوا معنا حتى نناجز محمداً (١).

قالت قريظة : صدقكم والله نعيم .

فتخاذل الفريقان ، ودبت الفرقة بين صفوفهم ، وخارت عزائمهم ، وسرى بينهم التخاذل ، ثم أرسل الله عليهم جنداً من الريح ، فجعلت تقوض خيامهم ، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها ، ولا طنباً إلا قلعته ، كما أرسل الله سبحانه وتعالى جنداً من الملائكة يزلزلونهم ، ويلقون فى قلوبهم الرعب والخوف ، فلم يقر لهم قرار ، وشعروا بالهزيمة ، وبدأوا فى الرحيل إلى مكة (٢) .

يروى ابن كثير صورة الساعات الأخيرة للمشركين عند الخندق فيقول: ذكر حذيفة أحوال المشركين مع رسول الله ﷺ يوم الخندق فقال جلساؤه : أما والله لو كنا شهدنا ذلك لكنا فعلنا ، وفعلنا .

---

(١) زاد المعاد جـ٣صـ٢٧٣ ، ٢٧٤

(٢) سيرة النبى جـ٢ صـ٢٣١

فقال حذيفــة : لا تتمنوا ذلك ، لقد رايتنا ليلة الأحزاب ، ونحن صافون قعــود ، وأبو سفيان ومن معه فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا ، نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ، ولا أشد ريحاً منها فى أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهى ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه فيها .

فجعل المنافقون يستأذنون النبى ﷺ ، ويقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة ، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، وحين يأذن لهم يتسللون ويرجعون .

وأخذ رسول الله ﷺ يستقبلنا رجلاً رجلاً ، حتى أتى على وما علىَّ جنة من العدو ولا من البرد ، إلا مرط لأمرأتى ما يجاوز ركبتي فأتانى وأنا جاث على ركبتى .

فقال ﷺ : من هذا ؟

فقلت : حذيفة !!

فقال : حذيفة .

فتقاصرت للأرض فقلت : بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم .

فقال ﷺ : إنه كائن فى القوم خبر فأتى بخبر القوم ، وأنا من أشد الناس فزعاً وأشدهم قراً فخرجت .

فقال رسو الله ﷺ : اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته .

يقول حذيفة : فوالله ما خلق الله فزعاً ، ولا قراً فى جوفى ، إلا خرج من جوفى ، فلم أجد فيه شيئاً .

فلما وليت قال ﷺ : يا حذيفة لا تحدثن فى القوم شيئاً حتى تأتينى .

فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم ، نظرت ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم ضخم ، يشير بيديه على النار ، ويمسح خاصرته ويقول : الرحيل ... الرحيل .

و لم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعت سهماً من كنانتى ، أبيض الريش ، فأضعه فى كبد قوسى لأرمي به فى ضوء النار ، فذكرت قول رسول الله ﷺ لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتينى فأمسكت ، ورددت سهمى إلى كنانتى .

ثم إني شجعت نفسى حتى دخلت العسكر ، فإذا أدنى الناس منى بنـــو عامر يقولـــون : يا آل عامر الرحيل ..... الرحيل ، لا مقام لكم .

وإذا الريح فى عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً ، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم ، وفرشهم ، الريح تضرب بها .

ثم إني خرجت نحو رسول الله ﷺ ، فلما انتصفت بى الطريق ، أو نحو من ذلك ، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً ، أو نحو ذلك معتمين ، فقالوا : أخبر صاحبك أن الله قد كفاه ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، وهو مشتمل فى شملة يصلى ، فوالله ما عدا أن رجعت راجعنى القر وجعلت أقرقف، فأومأ إلىّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلى ، فدنوت منه فأسبل على شملته، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم وأخبرته أنى تركتهم يرحلون [١]

فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظهم ، لم ينالوا خيراً وكفاه الله قتالهم ، فصدق وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ولما رحل المشركون رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وكان رجوعه ﷺ والمسلمون معه من الخندق فى يوم الأربعاء السابع من ذى القعدة من العام الخامس الهجرى ، وسر المسلمون برجوعهم منتصرين ، وأسرعوا إلى المدينة هرباً من القر والجوع ، وكره رسول الله ﷺ هذه السرعة حتى لا يظن المنافقون والأحزاب بهم ضعفاً .

وقد استشهد من المسلمين ستة شهداء وهم: **سعد بن معاذ، وأنس بن أوس بن عتيك وعبد الله بن سهل ، والطفيل بن النعمان ، وثعلبة بن عتمة ، وكعب بن زيد النجارى رضى الله عنهم ، ورحمهم** وقتل من المشركين ثلاثة وهم : **منبه بن عثمان ، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة ، وعمرو بن عبدود** ، ولم يشترك المنافقون فى قتال ، لأنهم كانوا بادين فى الأعراب خارج المدينة [٢] .

إن معركة الأحزاب كانت هجمة شرسة من كافة مشركى الجزيرة العربية ، وعلى رأسهم القرشيون الذين جاءوا إلى المدينة ، ومعهم خبرة الغزوات السابقة ، فكثروا العدد ، وقصدوا اقتحام المدينة ، والقضاء على أهلها ، وإعادة اليهود إليها مرة أخرى .

---

(١) البداية والنهاية جـ٤ صـ١١٤ ، ١١٥ وانظر الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى جـ٢١ صـ٨٠

(٢) البداية والنهاية جـ٤ صـ١١٥ ، ١١٦ وقد عاش سعد بن معاذ بجراحة حتى انتهى المسلمون من بنى قريظة

لكن الله تعالى وفق المسلمين بحفر الخندق ، ووضع النساء والأطفال فى أماكن حصينة وسط المدينة فانقلب الأمر، و لم يحقق المشركون شيئاً من أهدافهم بل إنهم شعروا بضعفهم وتأكدوا من أن رسول الله ﷺ والمسلمين معه فى رعاية الله تعالى، بعدما عجزوا بهذا الجمع الذى لن يتمكنوا من جمعه مرة أخرى، وقد رأوا كيف أيد الله سبحانه وتعالى رسول الله ﷺ بما لم يتوقعوه من ريح عاتية ، وأعاصير مدمرة ، وجدت حول الخندق فقط وملائكة رأوا أثارهم .

ولذلك قال النبى ﷺ بعد انصراف الأحزاب "**الآن نغزوهم، ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**" [1] .

وقد كتب أبو سفيان كتاباً أرسله إلى رسول الله ﷺ جاء فيه " **باسمك اللهم ، فإنى أخلف باللات والعزى ، لقد سرت إليك فى جمعنا ، وإنا نريد ألا نعود أبداً حتى نستأصلكم ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى من علمك هذا ؟ فإن نرجع عنكم" فلكم منا يوم كيوم أحد** [2] .

فلما قرأها أبى بن كعب على رسول الله ﷺ فى قبته وكتب إليه رسول الله ﷺ "**من محمد رسول الله إلى أبى سفيان بن حرب ، أما بعــد ، فقديماً غــرك بالله الغــرور ، أما ما ذكرت إنك سرت إلينا فى جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى ، وأما قولك : من علمك الذى صنعنا من الخندق ؟ فإن الله ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تدافعنى بالراح ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى ، وأساف ، ونائلة ، وهبل ، حتى أذكرك ذلك** [3].

---

(١) صحيح البخارى – كتاب المغازى – باب الخندق جـ٦ صـ٣٢٦ .

(٢) المغازى جـ٢ صـ٤٩٢

(٣) وفاء الوفاء جـ٢ صـ٣٤٤ المغازى جـ٢ صـ٤٩٣

- خامساً -
الآيات الربانية الخارقة
فى يوم الخندق

أحاط الله المسلمين بالعون ، ونصرهم على عدوهم ، وأكرمهم فى وقت شدتهم ، وعاشوا هذه المعونة فى أعمال خارقة للعادة أتتهم من قبل الله تعالى ومنها :-

١)ظهور عوامل النصر :

لما اشتد الأمر بالمسلمين كانت عناية الله بهم ، فهزم عدوهم بأمور خارقة حيث جاءت العواصف ، والسيول ، والرعب وملائكة الله تعالى ، وانقسام الأحزاب على أنفسهم وتلك كلها أهم عوامل انتصار المسلمين على نحو ما سبق ذكره .

٢) كسر الكدية الصخرية :

لما بدأ المسلمون فى حفر الخندق وواجهتهم بعض الصخور الصلبه ، حاولوا تفتيتها مدة ثلاثة أيام فعجزوا ، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ وشكوا إليه الأمر فكسرها من ضربة واحدة .

يروى البخارى بسنده عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال : أتيت جابراً ﷺ فقال: " **إنا يوم الخندق نحفر ، فعرضت كدية شديدة ، فجاءوا النبى ﷺ ، فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق .**

فقال ﷺ : **أنا نازل ، ثم قام ، وبطنه معصوب بحجر ، فأخذ النبى ﷺ المعول فضربه فعادت الكدية كثيباً أهيل، أو أهيم** (١) .

يقول ابن إسحاق بلغنى أن جابر بن عبد الله كان يحدث : أنه اشتدت عليهم فى بعض الخندق كدية ، فشكوها إلى رسول الله ﷺ ، فدعا بإناء من ماء ، فتفل فيه ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية ، فيقول من حضرها : **فوالذى بعثه بالحق نبياً لانهالت حتى عادت كالكثيب لا ترد فأساً ، ولا مسحاة** (٢) .

---

(١) صحيح البخارى – كتاب المغازى باب غزوة الأحزاب جـ٦ صـ٣٢٠

(٢) سيرة النبى ﷺ جـ٢ صـ٢١٧

٣) تكثير الطعام :

عاش الصحابة رضوان الله عليهم ، وهم عند الخندق بلا طعام مدة ثلاثة أيام فأصابهم الجوع ، فرزقهم الله تعالى من حيث لا يتوقعون ، يروى البخارى بسنده أن جابر بن عبد الله قال : **لما حفر الخندق ، رأيت بالنبى ﷺ خمصاً شديداً فانكفأت إلى امرأتى ، فقلت : هل عندك شئ ؟ فإنى رأيت برسول الله ﷺ ، خمصاً شديداً ، فأخرجت لى جراباً فيه صاع من شعير ، ولنا بُهَيْمةٌ داجن فذبحتُها ، وطحنت الشعير ، ففرغتُ إلى فراغى ، وقطعتُها فى بُرْمتِها ، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ فقالت : لا تفضحنى برسول الله ﷺ وبمن معه ، فجئته فساررته ، فقلت : يارسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعاً من شعير ، كان عندنا ، فتعال أنت ، ونفر معك .**

فصاح النبى ﷺ فقال : **يا أهل الخندق ، إن جابراً قد صنع سؤراً فحىَّ هلاً بكم .**

فقال رسول الله ﷺ : لا تنزلُنَّ برمتُكم ، ولا تخبزُن عجينكم حتى أجئ فجئت وجاء رسول الله ﷺ ، يقدم الناس ، حتى جئتُ امرأتى فقالت : بك وبك .

فقلت : قد فعلت الذى قلت ، فأخرجت له عجينا ، فبصق فيه ﷺ وبارك ثم عمد إلى برمتنا ، فبصق وبارك ، ثم قال : ادع خابزة فلتخبز معى ، واقدحى من برمتكم ولا تنزلوها ، وهم ألف ، فأقسم بالله ، لقد أكلوا ، حتى تركوه ، وانحرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هى ، وإن عجيننا ليخبز كما هو[١] .

ويروى ابن إسحاق بسنده عن أخت النعمان بن بشير قالت : **دعتنى أمى عمرة بنت رواحة ، فأعطتنى حفنه من تمر فى ثوبى ، ثم قالت : أى بنية ، إذهبى إلى أبيك ، وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما .**

قالت : **فأخذتها ، فانطلقت بها ، فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبى ، وخالى فقال ﷺ : تعالى يا بنية ، ما هذا معك ؟**

فقالت : **يا رسول الله ، هذا تمر ، بعثتنى به أمى إلى أبى بشير بن سعد ، وخالى عبد الله ابن رواحة يتغديانه .**

---

(١) صحيح البخارى –كتاب المغازى – باب غزوة الخندق جـ٦ صـ٣٢٢ ، ٣٢٣

قال ﷺ : هاتيه .

قالت : فصببته فى كفى رسول الله ﷺ فما ملأهما ، ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم دحا بالتمر عليه ، فتبدد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده : اصرخ فى أهل الخندق : أن هلم إلى الغداء ، فاجتمع أهل الخندق عليه ، فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه ليسقط من أطراف الثوب (١).

٤) إظهار غيب المستقبل :

تنبأ النبى ﷺ فى يوم " الخندق " بانتشار الإسلام فى العالم ، وذكر انتهاء غزو القرشيين للمدينة ، يقول البراء بن عازب : لما كان يوم " الخندق " عرضت لنا فى بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فشكونا ذلك لرسول الله ﷺ ، فجاء فوضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة وأخذ المعول فقال ﷺ : **بسم الله ثم ضرب ضربة كسرت ثلث الصخرة وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأنظر قصورها الحمر الساعة من مكانى هذا ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر ، فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إنى لأبصر قصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض الآن ، ثم ضرب الثالثة ، فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر صنعاء من مكانى هذا** (٢) .

ـ سادساً ـ
حركة الدعوة خلال أيام الخندق

تعتبر غزوة " الخندق " اختباراً قاسياً للمسلمين فى المدينة ، وقد وفقهم الله تعالى للصمود فى هذا الامتحان الشديد ، وساهموا جميعاً فى حفر الخندق ، وقد شجعهم على النشاط والعمل ، مشاركة الرسول ﷺ لهم فى الحفر ، بل نراه ﷺ فى مقدمة العاملين ... وقد قسم الرسول ﷺ العمل على أصحابه بالتساوى ، و لم يخص أحداً من قرابته ، أو خاصته براحة فى العمل ، و لم يميز بعضاً منهم بمزايا ، وجمع ﷺ أمهات المؤمنين مع سائر

---

(١) سيرة النبى ﷺ جـ٢ صـ٢١٨ .

(٢) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى باب ما جاء فى غزوة الخندق جـ٢١ صـ٧٨

المسلمات فى المساكن الحصينة التى اختارها لهن ، ولأطفالهن وسط المدينة .

وحرص رسول الله ﷺ على أن يلزم المسلمون بالعمل وفق الخطة الموضوعة ، بحيث لا يترك العمل أحد من المسلمين إلا بإذن رسول الله ﷺ .

وكان رسول الله ﷺ يتعامل مع المسلمين بحكمة ومودة ، إذ تراه ﷺ حين اختلف المهاجرون والأنصار فى معية سلمان الفارسى أثناء الحفر حيث رغب كل من المهاجرين ، والأنصار أن يكون معهم ، وقالوا : إنه منا قال لهم ﷺ : " **سلمان منا آل البيت** "[(١)] ووضعه مع مجموعة من الصحابة ضمت ثلاثاً من المهاجرين ، وستة من الأنصار على أن يكون سلمان رضي الله عنه أمير المجموعة ، فرضى بذلك الجميع .

وكان ﷺ يتعامل برفق ، ويحافظ على إرضاء نفوس المؤمنين فإنه ﷺ لما رد الغلمان فى بداية حفر الخندق رضى منهم أن يشاركوا فى الحفر تطيباً لخواطرهم ، وحفاظاً عليهم .

وكان ﷺ رحيماً بأصحابه ، إذ نراه لما اشتد البرد كان يضم بعضهم إليه ، ويعطيه مرطاً يلبسه ، بعد أن أخذه من بعض نسائه ﷺ ، وكان يداعب أصحابه ، ويتلطف معهم فى الحديث.

يروى مسلم بسنده أن **رجلاً قابل حذيفة فقال له : لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه ، وأبليت .**

فقال حذيفة : **أنت كنت تفعل ذلك لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة ، وقر .**

فقال رسول الله ﷺ : **ألا رجل يأتينى بخبر القوم ، جعله الله معى يوم القيامة ، فسكتنا فلم يجبه منا أحد .**

ثم قال ﷺ : **ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة، فسكتنا فلم يجبه أحد**

ثم قال ﷺ : **ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة فسكتنا فلم يجبه أحد .**

فقال ﷺ : **قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم ، فلم أجد بداً إذ دعانى باسمى أن أقوم ، حيث قال : اذهب يا حذيفة فأتنى بخبر القوم ، ولا تذعرهم على ، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشى فى حمام ، حتى أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان يصلى ظهره النار ، فوضعت سهماً**

---

(١) المغازى جـ٢ صـ٤٤٦

فى كبد القوس ، فأردت أن أرميه ، فذكرت قول رسول الله ﷺ ولا تذعرهم على ، ولو رميته لأصبته فرجعت ، وأنا أمشى فى مثل الحمام ، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت قررت فألبسنى من شدة البرد رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها ، فلم أزل نائماً حتى أصبحت قال : قم يا نومان [١] .

فلم يفزعه ﷺ وإنما كنّاه وسرى عنه ، وغطاه من البرد حتى استيقظ .

ونظراً لاشتغال المسلمين بالمعركة أذن لهم ﷺ بالصلاة حيث يعسكرون ، ولذلك تأسست سبعة مساجد على الخندق ، نسبت إلى من كان يؤم الصحابة بها ويقودهم فى موقعة مثل مسجد أبى بكر ، ومسجد عمر ، ومسجد عثمان ، ومسجد على ، ﷺ وبذلك استمرت حراسة الخندق ليلاً ونهاراً ، رغم البرودة الشديدة وأذن لهم ﷺ يتعدد الجماعات مراعاة للحال وبخاصة أن صلاة الخوف لم تكن شرعت بعد .

وكان ﷺ يمر على المسلمين فى مواقعهم ليشرف عليهم ويوجههم إلى ما يجب أن يكون .

وقد تعلم المسلمون من فنون الحرب أهمية اكتشاف الأساليب المناسبة للتعامل مع العدو عدداً ، وعدة ... إذ لولا الخندق الذى حفره المسلمون لأصيبوا بهزيمة منكرة ، ولا مانع من اكتساب خبرة الآخرين المفيدة للإسلام وللمسلمين .

واهتم رسول الله ﷺ بتضليل أعدائه وخداعهم وفك وحدتهم ونشر الشائعات بين صفوفهم ، وذلك من أهم طرق هزيمة العدو وانكساره .

وكان ﷺ يعمل على المحافظة على روح القتال ، وحب الشهادة بين المسلمين .

وكان ﷺ يبشر أصحابه بالنصر ، وينبئهم بأخبار الوحى ، وكان يمر على أصحابه يطمئن عليهم ، ويجلب الطعام والمؤونة لهم ، ويطمئنهم على نسائهم ، وذراريهم .

وكان ﷺ يناجى ربه ، ويكثر من الدعاء على المشركين ، ومن دعائه ﷺ على الأحزاب فى يوم الخندق ما رواه البخارى فى صحيحه : عن إسماعيل بن أبى خالد أنه قال : **سمعت عبد الله بن أبى أوفى ﷺ يقول : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب ، فقال : اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحـزاب ، اللهم اهزمهـم**

---

(١) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى باب ما جاء فى استجابة الله دعاء نبيه جـ ٢١ صـ ٨٠

وزلزلهم [١] .

➤ وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من الغزو ، أو الحج ، أو العمرة ، يبدأ فيكبر ثلاث مرار ، ثم يقول : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شئ قدير ، آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده [٢] .

➤ دعا النبى ﷺ على المشركين لأنهم شغلوا المسلمين عن صلاة العصر ، وهى الصلاة الوسطى ... فعن على بن أبى طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال يوم الخندق : "ملأ الله عليهم بيوتهم ، وقبورهم ناراً ، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس [٣] .

و لم يكن اهتمام رسول الله ﷺ بأصحابه مقتصراً على ميدان المعركة عند الخندق ، بل رأيناه ﷺ يهتم بنساء المسلمين وذراريهم ، فلقد كلف فريقاً بحراستهم ، والدفاع عنهم ، وكان دائم الحذر من بنى قريظة : حينما خافهم على نساء المسلمين وأبنائهم .

وكان ﷺ كثير المشاروة لأصحابة فلقد أخذ برأى سلمان فى حفر الخندق ، وحينما فكر فى إعطاء بنى غطفان ثلث ثمار المدينة على أن يتركوا قريشاً ويرجعوا أخذ برأى الأنصار ، ونزل على رأيهم حين رفضوا ما اتفق عليه رسول الله ﷺ .

وخلال الغزوة تعلم المسلمون أحكام الصلاة إذا فات وقتها لعذر ، فلقد أمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذن وأقام للظهر ، وأقام بعد ذلك لكل صلاة إقامة ، فصلى كل صلاة كأحسن ما كان يصليها فى وقتها وبذلك كان للفوائت آذان واحد ، وإقامة لكل صلاة [٤] .

وهكذا عاش رسول الله ﷺ أيام الأحزاب ، قائداً للمسلمين ، وداعياً إلى الله تعالى ، ومعلماً حكيماً ، ومرجعاً فى الحكم والتشريع ، وكان قدوة صالحة للمسلمين كما هو شأنه ﷺ إلى يوم القيامة .

---

(١) صحيح البخارى –كتاب المغازى – باب غزوة الخندق جـ٦ صـ٣٢٧

(٢) صحيح البخارى –كتاب المغازى – باب غزوة الخندق جـ٦ صـ٣٢٨

(٣) صحيح البخارى –كتاب المغازى – باب غزوة الخندق جـ٦ صـ٣٢٦

(٤) فى البخارى ومسلم أن المسلمين فاتتهم صلاة العصر ، وفى الموطأ فاتتهم صلاة الظهر ، والعصر ، وفى مسند أحمد فاتتهم صلاة الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء .

وطرق الجمع بين هذه الروايات أن غزوة الخندق استمرت أياماً فكان هذا فى يوم ، وذاك فى يوم آخر ...إلخ .

- سابعاً -
الأحزاب فى رحاب القرآن الكريم

سجل القرآن الكريم أحداث غزوة الأحزاب ، وبين مواضع العبرة والعظة فيها ، وجعلها منطلقاً للهداية ، والرشد ، وحسن الإتباع ، وبنى عليها ضرورة الإخلاص فى العبودية ، وأهمية الصدق فى الإلتزام والطاعة ... لأن ما حدث كان نصراً إلهياً واضحاً ، قدره الله لعباده المؤمنين .

وقد سمى الله تعالى إحدى سور القرآن باسم الغزوة ، وهى السورة المعروفة بسورة "الأحزاب" المدنية المكونة من ثلاث وسبعين آية ، وعدد الآيات التى تحدثت عن الغزوة فى السورة ست عشرة آية بالإضافة إلى آيتين تحدثنا عن بنى قريظة .

وتبدأ الآيات بتذكير المؤمنين بفضل الله عليهم بعد مجئ الأحزاب المدينة ... إذ أنه بعدما اشتد الأمر على المسلمين ، أرسل الله ريحاً وجنوداً لا ترى وسلطها على هؤلاء البغاة من الأحزاب الذين أحاطوا بالمسلمين من الخارج والداخل ، فأهلكتهم وهزمتهم فى وقت ظن المؤمنون أن النصر بعيد وأن الهزيمة آتية ، وكان هذا قمة البلاء وغايته ، وبعدها جاء نصر الله تعالى ... وهذا لون من التربية العملية التجريبية ، كون الله بها الجماعة المسلمة الأولى ... يقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ ﴾ (١) .

والآيات ترسم بداية المعركة ونهايتها ، وتشير إلى أهوالها وأحداثها بإجمال ، وتصور ما أصاب المسلمين من خوف وهلع ، حتى زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وظن المسلمون بالله ظناً كثيراً .

وأما المنافقون فقد انتهزوا الموقف ، وأخذوا يخذلون المسلمين ، ويظهرون الشماتة ، وينادون بترك الخندق ، ويرجعون معتذرين بالأكاذيب ، ويتهمون الرسول بأن وعده

---

(١) سورة الأحزاب الآيات من ٩ إلى ١١

بالنصر ليس صادقاً فنقضوا عهودهم ، وأظهروا خبئ قلوبهم ، وحقيقة أمانيهم يصور الله تعالى أحوال وأعمال المنافقين فيقول سبحانه ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ۝ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾ [1] .

إن هؤلاء المنافقين أظهروا عداوتهم لرسول الله ﷺ ، وللإسلام ، وخرجوا من صمتهم المخادع ، وأخذوا ينشرون أكاذيبهم التى أشارت الآيات إلى أهمها ، قالوا :

- ما وعدنا الله ورسوله إلا بأمور لم تتحقق بعد أن غررا بنا .
- طالبوا "لعنهم الله" المؤمنين بالعودة إلى المدينة ، لينجوا من الهلاك والقتل .
- بدأوا بالرجوع ، وترك ميدان القتال بدعوى أن بيوتهم عورة ، وهى ليست كذلك .
- تؤكد الآيات ضعف إيمان المنافقين ، لأنهم سرعان ما يرتدون ، ويتركون ما آمنوا

---

(١) سورة الأحزاب الآيات من ١٢ إلى ٢٠

به ، بمجرد توقع فتنة ، وهؤلاء فى الحقيقة لا دين لهم .

➢ لا عهد لهؤلاء المنافقين ، فقد دخلوا فى الإسلام وعاهدوا الله على الثبات والصبر والتحمل ، لكنهم نكصوا و لم يفعلوا شيئاً مما عاهدوا الله عليه .

➢ يؤكد القرآن الكريم أن المنافقين صنف معاد للإسلام يعيش بين المسلمين ، فهم معوقون ، حاقدون ، يعملون كل ما يضر الإسلام والمسلمين .

➢ الأمر كله بيد الله تعالى ، وحين يترل بأسه على المنافقين لن ينجيهم منه أحد .

وأما المؤمنون الصادقون فأسوقم رسول الله ﷺ لا يهابون موتاً ، ولا يشكون فى صدق رسولهم ، ويسيرون على منهج الله الذى أخذوه ، ويزداد إيمانهم عند الشدة ، ويتمسكون بالطاعة والتسليم ... فمنهم من لقى الله شهيداً ، ومنهم من ينتظر دوره ، فى صدق وإخلاص ، يقول الله تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾(١) .

وتبين الآيات نتيجة المعركة ، وتؤكد صدق الله ورسوله ، وكذب من ادعى غير ذلك من المنافقين ، ومن فى قلبه مرض .

وتختم الآيات تناولها لأحداث غزوة الأحزاب ببيان حكمة الابتلاء ، وعاقبة نقض العهد ، وجزاء الوفاء به ، وبيان أهمية ، وتفويض الأمر فى هذا كله لمشيئة الله تعالى فيقول سبحانه ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾(٢)

---

(١) سورة الأحزاب الآيات من ٢١ إلى ٢٤

(٢) سورة الأحزاب الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .

ومثل هذا التعقيب يتخلل تصوير الحوادث والمشاهد ليرد الأمر كله إلى الله ، ويكشف عن حكمة الأحداث والوقائع ، فليس شئ منها عبثاً أو مصادفة ، إنما تقع الأحداث وفق حكمة مقدرة ، وتدبير مقصود ، وتنتهى إلى ما شاء الله من العواقب ، وفيها تتجلى رحمة الله بعباده .

إن الأمر كله من أوله إلى منتهاه صناعة إلهية تضع الإنسان أمام حقيقته ، وتكشف أمام بصيرته وبصره جلال الخالق وعظمته ، وتجعل الجزاء ملائماً للطاعة ، وتدبر العاقبة فى خط متواز للعمل والسلوك .

وتختتم الآيات بالحديث عن الأثر الضخم المتصل بأعمال المنافقين والمرجفين ، وتظهر خطأ تصوراتهم ، وتثبت القيم الإيمانية بالنهاية الواقعية .

وهكذا بدأت المعركة وسارت فى طريقها وانتهت إلى نهايتها وزمامها فى يد الله يصرفها كيف يشاء .

وأثبت النص القرآنى هذه الحقيقة بطريقة تعبيره ، فأسند إلى الله تعالى إسناداً مباشراً كل ما تم من الأحداث ، والعواقب ، تقريراً لهذه الحقيقة ، وتثبيتاً لها فى القلوب ، وإيضاحاً للتصور الإسلامى الصحيح .

ـ المبحث التاسع ـ
أحداث ما بين
الأحزاب والحديبية

حاول أعداء الإسلام القضاء عليه لتستمر وضعيتهم الظالمة القائمة على استعباد الناس واستغلال الضعفاء ، والاستغراق فى شهواتهم المادية رغم ما فيها من جور وعدوان .

وقد تجلت هذه المحاولات فى التضييق على المسلمين قبل الهجرة ، والإصرار على القتال فى "بدر" ، والمجئ إلى المدينة لمقاتلة المسلمين فى " أحد " و " الأحزاب " .

لقد اعتمدت محاولات أعداء الإسلام على إشاعة الأكاذيب، وتضليل العامة، وتوجيه القبائل لكراهية الإسلام ، والعمل على القضاء على المسلمين ، وصد الناس عن دينهم الذى يعيشون به وله

ولا يمكن لعاقل أن يسلم بأحقية هذه المحاولات الظالمة ، لأن الإسلام فى جوهرة دين يخلص الناس من العبودية لغير الله ، ويربطهم بقيم نبيلة ، وأخلاق عالية ، ويحدد الحقوق والواجبات لكل مخلوق ، ويضع منهجاً ينظم كافة جوانب الحياة ، ويصون الكرامة الإنسانية للبشر أجمعين .

إن الإسلام دين يحقق السعادة ، وينشر السلام ، ويحفظ النفس ، والعقل ، والولد ، والمال ، والعقيدة ... ولذلك فهو دين يتوافق مع العقل السوى ، والمصلحة الحقيقة لسائر الأحياء ، ولكافة جوانب الحياة .... وكل من يتدبر تعاليم الإسلام ينكر أى عدوان فيها ولا يصدق أى كلام يقال عن الإسلام مهما تزين ، وتزخرف .

رأى المسلمون محاولات الأعداء ضد دينهم فرفضوها ، وكان الله معهم فشرع الجهاد على مراحل متعددة ، ليتفق التشريع مع كل جديد يحتاج إليه .

لقد بدأ تشريع الجهاد بالإذن فيه بعد الهجرة ... ثم كان الأمر بقتال من يعتدى عند "أحد " ..... وأخيراً كان الأمر بالقتال العام بعد الخندق ... لأن الأحزاب حين تجمعوا ، وأتوا من كل صوب وحدب ، كانوا يقصدون القضاء على المسلمين والإسلام ، وبهذا بلغوا قمة التحدى ، ومثلوا غاية العدوان فى استهتار واضح بالقوة الإسلامية .

ولما تجمع الأحزاب حول المدينة بانت حقيقة اليهود ، والمنافقين ، وقبائل الجزيرة جميعاً وتأكد المسلمون أن وجود اليهود ، والمنافقين فى المدينة ، أو فى ضواحيها ، يمثل

خطورة بالغة لأنهم على علم بأحوال المسلمين وأخبارهم ، ويمكنهم مفاجأة المسلمين ، والغدر بهم فى أى وقت كما أن لهم صلات بأهل مكة وبالقبائل العربية يستغلونها فى إشاعة الأكاذيب ، وصرف الناس عن التفكير فى حقيقة الإسلام .

إن المسلمين عباد الله ، وهبوا أنفسهم للحق ، وجعلوا أرواحهم فى خدمة دينهم ، ولذلك عز عليهم تصرفات أعدائهم ، وصدهم الناس عن دين الله تعالى ... فلما فرض القتال العام بعد الأحزاب أخذ رسول الله ﷺ ، فى توجيه أصحابه للتصدى للطغاة المعتدين لأن إمهالهم يعطيهم فرصة للإعداد ، والتجهيز ، وإعادة مهاجمة المدينة مرة أخرى .

لقد صدق الله وعده للمسلمين فى يوم الأحزاب ، فأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وأرسل عليهم ريحاً ، وجنوداً من الملائكة ، وأدخل الرعب فى قلوبهم ، حتى تمكن المسلمون منهم ففروا هاربين كلٌ إلى موطنه الذى جاء منه .

وقد فهم الأحزاب ، وكل من والاهم نتيجة معركة الخندق على غير وجهها الصحيح الأمر الذى أدى بهم إلى اتخاذ مواقف خاطئة ، ذلك أنهم ربطوا هزيمة الأحزاب بأسباب بعيدة عن الحقيقة ، حيث أرجعوها إلى تغير المناخ ، وهبوب الريح ، وشدة الأعاصير ، وتصوروا أن ما حدث أمر طبيعى رأوا مثله فى فيافى الجزيرة كثيراً ، وليس بلازم أن يتكرر مرة أخرى فى أى لقاء لهم مع المسلمين .... وفكروا كذلك فى انقسام الأحزاب على أنفسهم ، وشك كل فريق فى غيره ، عندما تصور كل منهم أن الفريق الآخر نقض عهده إما لانضمامه للمسلمين ، أو لخوفه منهم .

وأدى بهم هذا الفهم إلى استمرار استهانتهم بالمسلمين ، فتصوروهم ضعافاً لا يمكنهم الخروج من المدينة ، ولذلك استمروا فى إعداد العدة ، وتجهيز السلاح لمهاجمة المسلمين ، كل قبيلة على حدة ، مبتعدين عن تكتل القبائل ، وتجمع الأحزاب مرة أخرى ، بعدما أصيبوا بهذا التجمع عند الخندق .

وحقيقة الواقع تؤكد خطأ المشركين فى تحليل أسباب هزيمتهم ، لأن ما حدث قدر إلهى نصر الله به عباده المؤمنين ، وهو سبحانه قادر على إعادته وغيره لنصر المسلمين إن نصروا الله ، وأخلصوا فى الجهاد والنية .... وما تفكك الأحزاب ، وإحداث الوقيعة بينهم إلا قدر إلهى قضى به ليتم نصره ، ويؤيد جنده .

وكما تأمل المشركون فى نتائج معركة الخندق تأمل المسلمون فيها أيضاً ، وأدركوا أن الله معهم ، وأن جند الله لا ينحصرون فى صورة ، أو عدد ، أو جهة ، أو فى شئ ، لأن لله جنود السماوات والأرض، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وصل المسلمون إلى نتيجة هى الحق حيث رأوا أن القبائل لن تسكت عن مهاجمة المسلمين ، وستحاول كل قبيلة أن تفعل كل ما تقدر عليه ، وبخاصة أن المسلمين حوصروا و لم يفعلوا شيئاً ، ولولا الخندق لقضى الكفار عليهم .

لكل هذا حرص رسول الله على تتبع إخبار القبائل ، فأرسل عيونه فى الجزيرة العربية كلها ، فعادوا إليه بتأييد ما توقعه المسلمون ، ولذلك كانت الغزوات والسرايا إلى هذه القبائل منعاً لغدرهم ، وحتى لا يتمكنوا من الهجوم على المدينة مرة أخرى .

وكان الوحى الكريم مع رسول الله ﷺ يوجهه إلى ما يجب عمله ، وبذلك تحددت معالم الحركة ، واتضحت السبل المؤدية لحماية الإسلام والمسلمين ، وشرعها الوحى للناس لتبقى درساً عملياً ، وخطة واقعية ، أمام المسلمين إلى يوم القيامة .

لقد كان من الضرورى مواجهة العداوات التى بثها المشركون بين القبائل العربية والإسراع فى منعهم من الإعداد والهجوم ، ولذلك تعددت الغزوات ، وكثرت السرايا بعد الأحزاب ، ووصلت إلى الأماكن البعيدة فى نجد و الشام .

وقام المسلمون بواجبهم الذى كلفوا به ، وقادهم رسول الله ﷺ فى غزواته ، وأعانهم فى سراياه ، وبذلك لم يتركوا ظالماً يعتدى ، و لم يدعو طاغوتاً يستبد ويفترى ، وصانوا حرية الدعوة وحرية الناس .... وكانوا ﷺ بقيادة رسول الله ﷺ حركة إيجابية دائمة بالإسلام ، وسيفاً مسلطاً على رقاب كل معتد أثيم .

إن العدل بالمسلمين صار له رجاله ، والدعوة إلى الله وجدت فى الجهاد خير من يحميها ، وأصبح الطريق المستقيم صافياً ، نقياً .

لقد تعددت الأحداث ، وتنوعت بعد الأحزاب ، واستمرت حتى صلح الحديبية وجرت فى مسارها المشروع الذى قدره الله لها ، وكما أمر به رسول الله ﷺ .

وفى هذا المبحث سأتناول أهم هذه الأحداث .... وذلك فيما يلى :-

- أولاً -
غزوة بنى قريظة

نقض بنو قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ فى وقت عصيب ، وانضموا إلى الأحزاب وأخذوا فى إمدادهم بالمؤن والطعام وعلف الدواب ، وعاش المسلمون بسببهم لحظات عصيبة ، خافوا خلالها على أطفالهم ونسائهم من غدر يهود بنى قريظة ... فلما أتم الله نصره ، ورجع الأحزاب إلى ديارهم ، عاد المسلمون متعبين إلى دورهم يريدون أن يدفأوا من القر ، ويشبعوا من الجوع ... لكن الله أمرهم بمواصلة الجهاد .

ولما علم يهود بنى قريظة بانصراف الأحزاب ملكهم الخوف ، وتوقعوا أن يكر المسلمون عليهم لما كانوا يعرفون من تصرف الرسول ﷺ مع بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وحدث ما توقعوه فإنه لما رجع النبى ﷺ من الخندق ، ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل عليه السلام وقال : **قد وضعت السلاح يا محمد ؟ والله ما وضعناه ، فاخرج إليهم .**

قال ﷺ : فإلى أين ؟

قال جبريل عليه السلام : **ها هنا وأشار إلى ديار بنى قريظة .**

فخرج ﷺ إليهم وقال لأصحابه : لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى ، لم يرد منا ذلك (وفعل كل ما فهمه) وذكروا ذلك للنبى ﷺ حين رؤيته فلم يعنف واحداً منهم (١) .

وتقدمت الملائكة زحف الجيش الإسلامى ، يقول أنس رضي الله عنه **كأنى أنظر إلى الغبار ساطعاً فى زقاق بنى غنم ، موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة** (٢) .

---

(١) صحيح البخارى – كتاب المغازى باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب جـ٦ صـ٣٢٨ .

(٢) صحيح البخارى – كتاب المغازى باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب جـ٦ صـ٣٢٩

جاء فى صحيح المسلم أن حديث الرسول ﷺ تناول صلاة الظهر ، مخالفاً ما رواه البخارى فى صحيحة ، والجمع بن الروايتين فى كونها الظهر أو العصر محمول على أن هذا الأمر كان بعد دخول وقت الظهر ، وقد صلى الظهر بالمدينة بعضهم دون بعض ، فقيل للذين لم يصلوا الظهر لا تصلوا الظهر إلا فى بنى قريظة ، وللذين صلوا بالمدينة لا تصلوا العصر إلا فى بنى قريظة .

ويحتمل أنه قيل للجميع : لا تصلوا العصر ولا الظهر إلا فى بنى قريظة ، ويحتمل أنه قيل للذين ذهبوا أولاً لا تصلوا الظهر إلا فى بنى قريظة وللذين ذهبوا بعدهم لا تصلوا العصر إلا فى بنى قريظة والله أعلم .

واستعمل الرسول ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ﷺ ، ودفع اللواء إلى على ابن أبي طالب ﷺ ، وكان اللواء على حاله الذى كان عليه عند الخندق لم يتغير .

وأخذت الملائكة تدعو المسلمين إلى الخروج لبنى قريظة ، فعن محمد بن إسحاق أن رسول الله ﷺ مر بنفر من بنى النجار فيهم حارثة بن النعمان ، قد صفوا صفين عليهم السلاح فقال : " هل مر بكم أحد ؟ "

قالوا : نعم ، دحية الكلبى ، مر على بغلة ، عليها رِحَاله ، عليها قطيفة من استبرق ، وأمرنا بحمل السلاح ، فأخذنا سلاحنا وصففنا ، وقال لنا : هذا رسول الله ﷺ يطلع عليكم الآن .

فقال رسول الله ﷺ ذاك جبريل بعث إلى بنى قريظة ليزلزل حصونهم ، ويقذف الرعب فى قلوبهم (١) .

وكان خروج النبى ﷺ إلى بنى قريظة لسبع بقين من ذى القعدة فى العام الخامس الهجرى ، وتبعه المسلمون فى ثلاثة آلاف مقاتل ، ومعهم ستة وثلاثون فرساً ، وعسكر الجيش الإسلامى عند بئر لبنى قريظة يعرف ببئر "أنَّا" بأسفل حرة بنى قريظة (٢) .

وتكامل تجمع المسلمين عند البئر ، واجتمعوا مع رسول الله ﷺ عشاء ... وغدا رسول الله ﷺ على حصونهم ، وعبأ أصحابه ، ونظمهم حول الحصون ، وأمرهم أن يرموهم بالنبال ، وأن يتعاقبوا فى الرمى ، حتى لا يتركوا لهم وقتاً يستريحون فيه .

وفى آخر النهار أيقن اليهود بالهلكة ، فأمسكوا عن الرمى ، وأرسلوا نباش بن قيس فكلم رسول الله ﷺ على أن يترلوا على ما نزلت عليه بنو النضير من الأموال والسلاح ، وتحقن دماؤهم ، ويخرجوا من المدينة بالنساء والذرارى ، ولهم ما حملت الإبل إلا الحلقة .

فأبى رسول الله ﷺ .

فقال نباش : تحقن دماءنا ، وتسلم لنا النساء والذرية ، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يترلوا على حكمه .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام جـ٢ صـ٢٣٤

(٢) المغازى جـ٢ صـ٤٩٦ ، ٤٩٩

وعاد نباش إليهم بذلك .

فلما أتاهم نباش برفض رسول الله ﷺ لما اقترحوه ، قال كعب بن أسد : يا معشر بنى قريظة والله إنكم لتعلمون أن محمداً نبى الله ، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب ، حيث لم يكن نبياً من بنى إسرائيل فهو حيث جعله الله ، ولقد كنت كارهاً لنقض العهد والعقد ، ولكن البلاء وشؤم حيي بن أخطب فاتبعوه وكونوا أنصاره وأولياءه ، وقد آمنتم بالكتابين كليهما الأول ، والآخر ، فتعالوا فلنتابعه ولنصدقه ولنؤمن به فنأمن على دمائنا وأبنائنا ونسائنا وأموالنا .

فردوا عليه لن نكون تبعاً لغيرنا نحن أهل الكتاب والنبوة ونكون تبعاً لغيرنا .

فجعل كعب يرد عليهم الكلام بالنصيحة لهم .

قالوا : لا نفارق التوراة وندع ما كنا عليه من أمر موسى .

قال كعب : فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج فى أيدينا السيوف إلى محمد وأصحابه فإن قتلنا قتلنا وما وراءنا أمر نهتم به ، وإن ظفرنا فلعمرى لنتخذن النساء والأبناء .

قالوا : ما فى العيش من خير بعد هؤلاء .

قال : فواحدة قد بقيت من الرأى لم يبق غيرها ، الليلة السبت ومحمد وأصحابه آمنون لنا فيها .

فنخرج فلعلنا أن نصيب منه غرة .

قالوا : نفسد سبتنا وقد عرفت ما أصابنا فيه ؟

فصاحت اليهود : لا نكسر السبت .

وسقط فى أيديهم ، وندموا على نقض العهد يوم الأحزاب ، ورقوا على النساء والصبيان حينما رأوا ضعف أنفسهم وهلاك النساء والصبيان .

فقال لهم كعب : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة حازماً (١).

إلا أن فريقاً من بنى هدل خالف قومه اليهود ، ودخل فى الإسلام ، ونجا بنفسه ، وأمواله ، وأولاده ، وهم : ثعلبة ، وأسيد ابنا سعية ، وأسيد بن عبيد وأبناؤهم (٢)...

---

(١) البداية والنهاية جـ٤ صـ١٢٠

(٢) سيرة النبى جـ٢ صـ وبنو هدل ليسوا من بنى النضير ، ولا من بنى قريظة لأن نسبهم فوق ذلك فهم بنو عمومتهم

بعد أن بذلوا النصح الأمين لقومهم و لم ينقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ يوم الأحزاب .

واشتد الأمر على اليهود ، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل لهم أبا لبابة بن المنذر ، وكان لهم نصيحاً ، لما بينهم وبينه من حلف ، ولأن أمواله وأهله بينهم .

فلما أتاهم أبو لبابة قال له كعب بن أسد : **يا أبا لبابة إنا قد اخترناك على غيرك ، إن محمداً قد أبى إلا نتزل على حكمه أفترى أن نتزل على حكمه ؟**

قال : نعم وأشار بيده إلى حلقه أى إنه الذبح .

قال أبو لبابة : فوالله مازالت قدماى عن مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله فندمت واسترجعت وأخذت فى البكاء ، فنزلت وإن لحيتى مبتلة من الدموع ، والناس ينتظرون رجوعى إليهم فأخذت من وراء الحصن طريقاً أخرى حتى جئت المسجد و لم آت رسول الله ﷺ فارتبطت ، وكان ارتباطى على الاسطوانة المخلقة التى يقال لها "أسطوانة التوبة " وقلت : لا أبرح من مكانى حتى أموت ، أو يتوب الله على مما صنعت ، وعاهدت الله تعالى بألا أطأ أرض بنى قريظة أبداً ، ولا أُرَى فى بلد خنت الله تعالى ورسوله ﷺ فيه أبداً .

وبلغ رسول الله ﷺ ذهابى وما صنعت ، فقال " **دعوه حتى يحدث الله تعالى فيه ما شاء لو كان جاءنى استغفرت له ، فإذا لم يأتنى وذهب فدعوه** " .

وأنزل الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١) .

قال أبو لبابة : فكنت فى أمر عظيم فى حر شديد عدة ليال لا آكل فيهن ، ولا أشرب ولا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله على ، وأذكر رؤيا رأيتها فى النوم ، ونحن نحاصر قريظة ، كأنى فى حمأة آسنة ، فلم أخرج منه حتى كدت أموت من ريحها ، ثم أرى نهراً جارياً فأرانى اغتسلت فيه حتى استنقيت ، وأرانى أجد ريحاً طيبة ، فاستعبرتها أبا بكر فقال : لتدخلن فى أمر تغتم له ثم يفرج عنك ، فكنت أذكر قول أبى بكر وأنا مرتبط ، فأرجو أن يتزل الله تعالى قبول توبتى .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٧ .

يقول أبو لبابة : فلم أزل كذلك حتى ما أسمع الصوت من الجهد ورسول الله ﷺ ينظر إلىّ .

ومكث أبو لبابة مرتطباً ست ليال تأتيه امرأته مرة ، وابنته مرة أخرى ، فتحله حتى يتوضأ ، ويصلى ثم يرتبط .

واستمر الحال على ذلك حتى نزل قوله تعالى ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

قال ابن إسحاق : حدثنى يزيد بن عبد الله بن قسيط : **إن توبة أبى لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحر ، وهو فى بيت أم سلمة ، قالت أم سلمة : فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك .**

فقلت : يا رسول الله مما تضحك ؟ أضحك الله سنك .

قال ﷺ : تيب على أبى لبابة .

قلت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟

قال ﷺ : بلى إن شئت .

فقامت على باب حجرتها ، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك .

فسار الناس إليه ليطلقوه فقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده ، فلما مر ﷺ عليه خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه (٢).

ثم نزلت بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ فأمر بأسراهم فكتفوا رباطاً وجعل على كتافهم محمد بن مسلمة ، ونحوا ناحية ، وأخرج النساء والذرية من الحصون فكانوا ناحية ، واستعمل عليهم عبد الله بن سلام وجمعت أمتعتهم وما وجد فى حصونهم من الحلقة والأثاث فوجد فيها ألف وخمسمائة سيف ، وثلاثمائة دارع ، وألفا رمح ، وألف وخمسمائة ترس وحجفة ، وأثاث كبير ، وآنية كثيرة ، وخمر وجرار سكر فهريق ذلك كله ، و لم يخمس ووجد من الجمال النواضح عدة ، ومن الماشية شئ كثير

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٢ .

(٢) سيرة النبى ﷺ جـ٢ صـ٢٣٧ ، ٢٣٨

فَجُمِعَ هذا كله [١].

وطلبت الأوس من رسول الله ﷺ أن يهب لهم بنى قريظة فإنهم حلفاؤهم ، كما وهب لابن أبى بنى قينقاع حلفاءه .

فقال ﷺ : أما ترضون أيها الأوس أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم ؟

قالوا : بلى .

قال ﷺ : فذلك إلى سعد بن معاذ ... وسعد يومئذ فى المسجد فى خيمة " رفيدة بنت سعد الأسلمية " وكانت تداوى الجرحى وتلم الشعث ، وتقوم على الضائع الذى لا أحد له ، وكان لها خيمة فى المسجد، وكان رسول الله ﷺ جعل سعد بن معاذ فيها منذ جرح فخرجت الأوس فحملوه على حمار ، والتفوا حوله وأخذوا يقولون له : يا أبا عمرو ! إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحسن فيهم فأحسن ، فقد رأيت ابن أبى وما صنع فى حلفائه ، وأكثروا فى هذا وشبهه وهو لا يتكلم .

ثم قال سعد : قد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم .

فقال الضحاك بن خليفة بن عبد الأشهل الأنصارى : واقوماه .

وقال غيره منهم : نحو ذلك ، ثم رجع إلى الأوس فنعى لهم قريظة .

فلما جاء سعد إلى رسول الله ﷺ والناس حوله قال : قوموا إلى سيدكم ! فقاموا له على أرجلهم صفين يحييه كل منهم .

وقالت الأوس الذين حضروا : يا أبا عمرو ! إن رسول الله ﷺ قد ولاك الحكم فأحسن فيهم ، واذكر بلاءهم عندك .

فقال سعد : أترضون بحكمى لبنى قريظة ؟

قالوا : نعم .

فاخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن الحكم ما حكم ، ثم قال : فإنى أحكم فيهم أن يقتل من جرت عليه الموسى ، وتسبى النساء والذرية ، وتقسم الأموال .

فقال رسول الله ﷺ : لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات[٢] .

---

(١) المغازى جـ٢ صـ٥٠٩ ، ٥١٠

(٢) المغازى جـ٣ صـ٥١١ ، ٥١٢

فنفذ رسول الله ﷺ حكم الله تعالى ، فقتل من بلغ منهم ، وضرب رسول الله ﷺ عنق كعب بن أسد وهو بين يديه ، وأمر لــ " نُبَانة " امرأة الحكم القرظى ، وهى من السبى ، فقتلت لأنها ألقت من حصن الزبير بن باطا رحى بإشارة زوجها على نفر من المسلمين كانوا يستظلون فى فيئة ، فشحذت رأس خلاد بن سويد بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مالك الأغر فمات ، وأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أنبت منهم بعدما وزعهم على المهاجرين والأنصار ، كما أمر بترك من لم ينبت ، وتمادى القتل فيهم إلى الليل فقتلوا على شعل السعف ، ثم رد عليهم التراب فى الخنادق ، وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة والخمسين ، ولما قتلوا صاحت نساؤهم ، وشقوا جيوبهم ، ونشروا شعورهم وضربوا خدودهم وملأوا المدينة عويلاً وصراخاً[١] .

وأمر النبى ﷺ بتقسيم الأموال، والنساء والذرارى قسمة الفئ حيث كان الخمس لله، ورسوله، والأربعة أخماس الباقية للناس يسهمها عليهم ، وقد أعطى رسول الله الفارس ثلاثة أسهم ، والراجل سهماً واحداً [٢].

ووصى رسول الله ﷺ بالرفق بالأسارى ، وأمر بأن لا يفرق بين الأم وأولادها ، ولا بين الأخوات ... وعرض رسول الله ﷺ الإسلام على الأسرى فمن أسلم باعه إلى صحابى مسلم ، ومن أبى أمر ببيعه فى الشام إلى يهودى ، وإذا كان الأسير لا أم له ولا أخوة فإنه يباع لرجل مسلم فى المدينة .

وأرسل النبى ﷺ طائفة من الأسرى فبيعت فى نجد ، وطائفة أخرى بيعت فى الشام وأوصى ﷺ بشراء أسلحة بثمنها .

واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه ريحانه بنت زيد ، فلما أسلمت ملكها ، ودخل بها [٣].

وتخلص المسلمون من بؤرة خطيرة ، هددت أمن المسلمين ، كانت دائمة التآمر للفتك برسول الله ﷺ وأصحابه ، وقد أعدوا عدهم بالسلاح الضخم الذى استولى عليه المسلمون.

---

(١) المغازى جـ٣ صـ٥١٦-٥١٧ بتصرف

(٢) سيرة النبى جـ٢ صـ٢٤٤

(٣) المغازى جـ٣ صـ٥٢١

وقتل رسول الله ﷺ مع بنى قريظة حيى بن أخطب بعدما دخل معهم فى حصنهم ، وفاء لما عاهدهم عليه يوم أن ضمهم إلى الأحزاب .

وقال له رسول الله ﷺ قبل مقتله : **ألم يمكن الله منك يا عدو الله ؟**

فقال : **بلى والله ما لمت نفسى فى عداوتك ، ولقد التمست العز فى مظانه ، وأبى الله إلا أن يمكنك منى ، ولقد قلقلت كل مقلقل ، ولكنه من يخذل الله يخذل** ، **ثم أقبل على الناس** ، **فقال** : أيها الناس : **لا بأس بأمر الله ، قدر وكتاب ، ملحمة كتبت على بنى إسرائيل** [١].

و لم يقتل من النساء إلا واحدة هى زوجة الحكم القرظى ، واستشهد من المسلمين يوم بنى قريظة ، رجلان هما : **خلاد بن سويد من الخزرج** ، **وأبو سفيان بن محصن** ، ودفن الأول فى البقيع ، ودفن الثانى فى ديار بنى قريظة [٢].

ولما تم أمر بنى قريظة استجاب الله دعوة سعد بن معاذ الذى جرح يوم أحد وحكم فى بنى قريظة بحكم الله ثم قال : **اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلى أن أجاهد فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه ، اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقى من حرب قريش شئ فأبقنى له حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتى فيها فقد أقررت عينى من بنى قريظة** [٣]

وكان رسول الله ﷺ قد وضعه بعد أحد يعالج فى المسجد ، فى خيمة أقامها لعلاج الجرحى ، وهى الخيمة المعروفة **بخيمة "رفيدة بنت سعد الأسلمية"** ، وقد أتى به الأوس من الخيمة ، وأركبوه حماراً ليحكم فى بنى قريظة ، فلما تم الأمر وعاد سعد إلى الخيمة انفجر جرحه ومات ﷺ ، فحمل إلى بيته ، فغسل وكفن وصلى عليه رسول الله ﷺ ومشى أمام جنازته ، ويعد سعد ﷺ من شهداء أحد [٤].

يروى الواقدى بسنده عن جابر بن عبد الله قال : لما انتهى رسول الله وصحابته إلى

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٢٤٨

(٢) الفتح الربانى بترتيب مسند أحمد الشيبانى جـ٢١ صـ٨٥

(٣) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرجع النبى من الأحزاب جـ٦ صـ٢٣١

(٤) المغازى جـ٣ صـ٥١٣

قبر سعد نزل فيه أربعة نفر : **الحارث بن أوس بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وأبو نائلة وسلمة بن سلامة** ، ورسول الله ﷺ واقف على قدميه عند قبره ، فلما وضع فى لحده تغير وجه رسول الله ﷺ ، وسبح ثلاثاً ، فسبح المسلمون ثلاثاً حتى ارتج البقيع بتسبيحهم ، ثم كبر رسول الله ﷺ ثلاثاً ، وكبر أصحابه ثلاثاً حتى ارتج البقيع بتكبيرهم ، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فقيل : **يا رسول الله رأينا لوجهك تغيراً وسبحت ثلاثاً وكبرت ثلاثاً** .

قال ﷺ : تضايق على صاحبكم قبره ، وضم ضمة لو نجا منها أحد لنجا منها **سعد** ، ثم فرج الله عنه [١] .

وجاءت أم سعد ، **وهى كبشة بنت عبيد** ، تنظر إلى سعد ولدها فى اللحد ، **فردها الناس** .

فقال رسول الله ﷺ : **دعوها** .

فأقبلت حتى نظرت إليه ، وهو فى اللحد قبل أن يبنى عليه اللبن والتراب ، ثم قالت : أحتسبك عند الله ، وعزاها رسول الله ﷺ على قبره ، وجعل المسلمون يردون تراب القبر ويسوونه ، وتنحى رسول الله ﷺ فجلس حتى سوى على قبره ورش عليه الماء ، ثم أقبل فوقف عليه فدعا له ، ثم انصرف .

يقول أبو سعيد الخدرى ﷺ : كنت مع من حفر قبر سعد بن معاذ ، وكان يفوح علينا المسك كلما حفرنا تراب قبره [٢] .

يروى البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : **اهتز عرش الرحمن لموت سعد** [٣] ..... وفى الترمذى عن أنس بن مالك : **إنه لما حملت جنازة سعد قال المنافقون ما أخف جنازته ، وفسروا ذلك بسبب قتله بنى قريظة** .

فقال ﷺ لهم : إن الملائكة كانت تحمله[٤] .

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ١ صـ٢٩٠

(٢) سير أعلام النبلاء جـ١ صـ٢٩٥

(٣) صحيح البخارى كتاب مناقب الأنصار باب مناقب سعد جـ١ صـ١٥٦

(٤) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب جـ٦ صـ٢٣١

- ثانياً -
قتل ابن أبى الحقيق

وابن أبى الحقيق هو سلام بن مشكم بن أبى الحقيق ، ويكنى بـ" أبى رافع " ويعرف بـ"عبد الله بن أبى الحقيق " والذى سماه عبد الله هو قاتله عبد الله بن عتيك وهو أحد زعماء بنى النضير الذين خرجوا إلى خيبر بعد أحد ، وكان من الأعداء الألداء لرسول الله ﷺ وللإسلام ، وقد بدت عداوته بعدما علم بمقتل مقاتلة بنى قريظة حيث قال : هذا كله عمل حيي بن أخطب ، لا قامت يهودية بالحجاز أبداً .

وصاح نساء بنى قريظة وأقمن المآتم وفزعت اليهود إلى سلامٍ ليروا رأيه ، فأشار عليهم بأن يسيروا معه ، ومعهم يهود تيماء ، وفدك ، ووادى القرى ، ولا يجلبوا معهم أحداً من العرب ، حتى يغزوا محمداً فى عقر داره ، فوافقوه على ما رأى ، وأخذ يعد العدة لذلك يقول ابن إسحاق :لما قتلت الأوس كعب بن الأشرف رغب الخزرج فى قتل ابن أبى الحقيق لينالوا ثواب قتله، وحتى لا يسبقهم الأوس فى فضل ، ولأنه أشد عداوة لرسول الله من كعب ، وحتى لا تستمر مؤامرته على محاربة المسلمين ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فأذن لهم (١) .

يروى البخارى بسنده قصة مقتله فيقول : **بعث رسول الله إلى أبى رافع اليهودى رجالاً من الأنصار ، وأمر عليهم عبد الله بن عتيك ، وكان أبو رافع يؤذى رسول الله ﷺ ويعين عليه ، وكان فى حصن له بأرض الحجاز ، فلما دنوا منه ، وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم ، فقال عبد الله لأصحابه ، اجلسوا مكانكم ، فإنى منطلق ومتلطف للبواب لعلى أن أدخل .**

فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجة ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل ، فإنى أريد أن أغلق الباب

يقول عبد الله : فدخلت فكمنت ، فلما دخل الناس أغلق الباب ، ثم علق الأغاليق على وتد فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ، ففتحت الباب .

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ٢٧٣

وكان أبو رافع يسمر عنده ، وكان فى علالى له ، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت باباً أغلقته على من داخل ، فقلت إن القوم إذا نذروا بى لم يخلصوا إلى حتى أقتله .

فانتهيت إليه ، فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله ، لا أدرى أين هو من البيت ، فقلت : أبا رافع ، حتى أعرف مكانه من صوته .

قال : من هذا ؟

فأهويت نحو الصوت فضربته ضربة بالسيف ، وأنا أدهش فما أغنيت شيئاً ، وصاح ، فخرجت من البيت ومكثت غير بعيد ، ثم دخلت إليه فقلت بصوت آخر : ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟

فقال : لأمك الويل ، إن رجلاً فى البيت ضربنى قبل بالسيف ، فعلمت إنى ضربته ضربة أثخنته ولم تقتله ، فوضعت ضبيب السيف فى بطنه حتى أخذ فى ظهره ، فعرفت أنى قتلته .

فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً ، حتى انتهيت إلى درجة السلم ، فوضعت رجلى ، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض ، فوقعت فى ليلة مقمرة ، فانكسرت ساقى ، فعصبتها بعمامة ثم انطلقت، حتى جلست على الباب فقلت لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته أم لا ؟.

فلما صاح الديك قام الناعى على السور ، فقال : أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز

فانطلقت إلى أصحابى فقلت : النجاء ... النجاء ... فقد قتل الله أبا رافع ، فلما انتهيت إلى النبى ﷺ فحدثته ، فقال لى : ابسط رجلك ، فبسطت رجلى فمسحها ، فكأنها لم أشتكها قط [١].

وكان مقتل ابن أبى الحقيق فى ذى الحجة سنة خمس من الهجرة ... وقد أدى مقتله إلى تفرق الجمع الذى كان يعده للهجوم على المدينة ، وعلم اليهود فى خيبر أن المسلمين لهم بالمرصاد ، ولن يتركوهم فى تآمرهم على الإسلام وعلى المسلمين .

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب المغازى باب قتل أبى رافع جـ٦ صـ٢٨١-٢٨٢

ـ ثالثا ـ
سرية محمد بن مسلمة

أعد النبى ﷺ سرية من أصحابه بلغ عددها ثلاثين راكباً، ووجههم إلى " القُرْطَاء" فى أرض نجد ، ناحية خيرية البكرات[١]، وذلك لعشر ليال خلت من المحرم سنة ست من الهجرة .. لتأديب بنى بكر أحد بطون بنى كلاب بعدما تآمروا على قتل رسول الله ﷺ وأعدوا لذلك رجالاً منهم فلما وصلت السرية إلى ديار بنى بكر ، وشعر القوم بها هربوا ، وتركوا أنعامهم وأموالهم فغنم المسلمون منها ما استطاعوا ، وعادوا إلى المدينة فى آخر المحرم ، وتمكنوا عند رجوعهم من أسر رجل من بنى حنيفة يقال له " ثمامة بن آثال " وأحضروه معهم إلى المدينة

يروى أبو هريرة ﷺ قصة ثمامة فيقول : **بعث النبى ﷺ خيلاً قبل نجد ، فجاءت برجل من بنى حنيفة ، يقال له ثمامة بن آثال ، فربطوه بسارية من سوارى المسجد ، فخرج إليه النبى ﷺ فقال : ما عندك يا ثمامة ؟**

فقال : عندى خير يا محمد ، إن تقتلنى تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فاسأل منه ما شئت .

فتركه حتى كان الغد ثم قال له : ما عندك يا ثمامة ؟

قال : ما قلت لك ، إن تنعم تنعم على شاكر .

فتركه حتى كان بعد الغد فقال له : ما عندك يا ثمامة ؟

قال : عندى ما قلت .

قال ﷺ : أطلقوا ثمامة ، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك فأصبح دينك أحب دين إلى ، والله ما كان من بلد أبغض إلى بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إلى ، وإن خيلك أخذتنى ، وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟

---

(١) موضع جهة نجد قريبة من مكة .

فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر .

فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت .

قال : لا ، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ، ولا الله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى ﷺ ، وكانت اليمامة ريف مكة ، فانصرف إلى بلاده ، ومنع الحمل إلى مكة ، حتى جهدت قريش ، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلى لهم حمل الطعام ، ففعل رسول الله ﷺ (١).

وهكذا توجه المسلمون إلى نجد لرفع كلمة الحق ، وإشعار قادة الكفر ، والضلال أن صدهم الناس عن دين الله أمر مرفوض .... والواجب حماية حق الناس ، فى الاعتقاد والتدين ، ومعاملة الذين يصدون عن سبيل الله معاملة المعتدى على حق غيره ، المحارب لحرية الإنسان وكرامته .

ـ رابعاً ـ
غزوة بنى لحيان

بنو لحيان هم الذين غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرجيع ، وتسببوا فى إعدامهم ، ولكن لما كانت ديارهم مجاورة لحدود مكة ، والتارات الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب ، رفض رسول الله ﷺ أن يتوغل فى البلاد بمقربة من العدو الأكبر فى مكة ، فلما تخاذلت الأحزاب ، واستوهنت عزائمهم ، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما ، رأى رسول الله ﷺ أن الوقت قد حان لأن يأخذ من بنى لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع ، فخرج إليهم فى ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ست فى مائتين من أصحابه ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأظهر أنه يريد الشام ، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى " بطن غُرَان " واد بين أمج وعُسفان ، حيث كان مصاب أصحابه ، فترحم عليهم ودعا لهم ، وسمعت بنو لحيان بالمسلمين فهربوا فى رؤوس الجبال ، ولم ير المسلمون منهم أحداً ، فأقام رسول الله ﷺ يومين بأرضهم ، وبعث السرايا إلى جهات عديدة ، ثم سار بالقوم إلى عُسفان ، وبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش بقيادة أبى بكر الصديق ﷺ ، ثم رجع إلى المدينة وهو يقول : **آئبون ، تائبون ،**

---

(١) مختصر السيرة صـ٢٩٣

عابدون ، لربنا حامدون ! اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة على الأهل ! اللهم أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل ، والمال ! اللهم بلغنا بلاغاً صالحاً يبلغ إلى خير ، مغفرة منك ورضواناً [١] **وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة** [٢].

خامساً
غزوة الغابة

وقعت هذه الغزوة عند ماء يعرف بماء "قرد" قريباً من المدينة المنورة ، وسببها أنه كان لرسول الله ﷺ عشرون ناقة ذوات لبن ، ترعى بالغابة حول الماء ، ومعها راع وزوجته ، فأغار عليها عيينة بن محصن الفزارى فقتل الراعى ، وسبى المرأة ، واستولى على اللقاح العشرين ، فلما رآهم سلمة بن الأكوع السلمى عاد ، وأخبر رسول الله ﷺ وصاح فى المسلمين بما وقع .

فلما وقعت الصيحة بالمدينة كان أول من أتى إلى رسول الله ﷺ من الفرسان **المقداد بن عمرو ، ثم عباد بن بشر الأشهلى ، وأسيد بن حضير أخو بنى حارثة ، وعكاشة بن محصن ، ومحرز بن نضلة الأسدى الأخرم ، وأبو قتادة الحارث بن ربعى ، وأبو عياش عبيد بن زيد بن صامت الزرقى** ، فلما اجتمعوا أمَّر رسول الله ﷺ عليهم **سعيد بن زيد من بنى عبد الأشهل** ، وأعطى ﷺ فرس أبى عياش معاذ بن معاص ، وكان أحكم للفروسية من أبى عياش وسار النبى ﷺ معهم حتى واجه المشركين .

وكان أول من واجه المشركين محرز بن نضلة الأخرم فقتلوه رحمه الله ، ولحق أبو قتادة بقاتله فقتله ، وولى المشركون منهزمين ، وتركوا خلفهم لقاح رسول الله ﷺ .

ولما بلغ رسول الله ﷺ ماء يقال له "ذو قرد" استرد إبله، ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة ، وأقام ﷺ يوماً وليلة ، ثم رجع إلى المدينة ، وصلى النبى ﷺ بالمسلمين صلاة الخوف لأول مرة عند "ذى قرد" يقول ابن عباس ﷺ : **قام رسول الله ﷺ إلى القبلة ، وصف طائفة خلفه ، وطائفة مواجهة العدو ، فصلى بالطائفة التى خلفه ، ركعة**

---

(١) المغازى جـ٢ صـ٥٣٧

(٢) الرحيق المختوم صـ٣٢١

وسجدتين ، ثم انصرفوا فقاموا مقام أصحابهم ، وأقبل الآخرون فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة وسجدتين فكان لرسول الله ﷺ ركعتان ولكل رجل من الطائفتين ركعة ، فلما سلم رسول الله ﷺ أقبلت كل طائفة وصلت الركعة الباقية لتتم صلاتهم جميعاً ، وأقبلت امرأة الغفارى على ناقة رسول الله ﷺ ، فلما أتت المدينة نذرت أن تنحرها ، فأخبرها رسول الله ﷺ أنه لا نذر لأحد فى معصية الله ، ولا فيما لا يملك ، وأخذ ﷺ ناقته (1).

وقد استشهد من المسلمين مُحرْز بن نَضْلَة ﷺ ، وقتل من المشركين مسعدة بن حكمة ، وأوثار ، وابنه عمرو بن أوثار ، وحبيب بن عيينة .

سادساً

سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر

بعث رسول الله ﷺ عكاشة بن محصن فى أربعين رجلاً من الصحابة فى شهر ربيع الأول سنة ست إلى "الغمر" وهو ماء لبنى سعد .

أسرع عكاشة ورجاله إلى الغمر ، فلما علم القوم به تركوا ماءهم ، وفروا إلى الجبال .... وتركوا بعض نعمهم ، فأخذ منها المسلمون مائتين ، وعادوا إلى المدينة

سابعاً

السرايا إلى ذى القصة

أخذ بنو ثعلبة يغيرون على سرح المسلمين فى المدينة فأرسل رسول الله ﷺ إليهم محمد بن مسلمة ﷺ **-أولاً-** فى عشرة رجال من الصحابة ، فى ربيع الأول سنة ست ، فكمن لهم القوم عند مائهم **"ذى القصة"** حتى ناموا فأحدقوا بهم ، وكان عددهم مائة ، فما شعر المسلمون إلا والنبال تأتيهم من كل جانب ... واستمر الرمى حتى قتل المشركون المسلمين جميعاً ما عدا محمد بن مسلمة ، فإنه أفلت ، وتمكن من الرجوع إلى المدينة وأخبر الرسول ﷺ بما حدث له ، ولأصحابه .

فأرسل الرسول ﷺ **سرية ثانية إلى بنى ثعلبة فى "ذى القصة " فى ربيع الآخر مكونة من أربعين صحابياً بقيادة عبيدة بن الجراح ﷺ .**

ونظراً ليقظة بنى ثعلبة ، وتتبعهم لأخبار المسلمين صلى أفراد السرية المغرب بالمدينة

---

(١) مختصر السيرة صـ٢٩٣ .

المنورة حتى لا يشعر بهم أحد ، ثم أخذوا فى المسير بعد المغرب متجهين إلى "ذى القصة " واستمروا فى السير طوال الليل ، فوافوها قبيل طلوع الشمس ، وفاجأوا القوم بالإغارة عليهم ، ففر القوم هاربين إلى التلال والجبال ، وتركوا إبلهم وغنمهم ، فغنم المسلمين إبلاً وغنماً وأسروا رجلاً واحداً ، ثم عادوا إلى المدينة بما غنموا ، وقد أسلم الرجل عند رسول الله ﷺ فتركه ﷺ .

ثامناً

سرايا_زيد بن حارثة ﷺ

تميز زيد بن حارثة بالشجاعة والإقدام ، والإخلاص فى طاعة الله ورسوله ولذلك اختاره الرسول ﷺ لقيادة عدد من السرايا ، خلال فترة ما بعد الخندق ، وهى :

١) سرية زيد إلى الجموم :

والجموم ماء لبنى سليم فى مر الظهران ، قرب مكة ، خرج زيد إليها فى عدد من أصحاب النبى ﷺ فأصاب امرأة من مزينة دلتهم على محلة "بنى سليم " فذهبوا إليها ، وأخذوا منها غنماً ، وإبلاً ، وبعض الأسرى ، وعادوا إلى المدينة (١) وقد أسلمت المرأة وزوَّجها النبى ﷺ من أحد أصحابه (٢) .

٢) سرية زيد إلى العيص (٣):

بعث النبى ﷺ فى جمادى الأولى سنة ست زيد بن حارثة فى مائة وسبعين رجلاً من أصحابه لمقاتلة قافلة لقريش راجعة من الشام بتجارات لهم ، فالتقت بهم عند العيص ، واستولت على الأموال ، وأسروا بعض الرجال منهم أبو العاص بن الربيع ، زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ، وكان الرسول قد فرق بينهما .

وكان أبو العاص رجلاً مأموناً ، يتاجر لقريش فى مالها ... فلما قدم المدينة أسيراً دخل على زينب سحراً فاستجارها فأجارته ، فلما صلى رسول الله ﷺ الفجر قامت زينب على بابها ، فنادت بأعلى صوتها وقالت : **إنى قد أجرت أبا العاص** .

---

(١) فتوح البلدان جـ١ صـ١٦٤

(٢) الطبقات الكبرى جـ٢ صـ٨٦

(٣) العيص واد بين مكة ، والمدينة .

فقال رسول الله ﷺ : أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟

قالوا : نعم .

قال ﷺ : فوالذى نفسى بيده ، ما علمت بشئ مما كان حتى سمعت الذى سمعتم المؤمنون يد على من سواهم ، يجير عليهم أدناهم ، وقد أجرنا من أجارت .

فلما انصرف النبى ﷺ إلى منزلة دخلت عليه زينب فسألته أن يرد إلى أبى العاص ابن الربيع ما أخذ منه من المال ، ففعل وأمرها ألا يقربها ، فإنها لا تحل له ما دام مشركاً ، ثم كلم رسول الله ﷺ أصحابه ، وكان مع أبى الربيع بضائع لغير واحد من قريش ، فأدى إليه الصحابة إليه كل شئ ، حتى إنهم ليردون الإداوة ، والحبل ، حتى لم يبق شئ، ورجع أبـــو العاص إلى مـــكة فأدى إلى كل ذى حق حقه ثم قال : يا معشر قريش ، هل بقى لأحد منكم شئ ؟

قالوا : لا والله .

قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، لقد أسلمت بالمدينة، وما منعنى أن أقيم بالمدينة إلا أنى خشيت أن تظنوا أنى أسلمت لأذهب بالذى لكم ، ثم رجع إلى النبى ﷺ فرد عليه زينب بالنكاح الأول [1]

٣) سرية زيد إلى الطرف :

والطرف ماء لبنى ثعلبه يقع على بعد ستة وثلاثين ميلاً عن المدينة ، بعث الرسول ﷺ إلى أهله زيداً فى خمسة عشر رجلاً من الصحابة ، فهرب الناس لما علموا بمقدم المسلمين ، وأصاب منهم زيد بعض الإبل ، ورجع إلى المدينة فى جمادى الأخرة سنة ست بعد أن غاب عنها أربع ليال [2] .

٤) سرية زيد إلى وداى القرى :

فى رجب سنة ست خرج زيد إلى وادى القرى ومعه اثنا عشر رجلاً من الصحابة ، لاستكشاف حركات الأعراب فهجم عليهم سكان وادى القرى ، وقتلوا منهم تســـعة

---

(١) سنن أبى داود باب إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها جـ٣ صـ١٥٠ ، ١٥١ ، والمغازى جـ٣ صـ٥٥٣ ، ٥٥٤

(٢) المغازى جـ٣ صـ٥٥٤

وعاد الناجون إلى المدينة ، وفيهم زيد بن حارثة [١].

ـ تاسعاً ـ

غزوة بنى المصطلق

وتعرف بغزوة المريسيع [٢] وكان وقوعها فى شعبان سنة ست للهجرة بعد الخندق **على الصحيح** ، ودليل ذلك أن آية الحجاب نزلت فى شأن زينب بنت جحش رضى الله عنها بعد زواجها من رسول الله ﷺ ، ولذلك سألها ﷺ عن الإفك الذى دار حول عائشة رضى الله عنها فقالت : **احمى سمعى وبصرى** .... وقالت عنها عائشة رضى الله عنها ، **وهى التى كانت تساميني من أزواج النبى ﷺ** .

وحادثة الإفك كانت أثناء العودة من غزوة بنى المصطلق **ونزول آية الحجاب كان بعد زواج زينب** ، وزواج زينب كان فى ذى القعدة من السنة الخامسة فإذا ما علم أن حادثة الإفك كانت بعد نزول آية الحجاب ، إذا علم ذلك صح أن "غزوة المريسيع " كانت فى السنة السادسة بعد الخندق[٣] .

وسبب هذه الغزوة أن الحارث بن ضرار زعيم بنى المصطلق سار فى قومه ، ومن قدر عليه من العرب ، يريدون حرب رسول الله ﷺ فى المدينة ، وأخذوا فى إعداد العدة لذلك ... فبعث رسول الله ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمى ليعلم خبرهم .... فلما رأى تجمعهم واستعدادهم عاد لرسول الله ﷺ وأخبره بما رأى ، فندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم ، فأسرعوا بالخروج مع رسول الله ﷺ بعد أن أمَّر على المدينة زيد بن حارثة .

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع فنزله ، وضرب قبة من أدم ، وكان معه من نسائه عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما .

اجتمع المسلمون على الماء ، وأعدوا وتهيأوا للقتال ، وصف رسول الله ﷺ أصحابه ودفع راية المهاجرين إلى أبى بكر ﷺ وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة ﷺ ، ويقال كان مع عمار بن ياسر ﷺ راية المهاجرين .

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٢ صـ٨٩

(٢) المريسع : بضم الميم ، وفتح الراء مصغرا اسم لماء خزاعة بينه وبين المدينة ما يقرب من سبعين ميلاً .

(٣) انظر سيرة ابن هشام جـ٢ صـ٢٨٩

ثم أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ أن ينادى فنادى فى الناس : **قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم ، وأموالكم ، ففعل عمر ﷺ فأبوا الإذعان فرماهم .**

وكان عمر أول من رمى من المسلمين ثم إن رسول الله ﷺ أمر أصحابه أن يحملوا عليهم فحملوا حملة رجل واحد فما أفلت إنسان من بنى المصطلق ، وقتل عشرة منهم وأسر سائرهم ، وسبى رسول الله ﷺ الرجال ، والنساء والذرية وغنمت النعم والشاء ، وما قتل أحد من المسلمين إلا رجل واحد يقال له **هشام بن صبابة** ﷺ [(١)].

وكان من جملة السبى جويرية بنت الحارث سيد القوم ، وقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبها ، فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها .

وقد شعر المنافقون بافتضاح أمرهم فى غزوة الأحزاب ، فجمعوا جموعهم وأرادوا خلخلة الصف الإسلامى بالإشاعات ، وزرع جذور الوهن ، وأخذوا يتحينون الفرص لبث أكاذيبهم ، **وكان أول هذه الفرص بعد غزوة الأحزاب فى زواج رسول الله ﷺ "زينب بنت جحش" رضى الله عنها حيث أخذوا يذكرون للناس أنها الزوجة الخامسة لرسول الله ﷺ وهذا لا يجوز ، وقالوا : إن محمداً أحبها وهى تحت زيد ، فأمر ﷺ زيداً أن يطلقها ليتزوجها ، وهذا كذب وضحناه قبل** [(٢)] **ورد الله عليه فى قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾** [(٣)]

وانتهز المنافقون خروج المسلمين إلى بنى المصطلق فخرجوا معهم فى أعداد كبيرة ، وتظاهروا بانصهارهم فى الصف الإسلامى ، وأخذوا يتحينون الفرصة لتحقيق ما خرجوا له .

يقول المقريزى : وبينما المسلمون على ماء المريسيع إذ أقبل **"سنان بن وبر الجهنى"** حليف الأنصار ومعه فتيان من بنى سالم يستقون ، وعلى الماء جمع من المهاجرين والأنصار فأدلى دلوه ، وأدلى " جهجاة بن مسعود" أجير عمر بن الخطاب ﷺ دلوه ،

---

(١) المغازى جـ١ صـ٤٠٧

(٢) انظر صـ١٢٨-١٣١

(٣) سورة الأحزاب الآية ١

فالتبست دلو سنان ودلو جهجاه ، وتنازعا فضرب جهجاه سناناً فسال دم سنان فنادى: يا للخزرج ، وثارت الرجال ، فهرب جهجاه إلى قومه وجعل ينادى فى العسكر: يا لقـــريش ، يا لكنانة ، فأقبلت قريش وأقبلت الأوس والخزرج ، وشهروا السـلاح حتى كــادت أن تكون فتنة عظيمة ، فقام رجال فى الصلح فترك سنان حقه

وانتهز عبد الله بن أبى الموقف وكان جالساً فى عشرة من المنافقين فغضب وقال : والله ما رأيت كاليوم مذلة ، والله إنى كنت لكارهاً لوجهى هذا ولكن قومى قد غلبونى قد فعلوها ، قد نافرونا ، وكاثرونا فى بلدنا ، وأنكروا منتنا ، والله ماصرنا وجلاليب قريش هذه إلا كما قال القائل " **سمن كلبك يأكلك** " والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما هتف به جهجاه ، وأنا حاضر لا يكون لذلك منى غير " **والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل** " .

ثم أقبل ابن أبى على من حضر من قومه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وأنزلتموهم منازلكم ، وآسيتموهم فى أموالكم حتى استغنوا أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم ، ثم لم ترضوا ما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونهم ، فأيتمتم أولادكم ، وقللتم عددكم وكثروا [١].

أخبر زيد بن أرقم رسول الله بما رأى وسمع فتغير وجه رسول الله واستوثق منه وأبى على أصحابه قتل ابن أبى حتى لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه .

وجاء ابن أبى ينفى صدور ماذكر عنه فنزل قوله تعالى ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [٢] .

وقطعاً لهذه الفتنة ، ومنعاً للخوض فيها بادر رسول الله ﷺ بالعودة إلى المدينة أثناء الحر الشديد ، وكان ﷺ لا يروح حتى يبرد الجو .

وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبى ﷺ لرسول الله ﷺ وقال له : **إن كنت تريد أن**

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ١٩٩

(٢) سورة المنافقون الآية ١

تقتل أبي فيما بلغك عنه فمرني به ، فوالله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، والله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبر بوالده مني ، وإني لأخشى يا رسول الله أن تأمر غيري فيقتله فتدعوني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي فاقتله فأدخل النار وعفوك أفضل ، ومنك أعظم .

فقال رسول الله ﷺ : ما أردت قتله ، وما أمرت به ، ولنحسن صحبته ما كان بين أظهرنا .

فقال عبد الله : إن أبي كانت هذه البحيرة قد اتسقوا عليه ليتوجوه ، فجاء الله بك فوضعه ورفعنا بك ، ومعه قوم يطيفون به يذكرونه أموراً قد غلب الله عليها[1] .

وانتهز المنافقون حادثة أخرى وقعت حين رجوع المسلمين من المريسيع هي "حادثة الإفك " التي ظهرت بين المسلمين فتلقفها ابن أبي ، وتولى كبر إذاعتها ونشرها وكما أخزاه الله تعالى بنزول القرآن الكريم في تأكيد كذبه في المرة الأولى ... أخزاه مرة أخرى بنزول براءة السيدة عائشة رضي الله عنها من فوق سبع سماوات[2] .

وسجل القرآن الكريم هذين الموقفين ليعلم المؤمنون طبائع المنافقين ، وليأخذوا حذرهم الدائم منهم .

وزاد الله خزي المنافقين مرة أخرى ، فإنه لما نزل المسلمون عند ماء يقال له "بَقْعَاءَ" أخذتهم ريح شديدة ، استمرت إلى أن زالت الشمس ثم هدأت ، وخاف المسلمون أن تكون هذه الريح لمواجهة "عيينة بن حصين" ظناً منهم أن يهاجم ظهورهم في المدينة ، فقال لهم ﷺ : ليس عليكم بأس منها فما بالمدينة من نقب إلا عليه ملك يحرسه ، وما كان ليدخلها عدو حتى تأتوها ، ولكنه مات اليوم منافق عظيم النفاق وهو "رفاعة بن زيد بن التابوت" وكانت هذه الريح أيضاً بالمدينة حتى دفن عدو الله فسكت.

وقال عبادة بن الصامت يومئذ لابن أبي : مات خليلك .

قال : أي أخلائي .

---

(١) سيرة النبي جـ٢ صـ٢٩٣

(٢) هذه الحادثة هي حادثة الإفك التي سبق ذكرها في صـ١٦٢-١٦٥ عند الحديث عن حسن معاملة رسول الله ﷺ لزوجاته رضي الله عنهن .

قال : من موته فتح للإسلام وأهله ، رفاعة بن زيد بن التابوت .

قال : يا ويلاه ، كان والله وكان وكان ، وجعل يذكر .

فقال له عبادة : اعتصمت والله بالذنب الأبتر .

قال : من خبرك يا أبا الوليد بموته ؟

قال : رسول الله أخبرنا الساعة ، أنه مات هذه الساعة ، فأسقط فى يديه ، وانصرف كئيباً حزيناً ، فلما دخلوا المدينة وجدوا عدو الله مات فى تلك الساعة (١).

وهكذا انتهت مؤامرات المنافقين فى المدينة كما انتهت ألاعيب اليهود .

ـ عاشراً ـ
السرايا بعد غزوة بنى المصطلق

واصل النبى ﷺ إرسال السرايا بعد غزوة بنى المصطلق تأميناً للحركة داخل الجزيرة العربية ، وإرهاب الفلول المتناثرة التى تتحرك بتأثير اليهود و المنافقين ... وأهم هـــذه **السرايا ما يلى :**

أ) سرية **عبد الرحمن بن عوف** رضي الله عنه **إلى ديار بنى كلب** فى دومة الجندل فى شعبان سنة ست للهجرة لدعوتهم إلى الإسلام بسبب إظهارهم العداوة لرسول الله ﷺ ، وصد الناس عن الإسلام .... وقد أسلم فريق منهم ، وتزوج عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه تماضر بنت الأصبع بعد أن أذن له رسول الله ﷺ .

ب) سرية **على بن أبى طالب** رضي الله عنه **إلى بنى سعد بن بكر** بفدك فى شعبان من نفس السنة ومعه مائة صحابى وسببها أن بنى سعد حاولوا إمداد اليهود بالمؤن والسلاح على أن **يأخذوا** منهم بعض تمر خيبر .

جـ) سرية **كرز بن جابر الفهرى إلى العرنيين** فى شوال سنة ست ، وسببها أن رهطاً من عكل ، وعرينة أظهروا الإسلام وأقاموا بالمدينة فمرضوا فبعثهم رسول الله ﷺ مع الرعاة لرعى الإبل ، فلما صحوا قتلوا الراعى ، وأخذوا الإبل ، فأرسل الرسول ﷺ **كرز بن جابر** فى عشرين من الصحابة حتى أدركوهم ، وأحضروهم إلى المدينة فأقام عليهم رسول الله ﷺ حد الحرابة، فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، جـــزاء وفاقاً على عداوتهـــم ،

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٢٠٤

وعدوانهم وقتلهم الراعى ، وأخذهم الإبل [١].

ـ حادى عشر ـ
حركة الدعوة خلال المرحلة
ما بين الأحزاب ، والحديبية

أخذت الحركة بالإسلام بعد الأحزاب تنشط وتتسع ، فوصلت إلى كل قبائل الجزيرة العربية ، لأنهم جميعاً تأثروا بهزيمة الأحزاب ، وشعروا بضعف وضعهم فأخذوا يعملون بعصبية يملكهم الخوف ، ويسيطر عليهم الفزع .... وقد رأيناهم يتآمرون ولا يصمدون يتعاونون ويتفرقون ، يقتلون ولا ينتظرون ... فكان لابد من مواجهتهم ، والذهاب إليهم ليثوبوا لرشدهم ، ويعرفوا حجمهم وقوتهم ، ويبتعدوا عن العدوان والفساد ، ويلتزموا بمراعاة حق الآخرين ، ويبتعدوا عن همجيتهم السابقة .

وتعد سرايا ما بعد الأحزاب حملات تطهير للفساد الموجود فى الجزيرة العربية ، وتخلص من عدوان الطغاة ، وإسكات صوت البغى وقهر العدوان قبل ظهوره .

وقد أدت هذه الغزوات والسرايا دورها ، وقامت بتحقيق الهدف منها .

صحيح أن القبائل لم تدخل فى الإسلام ، لكن الحركة صارت آمنة ، وأصبح صوت الإسلام عالياً ، وأخذ الناس يشعرون بحرية القول ، وحرية الإستماع ، وحرية التفكير ، وحرية اتخاذ القرار ، وهذا هو المطلوب فقط .

فى هذه المدة تزوج النبى ﷺ أربعاً من زوجاته هن :

١) زينب بنت جحش رضى الله عنها تزوجها ليبطل عادة العرب فى نكاح زوجة الإبن المتبنى بعد طلاقها .

٢) أم حبيبة بنت أبى سفيان رضى الله عنها لتعويضها بعد فراق زوجها ، ولتطييب نفس أبيها وقومها ، ومما يدل على وقع زواج النبى ﷺ من أم حبيبة رضى الله عنها على أبى سفيان أن أبا سفيان بعد إسلامه عرض على النبى ﷺ أن يزوجه أختها لسروره بذلك فعرفه النبى ﷺ حرمة الجمع بين الأختين ، وقد أشار الله تعالى إلى هذا الأثر فى قوله سبحانه ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٦٠٢

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١]

٣) جويرية بنت الحارث رضى الله عنها من بنى المصطلق وكانت خيراً على أهلها جميعاً حيث صاروا أحراراً بسببها .

٤) صفية بنت حيي بن أخطب رضى الله عنها بنت زعيم يهود بنى قريظة لتأكيد صلة المسلمين بأهل الكتاب ، ولبيان ما فى الإسلام من خير للجميع .

ومن هذا الباب دخوله ﷺ بـــ"ريحانة بنت زيد" القرظية ، وزواجه من مارية القبطية أم ولده إبراهيم ﷺ .

وفيما فعله النبى ﷺ درس للدعاة من بعده ﷺ ليوسعوا صدورهم فى تقبل الآخر ، وعدم الإنغلاق على الذات ، والنظر إلى غير المسلمين على أساس أهم أرض خصبة لانتشار الإسلام ، وعليهم أن يحسنوا فهم الإسلام ، وأن يحسنوا عرضه بمنهج رسول الله ﷺ .

وخلال هذه المرحلة تعلم المسلمون من وحى الله ، ومن عمل رسول الله ﷺ الأحكام التالية :

- ضرورة قضاء الصلاة إن فات وقتها مرتبة بآذان واحد وإقامة لكل صلاة كما فعل رسول الله ﷺ فى قضاء ما فات المسلمين من صلاة يوم الخندق حيث صـــلاها فى ديار بنى قريظة .

- تعلموا أحكام صلاة الخوف ، وأدوها خلف رسول الله ﷺ وعلموا كيفيتها ، وشروطها ، وكل ما يتعلق بها من أحكام ، وقد صلاها النبى وأصحابه عند " ذى قرد " فى غزوة الغابة .

- أدوا صلاة القصر فى سراياهم وغزواهم البعيدة كما تعلموها من رسول الله ﷺ

-نزلت آية التيمم حين رجوع المسلمين من بنى المصطلق لأن رسول الله ﷺ لما افتقد عائشة رضى الله عنها ، ونزل مترلا شحيح الماء ... ضجر الناس فترلت آية التيمم بعد طلوع الفجر [٢] وهى قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ

---

(١) سورة الممتحنة الآية ٧

(٢) إمتاع الإسماع جـــ١ صـــ٢٠٤

وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

- تعلم الصحابة الجمع بين الصلاتين أثناء السفر جمع تقديم ، أو جمع تأخير .

- حمى رسول الله ﷺ النقيع لفقراء المدينة لما فيه من سعة و كلأ ، وقد أمر رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعه ﷺ يحفر بئر فيه، وبتحديد جهاته الأربع بمدى وصول صوت المؤذن .

- أقام النبى ﷺ حد الحرابة على هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام وغدروا بالمسلمين فقتلوا الراعى واستاقوا الإبل (٢) بعد نزول قول الله تعالى ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

وقد أقيم الحد فقطعت الأيدى والأرجل من خلاف فلم تثمل عين ، و لم تحدث مثله و لم يقطع لسان .

وفرض الحج فى هذه المدة على قول .

وبرغم قصر المدة بين الأحزاب ، والحديبية ، وشغلها بالسرايا والغزوات العديدة ، فإنها لم تخل من تعليم النبى ﷺ لأصحابه وتوجيههم إلى مكارم الأخلاق ، ومعالى الأمور ومن ذلك :

- أمرهم بالمحافظة على الصلاة فى وقتها ، وحين سأله رجل من بنى عبد القيس خلال معركة المريسيع **عن أحب الأعمال إلى الله** .

---

(١) سورة المائدة الآية ٦

(٢) إمتاع الإسماع جـ١ صـ٢٠٤

(٣) سورة المائدة الآية ٣٣

قال له ﷺ : **الصلاة فى أول الوقت .**

– أمر رسول الله ﷺ أصحابه بدعاء الله تعالى فى الحضر والسفر ، وعلمهم دعاء السفر الذى سبق ذكره .

– وجههم إلى أن المسلمين إخوة ، وأنهم يد على من سواهم ، وهم جميعاً يجيرون من أجاره أحدهم ، فلقد أجاروا جميعاً أبا العاص بن الربيع بعدما أجارته زينب رضى الله عنها .

– أباح ﷺ للمحارب الزواج أثناء الغزوة كما تزوج عبد الرحمن بن عوف لما فى الزواج من فوائد عديدة للرجل ، وللدعوة وللأمة كلها .

– نهى صلى الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً إذا عاد من سفر ، ذلك أن عبد الله ابن رواحه طرق أهله فإذا مع امرأته إنسان ، فظن أنه رجل فرفع سيفه يريد أن يضربهما ثم فكر وادكر ، فغمز امرأته برجله فاستيقظت وصاحت .

فقال : أنا عبد الله ، فمن هذا ؟

قالت : رحيلة ... سمعنا بقدومكم ، فدعوتها تمشطنى فباتت عندى ، فبات وأصبح

فرجع يلقى رسول الله ﷺ وهو سائر بين أبى بكر الصديق ، وبشير بن سعد ﷺ فالتفت ﷺ إلى بشير فقال : يا أبا النعمان ، **إن وجه عبد الله ليخبرك أنه كره طروق أهله فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ** : **خبرك يا ابن رواحة ، فأخبره فقال ﷺ لا تطرقوا النساء ليلاً ، فكان ذلك أول ما نهى عنه رسول الله ﷺ** (١).

– عاش رسول الله ﷺ أثناء غزواته حياته العادية ، فكان يصطحب زوجاته ، وكان يلاعبهم ، ويسابقهم ، وكثيراً ما سبق عائشة وكان ﷺ يداعبها ويتطلف معها ، حدث أن المسلمين أخذوا حوات بن جبير أسيراً إلى رسول الله ﷺ فأبقاه الرسول عند عائشة وقال لها : احتفظى بهذا الأسير ... فلهت عنه فهرب ... فلما جاء النبى ﷺ قال لها : **أين الأسير ؟**

قالت : غفلت عنه فخرج .

---

(١) سنن الترمذى باب ما جاء فى كراهية طروق الرجل أهله ليلاً جـ٥ صـ٦٦

فقال ﷺ : قطع الله يدك .

ودخل رسول الله ﷺ على عائشة فوجدها تقلب يدها ، وتنظر إليها .

فقال لها : مالك .

فقالت : أنظر كيف تقطع يدى .

فقال ﷺ : اللهم إنما أنا بشر أغضب وآسف ، كما يغضب البشر ، فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه بدعوة فاجعلها له رحمة .

وفى وسط الجو الملئ بالأعمال والآمال اهتم المسلمون بكل ما ينزل من الوحى فحفظوا القرآن الكريم ودرسوا السنة ، واعتنوا بتربية أبنائهم وبناتهم على منهج الله تعالى وبذلك كانت الحركة الجادة بالإسلام شاملة للداخل والخارج فى إنسجام وتكامل ... و لم يحدث تقصير ما فى نصح وتوجيه ، أو يقع خلل فى عمل وسلوك ... وإنما كان المجتمع الإسلامى يشبه خلية النحل كل ما فيه يؤدى واجبه على الوجه المطلوب .

وهكذا .

كانت السرايا والغزوات مدرسة لتخريج الرجال ، وتعليم الإسلام وتطبيق أحكام الإسلام ، ودعوة إلى الله تعالى [1] .

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٢٠٤

المبحث العاشر
غـــــزوة الحديبية

أدت الغزوات ، والسرايا العديدة التى وقعت بعد الأحزاب إلى لجوء القبائل إلى السكون ، والإنكفاء على الذات ، وترك ما كان الشيطان يزينه لهم لمهاجمة المسلمين ، والعمل للقضاء على محمد ﷺ وصحبه ...وعلموا أنه لا قبل لهم فى تنفيذ ما أملوا فيه ... ولذلك بدأت مرحلة جديدة للحركة بدعوة الله تعالى وهى مرحلة العمل خارج الجزيرة العربية ... وترك القبائل فى سكونهم الذين يعيشون فيه ، لأنه وسيلتهم للتفكير فى الإسلام ومحمد ﷺ وهو طريقهم إلى اعتناق الإسلام .

فى هذا الجو حدثت " غزوة الحديبية " (١) .

والحديبية مكان قريب من مكة يقع فى شمالها بمقدار ثلاثين ميلاً تقريباً ، وهى قرية متوسطة سميت باسم بئر فيها ، وفيها مسجد الشجرة ، وبعضها فى الحل وبعضها فى الحرم عند الجمهور (٢) .

وتسميتها بـــ " الغزوة " هو من قبيل المجاز ... لأن المسلمين لم يخرجوا من المدينة للقتال ، وإنما خرجوا يريدون العمرة ، كما وعدهم رسول الله ﷺ .... ولذلك ساقوا الهدى أمامهم ، ولبسوا إحرامهم ، و لم يأخذوا سلاحهم ، وما أخذوه من سيوف وضعوه فى أغمادها ..وشبه الحديبية بالغزوة ينحصر فقط فى قيادة رسول الله ﷺ وخروجه معهم .

وأكثر العلماء يرون أن الحديبية كان فى العام السادس من الهجرة وهو قول الزهرى وقتادة موسى بن عقبة ، ومحمد بن إسحاق وابن كثير وغيرهم (٣) .

والحديث عن غزوة الحديبية يحتاج إلى دراسة النقاط التالية :

---

(١) الحديبية بضم الحاء وفتح الدال وسكون الياء قرية صغيرة سميت ببئر فيها وفيها أقام المسلمون مسجد الشجرة فى المكان الذى بايع فيه الرسول ﷺ أصحابه والحديبية تبعد عنه بتسعة أميال تقريباً .

(٢) معجم البلدان جـــ٢ صـــ٢٢٩ ، ٢٣٠

(٣) البداية والنهاية جـــ٤ صـــ١٦٤

- أولاً -
سبب الغزوة

رأى رسول الله ﷺ أنه دخل وأصحابه مكة معتمرين فدخلوا البيت ، وأدوا عمرتهم ، وحلقوا وقصروا رءوسهم ، ورأى أنه أخذ مفتاح الكعبة ودخلها ، ووقف بعرفة [١] ، فلما أخبر أصحابه بما رأى سروا وفرحوا لأنهم يعلمون أن رؤيا رسول الله ﷺ وحى لا يكذب ، فأخذوا يستعدون لهذه الرحلة المحبوبة ، حيث بها يعبدون ربهم ، ويرون موطنهم ، ويقابلون أهليهم ، عسى أن يهديهم الله تعالى .

وأخذ رسول الله ﷺ يعد العدة لأداء العمرة ، فلما جاءه " **بسر بن سفيان بن عمرو الكعبى الخزاعى** " مسلما فى شهر شوال سنة ست هجرية ... قال له ﷺ : **يا بسر لا تبرح حتى تخرج معنا ، فإنا إن شاء الله معتمرون** [٢].

فأقام بسر بالمدينة وأخذ يشترى البدن لرسول الله ﷺ ويضعها فى " ذى جدر"[٣] ترعى حتى يحين موعد سوقها للهدى .

وقد سر المسلمون لبدء حركتهم لدخول مكة لما فى ذلك من أثر معنوى وهم يدخلون مكة بعدما طردوا منها ، وشعورهم بالنصر أمام الجميع ، وإظهار الإسلام لمن يحضر مكة فى الموسم على أساس حقيقته القائمة على تحقيق السلام ، ونشر العدل ، وصيانة حرية الإنسان فى الاعتقاد ، والعمل ... ولذلك بشر رسول الله أصحابه برؤياه

- ثانيا -
التحرك للعمرة

استخلف رسول الله ﷺ على المدينة " عبد الله بن أم مكتوم " ونادى أصحابه للخروج لأداء العمرة ، واستنفر العرب وأهل البوادى ليخرجوا معه ، وأمر بالبدن فأخذت إلى " ذى الحليفة "[٤] وتجهز الجميع لأداء العمرة ، إلا أن كثيراً من الأعــراب

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٨٦

(٢) بسر بضم الباء وسكون السين ، وقيل هو بسر بباء مكسورة وشين ساكنة بعدها .

(٣) واد قريب من المدينة على بعد ستة أميال ، به عشب وكلأ كانت ترعى فيه إبل رسول الله ﷺ .

(٤) ذو الحليفة قرية قريبة من المدينة ، والمسافة بينهما ستة أميال ، وهى الميقات المكانى لأهل المدينة .

أبطأوا فى الخروج معتذرين بعلل واهية [١].

وخرج المسلمون فى يوم الإثنين أول ذى القعدة عام ست للهجرة وبلغ عددهم ألفاً وأربعمائة فى أصح الأقوال [٢] ومعهم أربع نسوة هن أم سلمة ، وأم عمارة وأم منيع أسماء بنت عمر ، وأم عامر الأشهلية [٣] ، وليس معهم سلاح فقال عمر بن الخطاب ﷺ : **يا رسول الله ألم تخش علينا من أبى سفيان بن حرب؟ وأصحابه ولم نأخذ للحرب عدتها ؟**

فقال ﷺ : ما أدرى : ولست أحب أن أحمل السلاح معتمراً .

وقال سعد بن عبادة : لو حملنا يا رسول الله السلاح معنا ، فإن رأينا من القوم ريباً كنا معدين لهم .

فقال ﷺ : لست أحمل السلاح ، إنما خرجت معتمراً [٤].

ونوى المسلمون السفر إلى مكة فدخلوا المسجد النبوى ، وصلى رسول الله ﷺ ركعتين ثم أحرم ، وركب راحلته ، وأخذ يلبى بأربع كلمات هى " **لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك** " وأحرم عامة المسلمين بإحرامه ﷺ ومنهم من أخر إحرامه فأحرم من ذى الحليفة وهى ميقات أهل المدينة [٥].

وقلد المسلمون الهدى بذى الحليفة ، وأحرم من لم يحرم بالعمرة ، وأشعروا البدن ... وبعث رسول الله ﷺ عيناً من خزاعة ليأتيه بخبر أهل مكة ، حتى كان بعسفان جاءه من أخبره بموقف قريش [٦] .

أتاه " بسر بن سفيان الكعبى " وكان قد سبق بالهدى فقال : **يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا ومعهم " العوذ المطافيل "** [٧] **قد لبسوا جلود**

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ٣٠٨

(٢) صحيح البخارى ك المغازى باب غزوة الحديبية جـ٦ صـ٣٥٣ ، ٣٥٤

(٣) المغازى جـ٢ صـ٥٧٤

(٤) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٢٧٥

(٥) المغازى جـ٢ صـ٥٧٤

(٦) صحيح البخارى ك المغازى باب غزوة الحديبية جـ٦ صـ٣٥٦

(٧) العوذ الإبل والظباء ، والمطافيل التى معها أطفالها وذراريها وهذه استعارة تشير إلى خروج المكيين بنسائهم وأطفالهم .

النمور ، وقد نزلوا بذى طوى [١] يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد ابن الوليد فى خيلهم قد قدموا إلى كراع الغميم [٢] .

ثم قال : **من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم الذى هم فيه [٣] .**

قال رجل من أسلم : **أنا يا رسول الله .**

فسلك الرجل بالمسلمين طريقاً وعراً بين شعاب ملتوية ، فساروا فيه محتملين المشاق ، والصعاب حتى وصلوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى ، وعندها أمر رسول الله ﷺ الناس فقال : **اسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمض فى طريق يوصلنا إلى ثنية المرار "مهبط الحديبية " من أسفل مكة** ، فسلك الجيش ذلك الطريق ، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش ، وخرج رسول الله ﷺ حتى وصل المسلمون إلى ثنية المرار، وعندها بركت ناقته ﷺ فقال الناس : **خلأت .**

فقال ﷺ: **ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها [٤] .**

ثم قال للناس : انزلوا .

قيل له : يا رسول الله ﷺ ما بالوادى ماء ينزل عليه .

فأخرج سهماً من كنانته فاعطاه رجلاً من أصحابه ، فنزل به فى قليب من تلك القلب فغرزه فى جوفه ، فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن ، وعسكر المسلمون فى الحديبية منتظرين أن يأذن رسول الله ﷺ لهم لأداء العمرة [٥] .

ـ ثالثاً ـ
المفاوضات مع قريش

بعد استقرار رسول الله ﷺ وأصحابه فى الحديبية ، وإشارته ﷺ إلى تمنى أن يخلى أهل

---

(١) موضع عند مكة .

(٢) المغازى جـ٢ صـ٥٨٠

(٣) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٦ صـ٢١٠

(٤) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى باب غزوة الحديبية جـ٢١ صـ٩٦

(٥) المرجع السابق .

مكة بينه وبين سائر العرب ، جاءه بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه فى مبادرة منه نصحا لرسول الله ﷺ وقال : إنى تركت كعب بن لؤى ومعه نفر من قريش نزلوا عند مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت .

قال رسول الله ﷺ : إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد أنهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم [١] ويخلوا ما بينى وبين الناس ، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فهو خير ، وإلا قد جموا ، وإن أبوا إلا القتال فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره[٢]

قال بديل : سأبلغهم ما تقول .

وانطلق حتى أتى قريشاً وقال لهم : إنى قد جئتكم من عند الرجل ، وسمعته يقول قولاً فإن شئتم عرضته عليكم .

فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشئ .

وقال ذو الرأى منهم : هات ما سمعته .

قال : سمعته يقول كذا كذا وحدثهم بما سمعه من رسول الله .

فلما انتهى بديل من مقالته لقريش .

قال عروة بن مسعود : إن بديلاً جاءكم بخطة رشد لا يردها أحد إلا أخذ شراً منها فاقبلوها منه ، وابعثونى حتى آتيكم بمصداقيتها ، وأكون لكم عينا [٣] ألستم الولد وأنا الوالد ؟

قالوا بلى !!

قال : هل تتهموني ؟

قالوا : لا .

ورأى القرشيون أن يبعثوا لرسول الله ﷺ رجلاً منهم لإيجاد حل يمنع المسلمين من الدخول هذا العام ، وحتى لا يقع قتال فى الشهر الحرام ، وحتى لا يتحدث الناس أن أهل

---

(١) مادتهم أى أعطيتهم مدة يفكرون فيها ويتدبرون على مهل .

(٢) الفتح الربانى بترتيب مسند أحمد الشيبانى باب غزوة الحديبية جـ٢١ صـ٩٧

(٣) المغازى جـ٢ صـ٥٩٧

مكة يصدون عن البيت من يقصده معتمراً أو حاجاً ، ولذلك تعددت بعوثهم إلى رسول الله ﷺ وهى :

البعث الأول :

أرسلوا عروة بن مسعود الثقفى ، ليعرف غاية رسول الله ﷺ ويأتى القوم بخبر المسلمين ، فذهب عروة إلى المسلمين وقال : يا محمد إنى تركت قومك على إعداد وأعداد عند ماء الحديبية قد استنفروا لك ، وهم يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم وإنما أنت من قتالهم بين أحد أمرين : إما أن تجتاح قومك ، فلم نسمع برجل اجتاح أصله قبلك ، أو بين أن يخذلك من نرى معك .

فلما فرغ عروة من كلامه ، ورد رسول الله ﷺ كما قال لبديل بن ورقاء عاد إلى قريش فقال ، يا قوم قد وفدت على كسرى ، وهرقل ، والنجاشى ، وإنى والله ما رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمد فى أصحابه ، والله ما يحدون إليه النظر ، وما يرفعون عنده الصوت ، وما يكفيه إلا أن يشير إلى امرئ فيفعل ، واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم ، وقد رأيت قوماً لا يبالون ما يصنع بهم إذا منعوا صاحبهم ، والله لقد رأيت نسوة معه ، إن كن ليسلمنه أبداً على حال ، فردوا رأيكم ، وقد عرض عليكم خطة ، فاقبلوا ما عرض فإنى لكم ناصح ، مع أنى أخاف ألا تنصروا عليه ، رجل أتى هذا البيت معظماً له مع الهدى ينحره وينصرف فقالوا : لا تكلم بهذا يا أبا يعفور ، ولو غيرك تكلم بهذا ، ولكن نرده فى عامنا هذا ويرجع إلى قابل[1] .

البعث الثانى :

ثم أرسلوا بعد ذلك مكرز بن حفص ، فلما رآه الرسول ﷺ قال : هذا رجل غادر وكلمه بمثل ما كلم أصحابه الذين جاءوا قبله ، فعاد للمكين ، وأخبرهم بما سمع [2] .

البعث الثالث :

ورأت قريش أن ترسل للرسول رجلاً ليس من قريش ليظهروا قوتهم وأعوانهم ، فأرسلت الحليس بن علقمة الكنانى سيد الأحابيش ورأسهم .

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٢ صـ٩٦ المغازى جـ٢ صـ٥٩٨ ، ٥٩٩

(٢) المغازى جـ٢ صـ٥٩٩

فلما رآه النبى ﷺ قال : **هذا من قوم يعظمون الهدى ، ابعثوا الهدى فى وجهه فبعثوها** ترعى وهى معلمة ، ومشعرة فلما رأى الحليس الهدى يسيل فى الوادى ، عليه القلائد ، واستقبله القوم وهم يلبون ، فلما رآهم تفلوا وشعثوا رجع ، و لم يصل إلى النبى ﷺ إعظاماً لما رأى ، فقال لقريش : **أنى قد رأيت ما لا يحل صده ، رأيت الهدى معكوفاً عن محله ، والرجال قد تفلوا وشعثوا يريدون أن يطوفوا بهذا البيت ، أما والله ما على هذا حالفناكم ، ولا عاقدناكم على أن تصدوا عن بيت الله من جاء له معظماً لحرمته ، مؤدياً لحقه ، والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، والذى نفسى بيده ، لتخلن بينه وبين ما جاء به أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .**

قالوا : كل ما رأيت مكيدة من محمد وأصحابه فاكفف عنا حتى نأخذ لأنفسنا بعض ما نرضى به (١) .

وهدأ المعسكر القرشى بعد ذلك ، وتباطأ القرشيون فى إرسال أحد بعد ذلك وأخذوا يتشاورن لاختيار حل للموقف الموجود ، وليحققوا ضغوطاً نفسياً على المسلمين تؤدى إلى انسحابهم ، ورجوعهم عن مكة هذا العام .

رأى رسول الله ﷺ هدوءاً وصمتاً فى الجبهة القرشية فأخذ زمام المبادرة ، وأرسل إليهم من قبله من يخبرهم أنه جاء معتمراً لا غازياً ، وأن البيت بيت الله لا يصد عنه من يقصده فأرسل أولاً **خراش بن أمية الخزاعى** ، فعقروا الجمل الذى كان يركبه ، وأرادوا قتله فمنعه قومه ، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ بما حدث معه فواصل الرسول ﷺ بعوثه إليهم ، وأراد أن يرسل عمر بن الخطاب ﷺ ، فخاف عمر وأشار إلى عثمان بما له فى قومه من مودة وصلة ... فبعث الرسول عثمان فمنعه القرشيون من دخول مكة ، فأجاره سعيد بن العاص ، وحمله إلى مكة والتقى بالقرشيين ، وأخبرهم أن المسلمين لم يأتوا لقتال ، وإنما جاءوا معتمرين يسوقون الهدى ، ويعظمون البيت ... فرفضوا السماح بدخول المسلمين وأشاعوا أنهم قتلوا عثمان ﷺ ، وحبسوا أخباره عن المسلمين (٢) .

وانقطعت أخبار عثمان عن المسلمين وبقى فى مكة مدة تمكن فيها من الاتصال

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٢٨٨ الطبقات جـ٢ صـ٩٦ ، المغازى جـ٢ صـ٦٠٠

(٢) المغازى جـ٢ صـ٦٠١ الفتح الربانى جـ٢١ صـ١٠٢

بالمسلمين فيها ، يقول عثمان ﷺ : ثم كنت أدخل على قوم مؤمنين من رجال ونساء مستضعفين فأقول لهم : إن رسول الله ﷺ يبشركم بالفتح فقد كنت أرى الرجل منهم والمرأة تنتحب حتى أظن أنه يموت فرحاً بما خبرته ، فيسأل عن رسول الله ﷺ فيخفى المسألة ، ويشتد ذلك على أنفسهم ، ويقولون : اقرأ على رسول الله منا السلام ، إن الذى أنزله بالحديبية لقادر أن يدخله بطن مكة .

وشعر المسلمون أن قريشاً بقتلهم عثمان اعتدوا عليهم فى الأشهر الحرم ، فاستعدوا لقتالهم ، وأم رسول الله ﷺ منازل بنى مازن بن النجار ، وقد نزلت فى ناحية من الحديبية فجلس فى رحالهم ثم قال : **إن الله أمرنى بالبيعة ، فأقبل الناس يبايعونه حتى تداكوا ، فما بقى لهم متاع إلا وطئوه ، ثم لبسوا السلاح ، وهو معهم قليل ، وقامت أم عمارة إلى عمود كانت تستظل به فأخذته بيدها ، وشدت سكيناً فى وسطها .**

وكان رسول الله ﷺ يبايع الناس ، وعمر بن الخطاب ﷺ آخذ بيده ، فبايعهم على ألا يفروا .

وكان أول من بايع سنان بن وهب بن محصن ، وقال : يا رسول الله ، أبايعك على ما فى نفسك ، فكان رسول الله ﷺ يبايع الناس على بيعة سنان فبايعوه [١] .

وكان رسول الله ﷺ يبايع أصحابه وهو واقف تحت شجرة ، ولذلك سميت البيعة "بيعة الشجرة " وفيها يقول الله تعالى ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [٢] .

والحقيقة أن قريشاً لم تقتل عثمان ﷺ وإنما أشاعت ذلك لتخذيل المسلمين وصرفهم عن دخول مكة .

وقد حدث والمسلمون فى الحديبية أن بعثت قريش خمسين رجلاً بقيادة مكرز بن حفص ليصيبوا المسلمين على غرة ، وكان رسول الله قد نظم حراسة المعسكر الإسلامى ، وجعله فى ثلاثة من الصحابة هم **أويس بن خولى ، وعباد بن بشر ، ومحمد بن مسلمة ،**

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٢٩٠

(٢) سورة الفتح الآية ١٨

فلما أرسلت قريش مكرز بن حفص فى خمسين رجلاً منهم لينالوا من المسلمين غرة تحقق لهم بعض ما يريدون ، ظفر بهم **محمد بن مسلمة** ، وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فأمر ﷺ بوضعهم فى الأسر ، فجاء بعض القرشيين لتخليصهم بالقوة فتمكن المسلمون منهم وأسروا منهم اثنى عشر فارساً ، وبذلك بلغ عدد أسرى قريش عند المسلمين اثنين وستين أسيراً [(١)]

وحدث أن عشرة من المسلمين دخلوا مكة لزيارة البيت ورؤية أقربائهم بإذن من رسول الله ﷺ فحبسهم القرشيون ، وبذلك بلغ ما عند قريش من أسرى المسلمين أحد عشر رجلاً وهم هؤلاء العشرة وعثمان بن عفان ﷺ .

▪ رابعاً ▪

الصـــلح

رأى القرشيون أن إطالة الأمر يسئ إليهم عند العرب الذين جاءوا مكة للحج والعمرة فأرسلوا رجالهم للصلح مع رسول الله ﷺ ، وهم سهيل بن عمرو ، وحويطب ، ومكرز ، وجلس الثلاثة مع رسول الله ﷺ فقال سهيل : **يا محمد ، إن هذا الذى كان من حبس أصحابك ، وما كان من قتال من قاتلك ، لم يكن من رأى ذوى رأينا ، بل كنا له كارهين حين بلغنا ولم نعلم به ، وكان من سفهائنا ، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة والذين أسرت آخر مرة .**

قال ﷺ : إنى غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابى .

قال سهيل : أنصفتنا ، فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بالشتم بن عبد مناف التيمى فبعثوا بمن كان عندهم ، وهم : عثمان ، وعشرة من المهاجرين .

وأطلق رسول الله ﷺ سراح من كانوا عنده من الأسرى وأرسلهم إلى مكة [(٢)].

وبعد ذلك أخذوا فى مناقشة الموضوع من كافة جوانبة ، وأطالوا الكلام والمراجعة ثم اتفقوا على الصلح القائم على البنود التالية :

---

(١) المغازى جـ٢ صـ٦٠٢

(٢) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٢٩١

الديباجة :

باسمك اللهم هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو اصطلحا على ما يلى :

بنود الصلح :

١) وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض على أنه لا إسلال ولا إغلال ، وأن بيننا عيبة مكفوفة[١] .

٢) وأنه من أحب أن يدخل فى عهد محمد وعقده فعل ، وأنه من أحب أن يدخل فى عهد قريش ، وعقدها فعل .

٣) وأنه من أتى محمداً بغير إذن قريش رده محمد إليهم ، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد بغير إذن محمد لم يردوه .

٤) أن يرجع محمد ومن معه عامهم هذا على أن يدخل مكة فى العام القادم فيقيم بمكة ثلاثاً بعد أن يخليها المكيون لهم .

٥) أن يدخل محمد وصحبه مكة فى العام القادم بلا سلاح إلا سلاح المسافر والسيوف توضع فى القرب .

وكتب وثيقة الصلح على بن أبى طالب ﷺ ووقع عليها رسول الله ﷺ ، وسهيل بن عمرو وشهد عليها من المسلمين : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن مسلمة ... ومن المشركين : حويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص بن الأحيف .

وكتبت الوثيقة من نسختين احتفظ رسول الله ﷺ بواحدة وأعطى سهيلاً الأخرى [٢]

- خامساً -

موقف المسلمين من الصلح

لم يتوقع المسلمون الصلح بهذه السرعة و لم يتصوروا رجوعهم إلى المدينة بلا عمرة ،

(١) الإسلال : السرقة ، الإغلال : الخيانة ، العيبة : آنية والمكفوفة أى التى تصون ما بها ، والمعنى بيننا صدور ملازمة للوفاء نقية من الخداع والخيانة والغدر .

(٢) الطبقات الكبرى جـ٢ صـ٩٧

لأنهم خرجوا من المدينة لا يشكون فى الفتح لرؤيا رسول الله ﷺ ... و لم يتصوروا أبداً مقدرة المكيين على منعهم من أداء العمرة .

وقد قدموا للعمرة مستعدين للموت فى سبيل الله تعالى ، ولذلك بايعوا رسول الله ﷺ على الموت تحت الشجرة ، وقد مدحهم الله لإخلاص قلوبهم ، وصدقهم فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

فلما تم الصلح داخل المسلمين أمر عظيم ، وتصوروه ضعفاً ، ودنية فى الدين لا تجوز ، وكادوا يهلكون لولا أنهم عند العمل أطاعوا وعملوا كعمل رسول الله ﷺ .

ذلك أنه لما تم الصلح ، و لم يبق إلا إمضاء الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب وقال : **يا رسول الله : ألسنا بالمسلمين ؟**

قال رسول الله ﷺ : بلى .

فقال عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

فقال رسول الله ﷺ : أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولم يضيعنى .

فذهب عمر إلى أبى بكر ﷺ فقال : يا أبا بكر ألسنا بالمسلمين ؟

قال أبو بكر : بلى .

قال عمر : فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟

فقال أبو بكر : الزم غرزك ، فإنى أشهد أنه رسول الله ، وأن الحق ما أمر به ، ولن يخالف أمر الله ، ولن يضيعه .

ولقى عمر ﷺ فى هذه القضية أمراً كبيراً ، وجعل يردد على رسول الله ﷺ تساؤله والرسول يرد عليه ، ويقول : **أنا رسول الله ولن يضيعنى .**

فقال أبو عبيدة بن الجراح ﷺ : **ألا تسمع يا ابن الخطاب ما يقول رسول الله ﷺ** يقول : تعوذ بالله من الشيطان ، واتهم رأيك ، فجعل يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم

---

(١) سورة الفتح الآية ١٠

حيناً وحيناً آخر يقول : يا رسول الله : **ألم تكن حدثتنا أنك تدخل المسجد الحرام ، وتأخذ مفتاح الكعبة ، وتعرف مع المعرفين ؟ وهدينا لم يصل إلى البيت ولا نحن ؟؟**

فقال ﷺ : أقلت لكم فى سفركم هذا ؟

قال عمر : لا .

فقال ﷺ : أما أنكم ستدخلونه ، وآخذ مفتاح الكعبة ، وأحلق رأسى ورؤوسكم ببطن مكة ، وأعرف مع المعرفين يا عمر : أنسيتم يوم أحد ، إذا تصعدون ولا تلوون على أحد ، وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟

أنسيتم يوم الأحزاب ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ؟

أنسيتم يوم كذا ؟

أنسيتم يوم كذا ؟

والمسلمون يقولون : **صدق الله ورسوله ، يا نبى الله ، ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا** [(١)] .

وكان منطق عمر هو رأى أغلب المسلمين ، لأنهم نظروا إلى كتابة الصلح وبنوده نظرة معينة .

فلقد ساءهم أن يعترض سهيل على ديباجة الصلح التى أملاها رسول الله ﷺ لعلى رضي الله عنه وهو يكتب حيث قال له ﷺ : **اكتب باسم الله الرحمن الرحيم هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ ... فرد سهيل بتغيير ذلك إلى باسمك اللهم ... هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله** ... لأن قريشاً لا تؤمن بالله الرحمن الرحيم ... ولا تصدق بأن محمداً رسول الله فنزل رسول الله ﷺ على ما رأى سهيل ... وقال لعلى رضي الله عنه اكتبه .

وأيضاً فلقد تصور الصحابة أن الشروط تعطى لقريش مزايا لا تصح ، وتحرم المسلمين منها فى نفس الوقت ، وتساءلوا عن سبب منع المسلمين من القدوم للمدينة إذا تركوا مكة وفى نفس الوقت تسمح لمن يكفر أن يذهب إلى قريش فى مكة ويترك المدينة ، وغضبوا من

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، إمتاع الأسماع جـ١ صـ٢٩٥ ، ٢٩٦

ردهم هذا العام عن العمرة على أن يؤدوها فى العام القادم ... وتصوروا ذلك دنية فى الدين لا يجوز قبولها .

ولو تدبر المسلمون فى الأمر لعلموا أن ما اتفق عليه رسول الله ﷺ هو الحق وهو النصر .

لأن الديباجة التى كتبت من المسلمات التى لا تعارض حكماً إسلامياً ، والزيادة التى حذفت لا تفيد أهل مكة ، ولا تضيف جديداً للمسلمين ، ولا ضرر فى ترك كتابها فهى جزء من العقيدة ثابتة فى القلوب .

وأيضاً فإن عقد الهدنة عشر سنوات يفتح الباب للإسلام ، ويجمع الناس حوله .

وكذلك فإن المسلمين الذى يرتدون عن الإسلام وهم فى المدينة خير للمسلمين أن يرحلوا منها حتى لا يكونوا عينا عليهم ، ويصيروا قوة للأعداء بين المسلمين يخذل ويعبث .

أما المسلمون فى مكة فإن بقاءهم فيها دعوة عملية ، وحركة لله فى مكة ، وبخاصة أن الصلح ينص على حريته فى الاختيار ، كما أن بقاء المسلمين فى مكة اختبار عملى لصدق أهل مكة فى تطبيق بنود الصلح .

وأيضاً فإن تأجيل أداء العمرة هذا العام وأداءها فى العام القادم خير لهم من دخول مكة عنوة هذا العام ... كما أن فى دعوهم وقبولهم الصلح دليل أمام الناس على أن الإسلام هو دين الأمن والسلام .

وقد زاد من غضب المسلمين ما رأوه من أبى جندل بن سهيل بن عمرو ... فإنه جاء إلى معسكر المسلمين فى الحديبية مسلماً ، بعدما تمكن من الإفلات من قيد أبيه الذى وضعه فيه ... وقد جاء بعد كتابة الصلح وقبل توقيعه والإشهاد عليه .

يقول المقريزى : **خرج أبو جندل من سجن أبيه ، واجتنب الطريق وركب الجبال حتى هبط بالحديبية ففرح المسلمون به وتلقوه حين هبط من الجبل فسلموا عليه وآووه فرفع سهيل رأسه فإذا بابنه أبى جندل ، فقام إليه فضرب وجهه بغصن شوك وأخذ بتلبيبه .**

فصاح أبو جندل بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟

فزاد المسلمين ذلك شراً إلى ما بهم ، وجعلوا يبكون لكلام أبى جندل .

فقال حويطب بن عبد العزى لمكرز بن حفص : ما رأيت قوماً قط أشد حباً لمن دخل معهم من أصحاب محمد ، أما إنى أقول لك : لا نأخذ من محمد نصفاً أبداً بعد هذا اليوم ، حتى يدخلوها عنوة .

فقال مكرز : وأنا أرى ذلك .

وقال سهيل بن عمرو : هذا أول من قاضيتك عليه يا محمد ، رده .

فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد .

فقال سهيل : والله لا أكاتبك على شئ حتى ترده إلى فرده عليه ، ثم كلمه ﷺ أن يتركه ، فأبى سهيل وضرب وجه ابنه بغصن شوك فقال له رسول الله ﷺ : هبه لى أو أجره من العذاب إنا لم نقض الكتاب بعد .

فقال سهيل : والله لا أفعل ولا أصالحك على شئ أبداً .

فقال ﷺ : فأجزة لى .

قال : ما أنا بمجيزه لك .

فقال ﷺ : بلى فافعل .

قال سهيل : ما أنا بفاعل (١) .

فقال مكرز وحويطب : يا محمد لحن لجيزه لك وأجازاه ... وأما أبو جندب فقد أخذه مكرز وحويطب فادخلاه فسطاطاً ، وأجاراه فكف عنه أبوه .

ثم رفع رسول الله ﷺ صوته فقال : يا أبا جندل ، اصبر ، واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك عهداً ، وإنا لا نغدر (٢) .

---

(١) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى جـ٢١ صـ١٠١

(٢) زاد المعاد جـ٣ صـ٢٩٤ الطبقات جـ٢ صـ٩٧

- سادساً -

موقف المسلمين بعد توقيع الصلح

بعد توقيع وثيقة الصلح ، وإشهارها بين الناس ، دخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ ودخلت بكر فى عهد قريش ، وكان هذا أول اختبار لإلتزام الأطراف بالصلح الذى اتفقوا عليه .

رحب رسول الله ﷺ ببنى خزاعة ، وكره ذلك القرشيون فقال حويطب لسهيل : بادأنا أخوالك بالعداوة ، وكانوا يتسترون منا ، قد دخلوا فى عقد محمد وعهده .

فقال سهيل : ما هم إلا كغيرهم ، هؤلاء أقاربنا ولحمتنا ، قد دخلوا مع محمـــد ، قوم اختاروا لأنفسهم أمراً فما نصنع بهم ؟

قال حويطب : نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بنى بكر .

قال سهيل : إياك أن تسمع هذا منك بنو بكر ، فإنهم أهل شؤم ، فيقعوا بخزاعة ، فيغضب محمد لحلفائه ، فينتقض العهد بيننا وبينه [١].

ورجع سهيل وصاحباه إلى قريش .

وفرغ رسول الله ﷺ لأصحابه ، وقال لهم : قوموا فانحروا ، واحلقوا ، فلم يجبــه أحد إلى ذلك ، فرددها ثلاث مرات ، فلم يفعلوا ، فدخل على أم سلمة رضى الله عنها وهو شديد الغضب فاضطجع .

فقالت : مالك يا رسول الله ﷺ ؟ قالته مراراً وهو لا يجيبها .

ثم قال : عجباً يا أم سلمة ، إنى قلت للناس انحروا واحلقوا مراراً ، فلم يجبنى أحـــد من الناس إلى ذلك ، وهم يسمعون كلامى ، وينظرون فى وجهى .

فقالت : يا رسول الله ﷺ انطلق أنت إلى هديك فانحره ، فإنهم سيقتدون بك .

فاضطبع بثوبه وخرج ، فأخذ الحربة ويمم هديه ، وأهوى بالحربة إلى البدنة رافعـــاً صوته : بسم الله والله أكبر ، ونحر .

فتواثب المسلمون إلى الهدى ، وازدحموا عليه ينحرونه ، حتى كاد بعضهم يقع على

---

(١) إمتاع الأسماع جـــ١ صـــ٢٩٤

بعض وأشرك ﷺ بين أصحابه فى الهدى ، فنحر البدنة عن سبعة ، وكان الهدى سبعين بدنة وقيل مائة بدنة .

وكان الهدى دون الجبال التى تطلع على وادى الثنية ، عرض له المشركون فردوا وجوه البدن ، فنحر رسول الله ﷺ بدنه حيث حبسوه وهى فى الحديبية .

وشرد جمل أبى جهل من الهدى الذى أعده رسول الله ﷺ وهو يرعى وكان قد قلده وأشعره وكان جملاً نجيباً مهيراً فمر من الحديبية حتى انتهى إلى دار أبى جهل بمكة ووقف عنده وخرج فى إثره عمرو بن عنمة بن عدى بن نابى السلمى الأنصارى للإتيان به فأبى سفهاء مكة أن يعطوه حتى أمرهم سهيل بن عمرو بدفعه إليه تنفيذاً للصلح وحاول القرشيون شراءه بمائة ناقةفقال رسول الله ﷺ: لولا أننا سميناه فى الهدى فعلنا ونحره عن سبعة ونحر طلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف وعثمان ابن عفان بدنات ساقوها [١]

وكان رسول الله ﷺ مقيماً فى الحل ، ويصلى فى الحرم وحضره من يسأل من لحوم البدن فقيراً فأعطاهم من لحومها وجلودها ، وأكل المسلمون من هديهم ، وأطعموا المساكين ، وبعث ﷺ من الهدى بعشرين بدنة لتنحر عند المروة مع رجل من أسلم ، فنحرها عند المروة ، وفرق لحمها .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من نحر البدن ، دخل قبة له من أدم حمراء ، فيها الحلاق فحلق رأسه ، ثم أخرج رأسه من قبته وهو يقول : رحم الله المحلقين ، قيل يا رسول الله ، والمقصرين ، قال : رحم الله المحلقين ثلاثاً ثم قال : والمقصرين .

وحلق ناس ، وقصر آخرون ، وكان الذى حلقه ﷺ خراش بن الفضل الكعبى ، فلما حلقوا بالحديبية ونحروا بعث الله تعالى ريحاً عاصفاً فاحتملت شعورهم فألقتها فى الحرم [٢].

ثم أذن رسول الله ﷺ بالرحيل ، فلما ارتحلوا مطروا ما شاؤا وهم صائمون ، فنزل رسول الله ﷺ ونزلوا معه فشربوا من ماء المطر ، **وقام ﷺ فخطبهم ووعظهم فجاء ثلاثة نفر إليه ، فجلس اثنان وذهب واحد معرضاً ، فقال رسول الله ﷺ :**

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٢٩٤

(٢) الطبقات الكبرى جـ٢ صـ١٠٤

ألا أخبركم خبر الثلاثة .

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : أما واحد فاستحيا فاستيحا الله منه ، وأما الآخر فتاب فتاب الله عليه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه [1].

وفهم الصحابة مغزى ما رأوا ، وما ذكره رسول الله ﷺ ، وعلموا أنه تم تربية لهم ، وتوجيهاً لأهمية طاعة رسول الله ﷺ وعدم مراجعته فيما جاء به الوحى .

وأخذ عمر يحادث رسول الله ﷺ خوفاً على نفسه من موقفه يوم الصلح ، فسأل رسول الله ﷺ فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال ﷺ : ثكلتك أمك يا عمر ، بدرت رسول الله ﷺ ثلاثاً ، كل ذلك لا يجيبك .

وحرك ﷺ بعيره حتى تقدم الناس ، وخشى عمر أن يكون نزل فيه قرآن ، فأخذه ما قرب وما بعد لمراجعته بالحديبية وكراهته القضية ، وبينما هو يسير مهموماً متقدماً على الناس ، إذا منادى رسول الله ﷺ ينادى : يا عمر بن الخطاب فوقع فى نفسه ما الله به أعلم ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فسلم ، فرد ﷺ وهو مسرور ثم قال : أنزلت على سورة هى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس [2] فإذا هو يقرأ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[3] .

فأنزل الله فى ذلك سورة الفتح ، فركض الناس وهم يقولون : أنزل على رسول الله حتى توافوا عنده ، وهو يقرؤها ، ويقال : لما نزل بها جبريل عليه السلام قال جبريل: نهنئك يا رسول الله فلما هنأه جبريل هنأه المسلمون ، وكان نزول سورة الفتح بكراع الغميم[4] .

---

(١) مسند أحمد مسند الأنصار .

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة الحديبية جـ٦ صـ٣٦٣

(٣) سورة الفتح الآية ١

(٤) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٢٩٩

- سابعاً -

عدم رد المؤمنات المهاجرات

لم يفرق الصلح بين الرجال والنساء المسلمات الذين يتركون مكة إلى المدينة وسكت عن حقوق المرأة المهاجرة التى لابد منها لتوافقها مع طبيعتها وكرامتها .

ومن المعلوم أن رد المؤمنة إلى مكة إذا هاجرت أمر يتعارض مع حكم شرعى ، وهو حرمة بقاء المرأة المسلمة تحت عصمة زوج مشرك .

وقد أنزل الله تعالى أمره بعدم إعادة المسلمات المهاجرات إلى أزواجهم المشركين ، مع إعطاء المشركين ما أنفقوه فى زواجهم ... وأحل الله للمؤمنين الزواج بالمهاجرات بعد انقضاء عدتهن ، ودفع مهورهن وكان رسول الله ﷺ هو ولى من لا ولى لها .

ومن هذا القبيل أن **أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط** وكانت شابة صغيرة أسلمت بمكة ، فكانت تخرج إلى بادية أهلها فتقيم أياماً بناحية التنعيم ، ثم ترجع حتى أجمعت على المسير مهاجرة فخرجت كأنها تريد البادية على عادتها ، فوجدت رجلاً من خزاعة فأعلمته بإسلامها فأركبها بعيره ، حتى أقدمها المدينة بعد ثمانى ليال ، فدخلت على أم سلمة رضى الله عنها وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة ، وتخوفت أن يردها رسول الله ﷺ ، فلما دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة رضى الله عنها أعلمته بهجرة أم كلثوم ووضحت له أنها تخاف أن يردها رسول الله ﷺ إلى زوجها المشرك فى مكة [١] ، فأنزل الله فيها آية المحنة وهى قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [٢] .

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة الحديبية جـ٦ صـ٣٦٥

(٢) سورة الممتحنة الآية ١

فكان رسول الله ﷺ بعد هذه الآية يرد من جاءه من الرجال ، ولا يرد من جاءه من النساء ، فلما قدم أخواها الوليد ، وعمارة ، ابنا عقبة بن أبى معيط وقالا : **يا محمد ف لنا بشرطنا وما عاهدتنا عليه** .

فقال ﷺ : قد نقض الله ذلك ، فانصرفا إلى مكة ، فأخبرا قريشاً ، فلم يبعثوا أحداً ورضوا بأن تحبس النساء .

ويقال إن **أميمة بنت الأنصارى من بنى عمرو بن عوف** ، كانت تحت حسان بن الدحداح أو ابن الدحداحة وهو يومئذ مشرك ، ففرت من زوجها بمكة ، وأتت رسول الله ﷺ تريد الإسلام ، فهم ﷺ أن يردها إلى زوجها ، حتى أنزل الله تعالى ﴿ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ فامتحنها ﷺ وعلم إيمانها ، فأبقاها فى المدينة ثم زوجها رسول الله ﷺ سهل بن حنيف ، فولدت له عبد الله بن سهل .

- ثامناً -
فراق الكافرات

منع الله تعالى إعادة المسلمات إلى المشركين ، وحرم على المسلمين الإبقاء على الزوجات الكافرات ، مع المعاملة بالمثل فيما أنفقوا ، فلهم أن يأخذوا ما أنفقوا ، وعليهم أن يدفعوا للمشركين ما بذلوا .

ولما أنزل الله تعالى قوله ﴿ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ طلق عمر بن الخطاب امرأتين له هما : **قريبة بنت أبى أمية بن المغيرة** ، فتزوجها معاوية بن أبى سفيان ، والأخرى **أم كلثوم بنت جرول بن مالك بن المسيب الخزاعية** فتزوجها أبو جهم بن حذيفة ، **وطلق عياض بن غنم الفهرى أم الحكم بنت أبى سفيان بن حرب** ، فتزوجها عبد الله بن عثمان الثقفى ، فولدت له عبد الرحمن ابن أم الحكم ، وكلهم يومئذ مشرك.

و لم يعلم أن امرأة من المسلمين لحقت بالمشركين مع وضوح الحكم ، وإعطاء النسوة الحرية فى الاختيار .

- تاسعاً -

أهم ما فى الحديبية من حكم

كانت الحديبية مقدمة بين يدى الفتح الأعظم الذى أعز الله به رسوله وجنده ، ودخل الناس به فى دين الله أفواجاً ، فكانت هذه الهدنة باباً له ، ومفتاحاً ، ومؤذناً بين يديه ، وهذه عادة الله سبحانه فى الأمور العظام التى يقضيها قدراً وشرعاً ، أن يوطئ لها بين يديها مقدمات وتوطئات تؤذن بها ، وتدل عليها .

وكانت هذه الهدنة من أعظم الفتوح ، فإن الناس أمن بعضهم بعضاً ، واختلط المسلمون بالكفار ، وبادؤوهم بالدعوة ، وأسمعوهم القرآن ، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين ، وظهر من كان متخفياً بالإسلام ، ودخل فيه فى مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل ، ولهذا سماه الله فتحاً مبيناً .

وحقيقة الأمر أن الصلح الذى حصل مع المشركين بالحديبية كان مستحيلاً حتى فتحه الله ، وكان من أسباب فتحه صد رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت وكان فى الصورة الظاهرة ضيماً وهضماً للمسلمين ، وفى الباطن عزاً وفتحاً ونصراً ، وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراءه من الفتح العظيم والعز والنصر من وراء ستر رقيق ، وكان يعطى المشركين كل ما سألوه من الشروط التى لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم ، وهو ﷺ يعلم ما فى ضمن هذا المكروه من محبوب ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ (١) .

وربما كان مكروه النفوس إلى   محبوبها سببا ما مثله سبب

فكان ﷺ يرى تلك الشروط عين النصرة ، وهو من أكبر الجند الذى أقامة المشترطون ونصبوه لحربهم ، وهم لا يشعرون ، فذلوا من حيث طلبوا العز وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة ، وعز رسول الله ﷺ وعساكر الإسلام من حيث انكسروا لله ، واحتملوا الضيم له وفيه ، فدار الدوار ، وانعكس الأمر ، وانقلب العز بالباطل ذلاً بحق ، وانقلبت الكسرة لله عزاً بالله ، وظهرت حكمة الله وآياته وتصديق وعده ، ونصرة

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦

رسوله على أتم الوجوه وأكملها التى لا اقتراح للعقول وراءها.

وبسبب صلح الحديبية كانت زيادة الإيمان والإذعان ، والانقياد على ما أحبوا وكرهوا ، وما حصل لهم فى ذلك من الرضى بقضاء الله وتصديق موعوده ، وانتظار ما وعدوا به ، وشهود منة الله ونعمته عليهم بالسكينة التى أنزلها فى قلوبهم ، أحوج ما كانوا إليها فى تلك الحال التى تزعزع لها الجبال ، فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبهم وقويت به نفوسهم ، وازدادوا به إيماناً .

وتأمل كيف وصفهم سبحانه النصر بأنه عزيز فى هذا الموطن ، ثم ذكر إنزال السكينة فى قلوب المؤمنين فى هذا الموطن الذى اضطربت فيه القلوب ، وقلقلت أشد القلق ، فهى أحوج ما كانت إلى السكينة ، فازدادوا بها إيمانها إلى إيمانهم ، ثم ذكر سبحانه بيعتهم لرسوله ، وأكدها بكونها بيعة له سبحانه ، وأن يده تعالى كانت فوق أيديهم إذ كانت يد رسول الله ﷺ كذلك ، وهو رسوله ونبيه فالعقد معه عقد مع مرسله ، وبيعته بيعته ، فمن بايعه ، فكأنما بايع الله ، ويد الله فوق يده ، وإذا كان الحجر الأسود يمين الله فى الأرض ، فمن صافحه وقبله ، فكأنما صافح الله ، وقبل يمينه فيد رسول الله ﷺ أولى بهذا من الحجر الأسود ، ثم أخبر أن ناكث هذه البيعة إنما يعود نكثه على نفسه ، وأن للموفى بها أجراً عظيماً .

ثم ذكر حال من تخلف عنه من الأعراب ، وظنهم أسوأ الظن بالله : أنه يخذل رسوله وأولياءه ، وجنده ، ويظفر بهم عدوهم ، فلن ينقلبوا إلى أهليهم ، وذلك من جهلهم بالله وأسمائه وصفاته ، وما يليق به ، وجهلهم برسوله وما هو أهل أن يعامله به ربه ومولاه .

ثم أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين بدخلوهم تحت البيعة لرسوله ، وأنه سبحانه علم ما فى قلوبهم حينئذ من الصدق والوفاء ، وكمال الانقياد والطاعة ، وإيثار الله ورسوله على ما سواه ، فأنزل الله السكينة والطمأنينية والرضى فى قلوبهم ، واثابهم على الرضى بحكمه ، والصبر لأمره فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان أول الفتح والمغانم فتح خيبر ، ومغانمها ، ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر .

ثم ذكر سبحانه أنه هو الذى كف أيدى بعضهم عن بعض من بعد أن أظفر المؤمنين بهم ، لما له فى ذلك من الحكم البالغة التى منها أنه كان فيهم رجال ونساء قد آمنوا ، وهم يكتمون إيمانهم ، لم يعلم بهم المسلمون فلو سلطكم عليهم ، لأصبتم أولئك بمعرة الجيش ، وكان يصيبكم منهم معرة العدوان والإيقاع بمن لا يستحق الإيقاع به ، وذكر سبحانه حصول المعرة بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفين بهم ، لأنها موجب المعرة الواقعة منهم بهم ، وأخبر سبحانه أنهم لو زايلوهم وتميزوا منهم ، لعذب أعداءه عذاباً أليماً فى الدنيا ، إما بالقتل والأسر ، وإما بغيره ، ولكن دفع عنهم هذا العذاب لوجود هؤلاء المؤمنين بين أظهرهم، كما كان يدفع عنهم عذاب الاستئصال ، ورسوله بين أظهرهم .

ثم أخبر سبحانه عما جعله الكفار فى قلوبهم من حمية الجاهلية التى مصدرها الجهل والظلم ، التى لأجلها صدوا رسوله وعباده عن بيته و لم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم ، و لم يقروا لمحمد بأنه رسول الله مع تحققهم صدقه ، وتيقنهم صحة رسالته بالبراهين التى شاهدوها وسمعوا بها فى مدة عشرين سنة ، وأضاف هذا الجعل إليهم وإن كان بقضائه وقدره ، كما يضاف إليهم سائر أفعالهم التى هى بقدرتهم وإرادتهم .

ثم أخبر سبحانه أنه أنزل فى قلب رسوله وأوليائه من السكينة ما هو مقابل لما فى قلوب أعدائه من حمية الجاهلية ، فكانت السكينة حظ رسوله وحزبه ، وحمية الجاهلية حظ المشركين وجندهم ، ثم ألزم عباده المؤمنين كلمة التقوى ، وهى جنس يعم كل كلمة يتقى الله بها ، وأعلى نوعها كلمة الإخلاص ، وقد فسرت ببسم الله الرحمن الرحيم ، وهى الكلمة التى أبت قريش أن تلتزمها ، فألزمها الله أولياءه وحزبه ، وإنما حرمها أعداءه صيانة لها عن غير كفئها ، وألزمها من هو أحق بها وأهلها ، فوضعها فى موضعها ، و لم يضيعها بوضعها فى غير أهل ، وهو العليم بمحال تخصصه ومواضعه .

ثم أخبر سبحانه ، أنه صدق رسوله رؤياه فى دخولهم المسجد آمنين ، وأنه سيكون ولابد ، ولكن لم يكن قد آن وقت ذلك فى هذا العام ، والله سبحانه علم من مصلحة تأخيره إلى وقته ما لم تعلموا أنتم ، فأنتم أحببتم استعجال ذلك ، والرب تعالى يعلم من مصلحة التأخير وحكمته ما لم تعلموه ، فقدم بين يدى ذلك فتحاً قريباً ، توطئه له وتمهيداً

ثم أخبرهم بأنه هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض ، ففى هذا تقوية لقلوبهم ، وبشارة لهم وتثبيت ، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذى لابد أن ينجزه فلا تظنوا أن ما وقع من الإغماض والقهر يوم الحديبية نصر لعدوه ، ولا تخلياً عن رسوله ودينه ، كيف وقد أرسله بدينه الحق ، ووعده أن يظهره على كل دين سواه .

ثم ذكر سبحانه رسوله وحزبه الذين اختارهم له ، ومدحهم بأحسن المدح ، وذكر صفاتهم فى التوراة والإنجيل ، فكان فى هذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن ، وأن هؤلاء هم المذكورين فى الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم ، لا كما يقول الكفار عنهم ، إنهم متغلبون طالبو ملك ودنيا ، ولهذا لما رآهم نصارى الشام وشاهدوا هديهم وسيرتهم ، وعدلهم وعملهم ، ورحمتهم وزهدهم فى الدنيا ، ورغبتهم فى الآخرة ، قالوا : ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء ، وكان هؤلاء النصارى أعرف بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم [1] .

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٠٩-٣١٦ بتصرف يسير .

- المبحث الحادى عشر -
الأحداث بين صلح الحديبية وفتح مكة

أتم المسلمون نحر هديهم ، وحلقوا رؤوسهم ، وبدأوا فى الرحيل من الحديبية بعد عشرين يوماً مكثوا فيها ، وكان الجو شديد الحرارة ، والماء لدى المسلمين قليل ، فأكرمهم الله تعالى بنزول المطر فشربوا ، وارتووا ، ونظفوا رحالهم ، وملابسهم .

كان صلح الحديبية هو الفتح المبين للإسلام ، لأنه حقق ما كان يأمله النبى ﷺ حيث انفتحت السبل أمام الدعوة ، وصارت الحركة بالإسلام آمنة ، وشعر المسلمون لأول مرة أن القرشيين انكفأوا على مصالحهم ، وأخذوا يركزون على تجارتهم بعدما تأكدوا من عجزهم عن محاصرة الإسلام ، والقضاء على محمد ﷺ .

وشعرت القبائل العربية ، والأعراب أنهم أمام الإسلام وجهاً لوجه ، يسمعون دعوته ، ويعلمون حقيقته ، ويقفون على محاسنه ومزاياه ... ولذلك وجدناهم لا ينتظرون مجئ الدعاة إليهم ، وإنما أخذوا يفدون على رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة .

وحين ننظر إلى مسرح الأحداث فى مجمل الجزيرة العربية نلحظ صوراً متعددة ، حيث اتخذ كل فريق موقفاً ارتضاه لنفسه .

ففى جبهة مكة أخذ القرشيون يهتمون بمصالحهم الذاتية بعدما تيقنوا أن الأمر أفلت من أيديهم ، واتضح لهم أن تجمع الأحزاب ، وتأليب القبائل لا يفيدهم شيئاً ... وكان تعاهدهم مع المسلمين على إيقاف الحرب بينهم يوم الحديبية هو عملهم الذى أخذوا يتحركون من خلاله .

أما اليهود فى منطقة خيبر وحولها ، فقد فوجئوا بانسحاب قريش من المواجهة فبدأوا فى تكوين تكتل جديد من بعض القبائل ليعملوا معاً لمحاربة الإسلام والمسلمين .

وأما أغلب القبائل فى الجزيرة العربية فقد رأت فى الهدنة بين قريش والمسلمين انتصاراً للصمود الإسلامى ، وبيانا واضحاً لما ينادى به المسلمون من حق وصواب ... ولذلك أخذوا فى تفهم الإسلام ، ومعرفة حقيقته ، وصدقه .

و لم يبق من قبائل الجزيرة إلا عدد قليل منها ، لم ترض بالهدوء والأمن فأخـــذت

توجه إمكاناتها الضعيفة ضد الإسلام والمسلمين .

ووجد المسلمون ورسول الله ﷺ معهم أنهم أمام توجيهات مختلفة لابد أن يتعاملوا مع كل منها بما يناسبها ... ولذلك تنوعت أعمال المسلمين ، وتضاعفت حركاتهم بدين الله تعالى .

لم يكن صلح الحديبية فرصة يستريح فيها المسلمون من شدة الجهاد ، وصعوبة الحركة بدين الله تعالى .

وإنما كان الصلح بداية لجهد شاق ، وعمل دءوب عاشه المسلمون جميعاً انتصاراً للحق ، وتأييداً لدين الله تعالى .

لقد بدأ المسلمون فى المدينة يتصلون بإخوانهم فى مكة ، يشدون أزرهم ، وينصحونهم بما يحتاجون إليه ، ويدلونهم على كثير مما يحتاجون إليه .

وأخذوا كذلك فى الذهاب إلى أطراف العالم كله يبلغون دين الله تعالى ، ويحملون رسائل الرسول ﷺ إلى شيوخ القبائل ، وملوك العالم ، وسلاطين الدنيا .

واستمروا فى التصدى لليهود الذين اتخذوا من خيبر منطقة معادية للمسلمين ، فأقاموا فيها حصونهم ، وجمعوا الناس حولهم ، وأخذوا يثبون فى قبائل الأطراف التمرد على المسلمين ، ويستعدون الرومان وأعوانهم للعمل ضد محمد ودينه .

وقد عاشت المدينة المنورة نشاطاً واسعاً بعد الحديبية .

وفى هذا المبحث ستتناول أهم الأحداث وبخاصة كيفية تعامل المسلمين مع كل الفرقاء على كثرتهم وذلك فيما يلى :

- أولاً -

هدوء جبهة قريش
وظهور مفرزة أبى بصير ﷺ

تم توقيع الصلح فى شهر ذى القعدة ، والعرب بقبائلهم ، وأعرابهم فى مكة يقيمون أسواقهم ، ويؤدون منسكهم وفق ما بقى عندهم من علم بـــدين إبـــراهيم الطَّيْلاً ... فشاهدوا ما حدث بين المسلمين وبين قريش ، وعلموا بالصلح الذى تم .

لقد كانت قريش تقود الحرب ضد الإسلام والمسلمين ، وتجمع حولها المنافقين ، واليهود ، والأعراب ، وكل معارض لظهور دين الله تعالى .

فلما تم صلح الحديبية التزمت قريش به ، وتخلت عن كافة أنشطتها المناوئة للإسلام ، فانفرط عقد الأحزاب ، وخمدت فتن المنافقين ، وانحسر خطر اليهود ، وتبعثرت القبائل الوثنية فى أرجاء الجزيرة العربية ... وأخذت قريش تهتم بمصالحها ، وتجارتها وبخاصة بعدما أَمَّنَتْ طريق قوافلها .

وأدى هذا الوضع إلى هدوء عام للعواصف القرشية التى كانت تثار ضد الإسلام وأخذ المسلمون يهتمون بتعريف الناس دينهم بالحسنى ، ومخاطبة القبائل وإقناعها بالإسلام الأمر الذى أدى إلى دخول الناس فى الإسلام بأعداد غفيرة ، حتى أن الذين دخلوا فى الإسلام فى العام ما بين الصلح وعمرة القضاء كانوا أكثر عدداً من الذين أسلموا فى المدة من أول البعثة حتى الحديبية .

ولذلك تأكد الصحابة من أن صلح الحديبية هو الفتح الأعظم كما أخبرتهم سورة الفتح .

يروى الزهرى : أن صلح الحديبية أعظم فَتْح فُتِحَ فى الإسلام .

ويستدل ابن إسحاق على عظمة هذا الفتح بأن عدد الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ فى عمرة الحديبية كانوا ألفاً وأربعمائة والذين خرجوا يوم فتح مكة كانوا عشرة آلاف .

إن صلح الحديبية أظهر الوجه الحقيقى للإسلام ، فبدأ الناس يتأملونه ... ولذلك سارعوا إلى الدخول فيه بعدما انزاحت العقبة الكئود أمام إيصال الحق للناس ، واستمر تطبيق بنود الصلح المتفق عليها ، و لم يحدث لها تغيير ، إلا بعد أن طلب القرشيون تعديل البند الثالث الذى أظهر التطبيق العملى ضرره على قريش بعدما كَوَّنَ أبو بصير ﷺ مفرزته فى طريق أهل مكة .

لقد جلبتْ قريش الشر لنفسها باشتراطها ضرورة إعادة من يسلم من أهل مكة إليها إذا هاجر إلى المدينة ، وأثبتت الحوادث أن هذا الشرط أفاد الجبهة الإسلامية

كثيراً وذلك بوقوع ما عرف بقصة " أبى بصير " وهو عتبة بن أسيد الثقفى ﷺ .. فلقد أسلم بعد الصلح فى مكة ، وهرب منها وجاء إلى رسول الله ﷺ فى المدينة ، فأرسل قومه إلى رسول الله ﷺ يطلبون رده إلى قريش تطبيقاً لبنود الصلح ، وحمل الطلب إلى رسول الله ﷺ "خنيس بن جابر العامرى " ومولى لهم يسمى " كوثر " على بعير لهم ليعودا بأبى بصير إلى مكة .

فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهم ، ودفعه إليهما .

فقال أبو بصير : يا رسول الله تردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى !!..

فقال ﷺ : يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً .

فقال أبو بصير : يا رسول الله ﷺ ، تردنى إلى المشركين .

قال ﷺ : انطلق أبا بصير ، فإن الله سيجعل لك مخرجاً ، ودفعه إلى العامرى وصاحبه .

فخرج أبو بصير معهما ، وجعل المسلمون يسرون إلى أبى بصير : يا أبا بصير ، أبشر فإن الله جاعل لك مخرجاً ، والرجل يكون خيراً من ألف رجل ، فافعل ، وافعل يأمرونه بالذين معه لينقذ نفسه منهم فهذا حقه ، وليفعل ما سيفعله قبل أن يفعل به ، وقد أعد القرشيون للعودة به عدهم ، فلما وصلا به إلى ذى الحليفة عند صلاة الظهر صلى أبو بصير فى مسجدها ركعتين صلاة المسافر ، ومعه زاد له من تمر يحمله فمال إلى جدار المسجد فوضع زاده فجعل يتغدى ودعاهما للطعام فقالا له : لا حاجة لنا فى طعامك .

فقال لهم : ولكنى لو دعوتمونى إلى طعامكم لأجبتكم وأكلت معكم ، فاستحيوا وأكلوا .

وقد علق العامرى سيفه أثناء الطعام على الجدار، وتحادثوا وقد أمن كل منهم للآخر

فقال أبو بصير : يا أخا بنى عامر ما اسمك ؟

قال : خنيس .

قال : ابن من ؟

قال : ابن جابر .

قال : يا أبا جابر أصارم سيفك هذا ؟

قال : نعم .

قال : ناولينه أنظر إليه إن شئت ، فناوله وكان قريبا من السيف منه فأخذ أبو بصير بقائم السيف والعامرى ممسك بالجفن فعلاه به وضربه حتى برد [١] .

فخرج " كوثر " هارباً يعدو نحو المدينة ، وأبو بصير فى إثره فـأعجزه حـتى سبقه إلى رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ جالس فى أصحابه بعد العصر ، إذ طلـع كوثر يعدو فقال ﷺ : هذا رجل قد رأى ذعراً .

وأقبل " كوثر " حتى وقف أمام رسول الله ﷺ .

فقال رسول الله ﷺ : ويحك ؟ مالك ؟

قال : قتل صاحبكم صاحبى وأفلت منه وكاد أن يقتلنى .

وأقبل أبو بصير ، فأناخ بعير العامرى بباب المسجد ، ودخل متوحشاً سـيف العامرى ، فقال : يا رسول الله وفت ذمتك ، وأدى الله عنك ، وقد أسلمتنى بيـد العدو ، وقد امتنعت بدينى من أن أفتن ، أو أكذب بالحق .

فقال ﷺ : ويل أمه مِحَشُ حَرْبٍ لو كان معه رجال [٢] .

وقدم أبو بصير سلب العامرى ، ورحله ، وسيفه ، ليخمسه رسـول الله ﷺ فقال ﷺ : إنى إذا خمسته رأوا أنى لم أوف لهم بالذى عاهدتم عليه ، ولكن شـأنك بسلب صاحبك .

ثم قال ﷺ لكوثر : ترجع به إلى أصحابك ؟

فقال كوثر : يا محمد مالى به قوة ولا يدان تقدر عليه .

فقال ﷺ لأبى بصير : اذهب حيث شئت [٣]

---

(١) المغازى جـ٢ صـ٦٢٦

(٢) المرجع السابق

(٣) المغازى جـ٢ صـ٦٢٧

فخرج حتى أتى العيص ، فنزل منه ناحية على ساحل البحر على طريق عير قريش إلى الشام .

وبلغ المسلمين الذين قد حبسوا بمكة خبر أبي بصير ، فتسللوا إليه .

وكان عمر بن الخطاب ﷺ هو الذى كتب إليهم بقول رسول الله ﷺ لأبى بصير : **ويل أمه مِحَشّ حَرْبٍ لو كان معه رجال** ، وأخبرهم أنه بالساحل ، فاجتمع عند أبى بصير قريب من سبعين مسلماً على رأسهم " **أبو جندل بن سهيل** " ، فكانوا بالعيص ، وضيقوا على قريش ، فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ، ولا تمر عير إلا اقتطعوها ، ومر بهم ركب يريدون الشام ، معهم ثمانون بعيراً ، فأخذوا ذلك ، وأصاب كل رجل منهم قيمة ثلاثين ديناراً ، وكانوا قد أمروا عليهم أبا بصير ، فكان يصلى بهم ، ويقرئهم ويجمعهم ، وهم له سامعون مطيعون فغاظ قريشاً صنيع أبى بصير ، وشق عليهم ، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم إلا أدخل أبا بصير إليه ومن معه ، فلا حاجة لنا بهم فكتب ﷺ إلى أبى بصير أن يقدم بأصحابه معه ، فجاءه الكتاب وهو يموت فجعل يقرأه ﷺ ومات ، والكتاب فى يده فدفنه أصحابه ، وأقبلوا إلى المدينة وهم سبعون رجلاً [١] .

وهكذا تم إلغاء الشرط الذى وضعه القرشيون لأنفسهم ، ظناً منهم أنه يفيدهم فى منع أهل مكة من اعتناق الإسلام .

وقد استمرت جبهة قريش على هدوئها إلى أن نقضت قريش العهد بمناصرة بنى بكر حلفائها على بنى خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ فكان أن تم فتح مكة .

- ثانياً -

العمل فى المحيط العام

" إرسـائل الرسـائل "

انفتحت السبل ، وأصبح الطريق آمنا أمام الدعاة ليصلوا بدينهم للناس ، وتشوق الجميع ليتعلموا هذا الدين الذى أعلنه محمد ﷺ وتغلب به على قريش ، وانتشر بسببه

---

(١) المغازى جـ٢ صـ٦٣١

السلام بين العرب جميعاً .... ورأى النبي ﷺ أن الجبهة أمام الدعوة قد اتسعت لتشـــمل الجزيرة كله ، والعالم كله .... ما عدا جيوب صغيرة تتأبى قبول الإسلام ، والاســـتماع لدعاته ... وهداه الله سبحانه وتعالى لوسيلة تناسب هذا التوسع ، هى وسيلة الرســـائل يحملها الصحابة ، الذين يختارهم لحملها إلى رؤساء القبائل ، وشيوخ العشائر ، وملـــوك الدنيا ... وفيها يدعونهم ومن وراءهم إلى الدخول فى الإسلام .

فأنشأ ﷺ ديواناً لـــ"كتابة الرسائل " وهو الذى عرف بديوان الإنشاء ، ويقصد به إعداد المكان الذى تكتب فيه الرسائل التى يمليها رسول الله ﷺ ليحملها من يختاره ﷺ .. كما يستقبل الرسائل التى تأتى إلى رسول الله ﷺ .

وهو أول ديوان وضع فى الإسلام ، وذلك أن النبى ﷺ كان يكاتـــب أمـــراءه ، وأصحاب سراياه من أصحابه ، ويكاتبونه ، وكتب إلى من أمكنه من ملـــوك الأرض ورؤساء العالم ، يدعوهم إلى الإسلام .

واتخذ من أصحابه من يكتب له ، وقد ذكر ابن عساكر أنهم كانوا خمسة وعشرين صحابياً فذكر منهم : علياً ، وأبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعامر بن فهيرة ، وعبد الله بن الأرقم ، وأبى بن كعب ، وثابت بن قيس بن شماس ، وخالد بن سعيد ابن العاص ، وأخاه (أبان) ، وحنظلة بن أبى عامر الاسدى ، وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان ، وشرحبيل ابن حسنة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبى ابن سلول ، والزبير بـــن العـــوام ، ومعيقب بن أبى فاطمة الدوسى ، والمغيرة بن شعبة ، وخالد بن الوليد ، والعـــلاء بـــن الحضرمى ، وعمرو بن العاص ، وجهيم بن الصلت وعبد الله بن رواحة ، ومحمد بـــن مسلمة ، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح [١] .

وقد أوصلهم العراقى إلى اثنين وأربعين كاتباً [٢] ، وأوصلهم الـــدكتور / عبـــد الحى الفرماوى إلى ست وأربعين كاتباً [٣] .

وقد اتخذ النبى ﷺ كتاباً يعرفون لغة من سيكتب إليهم ، وعلى رأسهم زيد بن ثابت ،

---

(١) الاستيعاب جـــ١ صـــ٥١

(٢) التراتيب الإدارية صـــ١٩٢

(٣) رسالة مخطوطة بكلية أصول الدين بعنوان " رسم المصحف ونقطه ورقة ١٨ ، ١٩

وأبى بن كعب ، وعبد الله بن الأرقم ، يقول ابن إسحاق : كان زيد بن ثابت يكتب الوحى ، ويكتب إلى الملوك ، وكان إذا غاب عبد الله بن الأرقم ، وزيد بن ثابت واحتاج رسول الله ﷺ أن يكتب إلى أمراء الأجناد والملوك أمر من حضر أن يكتب له[١]

وكان اختيار الرسول لكتابه على أساس اتصافهم بالصدق ، والأمانة ، والدقة والورع يقول أبو بكر لزيد بن ثابت : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، فقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن واجمعه [٢] .

يقول ابن حجر : لأنه لو لم تثبت أمانته ، وكفايته ، وعقله لما استكتبه النبى ﷺ وإنما وصفه بالعقل ، وعدم الاتهام دون ما عداهما إشارة إلى استمرار ذلك فيه [٣] .

وكان الكتبة من الصحابة يكتبون على اللوح ، والرق (الجلد المرقق) والكاغد (الصحيفة) واللخاف (الحجارة البيضاء الرقيقة) ، والنحاس ، والحديد ، وعسيب النخل ، وعلى عظم أكتاف الإبل ، والغنم ، والأدم[٤] .

يروى ابن سعد أن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست أرسل الرسل إلى الملوك وكان الملوك لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً ، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتماً من فضة وفصه منه ، نقش عليه ثلاثة أسطر : محمد رسول الله ، وختم به الكتب فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع ، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم ، الذين بعثه إليهم .

وقد تميزت رسائله ﷺ بالمواصفات التالية :

١) كان يضع عنواناً لرسائله هو (من محمد رسول الله إلى فلان) ويجعل العنوان قسمين ، مفصول بينهما مثل :

(من محمد رسول الله ... إلى فلان) ...

٢) كان يصدر رسائله بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) يقول ابن حجر : جمعت كتبه

---

(١) الفتح الربانى بشرح مسند الإمام أحمد الشيبانى جـ١ صـ١٤٥

(٢) صحيح البخارى – كتاب الحكام ، باب يستحب للكاتب أن يكون أميناً جـ١٣ صـ١٨٣

(٣) فتح البارى جـ١٣ صـ١٨٤

(٤) التراتيب الإدارية صـ١٩٧

ﷺ إلى الملوك ، وغيرهم ، فلم يقع لى شئ منها البداءه بالحمد ، بل بالبسملة [١]

٣) كان يبدأ رسائله بعد البسملة بذكر اسمه ﷺ ، واسم المرسل إليه ، أو شهرته فإن كان المكتوب إليه ملكاً كتب بعد ذكر اسمه عظيم القوم الفلانيين ، وربما كتب ملك القوم الفلانيين ، وربما كتب صاحب مملكة كذا ، وكان يعبر عن نفسه ﷺ فى أثناء كتبه بلفظ الإفراد ، مثل إنى ، ولى ، وجاءنى ، ووفد على ، وما أشبه ذلك، وربما أتى بلفظ الجمع مثل بلغنا ، وجاءنا ، ونحو ذلك ، وكان يخاطب المكتوب إليه عند الإفراد بكاف الخطاب ، مثل لك ، وعليك ، وتاء المخاطب ، مثل أنت قلت كذا وكذا ، وجعلت كذا ، وعند التثنية بلفظها مثل أنهما ، ولكما ، وعليكما ، وعند الجمع ، بلفظة مثل أنتم ، ولكم ، وعليكم ، وما أشبه ذلك [٢] .

٤) كان ﷺ يكتب فى رسائله : أما بعد ، ويضعها فاصلة بين المقدمة وعرض الموضوع .

٥) كان يختم رسائله ﷺ : بالسلام ، فيقول لأهل الكفر ، والسلام على من اتبع الهدى ، ويكتفى فى بعضها بقوله ... والسلام .

٦) كانت الرسائل تذيل باسم كاتبها ، وبخاتم رسول الله ﷺ المكتوب فيه (محمد رسول الله) تكتب على ثلاثة أسطر فى كل سطر كلمة (محمد) (رسول) (الله) من أسفل إلى أعلى ، ليكون لفظ الله هو الأعلى [٣] .

٧) كانت الرسائل تؤرخ بالهجرة ، حيث عرف التاريخ بها فى زمنه ﷺ .

وقد كانت الرسائل عملاً دقيقاً ، حسناً ، فبلغت الإسلام ، وخاطبت الأمم والملوك بالحسنى ، واشتملت على الحقائق التالية :

<u>أولاً</u> : وجهت الرسائل إلى الملوك والأمراء فهم قادة الناس ، ورعيتهم على دينهم، وقد تضمنت الرسائل ما يفيد مسئولية الملوك عن رعاياهم ومن ذلك: (.. **فإنما عليك إثم المجوس)**، (**عليك إثم الإريسيين**)، (**فإنما عليك إثم النصارى**)، (**فإنما عليك إثم القبط)**

---

(١) فتح البارى جـ٨ صـ٦٨

(٢) التراتيب الإدارية صـ٢٠٣

(٣) الرسائل النبوية صـ١١٨

(عليك إثم الأكاريين) وبذلك تعد هذه الرسائل تبليغاً لعالمية الإسلام بصورة عملية .

ثانياً : كانت الرسائل تتناسب مع المرسل إليهم لهجة ، وأسلوباً ، واستدلالاً ولذلك كانت تتكلم عن المسيح والكتاب إذا كان الملك من أهل الكتاب ، وتتكلم عن مساوئ الكفر والضلال إذا كان الملك كافراً كالمجوس .

ثالثاً : كانت الرسائل واضحة فى موضوعها فهى كلها تدعو إلى التوحيد ، وطاعة الله ، وتتضمن الإنذار والتبشير ، وتربط دوام الملك بالإيمان ، وتخوف من زوال الملك حين الاستمرار على الكفر والمعصية [١] .

وقد أرسل رسول الله ﷺ كتبه فى شهر المحرم سنة سبع ، بعد العودة من الحديبية بعشرين يوماً وبعدها تتابعت كتبه إلى سائر الناس ، وقد عد ابن سعد منها أكثر من سبعين كتاباً [٢] وفيما يلى نصوص أهم هذه الكتب :

- ١ -

كتاب النبى ﷺ
إلي النجاشى ملك الحبشة

حمل الرسالة إلى النجاشى الصحابى عمرو بن أمية الضمرى ﷺ ونص الرسالة :

هذا كتاب من محمد النبى إلى النجاشى الأصحم عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الإسلام ، فإنى أنا رسوله ، فأسلم تسلم ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [٣] فإن أبيت فإن عليك إثم النصارى من قومك .

وقد رحب النجاشى بالرسالة ، ووضعها على عينه ، وأعلن إسلامه أمام جعفر بن أبى

---

(١) النظام السياسى فى الإسلام صـ ١٤٤

(٢) انظر الطبقات الكبرى جـ ١ صـ ٢٥٨-٢٧٩

(٣) سورة آل عمران الآية ٦٤

طالب ، وكتب رداً إلى النبى ﷺ جاء فيه : (**إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم سلام عليك نبى الله من الله ورحمة الله وبركاته ، والله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد :**

فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت فروقاً ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قربنا ابن عمك ، وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقاً ، مصدقاً وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين [١] .

ثم جهز سفينتين حمل فيهما المهاجرين إلى الحبشة ، وعاد بهم عمرو بن أمية إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فوصلوا إليها فى شهر رجب من السنة السابعة ، والمسلمون فى غزوة خيبر .

- ٢ -

كتاب النبى ﷺ
إلي المقوقس ملك مصر

حمل رسالة النبى ﷺ إلى المقوقس حاطب بن أبى بلتعة ﷺ ، وقد جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم أهل القبط[٢] ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

وقد قام حاطب بدعوة المقوقس إلى الإسلام ، وبين له قرب النصارى من المسلمين وأن محمداً هو الذى بشر به عيسى عليه السلام .

وقد أخذ المقوقس الكتاب ، وكتب رداً عليه جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك

---

(١) الرحيق المختوم صـ ٣٥١ ، ٣٥٢

(٢) حسن المحاضرة جـ١ صـ٤٢

أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك [١]

- ٣ -

كتاب النبى ﷺ
إلي كسرى ملك فارس

وأرسل النبى ﷺ رسالة إلى كسرى حملها الصحابى عبد الله بن حذافة السهمى رضي الله عنه قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس [٢]

- ٤ -

كتاب النبى ﷺ
إلي قيصر الروم

وأرسل النبى ﷺ رسالة إلى قيصر الروم ، قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الإريسيين ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [٣] .

---

(١) الرحيق المختوم صـ٣٥٣ ، ٣٥٤

(٢) الطبقات الكبرى جـ٣ صـ٣٨١

(٣) سورة آل عمران الآية ٦٤

واختار النبى ﷺ لحمل هذا الكتاب دحية بن خليفة الكلبى ﷺ ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر .

وقد روى البخارى عن ابن عباس : أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام فى المدة التى كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء (بيت المقدس) فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟

فقال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسباً .

فقال : ادنوه منى ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانة : إنى سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه .

يقول أبو سفيان : فوالله ، لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه .

ثم قال : أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟

فقلت : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قال : لا .

قال : فاشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن دخل فيه .

قلت : لا .

قال : فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟

قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

قال : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة .

قال : فهل قاتلتموه ؟

قال : نعم .

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟

قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .

قال : بماذا يأمركم ؟

قلت : يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق ، والعفاف ، والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب من قومها .

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا : قلت لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله .

وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا ، فقلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا فقلت أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله .

وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أنهم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل .

وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن دخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك

الإيمان حت تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك بماذا يأمر ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف .

فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمية ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ ، فقرأه ، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده ، وكثر اللغط ، وأمر بنا فأخرجنا : فقلت لأصحابه حين أخرجنا لقد علا أمر ابن أبى كبشة وإنه ليخافه على ملك بنى الأصفر ، فما زلت موقنا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله علىَّ الإسلام [١] .

- ٥ -

كتاب النبى ﷺ
إلي المنذر بن ساوى

وأرسل النبى ﷺ رسالة إلى المنذر رسالة جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فإنى أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً ، وإنى قد شفعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية [٢] .

وحمل الرسالة المنذر العلاء الحضرمى ﷺ .

---

(١) صحيح مسلم جـ٥ صـ١٦٣ تاريخ الطبرى جـ٢ صـ٢٩٠

(٢) الرحيق المختوم صـ٣٥٨

-٦-

كتاب النبى ﷺ

إلي هوذة بن على وثمامة بن آثال صاحبى اليمامة

وأرسل النبى ﷺ مع الصحابى سليط بن عمرو العامرى ؓ رسالة إلى هوذة جاء فيها : **بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ﷺ إلى هوذة بن على ، سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم واجعل لك ما تحت يديك** (١) .

-٧-

كتاب النبى ﷺ

إلي الحارث بن أبى شمر صاحب دمشق

وأرسل شجاع بن وهب من بنى خزيمة ؓ برسالة إلى الحارث بن أبى شمس صاحب دمشق جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن به وصدق ، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك (٢) .

-٨-

كتاب النبى ﷺ

إلى ملك عمان وأخيه

وأرسل النبى ﷺ عمرو بن العاص ؓ إلى جيفر ملك عمان وأخيه عياد برسالة جاء فيها : **بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنى رسول الله ﷺ إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما**

---

(١) الرحيق المختوم صـ٣٥٨

(٢) الرحيق المختوم صـ٣٥٩

زائل ، وخيلى تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما (١) .

- ٩ -

الدعاة حملة الرسائل

تخير النبى ﷺ من أصحابه ﷺ الأعرف بدينه الجميل فى خلقته ، الكريم فى خلقه ، القوى فى شجاعته ، الأمين فى عمله ونشاطه ، الحليم فى صبره ، الداهية فى قوله وعمله ، وأرسلهم فرادى لمواجهة ملوك الأرض وشعوبها ، ودعوتهم إلى الله تعالى .

وقد حمل هؤلاء الصحابة كتب رسول الله ﷺ إلى ملوك ورؤساء الدنيا ، ولكنهم لم يكونوا مجرد حاملين للرسائل ، وإنما كانوا دعاة ، يحملون دينهم ، ويعملون له ، ويدعون إليه بالحسنى ، ويردون عنه زيف الضالين ، وشبه المحرفين .

وكان رسول الله ﷺ يوصيهم بالخلق الكريم ، والتعامل السهل ، يروى البخارى بسنده أن رسول الله ﷺ كان يقول لأصحابه " **يسروا ولا تعسروا إنما بعثتم ميسرين لا معسرين** " .

ويروى البخارى أيضاً بسنده عن أبى سعيد بن بردة عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً وأبا موسى إلى اليمن وقال لهما : **يسرا ولا تعسرا ، بشرا ولا تنفرا ، تطاوعا ولا تختلفا** (٢) .

يقول ابن حجر : كان ذلك شأنه ﷺ فى حق كل من بعثه إلى جهة من الجهات (٣) .

وحين ننظر إلى أعمال هؤلاء السفراء وأقوالهم ندرك دورهم فى الدعوة إلى الله تعالى ، ونعلم بيقين أن هؤلاء السفراء لم يكونوا رجالاً عاديين ، وأنهم تميزوا بعدة صفات أهمها :

أ) الفهم الدقيق للإسلام ، وإحاطتهم التامة بكل ما نزل من القرآن الكريم وبكل ما حدث به ﷺ .

ب) خبرتهم الواسعة بالجهات التى ذهبوا إليها ، وبالناس الذين تحدثوا معهم ،

---

(١) الرحيق المختوم صـ٣٥٩ ، والظاهر أن الرسالة التى حملها ، عمرو بن العاص كانت بعد هذا التاريخ لأن عمرو بن العاص أسلم بعد ذلك .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الوضوء ، باب صب الماء على البول جـ١ صـ٣٢٣

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الجهاد ، باب ما يكره فى التنازع جـ٦ صـ١٦٣

ولذلك كانوا يتكلمون معهم ، ويناقشونهم فى عقائدهم حديث الخبير الذى يعرف حقائق الشئ ظاهراً وباطناً ويدرك حاجته ، ومراميه .

ج) تحليهم بحسن الخلق ، والصبر الجميل ومراعاة حق مخاطبيهم فى الفهم والمعرفة ولذلك كانوا يشرحون ، ويوضحون ويجيبون على أى تساؤل يوجه إليهم .

د) اتصافهم بسرعة مواجهة المواقف المفاجئة ، وحسن الحيلة ، وبذلك تخلصوا من الإنفعال والعصبية ، وتمكنوا من تحقيق الغاية التى ذهبوا إليها .

هـ) تمتعهم بحسن الفهم ، وحسن الخطاب ، وحسن العرض ، ولذلك كانوا يتكلمون مع من يحادثهم فى مسائل هامة ، فى بداهة عالية ، وهدوء رصين ، ودقة ملتزمة بتعاليم الإسلام .

و) صدقهم فى الاعتقاد ، ولذلك وفوا لإيمانهم ، وحافظوا على حقوق محدثيهم وعرضوا قضيتهم بكل صدق ، ووضوح ، بلا تردد أو مداراة ، وكانوا دعوة عملية صريحة

ز) شجاعتهم الشخصية النابعة من ثقتهم فى الله ، واعتزازهم بالإنتساب إليه جعلهم يؤكدون صدق الإسلام وإن خالف ما عليه الناس ويناقشون الملوك والرؤساء وهم فرادى ، وسط أبهة الملك ، وقوة السلطان .

إن هذه الصفات جعلتهم سفراء لله ورسوله ، حين تحدثوا مع من أرسلوا إليهم ، يتضح ذلك حين ننظر فى كلماتهم التى ذكروها لمن ذهبوا إليهم .

من ذلك ما ذكره دحية الكلبى لقيصر الروم ، قال له :

(يا قيصر أرسلنى من هو خير منك ، والذى أرسله هو خير منه ومنك ، فاسمع بذل ، ثم أجب بنصح ، فإنك إن لم تذلل لم تفهم ، وإن لم تنصح لم تنصف .

قال : هات .

قال : هل تعلم أكان المسيح يصلى ؟

قال : نعم .

قال : فإنى أدعوك إلى من كان المسيح يصلى له ، وأدعوك إلى من دبر خلق السموات والأرض والمسيح فى بطن أمه .

أدعوك إلى هذا النبى الأمى الذى بشر به موسى ، وبشر به عيسى بن مريم بعده وعندك من ذلك أثاره ، من علم تكفى من العيان ، وتشفى من الخبر .

فإن أجبت كانت لك الدنيا والآخرة ، وإلا ذهبت عنك الآخرة ، وشوركت الدنيا ، واعلم أن لك رباً يقصم الجبابرة ، ويغير النعم .

فأخذ قيصر الكتاب فوضعه على عينيه ورأسه وقبله ، ثم قال : أما والله ما تركت كتاباً إلا وقرأته ، ولا عالماً إلا سألته ، فما رأيت إلا خيراً ، فأمهلنى حتى أنظر من كان المسيح يصلى له ، فإنى أكره أن أجيبك اليوم بأمر أرى غداً ما هو أحسن منه فأرجع عنه فيضرنى ذلك ، لا ينفعنى [1] .

ومنه أيضاً ما ذكره العلاء الحضرمى للمنذر بن ساوى ملك البحرين قال له :

يا منذر إنك عظيم العقل فى الدنيا ، فلا تصغرن عن الآخرة .

إن هذه المجوسية شر دين ، ليس فيها تكرم العرب ، ولا علم أهل الكتاب ، ينكحون ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتكره على أكله ، ويعبدون فى الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة .

ولست بعديم عقل ، ولا فاقد رأى فانظر .

هلى ينبغى لمن لا يكذب أن لا تصدقه ؟!

ولمن لا يخون أن لا تأمنه ؟!

ولمن لا يخلف أن لا تثق به ؟!

فإن كان هذا هكذا ، فهو هذا النبى الأمى ، الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، أوليته زاد فى عفوه ، أو نقص من عقابه ، إن كل ذلك منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل البصر .

فقال المنذر : قد نظرت فى هذا الأمر الذى فى يدى فوجدته للدنيا دون الأخرة ونظرت فى دينكم فوجدته للآخرة والدنيا ، فما يمنعنى من قبول دين فيه أمنية الحياة راحة الموت ، ولقد عجبت أمس ممن يقبله ، وعجبت اليوم ممن يرده ، إن من إعظام من

---

(١) الروض الأنف جـ ٤ صـ ٢٤٩

جاء به أن يعظم رسله ، وسأنظر [١] .

ومن ذلك ما ذكره عمرو بن العاص للجلندى ، قال له :

يا جلندى إنك وإن كنت منا بعيداً ، فإنك من الله غير بعيد ، .

إن الذى تفرد بخلقك أهل أن تفرده بعبادتك ، وأن لا تشرك به من لم يشركه فيك واعلم أنه يميتك الذى أحياك ، ويعيدك الذى بدأك .

فانظر فى هذا النبى الأمى الذى جاء بالدنيا والآخرة ، فإن كان يريد به أجراً فامنعه أو يميل به هوى فدعه ، ثم انظر فيما يجئ به هل يشبه ما يجئ به الناس فإن كان يشبهه فسله العيان ، وتخير عليه فى الخبر ، وإن كان لا يشبهه فأقبل ما قال ، وخف ما وعد .

قال الجلندى : إنه والله لقد دلنى على صدق هذا النبى الأمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول من أخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر ، وأنه يفى بالعهد ، وينجز الموعود ، وأنه لا يزال سر قد اطلع عليه يساوى فيه أهله ، وأشهد أنه نبى [٢] .

ومن ذلك ما ذكره المهاجر بن أبى أمية للحارث بن عبد كلال ، حيث قال :

يا حارث إنك كنت أول من عرض عليه النبى ﷺ نفسه فخطئت عنه ، وأنت أعظم الملوك قدراً .

فإذا نظرت فى غلبة الملوك ، فانظر فى غالب الملوك .

وإذا سرك يومك فخف غدك .

وقد كان قبلك ملوك ذهبت آثارها ، وبقيت أخبارها ، عاشوا طويلاً ، وأملوا بعيداً ، وتزودوا قليلاً ، منهم من أدركه الموت ، ومنهم من أكلته النقم .

وإنى أدعوك إلى الرب الذى إن أردت الهدى لم يمنعك ، وإن أرادك لم يمنعه منك أحد وأدعوك إلى النبى الأمى الذى ليس له شئ أحسن مما يأمر به ، ولا أقبح مما ينهى عنه ، واعلم أن لك رباً يميت الحى ويحيى الميت ، ويعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور .

---

(١) الروض الأنف جـ ٤ صـ ٢٥٠

(٢) الروض الأنف جـ ٤ صـ ٢٥٠

فقال الحارث : قد كان هذا النبى عرض نفسه على فخطئت عنه ، وكان ذخراً لمن صار إليه ، وكان أمره أمراً سبق ، فحضره اليأس وغاب عنه الطمع ، ولم يكن لى قرابة أحتمله عليها ، ولا لى فيه هوى أتبعه له ، غير أنى أرى أمراً لم يوسوسه الكذب ولم يسنده الباطل ، له بدء سار ، وعاقبة نافعة وسأنظر .

إن هذه المواعظ التى واجه بها صحابة رسول الله ﷺ الملوك والرؤساء تدل بوضوح على عبقرية هؤلاء الصحابة ، ومدى تمتعهم بالمزايا التى يجب أن يتحلى بها الدعاة وهم يتحركون بالإسلام فهم ليسوا موظفين عاديين يؤدون عملهم وفقط ، وإنما هم أصحاب رسالة ، وجنود قضية ، يعيشون لها ، ويتحركون بها ... وتحقيق انتصارها هى كل همهم ، واهتماماتهم .

إن الجو الذى قيلت فيه هذه الكلمات يؤكد طبيعة هؤلاء الرجال من أصحاب رسول الله ﷺ ، إنها قيلت لملوك وأمراء ، وهم بين جنودهم ، ووزرائهم ، وحاشيتهم ، ولم يكن أحد منهم قد دخل فى الإسلام بعد بينما المتحدث رجل واحد ، هو سفير رسول الله ﷺ .

فدلالة الموقف واضحة فى تأكيد شجاعة وقوة شخصية أصحاب رسول الله ﷺ وتبين فى نفس الوقت قوة ولائهم للقضية التى جاءوا من أجلها .

لقد دار الحديث حول قضايا العقيدة فدعوا إلى الإيمان بالله الواحد ، ونبذ عبادة غيره مع تقديم الدليل المناسب لكل منهم .

فمع قيصر يدلل الداعية على وحدانية الله بعبودية المسيح لله ، ومع المنذر المجوسى يدلل بهوان النار وضررها ، على عدم صلاحيتها للألوهية ، وأن الألوهية الحقة هى لله الخالق .

وهكذا سار كل داعية فى كلمته اتجاهاً يتناسب مع محدثه ، بلا اصطدام معه ، وبطريقة تدعوه إلى النظر والتدبر .

لقد ركزوا فى كلماتهم السابقة على أهم أركان الإيمان وأساسيات العقيدة وهى :

* الإيمان بالله الواحد .
* الإيمان بالرسول النبى الأمى ﷺ .

* الإيمان بالآخرة بما فيها من حساب وجزاء .

و لم يتكلموا فى الأركان الباقية ، لأن الإسلام كله ، بأركانه وفروعه يتحقق تبعاً لهذه الأركان الثلاثة.

إن هؤلاء الرجال هم نماذج الدعاة فى العالم كله ، وقد تمكنوا من نشر الإسلام فى الناس ، لحسن خلقهم ، وسعة معارفهم ، وبلاغه خطابهم ، وجمال عرض قضيتهم .

ونلاحظ من حركة الدعاة فى العالم ، وحملهم لرسائل رسول الله ﷺ مدى تفاعل المجتمع كله بالإسلام ، وطاعته لرسول الله ﷺ ، وتوحيده فى إطار تعاليم الدين ، وتحقيق المصالح الحقيقية للناس أجمعين .

لم يحدث أن حكى التاريخ معارضة صحابى لأمر كلفه به رسول الله ﷺ ولو كان فى التكليف فناء دنياه .

و لم ينقل أحد من العلماء أن صحابياً جبن حين ذهابه وحيداً يبلغ الإسلام فى الأماكن البعيدة لقوم غير مسلمين .

و لم تكن حركة الدعاة بعيدة عن عقول وقلوب المسلمين فى المدينة ... بل كان المجتمع كله يتابع أخبار الدعاة ، ويعايش مسارهم ، ويدعو لهم ، مع كل الاستعداد للبذل والفداء من أجلهم ، ومن أجل الله تعالى .

وهذا ما نتمناه لأمة الإسلام التى يجب أن تسترشد فى حياتها بعصر القدوة ، عصر رسول الله ﷺ .

ـ ثالثاً ـ

القضاء على إرهاب اليهود فى خيبر وما حولها

بعد القضاء على اليهود فى المدينة وضواحيها ، والتخلص من بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ... تجمع من بقى منهم فى خيبر وهى على بعد ثمانين ميلاً شمال المدينة المنورة .

وخيبر عبارة عن ولاية فى واد متسع تتناثر فيه التلال والمرتفعات ، وقد جعل اليهود كل تل قرية صغيرة تتكامل منافعها وحاجاتها وجعلوا كل بيت حصناً ، وأحاطوا البيوت بسور منيع حتى صارت كل قرية حصناً كبيراً .

وقد أقام اليهود بيوتهم فى خيبر بناء على نظرتهم للحياة ، حيث يرون ضرورة التحصن خلف الجدر ، وتوزيع الاستيطان فى الأماكن العالية الحصينة ، وإحاطة مساكنهم بالنخيل ، والأشجار ليستفيدوا بثمرها ، ويستتروا بها من عدوهم ، ويعيشوا جنوداً محاربين ما دامت حياتهم فيها ، وقد سمى اليهود موطنهم بـ "خيبر" ومعناه الحصن ، والبعض يسميها " خيابر " إشارة إلى كونها مجموعة من الحصون المنيعة القوية .

وقد أخذ اليهود فى إعداد العدة لمواجهة المسلمين وغيرهم ، فأكثروا من تدريب رجالهم ، وتسليحهم ، وكانوا يخرجون كل يوم قبل الفجر ، فيلبسون السلاح ، ويصفون الكتائب ، ويتجمعون فى عشرة آلاف مقاتل استعداداً للمسلمين ، وإرهاباً لمن تسول له نفسه أن يأتى إليهم لمقاتلتهم .

ونظراً لما فى خيبر من زروع كثيرة ، وثمار متنوعة فإنهم كانوا يسخرونها لكسب مودة القبائل ، والتحالف معهم على المسلمين .

وقد تصور كثير من العرب أن اليهود فى خيبر قوة لن تهزمها قوة أخرى ، وكان اليهود أنفسهم يشيعون ذلك ، ويقولون ... **محمد يغزونا** ... **هيهات** ....**هيهات** ، وكان اليهود الذين وادعوا المسلمين فى المدينة يقولون بعد أن تحرك المسلمون إلى خيبر : لو رأيتم خيبر وحصونها لعلمتم أن المسلمين سيرجعون قبل أن يصلوا إليها ، حصون شامخات فى ذرى الجبال والماء فيها دائم ، وقوتهم ظاهرة بارزة [1] .

---

(١) المغازى جـ٢ صـ٦٣٦

والحديث عن مواجهة يهود خيبر يقتضى بيان ما يلى :

■١■

حصون خيبر

تخير اليهود التلال العالية ، والجبال المرتفعة ، فى الوادى وأقاموا فوقها حصـــونهم ، وقلاعهم .

والحصن الواحد عبارة عن عدد من البيوت المعدة للسكن ، يضم الملاجئ العديدة والمخابئ القوية ، ومصانع السلاح ، ومخازن المؤن والطعام ، وترتبط المخازن فى الحصون الرئيسية ، والمخابئ بأنفاق محفورة تحت الأرض وطرق معدة بين الزروع تضمن الحركة الآمنة للإنتقال فيما بينها ، وتحاط بيوت الحصن ومكملاتها بسور كبير عرضاً ، وطولاً ، وارتفاعاً ، نصبت فيه البوابات الضخمة ، وأسس فى أعاليه نقاط للحراسة والدفاع ، ونصب المنجنيق ، وجهزت أماكن الرماة .

وتختلف الحصون عن بعضها سعة واستعداداً ، تبعاً لموقعها ، وقدرة أصحابها ، وأهميتها فى التصدى والمقاومة .

وتخضع الولاية كلها لنظام إدارى واقتصادى واحد ، ويعرف كل حصن باسم صاحبه ، أو قائده ... ويحكم الحصون كلها الأحبار ورجال الدين .

وتتكون الحصون الرئيسية من مجموعات وكل مجموعة قوة متكاملة يسهل الإنسحاب من كل حصن فيها إلى غيره ، ويعين كل منها الآخر بالرجال والسلاح حين الحاجة .

والحصون الرئيسية فى خيبر ثلاثة مجموعات .

أولاها : يقع فى منطقة تسمى " **النطاة** " وتتكون من ثلاثة حصون هى :

١) حصن ناعم .

٢) حصن الصعب بن معاذ .

٣) حصن قلعة الزبير .

وثانيها : يقع فى منطقة تسمى " **الشق** " وتتكون من حصنين هما :

١) حصن أبى .

٢) حصن النزار .

وثالثها : يقع فى منطقة تعرف بـــ" الكتيبة " وتتكون من ثلاثة حصون هى :

١) حصن القموص ، وهو حصن أبناء أبى الحقيق من بنى النضير .

٢) حصن الوطيح .

٣) حصن السلالم .

وحصون المجموعتين الأولى والثانية أكثر تحصيناً من الثالثة ، ولـــذلك دار القتـــال الشديد حولهما ... أما حصون المجموعة الثالثة فقد استسلمت للمسلمين بلا قتال بعـــد سقوط المجموعتين الأوليين [1].

وقد جهز اليهود حصن الصعب فى المجموعة الأولى ، وحصن النزار فى المجموعة الثانية ، بالمؤن والعتاد ليكونا موئل الأسر والذرارى .

وقد قام اليهود بزراعة الوادى المنخفض بالزروع ، والنخيل ، والأشجار العالية ، وحفروا كثيراً من الآبار لسقى الأرض ، ومد الحصون بالمياه .

وبهذا التصوير الواقعى لخيبر ندرك ما صنعه اليهـــود ليتحقـــق لهـــم الإســـتقلال الاقتصادى ، والدينى ، والعسكرى ... ونرى مدى حرصهم على حمايـــة أنفســـهم ، ونشاطهم ، ومعرفة منهجهم فى الحياة ... الأمر الذى أدى بهم إلى غـــرور دفعهـــم إلى التآمر على الإسلام والمسلمين ، وإلى تجميع ما يمكنهم من القبائل لمحاربة رسول الله ﷺ .

■ ٢ ■

تحرك المسلمين نحو خيبر

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد الحديبية عشرين يوماً تحرك بعدها إلى خيبر ، وقد وعده الله تعالى بمغانم خيبر فقال تعالى ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا

---

(١) المغازى جـــ٢ صـــ٦٦٩

مُسْتَقِيمًا ﴾[١] .

والآية تشير إلى ما فى صلح الحديبية من خير عجله الله تعالى لهم ، كما تعدهم بمغانم كثيرة بعد ذلك هى مغانم خيبر ، وقد شعر المنافقون وضعفاء الإيمان بما فى خيبر من غنائم فعزموا على الخروج مع رسول الله ﷺ ليأخذوا منها فأمره الله تعالى بمنعهم فى قوله سبحانه وتعالى ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٢] .

ولذلك قال النبى لأصحابه لا يخرج معنا إلا راغب فى الجهاد .

فخرج معه الذين بايعوه تحت الشجرة وعددهم ألف وأربعمائة .

واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة ؓ .

وبعد أن صلى المسلمون صلاة الصبح تحرك الجيش الإسلامى وسلك رسول الله ﷺ فى اتجاهه نحو خيبر جبل عصر (بالكسر وقيل بالتحريك) ثم الصهباء ، ثم نزل على واد يقال له " الرجيع " وكان بينه وبين غطفان مسيرة يوم وليلة ، فتهيأت غطفان ، وتوجهوا إلى خيبر ، لإمداد اليهود ، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حساً ولغطاً فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا إلى ديارهم لحراسة الديار وحماية الذرارى والنساء وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر .

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يرشدان الجيش ليدلاه على الطريق الأحسن ، حتى يدخل خيبر من جهة الشمال أى جهة الشام فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام كما يحول بينهم وبين غطفان .

قال أحدهما : أنا أدلك يا رسول الله فسار الجيش حتى انتهى إلى مفرق طرق وقال يا رسول الله ﷺ : هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصد ، فأمره ﷺ أن

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٠

(٢) سورة الفتح الآية ١٥

يسميها له واحداً واحداً .

قال الرجل : اسم واحد منها حزن فأبى النبى ﷺ سلوكه .

وقال : اسم الثانى شاش ، فامتنع منه أيضاً .

وقال ﷺ : اسم آخر حاطب ، فامتنع منه أيضاً .

فقال حسيل ، فما بقى إلا واحد منها .

قال عمر : ما اسمه ؟

قال : مرحب ، فاختار النبى ﷺ سلوكه تفاؤلاً باسمه .

وقد حدث فى الطريق إلى خيبر أن رجلاً من القوم قال لعامر بن الأكوع : يا عامر ألا تسمعنا من هنيهاتك ؟

وكان عامر رجلاً شاعراً ، فنزل يحدو بالقوم ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك ما اتقينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

وألقين سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أبينا

فقال رسول الله ﷺ : من هذا السائق ؟

قالوا : عامر بن الأكوع .

قال : يرحمه الله .

قال رجل من القوم : وجبت يا نبى الله ، لولا أمتعتنا به [١]

وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد ، وقد استشهد عامر فى غزوة خيبر .

وفى الطريق أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير (الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله) فقال رسول الله ﷺ " أربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم ، وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ فسمعنى وأنا أقول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) صحيح البخارى باب غزوة خيبر جـ٦ صـ٣٧٤ .

فقال لى : يا عبد الله بن قيس .

قلت : لبيك رسول الله .

قال : ألا أدلك على كلمة من كتر من كنوز الجنة .

قلت : بلى يا رسول الله ، فداك أبى وأمى .

قال : لا حول ولا قوة إلا بالله (١).

وعند الصهباء أدنى خيبر صلى رسول الله بالمسلمين العصر ، ثم دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسويق فأمر به فثرى ، فأكل وأكل الناس ، ثم قام إلى المغرب ، فمضمض ومضمض الناس ، ثم صلى و لم يتوضأ ، ثم صلى العشاء (٢).

بات المسلمون الليلة الأخيرة التى بدأ فى صباحها القتال قريباً من خيبر ، واليهود لا يشعرون بهم ، وكان النبى ﷺ إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح ، فلما أصبح صلى الفجر بغلس ، وركب المسلمون ، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم ولا يشعرون فلما خرجوا لأرضهم ، ورأوا الجيش قالوا : محمد ، والله محمد والخميس (٣) ، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم ، فقال النبى ﷺ " **الله أكبر خربت خيبر ، الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين** (٤).

وكان النبى ﷺ اختار لمعسكره مترلاً وسط الأشجار ، تعلوه الحصون فأتاه الحباب بن المنذر فقال : **يا رسول الله أرأيت هذا المترل أنزلكه الله ، أم هو الرأى فى الحرب ؟**

قال : بل هو الرأى .

فقال : يا رسول الله إن هذا المترل قريب جداً من حصن نطاة ، وجميع مقاتلى خيبر فيه ، وهم يدرون أحوالنا ، ونحن لا ندرى أحوالهم ، وسهامهم تصل إلينا ، وسهامنا لا تصل إليهم ، ولا نأمن من بياتهم ، وأيضاً هذا بين النخلات ، وفى مكان غائر ، وأرض وخيمة ، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد ، نتخذه معسكراً .

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة خيبر جـ٦ صـ٣٨٠ ، ٣٨١

(٢) المغازى جـ٢ صـ٦٤٢ ، ٦٤٣

(٣) معنى قولهم والخميس أن الجيش أقبل فى خمسة أركان مقدمة ، ومؤخرة ، وميمنة ، وميسرة ، وقلب .

(٤) صحيح البخارى باب غزوة خيبر جـ٦ صـ٣٧٦

قال ﷺ : الرأى ما أشرت ، ثم تحول إلى مكان آخر .

ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال ﷺ : **قفوا فوقف الجيش** فقال ﷺ : **اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، فإنا لنسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شر هذه القرية ، وشر أهلها ، وشر ما فيها ، أقدموا بسم الله .**

ولما كانت ليلة الدخول قال : **لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ ، كلهم يرجو أن يعطاها .**

فقال رسول الله ﷺ : أين على بن أبي طالب .

فقالوا : يا رسول الله هو يشتكى عينيه .

قال : فأرسلوا إليه ، فأتى به ، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرئ ، كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية .

فقال : يا رسول الله ﷺ أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟

قال ﷺ : انفذ على رسلك ، حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم [١] .

- ٣ -

اقتحام الحصون

وصل المسلمون إلى مجموعة النطاة ، وعرض على بن أبي طالب على أهل النطاة الإسلام فأبوا ، فعرض عليهم الاستسلام ودفع الجزية فأبوا ، وهنا كان لابد من قتالهم حتى ينزلوا على حكم الله تعالى .

بدأ المسلمون بمهاجمة مجموعة " النطاة " فأمر رسول الله ﷺ كيداً لهم وفتحاً للطريق إليهم وإزالة للموانع الموجودة أمام حصونهم بقطع نخيلهم ، وقد بلغ عدد النخيل الذى قطع أربعمائة نخلة ، وكان المسلمون يعسكرون ليلاً بالرجيع ، ويهاجمون النطاة نهارا

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة خيبر جـ٦ صـ٣٨٣

ومن يجرح منهم يأخذوه إلى الرجيع ، واستمر المسلمون على ذلك سبعة أيام ، جرح منهم عدد كثير ، حيث جرح منهم خمسون رجلاً فى أول يوم ، وقد جرح محمد بن مسلمة بعدما أدلى عليه " مرحب " اليهودى رحى هشمت بيضته وجرح حليفة ، فعالجه النبى ﷺ وأخذه إلى الر جيع ، فمات بها بعد ثلاثة أيام .

واشتد الأمر على المسلمين فساق الله إليهم يهودى ، وأخذ ينادى : **أنا آمن وأبلغكم ؟**

فقالوا : **نعم .**

فدخل على رسول الله ﷺ فدله على عورة اليهود فغدوا عليهم ، فظفّرهم الله بهم .

وبعد سقوط تحصينات النطاة وجد المسلمون أنفسهم أمام حصن الناعم ، وهو الحصن الرئيسي فى النطاة وصاحبه هو " مرحب اليهودى " الذى كان يعد بألف فارس

دعا على بن أبى طالب أهل الحصن إلى الإسلام فأبوا ، فخرج " مرحب " وطلب المبارزة ... فبارزه أولاً عامر بن الأكوع فاستشهد عامر ﷺ ... فدعا مرحب إلى المبارزة مرة أخرى فخرج له على بن أبى طالب وقتله .

ولما دنا على ﷺ من حصونهم اطلع يهودى من رأس الحصن ، وقال : من أنت ؟

فقال : أنا على بن أبى طالب .

فقال اليهودى : علوتم وما أنزل على موسى .

ثم خرج ياسر أخو مرحب وهو يقول : من يبارز ؟

فبرز إليه الزبير ، فقالت صفية أمه : يا رسول الله ، يقتلنى ابنى ؟

قال ﷺ : بل ابنك يقتله ، فقتله الزبير .

ودار **القتال المرير حول حصن ناعم** طوال الأيام السبعة ، قتل فيه عدة سراة من اليهود ، انهارت بعده مقاومة اليهود ، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين ، فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصعب ، واقتحم المسلمون حصن ناعم ، واستولوا على عدد من الحصون التابعة له .

وكان **حصن الصعب الحصن الثانى** من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعـــم ،

وفى النطاة وقد ملأه اليهود بالطعام ، وأسكنوا فيه الذرارى ، والنساء .

قام المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصارى ، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام ، وفى اليوم الثالث جاء بنو سهم للنبى ﷺ وشكوا إليه حالهم ، فدعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة .

فقال ﷺ : **اللهم إنك قد عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدى شئ أعطيهم إياه ، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء ، وأكثرها طعاماً وودكاً ، فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه** [1] .

ولما ندب النبى ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن ، كان بنو أسلم هم المقاديم فى المهاجمة ، ودار البراز والقتال أمام الحصن ، وقد فتح الحصن فى ذلك اليوم وهو الثالث قبل أن تغرب الشمس ، ووجد فيه المسلمون بعض المنجنيقات والدبابات .

وبعد فتح حصن ناعم والصعب تحول اليهود إلى قلعة الزبير ، وهو حصن منيع فى رأس تلة عالية ، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه ، ففرض عليه رسول الله الحصار ، وأقام محاصراً له ثلاثة أيام ، فجاء رجل من اليهود ، وقال : يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهراً ما بالوا ، إن لهم شراباً وعيوناً تحت الأرض ، يخرجون بالليل يشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك ، فقطع ماءهم عليهم ، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال وقتل فيه نفر من المسلمين ، وأصيب نحو العشرة من اليهود ، وافتتحه رسول الله ﷺ .

وبعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى الشق ، **وتحصنوا بقلعة أبى**، ففرض المسلمون عليهم الحصار ، فلما طلب اليهود المبارزة وخرج منهم رجلان بارزهم المسلمون ، وقتلوهما .

وكان الذى قتل المبارز الثانى هو البطل المشهور أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى صاحب العصابة الحمراء ، وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة ،

---

(١) الرحيق المختوم صـ ٣٧٠ ، ٣٧١

واقتحمها معه الجيش الإسلامى ، وجرى قتال مرير داخل الحصن ، ثم تسلل اليهود من القلعة ، وتحولوا إلى **حصن النزار** آخر حصن فى المجموعة الثانية .

وكان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر ، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة ، وإن بذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل ، ولذلك جمعوا فى هذه القلعة الذرارى والنساء وساعدوا من كان فى الصعب منهم على الإنسحاب إليه حينما رأوا بوادر سقوط الحصن فى يد المسلمين .

وفرض المسلمون على هذا الحصن الحصار الشديد ، وصاروروا يضغطون عليهم بعنف ولأن الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يجدوا سبيلاً لاقتحامه ، ولم يجرؤ اليهود على الخروج من الحصن ، للاشتباك مع قوات المسلمين ، لكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال ، وبإلقاء الحجارة .

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين ، أمر النبى ﷺ بنصب آلات المنجنيق ، وقذفوا بها القذائف ، فأوقعوا الخلل فى جدران الحصن ، واقتحموه ، ودار قتال مرير داخل الحصن ، انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة ، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى ، ففر أغلبهم من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذراريهم .

وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح النطاة والشق ، وهرب اليهود إلى المنطقة الثالثة .

ولما تم فتح ناحية النطاة والشق ، تحول رسول الله ﷺ إلى مجموعة الكتيبة وفيهاحصون الوطيح والسُّلالم والقموص حصن أبى الحقيق من بنى النضير ، وقد جاء إليها أغلب من انهزم من النطاة والشق ، وتحصن هؤلاء أشد التحصن .

واختلف أهل المغازى هل جرى قتال فى أى حصن من حصونها الثلاثة أم لا ؟

فسياق ابن إسحاق صريح فى جريان القتال لفتح حصن القموص ، بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجرى هناك مفاوضة للاستسلام .

أما الواقدى ، فيصرح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاثة إنما أخذت بعد المفاوضة ، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال .

وقد فرض رسول الله على منطقة الكتيبة أشد الحصار ، ودام الحصار أربعة عشر يوماً ، واليهود لا يخرجون من حصونهم ، حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح .

- ٤ -

نهاية غزوة خيبر

لما اشتد حصار المسلمين للكتيبة أرسل ابن أبي الحقيق الأكبر وكان محاصراً فى قلعته إلى رسول الله ﷺ ليكلمه فى الصلح فقال له النبى ﷺ : انزل .

فنزل وصالح النبى ﷺ على حقن الدماء على أن يخرج أهل خيبر الرجال والنساء والذرارى جميعاً منها ، ويخلوها للمسلمين بكل ما فيها من مال ، وأرض ، وذهب ، وفضة وماشية ، وعقار .. بحيث يخرج الواحد منهم بثوبه فقط .

فقال ﷺ : برئت منكم ذمة الله ورسوله إن كتمتم شيئاً .

قال : نعم [١] .

وتم الصلح على ذلك ، وتسلم المسلمون الحصون ، وفتحت خيبر .

واستشهد من المسلمين فى خيبر عدد قليل يدور بين ستة عشر وثلاثة وعشرين شهيداً وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون قتيلاً [٢] .

وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة ، يروى البخارى بسنده عن ابن عمر قال : **ما شبعنا حتى فتحنا خيبر** [٣] .

وقد قسم رسول الله ﷺ الغنائم إلى ثلاثة آلاف وثمانمائة سهم جعل نصفها للمقاتلين والنصف الثانى جعله ﷺ للمسلمين ، وحاجاتهم [٤] .

ولما تم الصلح طلب يهود خيبر من رسول الله إبقاءهم فيها لزراعة الأرض وفلاحة

---

(١) المغازى جـ٢ صـ٦٧١

(٢) المغازى جـ٢ صـ٧٠٠

(٣) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة خيبر جـ٦ صـ٣٩٧

(٤) وزع ﷺ نصف المقاتلين لكل فارس سهم ، وكان معهم مائتا فرس لكل فرس سهمان .

البساتين ولهم نصف نتاجها ، فوافقهم رسول الله ﷺ وأبقاهم مزارعين فى أرضها [١] .

■ ٥ ■

فى أعقاب خيبر

نقض ابنا الحقيق عهدهم مع رسول الله ﷺ وغيباً عن رسول الله ﷺ مالاً كثيراً ...

فأتى رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع وكان عنده كتر بنى النضير ، فسأله عنه ، فجحد أن يكون يعرف مكانه ، فأتى رجل من اليهود فقال : إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة .

فقال رسول الله ﷺ لكنانة : أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك ؟

قال : نعم .

فأمر بالخربة فحفرت ، فأخرج منها بعض كترهم ، ثم سأله عما بقى ، فأبى أن يؤديه فدفعه إلى الزبير ، وقال : خذه معك حتى تستأصل ما عنده ، فحبسه الزبير حتى أقر بما عنده .

ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة ، ليضرب عنقه قصاصاً لأخيه محمود بن مسلمة الذى قتله كنانة غيلة بإلقاء الرحى عليه عند حصن ناعم .

وذكر ابن القيم أن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابنى أبى الحقيق وأحدهما كان زوج صفيية بنت حيي وهو كنانة بن أبى الحقيق بعد نقضهما العهد مع رسول الله ﷺ وكان الذى اعترف عليهما وأخبر رسول الله بإخفاء المال هو ابن عم كنانة [٢].

وفى هذه الغزوة قدم جعفر بن أبى طالب وأصحابه من الحبشة، ومعهم الأشعريون أبو موسى عبد الله بن قيس وأصحابه ﷺ ومعهم أسماء بنت عميس رضى الله عنها [٣].

قال أبو موسى : بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين ، أنا وأخوان لى فى بضع وخمسين رجلاً من قومى ، فركبنا سفينة ، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفراً وأصحابه عنده ، فقال : إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب معاملة النبى أهل خيبر جـ٦ صـ٣٩٨

(٢) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٢٧

(٣) المرجع السابق جـ٣ صـ٣٣٢

بالإقامة ، فأقيموا معنا ، فأقمنا معه حتى قدمنا إلى رسول الله مع المهاجرين العائدين من الحبشة فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر ، فأسهم لنا ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئاً إلا لمن شهد معه إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه ، قسم لهم معهم .

ولما قدم جعفر على النبى ﷺ تلقاه وقبله ، وقال : **والله ما أدرى بأيهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر**[١] .

وكان قدوم هؤلاء على أثر بعث الرسول ﷺ إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى ، يطلب توجيههم إليه ، فأرسلهم النجاشى على مركبين ، وكانوا ستة عشر رجلاً ، معهم من بقى من نسائهم وأولادهم ، وبقيتهم رجعوا قبل ذلك لأنهم لما سمعوا بهجرة النبى ﷺ إلى المدينة رجع ثلاثة وثلاثون رجلاً وثمانى نسوة ، فمات منهم رجلان بمكة ، وحبس فيها سبعة ، وشهد منهم أربعة وعشرون رجلا بدراً .

وكانت صفية فى السبايا حين قتل زوجها **كنانة بن أبى الحقيق** لغدره ، ولما جمع المسلمون السبى جاء دحية بن خليفة الكلبى ، فقال : يا نبى الله ، أعطنى جارية من السبى .

فقال ﷺ : **اذهب فخذ جارية ، فأخذ صفية بنت حي .**

فجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : **يا نبى الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة وبنى النضير ، لا تصلح إلا لك .**

قال : ادعوه بها .

فجاء بها ، فلما نظر إليها النبى ﷺ قال : خذ جارية من السبى غيرها [٢].

وعرض عليها النبى ﷺ الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها حتى إذا كان بسد الصهباء راجعاً إلى المدينة حلت ، فجهزتها له أم سليم ، وأهدتها له من الليل ، فأصبح عروساً بها ، وأولم عليها بحيس من التمر والسمن والسويق .

ورأى ﷺ بوجهها خضرة ، فقال : ما هذا ؟

قالت : يا رسول الله رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه ، وسقط فى حجرى ، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئاً ، فقصصتها على زوجى ، فلطم وجهى ،

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٣٣

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٩ صـ٤٠٤

فقال : تمنين هذا الملك الذى بالمدينة [١].

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر أهدت له زينب بنت الحارث ، امرأة سلام ابن مشكم ، شاة مصلية ، وقد سألت أى عضو أحب إلى رسول الله ﷺ ؟

فقيل لها : الذراع فأكثرت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدى رسول الله ﷺ تناول الذراع ، فلاك منها مضغة فلم يستسغها ، ولفظها ثم قال : **إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ، ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : ما حملك على ذلك ؟**

قالت : قلت إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر ، فتجاوز عنها ﷺ[٢]

ووفد أبو هريرة ﷺ ونفر من أوس على رسول الله ﷺ بخيبر ، وفى ذلك يقول أبو هريرة : **قدمنا المدينة ، ونحن ثمانون بيتاً من أوس ، فصلينا الصبح خلف سباع بن عرفطة الغفارى .**

فلما فرغنا من صلاتنا قال قائل : **رسول الله ﷺ بخيبر ، وهو قادم عليكم .**

فقلت : لا أسمع به فى مكان أبداً إلا جئته ، فزودنا سباع بن عرفطة ، وحملنا حتى جئنا خيبر فوجدنا رسول الله ﷺ قد فتح النطاة ، وهو محاصر الكتيبة ، فأقمنا حتى فتح الله علينا [٣] .

وجاء لرسول نفر من بنى فزارة ، وكانوا قد قدموا على أهل خيبر ليعينوهم فراسلهم رسول الله ﷺ **أن لا يعينوهم وسألهم أن يخرجوا عنهم ولكم من خيبر كذا وكذا فأبوا عليه ، فلما أن فتح الله خيبر أتاه من كان هناك من بنى فزارة ، فقالوا : حظنا الذى وعدتنا .**

فقال رسول الله ﷺ : لكم ذو الرقيبة ، جبل من جبال خيبر .

فقالوا : إذاً نقاتلك.

فقال ﷺ : موعدكم جنفاً .

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٢٧

(٢) السيرة النبوية جـ٢ صـ٣٣٧

(٣) سبل الهدى والرشاد جـ٥ صـ٢١٢

فلما أن سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ خرجوا هاربين [١].

ونهى النبى ﷺ عن أكل لحم الحمر الأهلية فعن سلمة ﷺ قال : أتينا خيبر فحاصرناها حتى أصابتنا مخمصة شديدة ، ثم إن الله تعالى ، فتحها علينا ، فلما أمسى الناس مساء اليوم الذى فتحت عليهم ، أوقدوا نيراناً كثيرة .

فقال رسول الله ﷺ : ما هذه النيران ؟ على أى شئ توقدون ؟

قالوا : على لحم .

قال ﷺ : على أى لحم ؟

قالوا : لحم حمر إنسية .

فقال رسول الله ﷺ : أهرقوها ، واكسروا الدنان .

فقال رجل : أو نهرقها ونغسلها ؟

قال ﷺ : أو ذاك [٢].

ونهى رسول الله ﷺ عن أمور حيث قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسق ماءه زرع غيره ، ولا يبع شيئاً من المغنم حتى يعلم ، ولا يركب دابة من المغنم حتى إذا أدبرها ردها ، ولا يلبس ثوباً من المغنم حتى إذا أخلقه رده ، ولا يأت امرأة من السبى حتى تستبرأ بحيضة ، وإن كانت حبلى حتى تضع الحمل .

ومر على امرأة مجح ، فقال : لمن هذه ؟

فقيل : لفلان .

فقال : لعله يطؤها ؟

قالوا : نعم .

قال : كيف بولدها ؟ يرثه وليس بابنه ، لقد هممت أن ألعنه لعنة تتبعه فى قبره [٣].

وهكذا فتحت خيبر وزال نفوذ اليهود من الجزيرة العربية كلها .

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ٥ صـ٢١٣

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى

(٣) إمتاع الأسماع صـ٣٢٤

- ٦ -

تطهير الجبهة الشمالية
من أتباع يهود خيبر

بعدما مكن الله للمسلين من خيبر ، نظروا حول خيبر فوجدوا جيوباً يهودية فى فدك ، وتيماء ، ووادى القرى ، وكان من الضرورى القضاء على عدوانية هذه الأقاليم حتى لا يكرروا كيدهم للمسلمين مرة أخرى .

فأرسل رسول الله ﷺ إلى " **فدك** "[١] الصحابى محيصة بن مسعود ﷺ ليدعوهم إلى الإسلام فأبوا ، ولما علموا بفتح خيبر أرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يصالحوه على ما صلح عليه خيبر ، فقبل منهم ﷺ ذلك .

وحين انصراف المسلمين من خيبر **نزلوا بوادى القرى**[٢] فاستقبلهم أهلها بالرمى ، فعبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال ، وصفهم ، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة ، وأعطى راية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حنيف ، وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا وبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه على بن أبى طالب ﷺ فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل دعا رسول الله ﷺ من بقى إلى الإسلام ويمتنعون .

وكلما جاء وقت صلاة صلاها النبى ﷺ بأصحابه ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فيمتنعون فيقاتلهم رسول الله ﷺ حتى أمسوا ، وفى اليوم التالى تعذر الوضع ، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم ، وفتحها المسلمون عنوة ، وغنموا أموالهم ، وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً وأقام رسول الله ﷺ بوادى القرى أربعة أيام ، وقسم على أصحابه ، ما أصاب بها وترك الأرض والنخل بأيدى اليهود ، وعاملهم عليها كما عامل أهل خيبر [٣].

---

(١) بفتح الفاء والدال ، قرية بالحجاز بين مكة ، والمدينة وهى أقرب إلى المدينة منها إلى مكة (معجم البلدان) .

(٢) وادى القرى بضم القاف واد بين الشام والمدينة ، وهو بين تيماء وخيبر فيه قرى كثيرة ، وبها كانت ديار ثمود (معجم البلدان) .

(٣) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٥٥

ولما بلغ يهود " **تيماء** " خبر استسلام " أهل خيبر " ثم " **فدك** " ، "**ووادى القرى**" لم يبدوا أى مقاومة ضد المسلمين ، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون للصلح ، فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ وأقاموا بأموالهم ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، وهاك نصه : **هذا كتاب محمد رسول الله لبنى عادياً ، إن لهم الذمة، وعليهم الجزية، ولا عداء ولا جلاء، الليل مد ، والنهار شد** .

ثم أخذ رسول الله ﷺ فى العودة إلى المدينة وكان رجوع المسلمين فى أواخر صفر أو فى أول ربيع الأول سنة سبع من الهجرة (١) .

وفى جمادى الأولى بعد عودة رسول الله إلى المدينة جاء أبو العاص بن الربيع مهاجراً من مكة بعد إسلامه فرد رسول الله ابنته زينب إليه (٢) .

وبالقضاء على اليهود فى خيبر ، وفى المناطق حولها ، لم يبق لليهود وجود قوى ، ومع ذلك رفضوا الدخول فى دين الله تعالى ، واستمروا فى كيدهم للإسلام والمسلمين ... وورَّثوا هذا الكيد لما جاء بعدهم من ذراريهم ... وبذلك عاشوا على ضلالهم ... وداوموا العداء لدين الله تعالى .

وهم على ذلك إلى اليوم رغم تشتتهم فى البلاد ، وتقطع أوصالهم ، وذهاب هويتهم .

ـ رابعاً ـ

مواجهة القبائل المتمردة

أدى صلح الحديبية إلى تمايز كل فريق بنيته وعمله ، وبادر رسول الله ﷺ بالتعامل مع كل جهة بما يناسبها .

فهادن قريشاً ومن سار على نهجها .

وواجه العالم بتبليغ الإسلام إليه ، وتعريفه بدين الله تعالى .

وواجه اليهود ، وذهب إليهم فى حصونهم حتى قضى على خطورتهم .

وبقيت أمامه ثلة من القبائل المتناثرة فى الجـــزيرة العربية التى عـــاشت على النهب

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٥٥

(٢) سنن أبى داود جـ٣ صـ١٥١

والإغارة ، ظنت نفسها بعيدة عن رسول الله ﷺ منقطعة عن المسلمين لبعدهم عنهم فأخذت تعمل ضد الإسلام متصورة إن المسلمين لن يعلموا شيئاً عن أخبارهم .

و لم تكن هذه القبائل فى بلدة واحدة ، أو فى مكان ثابت ، بل هم من الرحل المتنقلين ولذلك كان لابد لتأديبهم بواسطة حملات تأديبية سريعة وخفيفة، ومفاجئة ، ليعلموا أنهم تحت بصر المسلمين ، ومحل اهتمامهم ... وليتيقنوا أن المسلمين بفضل الله ومعونته يملكون حسن التعامل مع كل فريق بما يكافئه بحيث لا يخدعهم لئيم ولا يفاجئهم غادر .

وقد أدت الحملات التأديبية لهذه القبائل إلى وقوع الغزوات والسرايا التالية :

- ١ -

غزوة ذات الرقاع

علم رسول الله ﷺ أن بطوناً من غطفان ، المجاورين لخيبر قد تألموا لما لحق بأنصارهم من يهود خيبر **وهم أنمار ، وبنو ثعلبة ، وبنو محارب ، فأخذوا يجتمعون** ، ويستعدون لمهاجمة المدينة ، فأسرع رسول الله ﷺ بالخروج إليهم فى سبعمائة من أصحابه بعدما ولى على المدينة عثمان بن عفان ﷺ وسار حتى وصل إلى " نخل "[١] فلقى جمعاً من غطفان ، فتوافق الطرفان و لم يقع قتال بعدما هاب كل طرف الطرف الآخر .

يروى البخارى بسنده عن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال : **خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدماى ، وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت الغزوة بـ"ذات الرقاع " ، لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا**[٢].

ويسمى البعض هذه الغزوة بغزوة الأعاجيب لما ظهر فيها من الآيات العجيبة وخوارق العادات المذهلة .

يروى البخارى بسنده عن جابر قال : **كنا مع النبى ﷺ بذات الرقاع ، فإذا أتينا**

---

(١) نخل بفتح فسكون موضع بنجد من أرض غطفان فى طريق الشام من ناحية مصر (معجم البلدان)

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة ذات الرقاع جـ٦ صـ٣٣٢ وقيل سميت بذلك لرقاع كانت فى ألويتهم وقيل الرقاع اسم للمكان أو اسم للجبل وفيها ألوان كالرقاع ، ولا مانع من صحة أن تكون كل هذه أسباب للتسمية لأنها جميعاً كانت موجودة وقت الغزوة .

على شجرة ظليلة تركناها للنبى ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ ، وتفرق الناس فى العضاة ، يستظلون بالشجر ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه .

قال جابر : فنمنا نومة ، فجاء رجل من المشركين فاخترط سيف رسول الله ﷺ فوقف على رأس رسول الله ثم قال : أتخافنى ؟

قال ﷺ : لا .

قال الرجل : فمن يمنعك منى ؟

قال ﷺ : الله .

فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ ، فقال : من يمنعك منى ؟

فقال الرجل : كن خير آخذ .

قال ﷺ : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟

قال الرجل : أعاهدك أن لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك : فخلى سبيله فجاء إلى قومه ، فقال جئتكم من عند خير الناس .

قال جابر : فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، فجئنا فإذا عنده أعرابى جالس .

فقال رسول الله ﷺ : إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم ، فاستيقظت وهو فى يده صلتا

فقال لى : من يمنعك منى ؟

قلت : الله .

فها هو ذا جالس ، ثم لم يعاتبه رسول الله ﷺ [(١)].

وفى رواية البخارى قال مسدد عن أبى عوانة عن أبى بشر: اسم الرجل غورث بن الحارث.

قال ابن حجر : ووقع عند الواقدى فى سبب هذه القصة أن اسم الأعرابى دعثور ، وأنه أسلم لكن ظاهر كلامه أنهما قصتان فى غزوتين والله أعلم [(٢)].

والأعاجيب المروية كثيرة وهى مفصلة فى كتب السيرة والسنة .

وكانت غزوة ذات الرقاع فى ربيع الأول سنة سبع للهجرة [(٣)] .

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة ذات الرقاع جـ٦ صـ٣٣٧

(٢) صحيح البخارى باب غزوة ذات الرقاع جـ٦ صـ٣٣٧

(٣) تناول ابن حجر كافة الأقوال التى ذكرت فى سنة هذه الغزوة (فتح البارى جـ٧ صـ٤١٧) .

- ٢ -

سرية غالب بن عبد الله إلى بنى الملوح فى قديد [١]

وقعت هذه السرية فى ربيع الأول سنة سبع للهجرة ، وسببها إن بنى الملوح قتلوا أصحاب بشير بن سويد ، فبعث رسول الله ﷺ هذه السرية لأخذ الثأر ، فشنوا الغارة فى الليل فقتلوا من قتلوا ، وساقوا النعم ، وحين رجوعهم إلى المدينة طاردهم جيش كبير من العدو ، أنقذهم الله تعالى منه لأنه حين قرب منهم نزل مطر غزير ، وامتلأ الوادى بسيل عظيم حال بين الفريقين ، وانسحب المسلمون وعادوا إلى المدينة غانمين منتصرين [٢] .

- ٣ -

سرية عمر بن الخطاب إلى تربه [٣]

أعلنت هوازن عدم موافقتها على صلح الحديبية مع أنها مجاورة لمكة وتقع بناحية العيلاء على طريق صنعاء ونجران وكان المأمول أن تسالم كما فعلت قريش ، وبخاصة أنها شاهدت قوة المسلمين ، وعلمت حرصهم على نشر الإسلام ، وتبليغه للناس جميعاً .

لكن هذا المأمول لم يتحقق ، لأن هوازن أخذت تعد العدة لمهاجمة رسول الله فى المدينة ، والاستيلاء على أموال المهاجرين والأنصار ، فأرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ فى ثلاثين رجلاً يقودهم دليل من بنى هلال ، فأخذوا يسيرون فى الليل ، ويكمنون فى النهار ، فلما علمت هوازن بخبرهم هربوا ، فلما جاء عمر ديارهم لم يجد أحداً فرجع إلى المدينة [٤].

- ٤ -

سرية بشير بن سعد إلى بنى مرة

سار بشير بن سعد الأنصارى ﷺ إلى بنى مرة فى إحدى نواحى " **فدك** " وهم جماعة

---

(١) القديد بضم القاف وفتح الدال تصغير قد موضع قرب مكة (معجم البلدان)

(٢) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٦٢ سيرة النبى جـ٢ صـ٦٠٩

(٣) تربة بضم التاء وفتح الراء واد خصب قرب مكة .

(٤) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٥٩ ، ٣٦٠

من اليهود أبت أن تدخل فى صلح قومهم مع رسول الله ﷺ ولذلك أرسل رسول الله ﷺ بشير بن سعد إليهم فى شعبان سنة سبع للهجرة فى ثلاثين رجلاً .

خرج إليهم بشير فلم يجد أحداً منهم ، فاستاق الشاء والنعم ، ثم رجع فأدركه بنو مرة عند الليل فرموهم بالنبل حتى فنى بشير وأصحابه ، فقتلوا جميعاً إلا بشيراً فإنه حمل جريحاً إلى فدك ، فأقام عند يهودى حتى برأت جراحه ، وعاد إلى المدينة [١].

-٥-

سرية غالب بن عبد الله إلى الميفعة

سار غالب بن عبد الله الليثى فى رمضان سنة سبع للهجرة إلى بنى عوان ، وبنى عبد بن ثعلبة بالميفعة ، فى مائة وثلاثين رجلاً ، فهجموا عليهم جميعاً ، وقتلوا من أشرف لهم ، واستاقوا نعماً وشاء وعادوا إلى المدينة بما غنموا [٢].

-٦-

سرية عبد الله بن رواحه إلى خيبر

سار عبد الله بن رواحه إلى خيبر فى شوال سنة سبع للهجرة فى ثلاثين راكباً ، وذلك أن أسيراً بن رزام كان يجمع غطفان لغزو المسلمين ، فلما وصل ابن رواحة إليهم خاطب أسيراً وأطمعه أن رسول الله ﷺ يستعمله على خيبر إن ترك جماعته فتركهم مع ثلاثين من أصحابه ، وهنا وقع الشقاق بين أسير وقومه فتقاتلوا قتالاً شديداً ، وتمكن المسلمون من الرجوع إلى المدينة ، وقد أفضى شقاق القوم إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين وبذلك تفرق القوم ، و لم يقع مع المسلمين قتال ، وتم القضاء على رأس الفتنة ، وعاد المسلمون سالمين إلى المدينة [٣].

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٢ صـ١٢٠

(٢) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٦٠

(٣) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٦٠

- ٧ -

سرية بشير بن سعد إلى يمن وجبار

ثم كانت سرية بشير بن سعد إلى يمن وجبار فى سنة سبع من الهجرة ، وذلك أن حسيل بن نويرة الأشجعى أخبر رسول الله ﷺ أن جمعاً من غطفان بالجناب ، قد واعدوا عيينة بن حصن أن يزحفوا إلى أطراف المدينة .

فذكر ذلك لأبى بكر وعمر ﵄ ، فأشار بإرسال بشير بن سعد ، فعقد له لواء ، وبعث معه ثلاثمائة رجل ، وكان حسيل دليلهم ، حتى أتوا إلى يمن وجبار وهى نحو الجناب والجناب يعارض " **سلاح** " و " **خيبر** " ووادى القرى ، فترلوا بسلاح ، ثم دنوا من القوم فأصابوا نعماً كثيراً ملأوا منه أيديهم ، وتفرق الرعاء فأنذروا أصحابهم ، فمروا على وجوههم ، فلم يلق بشير أحداً ، وعاد بالنعم ، فوجد عيناً لعيينة فقتله ، ثم لقى جمع عيينة فأوقع بهم وهم لا يشعرون وقد ناوشهم بشير حتى انهزموا ، وأسر منهم رجلاً أو رجلين ، وقدم بهم المدينة فأسلما وتركهما الرسول ﷺ لحالهما[١] .

- ٨ -

سرية أبى حدرد ﵁ إلى الغابة

سار أبى حدرد الأسلمى إلى الغابة ، وملخصها أن رجلاً من جشم بن معاوية أقبل فى عدد كبير على الغابة ، يريد أن يجمع قيساً على محاربة المسلمين ، فبعث رسول الله ﷺ أبا حدرد مع رجلين فاختار أبو حدرد خطة حكيمة ، وهزم العدو هزيمة منكرة ، واستاق الكثير من الإبل والغنم[٢] .

- ٩ -

سرية أبى بكر ﵁ إلى بنى هلال

أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر ﵁ فى نفر من أصحابه لمباغتة بنى كلاب بنجد فى ناحية "**ضرية**" فى شهر شعبان فى العام السابع ، ففاجأ القوم ، وبيتهم ليلاً وقتل منهم عدداً ، عاد

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٦٠

(٢) سيرة النبى جـ٢ صـ٦٢٩

بعدها إلى المدينة المنورة [١].

- ١٠ -

سرية غالب بن عبد الله إلى بنى مرة

بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثى على مائتى رجل فى صفر سنة ثمان ، ومعه أسامة بن زيد وعلبة بن زيد الحارثى إلى بنى مرة لتأديبهم على ما فعلوه مع بشير بن سعد وصحبه ، فسار حتى دنا منهم ، وبعث الطلائع عليها علبة بن زيد ، فأعلموه خبرهم ثم وافاهم ، وحضهم على الجهاد ، وأوصاهم بالتقوى ، وحمل بهم على القوم فقاتلوا ساعة ثم حووا الماشية والنساء ، وقتلوا الرجال ، **ومر أسامة بن زيد فى إثر رجل منهم يقال له نهيك بن مرداس ، حتى دنا منه ، فقال : لا إله إلا الله ، فقتله ، ثم ندم وأقبل إلى جماعته فقال له غالب بن عبد الله : بئس والله ما فعلت ، تقاتل أمرءاً يقول لا إله إلا الله.**

وقدموا المدينة ، فحدث زيد رسول الله ﷺ بخبره .

فقال : قتلته ، يا أسامة ، وقد قال : لا إله إلا الله .

فجعل أسامة يقول : إنما قالها تعوذاً من القتل .

فقال ﷺ : أفلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

فقال أسامة : لا أقتل أحداً يقول لا إله إلا الله أبداً [٢].

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٥٩

(٢) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٦١

ـ خامساً ـ
تطبيق بنود صلح الحديبية وأداء العمرة

حافظ المسلمون والقرشيون على ما تعاهدوا عليه فى الحديبية ، وتفرغ رسول الله ﷺ فى العمل فى جبهات جديدة عديدة بعد أن أمّن جبهة قريش ، ولذلك تضاعف العمل ، ونشطت الدعوة بعد صلح الحديبية ، ومر عام من الجهاد والدعوة ، وجاء موسم الحج وهو الموعد المتفق عليه لأداء العمرة ، فتحرك المسلمون لأداء عمرهم وتم لهم وعد الله تعالى حينما قال لهم سبحانه ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾(١) .

وبعد أداء العمرة واصلوا حركتهم بالدعوة ومواجهة الطغيان والمتمردين .

وفى هذه الدراسة سنتناول الأمور الآتية :

ـ ١ ـ
عمرة القضاء

لما رجع رسول الله ﷺ من خيبر إلى المدينة أقام بها شهرى ربيع وجماديين ، ورجباً وشعبان ورمضان وشوالا .

فلما أهل شهر ذى القعدة من العام السابع أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتجهزوا لأداء العمرة التى أجلوها من العام الماضى .

وتسمى هذه العمرة عمرة القضاء لأنها قضاء عن عمرة العام السابق .

كما تسمى عمرة القصاص لأن الله كتبها لهم عوضاً عن الأولى التى لم تمكنهم قريش منها فتمت مثلاً بمثل ، وتسمى عمرة الصلح لأنها تمت بناء على بنود صلح الحديبية .

وتسمى عمرة القضية لأن رسول الله قاضى أهل مكة وصالحهم على هذه العمرة .

والبعض يسميها غزوة القضاء لخروج رسول الله ﷺ على رأسها قاصداً مكة

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٧

ليدخلها ، رغم أنف المشركين فيها [١] .

أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يعتمروا ، وألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف من أهلها أحد ، ممن هو حى ، وخرج معهم عدد من غير أهل الحديبية فبلغ عدد الخارجين للعمرة ألفين

وقال جماعة من المسلمين : **والله يا رسول الله ما لنا زاد ، وما من أحد يطعمنا ، فأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينفقوا فى سبيل الله ، وأن يتصدقوا ، وألا يكفوا أيديهم فيهلكوا .**

فقالوا : يا رسول الله بم نتصدق ، وأحدنا لا يجد شيئاً ؟

فقال : بما كان ولو بشق تمرة ، ولو بمشقص يحمل به أحدكم فى سبيل الله [٢] .

فأنزل الله تعالى فى ذلك ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٣] **يعنى أن ترك النفقة فى سبيل الله يؤدى إلى الهلكة .**

وساق ﷺ ستين بدنة جعل عليها ناجية بن جندب الأسلمى ﷺ ، يطلب الرعى بها فى الشجر ، ومعه أربعة فتيان من أسلم ، وكان أبورُهْم كلثوم بن حصين الغفارى ، ممن يسوقها ويركبها .

وقلد ﷺ هديه بيده ، وحمل السلاح وفيها البيض والدروع ، وقاد مائة فرس أمر عليها محمد بن مسلمة ، واصطحب العتاد والسلاح ، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفارى وأحرم من باب المسجد ، وسار يلبى والمسلمون معه يلبون .

فلما انتهى محمد بن مسلمة بالخيل إلى مر الظهران ، وجد بها نفراً من قريش ، فسألوه عن رسول الله ﷺ فقال : يصبح فى هذا المنزل غداً إن شاء الله .

فلما رأوا سلاحاً كثيراً مع بشير بن سعد ، أسرعوا إلى مكة ، وأخبروا قريشاً ففزعوا ، وقالوا : والله ما أحدثنا حدثاً ، ففيم يغزونا محمد ؟

ولما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران قدم السلاح إلى بطن يأجج ، وترك معه مائتين من

---

(١) البداية والنهاية جـ٤ صـ٢٢٦ ، ٢٢٧

(٢) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٣٣٦ والمشقص السهم العريض النصل .

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٥

أصحابه ، عليهم أوس بن خولى ﷺ .

وخرج مكرز بن حفص فى نفر حتى لقوا رسول الله ﷺ ببطن يأجج .

فقالوا : يا محمد ! والله ما عُرِفْتَ صغيراً ولا كبيراً بالغدر ! تدخل بالسلاح الحـــرم ! وقد اشترطت ألا تدخل إلا بسلاح المسافر والسيوف فى القرب ؟

فقال ﷺ : إنى لا أدخل عليهم السلاح .

فعاد مكرز إلى مكة فخرجت قريش إلى رؤوس الجبال وقالوا : لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه

وحبس ﷺ الهدى بذى طوى ، ودخل ﷺ مكة من الثنية التى تطلع على الحجون ، وقد ركب القصواء ، وأصحابه حوله متوشحو السيوف يلبون ، وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام راحلته ، فلم يزل ﷺ يلبى حتى استلم الركن [1].

وتحدثت قريش عن جهد المسلمين وضعفهم ، ووقف منهم جماعات عند دار الندوة ليروا ما تصوروه فاضطبع ﷺ بردائه ، وأخرج عضده الأيمن ، ثم قال : **رحم الله امرءاً أراهم اليوم قوة !** فلما انتهى إلى البيت وهو على راحلته ، وابن رواحة آخذ بزمامها ، وقد صف له المسلمون دنا من الركن فاستلمه بمحجنه ، وهو مضطبع بثوبه ، وهرول هو والمسلمون فى الثلاثة الأشواط الأول ، وكان ابن رواحه يرتجز فى طوافه ، وهو آخذ بزمام الناقة ، **فقال ﷺ إيها يا ابن رواحه ! قل : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ! فقالها ابن رواحة وقالها الناس .**

فلما قضى ﷺ طوافه ، خرج إلى الصفا فسعى على راحلته ، والمسلمون يسترونه من أهل مكة أن يرميه أحد منهم أو يصيبه بشئ ، ووقف عند فراغه قريباً من المروة ، وأوقف الهدى عندها فقال : **هذا المنحر ، وكل فجاج مكة منحر** [2].

ونحر عند المروة وكان قد اعتمر معه قوم لم يشهدوا الحديبية فلم ينحروا ، وشركه فى الهدى من شهد الحديبية ، فمن وجد بدنة من الإبل نحرها ، ومن لم يجد بدنة رخص له فى البقرة ، وكان قد قدم رجل من الأعراب ببقر فاشتراه الناس منه ، وحلق ﷺ عند المروة حلقه معمر بن عبد الله العدوى .

---

(١) الفتح الربانى باب عمرة القضاء جـ٢١ صـ١٣١

(٢) البداية والنهاية جـ٤ صـ٢٣١

ثم دخل ﷺ البيت ، ولم يزل فيه حتى أذن بلال بالظهر فوق ظهر الكعبة .

وخطب ﷺ ميمونة وهو فى مكة فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب ، فتزوجها ﷺ وهو محرم ، وقيل : بل تزوجها لما أحل بسرف .

ولما حان موعد خروج المسلمين من مكة ورجوعهم إلى المدينة جاءهم عمارة بنت حمزة رضى الله عنها تنادى : يا عم ، يا عم .

فأخذها على ﷺ .

وكانت مع أمها سلمى بنت عميس بمكة ، فقال : علام نترك بنت عمنا يتيمة بين ظهرانى المشركين ! فخرج بها ، حتى إذا دنوا من المدينة أراد زيد بن حارثة أن يتزوجها لأنه كان وصى حمزة وأخاه أخوة المهاجرين ، وقال : أنا أحق بها ، إنها ابنة أخى .

فقال جعفر بن أبى طالب : الخالة والدة وأنا أحق بها لمكان خالتها عندى ، أسماء بنت عميس .

فقال على ﷺ : ألا أراكم فى ابنة عمى ، وأنا أخرجتها من بين أظهر المشركين ، وليس لكم إليها نسب دونى ، وأنا أحق بها منكم .

فقال رسول الله ﷺ : أحكم بينكم ، أما أنت يا زيد فمولى الله ورسوله .

وأما أنت يا على فأخى وصاحبى .

وأما أنت يا جعفر فتشبه خلقى وخلقى ، أنت يا حعفر أولى بها ، تحبك خالتك ، فقضى بها لجعفر .

فقام جعفر فحجل حول النبى ﷺ فقال : ما هذا يا جعفر ؟

قال : يا رسول الله كان النجاشى إذا أرضى أحداً قام فحجل حوله .

فقال على ﷺ : تزوجها يا رسول الله ﷺ .

قال ﷺ : هى ابنه أخى من الرضاعة [١].

ولما كان الظهر فى اليوم الرابع ، أتى سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى رسول الله ﷺ فى مجلس الأنصار ، وهو يتحدث مع سعد بن عبادة ، فقال : **قد أنقضى**

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٧٢

أجلك يا محمد ، فاخرج عنا .

فقال ﷺ : وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم ، وصنعت طعاماً ؟

فقالا : لا حاجة لنا فى طعامك ، اخرج عنا ، ننشدك الله والعهد الذى بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا ! فهذه الثلاث قد مضت !

فغضب سعد بن عبادة وقال لسهيل : كذبت لا أم لك ! ليست بأرضك ولا أرض أبيك والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً .

فتبسم ﷺ ثم قال : يا سعد ، لا تؤذ قوماً زارونا فى رحالنا ، فأسكت الرجلين عن سعد . وروى أنهم بعثوا علياً إلى النبى ﷺ ليخرج عن بلدهم [١].

وأمر ﷺ أبا رافع بالرحيل ، وقال : لا يمسين بها أحد من المسلمين وركب حتى نزل سرف ، وخلف أبا رافع ليحمل إليه ميمونة حين يمسى ، فخرج بها مساء ، ولقى عنتاً من سفهاء المشركين فبنى ﷺ على ميمونة بسرف .

و لم ينزل بمكة بيتاً ، وإنما ضربت له قبة من أدم بالأبطح ، وظل هناك حتى سار منها وأثناء إقامته بعث بمائتى رجل ممن طافوا بالبيت إلى بطن يأجج ، فأقاموا عند السلاح حتى أتى الآخرون فقضوا نسكهم ، وبعد أن أدى المسلمون عمرتهم عادوا إلى المدينة فى ذى الحجة من نفس العام [٢].

وفى صفر من العام الثامن ، وبعد استقرار المسلمين فى المدينة خرج عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشى السهمى من مكة ، بعد مرجعه من الحبشة ، يريد المدينة ، فهاجر فوجد فى طريقه خالد بن الوليد القرشى المخزومى ، وعثمان بن طلحة بن أبى طلحة القرشى العبدرى ، وقد قصدوا قصده ، فقدموا المدينة ، ودخلوا على رسول الله ﷺ فبايعه خالد أولاً ، ثم بايعه عثمان ، ثم عمرو فقال لهم ﷺ : إن الإسلام يجب ما كان قبله والهجرة تجب ما كان قبلها .

وهكذا أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص بعد هذه الرحلة الطويلة من الجهاد والمعاناة ، وصارا من خيرة صحابة رسول الله ﷺ ، ولله فى خلقه شئون .

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٧٢

(٢) إمتاع الأسماع صـ٣٣٦ إلى صـ٣٤١

- ٢ -

سرية ابن أبى العوجاء

أرسل رسول الله ﷺ ابن أبى العوجاء فى شهر ذى الحجة سنة سبع فى خمسين رجلاً بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى سليم ، ليدعوهم إلى الإسلام .

فقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا .

وكان مع ابن العوجاء رجل من بنى سليم سبق السرية ، وأخبر قومه بقدومها فتجمعوا واستعدوا وقاتلوا قتالاً شديداً حتى قتل أغلب رجال السرية ، وجرح فيها أبو العوجاء ، وتحامل المسلمون حتى رجع من عاش منهم إلى المدينة فى أول صفر من العام الثامن [١].

- ٣ -

سرية غالب بن عبد الله

أرسل رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد إلى بنى الملوح بالكديد فى صفر سنة ثمان فى مائتى رجل ، فأصابوا من العدو نعماً ، وقتلوا منهم قتلى وقد تبعهم القوم فحال الله بينهم بواد عميق ملأه المطر ماء [٢].

- ٤ -

سرية ذات أطلح

سرية ذات أطلاح فى ربيع الأول سنة ثمان ، كانت بنو قضاعة قد حشدت جموعاً كبيرة للإغارة على المسلمين ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ كعب بن عمير الأنصارى فى خمسة عشر رجلاً ، فلقوا العدو فدعوهم إلى الإسلام ، فلم يستجيبوا لهم ، ورشقوهم بالنبل حتى استشهدوا كلهم إلا رجلا واحداً ، فقد جرح وتحامل حتى أتى المدينة فشق ذلك على رسول الله ﷺ فلما هم بإرسال سرية أخرى لتأديبهم علم أنهم تركوا ديارهم وأقاموا فى مكان آخر [٣].

---

(١) المرجع السابق جـ٢ صـ٧٥٢

(٢) المغازى جـ٢ صـ٧٥٠

(٣) المرجع السابق جـ٢ صـ٧٥٢

■٥■

سرية ذات عرق

سرية ذات عرق إلى بنى هوازن فى ربيع الأول سنة ثمان ، كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى ، فأرسل إليه **شجاع بن وهب الأسدى** فى خمسة وعشرين رجلاً فاستاقوا نعماً من العدو ، و لم يلقوا كيداً (١).

■٦■

سرية شجاع بن وهب إلي السىّ

كانت سرية شجاع بن وهب الأسدى إلى السى ، وهو ماء من ذات عرق إلى وجرة يريد بنى عامر بناحية ركبة فى ربيع الأول سنة ثمان، على أربعة وعشرين رجلاً، فخرج حتى أغار على القوم وهم فارون ، فأصابوا نعما وشاء، وقدموا المدينة بسبايا، فيهن جارية وضيئة، فلما قدم بنو عامر إلى رسول الله مسلمين رد إليهم ما أخذ منهم، واختارت الجارية الوضيئة شجاع بن وهب، وكان قد أخذها بثمن فأقامت عنده حتى قتل باليمامة ﷺ (٢).

■٧■

سرية قطبة بن عامر إلى خثعم بتبالة

بعث رسول الله ﷺ قطبة بن عامر بن حديدة فى عشرين رجلاً إلى حى من خثعم بناحية " **تبالة** " فخرجوا على عشرة أبعرة يتعقبونها ، فوجد قطبة رجلاً فسأله فلم يجبه عن القوم وجعل يصيح بالحاضرين ، فضرب عنقه ، وشن الغارة ليلاً فقاتله القوم قتالاً شديداً وأتى قطبة عليهم ، وساق النعم والشاء والنساء حتى قدم المدينة ، فكانت سهامهم أربعة أبعرة لكل رجل أو عدلها : عشرة من الغنم عن كل بعير (٣) .

ويلاحظ أن السرايا التى تحركت بعد عمرة القضاء توجهت إلى قبائل بعيدة عن المدينة ، وهى من الرحل الذين لا يستقرون فى مكان واحد ، وأن الهدف كان منعهم من التفكير فى الإغارة والنهب ... وإحاطتهم بقوة المسلمين ... وتعريفهم ما فى الإسلام من حق ومزايا .

---

(١) الرحيق المختوم صـ٣٨٦

(٢) المغازى جـ٢ صـ٧٥٤

(٣) إمتاع الأسماع صـ٣٤٤

- سادسا -
بدء مواجهة الرومان
والقبائل التابعة لها

علت قوة المسلمين فى الجزيرة كلها واستكان القرشيون، وعلم الناس خبر الإسلام فبدأوا الدخول فيه غير أن نفراً من الناس وبخاصة من لهم صلة بالرومان أبوا الإنصياع للواقع الجديد فبدأوا يلتقون بالرومان ، ويتعاونون معهم فى التصدى لدعاة الإسلام ، وكراهية قوة المسلمين

وشجعهم على ذلك **ما فعله صاحب بُصْرى شرحبيل بن عميل الغسانى عامل البلقاء من قبل قيصر الروم حيث مزق كتاب رسول الله وقتل الصحابى الحارث بن عمير الأزدى حامل الرسالة** .

إن هذا الفعل جريمة تحتاج إلى المواجهة حتى لا يتصور الناس ضعفاً بالمسلمين فيسهينون بهم ، ويصدون الدعاة عن تبليغ الحق ، وحمل الإسلام إلى الناس .

إزاء هذا الواقع الذى حدث فى شمال الجزيرة العربية بدأت مرحلة جديدة من المواجهة العسكرية مع هذه المنطقة رغم بعدها عن المدينة ، واستعدادها العسكرية الضخمة ، وقد أدت المواجهة مع هؤلاء الناس إلى حدوث السرايا التالية :

- ١ -
سرية مؤتة (١)

أدى مقتل الصحابى " الحارث بن عمير " حامل رسالة رسول الله ﷺ إلى ملك بصرى إلى غضب رسول الله ﷺ وتألمه لهذا العدوان الذى لا يراعى حقاً ، ولا يحترم خلقاً ، فجهز جيشاً من ثلاثة آلاف صحابى ، وأمّر عليه ثلاثة من خيرة الصحابة هم : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ﷺ فأمّر زيدا أولاً وقال لهم: إن قتل زيد فجعفر ، فإن قتل جعفر فعبد الله ... وعقد لهم لواء أبيضاً (٢).

وسار رسول الله ﷺ حتى كان خارج المدينة فعسكر بـ**"الجرف"** وندب الصحابة للخروج ، ولم يبين لهم الأمر ، حتى صلى بهم الظهر فجلس معهم ، وعين الأمراء ، وعقد

---

(١) مؤتة : قرية بأدنى بلاد الشام فى منطقة البلقاء

(٢) الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد الشيبانى جـ ٢١ صـ ١٣٦

اللواء وأعطاه للأمير الأول ، **زيد بن حارثة** ، وأخذ المؤمنون يدعون قائلين وهم يودعون المجاهدين : **دافع الله عنكم وردكم صالحين غانمين** .

وقد ودع رسول الله الجيش حتى ثنية الوداع ، وهناك أوصاهم فقال لهم : **أوصيك بتقوى الله ، وبمن معك من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليداً .**

وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم ، واكفف عنهم .

ادعهم إلى الدخول فى الإسلام ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين .

إن دخلوا فى الإسلام واختاروا أن لهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين وإن دخلوا فى الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله ، ولا يكون لهم فى الفئ ولا فى الغنيمة شئ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين .

فإن أبوا الإسلام فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا ؟

وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة رسوله ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تنقضوا ذمتكم وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله .

وستجدون رجالاً فى الصوامع معتزلين للناس ، فلا تتعرضوا لهم وستجدون آخرين فى رءوسهم مفاحص الغدر والهوى فاقلعوها بالسيوف .

لا تقتلن امرأة ولا صغيراً ضرعاً ، ولا كبيراً فانياً ، ولا تغرقن نخلاً ، ولا تقلعن شجراً ولا تهدموا بيتاً [١].

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، مرنى بشئ أحفظه عنك .

قال ﷺ : إنك قادم غداً بلداً ، السجود فيه قليل فأكثر السجود .

قال ابن رواحة : زدنى يا رسول الله .

قال ﷺ : اذكر الله ، فإنه عون لك على ما تطلب .

فقام عبد الله من عنده ، حتى إذا مضى ذاهباً رجع .

فقال : يا رسول الله ، إن الله وتر يحب الوتر .

فقال : يا ابن رواحة ، ما عجزت فلا تعجزن إن أسأت عشراً أن تحسن واحدة

فقال : لا أسألك عن شئ بعدها [٢].

ومضى المسلمون ، وقد أمرهم رسول الله ﷺ أن ينتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير وسمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم ، فقام فيهم رجل من الأزد يقال له شرحبيل بن عمر الغسانى ، وقدم الطلائع أمامه ، وبعث أخاه سدوس بن عمرو فى خمسين فلقوا المسلمين بوادى القرى فقاتلهم المسلمون وقتلوا سدوسا .

ونزلوا معان من أرض الشام ، فبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من البلقاء فى مائة ألف من الروم ، ومعه من بهراء ووائل ، وبكر ، ولخم ، وجذام مائة ألف عليهم رجل من بلى يقال له مالك .

فأقاموا ليلتين بـــ "معان " وأرادوا أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ بالخبر ليردهم أو يزيدهم رجالاً ، فشجعهم عبد الله بن رواحة وقال : والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ، ولا بكثرة سلاح ، ولا بكثرة خيول ، إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ،

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٣٤٨ ، ٣٤٩

(٢) المغازى جـ٢ صـ٧٥٦-٧٥٨

انطلقوا والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان ، ويوم أحد وما معنا إلا فرس واحد ، فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور عليهم ، فذلك ما وعدنا الله ووعدنا نبينا ، وليس لوعده خلف وإما الشهادة ، فنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان .

فشجع الناس ومضوا إلى مؤتة ، فرأوا المشركين ومعهم مالا قبل للمسلمين به من العدد ، والسلاح ، والكراع ، والديباج ، والحرير ، والذهب .

قال أبو هريرة : وقد شهدت ذلك فبرق بصـــرى ، فقال لى ثابت بن أقـــرم : يا أبا هريرة ، مالك ؟ كأنك ترى جموعاً كثيرة .

قلت : نعم .

قال : لم تشهدنا ببدر ، إنا لم ننصر بالكثرة .

وقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم : فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل وقاتل الناس معه ، والمسلمون على صفوفهم ، وعلى الميمنة قطبة بن قتادة السدوسى ، وعلى الميسرة عباية بن مالك ، فقتل زيد طعناً بالرماح .

ثم أخذ اللواء جعفر فنزل عن فرسه فعرقبها ، ثم قاتل حتى قتل : ضربه رجل من الروم فقطعه نصفين ، فوجد فى نصفه بضع وثلاثون جرحاً ، وقيل : وجد فيما بين منكبيه ، اثنتان وسبعون ضربة بسيف أو طعنة برمح ، ووجد به طعنة قد أنفذته .

ثم أخذ اللواء بعده عبد الله بن رواحة ، فقاتل حتى قتل [١] .

وسقط اللواء ، فاختلط المسلمون والمشركون ، وانهزم المسلمون أسوأ هزيمة ، وقتلوا ، واتبعهم المشركون ، فجعل قطبة بن عامر يصيح : يا قوم يقتل الرجل مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً ، فما يثوب إليه أحد ، ثم تراجعوا ، فأخذ اللواء ثابت بن أقرم ، وصاح : يا للأنصار ، فأتاه الناس من كل وجه وهم قليل ، وهو يقول : هلموا إلىّ أيها الناس .

فلما نظر إلى خالد بن الوليد قال : خذ اللواء يا أبا سليمان .

---

(١) المغازى جـ٢ صـ٧٦٠-٧٦٢

فقال خالد : فقال لا آخذه ، أنت أحق به ، أنت رجل لك سن ، وقد شهدت بدراً .

قال ثابت : خذه أيها الرجل ، فوالله ما أخذته إلا لك .

فأخذه خالد وواصل القتال ، وجعل المشركون يحملون عليه ، فثبت حتى كلّ المشركون ، وحمل بأصحابه ففض جمعاً من جمعهم ، ثم دهمه منهم بشر كثير فتحملها خالد والمسلمون حتى انتهى اليوم .

بات خالد ليلته ووضع خطة جديدة فلما أصبح غدا ، وقد جعل مقدمته ساقة وساقته مقدمة ، وميمنته ميسرة ، وميسرته ميمنة ، وصمد فى واد واسع ينتهى بمضيق جهة الرومان فلما جاء الرومان من المضيق ، ورأوا تنظيم المسلمين أنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيأتهم ، فقالوا : قد جاءهم مدد ، ورعبوا ، فانكشفوا منهزمين ، وحين تراجعهم اضطربوا فى المضيق وأدى تزاحمهم إلى هلاك كثير منهم وقتل المسلمون منهم مقتلة لم يقتلها قوم آخرون [١].

وقتل من المسلمين يوم مؤتة اثنا عشر شهيداً بما فيهم القواد الثلاثة وانسحب الجيش الإسلامى وعاد إلى المدينة ببعض الغنائم وتحدث أهل المدينة بأن الجيش فر من المعركة وسموهم بالفرار ... فقعد الناس فى بيوتهم حتى لا يسمعوا من يناديهم يا فرار .. وكانوا يصلون فى دورهم ولا يحضرون جماعة المسجد .

فلما علم بذلك النبى ﷺ قال : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار فى سبيل الله [٢] .

والصحيح أن كل فئة انحازت عن الأخرى ، وأطلع الله سبحانه وتعالى على ذلك رسوله من يومهم ذلك ، فأخبر به أصحابه وقال عنهم ﷺ : لقد رفعوا إلى فى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحه أزوراراً عن سرير صاحبيه ، فقلت عم هذا ؟ فقيل لى : مضيا ، وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى .

---

(١) إمتاع الأسماع من صـ٣٤٥ إلى صـ٣٤٩

(٢) المغازى جـ٢ صـ٧٦٥

وقال رسول الله ﷺ : مثل لى جعفر وزيد وابن رواحة فى خيمة من در ، كل واحد منهم على سرير ، فرأيت زيداً وابن رواحة فى أعناقهما صدود ، ورأيت جعفراً مستقيماً ليس فيه صدود قال : فسألت فقيل لى : إنهما حين غشيهما الموت أعرضا أو كأنهما صدا بوجوههما ، وأما جعفر فإنه لم يفعل .

وقال رسول الله ﷺ فى جعفر : إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث يشاء .

قال أبو عمر : وروينا عن ابن عمر أنه قال : وجدنا ما بين صدر جعفر ومنكبيه وما أقبل منه ، تسعين جراحة ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح .

وقال موسى بن عقبة : قدم يعلى بن منية على رسول الله ﷺ بخبر أهل مؤتة ، فقال له رسول الله ﷺ : إن شئت فأخبرنى وإن شئت أخبرتك ، قال : أخبرنى يا رسول الله فأخبره ﷺ خبرهم كله ، ووصفهم له ، فقال : والذى بعثك بالحق ، ما تركت من حديثهم حرفاً واحداً لم تذكره ، وإن أمرهم لكما ذكرت ، فقال رسول الله ﷺ : **إن الله رفع لى الأرض حتى رأيت معتركتهم** [١] .

- ٢ -

غزوة ذات السلاسل[٢]

بعد انتهاء غزوة مؤتة ، ورجوع المسلمين إلى المدينة بلغ رسول الله ﷺ أن نفراً من "**بلى وقضاعة**" وهم الذين كانوا مع الرومان فى مؤتة يجتمعون ويستعدون لمهاجمة أطراف المدينة .... فجهز رسول الله ﷺ جيشاً من المسلمين بلغ ثلاثمائة رجل ومعهم ثلاثون فرساً وأمر عليهم عمرو بن العاص ﷺ لرحمه فيهم لأن أمة كانت بلوية أملاً فى تأثرهم بقرابته وعقد له اللواء وأعطاه راية سوداء .

أخذ عمرو ﷺ يتحرك بالجيش فكان يسير فى الليل ويكمن بالنهار ، فلما اقترب من القوم أرسل طلائعه للوقوف على خبرهم فبلغه أنهم جمع كثيف ، فأرسل ابن مكيث إلى رسول الله ﷺ يخبره بجمع القوم ، ويستمده بالرجال ، فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح فى مائتين من كبار الصحابة ، فلحقوا بعمرو وجنوده ، فاختلف أبو عبيدة وعمرو

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٣٨٣ المغازى جـ٢ صـ٧٦٧

(٢) البداية والنهاية جـ٤ صـ٢٥٥

فيمن يتولى إمارة الجيش حيث رأى أبو عبيدة أنه أمير مجموعته ، وتمسك عمرو بأنه قائد الغزو ، والمدد يتبعه ، ولا يصح تواجد قائدين على جيش مسئول عن مهمة واحدة .

وبعد جدل ونقاش سلم أبو عبيدة القيادة لعمرو وقال له : **لتطمئن يا عمرو ، وتعلمن أن آخر ما عهد إلى رسول الله ﷺ أن قال : " إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا " وإنك والله إن عصيتنى لأطيعنك** [١] ، فأطاع أبو عبيدة ، فكان عمرو يصلى بالناس ، فآب إلى عمرو جمع ، فصاروا خمسمائة ، فسار الليل والنهار حتى وطئ بلاد بلى ودوخها ، وكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه كان بهذا الموضع جمع فلما سمعوا به تفرقوا ، حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلى وعذرة وبلقين .

ولقى فى آخر ذلك جمعاً ليس بالكثير ، فقاتلوا ساعة وتراموا بالنبل .

ورمى يومئذ عامر بن ربيعة ، بسهم فأصيب ذراعه ، وحمل المسلمون عليهم فهربوا ، وأعجزوا هرباً فى البلاد وتفرقوا .

وهزم عمرو ما هناك وأقام أياماً لا يسمع لهم بجمع ولا بمكان صاروا فيه ، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم ، وكانوا ينحرون ويذبحون ، لم يكن فى ذلك أكثر من ذلك ، ولم تكن غنائم تقسم إلا ما ذكر له [٢] .

وتميز عمرو بن العاص بحسمه فى القرار ، وحسن قيادته لجنده ، وكان يصر على تنفيذ ما يأمر به وبخاصة أنه فى ميدان معركة لا يصح معه الجدل ، والنقاش فلقد أمر جنوده بعدم إشعال النار ليلاً رغم شدة البرد وقسوة الشتاء حتى لا يجد العدو مبيتهم فيفاجئهم .

كما أصر على وحدة القيادة ، وأطاعه أبو عبيدة ﷺ وعاد المسلمون بعد انتهاء اللقاء إلى المدينة سالمين .

- ٣ -

سرية الخبط

بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح فى سرية فيها المهاجرون والأنصار ، وهم ثلثمائة رجل ، إلى ساحل البحر إلى حى من **جهينة** ، فأصابهم جوع شديد ، فأكلوا الخبط

---

(١) البداية والنهاية جـ٤ صـ٢٧٣

(٢) المرجع السابق جـ٤ صـ٢٧٤

حتى إن شدق أحدهم بمنزلة مشفر البعير العضة ، فمكثنا على ذلك حتى قال لهم أبو عبيده: لو لقينا عدوا ما كان بنا حركة إليه ، لما بالناس من الجهد .

فقال قيس بن سعد : من يشترى منى تمراً بجزر ، يوفيني الجزر ها هنا وأوفيه التمر بالمدينة ؟

فجعل عمر ابن الخطاب يقول : واعجباه لهذا الغلام ، لا مال له يدان فى مال غيره فوجد قيس رجلاً من جهينة فقال له : بعنى جزراً وأوفيك سقةً من تمر بالمدينة .

قال الجهنى : والله ما أعرفك ؟ ومن أنت ؟

قال : أنا قيس بن سعد بن عبادة بن دليم .

قال الجهنى : ما أعرفتنى بنسبك ، أما إن بينى وبين سعد خلة ، سيد أهل يثرب ، فابتاع منهم خمس جزر كل جزور بوسقين من تمر ، يشترط عليه البدوى تمر ذخيرة مصلية من تمر آل دليم .

يقول قيس : نعم .

فقال الجهنى : فأشهد لى فأشهد له نفراً من الأنصار ومعهم نفر من المهاجرين .

قال قيس : أشهد من تحب ، فكان فيمن أشهد عمر بن الخطاب ﷺ .

فقال عمر : لا أشهد هذا يدان ولا مال له ، إنما المال لأبيه .

قال الجهينى : والله ما كان سعد ليخنى بابنه فى سقة من تمر ، وأرى وجهاً حسناً وفعالاً شريفاً .

فكان بين عمر وبين قيس كلام حتى أغلظ له قيس الكلام ، وأخذ قيس الجزر فنحرها لهم فى مواطن ثلاثة ، كل يوم جزوراً فلما كان اليوم الرابع نهاه أميره .

وقال أبو عبيدة : تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك ؟[1]

أقبل أبو عبيدة بن الجراح ومعه عمر بن الخطاب ﷺ إلى قيس ونهياه عن ذبح الجزر

فقال أبو عبيدة : عزمت عليك ألا تنحر ، أتريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك ؟

فقال قيس : يا أبا عبيدة أترى أبا ثابت وهو يقضى دين الناس ، ويحمـــل الكـــل

---

(١) المغازى جـ٢ صـ٧٧٥

ويطعم فى المجاعة ، لا يقضى سفة تمر لقوم مجاهدين فى سبيل الله ، فكاد أبو عبيدة أن يلين له ، ويتركه حين جعل عمر يقول : اعزم عليه فعزم عليه ، فأبى عليه أن ينحر ، فبقيت جزوران معه حتى وجد القوم الحوت فى البحر فكفاهم اثنى عشر يوماً .

فقدم قيس المدينة ظهراً مع المسلمين وهم يتعاقبون على ما بقى معه من الإبل وبلغ سعد ما كان أصاب القوم من المجاعة .

فقال : إن يكن قيس كما أعرفه فسوف ينحر للقوم .

فلما قدم قيس لقيه سعد فقال : ما صنعت فى مجاعة القوم حيث أصابهم ؟

قال : نحرت .

قال : أصبت انحر .

قال : ثم ماذا ؟

قال : نحرت .

قال : أصبت .

قال : ثم ماذا ؟

قال : ثم نحرت .

قال : أصبت ، انحر .

قال : ثم ماذا ؟

قال : نهيت .

قال : ومن نهاك ؟

قال : أبو عبيدة بن الجراح أميرى .

قال : ولم ؟

قال : زعم أنه لا مال لى وإنما المال لأبيك .

فقلت : أبى يقضى عن الأباعد ، ويحمل الكل ، ويطعم فى المجاعة ، ولا يصنع هذا بى وبالمجاهدين .

قال أبوه : فلك أربع حوائط ، وكتب له بذلك كتاباً ، وأتى بالكتاب إلى أبى عبيدة فشهد فيه ، وأتى عمر فأبى أن يشهد فيه ، وأدنى حائط يعطى منها خمسين وسقاً .

وقدم البدوى مع قيس فأوفاه سقته وحمله وكساه ، فبلغ النبى ﷺ فعل قيس . فقال : إنه فى بيت جود [١] .

ـ ٤ ـ

سرية أبى قتادة إلى خضرة

كانت سرية أبى قتادة بن ربعى الأنصارى إلى خضرة ، وهى أرض محارب بنجد أميرها أبو قتادة الأنصارى ، بعثه رسول الله ﷺ فى شعبان منها فى خمسة عشر رجلاً إلى غطفان نحو نجد ، فساروا ليلاً وكمنوا نهاراً ، حتى أتوا ناحيتهم ، فهجموا على حاضر منهم عظيم ، وجردوا سيوفهم ، وكبروا ، فقتلوا رجالاً ، واستاقوا النعم ، وحملوا النساء حتى قدموا بمائتى بعير ، وألف شاة ، وسبى كثير ، فعزلوا من ذلك الخمس .

وقد غابوا خمس عشرة ليلة ، وكانت سهمانهم اثنى عشر بعيراً ، أو عدلها من البعير عشرة من الغنم [٢] .

ـ سابعاً ـ

حركة الدعوة فى مرحلة ما بين الحديبية وفتح مكة

بعدما أتم المسلمون صلح الحديبية أخذت الحركة بالدعوة صوراً كثيرة ، ونشطت فى أماكن متعددة ، واستفادت بكل الوقائع المتاحة .

وقد رأينا تتابع الرسائل إلى العالم كله يحملها دعاة مخلصون لدينهم ... وكانت الرسالة يحملها صحابى واحد ، ويسلمها إلى كبير القوم الذين قصدهم ملكاً كان أو سلطاناً ، أو أميراً ، أو شيخاً لقبيلة ، وهذا يؤكد اعتماد تبليغ الإسلام على الكلمة الحرة الطليقة ، والبرهان الدقيق والتعامل مع الواقع ، واستنطاق الآيات منه ... وأن لا ما حمل

---

(١) المغازى جـ٢ من صـ٧٧٤ إلى صـ٧٧٦

(٢) المغازى جـ٢ صـ٧٧٧

البلاغ رجل واحد إلى أمة كبيرة بعيدة ... و لم يترتب على عدم الاستجابة عداء أو حرب اللهم إلا فى حالات الاعتداء على حامل الرسالة ، والاستهزاء بشخصه ، والاستهانة بإنسانيته ، واحتقار دين الله تعالى بأى صورة كانت .

وعاشت الجزيرة العربية كلها حالة من الاستقرار والهدوء ، وبدأ الناس يفدون إلى المدينة المنورة باحثين عن الحق ليكونوا معه وراجب تجارة أهل مكة بعدما تحقق الأمان لهم وهم يرحلون ... و لم يشذ عن هذا الاستقرار إلا فريقان من الناس .

الفريق الأول وهم اليهود ، فلقد تجمعوا فى منطقة خيبر بعد إخراجهم من المدينة ونظموا حياقم ومعاشهم فزرعوا الوادى بالنخيل والأشجار والثمار ، وأقاموا على المرتفعات البيوت وحصنوها وفق خطة منتظمة حيث جعلوا كل مجموعة من البيوت حصناً ، وكل حصون مرتفع ما حصناً رئيساً ، وأحاطوا كل حصن رئيس بسور ضخم أعدوه للدفاع والقتال يسمح للمدافعين بالإقامة فوقه فى علوهم ... وبعد هذا يكون الوادى المزروع ... وأسسوا فى السور أبواباً للدخول والخروج أحاطوها بالحرس من جانبيه ... وربطوا بين الحصون الرئيسية بطرق بين الشجر والزروع ، وتحت الأرض ... وتصور اليهود فى خيبر إمكانية تعرضهم للحصار فملأوا حصونهم بالأمتعة ، والأغذية والسلاح ليتحملوا الحصار مدة طويلة توقع من يهاجمهم فى اليأس ، وتضطره إلى الإنسحاب وظن اليهود أن حصونهم ستمنعهم من المسلمين فأخذوا فى الكيد لهم ، وتحريض الأعراب على معاداة المسلمين ، وتشجيع الرومان وأتباعهم على ضرورة التصدى للقوة الإسلامية قبل أن يسفحل الأمر ، ويستحيل مواجهة المسلمين .

قدر رسول الله ﷺ واقع اليهود ، وتيقن أن السكوت على عداوتهم وتصرفاتهم سيعيد الكثير إلى معاداة المسلمين ، وسيزيدهم غروراً وهمجية ، ولذلك كانت ضرورة التحرك إلى خيبر وما حولها للتخلص من هذا الخطر الذى لا يرضى بالسلام ، ولا يريد المسالمة وكان إن قضى النبى ﷺ على حصونهم وأتباعهم فى خيبر ، وفدك ، وتيماء ، وأذرعات ، وبذلك تطهر شمال جزيرة العرب ، وأصبحت الحركة آمنة للدعوة إلى الله تعالى .

إن الإنسان المعاصر وهو يتصور حصون خيبر ، واستعداداتها يتصور ما تفعله إسرائيل اليوم من جدار عازل ، وقنوات مائية عميقة تحجظ جيرانها عنها لتعيش آمنة فيما اغتصبت من أرض ، وتتمتع بما سرقته من أوطان .

يتصور الإنسان ذلك ويتساءل أين أصحاب محمد للتخلص من هذا العدوان الظالم؟

وأين هى القوة التى تستطيع المحافظة على الحقوق ، وإلزام كل إنسان بما وجب عليه ؟ ... ويفهم الإنسان المعاصر وهو يرى الظلم والظلمات الحكمة فى أهمية القوة الإسلامية وضرورتها لحماية الحقوق ، وصيانة الكرامة ، ومنع الظلم والعدوان .

وفى هذه المرحلة التاريخية أدى رسول الله ﷺ وكثير من المسلمين عمرة القضاء فى إطار ما عاهد عليه قريش ، فالتزم ووفى وزار البيت واعتمر ، وأظهر للدنيا كلها طبيعة الإسلام فى سلامه وعطائه .

وكما واجه الرسول ﷺ يهود خيبر أرسل جيش مؤتة إلى أطراف بلاد الروم ليكون رسالة تحذيرية للرومان وأتباعهم ليدركوا أن ما أصاب اليهود قد يصيبهم إذا ألفوا العدوان والظلم ... ولقد أدى جيش مؤتة مهمته وعاد إلى المدينة المنورة ... وقد اشترك المسلمون فى عديد من السرايا ليتعودوا على الحرب ، ويعلموا دورهم فى حماية الإسلام والدعوة لدين الله تعالى ... وكان القرآن معهم يوجههم ، ويربيهم بمنهج الله تعالى .

ـ المبحث الثانى عشر ـ
فتح مـــكة
وتطهير الجزيرة العربية كلها من الشرك

رضيت الجزيرة العربية بواقعها الجديد ، وأخذت تؤمن بالإسلام ، وتدخل فى دين الله تعالى ... و لم تبق إلا جيوب قليلة استمرت على عدائها لرسول الله ﷺ وعاشت تكره دين الله تعالى ... وعلى رأس هذه الجيوب رءوس الكفر فى مكة ، وقبائل ثقيف ، وهوازن ، وبنى سليم ...

أخذت هذه الجيوب الكافرة تمثل عائقاً أمام الآخرين فى إقبالهم على الإسلام ، وتهدد الدعاة إلى دين الله تعالى فى حركتهم بالدعوة إلى الله تعالى ولذلك كان التخلص من هذه الجيوب نهاية كريمة لإسلام الجزيرة كلها ... وتوجيه كل طاقاتها لبروز خير أمة فى مجال الواقع تحمل الإسلام إلى ممالك الدنيا ، وتظهره فى أمة عادلة ناهضة تدعو إلى الإسلام بالعمل ، والقول ، والسلوك ، والخلق ، وتنادى العالمين أن هلموا إلى الإسلام لتحققوا عالمية إنسانية فى إطار دين الله ، وتبتعدوا عن كل سوءات البشر ، من صراع ، وتحاسد ، وطغيان ، وعدوان .

ومن حكمة الله تعالى أنه عند فتح مكة وتطهير الجزيرة كلها من الشرك كانت معالم الإسلام قد عرفت ، وأحكامه العملية قد فصلت ، وأصبح كل من الفرد والجماعة والأمة يدرك مدى الخير الذى حققه الإسلام للجميع ، وتيقنوا من صدقة ، وأحقية أن يكون دين الناس أجمعين .

وعلم كل من أسلم مسئوليته أمام دينه الذى آمن به ، فحمله إلى العالم مجاهداً فى سبيل الله ، ولذلك انطلق دعاة الإسلام إلى العالم يبلغون دين الله تعالى ، ويزيلون كوابس الطغيان التى تمنع الناس من التفكير الحر ، والاختيار الصحيح ، واستمروا على إخلاصهم حتى استقر الحق ، ودخل الناس فى دين الله تعالى .

إن فتح مكة قضى على أكثر قوة تصدت لرسول الله ، وناصبت دينه العداء ، وجعلت نفسها المعارض الر ئيسي للإسلام والمسلمين .. ولذلك كان انضمام مكة للمعسكر الإسلامى من الناحية العملية انضمام الجزيرة كلها للإسلام .

إن الغزوات الكبرى كانت مع المكيين ، أما غيرهم فكانت المواجهة معهم تتم بأعداد قليلة ، وأحياناً بفرد واحد .

وفى هذا المبحث سنبين الخطوات النهائية التى تطهرت فيها الجزيرة العربية من الأوثان والشرك ... وذلك فيما يلى :

ـ أولاً ـ
فتح مكة

هو الفتح الأعظم الذى انتهى به عصر الأصنام فى الجزيرة العربية كلها ، وعلت به كلمة الله تعالى ، وأصبح الإسلام قوة ظاهرة بانضمام مكة والمدينة تحت لوائه ... وصارت مكة هى قلب الأمة الإسلامية ، ومستقرها الآمن ... وغدت الأمل الذى عاش رسول الله ﷺ يعمل له ، ويجاهد من أجله .

وفتح مكة يحتاج إلى دراسة النقاط التالية :

ـ ١ ـ
سبب فتح مكة

تعاهد رسول الله ﷺ والقرشيون فى الحديبية على حرية كل فرد وكل جماعة فى أن تنحاز لأيهما ، وتدخل فى دينه وعقيدته .

وقد انحازت بنو بكر لقريش ، وانحازت بنو خزيمة لرسول الله ﷺ .

وبنو بكر وبنو خزاعة قبيلتان متحاربتان فى الجاهلية ، وبينهما عداوات قديمة فلما انحاز كل منهما لطرف من طرفى الحديبية عاشوا آمنين فى ظل هذا الصلح .

إلا أن بنى بكر انتهزوا فرصة انشغال المسلمين بالسرايا ، وبالدعوة إلى الله تعالى وظنوا أن بُعد المسافة بين مكة والمدينة يؤدى إلى عدم وصول الأخبار إلى المدينة ، وإلى تقاعس المسلمين عن الانتصار لحلفائهم بنى خزاعة وبخاصة إذا خططوا لتآمرهم وخدعوا بحيلهم رسول الله والمسلمين معه ... فتآمروا مع حلفائهم من قريش .

وقال القرشيون : ما يعلم بنا محمد ، إذا دبرنا الغدر ليلاً وفى الظلام .

فوثب بنو بكر على بنى خزاعة ليلاً وقتلوا منهم ثلاثاً وعشرين نفساً عند بئر لهم

يعرف بـ" بئر الوتر " وكان أغلب القتلى من الأطفال والنساء والشيوخ ، ففرت خزاعة إلى الحرم ودخلت فيه ولجأت إلى البيت الكريم .

أدركت بنو بكر حرمة المبيت ، وشعرت بافتضاح تآمرها ، فنادت قائدها نوفل بن معاوية الدؤلى ، قائلة له : إنا قد دخلنا الحرم ... إلهك ... إلهك ...

فقال لهم : لا إله اليوم يا بنى بكر ، أصيبوا ثأركم ، فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم؟ ... أفلا تصيبون فيه ثأركم ؟؟ (١)

وقد أعانت قريش حلفاءها بالسلاح والرجال ، وحاولوا إخفاء ما قاموا به حتى لا ينتقم المسلمون منهم ، وظنوا أن ظلام الليل يستر غدرهم .

وفى مكة بحثت خزاعة بعد انتهاء العدوان الغادر عن مقر آمن تذهب إليه فلجأت إلى دار بديل بن ورقاء ، واستجارت به .

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعى إلى رسول الله ﷺ يخبره الخبر ، ويستنجده ، فلما وصل إلى المدينة وجد رسول الله ﷺ جالساً فى المسجد بين الصحابة فوقف عنده ثم قال :

يا رب إنى ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا (٣)
قد كنتم ولداً وكنا والداً (٢) ... ثمة أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر ، هداك الله ، نصراً اعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله ، قد تجردا ... أبيض مثل البدر ، يسموا صعدا
إن سيم خسفاً وجهه تربداً ... فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لى فى كداء رصدا ... وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل ، وأقل عددا ... هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ : **نصرت يا عمرو بن سالم ، ثم عرضت له سحابة من**

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ٣٩٠

(٢) يشير إلى ما كان بين خزاعة وبنى هاشم من حلف فى الجاهلية .

(٣) يشير إلى أن زوجة قصى أم عبد مناف من أم بنى هاشم خزاعة .

السماء فقال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب [١] .

ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بمن أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ، ثم رجعوا إلى مكة.

وأمر رسول الله ﷺ بالجهاز ، وكتم الخروج ، وسأل الله أن يعمى على قريش خبره حتى يبغتهم فى بلادهم [٢] .

- ٢ -

محاولة أبى سفيان تجديد الصلح

استيقظت قريش لنفسها ، وأدركت أنها ارتكبت جرماً يستوجب نقض صلحها مع المسلمين ، فأسرعت بإرسال أبى سفيان فى وفادة الإنقاذ لرسول الله ﷺ ليجدد الصلح والعهد ، ويزيد فى المدة ، فخرج أبو سفيان من مكة ، فلقيه بديل بن ورقاء عائداً من المدينة فقال له : من أين أقبلت يا بديل ؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ .

فقال بديل : سرت فى خزاعة فى هذا الساحل فى بطن هذا الوادى .

فعمد أبو سفيان إلى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى ، وعلم أنه من نوى المدينة فقال : **أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً** .

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة ، **فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته ، فقال : يا بنيه ما أدرى أرغبت بى عن عن هذا الفراش ؟ أو رغبت به عنى ؟**

فقالت : **هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراشه .**

فقال : يا بنية والله لقد أصابك بعلمك شر .

قالت : هدانى الله للإسلام ، وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها ، كيف يسقط عنك الدخول فى الإسلام وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ؟

---

(١) سيرة النبى جـ٢ صـ٣٩٥

(٢) البداية والنهاية جـ٤ صـ٢٧٨ ، ٢٧٩

قال : يا عجباه ، وهذا منك أيضاً ؟ أاترك ما كان يعبد آبائى وأتبع دين محمد ؟ ثم قام من عندها [١].

فلما لقى رسول الله قال له : يا محمد اشدد العقد ، وزدنا فى المدة .

فقال رسول الله ﷺ : أو لذلك قدمت ؟ هل كان من حدث قبلكم ؟

فقال : معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ، ولا نبدل .

فخرج من عند رسول الله ﷺ وأتى أبا بكر فقال : جدد العقد وزدنا فى المدة ؟

فقال أبو بكر : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ ، والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم .

ثم خرج فأتى عمر بن الخطاب فكلمه .

فقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : ما كان من حلفنا جديد فأخلقه الله ، وما كان منه مثبتاً فقطعه الله ، وما كان منه مقطوعاً فلا وصله الله .

فقال له أبو سفيان : جزيت من ذى رحم شراً .

ثم دخل على عثمان فكلمه .

فقال عثمان : جوارى فى جوار رسول الله ﷺ .

ثم اتبع أشراف قريش يكلمهم فكلهم يقول عقدنا فى عقد رسول الله ﷺ .

فلما يئس مما عندهم دخل على فاطمة بنت رسول الله ﷺ فكلمها فقالت : إنما أنا امرأة وأن ذلك إلى رسول الله ﷺ .

فقال لها : فأمرى أحد ابنيك .

فقالت : إنهما صبيان ليس مثلهما يجير .

قال : فكلمى علياً .

فقالت : أنت فكلمه .

فلما كلمه قال له على رضي الله عنه إن ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يفتات على رسول الله بجوار ، وأنت سيد قريش وأكبرها وأمنعها فأجر بين عشيرتك .

---

(١) المغازى جـ١ صـ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، سيرة النبى جـ٢ صـ٣٥٧

قال : صدقت وأنا كذلك ، فخرج فصاح ألا أنى قد أجرت بين الناس ولا والله ما أظن أن يخفزنى أحد .

ثم دخل على النبى ﷺ فقال : يا محمد إنى أجرت بين الناس ، ولا والله ما أظن أن يخفزنى أحد ، ولا يرد جوارى ؟

فقال ﷺ : أنت تقول يا أبا حنظلة .

فخرج أبو سفيان على ذلك فقال ﷺ حين أدبر أبو سفيان : اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعوا بنا إلا فجأة .

وقدم أبو سفيان مكة فقالت له قريش ما وراءك هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟

قال : لا والله لقد أبى على ، وقد تتبعت أصحابه فما رأيت قوماً لملك عليهم أطوع منهم له ، غير أن على بن أبى طالب قد قال لى : التمس جوار الناس عليك ، ولا تجر أنت عليه وعلى قومك وأنت سيد قريش وأكبرها وأحقها أن لا تخفر جواره ، فقمت بالجوار ثم دخلت على محمد فذكرت له أنى قد أجرت بين الناس وقلت : ما أظن أن تخفزنى ؟

فقال : أنت تقول ذلك يا حنظلة ؟ (١)

فقالوا مجيبين له : رضيت بغير رضى ، وجئتنا بما لا يغنى عنا ولا عنك شيئاً ، وإنما لعب بك على ، لعمر الله ما جوارك بجائز وإن إخفارك عليهم لهين .

ثم دخل على امرأته فحدثها الحديث فقالت : قبحك الله من وافد فما جئت بخير .

- ٣ -

استعداد المسلمين لفتح مكة

أخذ رسول الله ﷺ يستعد لغزو مشركى مكة ، وأمر عائشة إن تستعد لذلك ، وأمرها أن لا تخبر أحداً بجهة الغزو ليأخذ القرشيين على غرة .

وعين ﷺ عمر بن الخطاب على أطراف المدينة ليتحفظ على من يأتى المدينة من غير أهلها ، ويرقب الحركة منها وإليها .

---

(١) بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى جـ٢١ صـ١٤٤ ، والمغازى جـ٢ صـ٧٩٣ ، ٧٩٥

ودخل أبو بكر ﷺ على عائشة رضى الله عنها : وهى تجهز للسفر ، وتعمل قمحاً سويقاً ودقيقاً ، فقال : **يا عائشة أهم رسول الله بغزو ؟**

قالت : **ما أدرى .**

قال : **إن كان هم بسفر فأعلمينا نتهيأ له .**

قالت : **ما أدرى ، لعله يريد بنى سليم ، لعله يريد ثقيفاً ، لعله يريد هوازن ، فاستعجمت عليه وحافظت على أسرار رسول الله ﷺ حتى دخل رسول الله ﷺ عليهما فقال له أبو بكر ﷺ : يا رسول الله ، أردت سفراً ؟**

قال ﷺ : **نعم .**

قال أبو بكر : **أفأتجهز ؟**

قال ﷺ : **نعم .**

قال أبو بكر : **فأين تريد يا رسول الله ؟**

قال ﷺ : **قريشاً وأخف ذلك يا أبا بكر .**

وأمر ﷺ الناس بالإستعداد للجهاد وطوى عنهم الوجه الذى يريد .

قال أبو بكر : **يا رسول الله ، أوليس بيننا وبينهم مدة .**

قال : **إنهم غدروا ونقضوا العهد ، فأنا غازيهم ، وأطو ما ذكرت لك .**

ونشط المسلمون فى الاستعداد ، وبدأت القبائل تفد برجالها إلى المدينة بعدما أخبرهم بأهمية القدوم إليها وقال لهم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليأت المدينة وبعث رسلاً فى كل ناحية حتى قدموا ، فقدمت أسلم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأشجع ، المدينة ولحقت بنو سليم بهم عند قديد[1] .

وأخذ المسلمون يفكرون فى جهة غزوتهم التى جاءوا لها ، فظان يظن أنها الشأم وظان يظنها ثقيفاً ، وظان يظن أنها هوازن .

ومن التورية على الناس ، إرساله ﷺ ابن ربعى فى ثمانية نفر إلى بطن "إضم" ليصرف انتباه الناس عن مكة ، وحتى يظن القوم أن رسول الله ﷺ سيتجه باستعداداته لمساعدة من

---

(١) إمتاع الأسماع صـ٣٦١ إلى صـ٣٦٤

أرسلهم إلى " إضم" وبخاصة أنها فى اتجاه مكة .

فلما أجمع ﷺ المسير إلى قريش وعلم بذلك الناس ، كتب حاطب بن أبى بلتعه إلى قريش ، يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ فى أمرهم ، وكان كتابه موجهاً إلى ثلاثة نفر : صفوان بن أمية ، وسهيل بز عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل ، وفيه يقول: **إن رسول الله قد أذن فى الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن يكون لى عندكم يد بكتابى إليكم .**

وأعطى الكتاب إلى امرأة من مزينة من أهل العرج تسمى "سارة " وجعل لها عشرة دنانير على أن تبلغه قريشاً ، وقال لها : أخفيه ما استطعت ، ولا تمرى على الطريق المألوف بين مكة والمدينة فإن عليه حرساً ، فجعلته فى رأسها ، ثم فتلت عليه فرونها ، وسلكت طريقاً غير مألوف حتى لقيت الطريق بالعقيق ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث ﷺ علياً ، والزبير رضى الله عنهما **وقال لهما : أدركا امرأة من مزينة ، قد كتب معها حاطب كتاباً يحذر قريشاً ، فخرجا ، فأدركاها ، فاستنزلاها ، والتمساه فى رحلها فلم يجدا شيئاً فقالا لها: إنا نحلف بالله ما كذب رسول الله ولا كذبنا ، ولتخرجن هذا الكتاب ، أو لنكشفنك ، فلما رأت منهما الجد قالت : أعرضا عنى ، فأعرضا عنها ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب .**

فلما جاءا بالرسالة إلى رسول الله ﷺ دعا حاطباً فقال : **ما حملك على هذا ؟**

فقال : يا رسول الله ، والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرءاً ليس لى فى القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم أهل وولد ، فصانعتهم .

فقال عمر ﷺ : قاتلك الله ، ترى رسول الله ﷺ يأخذ بأطراف المدينة ، ويراقب كل داخل إليها ، وتكتب إلى قريش تحذرهم ، دعنى يا رسول الله أضرب عنقه فإنه قد نافق.

فقال ﷺ : وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم [١] **وأنزل الله تعالى فى شأن حاطب قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ**

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة الفتح جـ٧ صـ٣ ، ٤

ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[١] والآية واضحة الدلالة فى طريقة التعامل مع أعداء الله تعالى ، الذين كفروا بالإسلام ، وحاربوا رسول الله ﷺ لأن هؤلاء لا يفيد معهم الود لامتلاء قلوبهم بالحقد ، والكراهية .

إن ولاية المؤمن الحقة هى للمؤمنين وحدهم ، ومن يوالى أعداء الله فقد ضل الطريق المستقيم الذى أمر الله به .

وأما " سارة " فقد تركها الصحابيان بعد أخذ الرسالة منها ، وكانت لا تدرى ما بها فمضت إلى مكة تباشر مهمتها فى الغناء ، فأقبلت تتغنى بهجاء رسول الله ﷺ ، وقد ارتدت عن الإسلام .

- ٤ -

الجيش الإسلامى يتحرك نحو مكة

غادر رسول الله ﷺ المدينة متجهاً إلى مكة فى عشرة آلاف من الصحابة ﷺ واستخلف على المدينة أبا رهم الغفارى ﷺ فى العاشر من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة .

ولما كان بالجحفة أو فوق ذلك لقيه عمه العباس **بن عبد المطلب ، وكان قد خرج بأهله وعياله من مكة مسلماً مهاجراً** ، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه **أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبى أمية** ، فأعرض عنهما ، لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو ، فقالت له أم سلمه : لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك ، وقال على لأبى سفيان بن الحارث : ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾[٢] .

فأنشده أبو سفيان أبياتاً منها :

---

(١) سورة الممتحنة الآية ١

(٢) سورة يوسف الآية ٩١

لعمرك إنى حين أحمل راية | لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله | فهذا أوانى حين أهدى فاهتدى
هدانى هاد غير نفسى ودلنى | على الله من طردته كل مطرد

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : **أنت طردتنى كل مطرد** [١] ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [٢]

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم ، والناس صيام ، حتى بلغ "**الكديد**" وهو ماء بين عسفان وقديد ، فأفطر وأفطر الناس معه ، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران فى وادى فاطمة ، نزله عشاء ، فأمر الجيش بإيقاد النيران فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب ﷺ .

وركب العباس بعد نزول المسلمين بمر الظهران بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وخرج يلتمس أحداً يخبر قريشاً ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها .

وكان الله قد عمى الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وترقب ، وكان أبو سفيان يخرج ومعه حكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار .

قال العباس : والله إنى لأسير على بغلة رسول الله ﷺ إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً .

ويقول بديل : هذه والله خزاعة ، حمشتها الحرب .

فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

وقال العباس : أبا حنظلة ؟ فعرف أبو سفيان صوته .

قال : أبا الفضل ؟

قلت : نعم .

قال : مالك ؟ فداك أبى وأمى .

قلت : والله لئن ظفر بك أحد من المسلمين ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه

---

(١) بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى جـ ٢١ صـ ١٤٥

(٢) سورة يوسف الآية ٩٢

البغلة ، حتى آتى بك رسول الله ﷺ فاستأمنه لك ، فركب خلفى ، ورجع صاحباه .

يقول العباس : فجئت به على رسول الله ﷺ فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : **عم رسول الله ﷺ على بغلته ﷺ** ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال عمر : أبو سفيان عدو الله ؟ الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت البغلة فسبقت فدخلت على رسول الله ﷺ ، ثم دخل عليه عمر فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان فدعنى أضرب عنقه .

قلت : يا رسول الله ﷺ إنى قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت : والله لا يناجيه الليلة أحد دونى ، فلما أكثر عمر فى شـأنه قلت : **مهلاً يا عمر فو الله لو كان من رجال بنى عدى ما قلت مثل هذا** .

قال عمر : مهلاً يا عباس ، فو الله لإسلامك كان أحب إلى من الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺمن إسلام الخطاب .

فقال رسول الله ﷺ : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنى به ، فذهبت فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

قال أبو سفيان: بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لأغنى عنى شيئاً !!

فقال رسول ﷺ : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله .

قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ أما هذه فإن فى النفس حتى الآن منها شيئاً .

فقال له العباس : ويحك أسلم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ قبل أن تضرب عنقك ، **فأسلم وشهد شهادة الحق** .

قال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً منه .

قال ﷺ : نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن [١] .

وفى صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ثمان غادر رسول الله ﷺ مر الظهران إلى مكة ، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادى عند خطم الجبل ، حتى تمر به جنود الله فيراها ففعل ، فمرت القبائل على راياتها ، كلما مرت به قبيلة قال : يا عباس من هذه ؟ فيقول مثلاً : سليم ، فيقول : مالى ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فيقول : مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة ؟ حتى نفدت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها ، فإذا أخبرته قال : مالى ولبنى فلان ؟ حتى مر به رسول اله ﷺ فى كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد قال : سبحان الله يا عباس من هؤلاء .

قال : هذا رسول الله ﷺ مع المهاجرين والأنصار .

قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً .

قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة .

قال : فنعم إذن [٢] .

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مر بأبى سفيان قال له : **اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً ، فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال أبو سفيان : يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد ؟**

قال : وما قال ؟

قال : كذا وكذا .

وقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : **يا رسول الله ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة .**

فقال رسول الله ﷺ : **بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً ،**

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٤٠١ ، ٤٠٢ بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٦ صـ٢٤٤

(٢) بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد جـ٦ صـ٢٤١

ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى ابنه قيس [1] .

ولما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال له العباس : النجاء إلى قومك ، فأسرع أبوسفيان حتى دخل مكة ، وصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد ، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت الدسم الأحمش الساقين ، قبح من طليعة قوم .

قال أبو سفيان : **ويلكم ، لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .**

قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك ؟

قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، وبثوا أوباشاً لهم ، وقالوا : نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شئ كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا ، فتجمع سفهاء قريش مع عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو بالخندمة ليقاتلوا المسلمين ، وكان فيهم رجل من بنى بكر حماس بن قيس، كان يعد قبل ذلك سلاحاً، فقالت له امرأته: **لماذا تعد ما أرى ؟**

قال : لمحمد وأصحابه .

قالت : والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شئ .

قال : إنى والله لأرجو أن أخدمك بعضهم .

ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فمالى علة ... هذا سلاح كامل وأله

وذو غرارين سريع السلة

فكان هذا الرحل فيمن اجتمعوا فى الخندمة .

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى " ذى طوى" وكان يضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل ، وهناك وزع جيشه ، وكان خالد بن الوليد على الميمنة ، ومعه أسلم ، وسليم ، وغفار ومزينة ، وجهينة قبائل من العرب ، **فأمره ﷺ أن يدخل مكة من أسفلها** ، وقال لخالد : إن عرض لكم

---

(١) صحيح البخارى كتاب غزوة الفتح جـ٧ صـ٨

أحد من قريش فاحصدوهم حصداً ، حتى توافونى على الصفا .

وكان الزبير بن العوام على الميسرة ، وكان معه راية رسول الله ﷺ فأمره أن يدخل مكة من أعلاها ، من كداء ، وأن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتى يأتيه .

وكان أبو عبيدة على الرجالة والحسر ، وهم الذين لا سلاح معهم ، فأمره أن يأخذ بطن الوادى ، ويدخل مكة من الشمال الغربى فى اتجاه جبل هند حتى يأتى لمكة بين يدى رسول الله ﷺ .

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامى على الطريق الذى حدده لهم رسول الله ﷺ فأما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه ، وقتل من أصحابه كرز بن جابر الفهرى ، وخنيس بن خالد بن ربيعة ، كانا قد شذا عن الجيش ، فسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً ، وأما السفهاء من قريش فلقيهم خالد وأصحابه بالخندمة فناوشوهم شيئاً من قتال ، فأصابوا من المشركين اثنى عشر رجلاً وانهزم المشركون شر هزيمة .

وانهزم حماس بن قيس ، الذى كان يعد السلاح لقتال المسلمين ، حتى دخل بيته ، فقال لامرأته : أغلقى على بابى .

فقالت : وأين ما كنت تقول ؟

فقال لها :

وأنت لو رأيتنا بالخندمة … إذ فر صفوان وفر عكرمة
واستقبلتنا بالسيوف المسلمة … يقطعن كل ساعد وجمجمه
ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه … لهم نهيت خلفنا وهمهمه
لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمة

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا .

وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح ، وضرب له هناك قبة ، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله ﷺ .

ثم نهض رسول الله ﷺ ، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر الأسود ، فاستلمه ، ثم طاف بالبيت ، وفى يده قوس وحول

البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقرأ قوله تعالى ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾(١) وقوله تعالى ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾(٢)

وأخذت الأصنام تتساقط على وجوهها كلما ضربها رسول الله أو أشار إليها .

وكان طوافة على راحلته ، و لم يسع بين الصفا والمروة لأنه لم ينو العمرة يومئذ ، فلما أتم طوافه ﷺ دعا عثمان بن طلحة ، وأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها ففتحت ، فدخلها ، فرأى فيها الصور ، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يستقسمان الأزلام ، فقال : قاتلهم الله والله ما استقسما بها قط ، ورأى فى الكعبة حمامة من عيدان ، فكسرها بيده ، وأمر بالصور فمحيت (٣) .

- ٥ -

مكـــة
تحت القيادة الإسلامية

تهدمت الأصنام ، وتطهرت الكعبة من ألوان الشرك ، والضلال ، وبدأ عهد جديد فى مكة ، علا فيه الإسلام ، وخضع الجميع لحكم الله تعالى .

وأخذ ﷺ يصرف أمور الناس والحياة ، بوحى الله تعالى بعد استقرار الأمر لعشر بقين من رمضان سنة ثمان .

وأقام ﷺ فى قبة من أدم أقامها له أبو رافع عند الحجون ، وكان ﷺ يأتى منها إلى المسجد عند كل صلاة .

وبدأ الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، ومنهم كان يستجير بمسلم قبل أن يعلن إسلامه من شدة خوفه .

وتحرك ﷺ من الحجون إلى الحرم أول مرة ضحى وقد اصطف الناس ، واصطحب

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨١

(٢) سورة سبأ الآية ٤٩

(٣) المغازى جـ٢ صـ٨٣٢ ، ٨٣٤

أبا بكر ، وابن أم مكتوم ، فلما انتهى ﷺ إلى الكعبة استلم الركن وكبر ، فكبر الناس لتكبيرة حتى ارتجت مكة كلها .

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى ناحية من المسجد والناس حوله ، فاتى بدلو من زمزم فغسل وجهه ، فما يقع منه قطرة إلا فى يد إنسان ، إن كانت قدر ما يحسوها حساها ، وإلا تمسح بها ، والمشركون ينظرون ، فقالوا : ما رأينا ملكاً قط أعظم مما رأينا اليوم .

وجاءته قريش فأسلموا ، وقالوا : يا رسول الله ، اصنع بنا صنع أخ كريم .

فقال ﷺ : أنتم الطلقاء مثلى ومثلكم كما قال يوسف لإخوته ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[١]

ثم اجتمع الناس لمبايعته ﷺ ، فجلس على الصفا ، وجلس عمر بن الخطاب أسفل مجلسه وجلس ابن أم مكتوم بين يديه فبايعوه على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا وسألوه عن الهجرة إلى المدينة المنورة .

فقال ﷺ : لا هجرة بعد الفتح .

وتجرد الرجال من الأزر ، ثم أخذوا الدلاء فغسلوا ظهر الكعبة وبطنها حتى انبعج الوادى من الماء ، وأزالوا ما كان فيها من عمل الجاهلية فلم يدعوا فيه صورة ولا أثراً من آثار المشركين إلا محوه .

وجاء عثمان بن طلحة بالمفتاح إلى رسول الله ﷺ لما بلغ رأس الثنية ، فبعث ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ من البطحاء ، ومعه عثمان بن طلحة ليفتح البيت ، وأمره أن لا يدع صورة إلا محاها ، ولا تمثالاً إلا هدمه ، ففعل عمر ذلك وترك صورة إبراهيم عليه السلام حتى محاها رسول الله ﷺ .

ودخل ﷺ الكعبة ، ومعه أسامة بن زيد ، وبلال ، وعثمان بن طلحة ، فمكث فيها مدة وصلى ركعتين ثم خرج والمفتاح فى يده ، ووقف على الباب خالد بن الوليد يذب الناس عنه حتى خرج رسول الله ﷺ فوقف على باب البيت وأخذ بعضاديته ، وأشرف على الناس وفى يده المفتاح ، ثم جعله فى كمه ، وقال وقد جلس الناس :

---

(١) سورة يوسف الآية ٩٢

الحمد لله الذى صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، يا معشر قريش ، ماذا تقولون ؟ وماذا تظنون ؟ قالوا : نقول خيراً ونظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت .

فقال ﷺ : فإنى أقول كما قال أخى يوسف ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

ألا إن كل ربا فى الجاهلية ، أو دم ، أو مال ، أو مأثرة فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وفى قتيل العصا والسوط الخطأ شبه العمد الدية مغلظة مائة ناقة ، منها أربعون فى بطونها أولادها .

إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية وتكثرها بآبائها ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام بحرام الله ، لم تحل لأحد كان قبلى ، ولا تحل لأحد كائن بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من النهار ، ألا لا ينفر صيدها ، ولا يعضد عضاها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد ولا يختلى خلاها .

فقال العباس ﷺ : إلا الإذخر يا رسول الله ، فإنه لابد منه للقبور ، وظهور البيوت ، فسكت ساعة .

ثم قال ﷺ : إلا الإذخر فإنه حلال [١] .

ولا وصية لوارث ، وأن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، ولا يحل لامرأة تعطى من مالها إلا بإذن زوجها ، والمسلم أخو المسلم ، والمسلمون إخوة ، والمسلمون يد واحدة على من سواهم ، تتكافأ دمائهم ، يرد عليهم أقصاهم ، ويعقد عليهم أدناهم ومشدهم على مضعفهم ، ومسيرهم على قاعدهم ، ولا يقتل مسلم بكافر ، ولا ذو عهد فى عهده ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا جلب ولا جنب ، ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا فى بيوتهم وبأفنيتهم ، ولا تنكح المرأة على عمتها وخالتها ،

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى جـ٧ صـ٢١

والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذى محرم ، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح ، وأنهاكم عن صيام يومين : يوم الأضحى ، ويوم الفطر ، وعن لبستين ، لا يحتب أحدكم فى ثوب واحد يفضى بعورته إلى السماء ، ولا يشتمل الصماء ، ولا إخالكم إلا وقد عرفتموها [١] .

ثم نزل ﷺ ومعه المفتاح ، فتنحى ناحية من المسجد فجلس فقال : ادعوا إلى عثمان بن طلحة ، فأقبل عثمان .

فقال ﷺ : خذوها يا بنى أبى طلحة تالدة خالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا بالمعروف [٢] .

وقال لخالد بن الوليد ﷺ : لم قاتلت وقد نهيت عن القتال ؟

فقال خالد : هم يا رسول الله بدأونا بالقتال ، ورشقونا بالنبل ، ووضعوا فينا السلاح وقد كففت ما استطعت ، ودعوتهم إلى الإسلام وأن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فأبوا ، حتى إذا لم أجد بداً قاتلتهم ، فظفرنا الله عليهم وهربوا فى كل وجه يارسول الله .

فقال ﷺ : فكف عن الطلب .

قال : قد فعلت يا رسول الله .

قال ﷺ : قضاء الله خير .

ثم قال ﷺ: يا معشر المسلمين، كفوا السلاح، إلا بنى خزاعة عن بنى بكر فلهم إلى صلاة العصر فضربوهم ساعة ، وهى الساعة التى أحلت لرسول الله ﷺ ولم تحل لأحد قبله .

وقام ﷺ خطيباً فى اليوم الثانى بعد قتل جندب بن الأدلع فقال :

أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، ويوم خلق الشمس والقمر ووضع هذين الجبلين ، فهى حرام إلى يوم القيامة ، لا يحل لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، ولا يعضد فيها شجراً ، لم تحل لأحد

---

(١) المغازى جـ٢ صـ٨٣٥-٨٣٧

(٢) المرجع السابق جـ٢ صـ٨٣٨

كان قبلى ، ولا تحل لأحد يكون بعدى ولم تحل لى إلا ساعة من نهار ، ثم رجعت حرمتها بالأمس ، فليبلغ شاهدكم غائبكم ، فإن قال قائل : قد قاتل فيها رسول الله ، فقولوا : إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فقد والله كثر إن نفع ، وقد قتلتم هذا القتيل ، والله لأدينه ، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بالخيار : إن شاءوا فدم قتيلهم ، وإن شاءوا فعقله [١] .

وجاء الظهر ، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يؤذن فوق ظهر الكعبة ، وكانت قريش فوق رؤوس الجبال ، وقد فر وجوههم وتغيبوا خوفاً من أن يقتلوا ، فلما أذن بلال ورفع صوته كأشد ما يكون أمنوا ونزلوا .

وأتى يعلى بن منية بأبيه فقال : **يا رسول الله ، بايع أبى على الهجرة .**

فقال ﷺ : **لا بل أبايعه على الجهاد ، فقد انقضت الهجرة .**

وكان سهيل بن عمرو أغلق عليه بابه ، وبعث إلى ابنه عبد الله بن سهيل أن يأخذ له أماناً ، فأمنه رسول الله ﷺ وقال : **من لقى سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه فلعمرى إن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثل سهيل جهل الإسلام ، ولقد رأى ما كان يوضع فيه إنه لم يكن له بنافع ، فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره .**

فقال سهيل : **كان والله براً صغيراً وكبيراً** ، فخرج وشهد حنيناً ، وأسلم بالجعرانة.

وهرب هبيرة بن أبى وهب زوج أم هانئ بنت أبى طالب ومعه عبد الله بن الزبعرى بن سهم القرشى السهمى إلى نجران ، فبعث حسان بن ثابت بشعر إلى ابن الزبعرى فجاء ، ولما نظر رسول الله ﷺ إليه قال : هذا ابن الزبعرى ومعه وجه فيه نور الإسلام فأسلم ومات ابن هبيرة بنجران مشركاً .

وهرب حويطب بن عبد العزى بن لؤى القرشى العامرى ، فأمنه أبو ذر رضي الله عنه ومشى معه ، وجمع بينه وبين عياله .

وأسلمت **هند بنت عتبه ، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام** : امرأة عكرمة ابن أبى جهل ، **والبغوم بنت المعذل** : امرأة صفوان بن أمية ، **وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة**

---

(١) المغازى جـ٢ صـ٨٤٤

وهند بنت منبه بن الحجاج : أم عبد الله بن عمرو بن العاص ، فى عشرة نسوة من قريش .

فأتين رسول الله ﷺ بالأبطح ، **وعنده زوجتاه وفاطمة ابنته** ، فى نساء من نساء بنى عبد المطلب ، فبايعنه .

وكانت بيعة النساء عقيب بيعة الرجال عند الصفا ، ورؤيت فيهن هند وهى متنكرة لأجل صنيعها بحمزة ، وكان زوجها أبو سفيان حاضراً ، فعرفها رسول الله ﷺ وقال : **إنك لهند** .

فقالت : **أنا هند ، فاعف عما سلف** .

فبايعهن عمر ﷺ واستغفر لهن رسول الله ﷺ وطلبت أم حكيم أماناً لعكرمة وقد هرب إلى اليمن ، فأمنه ، فخرجت إليه حتى قدم ، فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ : **يأتيكم عكرمة بن أبى جهل مؤمناً مهاجراً ، فلا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذى الحى ولا يبلغ إليه ، فلما رآه ﷺ وثب إليه فرحاً فوقف ، ومعه امرأته منتقبة .**

فقال : يا محمد إن هذه أخبرتنى أنك أمنتنى .

فقال ﷺ : صدقت ، فأنت آمن ، فأسلم .

وهرب صفوان بن أمية بن جمح القرشى الجمحى ، فأخذ له عمير بن وهب بن حذافة أماناً ، وخرج فى إثره حتى رجع ، وشهد هوازن كافراً ، وأسلم بالجعرانة .

وكان عبد الله بن سعد بن أبى سرح ممن أهدر رسول الله ﷺ دمه يوم الفتح ، فأتى به عثمان بن عفان ﷺ ، وسأله أن يهبه له ، فوهب له جرمه وأسلم .

وأهدر ﷺ دم الحويرث بن نقيذ بن بجير بن عبد بن قصى ، فضرب على بن أبى طالب ﷺ عنقه وكان مؤذيا لله ورسوله ﷺ .

وأهدر دم هبار بن الأسود بن عبد العزى بن قصى الأسدى القرشى ، إلا أنه أسلم وحسن إسلامه .

وأخرج أبو برزة الأسلمى عبد الله بن خطل ، وهو متعلق بأستار الكعبة ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ .

فقال له رسول الله ﷺ : اقتله فأخرج أبو برزة عبد الله بن خطل وقتله بين الركن والمقام

و عن السائب بن يزيد قال : رأيت رسول الله ﷺ أخرج عبد الله بن خطل من بين أستار الكعبة فقتله صبراً .

ثم قال : لا يقتل أحد من قريش بعد هذا صبراً .

وقتل مقيس بن صبابة نميلَةَ بن عبد الله الليثى رآه المسلمون بين الصفا والمروة فقتلوه بأسيافهم .

ولما قتل النفر الذين أمر رسول الله ﷺ بقتلهم ، سمع النوح عليهم .

وجاء أبو سفيان بن حرب فقال : فداك أبي وأمى ، البقية فى قومك .

فقال ﷺ : لا تقتل قريش صبراً بعد اليوم ، يعنى على الكفر .

وأمر ﷺ بقتل وحشى ، ففر إلى الطائف حتى قدم فى وفدهم فأسلم .

فقال له ﷺ : غيب عنى وجهك ، فكان إذا رأى النبى ﷺ توارى عنه .

واستسلف ﷺ **من عبد الله بن أبي ربيعة** أربعين ألف درهم **فأعطاه** ، فردها من غنائم هوازن .

وقال : إنما جزاء السلف الحمد والأداء .

وقال : بارك الله لك فى مالك وولدك .

واستقرض من **صفوان بن أمية** خمسين ألف درهم فأقرضه ، واستقرض من **حويطب بن عبد العزى** أربعين ألف درهم ، فكانت ثلاثين ومائة ألف قسمها بين أهل الضعف ، فأصاب الرجل خمسين درهماً وأقل وأكثر ، وبعث من ذلك إلى بنى جذيمة .

وأهدى له يومئذ راوية خمر .

فقال ﷺ : إن الله حرمها ، فسارَّ الرجل المُهدِى غلامه : اذهب بها إلى الحزورة ، فبعها .

فقال ﷺ : بم أمرته ؟

قال : ببيعها .

قال ﷺ : إن الذى حرم شربها حرم بيعها ، ففرغت بالبطحاء .

ونهى يومئذ عن ثمن الخمر ، وثمن الخنزير ، وثمن الميتة ، وثمن الأصنام ، وحلوان الكاهن .

وقيل له يومئذ : ما ترى فى شحوم الميتة يدهن بها السقاء ؟

قال ﷺ : قاتل الله يهود ، حرم عليهم الشحوم فباعوها ، فأكلوا ثمنها .

وقال يومئذ ، وهو بالحزورة ، والله إنك لخير أرض الله إلى ولولا أنى أُخرجت منك ما خرجت .

وهبط ثمانون من أهل مكة على رسول الله ﷺ ، من جبل التنعيم عند صلاة الفجر فأخذهم سلماً فعفا عنهم ، ونزل فيهم ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾(١).

وأتى بشارب فضربوه بما فى أيديهم ، فضرب بالسوط ، وبالنعل ، وبالعصا ، وحثا عليه النبى ﷺ التراب .

وجاء جبر غلام بنى عبد الدار ، وكان قد أسلم وكتم إسلامه ، فأعطاه النبى ﷺ ثمنه ليسده وأعتقه .

وقال رجل يومئذ : إنى نذرت أن أصلى فى بيت المقدس إن فتح الله عليك مكة .

فقال ﷺ : والذى نفسى بيده ، لصلاة ها هنا أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، من البلدان .

وقال ميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها : **يا رسول الله ، إنى جعلت على نفسى ، إن فتح الله عليك مكة ، أن أصلى فى بيت المقدس .**

فقال ﷺ : **لا تقدرين على ذلك ، ولكن ابعثى بزيت يستصبح لك فيه ، فكأنك أتيته .**

وكانت ميمونة تبعث إلى بيت المقدس كل سنة بمال ليشترى به زيت يستصبح به حتى ماتت فأوصت بذلك .

وأهدت هند بنت عتبة بعد إسلامها هدية لرسول الله ﷺ وهو بالأبطح ، مع مولاة لها فانتهت الجارية إلى خيمته ﷺ ، فسلمت واستأذنت فأذن لها فدخلت ورسول الله ﷺ بين أم سلمة وميمونة ونساء بنى عبد المطلب .

فقالت : إن مولاتى أرسلت إليك بهذه الهدية ، وهى معتذرة إليك ، وتقول : **إن**

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٤

غنمها اليوم قليلة الوالدة .

فقال ﷺ : بارك الله لكم فى غنمكم ، وأكثر والدها ، فسرت هند لما أخبرها مولاها بذلك ، ورأوا من كثرة غنمهم ووالدها ما لم يكن قبل ولا قريباً منه .

وكانت هند تقول : هذا بدعاء رسول الله ﷺ وبركته .

وأتته إحدى نساء بنى بكر ، إما خالة أو عمة ، بهدية طعام وهو بالأبطح فعرفها ودعاها إلى الإسلام فأسلمت ، وسألها عن حليمة السعدية فأخبرته بوفاتها رضى الله عنها فذفرت عيناه ﷺ .

وقالت له : أخواك وأختاك محتاجون فأمر لهم ﷺ بكسوة وجمل ومائتى درهم .

فقالت : نعم والله المكفول كنت صغيراً ، ونعم المرء كنت كبيراً ، عظيم البركة .

وأخذ أهل مكة ومن يقدم عليهم يأتى إليه ﷺ يبايعه ، ويسأله حاجته ، ويتعلم ما يحتاج إليه فى أمور دينه الذى آمن به .

وكان ﷺ يذكر أهل مكة بما من الله عليهم بالإسلام ، ويعرفهم بضلال ما كانوا فيه ليزدادوا إيماناً ، ولتشتد براءتهم مما كانوا فيه قبل الهدى والرشاد .

من ذلك قوله لعثمان بن طلحة حين أتى به ليعطيه مفتاح الكعبة : ألم أقل لك يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدى أضعه حيث شئت ؟؟

فقال : بلى أشهد أنك رسول الله .

وعاش رسول الله ﷺ فى مكة بعد فتحها مدة تقع بين اثنى عشر وعشرين يوماً على اختلاف الروايات ... انطلق خلالها لتطهير مكة وحواليها من كافة صور الأصنام والأوثان على كثرتها وتنوعها ... كما قام انطلاقاً من مكة بغزوتى حنين والطائف .. وبذلك أسلمت الجزيرة كلها (١) .

- ثانيا -
تطهير مكة وما حولها من الأصنام

بعد أن أتم الله نصره ، وفتحت مكة أخذ رسول الله ﷺ فى إزالة الأصنام والأوثان وكافة ألوان الشرك والضلال من صور ، وبيوت ، وهياكل .

---

(١) راجع فى أحداث الفتح سيرة ابن هشام ، والطبقات ، والمغازى ، وزاد المعاد ، وإمتاع الأسماع والبداية والنهاية ... إلخ .

فبدأ أول دخوله مكة بتكسير الأصنام الموجودة حول البيت وعددها ثلاثمائة وستون صنماً .

ثم نادى منادى رسول الله ﷺ : **من كان يؤمن بالله وبرسوله فلا يدعن فى بيته صنماً إلا كسره ، أو حرقه ، وثمنه حرام .**

فجعل المسلمون يكسرون الأصنام ، و لم يكن فى مكة رجل أو امرأة من قريش إلا إلا واتخذ فى بيته صنماً يتمسح به حين الدخول ، وحين الخروج .

ونشط عكرمة بن أبى جهل فى معاداته للأصنام بعد إسلامه ، فكان لا يسمع عن صنم فى بيت إلا مشى إليه وكسره .

وجعلت هند بنت عتبة تضرب صنماً فى بيتها بالقدوم ، وتكسره جزءاً جزءاً وهى تقول : **كنا منك فى غرور** .

وأرسل ﷺ سراياه إلى القبائل المشركة لدعوة القوم إلى الإسلام ، وتكسير الأصنام التى ألهوها ومن هذه السرايا .

١) بعث ﷺ خالد بن الوليد إلى " **العزى** " بـ"**نخلة**" فى ثلاثين صحابياً فهدمه لخمس بقين من رمضان والعزى أكبر أصنام العرب .

٢) وبعث الطفيل بن عمرو الدوسى إلى " **ذى الكفين** " صنم عمرو بن حممة الدوسى فحرقه بالنار .

٣) وبعث سعد بن زيد الأشهلى فى عشرين فارساً إلى " **مناة** " بالمشلل فهدمه .

٤) وبعث عمرو بن العاص إلى " **سواع** " صنم هذيل فكسره وأزاله ، وأسلم سادنه .

٥) وبعث هشام بن العاص فى مائتين إلى يلملم .

٦) وبعث خالد بن سعيد إلى جهة عرنة وعرفة .

وبهذه السرايا تم بسط سلطان الإسلام على مكة وضواحيها و لم يعد فيها صوت لغير الله تعالى وأزيلت الأصنام من الجزيرة كلها .

٧) وبعث خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة بن عامر من بنى كنانة يدعوهم إلى

الإسلام فخرج فى أول شوال من السنة الثامنة فى ثلاثمائة وخمسين صحابياً ، وانتهى إليهم ، فقالوا : نحن مسلمون ، فلم يصدقهم خالد ، فودعهم أسرى عند الصحابة وأمر بقتلهم ، فقتل بنو سليم من كانوا فى أيديهم ، ورفض المهاجرون والأنصار القتل ... فلما رجع خالد وعلم رسول الله ﷺ تبرأ مما فعل خالد ، وأرسل علياً ﷺ إلى بنى جذيمة يودى لهم ما أصاب خالد .

٨) وبعث ﷺ جرير بن عبد الله البجلى إلى ذى الخلصة وهو بيت لخثعم وبجيله فيه نصب تعبد يسمونها الكعبة اليمانية ، يقول ابن جرير : فنفرت فى مائة وخمسين راكباً من أحمس وكانوا أصحاب خيل ، فأتيناه فكسرناه وحرقناه وقتلنا من وجدنا عنده .

٩) بعث ﷺ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبه لهدم الطاغية وقصة ذلك إن عبدياليل بن عمرو ، وعمرو بن أمية أحد بنى علاج الثقفيان لما قدما على رسول الله ﷺ مع وفد ثقيف وأسلموا قالوا : **أرأيت الربة ماذا نصنع فيها ؟**

قال ﷺ : اهدموها .

قالوا : هيهات لو تعلم الربة أنا أوضعنا فى هدمها قتلت أهلنا .

قال عمر بن الخطاب : ويحك يا عبد يا ليل ما أجهلك ... إنما الربة حجر لا تدرى من عبده ممن لم يعبده .

قال عبد الله ياليل : إنا لم نأتك يا عمر .

وقالوا : يارسول الله اتركها ثلاث سنين لا نهدمها ، فأبى .

فقالوا : سنتين ، فأبى .

فقالوا : سنة ، فأبى .

فقالوا شهراً واحداً ، فأبى أن يوقت لهم وقتاً .

وإنما كانوا يريدون ترك الربة خوفاً من سفهائهم ، كما كرهوا أن يروعوا قومهم بهدمها وأملوا فى إقناعهم بالإسلام ، وبعدها تزول كل صور الشرك والهوى ولذلك سألوا رسول الله ﷺ أن يعفيهم من هدمها وقالوا : يا رسول الله اترك أنت هدمها فإنا لا نهدمها أبداً ... حتى لا يقال فينا ما لا يجوز، وقد فهم رسول الله ﷺ رأيهم

فقال بعد هذا : أنا أبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها .

فرجع الوفد ، وأخبروا قومهم بما سمعوا من رسول الله ﷺ .

فقال شيخ من ثقيف : فذاك والله مصداق ما بيننا وبينه فإن قدر على هدمها فهو محق ونحن مبطلون ، وإن امتنعت ففى النفس من بعد هذا شئ .

وخرج أبو سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة وأصحابهما لهدم الربة ، فلما دنوا من الطائف قال المغيرة لأبى سفيان : **تقدم أنت على قومك** .

وأقام أبو سفيان بماله بذى الهرم ، ودخل المغيرة فى بضعة عشر رجلاً يهدمون الربة فلما نزلوها عشاء باتوا ثم غدوا على الربة يهدمونها .

فقال المغيرة لأصحابه الذين قدموا معه : **لأضحكنكم اليوم من ثقيف** .

فقام المغيرة بن شعبة واستوى على رأس الربة ومعه المعول وضرب الكرزين ثم سقط مغشياً عليه يركض برجليه فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة وقالوا : أسعد الله المغيرة قد قتلتم الربة ، زعمتم أن الربة لا تمتنع بل والله لتمنعن ، وفرحوا حين رأوه ساقطاً ، وقالوا : من شاء منكم فليقترب وليجتهد على هدمها فوالله لا يستطاع أبداً .

فوثب المغيرة بن شعبة وقال : **قبحكم الله يا معشر ثقيف إنما هى لكاع ، حجارة ومدر ، فاقبلوا عافية الله تعالى ولا تعبدوها ثم إنه ضرب الباب فكسره ، ثم سورها وعلا الرجال معه فما زالوا يهدموننا حجراً حجراً حتى سووها بالأرض .**

وهكذا كان فتح مكة سبباً مباشراً للقضاء على أصنام العرب وأوثانها ليعلو الحق ويدوم [1] .

---

(١) انظر فى سرايا تحطيم الأصنام سيرة ابن هشام والمغازى .

- ثالثا -

غزوة حنين

فوجئ العرب بالإنهيار السريع لمشركى مكة ، واستسلامهم لرسول الله ﷺ فبدأوا فى تقدير الإسلام غير أن فريقاً من القبائل تعالت على الإسلام ، وبقيت فى شركها ، وأخذت تتجمع لمهاجمة المسلمين فى مكة وعلى رأس هؤلاء قبائل هوازن ، وثقيف ، ونصر وجشم وبنو هلال[1] .

فلما بلغ رسول الله ﷺ أنهم تحشدوا ، وتجمعوا تحت قيادة مالك بن عوف ، وأخذوا فى التحرك نحو مكة حتى نزلوا بـــ " أوطاس " وهو واد سهل واسع بين مكة والمدينة مجاور لوادى حنين .

خرج رسول الله ﷺ على رأس جيش من المسلمين بلغ عدده اثنا عشر رجلاً فى يوم السبت السادس من شهر شوال ، بعد أن ولى أمر مكة للصحابى عتاب بن أسيد بن أبى العيص ، وأبقى معه معاذ بن جبل ليعلم الناس السنن والفقه ، ويدارسهم القرآن الكريم وما شرع من أحكام الإسلام .. والحديث عن غزوة حنين يحتاج إلى بيان النقاط التالية :

- ١ -

استعداد المشركين للحرب

خرجت القبائل من ديارها ، وتجمعت فى وادى " أوطاس " واصطحبوا معهم أموالهم ونساءهم وأطفالهم لدفع الرجال للقتال دفاعاً عن كل ما لهم .

سأل ديد بن الصمة قائدهم مالك بن عوف : مالى أسمع بكاء الصغير ، ورغاء البعير ، ونهاق الحمير ، ويعار الشاء ؟

قال مالك : يا أبا قره إنى سقت مع الناس أموالهم وذراريهم ، وأردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله يقاتل عنه .

فقال دريد : رويعى ضأن !! وهل يرد المنهزم شئ ؟؟

وصل جيش المسلمين إلى وادى " حنين " وعسكر فيه ، فأخذ مالك بن عوف يبعث رسله ليعرف خبر رســـول الله وجنوده بعد اســـتقرارهم بـــ"حنين" فبعث ثلاثة رجال

---

(١) لم يحضر مع هوازن بطنان منهم هما كعب وكلاب .

وكلهم رجعوا إليه ، وهم فى حالة خوف ورعب ، وقالوا: رأينا رجالاً بيضا على خيل بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى وقد اتفق الثلاثة على هذا .

وقالوا له : ما تقاتل أهل الأرض إنما تقاتل أهل السماء ، وإذا أطعتنا رجعت بالناس .. فسبهم وحبسهم ، وعبأ جنوده ، ونظمهم فى وادى حنين (١) .

- ٢ -

استعداد المسلمين للقتال

خرج رسول الله ﷺ فى اثنى عشر ألفاً من أصحابه ، عشرة منهم من المهاجرين والأنصار ، وألفين من مسلمى مكة ، وسار بهم حتى نزل فى " وادى حنين " وعبأ قواته من السحر ووضع الألوية والرايات فى أهلها ، فحمل رايات المهاجرين : على ، وسعد ابن أبى وقاص ، وعمر بن الخطاب ﷺ .

وحمل رايات الأنصار الحباب بن المنذر ، وقيل كان لواء الخزرج الأكبر مع سعد بن عبادة ، ولواء الأوس مع أسيد بن حضير ، وفى كل بطن لواء أو راية .

وكانت رايات المهاجرين سواداً وألويتهم بيضاً ، ورايات الأنصار خضراً وحمراً ، وكانت فى قبائل العرب رايات ، وبقيت سليم كما هى فى مقدمة الخيل وعليهم خالد ابن الوليد .

ولما تجمع المسلمون بهذا العدد أعجبتهم كثرتهم ، وانتظروا النصر وقالوا بلسان الحال ، والمقال : لن نغلب اليوم عن قلة .

وانحدر رسول الله ﷺ بأصحابه فى وادى حنين ، وهو على تعبئته ، وقد ركب بغلته البيضاء " دلدل " ولبس درعين والمغفر والبيضة ، وحض على القتال ، وبشر بالفتح إن صدقوا وصبروا .

وقد أرسل رسول الله عبد الله بن أبى حدرد ليأتى بخبر القوم ، فطاف بهم ، وسمع كلامهم ، وعاد إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما رأى وسمع وبمدى استعداد القوم للقاء ، وبعلمهم بجيش المسلمين كما نقلته العيون إلى مالك بن عوف (٢) .

---

(١) بلوغ الأمانى جـ٢ صـ١٦٨

(٢) المغازى جـ٣ صـ٨٩٥-٩٠٠

-٣-

القتـــــال

بدأت الحرب بهجوم شديد من " هوازن " قبيل مطلع الشمس على المسلمين ، وقد كانوا فى كثرة عجيبة أدهشت المسلمين ، وحيرتهم لأنهم لم يتوقعوها .

حملت هوازن على المسلمين حملة واحدة ، فانكشفت خيل بنى سليم ، وولت الأدبار ، وتبعهم أهل مكة ، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شئ ، فالتفت رسول الله ﷺ يميناً وشمالاً ، والناس منهزمون حتى بلغوا مكة ، فلم يرجع آخرهم إلا والأسارى بين يدى النبى ﷺ وهو يقول : يا أنصار الله .. يا أنصار رسول الله ... ؟ أنا عبد الله ورسوله !! ثم تقدم بحربته أمام الناس ، وانهزم المشركون ، وما ضرب أحد من المسلمين بسيف ولا طعن برمح ، ورجع ﷺ إلى العسكر ، وأمر أن يقتل كل من قدر عليه من المشركين ، وقد ولت هوازن ، وثاب من انهزم من المسلمين .

و لم يكن معه ﷺ وقت هزيمة هوازن إلا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وقد أخذ بثفر البغلة ، والعباس آخذ بحكمتها ، وهو يركضها إلى وجه العدو ، وينوه باسمه فيقول :

أنا النبى لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب [1]

وقال ﷺ : يا عباس ! اصرخ : يا معشر الأنصار ! يا أصحاب السمرة !..فنادى بذلك ، وكان رجلاً صيتاً ، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت إلى أولادها يقولون : **يا لبيك !! يا لبيك** ، فأشرف ﷺ كالمتطاول فى ركابيه ، فنظر إلى قتالهم **وقال** : **الآن حمى الوطيس** ، ثم أخذ بيده من الحصا فرماهم بها وهو يقول : **شاهت الوجوه ، حم ، ثم لا ينصرون** ، ثم قال : **انهزموا ورب الكعبة** ، فما زال أمرهم مدبراً ، وانهزموا ، فانحاز ﷺ ذات اليمين ، وهو على بغلته قد جرد سيفه ، وثبت معه سوى من ذكرنا : **على ، والفضل بن عباس ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وأيمن بن عبيد الخزرجى ، وأسامة بن زيد وأبو بكر ، وعمر** رضي الله عنهم [2] .

---

(١) بلوغ الأمانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيبانى جـ٢١ صـ١٧٤

(٢) سيرو النبى جـ٢ صـ٤٤٣

ولما انكشف الناس قال رسول الله ﷺ لحارثة بن النعمان الأنصارى : كم ترى الناس الذين ثبتوا ؟

فحزرهم مائة ، وهذه المائة هى التى كرت بعد الفرار ، فاستقبلوا هوازن واجتلدوا والرسول يدعو : **اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان .**

ويقال إن المائة الصابرة يومئذ : **ثلاثة وثلاثون من المهاجرين ، وسبعة وستون من** الأنصار ، **وكان على ، وأبو دجانة ، وعثمان بن عفان ، وأيمن بن عبيد ﷺ يقاتلـــون بين يدى النبى ﷺ** .

وكانت **أم عمارة فى يدها سيف صارم ، وأم سليم معها خنجر** قد حزمته على وسطها وهى يومئذ حامل بعبد الله بن أبى طلحة ، **وأم سليط ، وأم الحارث** ، حين انهزم الناس ، يقاتلن ، **وأم عمارة تصيح بالأنصار : أية عادة هذه !!**

ما لكم وللفرار !! وشدت على رجل من هوازن فقتلته وأخذت سيفه (١).

ورسول الله ﷺ قائم مصلت السيف بيده ، وقد طرح غمده ينادى : **يا أصحاب سورة البقرة** ، فكر المسلمون ، وجعلوا يقولون : **يا بنى عبد الرحمن ، يا بنى عبد الله ، يا بنى عبيد الله ، يا خيل الله ، وكان ﷺ قد سمى خيله خيل الله ، وكان شعار المهاجرين بنى عبد الرحمن، وشعار الأوس بنى عبيد الله ، وشعار الخزرج بنى عبد الله ، فكرت الأنصار ووقفت هوازن حلبة ناقة** ، ثم كانت هزيمتهم أقبح هزيمة ، والمسلمون يقتلون ويأسرون

وأم سليم بنت ملحان تقول : **يا رسول الله ﷺ ما رأيت هؤلاء الذين أسلموا وفروا عنك وخذلوك !! لا تعف عنهم إذا أمكنك الله منهم ، تقتلهم كما تقتل هؤلاء المشركين ! فقال : يا أم سليم ! قد كفى الله ، عافية الله أوسع** (٢).

وحنق المسلمون على المشركين فقتلوهم حتى شرعوا فى قتل الذرية ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : **ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغ الذرية ! ألا لا تقتل الذرية فقال أسيد بن الحضير : يا رسول الله ، أليس إنما هم أولاد المشركين ! فقال** : أو ليس

---

(١) بلوغ الأمانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيبانى جـ٢١ صـ١٧٥

(٢) المغازى جـ٣ صـ٩٠٣ ، ٩٠٤

خياركم أولاد المشركين ؟! كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها وأبواها يهودانها أو ينصرانها ! [١]

وكان سيما الملائكة يوم حنين عمائم حمر قد أرخوها بين أكتافهم ، وكان الرعب الذى قذف الله فى قلوب المشركين يومئذ كوقع الحصاة فى الطست : له طنين ، فيجدون فى أجوافهم مثل ذلك ، ولما رمى رسول الله ﷺ بذلك الكف من الحصا ، لم يبق أحد من المشركين إلا وهو يشكو القذى فى عينه ، ورأوا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، عليهم عمائم حمر قد أرخوها بين أكتافهم ، وهم بين السماء والأرض : كتائب ، كتائب ، فما كانوا يستطيعون أن يتأملوهم من الرعب منهم [٢] .

واستحر القتل فى بنى مالك من ثقيف ، فقتل منهم قريب من مائة رجل تحت رايتهم ، وقتل ذو الخمار ، وهربت ثقيف .

واستشهد من المسلمين أربعة رجال جميعهم من الأنصار [٣] .

■ ٤ ■

تعقب الفارين

لما انهزمت هوازن فرت إلى الطائف وإلى أوطاس ، وإلى نخلة ، فسير رسول الله أصحابه لتعقب الفارين ، وقتالهم .

فذهب الربيع بن ربيعة فى عدد من المسلمين على خيلهم إلى نخلة فأدركوا دريد بن الصمة ، وقتلوه .

وذهب أبو عامر الأشعرى إلى أوطاس ومعه عدد من المسلمين ، وقد جرى بين الفريقين قتال فقتل من المشركين تسعة ، وأصيب بعض المسلمين واستشهد أبو عامر ، فخلفه أخوه أبو موسى وقد فتح الله على يديه .

ولحق مالك بن عوف وأكثر من كان معه إلى الطائف ، ولذلك ذهب إليهم رسول الله ﷺ فكانت غزوة الطائف [٤] .

---

(١) المغازى جـ٣ صـ٩٠٥

(٢) المغازى جـ٣ صـ٦٠٩

(٣) البداية والنهاية جـ٤ صـ٣٣٧

(٤) البداية والنهاية جـ٥ صـ٣٣٨

ـ ٥ ـ
غزوة الطائف

وهذه الغزوة فى الحقيقة امتداد لغزوة حنين ، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع قائدهم ، مالك بن عوف النضرى ، وتحصنوا بها ، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين .

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة فى ألف رجل ، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف ، **فمر فى طريقه على النخلة اليمانية ، ثم على قرن المنازل ، ثم على لية** ، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه ، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريباً من حصنه ، وعسكر هناك ، وفرض الحصار على أهل الحصن .

ودام الحصار مدة غير قليلة ، ففى رواية أنس عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً ، وعند أهل السير خلاف فى ذلك ، فقيل : عشرين يوماً ، وقيل : بضعة عشر ، وقيل ثمانية عشر ، وقيل : خمسة عشر [١] .

ووقعت فى هذه المدة عدة مناوشات ، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رمياً شديداً كأنه رجل جراد ، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً ، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مكان مسجد الطائف اليوم ، فعسكروا هناك .

ونصب النبى ﷺ المنجنيق على أهل الطائف ، وقذفهم به حتى فتحت طاقة فى جدار الحصن ، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة إلى الجدار ليحرقوه ، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محماة بالنار ، فأحرقت الدبابة وخرج المسلمون من تحتها فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجالاً .

وأمر رسول الله ﷺ كجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الاستسلام بقطع الأعناب وتحريقها ، فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً ، فسألته ثقيف أن يدعها لله والرحم .

ونادى مناديه ﷺ أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج إليهم بضعة عشر رجلاً فيهم أبو بكرة ، تسور حصن الطائف وتدلى منه ببكرة مستديرة

---

(١) انظر البداية والنهاية جـ٤ صـ٣٥١ ، المغازى جـ٣ صـ٩٣٦

يستقى عليها ، فكناه رسول الله ﷺ " أبا بكرة " فأعتقهم رسول الله ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة .

ولما طال الحصار ، واستعصى الحصن وأصيب المسلمون بما أصيبوا من رشق النبال والحديد المحمى ، وكان أهل الحصن ، قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلمى فقال : هم ثعلب فى جحر ، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك ، وحينئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل ، فأمر عمر بن الخطاب فأذن فى الناس : إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فثقل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟

فقال رسول الله ﷺ : **اغدوا على القتال ، فغدا فأصابهم جراح .**

فقال ﷺ : **إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسول الله ﷺ يضحك .**

ولما ارتحلوا واستقلوا قال ﷺ : **قولوا : آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون .**

وقيل : **يا رسول الله ﷺ ادع على ثقيف ، فقال : اللهم اهد ثقيفاً وآت بهم .**

وقد استشهد من المسلمين فى حصار الطائف اثنا عشر رجلاً [(١)] .

■ ٦ ■

توزيع الغنائم

انتهى ﷺ إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس خلون من ذى القعدة والغنائم بها ستة آلاف ، والإبل أربعة وعشرون ألف بعير ، فيها اثنا عشر ألف ناقة ، والغنم أربعون ألفاً وقيل أكثر ، فأمر ﷺ بسر بن سفيان الخزاعى أن يقدم مكة فيشترى للسبى ثياباً من برود هجر ، فكساهم كلهم ، واستأنى ﷺ بالسبى و لم يوزع منهم ، وأقام يتربص أن يقدم وفدهم ، وكان قد فرق منه وهو بحنين ، فأعطى عبد الرحمن بن عوف امرأة ، وأعطى صفوان بن أمية ، وعلياً ، وعثمان ، وعمر ، وجبير بن مطعم ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبا عبيدة بن الجراح ، والزبير بن العوام ﷺ فلما رجع إلى

---

(١) انظر المغازى جـ٣ صـ٩٢٢ – ٩٣٨ بتصرف .

الجعرانة بدأ بالأموال فقسمها ، فأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس ، فجاء أبو سفيان بن حرب والفضة بين يديه ، **فقال : يا رسول الله أصبحت أكثر قريش مالاً ، فتبسم ﷺ .**

فقال أبو سفيان : أعطنى من هذا يا رسول الله .

قال ﷺ **: يا بلال ! زن لأبى سفيان أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل .**

قال : إبنى يزيد إعطه !!

قال ﷺ : زنوا ليزيد أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل .

قال : إبنى معاوية يا رسول الله !

قال ﷺ : زن له يا بلال أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل .

قال أبو سفيان : إنك لكريم فداك أبى وأمى ، والله لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ! ثم سالمتك فنعم المسالم أنت جزاك الله خيراً [١].

وسأل حكيم بن حزام يومئذ مائة من الإبل فأعطاه ، ثم سأل مائة أخرى فأعطاه ثم سأل مائة ثالثة فأعطاه ، ثم قال : **" يا حكيم بن حزام ، إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من السفلى ، وابدأ بمن تعول " ... فأخذ حكيم المائة الأولى ثم ترك ما عداها وقال : يا رسول الله والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعداً ... فكان عمر بن الخطاب ﷺ يدعوه لعطاء فيرفضه** [٢] .

وأعطى النضير بن الحارث علقمة بن كلدة أخا النضر بن الحارث مائة من الإبل ، وأعطى أسيد بن جارية ، حليف بنى زهرة مائة من الإبل ، وأعطى العلاء بن جارية خمسين بعيراً ، وأعطى الحارث بن هشام مائة من الإبل ، وسعيد بن يربوع خمسين بعيراً

وفى صحيح مسلم عن الزهرى : أن الرسول ﷺ أعطى يومئذ صفوان بن أمية ثلاثمائة من الإبل ، ويقال إنه طاف مع النبى ﷺ وهو يتصفح الغنائم ، إذ مر بشعب مما أفاء الله عليه ، فيه غنم وإبل ورعاؤها مملوء ، فأعجب صفوان وجعل ينظر إليه ، فقال ﷺ :

---

(١) المغازى جـ٣ صـ٩٤٤-٩٤٥

(٢) المرجع السابق جـ٣ صـ٩٤٥

أعجبك يا أبا وهب هذا الشعب ؟

قال ﷺ : نعم .

قال : هو لك وما هو فيه !

فقال صفوان : **أشهد ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبى ، وأشهد أنك رسول الله** [١]

وأعطى قيس بن عدى مائة من الإبل ، وأعطى عثمان بن وهب خمسين بعيراً ، وأعطى سهيل بن عمرو مائة من الإبل ، وأعطى حويطب بن عبد العزى مائة من الإبل وأعطى هشام بن عمرو خمسين بعيراً ، وأعطى الأقرع بن حابس التميمى مائة من الإبل وأعطى عيينة بن حصن الفزارى مائة من الإبل ، وأعطى أبا عامر العباس بن مرداس بن أبى عامر بن حارثة السلمى دون المائة ، فعاتب النبى ﷺ فى شعر قاله ، فقال رسول الله ﷺ : اقطعوا عنى لسانه ، فأعطوه مائة من الخمس .

وقال يومئذ سعد بن أبى وقاص ﷺ : يا رسول الله ﷺ أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة ، وتركت جعيل بن سراقة الضمرى ؟

فقال : أما والذى نفسى بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها مثل عيينة والأقرع ، ولكنى أتألفهما ليسلما ، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه .

ثم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت ﷺ بإحصاء الناس والغنائم ثم فضها على الناس وكانت سهامهم : لكل رجل أربع من الإبل وأربعون شاة ، وإن كان فارساً أخذ ثنتى عشرة من الإبل أو عشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرس واحد لم يسهم له .

وقدم وفد هوازن ، وهم أربعة عشر رجلاً رأسهم أبو صرد زهير بن صرد الجشمى السعدى ، قد أسلموا وأخبروا بإسلام من وراءهم من قومهم .

فقال أبو صرد : يا رسول الله أنا أصل العشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالا يخفى عليك ، فامنن علينا من الله عليك ، إنما فى هذ الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، ولو أنا منحنا للحارث بن أبى شمر أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا أحدهما بمثل الذى نزلت به ، رجونا عطفه وعائدته ، وأنت خير المكفولين .

---

(١) صحيح مسلم

فقال رسول الله ﷺ : إن أحسن الحديث أصدقه ، وعندى من ترون من المسلمين ، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟

قالوا : يا رسول الله ! خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا !! وما كنا نعدل بالأحساب شيئاً ، فرد علينا أبناءنا ونساءنا .

فقال ﷺ : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، واسأل لكم الناس ، فإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ فإنى سأقول لكم : ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم وسأطلب لكم إلى الناس ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر بالناس : قاموا فتكلموا بما أمرهم به ، فأجابهم بما تقدم ، فقال المهاجرون : فما كان لنا فهو لرسول الله .

وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

وقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا .

وقال عيينة بن حصن : أما أنا وفزارة فلا .

وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا !

فقالت بنو سليم : بلى ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

ثم قام رسول الله ﷺ فى الناس خطيباً فقال : إن هؤلاء القوم جاءوا مسلمين ، وقد كنت أستأنيت بهم فخيرتهم بين النساء والأبناء والأموال ، فلم يعدلوا بالنساء والأبناء فمن كان عنده منهن شئ فطابت نفسه أن يرده فسبيل ذلك ، ومن أبى منكم ويمسك بحقه فليرد عليهم ، وليكن قرضاً علينا ست فرائض من أول ما يفئ الله علينا به ، فقالوا : يا رسول الله رضينا وسلمنا .

قال ﷺ : فمروا عرفاءكم أن يرفعوا ذلك إلينا حتى نعلم ، فكان زيد بن ثابت على الأنصار يسألهم : هل سلموا ورضوا ؟ فخبروه أنهم سلموا ورضوا ، ولم يتخلف منهم رجل واحد ، وكان أبو رهم الغفارى يطوف على قبائل العرب ، ثم جمعوا العرفاء واجتمع الأمناء الذين أرسلهم رسول الله ﷺ فاتفقوا على قول واحد : أنهم سلموا ورضوا ، ودفع عند ذلك السبى إليهم .

وتمسكت بنو تميم مع الأقرع بن حابس بالسبى فجعل رسول الله ﷺ الفداء ست فرائض : ثلاث حقائق وثلاث جذاع .

وقال يومئذ : لو كان ثابتاً على أحد من العرب ولاء أورق لثبت اليوم ، ولكن إنما هو إسار أو فدية ، وجعل أبا حذيفة العدوى على مقاسم المغنم .

وقال للوفد : ما فعل مالك بن عوف ؟

قالوا : هرب ولحق بحصن الطائف مع ثقيف .

فقال ﷺ : إنه إن يأت مسلماً رددت إليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل ، وكان قد حبس أهل مالك بمكة عند عمتهم أم عبد الله همه ابنة أبى أمية ، ووقف ماله فلم تجر فيه السهام ، فلما بلغ ذلك مالكاً ، فر من ثقيف ليلاً ، وقدم الجعرانة وأسلم ، وأخذ أهله وماله ومائة من الإبل .

ولما أعطى رسول الله ﷺ عطاياه وجد الأنصار فى أنفسهم إذ لم يكن فيهم منها شئ ، وكثرت القالة ، فقال واحد : لقى رسول الله قومه !! أما حين القتال فنحن أصحابه ، وأما حين القسم فقومه وعشيرته ، ووددنا أنا نعلم ممن كان هذا ؟ إن كان هذا من الله صبرنا ، وإن كان هذا من رأى رسول الله استعتبناه .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فغضب غضباً شديداً ، ودخل عليه سعد بن عبادة ﷺ فقال له : ما يقول قومك ؟

فقال سعد : وما يقولون يا رسول الله ؟

فذكر له ما بلغه وقال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

فقال : يا رسول الله ، ما أنا إلا كأحدهم ، وإنا لنحب أن نعلم من أين هذا ؟

قال ﷺ : فاجمع لى من كان ها هنا من الأنصار .

فلما اجتمعوا ، حمد الرسول ربه وأثنى عليه ثم قال : يا معشر الأنصار ، ما مقالة بلغتنى عنكم ؟ وجدة وجدتموها فى أنفسكم ، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .

قال : ألا تجيبونى ؟

قالوا : وماذا نجيبك يا رسول الله ؟

قال : أما والله ولو شئتم قلتم فصدقتم : أتيتنا مكذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، وخائفاً فأمناك ، وجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى شئ من الدنيا تألفت به قوماً أسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس إلى رحالهم ، بالشاء والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟

والذى نفسى بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، أكتب لكم بالبحرين كتاباً من بعدى تكون لكم خاصة دون الناس ؟

قالوا : وما حاجتنا بعدك يا رسول الله ﷺ ؟

قال : إما لا فسترون بعدى أثرة ، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فإن موعدكم الحوض ، وهو كما بين صنعاء وعمان ، وآنيته أكثر من عدد النجوم ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ، فبكوا حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله حظاً وقسماً ، وانصرفوا [1] .

- ٧ -

العودة إلي المدينة

لما فرغ رسول الله ﷺ من توزيع الغنائم وأداء العمرة انصرف راجعاً إلى المدينة فى آخر ذى القعدة من العام الثامن الهجرى بعدما ولى على مكة عتاب بن أسيد ، وترك معاذ بن جبل معه لتعليم الناس الفقه والقرآن وما يحتاجونه من أحكام دين الله تعالى .

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة الطائف جـ٧ صـ٣٢ ، ٣٧ وللحديث روايات متعددة فى الباب .

ـ المبحث الثالث عشر ـ
الاستقرار العام فى الجزيرة
ومواجهة غير العرب

عاد رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار إلى المدينة ، وأخذ ينظم شئون دولة الإسلام بعد اتساعها ... وأخذ فى سياسة أمور الناس ، وحراسة دينهم فى الجزيرة العربية كلها .

ووجد ﷺ أن مسائل الحياة قد تعددت ، واتجاهات الناس قد تنوعت ، والحركة بالدعوة تحتاج إلى أعمال كثيرة فى نواح مختلفة ، وفى أوقات متزامنة .

وجد ﷺ أن أغلب القبائل قد أسلمت ، وقلة أبت وكفرت ، وأخرى يدور أمرها بين القبول والرفض .

وأدى هذا الوضع إلى أن يرسل رسول الله ﷺ عمالاً لمن أسلم من القبائل ، وأن يبعث دعاة للمترددين ، وأن يواجه المتمردين بالقوة حتى لا يكونوا بؤرة فساد بين الناس تنشر الضلال والإفك .

وحتى يعرف الناس شمول دعوة الإسلام للعالم كله عملياً بعدما عرفهم ذلك نظرياً أخذ فى توجيه الدعاة والمجاهدين إلى خارج الجزيرة العربية حيث الروم ومعهم الغساسنة والفرس ومعهم المناذرة .

وبذلك بدأت مؤسسات الدولة الإسلامية فى الظهور والتكوين وأخذت الحركة بالإسلام تتسع وتنمو .

وفى هذا المبحث سنتناول المسائل التالية :

ـ أولاً ـ
بعث عمال الصدقات إلي القبائل

استهل رسول الله ﷺ شهر المحرم من السنة التاسعة بعد رجوعه إلى المدينة المنورة فى مباشرة تبليغ الإسلام ، وحماية استقرار الجزيرة ، وتقوية إيمان القبائل ، وإلزامهم بشرع الله تعالى ، فأرسل للقبائل التى أعلنت إسلامها عمالاً من قبله ﷺ للحكم فيهم

بشرع الله ، وأخذهم بما أمر الله تعالى مع تحصيل الصدقات والزكاة بعد فرضها ولذلك سموا بالمصدقين ، وقد تكونت هذه الطائفة الأولى من المصدقين [1] من :

١) عيينة بن حصن ﷺ	إلى بنى تميم .
٢) يزيد بن الحصين ﷺ	إلى أسلم وغفار .
٣) عباد بن بشر الأشهلى ﷺ	إلى سليم ومزينة .
٤) رافع بن مكيث ﷺ	إلى جهينة .
٥) عمرو بن العاص ﷺ	إلى بنى فزارة .
٦) الضحاك بن سفيان ﷺ	إلى بنى كلاب .
٧) بشير بن سفيان ﷺ	إلى بنى كعب .
٨) ابن اللتبية الأزدى ﷺ	إلى بنى ذبيان .
٩) المهاجر بن أبى أمية ﷺ	إلى صنعاء ، وخرج عليه الأسود العنسى .
١٠) زياد بن لبيد ﷺ	إلى حضر موت .
١١) عدى بن حاتم ﷺ	إلى طئ وبنى أسد .
١٢) مالك بن نويرة ﷺ	إلى بنى حنظلة .
١٣) الزبرقان بن بدر ﷺ	إلى بنى سعد (إلى قسم منهم) .
١٤) قسيم بن عاصم ﷺ	إلى بنى سعد (إلى قسم منهم) .
١٥) العلاء بن الحضرمى ﷺ	إلى البحرين .
١٦) على بن أبى طالب ﷺ	إلى نجران لجمع الصدقة والجزية كليهما .

وكان ﷺ يحافظ للقبيلة على هيكلها التنظيمى ، فلها شيخها ، وفيها أولوا الرأى والثقة ... وكان عمال النبى ﷺ فى هذه القبائل يقومون بالتعليم والإرشاد ، وتوجيه الناس إلى ما جاء به دين الله تعالى ، كما يقومون بجمع الصدقات وإرسالها إلى المدينة ... وقد عرفت القبائل ذلك فأطاعوا ، واستقاموا وبذلك كانوا مؤمنين .

ويلاحظ أن إرسال هؤلاء العمال استغرق مدة طويلة امتدت من أول العام التاسع حتى وفاته ﷺ .

---

(١) الرحيق المختوم صـ ٤٢٤

ـ ثانيا ـ
إرسال الدعاة إلي القبائل

أخذ رسول الله ﷺ يرسل دعاة من المدينة إلى مختلف قبائل الجزيرة لتعليم المسلمين ما يحتاجون إليه من قرآن وفقه ، ودين ، ولعرض الإسلام على الذين لم يعلنوا إسلامهم ولتقوية إيمان من أعلن إسلامه حتى لا تتناوشه الظنون والوساوس ، وتلعب به شياطين الإنس والجن من ذلك :

١) بعثه ﷺ أبا موسى الأشعرى ، ومعاذ بن جبل ؓ إلى اليمن .

يروى البخارى بسنده عن أبى موسى الأشعرى ؓ أنه قال : أقبلت إلى رسول ﷺ ومعى رجلان من الأشعريين ، أحدهما عن يمينى ، والآخر عن شمالى ، كلاهما يرجو أن يكون من عمال النبى ﷺ على قومه ، ويسأل فى ذلك والنبى ﷺ يستاك ، ويسمع .

فلما فرغا من سؤالهما قال ﷺ : ما تقول يا أبا موسى ؟

فقلت : والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى نفسيهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل .

يقول أبو موسى : فكأنى أنظر إلى سواكه تحت شفتيه وقد قلصت .

ثم قال ﷺ : لن نستعمل على عملنا من يريده ، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى .

قال أبو موسى : فبعثنى رسول الله ﷺ ومعاذا إلى اليمن .

وقال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : إنك ستأتى قوماً من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذاك فأخبرهم أن الله عز وجل قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب (١)

٢) أرسل ﷺ خالد بن الوليد ثم على بن أبى طالب إلى همدان لدعوتهم إلى الإسلام

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ٦ صـ٣٥٠

يروى البخارى عن البراء بن عازب قال : بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد فأقمنا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا ، ثم إن النبى ﷺ بعث على بن أبى طالب مكان خالد وأمره أن يعيد خالداً إلى المدينة وقال له ﷺ : مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب ومن شاء أن يقبل فليقبل ، فكنت فيمن عقب مع على ، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا فصلى بنا على ثم صفنا صفاً واحداً ، ثم تقدم بين أيدينا ، وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعاً ، فكتب على إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم ، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه ، وقال : **السلام على همدان** (١).

٣) أرسل ﷺ أبا أمامة صدى بن عجلان ﷺ إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام وفى ذلك يقول أبو أمامه : بعثنى رسول الله ﷺ إلى قومى أدعوهم إلى الله عزو وجل وأعرض عليهم شرائع الإسلام ، فأتيتهم وقد سقوا إبلهم ، وحلبوها .

فلما رأونى قالوا : مرحباً بالصدى بن عجلان ، وأكرمونى ثم قالوا : **بلغنا أنك صبوت إلى هذا الرجل .**

فقلت : لا ولكن آمنت بالله ورسوله ، وبعثنى رسول الله ﷺ إليكم أعرض عليكم شرائع الإسلام ، فبينا نحن كذلك إذ جاءوا بقصعتهم فوضعوها واجتمعوا حولها يأكلونها وقالوا : هلم يا صدى .

قلت : ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم إلا ما ذكيتم كما قال الله تعالى .

قالوا : وما قال ؟

قلت : نزلت هذه الآية ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ﴾(٢) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ٦ صـ٣٥٨

(٢) سورة المائدة الآية ٣

فجعلت أدعوهم إلى الإسلام فكذبونى وهجرونى ، وأنا جائع ظمآن قد نزل بى جهد شديد ، فقلت لهم : **ويحكم ايتونى بشربة من ماء فإنى شديد العطش .**

قالوا : لا ، ولكن ندعك تموت عطشاً .

فاعتممت وضربت برأسى فى العمامة ونمت فى حر شديد ، فآتانى آت فى منامى بقدح فيه شراب من لبن لم ير الناس ألذ منه فشربته حتى فرغت من شرابى ، ورويت وعظم بطنى .

فقال القوم : أتاكم رجل من أشرافكم وسراتكم فرددتموه فاذهبوا إليه وأطعموه من الطعام والشراب ما يشتهى ، فأتونى بالطعام والشراب .

فقلت : لا حاجة لى فى طعامكم ولا شرابكم ، فإن الله تعالى أطعمنى وسقانى ، فانظروا إلى الحال التى أنا عليها ، فأريتهم بطنى فنظروا فأسلموا عن أخرهم بما جئت به من عند رسول الله ﷺ .

قال أبو أمامه : **ولا والله ما عطشت ولا عرفت عطشاً بعد تيك الشربة** [١].

٤) بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ﷺ إلى بنى عبد المدان .

يقول ابن هشام : بعثه رسول الله ﷺ إليهم وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام فخرج إليهم خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ، ويدعون إلى الإسلام ويقولون : يا أيها الناس ، أسلموا تسلموا ، **فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه ، فأقام فيهم خالد بن الوليد يعلمهم شرائع الإسلام وكتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ :**

بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد النبى رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد يا رسول الله ﷺ ، فإنك بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب ، وأمرتنى إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام وأن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإنى قدمت عليهم

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ٦ صـ٣٧٠

فدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله ﷺ وبعثت فيهم ركباناً ينادون : يا بنى الحارث أسلموا تسلموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وإنى مقيم بين أظهرهم آمرهم بما أمرهم الله به وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام ، وسنة النبى ﷺ حتى يكتب إلى رسول الله ﷺ والسلام عليك يا رسول الله ورحمته وبركاته .

فكتب إليه رسول الله ﷺ : **بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبى رسول الله إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإن كتابك جاءنى مع رسولك يخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام وأن الله قد هداهم بهداه فبشرهم ، وأنذرهم ، وأقبل ، وليقبل معك وفدهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته** [1].

ـ ثالثاً ـ
تسيير السرايا
للخارجين على النظام

مع ظهور سيادة الإسلام فى الجزيرة ، وتعيين العمال ، وإرسال الدعاة ظهرت جماعات متعددة تعيش على النهب والسلب ، وتأبى الخضوع للنظام الإسلامى ، فكان لابد من تأديب هذه الجماعات ، والأخذ على يدها ليستتب الأمن ، ويستقر النظام ، ويتفرغ المسلمون للتعامل مع القوى الخارجية ودعوتهم إلى الإسلام ، وعلى رأس هذه القوى الفرس والروم ، لأن التوجه إليهم يحتاج إلى قوة وصبر ورجال .

وأهم هذه السرايا ما يلى :

١) سرية عيينة بن حصن الفزارى ، فى المحرم سنة تسع ، إلى بنى تميم ، فى خمسين فارساً لم يكن فيهم مهاجرى ولا أنصارى ، وسببها أن بنى تميم كانوا قد أغروا القبائل ، ومنعوهم عن أداء الجزية وحرضوهم على قتال رسول الله ﷺ .

خرج عيينة بن حصن يسير الليل ويكمن النهار ، حتى هجم عليهم فى الصحراء فولى

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ ٦ صـ ٣٥٤

القوم مدبرين ، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً ، وإحدى وعشرين امرأة ، وثلاثين صبياً ، وساقهم إلى المدينة ، فأنزلهم رسول الله ﷺ فى دار رملة بنت الحارث .

وقدم فيهم عشرة من رؤسائهم ، فجاءوا إلى باب النبى ﷺ ، فنادوا بصوت عال : يا محمد اخرج إلينا فخرج فتعلقوا به ، وجعلوا يكلمونه ، فوقف معهم ، ثم مضى حتى صلى الظهر ، ثم جلس فى صحن المسجد ، فأظهروا رغبتهم فى المفاخرة والمباهاه ، وقدموا خطيبهم عطارد بن حاجب فقال : **الحمد لله الذى له الفضل علينا والذى جعلنا ملوكاً ، وأعطانا الأموال نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثرهم مالاً وأكثرهم عدداً ، فمن مثلنا فى الناس ؟ ألسنا برؤوس الناس وذوى فضلهم ؟ فمن يفاخر فليعدد مثل ما عددنا ، ولو شئنا لأكثرنا من الكلام ، ولكنا نستحى من الإكثار فيما أعطانا الله أقول قولى هذا لأن نؤتى بقول هو أفضل من قولنا .**

فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس ، خطيب الإسلام ، فأجابهم وقال :

الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كل شئ علمه ، فلم يكن شئ إلا من فضله ، ثم كان ما قدر أن جعلنا ملوكاً اصطفى لنا من خلقه رسولاً ، أكرمهم نسباً ، وأحسنهم زياً ، وأصدقهم حديثاً ، أنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، وكان خيرته من عباده ، فدعا إلى الإيمان فآمن المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أصبح الناس وجهاً ، وأفضل الناس فعالاً ، ثم كنا أول الناس إجابة حين دعا رسول الله ، فنحن أنصار الله ورسوله ، نقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر بالله ورسوله جاهدناه فى ذلك ، وكان قتله علينا يسيراً .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم و للمؤمنين والمؤمنات (١) .

ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد مفاخراً ، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديهة .

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس : **خطيبه أخطب من خطيبنا ،**

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٤٣٦

وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، وأقوالهم أعلى من أقوالنا ، ثم أسلموا فأجازهم رسول الله ﷺ ، فأحسن جوائزهم ، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم وفيهم نزل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

٢) سرية قطبة بن عامر إلى حى من خثعم بناحية تبالة ، بالقرب من تربة ، فى صفر سنة تسع خرج قطبة فى عشرين رجلاً على عشرة أبعرة يتعقبونها ، فشن الغارة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر الجرحى فى الفريقين جميعاً ، وقتل عدد كبير ، وساق المسلمون النعم والنساء والشاء إلى المدينة .

٣) سرية الضحاك بن سفيان الكلابى إلى بنى كلاب فى ربيع الأول سنة تسع بعثت هذه السرية إلى بنى كلاب ، لدعوتهم إلى الإسلام ، فأبوا وقاتلوا ، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم رجلاً .

٤) سرية علقمة بن مجزز المدلجى إلى سواحل جدة فى شهر ربيع الآخر سنة تسع فى ثلاثمائة ، بعثهم إلى رجال من الحبشة كانوا قد اجتمعوا بالقرب من سواحل جدة للقيام بأعمال القرصنة ضد أهل مكة ، فخاض علقمة البحر حتى انتهى إلى جزيرة ، فلما سمعوا بمسير المسلمين إليهم هربوا .

٥) سرية على بن أبى طالب إلى صنم لطئ ، يقال له القلس ، ليهدمه ، فى شهر ربيع الأول سنة تسع بعثه رسول الله ﷺ فى خمسين ومائة على مائة بعير وخمسين فرساً ومعه راية سوداء ولواء أبيض ، فشنوا الغارة على محلة حاتم مع الفجر ، فهدموه وملأوا أيديهم من

---

(١) سورة الحجرات الآيات من ٢ إلى ٥

السبى والنعم والشاء ، وفى السبى أخت عدى بن حاتم ، وهرب عدى إلى الشام ، ووجد المسلمون فى خزانة القلس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع ، وفى الطريق قسموا الغنائم ، وعزلوا الصفى لرسول الله ﷺ ولم يقسموا آل حاتم .

ولما جاءوا إلى المدينة استعطفت أخت عدى بن حاتم رسول الله ﷺ قائلة : يارسول الله ﷺ غاب الوافد ، وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة ، ما بى من خدمة ، فمن على من الله عليك .

قال : من وافدك ؟

قالت : عدى بن حاتم .

قال : الذى فر من الله ورسوله ؟ ثم مضى ، فلما كان الغد قالت مثل ذلك وقال لها مثل ما قال أمس ، فلما كان بعد الغد قالت مثل ذلك ، فمن عليها .

ورجعت أخت عدى بن حاتم إلى أخيها عدى بالشام ، فلما لقيته قالت عن رسول الله ﷺ : لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها ، ائته راغباً أو راهباً ، فجاء عدى بغير أمان ولا كتاب ، فأتى به إلى داره ﷺ ، فلما جلس بين يديه حمد رسول الله به وأثنى عليه ، ثم قال : ما يفرك ؟ أيفرك أن تقول : لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم من إله سوى الله ؟

قلت : لا .

ثم تكلم رسول الله ﷺ ساعة ثم قال : إنما تفر أن يقال : الله أكبر فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟

قلت : لا .

قال : فإن اليهود مغضوب عليهم ، وإن النصارى ضالون .

قلت : فإنى حنيف مسلم ، فانبسط وجهه ﷺ فرحاً ، وأمر بى فنزلت عند رجل من الأنصار ، وجعلت آتى النبى ﷺ طرفى النهار .

وكان النبى ﷺ يسأله فيما يهديه ، ويرشده قال لى : إيه يا عدى بن حاتم ، ألم تكن ركوسياً ؟

قلت : بلى .

قال : أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟

قلت : بلى .

قال : فإن ذلك لم يحل لك فى دينك .

قلت : أجل وعرفت أنه نبى مرسل ، يعرف ما يجهل .

ثم قال : يا عدى أسلم تسلم .

فقلت : إنى من أهل دين .

قال : أنا أعلم بدينك منك .

فقلت : أنت أعلم بديني منى ؟

قال : نعم ، ألست من الركوسية ، وأنت تأكل مرباع قومك ؟

فقلت : بلى.

قال : فإن هذا لا يحل لك فى دينك .

يقول عدى : بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقه ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل .

فقال ﷺ : يا عدى ، هل رأيت الحيرة ؟ فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً إلا الله ، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ويطلب من يقبله ، فلا يجد أحداً يقبله منه .

يقول عدى : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى ابن هرمز ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبى أبو القاسم ﷺ (١)

---

(١) الرحيق المختوم من صـ٤٢٥ إلى ٤٢٨

ـ رابعاً ـ
غــزوة تبــوك
والتصدى لعدوانية الرومان

لم يقبل الرومان انتصار المسلمين ، وتوحد الجزيرة تحت راية الإسلام وكبر عليهم أن تظهر قوة كبرى مجاورة لهم ، فجهزوا جموعاً كثيرة بالشام عند حلفائهم الغساسنة ، وأرادوا غزو المسلمين فى ديارهم ، والقضاء على دولتهم الناشئة فكان أن جاءهم النبى ﷺ غازيا فى " تبوك " .

والحديث عن غزوة تبوك يتطلب النقاط التالية :

ـ ١ ـ
استعداد المسلمين للغزوة

علم رسول الله ﷺ بما يعمل له الرومان فجهز المسلمين وأعد العدة ... وكانت غزوة تبوك .

وتبوك موضع بين الحجر وأول الشام ، وإليها كانت غزوة النبى ﷺ .

وقد وقعت هذه الغزوة فى حر شديد ، ومع قلة أموال المسلمين ولذلك سميت "غزوة العسرة " .

ونظراً لبعد مسافة تبوك عن المدينة ، وللظروف التى أحاطت بها صرح الرسول الله ﷺ بجهة الغزو على غير عادته ليستعد الصحابة لها ، وليكونوا على بينة من المشاق التى سيتحملونها فى خروجهم .

ندب الرسول ﷺ أهل المدينة للخروج إلى تبوك ، وأرسل إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم إلى عدوهم فبعث بريدة بن الحصيب وأمره أن يبلغ الفرع ، وبعث أبا رهم الغفارى إلى قومه ، وأبا واقد الليثى إلى قومه ، وأبا جعدة الضمرى إلى قومه بالساحل ، ورافع بن مكيث بن جندب بن جنادة إلى جهينة ، ونعيم بن مسعود إلى أشجع ، وبديل بن ورقاء وعمرو بن سالم وبسر ابن سفيان إلى بنى كعب بن عمرو ، والعباس بن مرداس إلى بنى سليم .

وحض على الجهاد ورغب فيه ، وأمر بالصدقة فحملت صدقات كثيرة ، وأول من

حمل صدقته أبو بكر الصديق ﷺ : جاء بماله كله أربعة آلاف درهم ، فقال له رسـول الله ﷺ : هل أبقيت لبناتك شيئاً ؟

قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

وجاء عمر بن الخطاب ﷺ بنصف ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : هل أبقيت شيئاً؟ قال : نعم ، نصف مالى جئت به .

وبلغ عمر ما جاء به أبو بكر ﷺ فقال : ما استبقنا إلى خير إلا سبقنى إليه .

وحمل العباس بن عبد المطلب ﷺ مالاً يقال إنه تسعون ألفاً .

وحمل طلحة بن ابن عبيد الله مالاً .

وحمل عبد الرحمن بن عوف مائتى أوقية .

وحمل سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة مالاً .

وتصدق عاصم بن عدى بتسعين وسقاً تمراً .

وجهز عثمان بن عفان ﷺ ثلث ذلك الجيش ، فكان من أكثرهم نفقة ، فلقد كفلت نفقته مؤونة ثلث الجيش حتى إن كان ليقال : ما بقيت له حاجة !!

جاء عثمان ﷺ بألف دينار ففرغها فى حجر النبى ﷺ ، فجعل ﷺ يقبلها ويقول : **ما ضر عثمان ما فعل هذا اليوم ، قالها مراراً .**

ورغب ﷺ أهل الغنى فى الخير والمعروف ، فتبادر المسلمون فى ذلك حتى إن الرجل ليأتى بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول : هذا البعير بينكما تعتقبانه ، ويأتى الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج ، وأتت النساء بكل ما قدرن عليه ، فكن يلقين فى ثوب مبسوط بين يدى النبى ﷺ ، المسك ، والمعاضد ، والخلاخل ، والأقرطة ، والخواتيم والخدمات .

وكان الناس فى حر شديد ، وحين طابت الثمار ، وحسنت الظلال ، وبدأ الناس يحبون المقام ، ويكرهون الشخوص أخذهم ﷺ بالجد ، ودعاهم إلى الخروج وعسكر بثنية الوداع .

تجمع المسلمـون بثنية الوداع حتى بلغ عـددهم قريباً من أربعين ألفاً فيهم كثير من

الأعراب ، وعبد الله بن أبي وأشياعه من المنافقين .

وكان لابد من حمولة للمجاهدين لطول السفر ، وصعوبة الطريق ، وظهر واضحاً أن الذى لا يجد ما يحمله لن يغزو ، وله عذره ، وهنا جاء عدد من أصحاب النبى ﷺ يشكون له عدم وجود ما يركبون ، وأخذوا فى البكاء حزناً على فوت الجهاد منهم .

وهم سبعة : **أبو ليلى المازنى ، وسلمة بن صخر الزرقى ، وثعلبة بن غنمة السلمى ، وعلبة بن زيد الحارثى ، والعرباض بن سارية السلمى ، وهرمى بن عمرو المزنى ، وسالم بن عمير ، جاءوا يستحملون رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة .**

فقال لهم ﷺ : لا أجد ما أحملكم عليه .

فولوا يبكون ، فلقى اثنان منهما يامين بن عمير بن كعب فقال : ما يبكيكما ؟

قالا : جئنا إلى رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج ، ونحن نكره أن تفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ فأعطاهما ناضحاً له ، فارتحله اثنان منهم ، وزود كل واحد صاعين من تمر .

وحمل العباس بن عبد المطلب منهم رجلين .

وحمل عثمان بن عفان منهم ثلاثة [١].

وأبطأ أبو ذر عن رسول الله ﷺ من أجل بعيره ، وكان الحر شديدا فخرج وحده ، حتى لحق برسول الله ﷺ نصف النهار وقد بلغ منه العطش .

فقال له ﷺ : مرحباً بأبى ذر ! يمشى وحده ، ويموت وحده ،ويبعث وحده ، ما خلفك ؟

فأخبره أبوذر ﷺ خبر بعيره .

فقال ﷺ : **إن كنت لمن أعز أهلى على تخلفاً ! لقد غفر الله لك بكل خطوة ذنباً إلى أن بلغتنى .**

يروى ابن هشام أن رسول الله ﷺ مضى سائراً فجعل يتخلف عنه الرجل فيقولون : يا رسول الله تخلف فلان ، فيقول : دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ،

---

(١) إمتاع الأسماع صـ٤٤٦

وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ، حتى قيل : يا رسول الله ، قد تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بعيره ، فقال : دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ، وتلوم أبو ذر على بعيره ، فلما أبطأ عليه ، أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، ونزل رسول الله فى بعض منازله ، فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذر فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله ﷺ : رحم الله أبا ذر يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده (١) .

وولى رسول الله ﷺ على المدينة " سباع بن عرفطة رضي الله عنه " وخلف معه على بن أبى طالب على أهله ، وعقد الألوية والرايات ، فدفع اللواء الأعظم لأبى بكر ، والراية الكبرى للزبير بن العوام ، وأمر ﷺ كل من خرج معه باتخاذ لواء أو راية .

وأخذ الجيش الإسلامى يتحرك من ذات الثنية باتجاه الشام .

وهنا برز أصحاب النفاق وانسحبوا من ذى الثنية ورجعوا إلى المدينة ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبى وأشياعه .

وقالوا : يحسب محمد ﷺ أن قتال بنى الأصفر (الروم) للعب ؟؟

ونافق آخرون وهم الأعراب الذين أخذوا يتخلفون عن الجيش معتذرين بأسباب واهية كاذبة .

وكان تخلفهم رحمة بالمؤمنين الصادقين ... ولذلك كان ﷺ كلما أخبره أصحابه بتخلف فلان يقول : **دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .**

وسار الجيش إلى تبوك ، بعدما تخلص من المنافقين وضعاف الإيمان ، وقد بلغ عدده ثلاثين ألفاً .

وعندما وصل المسلمون إلى " ذى خشب " وهو جبل يقع شمال المدينة قريباً منها أخذ ﷺ يصلى والمسلمون معه الظهر والعصر والمغرب والعشاء جمعاً ، يؤخر الظهر حتى تدبر

---

(١) سيرة النبى جـ ٢ صـ ٥٢٣

الشمس ويصلى العصر جمع تقديم ، ويصلى المغرب مع العشاء وقت العشاء جمع تأخير واستمر ﷺ على ذلك حتى رجع من تبوك .

لما وصل الجيش إلى تبوك جمع النبى ﷺ جنوده ، وخطب فيهم وقال ﷺ :

" أيها الناس ! أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهم ، وخير السنن سنن محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عواقبها ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف القتل قتل الشهداء ، وأعمى الضلالة الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى .

وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا نزراً ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله ، وخير ما ألقى فى القلب اليقين ، والارتياب من الكفر .

النياحة من عمل الجاهلية ، والغلول من جمر جهنم ، والشكر وقاية من النار ، والشعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم ، والنساء حبالة إبليس ، والشباب شعبة من الجنون ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المال أكل مال اليتيم .

والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربع أذرع ، والأمر إلى أخره ، وملاك العمل خواتمه ، وشر الرؤيا رؤيا الكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقتل المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتأل على الله يكذبه ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ومن يتتبع السمعة يسمع الله به ، ومن يصبر يضاعف الله له ، ومن يعص الله يعذبه ، اللهم اغفر لى ولأمتى ، اللهم اغفر لى ولأمتى أستغفر الله لى ولكم "

وطاف على ناقته بالناس وهو يقول : يا أيهـــا الناس ! يد الله فوق يد المعطى ،

ويد المعطِى الوسطى ويد المعطَى السفلى ، أيها الناس استغنوا ولو بحزم الحطب ، اللهم هل بلغت ! اللهم هل بلغت ! اللهم هل بلغت ... !

وجلس بتبوك فى نفر من أصحابه وهو سابعهم ، فجاء رجل من بنى سعد هذيم فسلم فقال : اجلس .

فقال : يا رسول الله ! أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

فقال : أفلح وجهك .

ثم قال : يا بلال ، أطعنا ! فبسط نطعاً ، ثم أخرج من حميت له خرجات من تمر معجون بسمن وأقط ، ثم قال ﷺ : كلوا فأكلوا حتى شبعوا .

فقال الرجل : يا رسول الله إنى كنت لآكل هذا وحدى !!

فقال ﷺ : الكافر يأكل فى سبعة أمعاء والمؤمن يأكل فى معى واحد .

ثم جاء من الغد متحيناً الغداء ليزداد فى الإسلام يقيناً ، فإذا عشرة حوله عليه السلام فقال ﷺ : هات أطعمنا يا بلال ! فجعل يخرج من جراب تمراً بكفه قبضة قبضة ، فقال : اخرج ولا تخف من ذى العرش إقتاراً ! فجاء بالجراب فنثره ، فحزره الرجل مدين ، فوضع ﷺ يده على التمر ثم قال : كلوا باسم الله ، فأكل القوم وأكل الرجل وكان صاحب تمر ، حتى ما يجد له مسلكاً ، وبقى على النطع مثل الذى جاء به بلال كأنهم لم يأكلوا منه تمرة واحدة .

ثم عاد الرجل من الغد ، وعاد نفر ، فكانوا عشرة أو يزيدون رجلاً أو رجلين ، فقال ﷺ : يا بلال أطعمنا ، فجاء بذلك الجراب بعينه فنثره ، ووضع ﷺ يده عليه وقال : كلوا باسم الله ، فأكلوا حتى شبعوا ، ثم رفع مثل الذى صب ، ففعل مثل ذلك ثلاثة أيام (١).

وعسكر النبى ﷺ بجنوده فى " تبوك " عشرين يوماً حتى فتح الله عليهم فعادوا إلى المدينة بلا قتال وبلا حرب .

---

(١) إمتاع الأسماع صـ ٤٦٠

- ٢ -
نتائج الغزوة

عسكر النبى ﷺ والمسلمون فى تبوك ، وعسكر قبالتهم جيش الروم ، فشاور رسول الله ﷺ أصحابه فى التقدم بعد أن بين لهم أن الأمر بيدهم وعليهم أن يختاروا لأنفسهم ، وبخاصة أن الله لم يأمر بشئ ، فرأوا الرجوع إلى المدينة ، والاكتفاء بما حقق الله لهم فى هذه الغزوة .

إن غزوة " تبوك " خلت من القتال ولكنها تركت آثاراً عديدة على المسلمين وعلى غيرهم

أما أثرها مع المسلمين فقد محص الله صفهم ، وأحاطهم بآيات من عنده كإكثـــار الطعـــام وهم فى أمس الحاجة إليه ، ونزول المطر بدعاء النبى ﷺ .

وقد وجه النبى من عسكره فى تبوك سرايا إلى القبائل العربية الموجودة فى المنطقة وكانت تابعة للرومان ... فلما رأى العرب قوة المسلمين قبلت العهد مع رسول الله ﷺ وصاروا من أهل الذمة ... وعلى رأس هذه القبائل أهل أيلة ، وأهل جرباء ، وأهل أذرح ، وأهل مقتاً ، حيث أتى يحنه بن رؤبة صاحب أيلة رسول الله ﷺ وصالحه على إعطاء الجزية وتبعه أهل جرباء وأذرح ، فكتب لهم النبى ﷺ كتاباً وأعطاه لهم وجاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمنة من الله ومحمد النبى ﷺ ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة [١] **: سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه، من بر أو بحر .**

وقد كتب الكتاب جهيم بن الصلت ، وشرحبيل بن حسنة ، بإذن رسول الله [٢].

وكتب ﷺ لأهل " جرباء " كتاباً جاء فيه : **هذا كتاب من محمد النبى رسول الله لأهل جرباء وأذرح : أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم** [٣].

---

(١) وأيلة بفتح الهمزة وسكون الياء – مدينة على البحر الأحمر مما يلى الشام وهى من بلاد الشام

(٢) سيرة النبى جـ٢ صـ٥٢٥ ، ٥٢٦

(٣) إمتاع الأسماع جـ صـ جرباء بفتح فسكون موضع جنوب الشام يقع فى شمال جبل السراه .

وكتب لأهل أذرح ما يلى : **من محمد النبى رسول الله لأهل أذرح إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ، ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة ، وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه** (١)

وكتب لأهل "مقتاً" كتاباً جاء فيه : **أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم ربع غزولهم وربع ثمارهم** (٢).

وأرسل خالد بن الوليد فى بعث إلى أكيدر دومة ، رجل من كندة و كان ملكاً عليها ، وكان نصرانياً ، فقال رسول الله ﷺ لخالد : **إنك ستجده يصيد البقر** ، فخرج خالد ، حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين ، وفى ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ، ومعه امرأته فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر ، فقالت له امرأته : **هل رأيت مثل هذا قط ؟**

قال : **لا والله** .

قالت : **فمن يترك هذه** .

قال : **لا أحد** .

فنزل فأمر بفرسه ، فأسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له حسان فركب ، وخرجوا معه بمطاردهم ، فلما خرجوا لقيهم خيل رسول الله ﷺ ، فأخذته وقتلوا أخاه ، وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب فاستلمه خالد فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ، ويتعجبون منه ، فقال رسول الله ﷺ : **أتعجبون من لين هذه ؟ فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير منها** (٣) .

ثم إن رسول الله حقن له دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله ، فرجع إلى قريته(٤)

---

(١) أذرح بفتح الهمزة وسكون الذال وضم الراء بلد صغير يقع فى أطراف الشام من ناحية الجنوب .

(٢) سيرة ابن هشام جـ٢ صـ٥٢٧

(٣) صحيح البخارى كتاب المناقب باب مناقب سعد بن معاذ جـ٦ صـ١٥٥

(٤) سيرة النبى جـ٢ صـ٥٢٦

وبذلك تحقق للمسلمين العزة والقوة فى هذه المناطق البعيدة .

أما آثار تبوك على غير المسلمين فلقد أيقنوا أن قوة الإسلام غالبة ، وأنه لا قبل لأى فريق فى مواجهة المسلمين وبدأوا يدركون صدق الإسلام وخطأهم فيه .

-٣-
موقف المنافقين بعد الغزوة

سارع المنافقون بالخروج إلى ثنية الوداع حينما ندب النبى ﷺ لغزوة تبوك .

ويبدو أن خروج المنافقين كان مناورة منهم لتثبيط همه المؤمنين ونشر الذعر بينهم وحتى لا يتهموا بالقعود والنكوص ، وظنوا أن بمقدورهم القعود بالجيش كله عن الغزو ولذلك ناقشوا كثيراً فى التخلف ، وأكثروا من الحلف وهم كاذبون ، وبدأوا فى إضعاف عزائم المجاهدين مرة ببعد المسافة ، وأخرى بقسوة الحر ، وثالثة بوعورة الطريق ، ورابعة بقوة الروم والأعراب المتحالفين معهم .. وكل تلك أموراً بينها رسول الله ﷺ لأصحابه حين دعاهم للخروج .

وكان أمل المنافقين القضاء على رسول الله ﷺ وعلى الإسلام كله ، ولذلك خرجوا مع الجيش الإسلامى ، وانتهزوا كل ما أمكنهم لتحقيق مآربهم ، وأهم أفعالهم :-

١) إنشاء مسجد الضرار :

بنى المنافقون فى " ذى أوان " بجوار المدينة مسجدا يتآمرون فيه ، بعدما كانوا يجلسون فى الخلاء ويراهم المسلمون ، ويطلعون على مكرهم ، وخبثهم ، وهذا المسجد هو الذى عرف بمسجد الضرار ، وقد دعوا الرسول ﷺ للصلاة فيه ، فوعدهم بالصلاة معهم فيه حين رجوعه من الغزوة ، وأثناء عودته من تبوك نزل عليه قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة التوبة الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨

لقد كان المسجد ستاراً للمنافقين عن أعين المسلمين ، لكن عين الله لا تنام ، ولذلك أمر النبى ﷺ بهدم المسجد ، وحرقه ، بعدما أمره الله تعالى بعدم الصلاة فيه ، وبين له أن سبب تأسيسه هو الإضرار بالمسلمين والكفر بما أنزل الله ، وتفريق المسلمين وإيواء أعداء الله ورسوله .

٢) نشر الإشاعات الكاذبة :

أمر رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ؓ أن يبقى فى أهله ، وحينئذ قال المنافقون : ما خلفه محمد إلا خوفاً عليه ، ويسراً به ... فلما سمع على ذلك أخذ سلاحه ولحق بالمسلمين بـ"الجرف" فأعاده النبى ﷺ وقال له : **كذبوا إنما خلفتك ورائى فى أهلى وأهلك .**

وأخذ المنافقون يهولون فى قوة الرومان ، ويستهينون بالمسلمين .

يقول وديعة بن ثابت المنافق : **مالى أرى أصحاب محمد اتسعت بطونهم ، وكذب لسانهم ، وجبنوا عن اللقاء .**

ويقول الجلاس بن سويد المنافق : **الرومان سادتنا وعظماؤنا ، ولئن كان محمد صادقاً فنحن شر من الحمير .**

فقال له عمير ؓ : أنت شر من الحمير ، محمد الصادق وأنت الكاذب .

فلما أتى رسول الله ﷺ بالمنافقين وسألهم عن أقوالهم السيئة قال وديعة : يا رسول الله ! إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [١] .

وجاء الجلاس فحلف أنه ما قال من ذلك شيئاً وأن عميرا كذب عليه ، فأنزل الله فيه قوله تعالى ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي

---

(١) سورة التوبة الآيتان ٦٥ ، ٦٦

ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ [١] .

فلما نزلت الآية قال الجلاس : عمير صادق وأنا كاذب يا رسول الله وكان للجلاس دية فى الجاهلية على بعض قومه ، وكان محتاجاً ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخذها منهم وأعطاها له فاستغنى بها وتاب فتاب الله عليه [٢] .

٣) محاولة قتل النبى ﷺ :

وفى أثناء الطريق مكر أناس من المنافقين لقتل رسول الله ﷺ عند العقبة [٣] ، فلما بلغوها أرادوا أن يسلكوها مع رسول الله ﷺ فأخبره الله بخبرهم فقال ﷺ للناس : اسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع ! ليبعد المنافقين عن مؤامرتهم فسلك الناس بطن الوادى ، وسلك ﷺ العقبة ، وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها ، وأمر حذيفة بن اليمان يسوق خلفه ، فغضب المنافقون ، وأصروا على سلوك العقبة فأمر ﷺ حذيفة أن يردهم ، فرجع إليهم فجعل يضرب وجوه رواحلهم بمحجن فى يده ، فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا ، **الناس فلما أصبح رسول الله ﷺ قال له أسيد بن الحضير : يا رسول الله ! ما منعك البارحة من سلوك الوادى ، فقد كان أسهل ؟**

فقال ﷺ : **يا أبا يحي ! أتدرى ما أراد البارحة المنافقون وما هموا به ؟!**

قالوا : **نتبعه فى العقبة ، فإذا أظلم الليل عليه قطعوا أنساع راحلتى ونخسوها حتى يطرحونى عن راحلتى !**

فقال أسيد : **يا رسول الله ! فقد اجتمع الناس ونزلوا ، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذى هم بهذا .**

قال ﷺ : **يا أسيد إنى أكره أن يقول الناس إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده فى قتل أصحابه .**

فقال أسيد : **يا رسول الله ! هؤلاء ليسوا بأصحاب !**

---

(١) سورة التوبة الآية ٧٤

(٢) إمتاع الأسماع صـ٤٥٣

(٣) العقبة جبل يعرض للطريق فيجعله مضيقاً ، والمراد هنا المضيق فى شمال مكة عند (واقص) .

قال ﷺ : أو ليس يظهرون شهادة ألا إله إلا الله !

قال : بلى ! ولا شهادة لهم !

قال : أو ليس يظهرون أنى رسول الله ؟

قال : بلى ! ولا شهادة لهم !

قال ﷺ : فقد نهيت عن قتل أولئك[١].

وقد فضح الله المنافقين بنزول الوحى يوضح صفاتهم ، ويبين أكاذيبهم ، ويحدد منزلتهم السافلة ، وخلقهم الردئ .

فإنهم لما اعتذروا لعدم الاستعداد قال الله عنهم ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾[٢] .

وحتى يعرف المؤمنون أن فى تخلف المنافقين خيراً قال الله تعالى ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣] .

وحتى لا يغتر المسلمون بمظهر المنافقين قال تعالى ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[٤]

وحتى لا يصدق المسلمون أيمانهم قال تعالى ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾[٥] ويقول تعالى ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[٦] .

وقال تعالى ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ

---

(١) إمتاع الأسماع جـ ١ صـ ٤٧٧

(٢) سورة التوبة الآية ٤٦

(٣) سورة التوبة الآية ٤٧

(٤) سورة التوبة الآية ٥٥

(٥) سورة التوبة الآية ٥٦

(٦) سورة التوبة الآية ٦٢

ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (١) .

لقد رد الله أقوال المنافقين جميعاً ، وبين طوايا قلوبهم ، وخبايا نفوسهم ، فقال تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) ، وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤) ، وقال تعالى ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

وهكذا ...

فضح الله النفاق والمنافقين ، وبرزت سيم الإيمان والجهاد ، وظهرت معالم الحياة أمام البصائر والأبصار .

- ٤ -

الثلاثة الذين تخلفوا

تخلف عن رسول الله ثلاثة من المسلمين هم : كعب بن مالك الأنصارى ، ومرارة بن الربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، فلما رجع رسول الله ﷺ من تبوك جاءوا وندموا

---

(١) سورة التوبة الآية ٩٦

(٢) سورة التوبة الآية ٥٨

(٣) سورة التوبة الآية ٦١

(٤) سورة التوبة الآية ٧٩

(٥) سورة التوبة الآية ٩٤

على تخلفهم ، وبينوا أنه لا عذر لهم فى التخلف ، و لم يكذبوا كغيرهم .

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى ركعتين بالمسجد جاءه المخلفون يعتذرون ويحلفون ، ورسول الله يكل حقيقتهم إلى الله تعالى .

فلما جاء كعب بن مالك تبسم له رسول الله ﷺ تبسم المغضب وقال له : **ما خلفك ؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟**

قال كعب : **بلى يا رسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلاً ، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كاذباً لترضى عنى ، ليوشكن الله أن يسخط على ، ولئن حدثتك اليوم حديثاً صادقاً تجد على فيه ، إنى لأرجو عقبى الله فيه ، ولا والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك !!**

فقال ﷺ : **أما أنت فقد صدقت ! فقم حتى يقضى الله فيك .**

ويمثل ذلك ذكر صاحباه ، فنهى ﷺ عن كلام الثلاثة فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم حتى تنكرت لهم أنفسهم ، فلبثوا على ذلك خمسين ليلة ، وقد قعد مرارة وهلال فى بيوتهما ، وكان كعب يخرج فيشهد الصلوات مع المسلمين ويطوف بالأسواق ، فلا يكلمه أحد ، ويأتى رسول الله ﷺ ، وهو فى مجلسه بعد الصلوات ، فيسلم عليه ويصلى قريباً منه يسارقه النظر ، وهو معرض عنه ، وتسور يوماً جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمه ، وأحب الناس إليه ، فسلم عليه فلم يرد عليه السلام فقال : يا أبا قتادة ! أنشدك الله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، وكرر ذلك فقال فى الثالثة : الله ورسوله أعلم ففاضت عيناه وانصرف .

يقول كعب : فبينما أنا أمشى بسوق المدينة ، وإذا نبطى من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : **من يدلنى على " كعب بن مالك "** ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى دفع لى كتاباً من ملك غسان ، فإذا فيه : **أما بعد فإنه بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك .**

فقلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها .

فلما مضت أربعون ليلة بعث إلى رسول الله ﷺ وإلى هلال بن أمية ومرارة بن ربيع مع خزيمة بن ثابت يأمرهم أن يعتزلوا نساءهم ، فقال كعب لامرأته : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما هو قاض !

وبكى هلال بن أمية وامتنع عن الطعام ، وواصل اليومين والثلاثة ما يذوق طعاماً ، إلا أن يشرب الشربة من الماء أو الضيح من اللبن ، ويصلى الليل ولم يخرج من بيته لأن أحداً لا يكلمه ، حتى إن الوالدين يهجرونه لطاعة رسول الله ﷺ .

وجاءت امرأته فقالت: يا رسول الله ! إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، وأنا أرفق به من غيرى ، فإن رأيت أن تدعنى أخدمه فعلت .

قال : نعم ، ولكن لا تدعيه يصل إليك !

فقالت : يا رسول الله ! ما به من حركة إلىَّ ! والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، وإن لحيته لتقطر دموعاً الليل والنهار ، ولقد ظهر البياض على عينيه حتى تخوفت أن يذهب بصره .

فلما كملت خمسون ليلة ، وهم كما قال الله تعالى قد ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ (١) أنزل الله توبتهم بقوله تعالى ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (٤)

فأعلم رسول الله ﷺ أصحابه بذلك عند الصبح ، فخرج أبو بكر ﷺ فأوفى على

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٨

(٢) سورة التوبة الآية ١١٧

(٣) سورة التوبة الآية ١١٨

(٤) سورة التوبة الآية ١١٩

سلع فصاح : **قد تاب الله على كعب بن مالك ! يبشره ، فأتاه حمزة بن عمرو فبشره فنزع ثوبيه وكساهما إياه ولا يملك غيرهما ، واستعار ثوبين من أبي قتادة فلبسهما ، ثم انطلق إلى رسول الله والناس يهنئونه ، وخرج أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل إلى هلال يبشره ، فلما أخبره سجد ولقيه الناس يهنئونه ، فما استطاع المشى ، لما ناله من الضعف والحزن والبكاء حتى ركب حماراً ، وبشر مرارة بن ربيع سلكان بن سلامة بن وقش ، فأقبل حتى توافوا عند النبى ﷺ .**

فقام طلحة بن عبيد الله يتلقى كعب بن مالك ، فلما سلم على رسول الله ﷺ قال له ﷺ ووجهه يبرق من السرور : **أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك .**

فقال : **أمن عندك يا رسول الله أو من عند الله ؟**

قال : **من عند الله .**

فقال كعب : **يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة .**

فقال : **أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك .**

قال فالثلثان !

قال : لا .

قال : **فالنصف .**

قال : **لا .**

قال : **فالثلث .**

قال : **نعم** [١].

---

(١) إمتاع الأسماع من صـ٤٨٦ إلى ٤٨٨

- المبحث الرابع عشر -

السرايا والجهاد فى الميزان

شرع الله الجهاد لتعيش الدعوة إلى الله فى إطار خلقى كريم ، يقـدر الإنسـان ، ويبرز مزايا الدين ، ويشجع الناس على الدخول فى دين الله تعالى .

وحينما نتأمل فى تشريع الإسلام للجهاد ، وننظر فى مساره التطبيقى من خـلال الغزوات والسرايا، ومدى مساهمته فى خدمة الدعوة ، وتجلية صدق الإسلام وخيريتـه تظهر الحقائق التالية :-

-١-

الجهاد ضرورة عامة

قد يتساءل سائل ما ، بحسن نية أو بسوء نية ، ويقول :

ما سبب كل هذه التضحيات التى يحتاجها الجهاد الإسلامى ؟

وهل يستحق كل هذا ؟

وما الغاية منه ؟ وما الحكمة فى تشريعه ؟

وهل استنفد المسلمون كافة الوسائل السلمية حتى يلجأوا إلى الجهاد والحرب .. ؟ مع ما فى الحرب من قتل ، ودم ، وإزهاق للأموال والأرواح .

وهل تتساوى غايات الجهاد مع مسئولياته ؟

وهذه تساؤلات تحتاج لإجابات واضحة منعاً للبس ، ورداً لشبهات يثيرها أعداء الإسلام حول مشروعية الجهاد الإسلامى .

إن الإسلام دين الله تعالى جاء به محمد ﷺ بعدما أوحى الله إليه به لإنقاذ الناس من ظلمات الجهل ، وعبودية المادة ، وطغيان الأقوياء حتى يعيشوا حياة آمنة مستقرة بالعدل والحق ، وانتشار الخير والسلام .

و لم يبدأ الإسلام بتشريع الجهاد والقتال ... وإنما بدأ بالكلمة الصادقة والدعوة الآمنة والحوار الجاد ، يناقش العقول ، و يحرك العواطف ، ويثبت للناس صدق الإسلام ، وأحقيته ، بلا عدوان على أحد ، أو سب لمخلوق ، أو مصادرة لرأى واتجاه .

أعلن الإسلام غايته بوضوح وهى تنحصر فى تحقيق السعادة للناس ، ونشر السلام

فى العالم كله بواسطة منهج ربانى خالص حدد الإسلام معالم ، وبين غاياته ومراميه .

ومع هذا أبى جبابرة الأرض أن يواجهوا الدعوة بالدعوة ، والحجة بالحجة ، والرأى بالرأى ... وإنما بدأوا باضطهاد من يدعوهم ، وقتل من يكلمهم ، ووضعوا سياجاً يمنع الدعوة من الحركة والإنطلاق ... و لم يكن موقفهم هادئاً .. و لم يكتفوا بالحديث مهما كان توجهه ومستواه ... وإنما اعتمدوا على القتل والأذى ، و لم يفرقوا فى عدوانهم بين كبير وصغير ، ولا بين رجل وامرأة ... واستمروا فى مباشرة العدوان وتصعيده حتى أجبروا المسلمين على الهجرة وترك الديار إلى أماكن لا عهد لهم بها كالحبشة والمدينة ، و لم يترك الأعداء المسلمين أحراراً حتى فى مواطن هجرتهم ، وإنما تتبعوهم بالعدوان ، ولاحقوهم بالأذى ودبروا المؤامرات لاغتيال رسول الله ﷺ وقهر المسلمين وجيشوا الجيوش لقتل المسلمين فى دارهم ... وكان أملهم هو القضاء التام على المسلمين ، وإطفاء نور الله فى الأرض .

وبتحقق هذه الأمور فى عالم الواقع يظهر أن مشروعية الجهاد جاءت بعد استنفاد كافة الوسائل التى يتصورها العقل لصيانة الحقوق ، وضمان الخير للناس .

وقد شرع الله الجهاد لرد العدوان ، ومنع الأذى ، وتحقيق وضع يحقق الاستقرار للدعوة وللناس ، ويصون الكرامة ، ويحمى الحقوق ، وذلك أمر تدعو إليه المواثيق الدولية القديمة والمعاصرة وتعمل له .

ولذلك كان تشريع الجهاد ضرورة عامة ، ووحيدة بعد ما استنفد المسلمون كافة الطرق للتعامل مع أعدائهم الذين بدأوهم بالأذى ، ولاحقوهم بالعدوان ، و لم يسمعوا لهم كلمة ، و لم يناقشوهم بحجة .

لو لم يشرع الله الجهاد وتركه المسلمون لتمكن المشركون من كل مسلم ، ولقضوا على المسلمين ودينهم .

ولو لم يشرع الجهاد لاستمرت البشرية فى ظلمات الجهل ، وسوءات القهر والاستعباد .

ومن هنا ندرك ضرورة تشـــريع الجهـــاد ، وسبب تكليف المسلمين به ، وأهمية

التضحية والبذل إنقاذاً لأنفسهم ، وحماية لدينهم ، وتحقيقاً لخير الإنسانية وسعادتها .

إن الأمم المعاصرة تحتفل بما بذلته فى حروبها العالمية ، وتتباهى بتضحياتها من أجل الحرية والديموقراطية ، وتجعل قتلاها خلال هذه الحروب أبطالاً تصنع لهم التماثيل ، وتشيد بهم فى كل مجال ... فإذا نظرنا إلى الجهاد الإسلامى من زاوية هؤلاء الناس مع ربطه بوسائله وأهدافه ، وتطبيقاته فإن ذلك يعد برهانا على ضرورته ، وحتمية استمراره لخير الناس مع وضوح الفرق بين الجهاد الإسلامى وهذه الحروب من ناحية أخلاقيات الجهاد ونتائجه .

إن الجهاد الإسلامى فى إطـــار مشـــروعيته يحتاج إلى كل ما بذل له من تضحية وعطاء ، ولو تضاعف الجهد لكان خيراً وبركة .

ويبقى الجهاد فى مشروعيته محافظاً على حقيقته ، وغايته على الزمن كله .

ومن حكمة الله أن آيات الجهاد تورده مرتبطاً بسببه وعلته ، يقول الله تعالى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾(١)

ويقول سبحانه ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(٢)

ويقول سبحانه ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(٣) .

ويقول سبحانه ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٤)

ويقول سبحانه ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ

---

(١) سورة الحج الآية ٣٩

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠

(٣) سورة التوبة الآية ٣٦

(٤) سورة البقرة الآية ٢٥١

وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[١]

إنه تشريع ربانى بسبب أنهم ظلموا ...!!!

ولرد عدوان المعتدى ومقاتلة من يقاتل ...!!!

ولمعاملة الأعداء بمثل ما يعملون ...!!!

ولإنقاذ البشرية من ظلم الطغاة واستبداد المتجبرين وحتى لا تنهدم الحضارات على رؤوس أصحابها ... !!!

وقد سبق عند الحديث عن مراحل تشريع الجهاد فى بيان واضح لهذه القضية .

- ٢ -

الجهاد يحمى حرية الإنسان

أظهر الجهاد الإسلامى قيام الإسلام على المبادئ النبيلة ، التى تحمى الحقـــوق ، وتصون الكرامة ، وتعمل على ضمان حرية الإنسان بصورة مطلقة ... وذلك يتضح من خلال بعض الملاحظات فى حركة الإسلام بين الناس ، وأهمها :

أ) إن الإسلام فكرة قائمة على بعض المعانى التى لابد من فهمها ، قبل الإيمان بها والعمل بمقتضاها ، ومن المعلوم أن حركة الأفكار تحتاج إلى الحرية ، لتظهر الفكرة قولاً يسمع ومعنى يتدبر ، واتجاها يتحول إلى عمل وسلوك ، وبدون الحرية لا تجد الأفكار مجالاً تعيش فيه وتتحرك خلاله ، وإذا فقد الإنسان الاختيار الحر فإنه يتصرف ويعمل بلا اقتناع أو رضى وهذا شأن يأباه الإسلام ويمنعه .

ب) ومن الحقائق المؤكدة تشريعياً ، وعملياً ، أنه لا إكراه فى اعتناق الإسلام .

فكل النصوص الدينية تؤكد أن الإسلام يعتمد على الدليل والبرهان ، ويقوم على الرضى والاقتناع ، يقول الله تعالى ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [٢] ويقول تعالى ﴿ هُوَ

---

(١) سورة الحج الآية ٤٠

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ (١) ويقول تعالى : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ ﴾ (٢) والآيات واضحة الدلالة على أن دين الله تعالى يقوم على الإرادة الحـــرة والمشيئة الطليقة ، ولا حرج فيه أبداً .

هذا من الناحية التشريعية ، أما الناحية العملية التطبيقية فهى تؤكد أن ذلك هو ما حدث فى عالم الواقع ، و لم يتحدث المورخون أو بعضهم أن جماعة من الناس ، أو واحداً من الأفراد دخل فى الإسلام قهراً وجبراً ، وكل ما قام به المجاهدون بعد انتصارهم هو إزالة الطغاة الجاثمين ، وصيانة الأموال والأعراض ، وتيسير أمر الحياة ، وإعلان سيادة الله فى الأرض .... **هذا وفقط** ... مما أدى بالناس إلى التفكير والتدبير ، والمقارنة فدخلوا فى الإسلام طواعية واختياراً بعد فهم واقتناع .

إن الناس دخلوا فى الإسلام راضين سعداء ، ولذلك نراهم يسارعون إلى معرفة لغة الإسلام ، وحفظ القرآن الكريم والمحافظة على سنة نبيه الكريم .

ومما يؤكد الحرية فى الاقتناع ما رأيناه من إيمان القوة الغالبة المنتصرة على المسلمين المنهزمين كما حدث فى إسلام التتار ، فلقد دخلوا فى الإسلام بعد هزيمة المسلمين بعد معرفتهم بحقيقه الإسلام ، وإيمانهم بصدق وصواب ما جاء به

يقول أرنولد توينبى : إن الإسلام فى جوهره دين عقلى بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية ، وهو يعتمد الأسلوب العقلى طريقاً لإقامة العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق ، والحق أن محمداً كان متحمساً لدينه وكان يمتلك غيرة الإيمان ، ونار الاقتناع ، عرض دعوته على أنها وحى وإلهام وأن لدينه كل العلامات التى تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل (٣) .

لقد بقى الإسلام صامداً فى وجه الهجمات الاستعمارية التى استولت على العالم

---

(١) سورة الحج آية ٧٨ .

(٢) سورة الكهف آية ٢٩ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام صـــ٤٥٥

كله ، لما فيه من خير وصلاح، يؤكد هذا الأمر ما نراه دائماً من إسلام عديد من الناس وهم بين أقوام غير مسلمين وفى ثنايا قوة تحارب الإسلام ... وما ذلك إلا لاقتناعهم التام الذى جعلهم يتركون دين آبائهم ، ويهاجرون بعد إسلامهم إلى المسلمين وديار الإسلام ليقوموا بواجب الأمانة التى تحملوها بإسلامهم .

ولا يمكن القول بأن الجزية تمثل إكراهاً مادياً ، يدفع الفقراء إلى الإسلام ليبتعدوا عنها ... لا يقال ذلك لأن المسلم يدفع أضعاف هذه الجزية حين يؤدى ما عليه من واجبات دينية مثل دفع الزكاة ، وأداء صدقة الفطر ، وتحمل مغارم الكفارات العديدة ، فى الوقت الذى يعفى فيه دافع الجزية من الاشتراك فى الجهاد ، وعمليات تأمين الأمة ، بينما المسلم يقوم بذلك على وجه الوجوب والفرضية .

جـ) الجانب الباطنى فى الإنسان لا يعلمه إلا الله تعالى ، وارتباط الإيمان فى الإسلام بهذا الجانب تأكيد واضح على ضرورة الحرية للاقتناع والإيمان .

إن النفاق لا يغنى من الحق شيئاً ، والمنافق خطر على الإسلام أكثر من خطورة الكافر ، لأن المنافق عدو خفى ، والكافر عدو ظاهر ، والعدو الخفى ضرره أكثر ، وإيذاؤه أشد .

ويوم أن ظهر المنافقون فى المدينة حذر الله منهم وبين للرسول ﷺ مظاهرهـم ، ومواطن الخطر من قبلهم فقال تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [١]

والآيات واضحة الدلالة على سلوك المنافقين السيئ ، فلقد كانوا يأتون إلى النبى ﷺ ويحدثونه بألسنتهم حديثاً مخالفاً لما فى قلوبهم ، وينطقون بكلمة الحق مع أنهم لا يقرون بها ،

---

(١) سورة المنافقون الآيات من ١ إلى ٤ .

فهم كاذبون فى إقرارهم ، حيث لا ارتباط له بما فى قلوبهم .. ونراهم يسارعون إلى الأيمان الكاذبة لإبعاد التهمة عنهم ، مع أنهم بهذه الأيمان يبالغون فى الكذب ... ويتصورون أنهم خدعوا بذلك رسول الله ﷺ والمؤمنين ... إن هؤلاء المنافقين يبدون فى صورة حسنة ، وقلوبهم مملوءة بالسوء ... لهم كلام منمق ، لكنه السم الزعاف ... وهم مدركون لفعلهم ولذلك يعيشون خائفين ، يتوقعون انكشاف أمرهم فى كل لحة ولفتة .

﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (١)

وكان الوحى مع رسول الله ﷺ يعرفه بحال هؤلاء المنافقين ، ويرشده بظهور خلقهم من حديثهم ، وسلوكهم ، وبذلك أبطل تصورهم فى حسبان استمرار خداعهم فقال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴾ (٢)

هذا هو موقف الإسلام من النفاق والمنافقين قديماً وحديثاً .. ولذلك فلا قيمة للإيمان إذا لم ينبع من الباطن القلبى ... وذلك شأن لا يتحقق إلا فى إطار الحرية .. والاختيار الكريم .

د) يتكون الإسلام من أساسيات أخلاقية تعتمد على التسامح والعفو ، وحب الخير لسائر الناس مع الالتزام بالصدق والأمانة وضرورة مراعاة حقوق الآخرين ، والمحافظة على القيام بالواجب بكل دقة ... ودين هذا شأنه لا يتصور منه إهانة الإنسان فى عقله ، وفى إرادته أو فى حياته أو فى أى جانب إنسانى .

فى إطار هذه الملاحظات يعمل الجهاد ويتحرك المجاهدون ... ولذلك نرى الجهاد يحمى حرية الناس ، ويحفظ عقلهم ، ودينهم وأموالهم .

-٣-

الجهاد يصون كرامة الإنسان

كرم الله الإنسان منذ خلقه ، وسخر كل ما فى الوجود لخدمته وسعادته ، وأرسل إليه رسله وأنبياءه ليستقيموا به على المنهج الربانى السديد ... لكن الإنسان ظلم نفسه ، وبعد

---

(١) سورة المنافقون الآية ٤

(٢) سورة محمد الآية ٢٩ .

عن ربه فلعب به الهوى ، واستحوذ عليه الشيطان ، فصار عبداً لشهواته وغرائزه .

وانتهز أنصار الشر خيبة الناس فتمكنوا منهم وحولوهم إلى قطعان من العبيد ، وتحكموا فى رقابهم تحكم المالك فى غنمه ومواشيه ... ولذلك انقسم العالم إلى جزئيات متناثرة تحت سيطرة أفراد مستبدين ... وفقد الإنسان إرادته ، وضاعت كرامته .

فلما جاء الإسلام وجد هذه الفوضى فكون من المسلمين أمة مجاهدة تنشر العدل ، وتصون الأمن ، وتحقق كرامة الإنسان .

لقد شرع الله الجهاد ، وحدد وسائلة وغاياته ، وطبقة المسلمون بكل دقة وشدة حتى تحققت فى عالم الواقع كرامة إنسانية عاشها كثيرون ، كرامة لم يتصورها أحد من الناس .

لقد جاهد المسلمون بعد الهجرة أقل من عشر سنوات قاموا خلالها بأكثر من مائة غزوة وسرية ، تحملوا خلالها كثيراً من الألم والتعب ، والشهادة لكنهم حققوا فى عالم الحياة أمة عادلة منصفة .. وأزاحوا من حياة الناس مظالم الفرس والروم ، واستبداد العرب وجاهلية الفوضى والعصبية ... وأوجدوا بدل ذلك الإنسان الكريم الذى يعيش لله ، ويعمل لله ، ويموت لله ... وفى ذلك الدلالة على تكريم الجهاد للناس .

إن مقارنة أمينة بين وضعية العالم قبل الإسلام وبين وضعيته تحت سيادة الإسلام تؤكد مدى الخير الذى قدمه الإسلام للناس من كافة النواحى .

لقد نظم الإسلام حياة الناس .

- حدد حق الحاكم ومسئولياته ، وواجباته .
- وضح حقوق الناس وصان لهم النفس ، والعقل ، والعرض ، والمال ، والاعتقاد
- أرسى أسس السلوك القويم ، وأعلى مكارم الأخلاق .
- بين العقوبات الملائمة للجرائم لصيانة المجتمعات البشرية من الهمجية والعدوان .
- أعلى مقام العلم وجعله حقاً ضرورياً لكل رجل وامرأة .
- دعا إلى السعى والعمل وبذل أقصى الوسع للنجاح ويسر لذلك الطريق .
- أعطى لكل فرد ما يستحقه من جزاء وثواب تبعاً لطاقاته العقلية وإمكاناته العملية
- حدد حقوق كل من الرجل والمرأة بما يضمن لكليهما الحياة السعيدة المستقرة .

- حقق بين أفراد المجتمع تكافلاً كاملاً يحقق العدل والمساواة .

ولم يحقق الإسلام هذا فى عالم الواقع إلا بجهاد المسلمين وتضحياتهم ... وتلك هى مسئولياتهم إلى يوم القيامة .

-٤-

الجهاد يبرز إيجابية الإنسان المسلم

أبرز تشريع الجهاد حقيقة الإنسان المسلم ، فى باطنه ، وظاهره ، وخلقه .

فهو فى باطنه يسلم أمره لله ورسوله ، ويؤمن بكل ما يبلغه من الرسول ﷺ .

وليست الحياة الدنيا فى مفهوم المسلم مغنماً يحرص عليه ، وإنما هى مجال يطيع الله فيه ، ليغنم رضوان الله وجنته بعد هذه الحياة الدنيا .

إن الجهاد يبرز أعلى درجات الاستسلام والطاعة لله تعالى ، لأن المجاهد يدفع روحه لله ، ويقبل الموت راضياً به ، ليفوز برضوان الله تعالى .

إن سائر العبادات رقى فى حياة المسلم ، واستمرارية لطهارة الدنيا ، وعظمتها والهجرة من مكة إلى المدينة كانت خلاصاً من الضعف ، والقلة ، والأذى ، وانتقالاً إلى القوة ، والكثرة ، والغلبة ، والتخلص من عدوان الكفر ،وأذى المشركين ، فهى رقى دنيوى فى طاعة الله تعالى .

إن الجهاد هو بذل للمال ، وللنفس ، وترك الدنيا ، من أجل إعلاء كلمة الله وذلك كان ذروة سنام الإسلام ، وقد جعل الله المجاهدين صفوة الخلق ، وأكرمهم عنده وجدد الله حياتهم بعد استشهادهم ، وضاعف رزقهم ، وأحاطهم بالبشر ، والسرور ، يقول الله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ

ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [1].

إن التضحية لإحقاق الحق ، وإبطال الباطل شهامة وبطولة يقدم عليها العظماء من الناس .. وهى مناط إظهار إيجابية المجاهدين فى سبيل الله تعالى .

لقد قام المجاهدون بما تعلموه من رسول الله ﷺ فلم يبدأوا بعدوان ، وإنما كانوا يبدأون بعرض الإسلام وشرح أعماله ومراميه ، ودفع ما يثار حوله من شبه وافتراء ... وكانوا يعرضون الجزية يدفعها من يأبى الإسلام ليكون له العهد والذمة .

و لم يتعد المجاهدون على شيخ كبير أو امرأة أو صغير أو راهب فى صومعة أو بيعة

إن الجهاد فى الإسلام معلومة غايته ، مبينة وسيلته ، من خلال تشريعه الصريح ، وتطبيقاته فى الأمم ، التى تمتعت به ... وهو فى مجمله قوة تؤمن بالله ، وتستمد طاقتها من شريعة الله ، وتبرز غايتها المعلنه منذ أن جاء الإسلام للناس .

إن تكوين القوى الدولية التابعة للأمم المتحدة تنطلق من هذا المفهوم الذى نرجو له أن يتطابق وسمه مع رسمه وتلتقى فكرته مع واقعه ليكون عونا للضعفاء ، ومساعدة للمحتاجين .

إن المجاهد لا يطلب مجداً شخصياً ، ولا سلطاناً قومياً ، ولا استعلاء أممياً ... وإنما كل غايته تحقيق العبودية للمعبود ، وإعلاء سلطان الله فى الأمم كلها .

وبذلك فالمسلم المجاهد إنسان إيجابى يفيد الإنسانية كلها .

■ ٥ ■

الواقعية فى تشريع الجهاد

لم يغب تشريع الجهاد مطلقاً عن مصلحة الناس ، ومراعاة واقعهم العملى ، حيث رأيناه فى مكة لم يكلف المسلمين بجهاد ، وإنما أمرهم بالصبر ، والعفو لقلة عددهم وضعف

(١) سورة آل عمران الآيات من ١٦٩ إلى ١٧٤

أحوالهم ، وغلظة أعدائهم ، وفى نفس الوقت لم يوجه لوماً لمسلم ينتصر لنفسه ضد بغى وقع عليه ، إذا رأى الانتصار ممكناً ، ولا يودى إلى ضرر أكبر .

وقد تحدث الوحى عن الجهاد بالإذن فيه ، أو بالأمر به ، ليعلم أهل مكة ومن يشايعهم أن قضية الإسلام لم تنته بالهجرة إلى المدينة ، ولكن الحقيقة أن الهجرة تؤكد أن مرحلة جديدة قد بدأت ، وأنها ستكون أقوى من سابقتها، وأن الاستقامة على الحق ضرورة واجبة ، والدعوة إلى الله أمر لن يتوقف ، وأن قوة المسلمين ستكون فى خدمة الدعوة دائماً، وستبقى فى حماية الحركة بالإسلام

وقد تحقق فى عالم الواقع أن أهل مكة وقبائل العرب وغيرهم أدركوا هذا الأمر وتيقنوا أن الإسلام تحميه قوة المسلمين ، ويبلغه للعالم رجال يبذلون له كل ما يمكنهم من نفس ومال ، وعمل .

حين شرع الله للمسلمين أن يتصدوا للظلم والعدوان عرفهم أن ذلك هو الجهاد الذى كلفوا به ، فى إطار نظام متكامل يتضمن الدعوة أولاً ، ويتمسك بالخلق الحسن فى كافة مراحله ، ويملأ المجاهد بحب الجهاد ، وحب الموت فى سبيل الله .

وبإعلان الإسلام للجهاد نظاماً له منهجه ، وهدفه ، علم العرب جميعاً مدى حب المسلم لدينه ، ومدى ربطه سعادة الآخرة بعمل الدنيا ، ومدى تمنيه الموت مجاهداً فى سبيل الله تعالى ... وهذا أمر يدفع الناس إلى التفكير الجاد فى شأن الإسلام ، ورجاله، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ .

أظهر تشريع الجهاد إيجابية الإسلام فى معالجة مشاكل الناس ، فالمسلم لا يجاهد لكسب مادى ، وإنما يجاهد لضمان حرية الإنسان فى التفكير ، وصيانة عقله من الغوغائية والتسلط ، وإزاحة الظلم والاستبداد من عالم الناس ، وهذا شأن يجب أن يذكر به الجهاد الإسلامى .

إن العالم الحديث يلزم الأقوياء ، والأغنياء بمعاونة الضعفاء ، والمحتاجين فى إطار مجموعة من النظم ، والمواثيق ، والمؤسسات الدولية ، وذلك شاهد يؤكد عظمة تشريع الجهاد ، وسبق الإسلام فى تكليف المسلمين بقهر الظلم ودفع البغى ، وإزاحة الطواغيت لقد تصدى الإسلام لأناس تألهوا على الناس ، واستعبدوا البشر ، وحولوا الأحرار إلى قطعان

من الأنعام ، وأقاموا سداً يمنع نور الحق من الوصول للأفهام ... فلما جاء الإسلام ، وظهرت قوة المسلمين، انزاحت القوى المتسلطة، وتبين الرشد من الغى، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً

إن هذه الإيجابية الإسلامية معروفة مقررة ، بشهادة التاريخ ، وبشهادة الواقع يقر بها كل منصف آمين .

وقد تعرضت الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث بإدعاء أن جهادها كان ظالماً قائماً على الاعتداء والغدر : وهذا افتراء واضح لأن الجهاد الإسلامى لم يكن إلا رداً لظلم ودفعاً لعدوان ، وحماية للدعاة فى حياتهم وعملهم .

لقد أدت النتائج الأولى للجهاد إلى تحقيق حرية التفكير لسائر الناس ، وصيانة حقوقهم الضرورية المرتبطة بإنسانيتهم ، وحمايتهم ، وحماية أموالهم فى إطار تحديد ما لهم وما عليهم فى دولة الإسلام .

- ٦ -

ظهور فقه الإسلام فى الجهاد

أدى تشريع الجهاد فى الإسلام إلى ظهور الأحكام التفصيلية لأعمال الجهاد بمختلف مراحله ، وأصبح المسلمون مسئولين عن رعاية هذه الأحكام ، وتطبيقها فى عالم الواقع ، ومن هذه الأحكام :

أ) إعداد القوة لحماية البلاد والعباد ، والدين ، وذلك بتنفيذ قوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

ومن الواضح فى الآية أن إعداد القوة ، وتجهيز الجيش سبب لتحقيق السلام ، وضمان الحقوق ، لأن أعداء الحق إذا رأوا يقظة صاحب الحق يخافون منه ، ويبتعدون عن مصادمته ... ومن مسلمات الحضارة الحديثه أن الأمم الجادة تجهز جيشها ، وتعده لحماية أمنها وسلامتها ، ولذا لم يكن عجباً وجود وزارات ومؤسسات فى كل دولة

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠ .

لإعداد العدة وتجهيز القوة حماية للمصالح ، وصيانة لحقوق المواطنين من أى عـــدوان يلحق بها ، ونشر الأمن لكل خاضع لنظام الدولة وسيادتها .

ولذا كان توجيه المسلمين لإعداد القوة من بدهيات العقل ، ومسلمات العمران والتقدم ومن أساسيات ضمان الأمن وتحقيق السلام .

ب) ضرورة التهيئة النفسية ، وتقوية الجانب الروحى فى الإنسان ، لينشأ المسلم شجاعاً قوياً ، لا يخاف إلا من الله تعالى ، يقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾ [١] .

أن الخور والضعف أمام العدو يولد الهزيمة ، ويورث الوطن والأمة الذل والهوان ، ولذلك كان واجباً تربية الأمة على التحمل والصبر ، والقيام ببعض ما يكرهون فى إطار متطلبات الأمة ، ونظامها .

جـ) تعلم المجاهدون من تطبيقات الجهاد مع رسول الله ﷺ النظم العسكرية التى بها يتحقق النصر ، من حسن التخطيط ، وسعة المشاورة ، ومعرفة أسرار العدو ، ومقابلة الخصم بما يكافئه .. مع التوكل على الله ، والاستعانة به سبحانه وتعالى .

د) بينت الشريعة الإسلامية أحكام الإسلام قبل القتال عن طريق تنشيط العلاقات الدولية ، ومناقشة الخصم فى القضايا المثارة ، وعرض الإسلام عليه ، عسى أن يتحقق السلام وينتشر الأمن فى إطار حكيم حسن ، بالكلمة الحرة ، والقول الأمين ولذلك كان عرض الإسلام على الآخرين أمراً واجباً على من يتصدى لهم ويقابلهم .

هـ) تعلم المسلمون من الجهاد ، أهمية القيادة ، وضرورة طاعة القائد فيما يأمر به لأنه يوجه الجماعة وفق مرئيات لا يدركها جميع المجاهدين ولأن المواقف الصعبة والمصيرية تحتاج إلى الحسم والتنفيذ ، ويضيعها التردد ... ولذلك كانت طاعة الحاكم قضية واجبة فى ميدان الحرب ، منعاً للهزيمة والفشل .

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٥ .

و) تعلم المسلمون من الجهاد شروط مهادنة الأعداء ، وطرق التعامل معهم قبل القتال ، وأثناءه ، وبعده وأساسها العزة ، والتزام الحق ، والقيام بالواجب .

ز) استفاد المسلمون طرق التعامل مع الغنائم ، والفئ ، والأسرى كما هو مفصل فى كتب الفقه على ضوء التعاليم التى نزل الوحى بها .

ح) وأبواب الفقه مليئه بتفصيلات توضح مكانة الشهيد ، ومنزلته عند الله ، وكيفية دفنه ، والصلاة عليه .

ط) تعلم المسلمون أن النصر لا يعنى الغرور والاستعلاء وإنما هو عطاء إلهى ، وتقدير ربانى يحتاج إلى الشكر ، ومداومة الطاعة ، واستمرارية العمل لدين الله تعالى .

وهكذا ظهر فقه الجهاد من خلال تطبيقاته فى المدينة المنورة .

ـ المبحث الخامس عشر ـ
وجاء نصر الله

لما فرغ رسول الله ﷺ من فتح مكة ، وغزوة تبوك ، وأسلمت ثقيف دانت الجزيرة كلها للإسلام ، وتتابعت الأفواج تدخل فى دين الله تعالى وغدت المدينة المنورة منارة للمؤمنين يقصدها من هداهم الله تعالى ووفقهم للإسلام .

يروى البخارى بسنده عن عمرو بن سلمه ﷺ أن العرب كانت تنتظر نتيجة ما بين الرسول وأهل مكة ويقولون ، أتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبى صادق [١] .

واستمروا فى انتظارهم حتى تم الفتح فدخلوا فى دين الله أفواجا ونزل قول الله تعالى ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾[٢] .

وقد نزلت سورة النصر بعد فتح مكة بسنتين تبشر المسلمين بمجئ نصر الله ، واعتناق الناس الإسلام ، وانقياد الجزيرة العربية كلها لحكم الله تعالى .

وقد أدى هذا النصر إلى حدوث تطورات تؤكده ، وتتجاوب معه وأهمها ما يلى :

ـ أولاً ـ
تتابع مجئ الوفود إلي المدينة

تيقن العرب من انتصار الإسلام ، وآمنوا بصدقه وأحقيته فأسرعوا إلى الدخول فيه وبدأوا يرسلون وفوداً من قبلهم يمثلونهم لمبايعة رسول الله ﷺ وتعلم الإسلام ، وكان العام التاسع هو قمة هذا التحرك الشامل .

أورد ابن سعد فى الطبقات تفصيلات عن سائر الوفود التى جاءت للمدينة المنورة سواء قل عدد أفراد الوفد أو كثر ، وسواء كان مجيئها فى السنة التاسعة أو العاشرة أو قبل التاسعة أو بعد العاشرة .. وسواء أعلن الوفد إسلامه أو اتفق على دفع الجزية ، ويمكن مراجعة تفصيلات الوفود فى كتب السنة ، وفى كتب التاريخ ومؤلفات السيرة وغيرها .

---

(١) صحيح البخارى جـ٧ صـ١٧ كتاب المغازى ، باب وقال الليث حدثنى يونس

(٢) سورة النصر .

ومن أهم الوفود [1] التى جاءت إلى المدينة ما يلى :

■ ١ ■

وفد أحمس

قدم قيس بن غربة الأحمسى فى مائتين وخمسين رجلاً من أحمس فقال لهم رسول الله ﷺ " من أنتم ؟

فقالوا : **نحن أحمس الله ، وكان يقال لهم ذلك فى الجاهلية .**

فقال لهم رسول الله ﷺ : **وأنتم اليوم لله .**

وقال رسول الله ﷺ لبلال : **أعط ركب بجيلة وابدأ بالأحمسيين ، ففعل .**

■ ٢ ■

وفد أزد شنوءة

قدم على رسول الله ﷺ صرد بن عبد الله الأزدى فى وفد من الأزد مكون من بضعة عشر رجلاً فنزلوا على فروة بن عمرو ، فحباهم وأكرمهم وأقاموا عنده عشرة أيام فأسلموا ، وكان صرد أفضلهم ، فأمَّره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بهم من يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن .

■ ٣ ■

وفد أزد عمان

أسلم أهل عمان فبعث إليهم رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمى يعلمهم شرائع الإسلام ويأخذ صدقة أموالهم ، فخرج وفدهم إلى رسول الله ﷺ فيهم أسد بن بيرح الطاحى ، فلما قابلوا رسول الله ﷺ سألوه أن يبعث معهم رجلاً يقيم أمرهم ، فقال مخربة العبدى واسمه مدرك بن خوط : **ابعثنى إليهم فإن لهم على منة ، أسرونى يوم جنوب فمنوا على ، فوجهه ﷺ معهم إلى عمان .**

وقدم سلمة بن عياذ الأزدى فى أناس من قومه ، فسأل رسول الله ﷺ عما يعبد وما يدعــو إليه ، فأخبرهم رسول الله ﷺ فقال : ادع الله لى أن يجمع كلمتنا وألفتنا،

---

(١) تراجع تفصيلات الوفود فى المغازى ، والطبقات ، وزاد المعاد .

فدعا رسول الله لهم ، فلما رجع سلمة إلى قومه أسلموا وبارك الله فيهم .

٤

وفد بنى أسد

قدم عشرة رهط من بنى أسد بن خزيمة على رسول الله ﷺ فى أول سنة تسع ، فيهم حضرمى بن عامر ، وضرار بن الأزور ، ووابصة بن معبد ، وقتادة بن القائف ، وسلمة بن حبيش ، وطليحة بن خويلد ، ونقادة بن عبد الله بن خلف ، ورسول الله ﷺ فى المسجد مع أصحابه ، فسلموا وقال متكلمهم : **يا رسول الله ، إنا شهدنا ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله فقبل منهم رسول الله ، وسر بإسلامهم وأمرهم بدعوة قومهم ، وتعليمهم الإسلام وأكرم وفادقم ثم عادوا إلى ديارهم .**

٥

وفد أسلم

قدم عمير بن أفصى فى جماعة من أسلم فقالوا : **قد آمنا بالله ورسوله ، واتبعنا منهاجك فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتها فإنا إخوة الأنصار ، ولك علينا الوفاء والنصر فى الشدة والرخاء .**

فقال رسول الله ﷺ : **أسلم سلمها الله ، وغفار غفر الله لها .**

وكتب رسول الله ﷺ لأسلم ، ومن أسلم من قبائل العرب ممن يسكن السيف والسهل ، وفيه ذكر الصدقة والفرائض فى المواشى .

وكتب الصحيفة ثابت بن قيس بن سماش ، وشهد عليها أبو عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب رضي الله عنه .

٦

وفد أسيد بن أبى أناس

قال ابن عباس رضي الله عنه : أهدر رسول الله ﷺ دم أسيد بن أبى أناس لما بلغه أنه هجاه ، فأتى أسيد الطائف فأقام بها ، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة خرج سارية بن زنيم إلى الطائف .

فقال له أسيد : ما وراءك ؟

قال سارية : **قد أظهر الله تعالى نبيه ونصره على عدوة ، فأخرج يا ابن أخى إليه فإنه لا يقتل من أتاه .**

فحمل أسيد امرأته ، وخرج وهى حامل تنتظر ، وسار نحو مكة فألقت غلاما عند قرن الثعالب وأتى أسيد أهله فلبس قميصاً واعتم ، ثم أتى رسول الله ﷺ وسارية بن زنيم قائم بالسيف عند رأسه يحرسه ، فأقبل أسيد حتى جلس بين يدى رسول الله ﷺ وقال : **يا محمد أهدرت دم أسيد ؟**

قال : نعم .

قال : تقبل منه إن جاءك مؤمناً ؟

قال : نعم .

فوضع يده فى يد رسول الله ﷺ .

فقال : **هذه يدى فى يدك ، أشهد أنك رسول الله ﷺ وأشهد ألا إله إلا الله ، فأمر رسول الله ﷺ وجهه وألقى يده على صدره .**

■ ٧ ■

وفد أشجع

قدمت أشجع على رسول الله ﷺ عام الخندق وهم مائة ورأسهم مسعود بن رخيلة فنزلوا شعب سلع ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ وأمر لهم بأحمال التمر ، فقالوا : **يا محمد لا نعلم أحداً من قومنا أقرب داراً منك ، ولا أقل عدداً ، وقد ضقنا بحربك وبحرب قومك فجئنا نوادعك** ، فوادعهم ﷺ ثم أسلموا بعد ذلك .

■ ٨ ■

وفد الأشعريين

روى مسلم بسنده عن أبى هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وأضعف قلوباً والإيمان يمان ، والحكمة يمانية ، السكينة فى أهل الغنم ، والفخر والخيلاء فى الفدادين من أهل الوبر قبل مطلع الشمس [1] .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب تفاضل أهل الإيمان جـ٢ صـ٣٠

وعن جبير بن مطعم ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ فقال : **أتاكم أهل اليمن كأنهم السحاب وهم خيار من فى الأرض .**

فقال رجل من الأنصار : **إلا نحن يا رسول الله ؟ فسكت ثم قال : إلا نحن يا رسول الله ؟**

فقال ﷺ : **إلا أنتم**[1].

قال : ولما لقوا رسول الله ﷺ أسلموا وبايعوا ، فقال رسول الله ﷺ : الأشعريون فى الناس كصرة فيها مسك .

■ ٩ ■
وفد الأشعث بن قيس

قدم على رسول الله ﷺ الأشعث بن قيس فى وفد كندة فى ثمانين راكباً من كندة ، فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجده وقد رجلوا جممهم وتكحلوا عليهم جبب الحبرة ، وقد كففوها بالحرير ، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال : **ألم تسلموا ؟**

قالوا : بلى .

قال ﷺ : فما بال هذا الحرير فى أعناقكم ؟

فشقوه منها ، فألقوه .

■ ١٠ ■
وفد بارق

قدم وفد بارق على رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا وبايعوا ، وكتب لهم رسول الله ﷺ : **هذا كتاب من محمد رسول الله لبارق لا تجد ثمارهم ولا ترعى بلادهم فى مربع ولا مصيف إلا بمسألة من بارق ، ومن مر بهم من المسلمين فى عرك ، أو جدب فله ضيافة ثلاثة أيام ، وإذا أينعت ثمارهم فلابن السبيل اللقاط يوسع بطنه من غير أن يقتثم** شهد أبو عبيدة بن الجراح ، وحذيفة بن اليمان وكتب أبى بن كعب .

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٦١٩

■ ١١ ■

وفد باهلة

قدم مطرف بن الكاهن الباهلى على رسول الله ﷺ بعد الفتح وافداً لقومه ، فقال يارسول الله أسلمنا للإسلام وشهدنا دين الله فى سماواته وأنه لا إله غيره ، وصدقناك وآمنا بكل ما قلت فاكتب لنا كتابا فكتب له :

من محمد رسول الله لمطرف بن الكاهن ولمن سكن بيئة من باهلة ، إن من أحيا أرضاً مواتاً فيها مراح الأنعام فهى له ، وعليه فى كل ثلاثين من البقر فارض ، وفى كل أربعين من الغنم عتود ، وفى كل خمسين من الإبل مسنة ، وليس للمصدق أن يصدقها إلا فى مراعيها وهم آمنون بأمان الله .

ثم قدم نهشل بن مالك الوائلى من باهلة على رسول الله ﷺ وافداً لقومه ، فأسلم وكتب رسول الله ﷺ للوفد ولمن أسلم من قومهم كتاباً فيه شرائع الإسلام .

وكتبه عثمان بن عفان ﷺ .

■ ١٢ ■

وفد بنى الكائى

وفد من بنى البكاء على رسول الله ﷺ سنة تسع ثلاثة نفر على رأسهم معاوية بن ثور بن عبادة البكائى ، وهو يومئذ ابن مائة سنة ، ومعه ابن له يقال له بشر ، والفجيع بن عبد الله بن جندح بن البكاء ، ومعهم عبد عمرو ، وهو الأصم ، فأمر لهم رسول الله ﷺ بمنزلة وضيافة ، وأجازهم ، ورجعوا إلى قومهم ، وقال معاوية للنبى ﷺ : **إنى أتبرك بمسك ، وقد كبرت وابنى هذا بر بى فامسح وجهه ، فمسح رسول الله ﷺ وجه بشر بن معاوية وأعطاه أعنزاً عفراً وبرك عليهن .**

■ ١٣ ■

وفد بنى بكر بن وائل

قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله ﷺ ، فقال له رجل منهم : هل تعرف قس بن ساعدة ؟

فقال رسول الله ﷺ : ليس هو منكم ، هذا رجل من أباد تحنف فى الجاهلية فوافى عكاظاً والناس مجتمعون فكلمهم بكلامه الذى حفظ عنه .

وكان فى الوفد بشير بن الخصاصية ، وعبد الله بن مرثد ، وحسان بن حوط .

وقدم معهم عبد الله بن أسود بن شهاب بن عوف عن عمرو بن الحارث بن سدوس وكان ينزل اليمامة فباع ما كان له من مال باليمامة ، وهاجر وقدم على رسول ﷺ بجراب من تمر فدعا له رسول الله ﷺ بالبركة .

■ ١٤ ■

وفود بلى

قدم وفد من بلى فى شهر ربيع الأول سنة تسع فأنزلهم ﷺ فى منزل ببنى جديلة ، ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه فى بيته فى الغداة فسلموا عليه وتكلموا معه فقال ﷺ : **يا رويفع .**

قال : **لبيك .**

قال ﷺ : من هؤلاء القوم ؟

قال : قومى .

قال ﷺ : مرحباً بك وبقومك .

قال : **يا رسول الله ﷺ قدمنا وافدين عليك ، مقرين بالإسلام ونحن على من وراءنا من قومنا .**

فقال رسول الله ﷺ : **من يرد الله به خيراً يهده للإسلام .**

قال فتقدم شيخ الوفد أبو الضبيب فقال : **يا رسول الله إنا قدمنا عليك لنصدقك ونشهد أن ما جئت به حق ، ونخلع ما كنا نعبد ويعبد آباؤنا .**

فقال رسول الله : **الحمد لله الذى هداكم للإسلام فكل من مات على غير الإسلام فهو فى النار** (١) .

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ١ صـ ٣٣٠

■ ١٥ ■

وفود تجيب

قدم وفد تجيب على رسول الله ﷺ وهم ثلاثة عشر رجلاً ، وساقوا معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عز وجل ، فسر رسول الله ﷺ بهم وأكرم منزلهم ، وقالوا : يا رسول الله ﷺ سقنا إليك حق الله فى أموالنا .

فقال ﷺ ردوها فاقسموها على فقرائكم .

قالوا : يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل من فقرائنا .

فقال أبو بكر : **يا رسول الله ﷺ ما قدم علينا وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحى من تجيب .**

فقال ﷺ : إن الهدى بيد الله عز وجل ، فمن أراد الله خيراً شرح صدره للإيمان.

وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها ، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن ، فازداد رسول الله ﷺ فيهم رغبة ، وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم (١) .

■ ١٦ ■

وفود بنى تغلب

قدم على رسول الله ﷺ وفد بنى تغلب ستة عشر رجلاً مسلمين ونصارى عليهم صلب الذهب ، فنزلوا دار رملة بنت الحارث ، فصالح رسول الله ﷺ النصارى على أن يقرهم على دينهم ، وعلى أن لا يصبغوا أولادهم فى النصرانية وأجاز المسلمين منهم بجوائزهم .

■ ١٧ ■

وفود ثمالة والحدان

قدم عبد الله بن علس الثمالى ، ومسلمة بن هاران الحدانى على رسول الله ﷺ فى رهط من قومهما بعد فتح مكة ، فأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ على قومهم ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً بما فرض عليهم من الصدقة فى أموالهم كتبه ثابت بن قيس بن شماس ، وشهد فيه سعد ابن عبادة ، ومحمد بن مسلمة .

---

(١) المستدرك للحاكم جـ٢ صـ٦١

■ ١٨ ■

وفود جذام

وفد رفاعة بن زيد بن عمير ابن معبد الجذامى ، ثم أحد بنى الضبيب على رسول الله ﷺ فى الهدنة قبل خيبر ، وأهدى له عبداً وأسلم فكتب رسول الله ﷺ كتاباً ، **هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لرفاعة بن زيد ، إنى بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم يدعوهم إلى رسول الله فمن آمن ، وفى لفظ فمن أقبل منهم ففى حزب الله وحزب رسول الله ومن أدبر ، وفى لفظ من أبى فله أمان شهرين ، فلما قدم على قومه أجابوه وأسلموا .**

■ ١٩ ■

وفود جرم

روى ابن سعد عن سعد بن مرة الجرمى عن أبيه قال : وفد على رسول الله ﷺ رجلان منا يقال لأحدهما الأصقع بن شريح بن صريم بن عمرو بن رياح ، والآخر هوذة بن عمرو بن يزيد بن عمرو بن رياح فأسلما ، وكتب لهما رسول الله ﷺ كتاباً .

■ ٢٠ ■

وفود جرير بن عبد الله البجلى

بعث إلى رسول الله ﷺ فأتيته فقال : ما جاء بك ؟

قلت جئت لأسلم فألقى إلى كساءه وقال : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه .

فقال رسول الله ﷺ : أدعوك إلى شهادة ألا إله إلا الله وأنى رسول الله ﷺ وأن تؤمن بالله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وتصلى الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم شهر رمضان ، وتنصح لكل مسلم ، وتطيع الوالى وإن كان عبداً حبشياً .

■ ٢١ ■

وفود همدان

قدموا سنة تسع بعد مرجعة ﷺ من تبوك ، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً أقطعهم فيه ما سألوه ، وأمر عليهم مالك بن النمط ، واستعمله على من أسلم من قومه ، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام ، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه ، ثم بعث على بن أبى طالب ، وأمره أن يقفل خالداً ، فجاء على إلى همدان ، وقرأ عليهم كتاباً

من رسول الله ﷺ ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعاً ، وكتب على ببشارة إسلامهم إلى رسول الله ﷺ فلما قرأ الكتاب خر ساجداً ، ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان ، السلام على همدان .

■ ٢٢ ■

وفود فزارة

قدم هذا الوفد سنة تسع بعد مرجعه ﷺ من تبوك ، قدم فى بضعة عشر رجلاً جاؤوا مقرين بالإسلام ، وشكوا جدب بلادهم ، فصعد رسول الله ﷺ المنبر ، فرفع يديه واستسقى وقال : **اللهم اسق بلادك وبهائمك ، وانشر رحمتك ، وأحى بلدك الميت ، اللهم اسقنا غيثاً ، مغيثاً ، مريحاً ، طبقاً ، واسعاً ، عاجلاً ، غير آجل ، نافعاً غير ضار ، اللهم سقيا رحمة ، لا سقيا عذاب ، ولا هدم ولا غرق ، ولا محق ، اللهم اسقنا الغيث ، وانصرنا على الأعداء** (١) .

■ ٢٣ ■

وفد نجران

كانت وفادة أهل نجران (٢) سنة تسع ، وقوام الوفد ستون رجلاً ، منهم أربعة وعشرون من الأشراف ، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران ، أحدهم العاقب ، كانت إليه الإمارة والحكومة واسمه عبد المسيح ، والثانى السيد ، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية واسمه الأيهم أو شرحبيل ، والثالث الأسقف وكانت إليه الزعامة الدينية ، والقيادة الروحانية ، واسمه أبو حارثة بن علقمة .

ولما نزل الوفد بالمدينة ، ولقى النبى ﷺ سألهم وسألوه ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا ، وسألوه عما يقول فى عيسى عليه السلام فمكث رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ

---

(١) زاد المعاد جـ٣ صـ٦٥٣

(٢) زاد المعاد جـ٣ صـ٦٢٩

مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1] .

وقالوا : إنا نعطيك ما سألتنا ، فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية ، وصالحهم على ألفى حلة ألف فى رجب ، وألف فى صفر ، ومع كل حلة أوقية ، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله ، وترك لهم الحرية الكاملة فى دينهم ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلاً أميناً فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح ، ليقبض مال الصلح .

ثم طفق الإسلام يفشو فيهم ، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعدما رجعا إلى نجران ، وأن النبى ﷺ بعث إليهم علياً ، ليأتيه بصدقاقم وجزيتهم ، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين .

٢٤

وفد بنى حنيفة

كانت وفادقم سنة تسع وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مسيلمة الكذاب وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بنى حنيفة ، نزل هذا الوفد فى بيت رجل من الأنصار ، ثم جاؤوا إلى النبى ﷺ فأسلموا ، واختلفت الروايات فى مسيلمة الكذاب ، ويظهر بعد التأمل فى جميعها أن مسيلمة صدر منه الاستنكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة ، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ وأن النبى ﷺ أراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل أولاً ، فلما رأى أن ذلك لا يجدى فيه نفعاً تفرس فيه الشر .

٢٥

وفد بنى عامر بن صعصعة

كان فيهم عامر بن الطفيل عدو الله وأربد بن قيس أخو لبيد لأمة وخالد بن جعفر وجبار بن جعفر ، وجبار بن أسلم ، وكانوا رؤساء القوم ، وشياطينهم وكان عامر هو

---

(١) سورة آل عمران الآيات من ٥٩ إلى ٦١

الذى غدر بأصحاب بئر معونة ، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تآمر عامر وأربد ، واتفقا على الفتك بالنبى ﷺ ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبى ﷺ ، ودار أربد خلفه ، واخترط سيفه شبراً ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله وعصم الله نبيه ودعا عليهما النبى ﷺ فلما رجعا أرسل الله على أربد وجمله صاعقة فأحرقته وأما عامر فنزل على امرأة سلولية فأصيب بغدة فى عنقه فمات وهو يقول : أغدة كغدة البعير وموتاً فى بيت السلولية

وفى صحيح البخارى : أن عامراً أتى النبى ﷺ فقال : أخيرك بين خصال ثلاث : يكون لك أهل السهل ولى أهل المدر ، أو أكون خليفتك من بعدك ، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء ، فطعن فى بيت امرأة ، فقال : أغده كغدة البعير ، فى بيت امرأة من بنى فلان إيتونى بفرسى ، فركب فمات على فرسه .

- ٢٦ -

وفد طيئ

قدم هذا الوفد وفيهم زيد الخيل ، فلما كلموا النبى ﷺ ، وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم ، وقال رسول الله ﷺ عن زيد : ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ، ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه ، وسماه زيد الخير .

وهكذا ...

تتابعت الوفود من كل أنحاء جزيرة العرب ، ودخل الجميع فى دين الله أفواجاً .

وقد استعد الرسول الله ﷺ وأصحابه لاستقبال الوفود ، والترحيب بهم ورعايتهم وتزويدهم بما يحتاجون إليه فى دين الله تعالى .

- ثانيا -

نظام استقبال الوفود

وضع النبى ﷺ نظاماً حسناً فى معاملة الوفود يعتمد على النقاط التالية :

١) استقبال الوفد :

عين رسول الله ﷺ بعض أصحابة لاستقبال الوفود حين وصولهم إلى المدينة ، وتيسير معاشهم مدة إقامتهم فى مدينة رسول الله ﷺ .

٢) تهيئة مكان نزول الوفود :

أعد رسول الله ﷺ عدداً من دور المدينة لإنزال الوفود بها ، ومنها دار رملة بنت الحارث النجارية ، وهى دار واسعة ، وفيها نخيل وزروع ، وقد نزل بها وفد سلامان ، ووفد تميم بن عيينة بن حصن ، ووفد بنى كلاب ... ومنها دار المغيرة بن شعبة ، ونزل بها الأحلاف من ثقيف ، ومنها دار أبى أيوب الأنصارى ونزل بها وفد نجران ... ومنها دار يزيد بن أبى سفيان ، ونزل بها وفد همدان ... ومنها دار بلال ، وقد نزل بها ملك أيله حين قدم مع أهل الشام واليمن .

٣) إكرام الوفد :

أمر النبى ﷺ أصحابه بأن يحسنوا استقبال الوفود ، ويكرموا وفادتهم فقاموا بذلك خير قيام ، ففى طبقات ابن سعد أن وفد بنى حنيفة نزلوا دار رملة فأكلوا مرة خبزاً ولحماً ، ومرة خبزاً ولبنا ، ومرة خبزا وسمنا .

وفيه أن النبى ﷺ رحب بوفد تجيب ، وأكرمهم ، وحباهم ، وأمر بلال أن يحسن ضيافتهم ، ووفادتهم .

٤) الاستعداد للقاء الوفد :

اتخذ النبى ﷺ قبه فى المسجد النبوى يستقبل فيها الوفود ، وجعل خالد بن سعيد بن العاص لاستقبالهم ، وتهيئة لقائهم برسول الله ﷺ ويستأذن لهم عند رسول الله ﷺ .

وكان الرسول ﷺ حين يلتقى بالوفد يلبس أحسن ثيابه ، ويأمر أصحابه بذلك ، فقد لبس ﷺ وأبو بكر وعمر يوم استقبال وفد كندة حللاً يمانية وفد بنى الصحابة لرسول الله ﷺ دكة من طين يجلس عليها حين يستقبل الوفود .

٥) الاستماع للوفد أولاً :

كان الرسول الله ﷺ يستقبل الوفد ، ويستمع منه أولاً ، ليعرف موضوعه ، ومذهبه وبعد ذلك يرد عليه ، أو يكلف أحداً من أصحابه بالرد .

وكان يجيب على أسئلة الوفد ويعرض عليهم الإسلام ، ويقبل منهم الجزية ، وكان يسمع للوفد أولاً ، ثم يرد عليهم .

وأكتفى هنا بإيراد نموذجين .

النموذج الأول :

قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ وتكلم خطيبهم فقال (**الحمد لله الذى له علينا الفضل والمن ، وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكاً ، ووهب لنا أموالاً وعظاماً ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق ، وأكثره عدداً ، وأيسره عدة .**

فمن مثلنا فى الناس ؟

ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم ؟

فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك ، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا ، ثم جلس .

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن الشماس ، أخى بنى الحارث بن الخزرج : **قم فأجب الرجل فى خطبته .**

فقام ثابت فقال : **الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شئ قط إلا من فضله .**

ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى من خير خلقه رسولاً ، أكرمه نسباً وأصدقه حديثاً ، وأفضله حسباً ، فأنزل عليه كتابه وأئمنه على خلقه فكان خيرة الله من العالمين .

ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه أكرم الناس حسباً ، وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس فعالا .

ثم كان أول الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعا رسول الله ﷺ نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبداً وكان قتله علينا يسيراً .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم .

قال ابن إسحاق : فلما فرغ ثابت بن الشماس من قوله ، قال الأقرع بن حابس وأبى: إن هذا الرجل لمؤتى له لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا .

فلما فرغ القوم أسلموا ، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم .

النموذج الثانى :

قدم ضمام بن ثعلبه وافداً عن بنى سعد بن بكر ، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ فى أصحابه فقال : أيكم ابن عبد المطلب .

فقال رسول الله ﷺ : أنا ابن عبد المطلب .

قال : أمحمد ؟

قال : نعم .

قال : يا ابن عبد المطلب ، إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة ، فلا تجدن بها على فى نفسك .

قال : لا أجد فى نفسى ، فسل عما بدا لك .

قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، آلله بعثك لنا رسولاً ؟

قال : اللهم نعم .

قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟

قال : اللهم نعم .

قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس ؟

قال : اللهم نعم .

قال : ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة ، الزكاة ، والصيام ، والحج ، وشرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منهما كما ينشده فى التى قبلها حتى إذا فرغ قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتنى عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص ، ثم انصرف إلى بعيره ، راجعاً

فقال رسول الله ﷺ : إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة .

إن المواجهة الصادقة بين الوفود ورسوله الله ﷺ كثيراً ما كانت تحقق الثمار المطلوبة ، وبها انتشر الإسلام فى كل الجزيرة العربية .

٦) الإهداء للوفد :

يروى البخارى بسنده عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أوصى عند موته بثلاث منها إجازة الوفد بمثل ما كان يجيزهم .

وقد أعطى النبى ﷺ قروة بن عمرو الجذامى اثنى عشر أوقية من الفضة ، وأعطى كل واحد من وفد تميم ذلك ، وفعل ذلك مع كل من وفد عليه .

وسر هذا الإهداء أنه يولد الحب ،، ويعظم الإخلاص ويبرز حسن المعاملة .

٧) توديع الوفود :

كان النبى ﷺ يحسن توديع الوفود كما يحسن استقبالهم ، وكان يوصيهم بالدعوة ، ويبعث معهم من يعلهم القرآن إن احتاجوا إليه .

وهكذا ...

وضع رسول الله ﷺ سياسة حسنة فى التعامل مع رجال الوفود التى قدمت إليه فى المدينة المنورة لأن كل وفد يمثل قبيلته وجماعته ، فتقدير الوفد وتكريمه يعد تكريماً للقبيلة كلها .

وأيضاً فإن تأليف القلوب ، والتعامل الكريم ، وإبراز حسن الخلق من أساسيات التحرك بالدعوة ... بل هو الدعوة بعينها .

ويجب على المسلمين أن يهتموا بهذا الجانب الحيوى، وبخاصة أن العالم المعاصر تشابكت مصالحة ، وكثرت اللقاءات فيه ، وساعدت المخترعات الحديثة فى تواصل الناس ، وترابط المصالح ، وبذلك تلتقى الدعوة مع الفطرة ، ومع التقدم الحضارى الإنسانى .

ـ ثالثا ـ

حج أبى بكر رضي الله عنه

وإعلان نهاية الوثنية فى الجزيرة العربية

اقترب موسم الحج فى العام التاسع الهجرى فكره رسول الله أن يخرج للحج مع المشركين وبخاصة أنه ﷺ عقد معهم عقد أمان يوم تبوك .

إن اشتراك رسول الله ﷺ مع المشركين فى حج البيت يؤدى إلى ضرر بالمسلمين وشعائرهم ، لأن المشركين يعارضون بتلبيتهم تلبية المسلمين فإن قال المسلمون : **لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك** قال المشركون : **إلا شريكاً هو لك** ، كما أنهم يطوفون بالبيت عرايا ، ويرفعون أصواتهم بالشرك حيث يعتقدون ذلك وليس هناك ما يمنعهم من حج بيت الله .

وفى ذلك إفساد لروحانية الحج ، ومضيعة لآثاره ، كما إن اشتراك الرسول معهم فى حجهم وبدعهم يعد إقراراً لهم فيما يفعلون .

لكل ذلك كره رسول الله أن يحج معهم ، واستعمل على الحج أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليؤكد ثبات حق المسلمين فى الحج وليتعلم المسلمون الحج عملياً لأهمية العمل فى إتقان أداء النسك .

خرج أبو بكر رضي الله عنه فى ثلاثمائة رجل وعشرين بدنه قلدها ﷺ النعال وأشعرها بيده ﷺ فى الجانب الأيمن ، واستعمل عليها ناجية بن جندب الأسلمى ، وساق أبو بكر رضي الله عنه خمس بدنات ، وحج عامئذ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، فأهدى بدنا ، وأهل أبو بكر رضي الله عنه من ذى الحليفة .

وسار حتى إذا كان بالعرج فى السحر ، سمع رغاء القصواء ، فإذا على بن أبى طالب رضي الله عنه عليها فقال له أبو بكر : **قد استعملك رسول الله ﷺ على الحج ؟!!**

قال على : **لا ولكن بعثنى أقرأ سورة براءة على الناس ، فأنبذ إلى كل ذى عهد عهده** [1] وكانت عادة العرب أن القوم منهم إذا عاهد سيدهم عهداً مع غيره لا ينقضه

---

(١) المغازى جـ٣ صـ١٠٧٧ ، البداية والنهاية جـ٥ صـ٣٧

إلا هو أو أقرب الناس إليه من عصبته النسبية .

وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أبى بكر ﷺ أن يخالف المشركين : فيقف يوم عرفه بعرفه ولا يقف بجمع (مزدلفة) ولا يدفع من عرفة حتى تغرب الشمس ، ويدفع من جمع قبل طلوع الشمس ، فخرج أبو بكر ﷺ حتى أتى مكة وهو مفرد بالحج ، فخطب قبل التروية بيوم بعد الظهر ، وطاف يوم التروية حين زاغت الشمس بالبيت سبعاً ثم ركب راحلته من باب بنى شيبة ، وصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح بمنى ، ولم يركب حتى طلعت الشمس على ثبير[١] ، فانتهى إلى نمرة [٢] ، فنزل فى قبة من شعر فقال فيها ، وركب راحلته لما زاغت الشمس ، فخطب ببطن عرفة ، ثم أناخ فصلى الظهر والعصر بأذان وإقامتين ، ثم ركب راحلته فوقف بالهضاب من عرفة ، فلما أفطر الصائم دفع يسير العنق حتى نزل بجمع قريباً من النار التى على قزح[٣] فلما طلع الفجر صلى الفجر ثم وقف فلما أسفر دفع وجعل يقول فى وقوفه : **يا أيها الناس ، أسفروا** ، ثم دفع قبل الشمس ، وكان يسير بهدوء حتى انتهى إلى "محسر" [٤] فأوضع راحلته لتسرع ، فلما جاز وادى محسر عاد إلى مسيره الأول ، حتى رمى الجمرة راكباً بسبع حصيات ، ثم رجع إلى المنحر فنحر ، ثم حلق .

وقرأ على بن أبى طالب ﷺ يوم النحر عند الجمرة براءة ، ونبذ إلى كل ذى عهد عهده وقال : إن رسول الله ﷺ يقول: لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان

وخطب أبو بكر ﷺ يوم النحر بعد الظهر على راحلته ، وأقام يرمى الجمار ماشياً ذاهباً وجائياً فلما رمى يوم الصدر هو (اليوم الرابع)، وجاوز العقبة ركب ، وصلى بالأبطح الظهر والعصر وصلى بمكة المغرب والعشاء ، ثم خرج من ليلته قافلاً إلى المدينة [٥]

ولما علم العرب جميعاً بأن رسول الله ﷺ تبرأ من الشرك والمشركين ، ونقض العهود التى عاهدهم عليها .... وأعطاهم مهلة أربعة أشهر ليستريحوا فى الأرض آمنين ، ويختاروا

---

(١) ثبير مرتفع عال بمنى .

(٢) نمرة واد بجوار عرفة وهو ليس منها .

(٣) قزح المرتفع الذى يقف عليه الإمام عند المزدلفة .

(٤) محسر واد صغير يقع بين المزدلفة ، ومنى يستحب الإسراع حين المشى فيه .

(٥) المغازى جـ٣ صـ١٠٧٨

لأنفسهم ما يريدون.

لما حدث ذلك أقبل على الإسلام من كان متردداً ... فأسلم مشركو مكة ... وأقبلت وفود معان ، وغسان من الشمال ، وغامد ، ونجران من الجنوب وهكذا جاءت الوفود من الأماكن النائية لتعلن تمام إسلام الجزيرة كلها ودخول أبنائها فى دين الله تعالى

■ رابعاً ■

حجة الوداع

وتحديد المعالم الكبرى فى الإسلام

ثم كانت حجة الوداع ، ويقال لها : حجة الإسلام ، وحجة البلاغ ، وحجة التمام وقد أجمع ﷺ الخروج فى ذى القعدة سنة عشر من مهاجره وقد أسلمت جزيرة العرب ومن شاء الله من أهل اليمن ، فصلى الظهر بمسجد المدينة أربعاً ، وأذن فى الناس بالحج ، فقدم المدينة بشر كثير يريدون أن يأتموا برسول الله ﷺ ويعملوا بعمله ، وسار من المدينة متدهنا مترجلاً يوم السبت لخمس بقين من ذى العقدة ، ومعه أزواجه ، وأهل بيته ، وعامة المهاجرين ، فلما انتهى إليه اجتماع أصحابه والهدى دخل مسجد ذى الحليفة فصلى العصر ركعتين [١] ، ثم خرج فدعا بالهدى فأشعره فى الجانب الأيمن بيده ووجهه إلى القبلة ، وقلده نعلين نعلين ثم ركب ناقته ، فلما استوى بالبيداء أحرم [٢].

وساق مائة بدنة وأمر ناجية بن جندب أن يشعر ما فضل من البدن ، واستعمله على الهدى ، وكان مع ناجية بن جندب فتيان من أسلم ، وكانوا يسوقونها سوقاً ويتبعون بها الرعى ، وعليها الجلال ، فقال ناجية بن جندب : **يا رسول الله ! أرأيت ما عطب منها كيف أصنع به ؟ قال ﷺ : تنحره وتلقى قلائده فى دمه ، ثم تضرب به صفحته اليمنى ، ثم لا تأكل منه ولا أحد من أهل رفقتك .**

وأمر من كان معه هدى أن يهل كما أهل ، وسار وبين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله أمم لا يحصون كثرة : كلهم قد قدموا ليأتموا به ﷺ ويقال : كان معه تسعون ألفاً ، ويقال: مائة وأربعة عشر ألفاً ، ويقال أكثر من ذلك .

---

(١) صحيح البخارى كتاب الحج باب ما يلبس المحرم .

(٢) صحيح مسلم كتاب الحج باب تقليد الهدى .

ومر ﷺ برجل يسوق بدنة ، فقال : **اركبها ، ويلك !**

قال : إنها بدنة .

قال : اركبها وكان يأمر المشاة أن يركبوا على بدنهم .

وطيبته عائشة رضى الله عنها لإحرامه بيدها ، وأحرمت وتطيبت ، فلما كانــوا بالقاحة سال من الصفرة على وجهها ، فقال : ما أحسن لونك الآن يا شقيراء .

وكان يصلى بين مكة والمدينة ركعتين أمثالاً لا يخاف إلا الله ، فلما قدم مكة صلى بهم ركعتين ثم سلم وقال : **أتموا صلاتكم يا أهل مكة فإنا سفر** .

وأصبح ﷺ يوم الأحد بيلملم [١]، ثم راح فتعشى بشرف السيالة[٢] وصلى المغرب والعشاء ، ثم صلى الصبح بعرق الظبية : بين الروحاء والسيالة ، وهو دون الروحاء ، ثم نزل الروحاء ، فإذا بحمار عقير فقال : دعوه حتى يأتى صاحبه ، فأهداه له ﷺ ، فأمر به أبا بكر رضي الله عنه فقسمه بين الصحابة ، وقال : صيد البر لكم حلال إلا ما صدتم أو صيد لكم ، ثم راح من الروحاء فصلى العصر بالمنصرف ، وصلى المغرب والعشاء بالمتعشى وتعشى به ، وصلى الصبح بالأثاية ، وأصبح يوم الثلاثاء بالعرج .

ولما انتهى إلى الثنيتين بات بينهما بين كداء وكدى ثم أصبح فاغتسل ودخلها نهار الاثنين من ذى الحجة من أعلاها حتى انتهى إلى باب بنى شيبة ، فلما رأى البيت رفع يديه ، فوقع زمام راحلته فأخذه بشماله ، ثم قال حين رأى البيت : **اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من عظمه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة وبراً** [٣] .

ولما دخل المسجد بدأ بالطواف قبل الصلاة .

وطاف راكباً على راحلته ، فلما انتهى إلى الركن استلمه وهو مضطبع بردائه ، وقال: **بسم الله والله أكبر** ، ثم رمل ثلاثة من الحجر إلى الحجر ، وكان يأمر من استلم الركن أن يقول : **بسم الله والله أكبر إيماناً بالله ، وتصديقاً بما جاء به محمد ﷺ** ، وقال

---

(١) يلملم على مسيرة يومين من مكة عند الطائف ، وهو ميقات أهل اليمن .

(٢) السيالة موضع بين مكة والمدينة .

(٣) زاد المعاد جـ٢ صـ٢٢٤

فيما بين الركن اليمانى والأسود ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[(١)] .

و لم يستلم من الأركان إلا اليمانى والأسود ومشى أربعة أشواط على مهل .

ثم انتهى خلف المقام فصلى ركعتين يقرأ فيهما ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[(٢)] و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[(٣)] ثم عاد إلى الركن فاستلمه .

وقال لعمر ﷺ : **إنك رجل قوى ، إن وجدت الركن خالياً فاستلمه ، وإلا فلا تزاحم عليه فتؤذى .**

وقال لعبد الرحمن بن عوف ﷺ : **كيف صنعت بالركن يا أبا محمد ؟**

فقال : استلمت وتركت .

قال : أصبت .

ثم خرج إلى الصفا من باب بنى مخزوم ، وقال : **أبدأ بما بدأ الله به وسعى** على راحلته فصعد على الصفا فكبر سبع تكبيرات ، وقال : **لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شئ قدير ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده** ، ثم دعا بين ذلك ، ونزل إلى المروة ، فلما انصبت قدماه فى الوادى رمل وقال فى المشى : **أيها الناس ، إن الله كتب عليكم السعى فاسعوا ، وسعى حتى انكشف إزاره عن فخذه** ، وقال فى الوادى : **رب اغفر وارحم ، وأنت الأعز الأكرم** ، فلما انتهى إلى المروة فعل عليها مثل ما فعل على الصفا ، فبدأ بالصفا وختم بالمروة .

وأقام بمكة يوم الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وكان يوم التروية يوم الجمعة ، فخطب قبل التروية بيوم بعد الظهر بمكة ، وقام يوم التروية بين الركن والمقام ، فوعظ الناس وقال : **من استطاع أن يصلى الظهر بمنى فليفعل ، فصلى فى حجته هذه صلاة أربعة أيام وهو مقيم بمكة حتى خرج إلى منى .**

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠١

(٢) سورة الكافرون الآية ١

(٣) سورة الإخلاص الآية ١

وركب حين زاغت الشمس فى يوم التروية ، بعد أن طاف بالبيت فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح بمنى .

ثم أصبح فسار إلى عرفة ، و لم يركب من منى حتى رأى الشمس قد طلعت ، فركب إلى عرفة ، ونزل بنمرة ، وقد ضرب له بها قبة من شعر ، ويقال : إنما قال إلى فئ صخرة ، وميمونة رضى الله عنها تتبع ظلها حتى راح ، وأزواجه فى قباب خز فلما كان حين زاغت الشمس أمر براحلته القصواء ، فرحلت برحل رث وقطيفة لا تسوى أربعة دراهم ، فلما توجه قال : **اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة** ، ثم أتى بطن عرنة ، وكانت قريش لا تشك أنه لا يتجاوز المزدلفة يقف بها ، فقال نوفل بن معاوية الديلمى وهو يسير إلى جنبه : **يا رسول الله ظن قومك أنك تقف بجمع .**

فقال ﷺ : **لقد كنت أقف بعرفة قبل النبوة خلافاً لهم .**

وكانت قريش كلها تقف بجمع إلا شيبة بن ربيعة من بينهم فإنه كان يقف بعرفة .

وخطب ﷺ حين زاغت الشمس ، ببطن عرنة على ناقته فلما كان آخر خطبته أذن بلال وسكت ﷺ من كلامه ، فلما فرغ بلال من أذانه تكلم بكلمات ، وأناخ راحلته ، وأقام بلال فصلى عليه السلام الظهر ، ثم أقام العصر : جمع بينهما بأذان وإقامتين ، ثم ركب ، وهو يشير بيده إلى الناس : ارتفعوا إلى عرفة ، وكان من خطبته بعرفة قبل الصلاتين :

أيها الناس إنى والله ما أدرى لعلى لا ألقاكم بمكانى هذا ، بعد يومكم هذا ، رحم الله امرءا سمع مقالتى فوعاها ، فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، واعلموا أن أموالكم ودماءكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، واعلموا أن الصدور لا تغل على ثلاث ، إخلاص العمل لله ، ومناصحة أهل الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم ، ألا إن كل شئ من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، وأول دماء الجاهلية أضع دم إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب كان مسترضعاً فى بنى سعد بن بكر فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع كله ، وأول ربا أضعه ربا عباس بن

عبد المطلب ، اتقوا الله فى النساء إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن عصيتم به : كتاب الله ، وأنتم مسؤولون عنى ، فما أنتم قائلون ؟

قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، ثم قال بإصبعه السبابة يشير إلى السماء يرفعها ويكبها ثلاثاً : اللهم اشهد .

ووقف على راحلته حتى غربت الشمس يدعو ونزل عليه وهو واقف بعرفة قوله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

ومال إلى شعب الأذاخر ، عن يسار الطريق بين المأزمتين فقضى حاجته ، و لم يصل حتى نزل قريباً من الدار التى على قزح ، وصلى المغرب والعشاء بالمزدلفة بأذان واحد لهما ، وبإقامتين ، لكل صلاة منهما إقامة ، و لم يسبح بينهما ، ولا أثر واحدة منهما ، فلما كان فى السحر **أذن لمن استأذنه من أهل الضعف من الذرية والنساء فى التقدم من جمع قبل** حطمة الناس وحبس نساءه حتى دفعن بدفعه حين أصبح ، فرمى الذين تقدموا الجمرة قبل الفجر أو مع الفجر .

ولما برق الفجر صلى عليه السلام الصبح ، ثم ركب راحلته ووقف على قزح .

وأردف الفضل بن العباس من مزدلفة إلى منى ، وقال هذا الموقف وكل المزدلفة موقف ، وحمل حصى العقبة من المزدلفة ، وأوضع فى وادى محسر و لم يقطع التلبية حتى رمى الجمرة ورمى جمرة العقبة يوم النحر على ناقته، بلا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك .

ولما انتهى إلى المنحر قال : **هذا المنحر ، وكل منى منحر ، وكل فجاج مكة طريق ومنحر** ، ثم نحر بيده ثلاثاً وستين بدنه بالحربة ، ثم أعطى رجلاً فنحر ما بقى .

ولما فرغ من نحر الهدى دعا الحلاق فحلق .

---

(١) سورة المائدة الآية ٣

وخطب فى حجته ﷺ ثلاث خطب : الأولى قبل التروية بيوم بعد الظهر بمكة ، والثانية يوم عرفة بعرفة بعد الظهر على راحلته القصواء ، والثالثة يوم النحر بعد الصلاة ، وكانت خطبة يوم النحر أطولها وأهمها ، لأنه ﷺ وضح فيها المعالم الكبرى فى الإسلام وهو يودع أصحابه عند الموقف العظيم ، وهذا نص خطبة النحر كما ذكرها ابن هشام والمقريزى وغيرها .

" أيها الناس ! اسمعوا من قولى واعقلوه ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا أيها الناس ! أى شهر هذا ؟ فسكتوا .

فقال : هذا شهر حرام .

وأى بلد هذا ؟ فسكتوا ، فقال : بلد حرام .

وأى يوم هذا ؟ فسكتوا قال : يوم حرام .

ثم قال : إن الله حرم دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم ، حرمة شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى يومكم هذا إلى أن تلقوا ربكم ، ألا هل بلغت !

قالوا : نعم .

قال : اللهم اشهد !

ثم قال : إنكم سوف تلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا هل بلغت ؟

قال الناس : نعم !

قال : اللهم اشهد ! ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، ألا وإن كل ربا فى الجاهلية موضوع ، وإن كل دم فى الجاهلية موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وأول دمائكم أضع دم إياس بن ربيعة بن الحارث ، كان مسترضعاً فى بنى سعد بن ليث فقتلته هذيل ، ألا هل بلغت ؟

قالوا : اللهم نعم !

قال : اللهم اشهد ! فليبلغ الشاهد الغائب ، ألا إن كل مسلم محرم على كل مسلم ، ولا يحل مال امرئ مسلم إلا ما أعطى عن طيب نفس .

فقال عمرو بن يثربي : يا رسول الله ! أرأيت إن لقيت غنم ابن عمى اجتزر منها شاة ؟

فقال : إن لقيتها نعجة تحمل شفرة وأزناداً بخبت الجميش فلا تهجها .

ثم قال : أيها الناس ! ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾[1] .

يحرمون ما أحل الله ، ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله منها أربعة حرم : ثلاثة متوالية: ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى يدعى شهر مضر : الذى جاء بين جمادى الآخرة وشعبان ، والشهر تسعة وعشرون وثلاثون ، ألا هل بلغت ؟

فقال الناس : نعم

فقال : اللهم اشهد .

ثم قال : أيها الناس إن للنساء عليكم حقاً ، وإن لكم عليهن حقاً : فعليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً ولا يدخلن بيوتكم أحداً تكرهونه إلا بإذنكم ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وأن تضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟

قال الناس : نعم !

قال : اللهم اشهد .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرونه من أعمالكم ، إن المسلم أخو المسلم ، وإنما المسلمون إخوة ، ولا يحل لامرئ مسلم دم أخيه ولا ماله إلا بطيب نفس منه ، وإنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم ، وحسابهم على الله ، ولا تظلموا أنفسكم ، ولا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، إنى قد

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٧

تركت فيكم مالا تضلون به : كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟

قال الناس : نعم .

قال : اللهم اشهد [(١)].

وقد تضمنت الخطبة القضايا التالية :

١) بيان ما لمكة وأشهر الحج ويوم النحر من حرمة تدعو المسلم إلى المحافظة عليها.

٢) تحريم العدوان على المسلم وضرورة المحافظة على كيانه الإنسانى الكامل ، وأن حرمة الإنسان لا تقل عند الله عن حرمة مكان الحج وزمنه ويومه .

٣) توضيح إطار المسئولية الدينية التى يلتزم الإنسان بها فى صدق وأمانة وإخلاص بعيداً عن المحسوبية ، والعنصرية والمحاباة .

٤) ضرورة الفصل التام بين ما كان فى الجاهلية وما جاء به الإسلام ، فلا استمرار لعادة ولا تقدير لحكم سابق إن خالفة الإسلام أو هدمه .

٥) الزمان ثابت لا يتغير وهو يدور مع الأيام والشهور ولا يصح تغييره للهوى والعبث .

٦) بيان أن المرأة صنو الرجل فى المسئولية والجزاء ، ولهن حقوقهن فى إطار خلقتهن وعلى الرجل أن يحترم فى المرأة إنسانيتها ، وأن يتقى الله تعالى وهو يعاملها .

٧) على المسلمين أن يعلموا أن عدوهم الأكبر هو إبليس اللعين ، وهم مكلفون بمقاومته والحذر من ألاعيبه .

٨) وكان ﷺ يشهد الناس عن كل قضية يذكرها لهم ويبرئ ذمته أمام ربه ويناديه اللهم فاشهد .

٩) حمل رسول الله ﷺ المسئولية للمسلمين ، وأشهد الله على أنه أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة .

وبذلك وضح للمسلمين أهم ما يحتاجون إليه من توجيهات ودروس .

---

(١) إمتاع الأسماع جـ١ صـ٥١٠ إلى ٥٣٢ سيرة النبى لابن هشام جـ٢ صـ٦٠٣ ، ٦٠٤

- خامساً -
آخر بعوث النبى ﷺ
بعث أسامة

كبر على الرومان أن ينضم اتباعهم السابقون من عرب الشمال إلى ركب الإسلام واتباع محمد ﷺ فأخذوا فى اضطهاد من يعلن إسلامه ، وقتلوا وإلى " معان " بعد دخوله فى الإسلام وانضمامه إلى المسلمين ... فكان لابد من تلقين الرومان درساً يعلمون به أن محمداً لن يترك أتباعه ، ويدركون أن عاقبة عدوانهم ستنقلب عليهم ... وأن مصلحتهم فى تجنب معاداة المسلمين ، وعدم الاستهانة بهم وبدينهم فأخذ ﷺ فى أوائل العام الحادى عشر بتجهيز جيش ضخم وأمر عليه الصحابى " أسامة بن زيد " ﷺ و لم يبلغ بعد الثامنة عشرة ، وجعل فى الجيش كبار الصحابة ... وأمر ﷺ أسامة أن يطأ أرض الروم ولا يتعمق فى المسير لتحقيق هدف واضح يؤدى إلى إرهاب الروم ، ويمنعهم من العدوان على المسلمين والتعدى على بلادهم ... وقد تم تجهيز الجيش ، واستعد للرحيل ، وشاءت إرادة الله تعالى أن تكون حركته فى أول عهد أبى بكر ﷺ بعدما لقى رسول الله ربه فى هذه الأثناء .

ولعل من أوضح دروس هذا البعث تولية أسامة إمارة الجيش ليكون درساً للشباب الإسلامى ليعلموا دورهم فى بناء الأمة ، وتيقنوا من أهميتهم فى المحافظة على قوتها ... وقد انضم كبار الصحابة إلى جيش أسامة طاعة لرسول الله ﷺ ، وحباً فى الجهاد ، وإبقاء لضرورة طاعة أمر الله ورسوله على الزمن كله ، وتقديم النص الصريح على أى اجتهاد عقلى مهما كانت دقته ووضوحه .

وسيأتى تفصيل بعث أسامة حين نتناول بالدراسة تاريخ الدعوة فى عهد أبى بكر ﷺ .

ـ المبحث السادس عشر ـ
انتقال الرسول إلي الله تعالي

أسلمت الجزيرة كلها ، وأخذ الفرس والروم فى تفهم الإسلام والتعامل معه ... وتأكدت حقائق الدين بكل جوانبه ، فتمت مصادره ، وتحددت معالمه ، ونزل كل ما يحتاجه الإسلام من وحى الله تعالى ولذلك نزل قوله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (١)

وقوله تعالى ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾(٢) .

وقد فهم كثير من الصحابة أن هاتين الآيتين فيهما نعى رسول الله (٣) وإخبار بقرب انتقاله ﷺ إلى الله تعالى ، لأن الرسالة هى غاية مجئ محمد ﷺ إلى الدنيا ، فإذا ما كملت الرسالة وتم الدين ونزل ما رضيه الله للناس لم يعد هناك داع لبقاء رسول الله ﷺ فى الحياة بين الناس .

وقد أعد الله الأمة لتقبل رحيل رسول الله ﷺ فدارس حبريل عليه السلام محمداً ﷺ بالقرآن فى رمضان الأخير مرتين ، وكان يدارسه قبل ذلك فى كل رمضان مرة واحدة .

وعلّم النبى أصحابه على إدارة شئون الحياة ، والمحافظة على الإسلام ، والحركة بالدعوة عن طريق قيادة السرايا ، وإدارة شئون المدينة ، وإقامة الصلاة ، والدعوة إلى الإسلام فرادى وجماعات ، فى إطار تعاليم الله الثابته ، ومنهجه الذى يحرص المسلمون على تطبيقه ، وصيانته من كل عبث ، والدفاع عنه ضد كل معتد أثيم .

وبكل هذا أدى الرسول وظيفته ، وأتم الغاية التى خلق لها ، ووصل إلى النهاية .

وجاء وقت الرحيل ، فاعتكف ﷺ فى رمضان من العام العاشر عشرين يوماً وكان يعتكف قبل ذلك عشراً ، وجاءه جبريل فدارسه القرآن مرتين ، وكان يدارسه

---

(١) سورة المائدة الآية ٣

(٢) سورة النصر .

(٣) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض رسول الله جـ٧ صـ٩٣

قبل ذلك مرة واحدة ، وقال لأصحابه فى حجة الوداع : **إنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ... وكرر ذلك .**

يقول ابن مسعود : نعى إلينا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر ، حين دنا الفراق جمعنا فى بيت عائشة رضى الله عنها ، فنظر إلينا فشدد ودمعت عيناه وقال : **مرحباً بكم ، حياكم الله ، رحمكم الله ، آواكم الله ، حفظكم الله ، رفعكم الله ، وفقكم الله ، سلمكم الله ، قبلكم الله ، أوصيكم بتقوى الله ، وأوصى الله بكم ، واستخلفه عليكم ، وأؤديكم إليه ، إنى لكم منه نذير وبشير ألا تعلو على الله فى عباده ، وبلاده فإنه قال لى ولكم ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾** (١) .

قلنا : فمتى أجلك ؟

فقال ﷺ : دنا الفراق والمنقلب إلى الله وسدرة المنتهى والرفيق الأعلى وجنة المأوى

فقلنا : من يغسلك ؟

فقال : أهلى .

قلنا : فيم نكفنك ؟

قال : فى ثيابى أو فى بياض .

قلنا : فمن يصلى عليك ؟

قال : مهلاً ، غفر الله لكم ، وجزاكم عن نبيكم خيراً ، فبكينا وبكى ، ثم قال : ضعونى على سريرى على شفير قبرى ، ثم اخرجوا عنى ساعة ليصلى على جبرائيل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت مع الملائكة ، ثم ادخلوا على فوجاً فوجاً فصلوا على ولا تؤذونى بتزكية ولا رنة ، أقرئوا أنفسكم منى السلام ، ومن غاب من أصحابى فأقرئوه منى السلام ، ومن تابعكم على دينى فأقرئوه السلام (٢).

وفى أوائل صفر من العام الحادى عشر للهجرة خـــرج النبى ﷺ إلى جبل أحـــد

---

(١) سورة القصص الآية ٨٣

(٢) الكامل فى التاريخ جـ٢ صـ٣١٩

ليودع الأموات كالأحياء ، ثم خطب فى أصحابه وقال : **إنى بين أيديكم فرط ، وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض ، وإنى أنظر إليكم من مقامى هذا ، وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدى ، ولكنى أخاف عليكم أن تنافسوها** [١] .

وفى ليلة من ليالى صفر من نفس العام خرج إلى البقيع وخاطب الموتى قائلاً : **السلام عليكم يا أهل المقابر ليهن عليكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى** [٢] **... وإنا بكم للاحقون ولما رجع ﷺ من البقيع وجد عائشة تشكو ألما وتقول وارأساه .**

فقال ﷺ : **بل أنا والله يا عائشة وارأساه ، وما ضرك لو مت قبلى فقمت إليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك .**

قالت رضى الله عنها : **والله لكأنى بك لو فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك .**

فتبسم رسول الله ﷺ ، ونام به وجعه وهو يدور على نسائه ، حتى اشتد عليه المرض وهو فى بيت ميمونة [٣] .

وفى يوم الاثنين التاسع والعشرين من صفر بدأ مرض رسول الله ﷺ الأخير الذى استمر أربعة عشر يوماً .

ولما ثقل المرض برسول الله ﷺ أخذ يسأل : **أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً ؟** [٤]

يستعجل يوم عائشة رضى الله عنها ففهم الصحابة ، وفهمت أمهات المؤمنين مراد النبى ﷺ بسؤاله فأذن له أن يستمر عند عائشة مدة مرضه ... فانتقل ﷺ إلى بيت عائشة يمشى بين الفضل بن عباس وعلى بن أبى طالب وذلك بعد مرضه بسبعة أيام [٥].

ثم إنه ﷺ خرج يوماً بين العباس وعلى حتى جلس على المنبر فحمد الله تعالى ثم قال :

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب المغازى باب غزوة أحد جـ٦ صـ٢٨٦

(٢) الكامل جـ٢ صـ٣١٨

(٣) الكامل لابن الأثير جـ٢ صـ٣١٨

(٤) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى ﷺ جـ٧ صـ١٠٢

(٥) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى ﷺ جـ٧ صـ٩٨

أيها الناس إنه قد دنا منى حقوق من بين أظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخش الشحناء من قبلى فإنها ليست من شأنى ، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ منى حقاً إن كان له أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس ، ثم نزل فصلى الظهر ثم رجع إلى المنبر فعاد لمقالته الأولى ، فادعى عليه رجل بثلاثة دراهم ، فأعطاه عوضها ، ثم قال : أيها الناس من كان عنده شئ فليؤده ولا يقل فضوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الأخرة ، ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم ، ثم قال : إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده [١] .

وفى يوم الأربعاء قبل وفاته بخمسة أيام قال : مروا أبا بكر فليصل بالناس .

فقالت عائشة يا رسول الله : إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصل بالناس ، ثم ذهبت لحفصة وقالت لها : قولى لرسول الله إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصل بالناس ، ففعلت حفصة ، فقال رسول الله ﷺ : مه إنكن لأنتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس[٢] .

ثم إن النبى ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بين العباس وعلى لصلاة الظهر وأبو بكر يصلى بالناس ، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأومأ إليه النبى ﷺ أن لا تتأخر وقال لهما: اجلسانى إلى جنبه فأجلساه إلى جنب أبى بكر الأيسر ، فكان أبو بكر يصلى وهو قائم بصلاة النبى ﷺ والناس يصلون بصلاة أبى بكر[٣].

وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما أنه لما نزل برسول الله ﷺ المرض طفق يطرح خميصة على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها ، فقال ﷺ وهو كذلك : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " يحذر ما صنعوا .

وقال ﷺ " قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " يحرم ذلك على أمته .

---

(١) الكامل جـ٢ صـ٣١٩

(٢) سيرة النبى جـ٢ صـ٦٥٢

(٣) سيرة النبى جـ٢ صـ٦٥٣

تقول عائشة : **ولولا ذلك لأبرز قبره ، غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً** [١].

وعن ابن عباس أن على بن أبى طالب خرج من عند رسول الله ﷺ فى وجعه الذى مات فيه فسأله الناس : **يا أبا حسن كيف أصبح رسول الله ؟**

فقال : **أصبح بحمد الله بارئاً**

فأخذ العباس بن عبد المطلب بيد على وقال له : يا على أنت والله بعد ثلاث عبد العصا ، وإنى والله لأرى رسول الله يتوفى من وجعه هذا ، إنى لأعرف بنى عبد المطلب عند الموت اذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمن هذا الأمر بعده ؟ إن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا علمناه فأوصى بنا .

فقال على : **إنا لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس من بعده ، وإنى والله لا أسألها رسول الله** [٢].

وقال رسول الله ﷺ لعائشة : **ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم** [٣].

يقول ابن إسحاق : **فكان المسلمون يرون أن رسول الله مـــات شهيـــداً ، مع ما أكرمه الله به من النبوة .**

تقول عائشة رضى الله عنها : **لَدَدْنا** (رسول الله) **ﷺ فى مرضه ، فجعل يشير إلينا أن لا تلدونى ، فقلنا : يقول ذلك كراهية المريض للدواء ، فلما أفاق قال : ألم أنهكم أن تلدونى ؟**

قلنا : فهمناه كراهية المريض للدواء .

فقال ﷺ : **لا يبقى أحد فى البيت إلا لد قصاصاً وأنا أنظر ، فلدوا جميعاً إلا العباس فإنه لم يشهد معهم .**

وزاد ألم المرض برسول الله ﷺ فى يوم الخميس قيل وفاته بأربعة أيام .

يقول ابن عباس ﷺ: **يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتد برسول الله وجعه فقال :**

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى ﷺ جـ٧ صـ٩٩

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى ﷺ جـ٧ صـ١٠٠

(٣) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى ﷺ جـ٧ صـ٩٣

ائتونى أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً ، فتنازعوا ، ولا ينبغى عند نبى تنازع .

فقال عمر : **إن رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب كتاباً لا تضلوا بعده ، ومنهم من يقول : غير ذلك .**

فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال ﷺ : **قوموا عنى** ، فكان ابن عباس يقول : **إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب ذلك الكتاب وذلك لاختلافهم ولغطهم** [١] .

ويجب أن يكون واضحاً أن ما أراد رسول الله كتابته كان أمراً عادياً لأنه لو كان من واجبات الشريعة لكتبه ﷺ بلا تأثر بكلام عمر أو بكلام غيره لسابق حسمه فى أمور الدين ، وأيضاً فقد سبق ذلك إعلان تمام الدين وكماله .

وحكمة الله فى عدم كتابة أمر فى هذا الوقت واضحة منعاً لمن يقول : إن المريض قد يختلف عليه عقله إذا اشتد مرضه .

فإذا ما تصورنا أنه ﷺ كان يريد أن يعهد لأبى بكر ﷺ فى الكتاب الذى كان يريده كما رجح البعض فإنه دليل على ثانوية الأمر ، وحتى يبقى هذا الشأن شورى بين المسلمين لم يغيره ﷺ كلام عمر ولا غيره .

وكان ﷺ قد قال لعائشة فى مرضه هذا : **لقد هممت أن أبعث إلى أبيك وأخيك فأكتب كتابا وأعهد عهداً لئلا يتمنى متمن أو يقول قائل: أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر ، فلم يكن والله أعلم الكتاب الذى أراد أن يكتب إلا فى استخلاف أبى بكر .**

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفّس على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده ، فلما اشتكى وجعه الذى مات فيه طفقت أنفس عنه بالمعوذات التى كان ينفس ، وأمسح بيد النبى ﷺ عنه لبركتها .

ولما كان يوم الإثنين والناس فى صلاة الفجر وأبو بكر يصلى لهم لم يفاجأهم إلا رسول الله يكشف ستر حجرة عائشة ، فنظر إليهم وهم صفوف فى الصلاة ، ثم تبسم

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى جـ٧ صـ٩٤

يضحك سروراً باستقامة أمر الناس وإخلاصهم مع الدين لله وهو ليس معهم، فنكص أبو بكر على عقبية ليصل الصف ، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة ، وهم الناس أن يفتنوا فى صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده رسول الله أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر [١] ، و انصرف الناس وهم يرون أن رسول الله ﷺ قد أفاق من وجعه فرجع أبو بكر إلى أهله بالسنح حيث كان مسكنه .

ومع هذا التصور الذى شعر به المسلمون بعد صلاة الفجر كانت هى الصلاة الأخيرة لرسول الله ﷺ حيث توفى صباح يوم الاثنين وهو عند عائشة رضى الله عنها .

تقول عائشة : **إن من نعم الله على أن رسول الله توفى فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى ، وأن الله جمع بين ريقى وريقه ، ودخل على عبد الرحمن وبيده سواك وأنا مسندة رسول الله إلى صدرى فرأيته ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فتناوله فاشتد عليه ، وقلت : ألينه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم، فلينته بأمره فاستن به وهو مستند إلى صدرى، وبين يديه ركوة فيها ماء فجعل يدخل يده فى الماء فيمسح بها وجهه ويقول: لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات** [٢] .

وكان رسول الله ﷺ يقول : إنه لن يقبض نبى قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يُحَيًّا أو يخير ، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشى عليه ، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال : اللهم اغفر لى وارحمنى ، وألحقنى بالرفيق الأعلى مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين اللهم الرفيق الأعلى فكان آخر كلمة تكلم بها : اللهم الرفيق الأعلى [٣] .

فلما رأت عائشة رضى الله عنها شدة الموت التى لحقت برسول الله ﷺ قالت : **فلا أكره شدة الموت لأحد بعد رسول الله ﷺ** [٤].

ولم يترك النبى ﷺ مالا ، وخرج من الدنيا وهو مدين يقول عمرو بن الحارث: ما ترك

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى جـ٧ صـ١٠١

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى ﷺ جـ٧ صـ٩٦

(٣) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى ﷺ جـ٧ صـ٩٩

(٤) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى ﷺ جـ٧ صـ١٠٥

النبى ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها ، وسلاحه وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة .

وعن عائشة : توفى رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعاً من شعير [١]

وعن أنس بن مالك قال : لما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه ، فقالت فاطمة : واكرب أباه فقال لها ﷺ : ليس على أبيك كرب بعد اليوم ، فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب ربا دعاه ، يا أبتاه مَنْ جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه .

فلما دفن قالت فاطمة : **يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله التراب** [٢]؟

وعن عائشة قالت : دعا النبى ﷺ فاطمة فى شكواه التى قبض فيها فسارها فبكت ، ثم دعاها فسارها فضحكت ، فسألناها عن ذلك فقالت : سارنى أنه يقبض فى وجعه ، الذى توفى فيه فبكيت ، ثم سارنى فأخبرنى أنى أول أهل بيته يتبعه فضحكت [٣] .

وتوفى رسول الله ﷺ صباح يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة مثل الوقت الذى دخل فيه المدينة [٤] ومثل اليوم الذى ولد فيه .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : **مر أبو بكر والعباس بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال: ما يبكيكم ؟**

فقالوا : ذكرنا مجلس النبى ﷺ منا .

فدخل على النبى ﷺ فأخبره بذلك ، فخرج النبى ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : **أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشى وعيبى ، وقد قضوا الذى عليهم وبقى الذى لهم ، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم** [٥].

وعن ابن عباس قال : **خرج النبى ﷺ وعليه ملحفة منعظفاً بها على منكبيه ، وعليه عصابة دسماء حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها**

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى ﷺ جـ٧ صـ١٠٦

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى ﷺ جـ٧ صـ٩٥

(٣) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى جـ٧ صـ٩٥

(٤) سيرة النبى جـ٢ صـ٦٥٥

(٥) صحيح البخارى كتاب المناقب باب قول النبى اقبلوا من محسنهم جـ٦ صـ١٥٤

الناس فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح للطعام ، فمن ولى منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه ، فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم (١) .

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح ، حيث كان مسكنه بالعالية ، فقام عمر يقول : **والله ما مات رسول الله ، ولكنه ذهب لملاقاة ربه ، كما ذهب موسى عليه السلام لملاقاة ربه أربعين يوماً وسيرجع والله ما كان فى نفسى إلا ذلك وليبعثه الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم .**

فجاء أبو بكر على فرس من مترله بالسنح حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ، فتيمم رسول الله وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ثم قال : **بأبى أنت وأمى طبت حياً وميتاً ، والذى نفسى بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً .**

ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال : **اجلس يا عمر** ، فأبى عمر أن يجلس ، فقال له أبو بكر : أيها الحالف **على رسلك** ... فأقبل إليه الناس وتركوا عمر ، فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه ثم قال : **أما بعد فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾**(٢) **وقال تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾**(٣) .

فأخذ الناس يبكون وقد تيقنوا موت رسول الله ﷺ يقول ابن عباس : **والله لكأنى بالناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها .**

وقال عمر : **والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلنى رجلاى وحتى هويت إلى الأرض حين سمعته تلاها ، وعلمت أن رسول الله قد مات** (٤).

---

(١) صحيح البخارى كتاب المناقب باب قول النبى اقبلوا من محسنهم جـ٦ صـ١٥٥

(٢) سورة الزمر الآية ٣٠

(٣) سورة آل عمران الآية ١٤٤

(٤)صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى ﷺ جـ٧ صـ١٠٤

ولما عرفوا أنه ﷺ مات دهش الناس وطاشت عقولهم ، فمنهم من خبل ، ومنهم من أصمت ، و لم يكن أثبت وأحزم من أبى بكر والعباس (١).

وقد قضى المسلمون بقية يوم الاثنين ويوم الثلاثاء فى اختيار خليفة رسول الله بعد وفاته وبعد مشاورات تمت بيعة أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة ، ووقى الله المسلمين شر الفتنة .

ولما فرغ الناس من بيعة أبى بكر ، وجمعهم الله خليفة واحد ، وصرف عنهم كيد الشيطان أقبلوا على تجهيز نبيهم .

يروى ابن إسحاق بسنده أن على بن أبى طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وقثم بن العباس ، وشقران مولى رسول الله ، وأسامة بن زيد هم الذين تولوا غسله ، وأن أوس بن خولى - وكان بدرياً - دخل معهم ، وحضر غسل رسول الله ، وأسنده إلى صدره ، وكان العباس والفضل وقثم يقبلونه معه ، وكان أسامة بن زيد وشقران هما اللذان يصبان الماء عليه ، وعلى يغسله بعدما أسنده إلى صدره ، وعليه قميصه يدلكه به من ورائه لا يفضى بيده إلى رسول الله ، وعلى يقول : **بأبى أنت وأمى ما أطيبك حياً وميتاً ، ولم ير من رسول الله ما يرى من الميت** (٢).

حدثنى يحى بن عبادة بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت : **لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه فقالوا : والله ما ندرى أنجرد رسول الله من ثيابه ؟**

فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا ذقنه فى صدره ، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو أن غسلوا النبى ﷺ وعليه ثيابه ، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه ، يصبون الماء فوق القميص ، ويدلكون والقميص دون أيديهم ، فلما فرغوا من غسله كفنوه فى ثلاثة أثواب صحاريين وبرد وحبرة أدرج فيه أدراجاً .

وحدثنى حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس قال : **لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ تساءلوا عن طريقة الحفر هل يحفرون كحفر أهل مكة أو كحفر أهل المدينة ؟ وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح كحفر أهل مكة وكان أبو طلحة زيد بن سهيل**

---

(١) مختصر السيرة صـ ٤٦٠ إلى ٤٦٥

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى ﷺ جـ ٧ صـ ١٠٣

هو الذى كان يحفر لأهل المدينة وكان يلحد .

فدعا العباس رجلين فقال لأحدهما : اذهب إلى أبى عبيدة ، وللآخر اذهب إلى أبى طلحة ثم دعا الله قائلاً : **اللهم خر لرسول الله ، فوجد صاحب أبى طلحة أبا طلحة فجاء به فلحد لرسول الله .**

فلما فرغ الصحابة من جهاز رسول الله يوم الثلاثاء وضع سريره فى بيته ، وقد اختلف المسلمون فى دفنه **فقال قائل : ندفنه فى مسجده .**

وقال قائل : **بل ندفنه مع أصحابه .**

فقال أبو بكر : **إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما قبض نبى إلا دفن حيث يقبض ، فرفع فراش رسول الله الذى توفى عليه فحفر له تحته .**

ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ أرسالاً يصلون عليه عشراً عشراً ، حتى إذا فرغ الرجال دخل النساء ، حتى إذا فرغ النساء دخل الصبيان ، ولم يؤم الناس على رسول الله أحد وقاموا بدفنه ﷺ والنساء عنه بعيد تقول عائشة رضى الله عنها : **ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحى من جوف الليل من ليلة الأربعاء .**

وكان الذين نزلوا فى قبره على بن أبى طالب والفضل وقثم بن العباس ، وشقران مولاه وأوس بن خولى ، وجعلوا تحته ﷺ قطيفة كان يلبسها ويفترشها ، وكان آخر الناس عهداً به قثم بن عباس .

وبعد مدة ذهب أبو بكر وعمر لزيارة أم أيمن رضى الله عنها كما كان رسول الله يفعل فلما رأتهما بكت ، فقالا لها : **ما يبكيك ؟ ما عند الله خير لرسوله .**

قالت : والله ما أبكى أن لا أكون أعلم ما عند الله خير لرسوله ، ولكنى أبكى لأن الوحى انقطع من السماء ... فهيجتهما على البكاء فأخذا يبكيان [١] .

وهكذا ..

انتقل رسول الله ﷺ إلى الله تعالى وترك من ورائه أمته تحمل الأمانة ، وتقدر المسئولية ... وتعلم عن يقين أن الله تعالى سيحاسبها بميزان الوحى الذى تركه ﷺ فى

(١) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب فضائل أم أيمن جـ ١٦ صـ ٩ ، ١٠

الناس ، ليكون شاهداً فيهم ... انتقل رسول الله ﷺ إلى الله بعد أن ترك الإسلام كله ، وصار كل شئ بينا حكمه ، معروفة جنباته ... حيث لا عذر بعد ذلك لناقض ، أو كسول ... ولا أهمية لعداوة أو نفاق .

انتقل رسول الله إلى ربه بذاته ، وترك فى أمته الوحى كله ، وعرفهم أنه ترك لهم ما فيه كل الفلاح والهدى ... يقول ﷺ : **تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى** [١] .

انتقل الرسول ﷺ إلى ربه بعد أن وضح لأمته طريقة الحياة بعزة ، وكرامة ، وأخلاق وبعد أن وضع أيديهم على الحقائق التالية :-

١) الإنسان متميز عن سائر المخلوقات بحقوق تناسبه ولابد من المحافظة عليها ، والوفاء بواجباتها بالمنهج الذى عاشه الرسول ﷺ وصحابته .

٢) القوة المادية أساس حماية العزة والكرامة ... والضعفاء لا ينالون إلا الهوان ، والذل وضياع الحقوق .

٣) الإسلام أمانة فى عنق كل مسلم ... ومصادره وتعاليمه واضحه بينه ... ولا عذر لمسلم فى البعد عن الإسلام بصورة كلية أو جزئية ... ولا عذر للأمة إن قصرت فى واجباتها الإسلام .

٤) سينتقل الجميع إلى الله ... وسيحاسبون على كل ما قدموا ولن ينفع إلا الصدق ، والإيمان ، والعمل الصالح ، وسيجزى كل نفس بما عملت ... وما ربك بظلام للعبيد .

---

(١) فيض القدير جـ٣ صـ٢٤٠

الفصل الرابع

ركائز الدعـــوة

المستفادة من المرحلة المدنية

تمهيد :

سيرة النبى ﷺ زاد وفير للإنسانية كلها ، وللمسلمين على الخصوص .

فهو ﷺ صورة شاملة للإسلام ، يجمع كل حقائقه ، ويوضح كافة جوانبه ، جعله الله تعالى منبع العلوم والمعارف ، وخصه بنزول الوحى والتنزيل ، ووكله بجبريل عليه السلام يلقى إليه القرآن ، ويوحى إليه بالأحاديث ... وكل باحث عن شئ فى الإسلام فمرجعه رسول الله ، ومصدره ما أوحى إليه ﷺ .

وهو ﷺ تطبيق عملى للوحى المنزل ، وتجسيد بشرى لتعاليم الله تعالى ، فعمله حجة ، وسلوكه طريق ، ومعاشه وحياته أسوة للناس أجمعين .

و لم يكن اهتمام علماء المسلمين بالسيرة النبوية إلا إبرازاً لمناط الأسوة والقدوة نظرياً وعملياً ، ولتبقى بين العالمين منارة هدى ، ومصدر إشعاع وخير .

وحين أعاننى الله تعالى على كتابة السيرة النبوية حاولت أن ألم بأحداثها جميعاً لتكون صفحة واضحة أمام من يطلع عليها لدرجة تغنيه عن أمهات الكتب ، والمصادر القديمة للسيرة النبوية مع الإشارة إلى ما يستفاد من أحداثها واضحاً الحدث فى صورته الناطقة بدورة فى تحقيق الخير وصيانة الحقوق ، وحاولت بعد ذلك أن أكتب بعض الركائز المفيدة للدعاة المعاصرين ، ولكافة المسلمين ، حتى لا تنقطع الأمة المسلمة عن ماضيها ، وبذلك تعيش الحاضر بروح الماضى ، وتعيد الماضى فى صورة العصر الحديث .

وليعلم الجميع أنه لا جديد عن الدعوة إلى الله تعالى بعد رسول الله ﷺ وكل ما جاء بعد عصره ﷺ فهو مستمد منه وراجع إليه .

وكل مسلم يبتعد عن رسول الله فهو بعيد عن الحق والصواب .

إن رسول الله ﷺ ترك للناس الإسلام حقيقة كاملة خالية من العوج والاضطراب وترك أمته تطبق الإسلام وتلتزم به ... وعرفهم أن الفوز والفلاح فى إتباع وحى الله تعالى ، والالتزام الدقيق بالإسلام .

وقد أوجب الله تعالى الدعوة إلى دينه سبحانه وتعالى وكلف الأمة الإسلامية بأن

تبلغ الإسلام للناس بالكيفية التى دعا بها رسول الله وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين .

وفى هذا الفصل أورد أهم الركائز المستفادة من سيرة رسول الله فى المدينة المنورة وذلك فى المباحث التالية :-

ـ المبحث الأول ـ

ضرورة بناء الأمة الإسلامية [قاعدة الدعوة]

الإسلام دين الله تعالى أنزله للناس ليسعدوا به ، وكلف المسلمين أن يقوموا بالدعوة إليه وأداء الأمانة التى حملهم الله بها .

وقضية الدعوة ليست أمراً سهلاً لأنها تتعامل مع عديد من الناس اختلفت عقائدهم ، وتباينت اتجاهاتهم ، وتعارضت أمانيهم وخياراتهم ... ولذلك فهى مسألة صعبة تحتاج إلى الإعداد والاستعداد .

ففى الكتاب الثانى من هذه السلسلة بينت نظرة الإسلام للإنسان واهتمامه به وتوضيح أركان الإسلام وغاياته من خلال الركائز المستفادة من السيرة فى مكة .

وهنا أحاول بيان ما يستفاد من المرحلة المدنية .

بينت المرحلة المدنية أهمية اعتماد الدعاة فى حركتهم على قاعدة صلبة ، وقوة يقظة ... وقد تمثل ذلك فى نشوء دولة الإسلام فى المدينة المنورة بقيادة رسول الله ﷺ لقد قامت الدعوة فى مكة على جهود فردية ، وتضحيات نفر قليل من أصحاب رسول الله ﷺ وسط عداوات أهل مكة ، ومباشرتهم الأذى والاضطهاد لكل من أسلم ... ولذلك مضت مدة طويلة أسلم فيها عدد قليل عاشوا خلالها حالة من الخوف والاضطهاد .

وكان رسول الله ﷺ يحاول إيجاد القاعدة القوية لإنطلاق الإسلام فعرض نفسه على القبائل وعلى أهل الطائف ليعيش معهم ويؤمنوا بالإسلام ، ويحمونه بما يحمون به أنفسهم وأهليهم فلم يستجيبوا له ... فلما استجاب له أهل المدينة وبايعوه عند العقبة هاجر وأصحابه إليهم ، وأسس دولة الإسلام فى المدينة ، وبذلك بدأت حركة الدعوة ولها قوة وتأثير .

إن بناء قاعدة الإنطلاق عملية أساسية لنجاح أى عمل يحتاج هذه القاعدة وإلا لصار الجهد هباء لا يفيد ، ومن المعلوم أن الإنسان الذى يتمتع بالخلق الكريم قادر على تعليم غيره الخلق والسلوك أما غيره فلا يمكنه ذلك لأن فاقد الشئ لا يعطيه .

والشخص القوى يهابه الضعاف أما الضعيف فلا قيمة له بين الناس .

والأمة القوية تقود غيرها إلى حيث تريد ... هكذا فى كل زمان ، فى عالم الإنسان كما هى فى عالم الحيوان .

وقد اهتم الإسلام فى بناء قاعدته الصلبة فى المدينة المنورة حيث أقامها على عدة أسس تضامنت وتكاملت حتى أنتجت قاعدة الدعوة ، ومنطلقها المتين ، وأهم ما فعله الإسلام فى الناس إيجاد خير أمة للناس وفق مراحل ومواصفات معينة .

فبدأ أولاً : بإيجاد الأمة القوية : متميزة بمجموعة من الخصائص ليحافظ على قواها ، ويبعدها عن التشرذم والتفكك ، والانهيار .

إن تنظيم الأمة يحتاج إلى الاستفادة بكل الإمكانات المتاحة ، ووضعها فى صورتها الإيجابية المنتجة لتحمى الجهد ، والوقت ، والطاقات .

إن مجموعة من الناس مهما بلغ عددها لا يمكنها أن تقوم بما تقوم به الجماعة ، ولا تتمكن من أداء دور الأمة مع الإسلام أو مع أى هدف آخر .

ودور الأمة مع الإسلام عظيم وهام حدده الله تعالى بقوله سبحانه ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[١] وبقوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٢]

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٠

لقد اهتم النبى ﷺ بعد الهجرة بتنظيم الأمة فآخى بين رعاياها ، وجعل الإخوة حقيقة مستمرة على الزمن كله لتكوين القاعدة الصلبة المطلوبة .

إن إخوة المؤمنين لم تكن من أجل الاشتراك فى نشاط ما وترك ما عداه ، أو التوحيد فى الولاء لفرد وفقط .. وإنما كانت الأخوة فى الله ، وتحت وشيجة العقيدة ... إنها ليست علاقات الدم ، ولا علاقات الأرض ، ولا علاقات الجنس ، ولا علاقات التاريخ ، ولا علاقات اللغة ، ولا علاقات الاقتصاد ، ليست هى القرابة ، وليست هى الوطنية ، وليست هى القومية ، وليست هى المصالح الاقتصادية .

إنما هى علاقة العقيدة الإيمانية التى تجمع بين الراعى والرعية فى اتجاه واحد .. وتأخذ روابطها من الإسلام وتجعل كل فرد مسئولاً عن حقوق هذه الأخوة أمام الله تعالى ، وأمام الناس أجمعين فى إيثار خال من الأنانية ، وفى خلق بعيد عن الفوضى والظلم .

ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى هذا الجيل الأول الذى طبق الأخوة الإيمانية بكل تجرد وصدق بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾[١] .

يروى الإمام أحمد عن أنس وصفاً لآثار هذه المؤاخاة على لسان المهاجرين أنفسهم حيث قالوا لرسول الله ﷺ : **يا رسول الله ما رأينا مثل قوم : قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ، ولا أحسن بذلاً من كثير من هؤلاء ، لقد كفونا المؤنة ، وأشركونا فى المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال ﷺ : لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم**[٢] .

وهكذا آخى رسول الله ﷺ بين أعضاء هذا التجمع الوليد .. أى أنه حول هؤلاء الأفراد المفككين إلى مجتمع متكافل ، تكون رابطة العقيدة فيه مقدمة على رابطة الدم والنسب ،

---

(١) سورة الأنفال الآيتان ٧٤ ، ٧٥

(٢) مسند أحمد

ويقوم الولاء لقيادته الجديدة مقام الولاء للقيادة الجاهلية القبلية ، ويصبح الولاء فيه للإسلام وحده ، وبهذا تتحقق سائر العلاقات وتنمو تحت مظلة رابطة العقيدة والإيمان .

ولقد تحقق الغرض من هذا الإجراء الفذ ، وبقى أثره محركاً فى حياة الصحابة حتى الوفاة فهذا بلال ﷺ كان يقول فى عهد عمر عن أخوته مع أبى رويحة : **لا أفارقه أبداً للأخوة التى كان رسول الله ﷺ عقدها بينه وبينى .**

إن وجود الأمة الإسلامية القوية هى أكبر سند لحركة الدعوة ، لأن المسلمين بعد تحقيقها مع رسول الله ﷺ فى عالم الواقع لم يتعرضوا لعدوان ، ولم يمنعهم الهمج والأراذل من الحركة والانطلاق .

وليس من تنظيم الجماعة المؤمنة تشتت الأفراد فى اتجاهات مادية متعددة متعارضة لأن هذا فى الحقيقة تفريق للأمة ، وتضييع لجهودها ... وذلك التشتت يظهر كثيراً حينما يعمل الأفراد لعدة غايات متعارضة .

لقد نادى رسول الله ﷺ بهجرة سائر المؤمنين إلى المدينة لتحقيق هذه القاعدة الواحدة القوية ، ولذلك يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [1] .

والآية واضحة فى وجوب الهجرة والتجمع فى المدينة لأن المسلمين لو عاشوا أفراداً حيث هم لتكالبت عليهم الأفاعى ، وقضى عليهم الطغاة ... ولذلك كانت هجرتهم إلى رسول الله لتكوين أمة مسلمة تعيش الإسلام ، وتقدم نموذجاً عملياً لتعاليمه أمام الناس .

وعمل ثانياً على صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية العملية : لأن الإسلام لا تهمه أمة فارغة القلب والضمير لأنها تكون حينئذ ضعفاً ووهنا لا يسمن ولا يغنى من جوع .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٢

ولا تهمه أمه تعلن الإسلام ولا تعمله ، وترفع الشعار ولا تشعر به ، وتدعى الدين وهى تناقضة بسلوكها وعملها .

وحتى تصير الأمة سنداً لحماية الحق ، ونصر الدين كان لابد لها أن تقيم بنيانها على تقوى من الله تعالى ، ولعل ذلك هو ما قصده رسول الله ﷺ وهو يبدأ نشاطه فى المدينة ببناء مسجده الشريف ليكون مكاناً للتربية والتعليم ... وجامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته ، ومنتدى تتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التى طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها ، وقاعدة لإدارة جميع شئون الدولة ، ومركزاً لبعث الحملات والسرايا العسكرية ، وبرلماناً لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية ، وكان مع هذا كله داراً يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين الذين لم يكن لهم دار ولا مال ولا أهل ولا بنون .

لقد تحولت المدينة إلى مستقر آمن للدعوة ، ومنطلق رئيسى للحركة بالإسلام ولهذا رأينا تماسك المهاجرين والأنصار وتآخيهم تحت لواء الله تعالى فى صورة متكاملة متوازنة ... وكان هذا التكامل شاملاً لكل جوانب حياة أهل المدينة ولن أتحدث عن كل صور هذا التكافل ولكنى أشير إلى بعض تلك الصور فقط وأهمها :-

التكافل فى بيت النبوة : فبيت النبوة هو مقر قيادة الأمة ، فحينما نزل رسول الله ﷺ على أبى أيوب الأنصارى وظل فى منزله قرابة السبعة الأشهر ، كان لابد من توفير الطعام الذى يحتاجه رسول الله ﷺ ومن ينزل عليه من الناس ، ولهذا تسابق الأنصار إلى بيت أبى أيوب يأتون بالطعام جعلوا لأنفسهم نظام التناوب ، فكل مرة مجموعة منهم ، وما كانت من ليلة إلا وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاثة والأربعة يحملون الطعام ، يتناوبون ، وكان يدعو النبى ﷺ أصحابه فيأكلون معه ، فيحضر عشاءه الخمسة إلى الستة إلى العشرة .

التكافل فى استقبال الأنصار للمهاجرين : لقد كانت المؤاخاة هى أبرز ما فى الصورة فعبد الرحمن بن عوف كان أخاً لسعد بن الربيع الأنصارى فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك دلنى على السوق

وتقدمت الأنصار إلى رسول الله ﷺ وقالوا : اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين النخيل وطلبوا منه أن يجعل الأموال قطائع فيما بينهم ... ولكن رسول الله ﷺ رفض هذا وجعل على المهاجرين أن يعملوا فى أرض إخوانهم الأنصار وأن يكون لهم جزء من الثمرة .

التكافل فى تشريع الزكاة : فرغم أن التوجيه القرآنى للمؤمنين لم ينقطع عن مخاطبة المؤمنين فى العهد المكى للمسارعة إلى الصدقة بشكل عام ، وذلك لتربية النفوس الدافعة ، وسد عوز النفوس المحتاجة إلا أن مشروعية الزكاة بأنصبة محددة لم تشرع إلا فى العهد المدنى ، وابتدأ فرض زكاة الفطر أولاً ، وصار هذا ملحقاً بمشروعية صيام شهر رمضان ، فصارت زكاة الفطر تخرج عن الصغير والكبير ، والحر والعبد ، والذكر والأنثى ، ثم جاءت بعد ذلك زكاة الأموال بأنصبتها المفروضة .

التكافل فى صلاة الجمعة : إن أول جمعة جمعت كانت بالمدينة المنورة ، سواء أقامها المسلمون قبل مقدم رسول الله ﷺ أو بأمره أو أقامها بعد قدومه المدينة مباشرة لأن المقصود بالجمعة إظهار شعار الإسلام ، واجتماع المؤمنين كلهم ، وموعظتهم ، وكانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ فى أول جمعة أقامها فى المدينة كانت فى بنى سالم بن عمرو بن عوف فى طريقه من قباء إلى قلب المدينة وبما أن الجمعة هى لاجتماع المؤمنين وموعظتهم فإن هذا يفسر لنا سر تجمع المسلمين فى المدينة يوم الجمعة فى مسجد رسول الله ﷺ بينما كانوا يتفرقون بقية الأسبوع فيصلى بعضهم فى مسجد الرسول ، والبعض الآخر يصلى فى مساجد متفرقة بلغ عددها تسعة مساجد ، فإذا ما جاء يوم الجمعة تجمعوا فى مسجد واحد حول قائد الأمة ليتأكد من قوة المسلمين ، ويشرف على حضورهم وتربيتهم وإعدادهم .

التكافل فى صوم شهر رمضان : حيث لم يتم هذا التشريع فى العام الأول من الهجرة وإنما فى العام الثانى ، وفيه حصلت غزوة بدر الكبرى (يوم الفرقان) .

إن فرض الصيام شهراً كاملاً كل عام يعد عبادة شرعها الله عز وجل ، وحدد الغاية منها فى القرآن الكريم بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[1] لأن المقصود من الصيام حبس النفس عن

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٣

الشهوات ، وفطامها عن المألوفات ، وتعديل قوتها الشهوانية ، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها ... ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين ، ومن ثم فإن التقوى هى ثمرة الصيام .

ولا شك أن تأخر هذا الفرض إلى السنة الثانية للهجرة كان له سبب وغاية ترجع إلى استقرار الإسلام ، وتوطين النفس لتحمل هذا النوع من العبادة ، ومع هذا رغم أنه فرض من أول وهلة ، إلا أن الفرد المسلم كان مخيراً بين الصيام والإطعام ، ثم حسم بعد ذلك وجعل الإطعام لمن لا يطيق .

التكافل فى مشروعية العيدين : العيد هو اليوم الذى يعتاد الناس فيه الاجتماع لتبادل الأشواق وإعلان الأفراح ، وكان العرب يعتادون أياماً عدة تقوم إما على الوثنية أو العصبية .. فشرع الله للمسلمين عيدين يرتبطان بعبادة ، فعيد الفطر الذى شرع بعد الانتهاء من غزوة بدر يبدأ بنهاية عبادة صيام شهر رمضان ، وزكاة الفطر ويستهل يومه بصلاة العيد .

وعيد الاضحى يبدأ بنهاية عبادة الحج ، ويستهل يومه أيضاً بالصلاة والأضحية التى تحمل فى طياتها صورة من صورة التكافل الاجتماعى وقد شرع فى العام الثانى للهجرة وفيه ضحى رسول الله ﷺ وضحى الموسرون من المسلمين معه وهذا الموقف له دلالة عملية ، ودلالة مرحلية واقعية ، حيث تلاحظ التدرج الواقعى فى المجتمع المسلم دون اعتساف أو تعجل ، بل كل شئ فى أوانه ، وحينما تهيأ له الظروف والأجواء ، وهنا نلاحظ أن المسلمين لم تعمهم الفرحة إلا بعد أن استقر أمرهم ، وقامت دولتهم أما قبل ذلك فلا عيد ولا فرحة .

وعمل الإسلام ثالثاً على صيانة ثوابت الأمة لأن الأمة الإسلامية تعيش فى إطار منهج تحددت معالمه ، وفصلت حقائقه .

وأعداء الإسلام يعملون لهدم ثوابت المنهج ، والإساءة إليه ، وتشويه صورته ليتمكنوا من هدم كل ما تمثله الأمة من قيم وحياة ولذلك وجب حماية الإسلام مما يوجه إليه وذلك بحماية أمته .

إن منهج الله تعالى ينطلق من تعاليم الله ، يقول الله تعالى ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾(١) .

ومن ثم وجب استمرار هذه الصبغة ليبقى المنهج على حقيقته التى جاء بها ووجب حينئذ منع أى دخيل يسئ للمنهج ولا يتوافق معه ، وبذلك يعيش المجتمع بخصائصه الربانية .

لقد شرع الله الآذان للصلاة أسلوباً وحيداً للمسلمين ووجههم إلى الكعبة ليستقلوا بقبلتهم .

وميزهم بمعالم واضحه فى حياتهم ومعايشهم ... وبذلك برزت الأمة بخصائصها التى يحددها الله تعالى بقوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾(٢) .

وقوله تعالى ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾(٣)

ويقول تعالى ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾(٤) .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٨

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٠

(٣) سورة الفتح الآية ٢٩

(٤) سورة الفتح الآية ١٨

ويقول تعالى ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

ويقول تعالى ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[2] .

وتستمر آيات القرآن تترى فى وصف الجماعة المؤمنة الأولى التى كونها القرآن الكريم وكونتها السنة معه حتى كانت ، وبحق ، خير أمة ظهرت على الأرض .

وإن المرء ليتساءل عن سر تفوق هذا النموذج البشرى وعن أسباب عجز المسلمين المعاصرين من أن يكونوا مثلهم مع استمرار القرآن وحفظه ، وبقاء السنة وتدوينها .

إن الأمة الإسلامية التى كونها رسول الله ﷺ صورة مثالية رائدة تعاملت مع الواقع وتكونت من الناس ، وتعاملت مع فطرة البشر مما يجعلها نموذجاً قابلاً للتكوين فى كل عصر ومصر لو حاول الناس تتبع خطاها ، وسلوك الطريق الذى مرت فيه.

إن عوامل تأسيس الجماعة الأولى موجودة حتى الآن ، ولذلك نحتاج إلى معرفة الأسباب التى ساعدتهم على التكوين والتنشئة و لم تساعد سواهم أملاً فى الاحتذاء بهم والسير على طريقتهم .

يبدوا والله أعلم أن أسباب استفادتهم تعود إلى ما يلى :-

(أ) إنهم حينما دخلوا فى الإسلام تيقنوا الواقع وعلموا أن الإسلام بيعة منهم لربهم وهم طرف فيها ، وعليهم بالإسلام ان يصدقوا الله فيما بايعوه به .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٢

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢٣

(ب) إنهم استقبلوا الوحى الكريم المنزل على رسول الله ﷺ بما يليق به من تعظيم وتقديس فاهتموا به ، و لم يوازنـــوا بينــه وبين غيره ليتبينوا صدقه ، وأحقيته ، وإنما استقلوه موقنين بأنه الحق ، وهو الخير وهو المصلحة ويكفى أنه من عند الله .

(جـــ) إنهم أيقنوا حين إيمانهم أن الوحى نزل للتطبيق والعمل به ، و لم ينزل لمجرد المعرفة والثقافة ومن هنا اقتصروا على التدرج فى حفظه فكانوا يفهمون ويحفظون عشر آيات و لم يغادروها إلا بعد العمل بها ، وتطبيق ما جاء فيها ولذلك كان أبو بكر يقّوم المسلم بمقدار حفظه للقرآن لأن هذا يدل على مدى عمله وسلوكه .

(د) إنهم بعد مجئ وحى الله التزموا به وتركوا ما عداه من ثقافات الأمم الأخرى ونظمها وأهملوا بصورة كلية كل ما كان فى حياتهم الجاهلية ، وهذا الموقف يصور النقلة العجيبة التى أحدثوها فى واقعهم ، ولقد كانوا يفعلون كل ما يأمرهم به الوحى مكتفين بالسؤال عنه أألله أمر بهذا ؟

فإذا علموا أنه من الله ، فلا شئ معه وأهملوا حينئذ كل ما عداه .

لقد خلت الحياة الإسلامية الأولى من أى دخيل يعارضه الإسلام ، مع أن نظماً وآداباً فارسية ورومانية وغيرها كانت قبل الإسلام ملء الزمان طولاً وعرضاً ، وكان العالم كله معجبا بهم ، ومقدراً لهم يقلدهم ، ويتبعهم .

نعم لم يلتفت المسلمون إلى ما يأتيهم من قبل الشرق أو الغرب ، أو من هنا أو من هناك ، لأن وحى الله يكفيهم وهم به أقوياء .

(هـــ) إنهم شعروا بعزة الإسلام ، وبقدرة الله ، وتيقنوا أن الله اختارهم بالإيمان لإنقاذ البشرية من عبادة البشر ، والخضوع لغير الله تعالى ، وجاهدوا لإزالة الطواغيت من على ظهر الأرض تكريماً للإنسانية كلها .

وهذا التيقن يفسر لنا سر تضحياتهم بالنفس والنفيس حين ساحوا فى الأرض مجاهدين فى سبيل الله يبغون نشر دينه ، وإحقاق الحق ، وإقرار الأمن والسلام .

تلك أهم الأسباب التى ساعدت الأمة الإسلامية على الاستفادة بوحى الله تعالى وتركت بذلك درساً فى الناس لمن يشاء أن يستقيم ، ويسعد فى الدنيا وفى الآخرة .

إن البناء الدقيق لأمة الإسلام استغرق من رسول الله ﷺ وقتاً طويلاً ، وجهداً شاقاً .. ولكنه ﷺ أتمه على أحسن حال ... وقد تعرض ﷺ خلال مرحلة البناء لمحاولة القتل ، وحوصرت المدينة ، وهاجمة سفهاء القبائل ، واستعان ﷺ بالصبر والتحمل والجهاد حتى أتم ما عمل له ، ولم ينتقل إلى ربه سبحانه وتعالى إلا وقد تكونت الأمة الفتية ، وانتشر الإسلام فى الجزيرة العربية كلها ، وتحققت حرية الدعاة ، وأصبحت دعوة الإسلام محل تقدير واحترام ، تسمع وتناقش ، وتعيش واقع الحياة ، وتتعامل مع الجميع فى حسن وأمان .

وحين نرى حال المسلمين اليوم ، وننظر فى أمر الدعوة نلمس ضرورة وجود الأمة المؤمنة لمساندة الدعاة وتدعيم حركتهم بالعمل والسلوك .

إن الناس فى العالم المعاصر ينظرون إلى المسلمين ويتأملون أحوالهم ، ويتصورون أنهم صناعة الإسلام ونتائجه بمجرد تسميتهم بالمسلمين !! وليس الأمر كذلك لأن المسلمين من فترة طويلة لا يعيشون الإسلام حقيقة ، ولا يطبقون تعاليم الله على الوجه الصحيح .

وحين نبحث عن أهم الركائز المستفادة فى سيرة رسول الله فى المدينة فإنى أرى أن أهم الركائز هو وجود الأمة المسلمة التى تحرك الدعاة ، وتوجه حركتهم إلى الناس

إن الأمم اليوم تتعامل فيما بينها بواسطة السفراء والمبعوثين الذين يمثلون الدول والحكومات ولذلك صار لهم دور ، وعاشوا آمنين لأن من ورائهم دولهم .

إن الدنيا تتحرك كلها إذا أسئ لفرد من دولة أوربية أو غيرها لأن من ورائها دولته ... ويا حبذا لو تمتع الدعاة برعاية دولهم ... ويا حبذا لو كانت الدول إسلامية قلباً وقالباً على قلب رجل واحد لتكون الأمة المرجوة ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر فى صدق وشفافية .

إن العالم المعاصر يقر للدول العظمى بحقها فى توجيه الدول الصغيرة ، وتغيير مساراتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفق رؤيتها ... بدعوى تحقيق تقدم حضارى وإنسانى لهذه الدول ... برغم ما فى كل هذا من رغبة الاستعلاء والسيطرة والاستغلال .

إن هذا الواقع يعطى لصاحب الحق أن ينشر ما يتمتع به من الحق والخير للآخرين ... وحين يكون القوى صاحب رسالة سامية يريد إفادة الناس بها متجرداً من أى غاية ذاتية ، وبعيداً عن أى مصلحة شخصية ... حين يكون الأمر كذلك يرحب به الجميع .

إن الأمة الإسلامية ضرورة لنجاح الدعوة ، وقاعدة لابد منها لمساندة الحركة بالإسلام ، وإيصاله إلى كل إنسان فى الوجود .

وحين نؤمن بهذه الضرورة لابد أن يتعاون الأفراد ويعمل الجميع لإيجاد هذه الأمة بالخصائص التى لابد منها لأى أمة تريد لنفسها الرقى والتقدم وخدمة الإنسانية لابد أن تنشط هذه الأمة فى الأخذ بأسباب القوة المادية التى لابد منها فى عالم لا يعترف إلا بحقوق الأقوياء ، ولا يهاب إلا القادرين .

إن القيم النبيلة تتحول فى لسان الضعفاء إلى مظاهرة صوتية تحتج وتصيح بلا مجيب وتستغيث بلا مغيث ... وربما عدها الأقوياء جماعة من المجانين .

وأول قوة الأمة يبدأ بتقوية الأفراد والجماعات الصغيرة ، وهؤلاء مسئولون عن أنفسهم ، فليقوى الفرد نفسه بالطاعة ، والصدق ، والعمل ، والتجرد من الهوى ... والتوجه فى كل نشاطه لله ، وعلى الأفراد أن لا يعبأوا بالمعوقات الطارئة ، ولا ينتظروا أجراً من مخلوق لأنهم يعملون لله ، وينتظرون الأجر منه سبحانه وتعالى ... وما عنده سبحانه لا يضيع أبداً ... وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

ـ المبحث الثانى ـ
الاهتمام بمعرفة الواقع العالمى

هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ، وأسس دولة الإسلام فى المدينة ، وأخذ فى دعوة الناس إلى الله تعالى حسب مقتضيات كل مرحلة .

وكان ﷺ يعلم واقع العالم كله ، ويدرك اتجاهات الأفراد ، وكان الله معه يعينه على الحق ، ويعرفه به إن سها عنه ، أو لم يدركه .

لقد كان يعرف ما عليه الفرس والروم ، ويعرف ما بينهما من حروب وأحقاد ، ويعلم أن الروم أهل كتاب ، وأن الفرس عبدة أوثان وأصنام ، وكان الله معه يخبره بأهم ما عندهما يقول الله تعالى ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١)

ووقف ﷺ على كافة أحوال اليهود والمنافقين وسائر القبائل وهو فى مكة قبل الهجرة ، وبعد استقراره فى المدينة بعد الهجرة .. وكان يتعامل مع كل بما يكافئه ... ويدعوهم بالأسلوب الذى يناسبهم ... فإن رأى منهم غدراً حذرهم وتعامل معهم بنفس توجيههم .

لقد كان ﷺ يحدث أهل الكتاب عن رسلهم وكتبهم ، ويحدث القرشى عن الخالق والمخلوق ... ويحادث أهل الزرع والتجارة كل بما هو فيه ، وبما يتلاءم مع حياته وفكره وتلك قضية مهمة لابد منها لنجاح الدعوة إلى الله تعالى .

لقد عاش المسلمون وسط الناس بعيونهم ، وبمن آمن منهم ، ولذلك كانوا على خبر دقيق بواقع الناس .

إن معرفة الواقع المعاصر ضرورى للدعوة ليتحرك الدعاة وفق خطة عملية متكاملة ناتجة من تخطيط سليم .

إن التخطيط السليم بحث وعلم بالواقع ، وتحديد للعمل والمنهج ، ومتابعة

---

(١) سورة الروم الآيات من ١ إلى ٥

للأعمال والنتائج .

وهذا ما لابد منه للدعوة إلى الله تعالى فى العصر الحديث .

لا يكفى تكليف الدعاة بالعمل فى إقليم ما ، وتركهم لشأنهم ، مع أنهم لا يعرفون شيئاً عن طبيعة الإقليم ، ولا عن سكانه ، ولا عن الاتجاهات السائدة فيه .

لا يكفى ذلك ، بل لابد من معرفة الدعاة للبيئة التى سيدعون فيها معرفة شاملة لكافة النواحى (أناسا ، وطبعاً ، وخلقاً ، وتديناً ، وثقافة ، وتحضراً ... إلخ)

وهذه أمور تقوم على البحث المتعمق ، والدراسة المسبقة .

وبناء على البحث والدراسة توضع الخطة الملائمة لإبراز أولويات الدعوة ، والوسائل المستخدمة ، والأسلوب المناسب ، والكيفية المثلى لكافة الظروف التى تهم الدعوة والدعاة .

إن التمهيد لعملية الدعوة بتوضيح الجوانب المشار إليها ضرورة فى عصر يعتمد على التخطيط فى سائر الأعمال ، وهى ضرورة يؤكدها الإسلام ويؤيدها .

فقد خطط النبى ﷺ لغزواته جميعاً ، ففى غزوة بدر عرض الأمر على الأنصار ، وعلى المهاجرين وأخذ موقع الغزوة برأى أصحابه .

وفى غزوة أحد أخذ الرأى ، وشاور الصحابة ، وحدد لكل مجموعة مكانها .

وهكذا فى كل خطواته ﷺ .

إن الرسائل النبوية أرسلت بعد معرفة من أرسلت إليهم ، لتتناسب مع فكرهم ، وواقعهم ، فإن كانت الرسالة مرسلة إلى أحد من أهل الكتاب فإنها تشير إلى الإيمان بعيسى كجزء من الإيمان بمحمد ﷺ ، نقرأ ذلك فى رسالة النبى ﷺ إلى النجاشى ملك الحبشة ، وفيها يقول ﷺ : **بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة ، أسلم فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة ، الحصينة ، فحملت بعيسى ، خلقه الله من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ويقول ﷺ لعظيم الروم بمصر ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ،**

فإن توليت فإنما عليك إثمك وإثم الإريسيين معك ، والإريسيون هم المزارعون .

فنجده ﷺ يحدثهم بحديث الخبير بهم ، يحدثهم عن مريم ، وعن عيسى عليهم السلام كما يحدث المقوقس عن المزارعين بمصر .

ونلحظ أن رسائله ﷺ قد صيغت بلغة ، ولهجة من أرسلت إليهم ، فهذه رسالته إلى نهد قبيلة باليمن ، يقول فيها ﷺ : اللهم بارك لهم فى محضها ، ومخضها ، ومذقها وابعث راعيها فى الدثر ، وافجر له الصمد ، وبارك له فى المال والولد [١] .

بل إن رسائله ﷺ كانت تناسب طبائع الناس ، ومنزلتهم ، وتنوعهم .

ألا يدل ذلك على أهمية فهم الواقع وضرورة العلم بالناس الذين توجه إليهم الدعوة ؟

وقد دلت التجارب المعاصرة على أهمية التمهيد لحركة الدعوة بمعرفة الواقع على ما هو فيه بكل صدق وتجرد ، لأن الدعاة إذا جهلوا الواقع حين يقومون بالدعوة يصطدمون بالمستمعين بادى ذى بدء ، ولهذا أثره السيئ ، كما أن عدم معرفة الواقع يؤدى إلى عدم الاستعداد له ، الأمر الذى يضع الدعاة فى غربة فكرية ونفسية مع من يتوجهون إليهم ، ولا يمكن القول بأن دراسة الواقع ، ومعرفة متطلبات الدعوة مسئولية من يكلفون بالدعوة ، ويباشرونها لأن ذلك فوق مقدورهم ، وأكبر من طاقتهم .

لو كان مجال الدعوة إقليماً واحداً لأوجبنا على الدعاة " أفراداً " أن يبدأوا عملهم بالبحث والدراسة ، ولا يباشرون الدعوة إلا بعد فهم الواقع ، والإحاطة الكاملة بأحوال المدعوين .

لو كان المجال إقليماً واحداً لقلنا ذلك ، لكنه العالم كله وحينئذ لا يستطيع التعريف به إلا هيئات ضخمة ، قادرة على توظيف العلماء ، وتوجيه الطاقات ، والقيام بالدراسات والبحوث النظرية والميدانية وبذل ما تحتاجه من تضحيات ، ومن الممكن الاستفادة بالأبحاث العملية العديدة التى تقدم من طلاب الدراسات العليا فى كليات الدعوة والدراسات الإسلامية العديدة وبخاصة تلك الأبحاث القائمة على الدراسة الميدانية ، ويمكن تأسيس المعاهد البحثية لتحقيق هذه الغاية .

---

(١) انظر كتب النبى ﷺ صـ٥١٨-٥٢٥ من الكتاب .

لقد بذلت محاولات فى العالم الإسلامى فى هذا الطريق لكنها لم تكمل .

لقد حاولت جامعة الأزهر فى أوائل الستينات من القرن العشرين تأسيس معهد بحثى عرف بـــ " **معهد الدراسات الأسيوية والأفريقية** " تكون الدراسة فيه بلغات القارتين ، ويقبل طلبته من خريج الكليات الإسلامية من جامعة الأزهر للتخصص فى دراسة السكان ، وبخاصة فى النواحى التى تحتاجها الدعوة ، على أن تكون الدراسة فى السنة الأولى عامة ، وفى السنة الثانية ينقسم الطلبة إلى مجموعات كل مجموعة تختص بدراسة إقليم ما للإحاطة بواقعه ، واكتشاف أنجح الطرق للتوجه إليه ، والتلاؤم معه على أن تكون الدراسة ، فى الفصل الثانى من السنة الثانية ميدانية فى الإقليم الذى يتخصص له الطالب ، وبعد الانتهاء من دراسة السنة الثانية يقوم الطالب بإعداد بحث للماجستير فى دعوة الأقليم التى عاش معه مدة الدراسة على أن يعمل للدعوة فى الأقليم الذى أتقن لغته ودرس أحواله ، وعايشه خلال المرحلة الميدانية .

ويجوز إتمام البحث العلمى خلال العمل بالإقليم ليستمر إشراف الأزهر على الطالب وعمله .

وكان المقترح أن يحصل الطالب خلال دراسته على درجة معيد بالجامعة ، إلا أن الاقتراح بعد أن اجتاز خطوات عديدة توقف .

كما قررت رابطة العالم الإسلامى فى مكة المكرمة تأسيس " المعهد العالى للدعوة الإسلامية " ليقبل طلاباً من العالم الإسلامى للحصول على درجة الماجستير فى الدعوة وتخريجهم دعاة إلى الإسلام ليقوموا بالدعوة فى بلدهم تحت إشراف الرابطة .

وفكرة المعهد حسنة إلا أن التطبيق العملى للفكرة شابه قصور فى المنهج ، وفى قلة عدد الطلاب ، وعدم إخلاصهم للهدف الذى قبلوا بسببه فى المعهد ، وعدم خبرة القائمين على التدريس ، وأخيراً تقلص المعهد ولم تبق منه إلا صورته فقط .

إن هذه المحاولات لو قامت بها هيئات كبرى تدعمه ، وعلى خطوات مدروسة معد لها فقد يكتب لها النجاح .

وحتى يتم ذلك نقول للدعاة : ابدأوا عملكم بدراسة الواقع الاجتماعى للبيئة التى تقومون بدعوة أهلها ، واستفيدوا بالنظريات العلمية فى مجـــال الخدمة الاجتماعيـــة

والدراسات التربوية والنفسية والاجتماعية .

إن الجميع يعلم أن الدعوة إلى الله تعالى يجب أن تكون بالحكمة الدقيقة ، والإحسان الخلقى فى الموعظة والجدل .

وبمعرفة الواقع بكل جوانبه يتمكن الدعاة من استعمال الحكمة لمن تناسبه ، ويأتون بالموعظة عند أهلها ، ويكون الجدل لمن لا يفيده إلا الحوار ، والنقاش ، ويتوجهون بالدعوة فى وقت مناسب وظروف مفيدة ولغة يفهمها من توجه لهم الدعوة .

وبذلك تتلاءم دعوتهم مع المدعوين .

إن علم الداعية بالواقع الاجتماعى يمكنه من مخاطبة محدثه بقول لائق مقبول ، حدث أن المقوقس حين استلم الرسالة من حاطب بن أبى بلتعة ﷺ قال له : **ما يمنع محمداً إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه ، وأخرجه من بلده ؟**

فرد عليه حاطب على الفور : **وما منع عيسى وقد أخذه قومه ليقتلوه أن يدعوا الله عليهم ليهلكهم ؟**

فقال المقوقس : **أحسنت ، حكيم جاء من عند حكيم .**

فنجد حاطباً يقنع المقوقس لأنه ارتبط فى حديثه بالواقع الذى يعرفه ، والحقيقة التى يعيشها المقوقس ، واللغة التى يفهمها .

إن العالم اليوم ملئ بالدعوات العقائدية المختلفة ، والكل يحاول معارضة الإسلام ببث الشبه ، ونشر الدعايات المضللة الظالمة .

وأغلب الشبه دونها المستشرقون ، وكتبها المبشرون ، وتحدث عنها العلمانيون ويثيرها اليوم المتنورون والإحاطة بها أمر ميسور .

ومن الممكن تناول هذه الشبه بالتحليل والرد عليها بطريقة علمية هادئة لتفنيدها وإثبات الحق فى كل مسألة منها بمختلف وسائل الدعوة والتوجيه مثل المؤلفات العلمية والمحاضرات والنشرات ، والدروس ، والخطب ، والحوار ... وهكذا .

ويمكن الاستفادة بمؤلفات العلماء وأبحاث الدراسين الإسلاميين ، وتوجيههم نحو

هذا المجال الهام .

إن المستشرقين بذلوا جهوداً ضخمة وأخرجوا مؤلفات عديدة بمساندة المراكز العلمية التالية :

١) **كراسي اللغات الشرقية** التى أنشئت فى سائر الجامعات الأوربية وتنضم أعداداً غفيرة من الأساتذة ، والمحاضرين ، والمعيدين ولهم رصيد ضخم من الدراسات المختلفة .

٢) **المكتبات الشرقية** وهى تضم المؤلفات والمخطوطات باللغات المختلفة ، وقد تنوعت هذه المكتبات ، فمنها ما هو تابع للحكومات ، ومنها ما هو تابع للجامعات ومنها ما هو تابع للعلماء ، ولجميع هذه المكتبات فهارس شاملة وإصدارات هذه المكتبات مستمر وغزير .

٣) الجمعيات الأسيوية والشرقية وهى نواد للعلماء المهتمين بالعلوم الشرقية ، وتصدر المجلات الدورية ن وتنشر مؤلفات الأعضاء ولهذه النوادى مسميات عديدة ، وهى تنتشر بين الأغنياء والخاصة من الناس فى كل بلاد العالم الإسلامى .

وللمبشرين أيضاً مؤسساتهم الضخمة فالكنيسة لها دعاتها ، وبابا الفاتيكان رئيس دولة مستقلة تشرف على الكنائس وتوجه المبشرين .

إن الكنائس المسيحية بمختلف مذاهبها تقوم بالتبشير بالنصرانية ن وتحاول دائماً الاستفادة بالسلبيات التى تجدها بين الناس كالفقر ، والجهل ، والمرض ، والتخلف ، ولها نشاطها فى مجال الإعلام والاتصال والتعليم ، والطب وغيرها .

وللكنائس نظامها فى اختيار كوادرها ، وتدريبهم ، والإشراف عليهم بصورة مستمرة .

وقد قامت الدول المسيحية بتوجيه من رجال الكنيسة بتأسيس مدارس فى البلاد الإسلامية وغيرها لنشر ثقافة وفكر دول التأسيس ، وفيها ما فيها من بعد عن الإسلام وثقافته .

هذه المؤسسات الضخمة للمستشرقين والمبشرين وتلك التى تقوم بها الكنيســـة

تحتاج إلى جهد يكافئها ، ليقف الدعاة المسلمون أقوياء بدينهم الحق ، وبالتدعيم الذى يساندهم .

لقد تكلم المستشرقون فى كل جزئية إسلامية ، والواجب أن تكون الردود شاملة وقوية ، وبخاصة أن وسائل الاتصال لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وبثتها فى العالم كله وللمسلمين من سيرة رسول الله ﷺ عبرة وتوجيه ، لأن الثابت أن رسول الله ﷺ لم يترك سؤالاً لمعترض إلا وأجابه ، ولم يشاهد أمراً إلا وشرح حقيقته لأصحابه ، ولم ينزل عليه وحى إلا وبلغه للناس على وجه مفهوم ، وإقناع تام ... ولم يترك مسألة على خفائها ، ولم يدع مدخلاً للشيطان إلا وسده ، ونصح أمته بما يجب عليهم .

لقد بث النبى ﷺ عيونه فى كل مكان ، ولذلك كان يفاجئ أعداءه إذا عملوا على العدوان على المسلمين ... وكان يرسل الدعاة الفاهمين إلى أى مكان يحتاج إليه وهذا الشأن يدعو الأمة إلى ضرورة العلم والعمل ، وأهمية التخطيط والتحرك مستفيدين بمستحدثات العصر ، ومخترعات العقول ، فى إطار المشروعية الدينية .

ـ المبحث الثالث ـ
أهمية التطابق بين المسلم والإسلام

من القضايا ذات التأثير الكبير فى حركة الدعوة إلى الله تعالى وجود الإسلام فى حياة الناس أفراداً وجماعات لأن الإنسان يرى أول ما يرى فى الغير عمله ، ويسارع فى تصوره والحكم عليه بعد ذلك ... ويربط دائماً بين العمل وبين شخصية القائم به .

إن الإنسان دائماً تحركه نفسه ، وتوجهه قناعاته ، وتتحكم فيه عقيدته وديانته .

ومن هنا كانت دلالة العمل على المنطلق الفكرى لصاحبه .

إن الجاد فى الكسب والربح هو التاجر الذى يقوم بالبيع والشراء .

والمثقف الحر يعشق حرية الناس ، ويعمل على نشرها وتحقيقها لغيره .

وحين نرى إنساناً يصلى فى المسجد فهو مسلم .

والمتخصص فى الحرب والدفاع جندى يعيش بين المدفع والصاروخ .

إن دلالة العمل على فكر صاحبه ، وثقافته حقيقة ثابتة وفى الإطار الإسلامى يجب أن يتطابق عمل المسلم مع توجيهات دينه ، وتعاليم ربه ليكون مسلماً .

إن الإسلام جاء للتطبيق والله تعالى يقول ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (١)

ويقول تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾(٢)

ويقول سبحانه ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾(٣)

ولقد برزت الأمة الإسلامية فى عصرها الأول بصورها الواجبه حيث كان الجميع صورة صادقة للإسلام ، لدرجة أن من تأمل عملهم ومعاشهم وجد دينهم ، ورأى أثره على الناس أمناً ، ونشاطاً ، وتعاوناً ، وإخلاصاً، ومن علم دينهم وقف على حياقم ومعاشهم

---

(١) سورة النساء الآية ٦٤

(٢) سورة النور الآية ٥٢

(٣) سورة النور الآية ٥٤

عاش السلمون الأول الإسلام بكافة جوانبه ، وبذلك تأسلم المجتمع كله ، وصار الإسلام مجسداً فى الحياة .

عاش رسول الله ﷺ بين الناس يربيهم بالإسلام ، ويطمئن على خلوصهم لله ، وصدقهم فى الطاعة ، فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر البشر ، ولذلك كانت ضرورة الاستمرار فى التربية ليسكن الإيمان قلوبهم ، ويكونوا عوناً لرسول الله فى الإلتزام والتطبيق ، لقد استمر رسول الله يربيهم بالوحى حتى وصلوا إلى الذروة ، وأصبحوا مثلاً عالياً للصناعة الربانية .

لقد نشّأ رسول الله ﷺ المسلمين على أسس راسخة ، ومن أهم جوانب التنشئة الإسلامية للأمة ما يلى :

١) نشر العدل :

العدل فضيلة تضمن لصاحب الحق حقه بعيداً عن الظلم والعدوان ، وينظر الإسلام إلى العدل نظرة شاملة تعم التشريع كله وبذلك تتضمن كافة العلاقات ، والمعاملات الإنسانية سواء أكانت بين المسلمين بعضهم مع بعض ، أو كانت بين المسلمين وغيرهم يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[1] .

وقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ

(١) سورة النساء الآية ٥٨

(٢) سورة المائدة الآية ٨

وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1] .

وكما يأمر الإسلام بالعدل نراه ينهـى عن الظلم تأكيداً للعدل ، وقد كتب الله على الظالمين لعنته وسخطه بقوله تعالى ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] .

وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾[3]

وقوله عز وجل ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4]

ولقد أمر الله رسوله ﷺ بالعدل والاستقامة فقال له ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[5]

وقد أظهر رسول الله ﷺ العدل وأمر به ومارسه فى حياته كلها ، ولعل قمة العدل أن يعفو ﷺ عمن أساء إليه .

ترى هذا فى العفو العام الذى أطلقه ﷺ لكل من تصدى له بالعداء من قريش فأعلنها : **اذهبوا فأنتم الطلقاء** " وهكذا بلا كلمة عتاب ... ولا موقف عقاب ، فهو فضل منه ﷺ .

ونرى هذا فى إعلان براءة رسول الله ﷺ مما فعله خالد بن الوليد يوم أن قتل أسرى بنى جذيمة لاجتهاد اجتهده .

ونرى هذا فى إعلانه يوم حنين ، رغم ما فعله المشركون بالمسلمين ، فلقد أمر المسلمين ألا يقتلوا امرأة ولا وليداً .

ونرى هذا فى عدم دعائه على ثقيف رغم محاصرتهم فى الطائف فترة طويلة فلم يزد على أن يقول : **اللهم اهد ثقيفا** .

ونرى أثر العدل فى إطفاء نار العصبية متمثلاً فى أكثر من موضع .

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠

(٢) سورة هود الآية ١٨

(٣) سورة غافر الآية ٥٢

(٤) سورة الأعراف الآية ٤٤

(٥) سورة هود الآية ١١٢

رأيناه بعد الفتح حينما استغلت خزاعة قربها من رسول الله ﷺ فقتلت رجلا من هذيل لثأر بينهم فى الجاهلية فقال ﷺ وهو فى حالة من الغضب الشديد لهذا الفعل : **وإن أعتى الناس على الله عز وجل ثلاثة : رجل قتل فى مكة ، ورجل قتل غير قاتله ، ورجل طالب بثأر فى الجاهلية ، وإنى والله لأدى هذا الرجل الذى قتلتم"** فوداه رسول الله ﷺ

ورأيناه فى حجـــة الوداع وهو ﷺ يضع تحت قدمـــه كل عصبيات الجاهلية وأولها عصبية بنى هاشم .

ونرى العدل فى إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حد سواء ، فقد سرقت امرأة من بنى مخزوم وتحركت قريش لستر هذه المرأة ومنع إقامة الحد عليها مخافة العار فكلموا أسامة بن زيد بن حارثة لمكانته من رسول الله ﷺ فغضب ﷺ وقال لأسامة : **أتشفع فى حد من حدود الله ، ثم قام وخطب فقال : أيها الناس إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله !! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .**

وبما أن العدل من مبادئ الإسلام العظمى ورسول الله ﷺ هو أول العاملين بها ، كان الله تعالى يصوبه إذا أخطأ فى حكم أخذ فيه بظاهر دعوة الناس ، ونضرب مثلاً على هذا وهو تبرئة اليهودى الذى اتهم بالسرقة بدون وجه حق ... وبما أن رسول الله لا يعلم الغيب فقد وافق المدعين على قولهم ، فأنزل الله من عنده التقويم والحكم العدل فقال سبحانه وتعالى يخاطب رسول الله ﷺ ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴾[1]

٢) تحقيق القيم النبيلة :

إن غرس القيم من أساسيات التكوين والتنشئة لأنها مرتبطة بالنفس الإنسانية مع

(١) سورة النساء الآيات من ١٠٥ إلى ١٠٧

ما فيها من تنوع ونزوع إلى الشهوة والهوى .

وكان القرآن الكريم يربى المجتمع المسلم ويحاول وضعه فى إطاره الإيمانى الصحيح

إن القمة التى كان المنهج القرآنى ينقل خطى هذه الأمة لتبليغها هى قمة التجرد لله ، والخلوص لدينه ، وقمة المفاصلة على أساس العقيدة مع كل أواصر القربى وكل لذائذ الحياة وهى قمة النبل ، والخلق ، والحياة .

وقد اهتم رسول الله ﷺ بغرس القيم عند أصحابه قبل الحاجة إليها لأن وجود الدواء حين وجود الداء أنجع فقد خاف المسلمون من الفقر نتيجة فتح مكة ونتيجة منع المشركين من المجئ إلى مكة بعد البراءة منهم ، وأن المواسم التجارية ستنقطع فنبههم القرآن الكريم ورباهم على أن الرزق بيد الله الخالق لا بيد خلقه يقول الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(١) وقد ساعدهم يقينهم بقدرة الله وعلمه وحكمته على طرد ما اعتراهم من خوف قبل نزول الآية .

ولما أعجب المسلمون بكثرتهم فى غزوة حنين حينما صاروا اثنى عشر ألف رجل ، وقالوا معجبين بكثرتهم : لن نغلب اليوم من قلة ، وذلك نسيان لقيمة الإيمان والإخلاص لله فكان أن انهزموا يقول الله تعالى ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢) فعادوا إلى إيمانهم ، وتابوا عن تصوراتهم فنصرهم الله تعالى .

ورسول الله ﷺ لم يكن ليتخلى عن الله ناصره وكافله ، فهو يعلم المسلمين أنه عبد

---

(١) سورة التوبة الآية ٢٨

(٢) سورة التوبة الآيات من ٢٥ إلى ٢٧

من عبيد الله ولا حول له ولا قوة إلا بالله ، ولا يستمد قوته إلا من الله ، ومع هذا يثبت ولا يفر ، ويصمد ولا يتخاذل ، فكان يدعو ربه بدعائه الخاشع قائلاً : **اللهم بك أحاول وبك أصاول ، وبك أقاتل** " .

وهكذا يكون الموقف سبباً لتقويم الانحراف الذى يظهر فى وسط المجتمع .

ولما أحب المسلمون القعود عن الخروج إلى تبوك ، أحبوا القعود فى وقت يطلب فيه السكون والدعة ، فالثمار قد حان قطافها ، والأشجار الوارفة تمد المستظلين بها بنسماتها الساحرة كل هذا كان يدعو للقعود ، ولا يدعو إلى الأسفار المرهقة ، وقطع الصحارى والفيافى الحارقة المهلكة ، ومع هذا يعلن رسول الله ﷺ للمسلمين الخروج رغم كل ذلك ، فيجتمع له فى حدود ثلاثين ألف مقاتل ، ليكون أكبر جيش يقوده رسول الله ﷺ .

وحينما نشاهد الذين تخلفوا عن هذا الجيش لأنهم إما جماعة حبسهم العذر فلم يجدوا ما يحملهم ، وإما منافق قد كشف عن نفاقه أو قدم عذره فقبل ، أو مسلم صادق لم يقدم عذراً فتوجهوا إلى الله تائبين فتاب عليهم ونزل قول الله تعالى ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] .

٣) تعود الصبر والتحمل :

من أهم خصائص المسلم الصبر الذى هو زاد الطريق فى الدعوة ، إنه طريق طويل شاق ، حافل بالعقبات والأشواك ، مفروش بالصد والرد ، وبالإيذاء والابتلاء .

والصبر أنواع كثيرة :

---

(١) سورة التوبة الآيتان ١١٧ ، ١١٨

الصبر على شهوات النفس ورغائبها وأطماعها ومطامحها ، وضعفها ونقصها .

والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم ، وانحراف طباعهم وأثرتهم وغرورهم .

والصبر على جرأة الباطل ، ووقاحة الطغيان وتصعير الغرور والخيلاء .

والصبر على قلة الناصر وضعف المعين ، وطول الطريق ، ووساوس الشيطان فى ساعة الكرب والضيق .

ولا شك أن رسول الله ﷺ نبى هذه الأمة هو أول من يمثل هذا الصبر بمعانيه هذه كلها ، وكل خطوة من خطواته تمثل هذا الصبر تمثيلاً صادقاً .

لقد عاش رسول الله ﷺ الصبر كله فى هذه المرحلة التى كون فيه الأمة فهناك صبر على جفاء الأعراب وطمعهم فى الأموال ، وحرصهم على المكاسب ، فكان يعاملهم على قدر عقولهم فكان بهم رحيما ، ولهم مربيا ومصلحا وقد عنفهم الله سبحانه على جفائهم فى قوله ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] .

ومع هذا حاول رسول الله ﷺ أن يرتفع بهم ويخرجهم من طباعهم هذه إلا أنهم ما استفادوا كثيراً من هذه المواقف .

وهناك الصبر على إيذاء النفوس الملتوية حيث قال أحد المنافقين عند تقسيم غنائم يوم حنين : والله إن هذه القسمة ما عدل فيها ، وما أريد فيها وجه الله ، فلم يزد ﷺ أن تغير وجهه وقال : **فمن يعدل إن لم يعدل رسول الله ... يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر "**

وهناك الصبر فى ميدان المعركة أمام استعلاء الباطل ، فقد تراجع المسلمون فى أحد وحنين ولم يتراجع رسول الله ﷺ وهو بموقفه هذا استطاع أن يجمع المسلمين مرة أخرى ويحقق لهم النصر .

---

(١) سورة التوبة الآيتان ٩٧ ، ٩٨

وهناك صبر مع المسلمين الذين تراجعوا فى المعركة فلم يعنف ، و لم يعاقب أحداً ممن فر عنه حتى حينما طالبه بعض المسلمين بأن يقتل الفارين لم يستجب لهذا المطلب لأنه ﷺ كان يربى أمة ، وينشئ جماعة ولذلك اكتفى بما يبنى ، وبما يفيد .. وليس هو العقوبة فى هذا التوقيت من الزمان .

٤) تحقيق التكافل بين الناس :

وعلى الرغم من أن الإنفاق والعطـــاء معلم بارز فى الشخصية المسلمة ، لأنه يتكرر كثيراً فى القرآن الكريم كله وهو يدعو إلى الانفاق ، ويجعله جزءاً من المتطلبات التى لا تنفك عن المسلم ، ويجعل الزكاة – وهى العطاء الواجب – ركناً من أركان الإسلام ، فلا إسلام إلا به .

على الرغم من هذا كله فإن رسول الله ﷺ كان يمرن الأمة المسلمة باختبارات عديدة لتعميق هذه القيمة العالية ، قيمة الإنفاق والعطاء دون مقابل عاجل حيث جعلها إقراضاً لله يوفيه لصاحبه يوم القيامة .

وكان رسول الله ﷺ يتعوذ فى أكثر أوقاته من البخل ، ويطلب من المسلمين أن يجعلوا هذا التعوذ فى وردهم الصباحى والمسائى .

وكان حينما تأتيه أموال الغنائم ينفق يميناً وشمالاً ، إنفاق من لا يخشى الفقر ، ويرى المسلمون منه هذا السلوك .

وكان يعطى للناس ، يتألف به قلوبهم ، فيجذبهم إلى الإسلام من خلال عطائه ، حتى أن أحدهم يكون مبغضاً للإسلام ولرسول الله قبل العطاء ، فما أن يجد السخاء يجرى بين يدى رسول الله ﷺ حتى تنتفخ كوة من قلبه على الإيمان ، فيقبل إقبالاً صادقاً ويحسن إسلامه .

ومع هذا فهو ﷺ يترك أقواماً ولا يعطيهم ، يكلهم إلى إيمانهم وتقواهم ، لأنه يريد أن يربى هذه النفوس على الارتفاع عن هذه المظاهر المادية الزائلة فقال ﷺ : **فو الله إنى لأعطى الرجل ، وأدع أحب إلى من الذى أعطى ، ولكنى أعطى أقواماً لما أرى فى قلوبهم من الجزع والهلع ، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير .**

وبعد حنين ، وبعد أن قسم رسول الله ﷺ الغنائم بين المسلمين ، جاءته هوازن مسلمة ، فأراد أن يرجع إليهم ما أخذ منهم من الغنائم التى قد وزعها بين المسلمين ،

وفى الوقت ذاته أراد أن يغرس فى نفوس المسلمين التخلى عن منحهم الدنيوية بطواعية ليربى فيهم حب العطاء والسخاء ، فبدأ ﷺ بنفسه وبأهله ، فقال وهو يخطب فى الناس: **أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم** ، فتسارع القوم من المهاجرين والأنصار يتنازلون عن رغبة صادقة بما هو لهم ... إلخ .

فكان عمله ﷺ هذا مثالاً للتربية العملية التى جعلت الناس يتسابقون إلى العطاء دون تعلق بعرض من الدنيا زائل ، ومن لم يستحب من الأعراب استوهبهم رسول الله ﷺ على عوض سيعوضهم به .

وكان رسول الله ﷺ يتتبع مآرب النفس الإنسانية ويقودها إلى الخير ، فلما بلغه رغبة بعض الأنصار أن يكون لهم مثل ما أخذه المؤلفة قلوبهم من العطاء بعد الغنائم ، لم يستجب لهذه الرغبة وإنما عمل على تطهير نفوس الأنصار من هذه العلائق ، فجمعهم وخطب فيهم ، وبعد أن استثار فيهم كوامن نفوسهم قال لهم : **إن قريشاً حديث عهد بجاهلية ومصيبة ، وإنى أردت أن أجبرهم وأتألفهم أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ، لو سكلت الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار** .

ولقد وجدنا أثر هذه التربية فى وسط المسلمين فى مواقف عديدة ، ويكفى هنا أن نشير إلى ما حصل قبل غزوة تبوك لأنه يمثل ظاهرة حسنة هى ظاهرة الإنفاق والعطاء التى لم تكن مفروضة على الناس من قبل وإنما كان حثاً للجميع أن يقدموا بين يدى رسول الله ما تجود به أنفسهم لتجهيز الجيش الخارج لملاقاة الروم فى تبوك وقد اكتملت جوانب الظاهرة هذه بأن الذين تقدموا للإنفاق ليسوا الأغنياء فقط الذين دفعوا ما جهز به الجيش ، وإنما أقبل الفقراء والنساء فدفعوا ما يمتلكون حتى أن الواحد منهم كان يأتى بنصف صاع من طعام ، فهذا ما يمتلكه فيدفعه إلى جسم هذا العطاء الضخم ، ومن ليس لديه أى شئ ينفقه يقوم من الليل باكياً ثم يقول : **اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ، ورغبت فيه ، ثم لم تجعل ما أتقوى به مع رسولك ، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها مال أو جسد أو عرض** وقد علم رسول الله ﷺ عن طريق الوحى بهذه الصدقة ، فأعلم صاحبها بأنها قد قبلت

فى الزكاة المتقبلة .

وهكذا تجهز جيش بأكلمه بالجهود الفردية التى تحولت إلى بحر زاخر من العطاء إن هذا الجهد المبذول أخرج خير أمة فى عالم الناس ولذلك انتصر الإسلام بهم ، ووصلت الدعوة معهم إلى كل مكان وصلوا إليه .

إن التطابق بين الإسلام والمسلمين فى العصر الأول جعل المسلمين جميعاً دعاة ، الأمر الذى أدى إلى انتشار الإسلام فى العالم كله برؤية الصورة الإسلامية خلال حركة الفتوح ، لأن الإسلام كان ظاهراً مع الجنود ، والتجار ، والقراء ، بكل ما فيه من سمو وخلق .

إن التطابق بين الإسلام وعمل المسلمين يساعد على تنشئة الأجيال المسلمة ، لأن الطفل المسلم يرى الإسلام من أبويه كما يراه فى الطريق وفى المدرسة ومع الزملاء ومع كل من يختلط بهم ، وبهذا يفهم المسلم الإسلام ويطبقه ويؤدى هذا التطابق إلى وحدة الأمة لأن كل فرد فيها يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ويؤدى هذا التطابق إلى جمال الإسلام فى كل تعاليمه لأن الالتزام العام بالإسلام يصبغ المجتمع به ، الأمر الذى يجعل الناس متآلفين معه راضين به ، سعداء بتطبيقه .

ويؤدى هذا التطابق إلى إعلام الآخرين بحقيقة الإسلام من خلال التطبيق ... وحين ينطلق الدعاة إلى هؤلاء الآخرين يجدون الأرض ممهدة للدعوة ، والقلوب مستعدة للاستجابة والإيمان .

إن التناقض بين الاعتقاد والسلوك لا يقره الإسلام ولا يرضى به المسلم ، ولذلك يعاتب الله المؤمنين إذا حدث هذا الانفصام فى حياتهم يقول الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [1] إن هذا الانفصام سبب يؤدى إلى الضياع والهلاك وقد حدث ذلك فى الأمم السابقة يقول الله تعالى ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ

---

(١) سورة الصف الآيتان ٢ ، ٣ .

دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١)

وحين ننظر إلى العالم الإسلامى اليوم من زاوية التطابق بين الإسلام وعمل الناس ندرك أسباب تخلف الأمة وأسباب انصراف الناس عن الإسلام ، ونعرف سبب العجز عن توجيه الدعوة إلى الآخرين بصورة حسنة مقبولة .

إن التنافر الحاصل بين تعاليم الإسلام وبين سلوك الناس يسئ إلى الناس **أولاً** لأنهم يتحركون بلا هوية ، ويعيشون بلا فكر ، ولا أصول ... ولذلك تراهم يشكلون حياتهم من عادات الآخرين وسلوكهم ، بعيداً عن دينهم ، مكتفين بالمظهر الفارغ فلا هم جزء من الآخرين ، ولا هم جزء مفيد فى جماعة المسلمين ... ويسئ **ثانيا** إلى الدعوة لأن الآخرين سيقولون : لو كان الإسلام خيراً لفعله أصحابه ، ولو كان صواباً لتمسك به بنوه ... بل رأيناهم يتهمون الإسلام ويقولون : إن تخلف المسلمين نتيجة مباشرة لتعاليم دينهم ... وهى تهمة باطلة لغياب تطبيق الإسلام عن حياة المسلمين .

إن التناقض بين الإسلام وعمل المسلمين يؤدى بالمسلمين إلى التخلف لأنهم بإعلان أنهم مسلمون ولا إسلام فيهم خاصموا غير المسلمين باتخاذهم نهجاً وطريقاً خاصاً بهم ، وبتركهم الإسلام صاروا زبداً أجوف لا يسمن ولا يغنى من جوع وبخاصة فى عالم تعددت فيه الثقافات والحضارات .

إن العالم المعاصر يتميز بتعدد التكتلات ، وتنوع التوجيهات وكل منها يتفاعل مع غيره ، فلديه ما يعطيه ، وعنده قابلية الاستفادة من غيره فى إطار ثقافته وتوجهه .

وهذا التفاعل ضرورة لمسيرة الحياة ...ولابد لها من فكر نبيل تسنده قوة عادلة... ولابد له من واقع يعطى ويأخذ ، ويفيد ويستفيد .

والمرء يتساءل بكل تجرد ... **ماذا عند المسلمين اليوم ليجذب الآخرين إليهم ؟**

لقد فرط المسلمون فى كنوزهم ، وأهملوا روح السبق والتنافس ، وظهروا بأفكار ليست هى واقعهم وحياتهم ... وبذلك أساءوا إلى نبل الأفكار ... ووضعهم الناس

---

(١) سورة المائدة الآيتان ٧٨ ، ٧٩

فى مؤخرة الصفوف ، وتصوروهم جزءاً من عالم الظلام .

لقد بنى النبى ﷺ أمة ، وأنشأ قوة ، وأوجد للمسلمين حياة بعد هوان ، وأعماله وتوجيهاته ﷺ دروس واضحة فى هذا الطريق لمن يريد .

لو أردنا للدعوة أن تنجح ، وأردنا لأنفسنا أن نتقدم فالطريق واضح ، وهو ضرورة التزام المسلم بإسلامه بصورة مطلقة ، وعودة الأمة إلى الله عودة جميلة حميدة وحينئذ سوف يفرح المؤمنون بنصر الله ، والله على كل شئ قدير .

ـ المبحث الرابع ـ
ضرورة الفصل التام بين الإسلام وغيره

نشأت الأمة الإسلامية وسط عالم مليئ بالمذاهب والعقائد ، والاتجاهات المختلفة وكان تميزها عن كل ما عداها أمراً ظاهراً بارزاً .

وحرص النبى ﷺ على استقلالية الأمة بوحى الله تعالى ، ولم يدخل فى نظام الأمة شيئاً من عند غيرها ، وفصل كل ما هو إسلامى عن غيره .

والحكمة فى هذا أن الأخذ من الغير لا يصح إلا حين الحاجة إليه ، وحين يكون متلائماً مع ثوابت الأمة وقيمها ... فلقد أخذ النبى ﷺ من الفرس فكرة حفر الخندق وأخذ من سياسات الفرس والروم فبعث الرسل ، واستقبل الوفود ، وأرسل الكتب ... أما فى الجوانب التى تسئ لدين الله تعالى فهو ﷺ منها برئ .

لقد حاولها أهل مكة ورفضها ﷺ يقول الله تعالى ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[(١)]

فلو داهنهم ﷺ بأن عبد إلههم يوماً ، وعبدوا معه إلهه يوماً لضل وغوى ، وبعد عن دين الله بالكلية ، ولكنه ﷺ أبى ذلك ورفضه بأمر من الله تعالى .

إن الكفر صور شتى ، وحيل الكافرين عديدة وهم يعملون على القضاء على الإسلام والمسلمين ، وقد يئسوا من كفر المسلمين صراحة ، ولذلك خططوا لإبعاد المسلمين عن دينهم جزءاً جزءاً لإفراغ الإسلام من محتواه ، وبذلك يتحول دين الله إلى جسد ميت لا روح فيه ولا حراك .

إن الإسلام عقيدة وشريعة وخلق ، يكمل بعضها بعضاً ، وتتعاون جميعاً فى تقديم الحقيقة الثابتة للإسلام ، لأن التفريط فى جزء منها يعد تفريطاً فى الإسلام كله .

إن العقيدة تعنى امتلاء الباطن بحب الله ، والخشوع له ، والتوجه الكلى نحو الخالق فى كل همسة ولمسه ، وفى كل فكرة وخاطرة ، ومع كل اتجاه وسلوك ، وبذلك يعيش المسلم مؤمناً بقدر الله مستسلماً لأوامره ، متوكلاً عليه ، راضياً بما يراه الله له لأنه يوقن بأن ما قدره الله سوف يكون .

---

(١) سورة القلم الآية ٩

والشريعة تعنى الامتثال المطلق لتعاليم الله تعالى ، المنظمة لكل حركة فى الوجود وقصر نية التوجه فى الفكر والقول والعمل لله تعالى .

والخلق هو مجموعة القيم التى تزين الإنسان ظاهراً وباطناً ، وتملأ الوجود بالخير والجمال .

إن الإسلام بهذا المعنى كاف للناس ظاهراً وباطناً ، فكراً وعملاً ، نشاطاً وخلقاً.

إن الإقرار بالتوحيد لابد معه من الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا الكون وهو المتصرف فيه ، وهو الذى يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ، ويتقربون إليه سبحانه بنشاط الحياة كله .

إن الله هو الذى أنزل لعباده الشرائع ، وهم يخضعون لحكمه فى شأن حياتهم كله .

وأيما فرد شهد أن لا إله إلا الله وفرط فى لوازمها وتبعاتها ففى شهادته خلل كائناً ما كان اسمه ولقبه ونسبه .

وفى الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين ، وهم من سلالات المسلمين ، وديارهم يسكنها المسلمون ولكنهم لا يدينون لله على الوجه الصحيح ويعيشون الإسلام ثقافة ومظهراً ، ويتركونه حقيقة وعملاً ، وهذا أشق ما تواجهه حركة الدعوة مع هؤلاء الناس ، لأنهم يعدون معها وهم فى الحقيقة عبء عليها .

أشق ما تعانيه الدعوة هو الغبش والغموض واللبس الذى أحاط بمدلول لا إله إلا الله ، ولوازم الإسلام فى جانب ، وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية فى الجانب الآخر

أشق ما تعانيه هذه الدعوة هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين ، وطريق العصاة المجرمين ، واختلاط الشارات والعناوين ، والتباس الأسماء والصفات ، والتيه الذى لا تحدد فيه مفارق الطريق .

ويعرف أعداء الدعوة هذه الثغرة ، فيعكفون عليها توسيعاً وتمييعاً وتلبيساً وتخليطاً حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة ، ويصبح الحكم فى أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم ، لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله .

يجب أن يهتم الدعاة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين .

ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله فى كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة

وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف ، ما داموا مع الحق بأدلته وبراهينه ، ومع الصدق بوضوحه وأعماله ، ومع الله بقرآنه وسنته .

ولهـذا ...

يبقى الإسلام نظاماً فريداً فى إصلاح الحياة والأحياء ، وأى تغيير فيه يفسده بمقدار ما داخله من تغيير .

إن أى تغيير يجريه الإنسان فى أمر ما يكون مفيداً حين يكون فى أمر ثبت فساده أو ظهر قصوره ، أو بان تخلفه ... والإسلام بعيد عن كل ذلك ولهذا كان أى تغيير فيه عبث لا يجوز .

وأعداء الإسلام من الجن والإنس ينشط لإيجاد التغيير الضار الذى يفسد الإنسان ويبعده عن دين الله بحيل شتى ، وطرق عديدة .

يعمل أعداء الإسلام على إشغال باطن الإنسان وفكره بأمور تافهة لا تفيد شيئاً كالحرص المادى ، وتزيين الشهوات ، والاهتمام بما لا فائدة فيه من فوازير ومسابقات وأعياد ، ولقاءات .

ويزينون أمام المسلمين ما يلهيهم عن طاعة الله كزخرفة الشهوات ، وتيسير الفحش ، ونشر ألوان الهوى ، وإشعال الغرائز ، مع التوقف عن إيجاد حلولها الشرعية وينشر الأعداء الخلق السيئ ، ويبرزون القيم النبيلة فى أثواب بالية لصرف الجادين عنها .

ويصل الأمر بالمسلمين إلى جلب الحلول لمشاكل حياتهم من عند غير المسلمين والرضا بغير ما أنزل الله .

وبذلك يبتعد المسلم عن دينه شيئاً فشيئاً ، وتصعب عودته إلى الله تعالى وهذا الأمر يحتاج للتصدى له توقياً منه ، وعلاجاً لخطورته .

ولا يصح التصدى إلا بالبراءة التامة من كل ما يتعارض مع الإسلام ، وتفصيل الإسلام تفصيلاً يؤدى إلى تميز الخبيث من الطيب ، وليظهر الصالح ، ويعرف الفاسد ولتستبين سبيل المجرمين .

إن أخطر ما وقع فيه المسلمون المعاصرون هو اشتراك الإسلام وغيره فى حياتهم حتى تم تشويه كل ثوابتهم ... فهم ينادون بالعفة ويتمسكون بالاختلاط ، يدعون إلى

العبادة والنساء عاريات سافرات ، تملأ المادة قلوبهم ويزعمون الإخلاص لله ... إن المسلمين بذلك مشتتون مذبذبون فلا هم أخلصوا لله ، ولا هم كانوا مع أعدائه ... وهذا فى دين الله لا يفيد .

إن كل نظام له إيجابياته وسلبياته ، ولا يصح أن ننسب إيجابيات نظام لغيره ، ولا نكلف نظاماً ما بعلاج سلبيات غيره ، وفى حالة التشتت الإسلامى هذه نرى عجباً ، لأننا لا يمكننا أن ننسب السلبيات للإسلام وغيره يفعلها !!

ولا يصح أن نطالب الإسلام بالعلاج وغيره فاعل المرض !!

ومنطق العقـــل والنقل تجعل الفاعل مسئولاً عن فعله ، والجريمة يحملها المجرم فـــ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[1] ومعاقبة البرئ ظلم لا يرضاه عقل أو دين .

ومن هنا ...

وجب على المسلمين أن يمحصوا حياتهم ، ويجعلوها خالصة لمنهج الله ، وحينئذ تثمر حياتهم دولة الإسلام بمالها ، وما عليها وتتحمل كل ما يجد فيها من سلبيات ، وتسعد بما يتحقق لها من إيجابيات .

لقد وقع فى دولة الإسلام الأولى بعض الأخطاء من أفراد عصوا الله فى حياتهم فأقيم عليهم الحد ، واقتص منهم ، وأخذت الدية وفق منهج الدولة المسلمة ... ولكن حين ننظر فى العقوبات التى طبقت كما وكيفاً ونقارنها بحياة الناس نشاهد ندرتها وقلتها مما يجعلها طرفاً فى إثبات إيجابية النظام الإسلامى ورفعته .

إن المسلم مطالب حين يلتزم الإسلام بتحقيق ذاته ، والاعتزاز بما التزم به ، والتمسك بكل ما يؤمر به ، والابتعاد عن كل ما ينهى عنه ، وبذلك تبرز إيجابية الإسلام فى حياة الفرد وفى نشاط الجماعة ... الأمر الذى يؤدى إلى مساهمة هذه الإيجابية فى حركة الدعوة إلى الإسلام .

وقد التزم المسلمون مع رسول الله ﷺ بكل ما جاءهم من رسول الله ﷺ وساروا على نمطه بكل دقه ، فكانوا خير الدعاة ، وخير ما ظهر فى أفق الحياة .

---

(١) سورة المدثر الآية ٣٨

إن الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى الأمة المسلمة الصادقة التى تساند الدعاة ، وتؤكد مقالتها بعملها ، وتشهد على صدقهم بنشاطها ، وإيجابياتها .

لقد حدد رسول الله ﷺ سبيل أمته تمييزاً كاملاً ، جعلها بعيدة كل البعد عن سبيل المجرمين ، وأخذ القرآن الكريم يوضح هذا التمايز ويفصله ، وبذلك يعرف الإيمان ويتضح الخير لأن الشئ بضده يتميز ، وأيضاً فإن هذا التوضيح يعد دعوة فى حد ذاته لأنه يبرز ما فى الإسلام من خير وإصلاح ، ويشير إلى ما عند معارضيه من فساد وضرر .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ... والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،

فلقد أوشك الأمل على التحقيق واقتربت بفضل الله تعالى من إصدار هذا الكتاب الذى يختم تاريخ الدعوة والسيرة النبوية فى العهد المدنى ، وينتهى بوفاة رسول الله ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى سبحانه وتعالى .

وقد رجعت إلى العديد من المؤلفات القديمة والحديثة فى السيرة النبوية فوجدتها جميعاً تعود إلى المصادر الأساسية وهى القرآن الكريم ، وكتب السنة ، وسيرة ابن إسحاق والمغازى للواقدى ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، وزاد المعاد لابن القيم ، والشفا للقاضى عياض ، فالتزمت بهذا المسلك فهو خير وأجدى .

وأملى أن يقوم المسلمون بواجبهم إزاء السيرة النبوية ، لأن السيرة فى الحقيقة تقديم الإسلام فى صورته التطبيقية وهو يتعامل مع الفطرة ، ويراعى الواقع ، ويلتقى مع الإنسان ويرتقى به .

إن الأمم العظيمة تكرم رجالها الذين قدموا للأجيال خدمات وفوائد ... وليس هناك فى الأمم من يماثل رسول الله فلقد قدم للإنسانية كلها ديناً يحقق سعادة الناس وينشر الأمن والسلام .

ولسوف يجد العلماء فى سيرة رسول الله ﷺ خير زاد فى أبحاثهم ودراساتهم ، كل فى مجاله ... ولذا وجب على العلماء المسلمين أن يعودوا إلى السيرة يأخذون منها الزاد والدليل ، ويعرفون الدواء لكل داء .

لقد عاش ﷺ أبا حنوناً ، وزوجاً رحيماً ، وأخاً صالحاً وإنساناً مخلصاً ، وقائداً أميناً ... وإماماً هادياً ، وناصحاً صادقاً ، ورسولاً يستقبل الإسلام ويبلغه للناس ... إلى آخر المجالات التى يمكن لإنسان أن يقوم بها أو يكلف بها رسول الله ﷺ .

وهو ﷺ فى كل ما قام به كان مثالاً عالياً ، وقدوة رائدة لكل من يريد التقدم والفلاح .

والأمل أن يهتم كل مسلم بسيرة رسول الله ﷺ ليأخذ منها مناط الأسوة التى يحتاج إليها حيث نشاطه وعمله .

ولسوف يشعر المسلمون بالعزة يوم أن يعيشوا الإسلام كما جاء به رسول الله ﷺ وكما عاشه المسلمون الأوائل .

وقد كان لعلماء العصر الحديث فضل أن قدموا النبى ﷺ فى لقطات متخصصة فمنهم من كتب الجانب النفسى ومنهم من كتب فى الطب النبوى ... ومنهم من كتب فى القيادة المحمدية ... وهكذا حتى أصبح أمر الاستفادة من السيرة سهلاً لمن يريده ... وأصبح عملاً جميلاً لمن يبحث عن السعادة والرضى .

ولا يصح مطلقاً أن نعيش السيرة فكراً ثقافياً نعجب به ، ونعرفه ، ولا نطبقه لأن ذلك إهمال للواجب ، وإساءة لحق رسول الله ﷺ ، وإضاعة لحضارة إسلامية عظيمة قائمة على العلم والعمل ، ومعتمدة على الفكر والسلوك ... ولعل ما فيه المسلمين اليوم يؤكد المحاذير التى أشرت إليها ، فلقد صاروا فى مؤخرة العالم وغدوا عالة عليه من ساعة إهمالهم لتطبيقات السيرة ، وابتعادهم عن العمل بالإسلام .

والأمر فى هذا الشأن بدهى كله لأن المسلم حين يبتعد عن الإسلام يعمل بلا هوية ، ولا يعرف لنفسه غاية ، وتتكاثر أمامه الطرق ... وحينئذ يتحرك بعشوائية ، ويرضى بأى غاية ، ويضل بين المسالك والسبل ... الأمر الذى يسهل لأعداء الإسلام وأعداء الله اللعب به ، وإضعافه ، وإبعاده عن الغايات الإسلامية العظيمة .

إن محاولتى فى الكتابة عن السيرة ليست ترفاً ، وليست تقليداً ... وإنما هو أمل أرجو من ورائه إحياء الروح الإسلامية فى الإنسان ليتحرك نحو الله ، ملتزماً بمنهج رسول الله ﷺ حتى تخرج الأمة من التيه ، وتنقذ نفسها من المستنقع الذى وضعت نفسها فيه ... وتبدأ من جديد حياة المجد والكرامة التى جاء رسول الله ﷺ لتحقيقها فى عالم الحياة .

إن الإنسان المسلم مسئول عن إسلامه وعن رسوله ﷺ وسوف يجد كل نفسه أمام سؤال لابد منه فلا تنفع فيه الحيل، ولا يصح معــه الكذب أو السكوت ، وهذا

السؤال هو :

من هو الرجل الذى بعث فيكم ؟

وماذا تقول فيه ؟

وهل كنت تابعاً له أم معارضاً له ؟

وهل عشت الإسلام عملاً أم طرحته وراءك ؟

وبعد السؤال يكون الجزاء ، وهو إما إلى الجنة وإما إلى النار .

لم ينتفع الإنسان فى هذا الوقت إلا بعمله ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ (١)

الأمر خطير ، والمسئولية عظيمة ، والطريق معروف ، وهو ما حاولت أن أبرز شيئاً منه فيما كتبت ، وحذرت من مغبة الكسل ، والإهمال .

أسأل الله تعالى أن يفتح القلوب والعقول ، وييسر العمل والتطبيق ، ويحقق الفوز والفلاح ... وأن يجعل عملى هذا خالصاً متقبلاً لأستفيد به فى ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٢)

والحمد لله رب العالمين

المؤلف ،

---

(١) سورة عبس الآيات من ٣٤ إلى ٤٢

(٢) سورة الشعراء الآيتان ٨٨ ، ٨٩

فهرس الموضوعات

الفصل الثانى

حركة الرسول ﷺ بالدعوة فى المدينة المنورة

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،